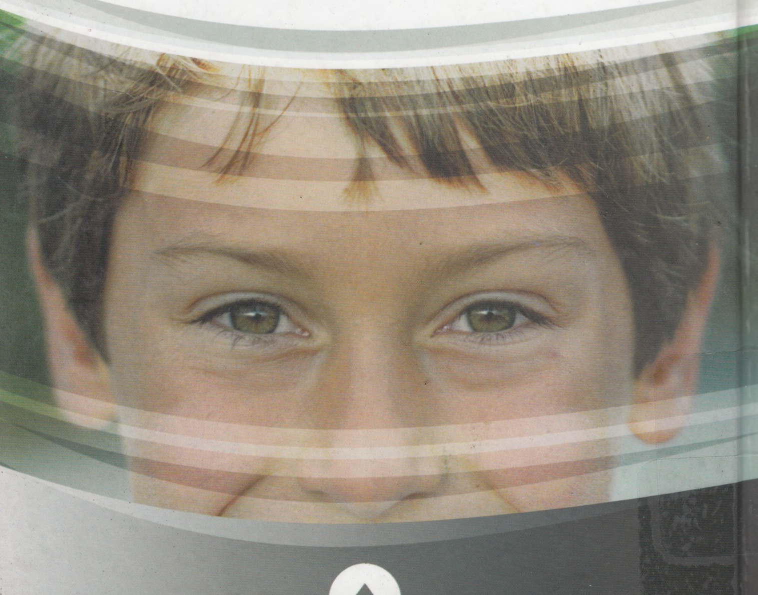
أصــول
علم النفس الحديث

دكتور فرج عبد القادر طه



مكتبة الأنجلو المصرية


أصول علم النفس الحديث

أصول علم النفس الحديث

تأليف

دكتور/ فرج عبد القادر طه

أستاذ علم النفس

بكلية الآداب - جامعة عين شمس

عضو مجلس إدارة الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقي (IAAP)

(١٩٨٤ - ١٩٩٤)

خبير علم النفس بمجمع اللغة العربية

عضو المجمع العلمي المصري

الطبعة الثامنة

[معدلة ومحدثة]



مكتبة الأنجلو المصرية

بطاقة فهرسة

فهرسـة أثنـاء النشـر إعداد الهيئـة المصريـة العامـة لدار الكتـب والوثائـق القوميـة ، إدارة الشئـون الفنيـة .

طه , فرج عبد القادر.

أصول علم النفس الحديث , تأليـف : فرج عبد القادرطه

القـاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠١٠.

٥٦٠ ص ، ١٧× ٢٤ سـم

١- علم نفس

٢- علم النفس الشخصانى

أ- العنوان

رقـم الإيداع : ١٣٧٧٣ ــــ / ٢٠١٠

ردمـــك :٨-٧٦٧٣-٠٥-٩٧٧ تصنيف ديوى : ١٥٠

المطبعـة : مطبعة محمد عبد الكريم حسان

الناشر : مكتبـة الانجلـو المصريـة

١٦٥ شارع محمد فريد

القـاهرة ـ جمهوريـة مصر العربيـة

ت : ٢٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٢٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com
Website : www.anglo-egyptian.com

الإهداء:

إلى أبي،

عبد القادر طه، رحمه الله،

أول من علّمني،

وأخلص من صادقني،

وأعز من صاحبني.

فرج عبد القادر طه

كتب للمــؤلـف

١ – موسوعة علم النفس والتحليل النفسي (إشراف): الطبعة الأولى لدار سعاد الصباح، القاهرة–الكويت عام ١٩٩٣، والرابعة لمكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٩.

٢ – علم النفس الصناعي والإداري، الطبعة الأولى لمكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، ٢٠٠٨.

٣ – قراءات في علم النفس الصناعي والإداري، الطبعة الأولى لمكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، عام ٢٠١٠.

٤ – علم النفس الصناعي والتنظيمي: الطبعة الأولى عام ١٩٨٠ لدار المعارف بالقاهرة، والعاشرة لدار قباء بالقاهرة عام ٢٠٠٣.

٥ – قراءات في علم النفس الصناعي والتنظيمي (إشراف): الطبعة الرابعة لدار المعارف بمصر عام ١٩٩٤.

٦ – أصول علم النفس الحديث: الطبعة الأولى لدار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٩، والطبعة الخامسة لدار قباء بالقاهرة عام ٢٠٠٣. والطبعة السابعة لدار الزهراء بالرياض عام ٢٠٠٦.

٧ – علم النفس وقضايا العصر: الطبعة الأولى لدار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧٩، والطبعة الرابعة لدار النهضة العربية ببيروت عام ١٩٨٦ والطبعة الثامنة لمكتبة بدارى بمصر عام ٢٠٠٥.

٨ – سيكولوچية الشخصية المُعَوِّقَة للإنتاج، مكتبة الخانجي بالقاهرة عام١٩٨٠.

٩ – سيكولوچية الحوادث وإصابات العمل: مكتبة الخانجي بالقاهرة عام١٩٧٩.

١٠ – التورط في المخدرات–دراسة نفسية اجتماعية في مصر (مشرف مشارك): مكتب الأمم المتحدة في فيينا لشئون التنمية الاجتماعية والشئون الإنسانية، ومركز أبحاث مكافحة الجريمة بوزارة الداخلية السعودية،١٩٩٠.

تقديم الكتاب

كانت -ولازالت- أمنية غالية علىَّ أن يوفقنى الله إلى تقديم كتاب إلى مكتبتنا العربية، أعرض فيه الأصول العامة، والمبادئ الأساسية لعلم النفس فى صورته الحديثة. مع الإشارة إلى إسهامات علماء النفس العرب ومتخصصيه من أساتذتنا وزملائنا؛ توثيقاً لها وإبرازاً، واعترافاً بفضلهم وتقديراً.

ولما كنت أقدم هذا الكتاب للمتخصص المبتدئ فى دراسة علم النفس، وللمثقف العام معًا؛ فقد راعيت -جهد الطاقة ووسع الإمكان- عرض مادته العلمية عرضاً مبسطاً يُسَهِّل فهمها، وينأى بها عن تعقيدات المتخصصين ولغتهم التى تصعب -أحياناً- على فهم المبتدئين، أو عامة المثقفين؛ فتنفرهم من المضىّ فى القراءة، أو تحوِّلهم عن التماس التخصص.. لقد كان العرض المبسط الشيق للمادة العلمية الجادة أهم ما امتاز به أستاذاى؛ الدكتور مصطفى زيور فيما كتب أو حاضر أو أذاع، والدكتور أحمد عزت راجح على نحو كتابه الرائع فى أصول علم النفس. ساعد أستاذاى فى هذا علمهما الواسع الدقيق، ووضوح فكرهما واتساقه، وتمكنهما من اللغة العربية السليمة، وأسلوبها اللغوى السلس والممتع؛ حتى أصبحت مؤلفاتهما قطعًا أدبية يزهو بها علم النفس فى العالم العربى. لقد حببًا إلى تلاميذهما أسلوبهما فى الكتابة؛ فهل ينجح بعضهم فى السير على دربهما؟؟!!

أما خطتى فى هذا الكتاب فقد تبلورت حول النظر إلى علم النفس بوصفه علمًا بالسلوك فى أوسع معنى له، وعلمًا بالشخصية التى يصدر عنها السلوك فى خصوصياتها ومحركاتها. وهكذا، اتخذت من الباب الأول مدخلاً وتمهيداً لعلم النفس بوصفه علماً؛ كما اتخذت من الباب الثانى مجالاً لعرض أهم ما يؤثر فى السلوك من عوامل، ويكمن وراءه من علل؛ وتابعت فى الباب الثالث نفس الهدف مع التركيز على شخصية الفرد وما يتهددها من أمراض نفسية أو اضطرابات أو انحرافات. أما الباب الرابع فكان بمثابة ختام

للكتاب، أوضحت فيه دور كل من الوراثة والبيئة فى طبع شخصية الفرد بطابع خاص يميزه عن غيره من الناس، وكيف يمكن لنا التأثير فيها. كل هذا دون تعصب مقيت لاتجاه علمى معين يضيّق الأفق، ويغلق العقل؛ بل بأمانة ونزاهة وموضوعية أخذت نفسى بها، وتجاوبت مع ميولى وقناعاتى. فلئن وفقت إلى بعض ما تمنيت وقصدت؛ فبعون من الله واستئثار بفضله؛ وإلا فحسبى أنى حاولت ما وسعتنى الطاقة المحدودة، وقادتنى النية المخلصة.

والله أسأل التوفيق،

فرج عبد القادر طه

مصر الجديدة في

١٦ أبريل عام ١٩٨٩

تقديم الطبعة الثامنة

ترجع أصول هذا الكتاب إلى الطبعات السابقة من كتابنا «أصول علم النفس الحديث» منذ بدأت دار المعارف بمصر -مشكورة- نشره فى عام ١٩٨٩ بالقاهرة حتى انتهاء طبعته السابعة التى نشرتها -مشكورة- دار الزهراء بالرياض عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٦م).

وفى هذه الطبعة التى بين أيدينا الآن قمنا بتصويبات وتعديلات رأينا ضرورتها، وتحديثات فى مادته العلمية رأينا من الأفضل إضافتها. كل ذلك مع الإبقاء على جوهر الكتاب، وهدفه، ومنهجه دون تعديل. مع تركيز على جهود العلماء العرب وباحثيهم ومفكريهم؛ فقد نالهم من التجاهل الشيء الكثير.

ولعلها فرصة مناسبة لتوجيه شكرنا الخالص لقراء الكتاب الذين كان لهم الفضل الأول بعد الله فى تعدد طبعاته فى هذه المدة الوجيزة، وأيضاً للصحافة الثقافية والعلمية فى وطننا العربى التى استقبلت طبعات الكتاب بحماس كبير، وتعرضت فى صفحاتها لما يحتوى عليه من مادة علمية بالإشادة والتقدير؛ على نحو ما عرضنا من مقتطفات لذلك فى نهايات الكتاب. وأخص بالذكر هنا جريدة الأهرام القاهرية، وجريدة الأنوار البيروتية، ومجلة الثقافة النفسية المتخصصة اللبنانية، وجريدة أخبار الأدب القاهرية.

كما أوجه الشكر أيضاً للأستاذة ابتسام عسر وأخيها الأستاذ سامى عسر اللذين بذلا جهداً كبيراً فى تجميع بروفات الكتاب ومراجعاتها، وتصويبات الأخطاء الطباعية فيها.

ولئن بدا الكتاب فى شكل لائق فإن الشكر الواجب لابد وأن يوجه إلى أصحاب مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة والمسئولين عنها، وكل من تعاون معهم فى إعداد الكتاب، وإخراجه فى هذه الصورة اللائقة.

والله الموفق،،

فرج عبد القادر طه

القاهرة (المقطم)

٦/٥/٢٠١٠

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
تقديم الكتاب	٩
تقديم الطبعة الثامنة	١١
الباب الأول: تمهيد في مدخل	١٧ – ١٢٠
الفصل الأول : حول النفس وعلم النفس :	٢١ – ٣٥
تعريف النفس- تعريف علم النفس- أهداف علم النفس : الفهم والتفسير، الضبط والتحكم، التنبؤ بالظاهرة- العلاقة بين أهداف العلم- معيار تقدم العلم	
الفصل الثاني : فروع علم النفس ومدارسه ولمحة تاريخية:	٣٧ – ٨٥
أولاً : الفروع النظرية : علم النفس العام - علم النفس الارتقائي - علم النفس الفارقي - علم النفس الاجتماعي - علم النفس عبر الثقافي - علم النفس المرضي - علم النفس الفسيولوجي	
ثانيًا : الفروع التطبيقية : علم النفس التربوي - علم النفس العسكري - علم النفس الصناعي والتنظيمي - علم النفس الإداري - علم النفس الصناعي والإداري - علم النفس السياسي - علم النفس الجنائي - علم النفس الإكلينيكي - علم النفس الإرشادي - التحليل النفسي - علم النفس العائلي - علم النفس الرياضي - علم النفس الصيدلي - علم النفس البيئي - ملاحظات عامة حول فروع العلم.	
مدارس علم النفس : مدرسة التحليل النفسي- المدرسة السلوكية- مدرسة الجشتلط- مدرسة علم النفس الإنساني- علم النفس الإيجابي	
لمحة تاريخية- العالم العربي وعلم النفس -مصر وعلم النفس	

الفصل الثالث : منهج البحث في علم النفس : .... ٨٧ – ١٢٠

المعرفة الدارجة والمعرفة العلمية- المقصود بالمنهج العلمى- خطوات المنهج العلمى- مناهج البحث : منهج الاستبطان- منهج الملاحظة - منهج التجريب- المنهج الإكلينكى- خاتمة عن مناهج البحث فى علم النفس

الباب الثانى: عوامل السلوك ومحدداته .... ١٢١ – ٣١٩

الفصل الرابع : الجهاز العصبي : .... ١٢٥ – ١٥١

الخلية العصبية- الجهاز العصبى المركزى- الجهاز العصبى الطرفى- الدماغ أو المخ- النصفان الكرويان- جذع المخ-المخيخ-الحبل الشوكى- الأعصاب الدماغية- الأعصاب النخاعية الشوكية- الجهاز العصبى الذاتى- الهيبوثلاموس- الغدد الصماء

الفصل الخامس : الدوافع وحيل التوافق .... ١٥٣ – ١٨٦

الدافع- الحاجة- الإشباع- الباعث- الحافز-التوتر-المثير (أو المنبه)- الموقف- الاستجابة- التوافق

تصنيف الدوافع حسب مصدرها : – الدوافع الفطرية أو (الغرائز)- والدوافع المكتسبة [الاتجاه النفسى- الميل- العاطفة- التعصب- العادة- مستوى الطموح]

تصنيف الدوافع حسب الوعي بها: دوافع شعورية ودوافع لاشعورية- التدرج الهرمى للدوافع - الإحباط وحيل التوافق: - القمع- الكبت- النقل- التسامى- الإسقاط- التوحد- التحول- التكوين العسكى- التبرير- النكوص- الاستدماج- الأحلام- التعويض

ملاحظات عامة علي حيل التوافق

الفصل السادس : الذكاء والقدرات الخاصة : .... ١٨٧ – ٢٤٢

القدرة- الاستعداد- الذكاء- تقنين اختبارات الذكاء والقدرات والاستعدادات الخاصة- حساب نسبة الذكاء للفرد- تصنيف مستويات الذكاء-

القدرات أو (الاستعدادات الخاصة)- الذكاء الوجدانى- الذكاء الاجتماعى- القدرة اللفظية- القدرة العددية- القدرة المكانية- القدرات الفنية- القدرة الإبداعية- الذاكرة- القدرات الحسية- المهارات الحركية- القدرات العقلية والمرض النفسى- الفروق بين الجنسين فى الذكاء والقدرات الخاصة- الذكاء والقدرات الخاصة والتحصيل الدراسى- الذكاء والقدرات الخاصة والتحصيل الدراسى- الذكاء والقدرات الخاصة والنجاح المهنى- الذكاء والقدرات الخاصة والتوافق الاجتماعى- الذكاء العام أو الذكاء المصطنع

ملاحظات عامة حول الذكاء والقدرات والاستعدادات الخاصة

الفصل السابع : الإدراك الحسي والتعلم والتذكر والتفكير .... ٢٤٣ – ٣١٩

الإحساس- الانتباه- عوامل الانتباه- الإدراك الحسى-عوامل الإدراك الحسى: أ - العوامل الموضوعية ب - العوامل الذاتية

التعلم - شرطا التعلم- نظريات التعلم: التعلم الشرطى- التعلم بالمحاولة والخطأ- التعلم بالاستبصار- والإشراط الإجرائى- نظرية بياچيه- نظرية التعلم الاجتماعى، وقوانين كل نظرية- التذكر والنسيان وعواملهما- التفكير- أنواع التفكير

الباب الثالث: الشخصية والصحة النفسية .... ٣٢١ – ٤٨٠

الفصل الثامن : الشخصية: .... ٣٢٥ – ٣٧٢

تعريفات الشخصية- نمو الشخصية- نظريات الشخصية: نظرة العرب قبل الإسلام- نظرية ابن سينا- نظرية فرويد- نظرية يونج- نظرية أدلر- نظرية مازلو- النظرية العاملية للشخصية [نظرية العوامل الخمسة البكرى للشخصية أو السمات الخمس الكبرى للشخصية] -قياس الشخصية واختباراتها وأنواعها: الميول- الذكاء الاجتماعى- قوائم الشخصية- الاختبارات الإسقاطية- الاختبارات الموقفية- المقابلة الشخصية

الفصل التاسع: الاضطرابات والأمراض النفسية: .... ٣٧٣ – ٤٨٠

الصحة النفسية– أعراض الاضطرابات والأمراض النفسية– الأمراض العصابية: الهستيريا– الهستيريا السِّيبْرية– الخوف المرضى– الوسواس– الحواز– توهم المرض– الوهن العصبى– والقلق العصابى– الاكتئاب العصابى– العصاب الصدمى– اضطرابات ضغوط ما بعد الصدمة– العصاب الخلطى، الأمراض الذهانية: جنون الهذاء– الاكتئاب– الهوس– جنون الهوس والاكتئاب (الجنون الدورى)– الفصام– خبل الشيخوخة– مرض ألزهايمر– الصرع، السيكوباتية مع أعراض كل منها وأبرز خصائصه، الانحرافات النفسية: الجنسية المثلية– السادية– المازوخية– البغاء– إدمان المخدرات– إدمان الإنترنت– النصب والاحتيال– تلَيُّف الضمير– الأمراض السيكوسوماتية؛ مع عرض نماذج لكل. الصحة النفسية للفرد وتأثرها بظروف المجتمع الاقتصادية وأحواله الاجتماعية وتأثيرها فى المجتمع وتأثرها به– حول انتشار الأمراض والاضطرابات النفسية– كلمة عن الشخصية والعلاج النفسى .

الباب الرابع: خلاصة فى ختام .... ٤٨١ – ٥٠٢

الفصل الأخير : الفروق الفردية بين الوراثة والبيئة .... ٤٨٥ – ٥٠٢

الفروق الفردية والفروق الجماعية– التباين داخل الفرد الواحد– الوراثة– البيئة– الوراثة والبيئة والفروق الفردية– الوراثة والذكاء– الوراثة وسمات الشخصية وأمراضها النفسية– البيئة الحيوانية والأطفال المتوحشون– البيئة والذكاء– البيئة وسمات الشخصية واضطراباتها وأمراضها

ماذا بعد؟؟!! خاتمة عن استثمار البيئة وتهيئتها لإعداد المواطن المنشود .... ٥٠٣ – ٥٠٤

الملحق الأول : الميثاق الأخلاقي للمشتغلين بعلم النفس في مصر .... ٥٠٥ – ٥٢٣

الملحق الثاني: الألفية الجديدة : التحديات والآمال .... ٥٢٥ – ٥٢٩

قالوا عن الكتاب .... ٥٣١ – ٥٣٣

المراجع .... ٥٣٥ – ٥٥٣

الباب الأول

مدخل في تمهيد

الفصل الأول : حول النفس وعلم النفس

الفصل الثاني : فروع علم النفس ومدارسه ولمحة تاريخية

الفصل الثالث : منهج البحث في علم النفس

مقدمة الباب الأول

إذا كان الهدف من هذا الكتاب أن نقدم للقارئ العربى الأصول العامة والمبادئ الأساسية لعلم النفس الحديث، فإنه يجدر بنا أن نبدأ بالتعرف بالنفس، وبعلم النفس، وبفروعه المختلفة، وبمدارسه الرئيسية، ثم نشير فى عجالة إلى ملامح تاريخية. ثم بعد ذلك نُعرّف بأهم مناهجه وما تتبعه من خطوات علمية يسير فى هداها الباحث حتى يتوصل إلى نتائجه؛ فيدرك القارئ عندئذ مدى علمية علم النفس. وبهذا كله يصبح مهيئًا لتلقى معارفه، والاستبصار بما تذهب إليه نظرياته وما تقرره معلوماته؛ فيناقشها بوعى قبل أن يرفضها أو يقبلها. لقد كان كل هذا هدفنا من كتابة هذا الباب.

وحتى يسهل علينا تحقيق الهدف من هذا الباب، قسمناه إلى ثلاثة فصول على النحو التالى:

الفصل الأول : ومحوره تعريفات النفس وعلم النفس.

الفصل الثانى: ومحوره التعريف بفروع علم النفس ومدارسه، ولمحة عن تاريخه.

الفصل الثالث: ومحوره منهج البحث فى علم النفس وخطواته العلمية.

الفصل الأول:

حول النفس وعلم النفس

تعريف النفس:

كلمة «نفس Psyche» تعتبر من المفاهيم العلمية والفلسفية واللغوية، التى تتناولها المعاجم المختلفة بالتعريف والشرح والتفسير؛ سواء فى ذلك المعاجم اللغوية أو الفلسفية أو العلمية. إلا أن تعقد النفس وغموضها -كظاهرة نستهدف دراستها علميًا- ينعكس على هذه التعاريف حتى ليصعب أن يصل أى منها إلى ما ننشده من دقة ووضوح، بحيث تصدق عليه صفة التعريف الجامع المانع الذى يرضى طموح العالم، ويشبع رغبة الطالب. ومع ذلك فإن كلا منا يكاد يعرف بحدسه الخاص مقصود كلمة نفس، بمثل مايعرف كل منا مقصود كلمة غذاء، وإن صعب عليه تعريفه.

وفى الكتابة عن النفس يجب أن نمهد بتعريف لها مهما بدا قاصراً، حتى تكون بيننا وبين القارئ أرضية محددة يدور حولها بحثنا، ولغة مشتركة نتفاهم عن طريقها.

ففيما يورده لسان العرب لابن منظور (١٢٣٢ - ١٣١١)(*). وهو يعرِّف النفس يذكر «.. النفس الروُح، والنفس ما يكون به التمييز.. والعرب قد تجعل النفس التى يكون بها التمييز نفسين، وذلك أن النفس قد تأمره بالشيء وتنهى عنه، وذلك عند الإقدام على أمر مكروه، فجعلوا التى تأمره نفساً، وجعلوا التى تنهاه كأنها نفس أخرى.. والنفس يعبر بها عن الإنسان جميعه كقولهم عندى ثلاثة أنفس، وكقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ...﴾. (سورة الزمر: آية ٥٦) كما يذكر

(*) السنوات الواردة بهذا الكتاب ميلادية؛ ما عدا ما أُشير إليه بغير ذلك.

ابن منظور فى المقام نفسه قول أبى إسحق إن هناك معنى آخر للنفس تقصده العرب هو جملة الشيء وحقيقته...» (ابن منظو: بدون تاريخ؛ ١١٩ - ١٢٦)(*).

وفى محيط المحيط للبستانى عند تناوله لتعريف النفس: «... ويراد بالنفس الشخص والإنسان بجملته.. ونفس الشيء عينه يؤكد به. يقال جاء فى نفسه وبنفسه.. والنفس مؤنث إن أريد بها الروح نحو خلقكم من نفس واحدة، وإن أريد بها الشخص فمذكر، يقال: عندى خمسة عشر نفساً.. ويقال: فلان يؤامر نفسيه ويشاورهما إذا تردد فى الأمر واتجه له رأيان وداعيان لا يدرى على أيهما يعرج ويثبت، وعليه قول حاتم الطائى:

أشاور نفس الجود حتى تطيعنى وأترك نفس البخل لا أستشيرها»

(بطرس البستانى: ١٩٧٧؛ ٩٠٨)

وذلك فى قصيدته ألا أرقت عينى ومطلعها:

ألا أرقت عينى، فبت أديرها، حذار غد، أحجى بأن لا يضيرها

أما الشيخ الرئيس ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) ففى كتابه الموسوعى الشفاء عندما يبدأ حديثه عن الجزء الخاص بالنفس فإنه يقول: «إن أول ما يجب أن نتكلم فيه إثبات وجود الشيء الذى يسمى نفساً، ثم نتكلم فيما يتبع ذلك فنقول: إنا قد نشاهد أجساماً تحس وتتحرك بالإرادة، بل نشاهد أجساماً تغتذى وتنمو وتولد المثل وليس ذلك لها لجسميتها فبقى أن تكون فى ذواتها مبادئ لذلك غير جسميتها، والشيء الذى تصدر عنه هذه الأفعال. وبالجملة، كل ما يكون مبدأ لصدور أفاعيل ليست على وتيرة واحدة عادمة للإرادة، فإنا نسميه نفساً...» (ابن سينا: ١٩٧٥، ٥).

(*) سوف نورد المراجع بين قوسين، بادئين باسم المؤلف ثم نقطتين: بعدهما سنة النشر ثم فاصلة منقوطة؛ ثم رقم أو أرقام الصفحات. وذلك بالأرقام العربية إن كان المرجع باللغة العربية، وبالأرقام الأجنبية إذا كان المرجع باللغة الأجنبية.

كما تورد معاجم اللغة الإنجليزية شيئاً قريباً من هذا.. فعند تعرض قاموس كولير Collier's Dictionary لكلمة Psyche يشير إلى تضمنها لمعنى روح الإنسان أو عقله كطاقة تحرك النشاط، والوظائف النفسية المختلفة (Halsey: 1977; 807) .. وفي قاموس الفلسفة، الذي أشرف على تأليفه روزنثال ويودين، أن النفس كفكرة مبسطة تعبر عن عالم الإنسان الشخصي القابل للملاحظة الذاتية.. أي عن أحاسيسه ومدركاته وأفكاره ومشاعره..إلخ، وأن المفهوم الفلسفي للنفس يقابل مفاهيم الوعي والتفكير والمعرفة والعقل والروح..إلخ (Rosenthal & Yudin: 1967; 368-369). وفي معجم علم النفس المعاصر نقرأ : وعند مستوى محدد من التطور الحيوي تظهر النفس كأحد عوامل هذا التطور التي تضمن التكيف المتزايد في التعقيد للكائنات مع بيئتها. ومع نشأة وتطور الإنسان، اتخذت النفس بنية جديدة كيفياً، نتيجة للمقومات الاجتماعية والتاريخية، وظهر الشعور باعتبارها المستوى القائد في تنظيم نشاط الإنسان، وأدى ذلك إلى تشكيل الشخصية، التي تستخدم كمصدر للمظاهر العليا لفعالية النفس(بتروفسكي وياروشفسكي: ١٩٩٦، ٣٣٣).

أما دريفر فيُعرِّف النفس في قاموسه عن علم النفس بقوله: في أصلها مبدأ الحياة، لكنها تستخدم بشكل عام على أنها تعادل العقلية أو كمقابل للعقل أو للروح (Drever: 1974; 229) .. ويبرز إنجلش وإنجلش في قاموسهما الشامل لعلم النفس والتحليل النفسي فكرة أن النفس هي التي تنجز الوظائف النفسية، أو تقوم بالأنشطة النفسية، ويعرِّفان علم النفس Psychology بأنه: فرع من العلم يختص بالسلوك أو النشاط أو العمليات العقلية. وأيضاً بالعقل أو النفس أو الشخصية التي تقوم بالسلوك، أو تؤدي النشاط، أو تنجز العملية العقلية.. (English&English: 1970; 419-420).

ولاينبغي لنا أن نسترسل أكثر من ذلك في محاولتنا تعريف النفس، فلقد تبين أن تعريفات النفس -مهما اختلفت مصادرها- فهي تتفق في روح التعريف وجوهره أو تكاد، وأن الخلاف يغلب أن يكون في استخدام الألفاظ، أو في التركيز على جانب من النفس دون الآخر، أو في تفضيل وجهة نظر في النفس البشرية، أو في وظائفها، على الأخرى.. يصدق هذا سواء في التعريفات التي يقدمها اللغويون العرب وغيرهم، أو يقدمها

الفلاسفة، أو يقدمها علماء النفس ومتخصصوه.. وقد كان هذا سبباً وراء الاتفاق الكبير الذى نجده بين العلماء على الموضوعات والظواهر التى تقع فى نطاق علم النفس، وفى مجال اهتمامه؛ بل وبين غير المتخصصين أيضاً.

ويجدر بنا أن نضع لأنفسنا تعريفًا للنفس يكون أكثر بساطة وأشد وضوحاً وأوسع شمولاً نرتضيه معاً، لتحديد الميدان الذى يصحبنا فيه هذا الكتاب مرتحلاً داخل النفس البشرية.. هذا التعريف هو:

النفس هى جوهر الإنسان، ومحرك أوجه نشاطه المختلفة: إدراكية أو حركية أو فكرية أو انفعالية أو أخلاقية.. سواء أكان ذلك على مستوى الواقع أم مستوى الوهم والخيال.. والنفس هى الجزء المقابل للبدن فى تفاعلهما وتبادلهما التأثير المستمر والتأثر مكونين معاً وحدة متميزة نطلق عليها لفظ شخصية تميز الفرد عن غيره من الناس، وتؤدى به إلى توافقه الخاص فى حياته مع عالمه الخاص ومع عالمه الواقعى أيضاً.

والنفس البشرية -وفق حديثنا السابق عنها- تعتبر شيئاً شديد التعقيد؛ مما يؤدى إلى صعوبة فى فهمها والحكم عليها حتى على المتخصصين. وفى حديثنا اليومى نكرر مثل هذه العبارات: عاشرت فلاناً سنوات كثيرة ومع ذلك لم أستطع فهم نفسيته حق الفهم، فخدعت فيه طوال هذه السنين، والآن ظهر على حقيقته. تصورت فلاناً ذكياً لكن تبينت أخيراً حقيقة غبائه. وتوهمت فى فلان الصدق والأمانة فإذا بى أكتشف مؤخراً كذبه وخداعه وخيانته للأمانة. وكان إحساسى دائماً أن فلاناً سليم النفس إلا أنه تبين لى أخيراً مرضه النفسى وعقده الشخصية. وغير ذلك الكثير مما نسمعه من المثقفين والعامة على السواء. مما يؤكد ما ذكرناه عن صعوبة فهم النفس البشرية وسبر أغوارها.. فإذا كانت أجهزة البدن على ذلك النحو من التعقيد الذى يقرُّ به الأطباء وعلماء التشريح والفسيولوجيا على السواء، فلماذا، لاتكون النفس -بأجهزتها المختلفة وجوانبها المتشابكة- على نفس المستوى من التعقيد؟؟!! بل ربما زادت عليه بحكم كونها جوهراً غير مادى، ولا مجسم، فتكون بذلك غير واضحة الملامح ولا محددة الامتداد أو التكوين أو الوظائف، بعكس الأجهزة البدنية الواضحة التحديد والتجسيم والملامح.

تعريف علم النفس :

مما لاشك فيه أن تعريف علم من العلوم، وبخاصة إذا كان من العلوم الإنسانية شأن علم النفس Psychology، يعتبر أمراً صعبًا إلى حد بعيد، بحيث يكاد يستحيل على القائم به أن ينجح فى وضع التعريف المثالى، والذى يحقق به الخاصية الشهيرة للتعريف الدقيق من حيث كونه جامعاً مانعاً. ذلك أن الحدود الفاصلة بين علم وغيره -فى كثير من الحالات- تكون حدوداً هولامية يكتنفها الكثير من الظلال، ويشوبها الكثير من الخلط، حتى أنه قد نشأت علوم حديثة نسبيًا تقع بين علم وآخر بحيث تأخذ من هذا وتتداخل مع ذاك. فهناك -على سبيل المثال- علم النفس الاجتماعى؛ الذى يأخذ من علم النفس ويتداخل مع علم الاجتماع، وعلم النفس الفسيولوچى الذى يأخذ من الفسيولوچيا ويتداخل مع علم النفس، وعلم الكيمياء الحيوية الذى يأخذ من علم الكيمياء ويتداخل مع علم البيولوچيا.. وهكذا.

إلا أن الاستدراك لايجوز أن يعفينا من محاولة وضع تعريف لعلم النفس، خاصة فى كتابنا هذا، الذى نقدم فيه أسس هذا العلم وأصوله العامة، لكل مبتدئ بدراسة هذا العلم أو راغب فى تحصيل المعرفة فيه. وفى هذا تشير ويد وتافرس إلى أن علم النفس Psychology يمكن أن يعرف على أنه العلم الذى يعنى بالسلوك والعمليات العقلية وكيفية تأثرهما بحالة الفرد الجسمية، وحالته العقلية والبيئة الخارجية (ويمكن أن نضيف هنا كيفية تأثيرهما أيضًا). وهذا التعريف -(كما تقولان) -مع ذلك يشبه إلى حد ما تعريف السيارة بأنها عربه لنقل الناس من مكان إلى آخر بدون أن نشرح كيف تختلف السيارة عن القطار أو الأوتوبيس... وحتى تحصل على صورة واضحة عن ما هو علم النفس، فإنك ستحتاج إلى معرفة الكثير عن مناهجه (فى البحث والدراسة)، ونتائجه و(معارفه العلمية)، وطريقته فى تفسير المعلومات. (Carole Wade&Carol Tavris: 2008, p.4).

وتضيف المؤلفتان فى الصفحة التالية: «إن علم النفس هو علم اجتماعى Social Science وإن كان له أسس فى العلوم الطبيعية Natural Sciences. تلك العلوم الاجتماعية التى تتضمن أيضًا التاريخ، والأنثروبولوجيا، والاقتصاد، وعلم السياسة، وعلم الاجتماع والتى تدرس بنية المجتمع البشرى وطبيعة وتفاعلات الأفراد التى تُكون المجتمع. فهذه الأفراد وسلوكهم وعملياتهم العقلية هى بؤرة اهتمام علم النفس». (المرجع السابق، ٥).

وعلى هذا، نقول: إن علم النفس هو العلم الذى يدرس سلوك الإنسان، بأوسع معنى لمصطلح السلوك Behavior، بحيث يشمل كل نشاط يؤديه الإنسان فى تفاعله مع بيئته الطبيعية والاجتماعية -حتى تصبح أكثر ملاءمة له، أو يقوم به مع نفسه ليكيفها وفق حاجاته الخاصة، ووفق متطلبات ظروفه الاجتماعية والطبيعية التى يتواجد فيها حتى يحقق لنفسه أكبر قدر من التوافق والتوفيق يستطيعه، وتمكنه منه خصائصه وطاقته. والسلوك بهذا المعنى هو الترجمة الملموسة لما تنطوى عليه النفس -على نحو ما عرفناها- من مكونات ولما يدور بداخلها من ديناميات ورغبات وتخيلات وصراعات...، ولما تمتاز به الشخصية -فى نفس الوقت- من خصائص ومكونات واستعدادات مختلفة.

والسلوك -بهذا المعنى الشامل الواسع- يتضمن ما هو ظاهر يمكن للآخر إدراكه؛ كتناول الطعام والشراب والمشى والجرى والقفز والاعتداء بالضرب والقيام بالأعمال والواجبات، كما يتضمن ما هو غير مدرك إلا من صاحبه؛ مثل التفكير الصامت والتخيل والتذكر والأوهام والمخاوف والآمال والحزن والسرور والغضب؛ وما إلى ذلك من انفعالات قد لا تصاحبها مظاهر مكشوفة يحسها الآخرون، بل إن السلوك يتضمن ما لايستطيع أن يدركه حتى القائم به ذاته؛ مثل ما يعتمل داخل النفس من دوافع ورغبات وآمال ومخاوف لايشعر بها صاحبها، وحتى إن شعر بها فهو لا يعرف كنهها الحقيقى؛ لأنها لاشعورية فى أساسها على نحو سلوك النائم فى تخيلات أحلامه وما يراه فيها، بل وحركاته الفعلية أثناءها؛ كالكلام بصوت مسموع أو المشى أثناء النوم، وعلى نحو -أيضاً- أعراض الأمراض النفسية ومظاهرها عموماً.. كما يتضمن السلوك بالمثل ما

تقوم به أجهزتنا الجسمية من نشاطات قد نستطيع الإحساس بها كالتنفس وطرفة العين وسرعة ضربات القلب، وقد لا نستطيع أن نحسها -حتى لو قصدنا إلى ذلك- مثل إفرازات المعدة وإفرازات السكر فى الدم...

ويحسن هنا أن نزيد الأمر بياناً فنضيف ما قاله دونالدز بيرنستين وبيجى ناش فى إجابة عن تساؤل وضعاه فى التمهيد لكتابيهما عن أسس علم النفس (2002) حيث قالا: «إن علم النفس هو علم السلوك والعمليات العقلية. إنه موضوع ومادة تشمل التفكير، والشعور، وتناول الطعام، والكلام، والقراءة والحب. والإطار الشامل لعلم النفس مع ذلك يشمل سلوكيات أخرى كثيرة وعمليات عقلية أيضاً. فموضوعاته تتنوع حتى تغطى كل مجالات السلوك والعمليات العقلية التى تجعل منك ما أنت هو (عليه)، وتجعل الآخرين بالشكل الذى هم فيه أو عليه فى كل ثقافة حول العالم». (Douglass Bern-stein & Peggy Nash, 2002, 3).

ومن الجدير بالذكر أن علم النفس كثيراً ما يلجأ إلى دراسة سلوك الحيوان مما يبدو مناقضاً لتعريفنا الذى عرضناه، حيث دراسته لسلوك الإنسان. لكننا ينبغى أن نذكر أن علم النفس عندما يدرس سلوك الحيوان -على الأقل حتى يومنا هذا- إنما يكون هادفاً أساساً منه إلى إلقاء مزيد من الضوء، وتحقيق مزيد من المعرفة بسلوك الإنسان.وكأن علم النفس فى هذا الموقف يتخذ من الحيوان سلماً لمعرفة الإنسان وفهمه، ذلك أن عالم النفس كثيراً ما يرى ضرورة إجراء تجارب لفهم سلوك الإنسان وتفسيره، لكنه يعجز عن ذلك، أو تعترضه عقبات تحول دون غرضه، فيستبدل التجريب على الحيوان بالتجريب على الإنسان. ونضرب لذلك مثلاً بتجربة تريون (Anastasi & Foley: 1954, 137-139) Tryon التى قام فيها بدراسة توارث القدرة على تعلم اجتياز المتاهة فى ثمانية عشر جيلاً من الفئران البيض. فكان يعرّض الفئران لاختبار يقيس به هذه القدرة لدى كل منها. ثم يزاوج بين أفضل أبناء جيل الآباء الممتازين فى قدرتهم على تعلم اجتياز المتاهة تزاوجاً انتقائياً فى كل جيل من هذه الأجيال الثمانية عشرة، وفى مقابل هؤلاء كان يزاوج بين أقل أبناء جيل الضعفاء فى قدرتهم على تعلم اجتياز المتاهة تزاوجاً

انتقائياً بالمثل فى تلك الأجيال. وهكذا، كانت ذكور الفئران الممتازة فى القدرة على تعلم اجتياز المتاهة تتزاوج مع إناث الفئران الممتازة، كما كانت ذكور الفئران الضعيفة فى هذه القدرة تتزاوج مع إناث الفئران الضعيفة. وقد كان تريون يضبط تلك الظروف البيئية، التى كانت تعيش فيها كل من مجموعتى الممتازين والضعاف ويساوى بينها؛ مثل مكان الإقامة والتغذية والتهوية والحرارة والرطوبة.. بحيث يحقق للمجموعتين تعادل البيئة. ولقد تبين لتريون من تجربته هذه أن القدرة على تعلم اجتياز المتاهة تتأثر بعامل الوراثة بشكل واضح. وليس بخاف أن هذه القدرة يمكن أن تقابل ما يعرف بالذكاء عند الإنسان.

لقد استطاع المجرب فى تجربته تلك أن يتدخل فى حرية الحيوان الشخصية فجعله يتزاوج مع من يحدده له، كما جعله يعيش فى ظروف ضبطها له، كما تمكن المجرب -نتيجة قصر دورة حياة الحيوان- أن يدرس عدداً كبيراً من الأجيال فى بضع سنوات قليلة، مما جعله يدرك فى سهولة وسرعة ودقة منهجية واطمئنان انتقال الخصائص الوراثية من جيل لآخر، ولأجيال كثيرة، مما يكاد يستحيل عليه فيما لو أصر على التجريب على الإنسان. فى هذه التجارب ومثيلاتها على الحيوان يكون الهدف المضمر أو المعلن لعالم النفس هو أن يستشف بالقياس على الحيوان معرفة أدق، وفهماً أشمل، وتفسيراً أضبط لسلوك الإنسان وخصائصه النفسية. وواضح أن عالم النفس ما كان يستطيع ذلك لولا أن سبقه دراون فى القرن التاسع عشر، فأقام بنظريته فى التطور الدليل على القرابة الحميمة بين الإنسان والحيوان. كما أنه فى هذا كان أيضاً يقلد ما يقوم به علماء الطب والجراحة والبيولوچيا والفسيولوچيا والصيدلة... من إجراء التجارب على الحيوان أولاً فإذا نجحت عمموا ما وصلوا إليه على الإنسان.

ومن الملاحظ أن علم النفس قد ازداد نمواً بشكل ملحوظ فى النصف الثانى من القرن الماضى (العشرين). ومع نموه وتمدده وانتشاره ،وجد المتخصصون النفسيون طرقاً للنفاذ إلى مجتمعاتهم وجماهيرها فى عدد هائل من الميادين التى يمكن أن نتصورها أو نفكر فيها. فهم يقدمون استشاراتهم لرفع مستوى رضا العاملين وتحسين الإنتاجية. كما أنهم يقدمون برامج لتحسين العلاقات بين الطوائف والعناصر والأعراق Race Relations،

وإزالة (تخفيض Reduce) التوترات العرقية Ethnic Tensions، ويرشدون اللجان والمسئولين ويوعونهم فيما يتعلق بكيفية تأثير التلوث والضوضاء على الصحة العقلية Mental Health. كما أنهم يقومون بالتأهيل التدريبي للناس المعوقين جسميا وعقليا Physically or mentally disabled. ويقومون أيضاً بتوعية القضاة والمحلفين Judges and Juries فيما يتعلق بالرؤية العينية في الشهادة Eyewitness Testimony (وشهادة العيان). ويساعدون البوليس في حالات الطوارئ المتعلقة بالأشخاص المُشْكِلين أو رهن الاعتقال. ويقومون بمسوح ودراسات الرأي العام Public Opinion Surveys. ويردون على الخط الساخن المخصص لمنع الانتحار والتعامل مع حالاته أو محاولاته. كما يرشدون المسئولين عن الحيوانات Zoos في كيفيات رعايتهم وتدريبهم. ويساعدون المدربين الرياضيين في أداءاتهم...» (Wade & Tavris, 2008, 13).

أهداف علم النفس

علم النفس -شأنه في ذلك شأن غيره من العلوم- يتفق معها في الأهداف الأساسية للعلم. عندما يتناول ظواهره بالدراسة والبحث. وهذه الأهداف هي:

١ - الفهم والتفسير. ٢ - الضبط والتحكم. ٣ - التنبؤ.

أولاً: الفهم والتفسير:

الإنسان -منذ بدء تاريخه حتى الآن- يجاهد ليعرف كنه ما يحيط به من ظواهر محاولاً فهمها وتفسيرها. وعندما لم يكن يسعفه علمه، أو منهجه في الوصول إلى الفهم السليم والتفسير الصائب، كان يضطر إلى التفكير الغيبي، يفسر به ويعلل حدوث الظواهر معتقداً في سلامته وصدقه. فظواهر الخير ترجع إلى رضا الآلهة عن البشر، وظواهر الكوارث والمصائب ترجع إلى غضب الآلهة عليهم وانتقامها منهم... وهذا الضرر الذي

أصاب فلاناً سببه السحر الذى سعى إليه عدوه، واستعادة هذا المريض لصحته ترجع إلى التميمة المباركة من عمل هذا العرّاف الطيب، وهذا المرض الذى ذهب بعقل هذا المهووس، فاضطرب له سلوكه واعتل تفكيره، إنما يرجع إلى شيطان نجس قد تسلل إلى جسمه فسكنه، وليس من سبيل إلى شفائه إلا بطرد هذا الشيطان الخبيث وخروجه من جسمه. وليس بخاف أننا لازلنا حتى اليوم نجد بقايا هذا الفهم والتفسير منتشراً بين عدد -لا بأس بحجمه- فى مختلف المجتمعات خاصة المتخلفة منها. ذلك أن الإنسان لايطيق الغموض، ويفزع من المجهول، فيسعى إلى استجلائه متعسفاً المعرفة والأسباب والعلل، حتى أن بعض علماء النفس يعد حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة غريزة فطرية فى البشر بحكم تكوينهم وطبيعتهم.

وبالمثل، فإننا نجد أن هدف الفهم والتفسير والمعرفة من أول الأهداف الأساسية التى يسعى العالم لتحقيقها من بحثه فى الظواهر التى تقع فى مجال اختصاصه. فالباحث فى مجال علم الطبيعة مثلاً يريد أن يعرف ويفهم ويفسر ويعلل أسباب حدوث ظاهرة طبيعية كتمدد المعادن بالحرارة -على سبيل المثال-..وعالم النفس بالمثل -أيضاً- يريد أن يعرف ويفهم ويكتشف أسباب حدوث الظواهر النفسية؛ كالتفوق الدراسى، أو التوافق المهنى، أو المرض الهستيرى.

ثانيًا : الضبط والتحكم :

من القول المأثور إنك إذا عرفت استطعت؛ بمعنى أن الإنسان إذا نجح فى فهم أسباب حدوث الظاهرة ومعرفة عواملها استطاع أن يؤثر فى مسار الظاهرة نفسها ويتحكم فى حدوثها، فيمكنه أن يهيئ لها أسباب حدوثها فتحدث، كما يمكنه أن يغير فى هذا العامل، أو ينقص من هذا، أو يزيد من ذاك، أو يلغى أو يضيف، فتتأثر تبعاً لذلك الظاهرة وتتحور، بل إنها تحدث وفق ما نريد، أو تختفى وقتما نشاء.

إذن فنحن هنا نتحكم فى الظاهرة ونضبطها بناءً على فهمنا لمسببات حدوثها وتغييرها واختفائها، وظروف كل ذلك وعوامله. وبمعنى آخر، فإننا بناءً على تحقيق الهدف السابق

(الفهم والتفسير) ننطلق لتحقيق الهدف الحالى. ولذا، فإننا نتوقع أن يؤدى وجود قصور ما فى معرفتنا وفهمنا وتفسيرنا للظاهرة إلى أن تقل كفاءتنا فى ضبطها والتحكم فيها، ومن الصعب أن يستقيم لنا ذلك ما لم يستقم لنا الفهم، وتسلم المعرفة.

ولئن بدا لنا الهدف الأول للعلم هدفاً نظرياً بالدرجة الأولى يستهدف ترف العلم وإشباع حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة واستجلاء الغموض -وهو حتى بهذه النظرة لابأس به فى حد ذاته -فإن الهدف الثانى- الذى نحن بصدده الآن- هو فى الواقع هدف تطبيقى نفعى إلى أبعد حد. فنحن نريد أن نتحكم فى الظواهر حتى تحدث فى الوقت المناسب، وبالشكل الذى يحقق لنا الفائدة ويقينا الأضرار. فمثلاً، من معرفتنا تمدد المعدن بالحرارة نصمم قضبان السكك الحديدية ونثبتها بالطريقة التى لاتجعلها تتقوس أو تتزحزح عندما تتعرض لحرارة الشمس حتى لايضطرب سير القطار عليها. وبالمثل، فإنه بناءً على معرفتنا بأسباب الصحة النفسية نعمل على تهيئتها لأبنائنا وعلى علاج اضطراباتها فيهم... ولذلك فإننا نجد أنه عندما تسبق الرغبة فى ضبط الظاهرة فهمها وتفسيرها يصبح من اللازم لإتمام هدف الضبط أن نبدأ أولاً بتحقيق هدف الفهم والتفسير.

ثالثاً: التنبؤ:

أما الهدف الثالث من أهداف العلم الأساسية فهو إمكانية التنبؤ بحدوث الظاهرة قبل أن تقع. وتنبنى إمكانية تحقيق هذا الهدف -كسابقه أيضاً- على استقامة فهم الظاهرة وسلامة تفسيرها ودقة معرفتها؛ أى على مدى الدقة فى تحقيق الهدف الأساسى الأول من أهداف العلم. وهذا التنبؤ يعتبر هدفاً تطبيقياً نفعياً بمثل ما يعتبر الهدف الأساسى الثانى والخاص بالضبط والتحكم، ذلك أننا نتوقع حدوث الظاهرة، متى أدركنا توافر مقدماتها وتهيؤ عواملها؛ مما يمكننا عند ذاك من الاستعداد لملاقاة الظاهرة بما نتمكن معه من جنى ما نستطيع من فوائدها، وتحاشى ما نستطيع تحاشيه من أضرارها. فمثلاً، نحن نسمع عن انتشار وباء فى بلد قريب، ونعرف أن العدوى من أهم مسبباته، فنتخذ من هذه المعرفة أساساً للتنبؤ بانتشار هذا المرض عندنا مستقبلاً، ما لم نسارع إلى حصاره ومقاومته

بتحصين المواطنين ومنعهم من السفر إلى هذا البلد الموبوء، ومنع مواطنى هذا البلد من الدخول إلى بلدنا إلا بعد الفحوص الطبية والتحصينات ومختلف الاحتياطات التى تمنعهم من نقل الوباء إلينا. ولنا أن نتصور -أيضًا- فى حالة إمكانية التنبؤ المسبق بموعد زلزال مدمر فى منطقة ما كيف يمكن لساكنيها -نتيجة هذه المعرفة المسبقة- تفادى الكثير من أضرار هذا الزلزال الذى يستطيع أن يضرهم أبلغ الضرر فيما لو داهمهم دون سابق توقع، أو دون تنبؤ صائب.

وبالمثل، يدرس عالم النفس عوامل النجاح الدراسى وعوامل الفشل الدراسى ومسببات كل منهما، فيمكنه -استناداً على هذا- أن يتنبأ بمن يحتمل نجاحه ومن يحتمل فشله قبل أن يتعرض للموقف الفعلى للدراسة، وبالتالى يستطيع أن يوجه التلاميذ أو الطلبة توجيهًا تربوياً أو مهنيًا يحفظ لهم مستقبلهم التربوى والمهنى، فيحقق لهم ولمجتمعهم أفضل النفع، ويجنبهم أشد الضرر. ولذلك، فعندما تسبق الرغبة فى التنبؤ بالظاهرة فهمها وتفسيرها يصبح من الضرورى لتحقيق التنبؤ أن نبدأ بتحقيق الفهم والتفسير لهذه الظاهرة.

العلاقة بين أهداف العلم:

عرضنا فيما سبق الأهداف الثلاثة الأساسية للعلم بصفة عامة ولعلم النفس بصفة خاصة، والآن ينبغى أن نناقش العلاقة بين هذه الأهداف الثلاثة. ما من شك فى أن العلاقة بين هذه الأهداف الثلاثة علاقة شديدة الوثوق، وهى فى جانب منها تعتبر علاقة فى اتجاه واحد، بينما تعتبر من الجانب الآخر علاقة جدلية متبادلة الاتجاهات بين الأهداف الثلاثة. فمن حيث العلاقة فى الاتجاه الواحد نجد أن العلم ينطلق من فهم ومعرفة أسباب الظاهرة إلى التحكم فيها بناءً على هذا الفهم وتلك المعرفة، كما أن العلم ينطلق - أيضاً- من فهم أسباب الظاهرة ومعرفتها- مرة أخرى- إلى التنبؤ بها، ثم أخيراً إلى ضبط ما سوف تكون عليه حتى يتحقق أكبر النفع ويقل الضرر. ومن الواضح أن دقة الضبط، وكذا دقة التنبؤ، تعتمدان على دقة الفهم وصواب التفسير وسلامة المعرفة، بحيث يختل الضبط ويفشل التنبؤ بمقدار ما يعيب التفسير والفهم والمعرفة من نقص أو ضعف أو

قصور. ومن هنا، كانت حيطة العالم، واهتمامه أن يصل إلى أكبر توفيق فى فهمه وتفسيره لظاهرته وإحاطته بعواملها حتى يضمن تقديم أكبر فائدة من علمه لمجتمعه؛ فيحقق العلم هنا هدفه الأساسى.

أما من الجانب الآخر، فإن هذه العلاقة بين الأهداف الثلاثة تعتبر فى جوهرها علاقة جدلية متبادلة الاتجاهات بين كل منها. فنحن نسلم بأن التحكم والتنبؤ يعتمدان على مدى دقة الفهم وصواب التفسير وسلامة المعرفة، لكن ماذا يحدث عندما يتبين للعالم أن التحكم الذى قام به على أساس من فهمه وتفسيره ومعرفته للظاهرة لم يكن تحكماً بمستوى الدقة الذى كان يتوقعه؟ لابد له عندئذ من أن يعاود بحث الظاهرة من جديد محاولاً أن يعالج ما أصاب فهمه ومعرفته وتفسيره للظاهرة من ضعف أو قصور حتى تستقيم له المعرفة والفهم والتفسير ويزول ما علق بكل ذلك من قصور. وعندئذ يعاود التحكم فى الظاهرة بناءً على معرفته الأصوب بعوامل الظاهرة ومسبباتها، فإذا بقدرته على التحكم تزداد وتقوى. ويصدق نفس الموقف عندما يفشل التنبؤ بناءً على الفهم السابق للظاهرة وعواملها، حتى ترتفع دقته فى كل ذلك فتزداد تبعاً لذلك درجة نجاحه فى التنبؤ. هذا، وفى نفس الوقت، سوف نجد أن كلاً من دقة الضبط ودقة التنبؤ المبنيين على فهم الظاهرة وتفسيرها سوف يعودان علينا بزيادة الثقة فى دقة هذا الفهم وسلامة ذلك التفسير. وهكذا، تستمر العلاقات الجدلية المتبادلة بين الأهداف الثلاثة للعلم دافعة العلم نحو مزيد من التقدم والرسوخ، يستوى فى ذلك علم النفس مع غيره من العلوم.

هذا، ونظراً للطبيعة التراكمية للعلم، فإننا نجد أن كل عالم يضيف إلى ما أضافه سابقوه -ليس من علماء بلده فقط، بل من كل بلاد العالم، فالعلم لا وطن له -كما يستفيد من منجزاتهم فى بحثه لظواهره وفى تحقيقه لأهداف علمه، وبالتالى يكمل العلماء بعضهم بعضاً حتى فى تحقيق أهداف العلم فى بحث ظاهرة مفردة. وبغير هذا لايطرد تقدم العلم أياً كان هذا العلم ولا تعم فوائده.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأهداف الأساسية للعلم -على نحو ما ناقشناها الآن- تؤكد

أن العلم والعالم معاً ليسا مقطوعى الصلة بالمجتمع، بل إنهما فى خدمته بمثل ما هما نتيجته. فالعالم نادراً ما يبحث بهدف «العلم للعلم» «وإنما يبحث أساساً بهدف العلم للمجتمع». كما أن مشكلات مجتمعه وظروفه وأمانيه هى التى تدفع عمله العلمى وتوجهه وترتفع به، أو تقاومه وتحاصره وتعوق مسيرته، «إذ ليس العلم ظاهرة منعزلة، تنمو بقدرتها الذاتية وتسير بقوة دفعها الخاصة وتخضع لمنطقها الداخلى البحت، بل إن تفاعل العلم مع المجتمع حقيقة لاينكرها أحد. فحتى أشد مؤرخى العلم ميلاً إلى التفسير (الفردى) لتطور العلم، لايستطيعون أن ينكروا وجود تأثير متبادل بين العلم وبين أوضاع المجتمع الذى يظهر فيه، حتى ليكاد يصح القول بأن كل مجتمع ينال من العلم بقدر ما يريد . (فؤاد زكريا: ١٩٨٨، ٢١٧).

معيار تقدم العلم:

إننا إذا ارتضينا الأهداف الثلاثة السابقة بحسبانها الأهداف الأساسية للعلم فأغلب الظن أننا سوف نرتضى اتخاذها معياراً نقيم على أساسه مدى تقدم علم أو تخلفه. فالعلم الذى لايستطيع أن ينجح فى تحقيقها مجتمعة، بحيث يتخلف عن تحقيق أحدها هو علم متخلف بمقدار تخلفه عن تحقيق هذا، كما أن العلم الذى يمكنه تحقيق الأهداف الثلاثة مجتمعة، لكن بمستوى قليل من الدقة، فهو -أيضاً- علم متخلف.

وفى ضوء هذا المعيار، الذى نضعه لتقدير تقدم العلم أو تخلفه، نرى أن علم النفس قد حقق تقدماً -لا بأس به- كعلم يمكنه أن يحقق الأهداف الأساسية الثلاثة للعلم مجتمعة، وبدرجة مُرضية من الدقة. وهذه الدرجة من الدقة، وإن لم تصل بعد إلى مستواها فى العلوم الطبيعية المتقدمة، إلا أن علماء النفس يجاهدون لرفعها أكثر عن طريق محاولاتهم الدؤوبة لتطوير منهجهم فى البحث والتقصى، وعن طريق الاستعانة بأدوات البحث المتطورة وبالأساليب الإحصائية والتقنية المتقدمة. ولما كانت مسألة تقدم علم أو تخلفه، هى بالدرجة الأولى مسألة نسبية، فإن كثيراً من علماء النفس يقتنعون بما وصل إليه علمهم من تقدم، خاصة مع ما هو معروف عن التعقد الشديد فى طبيعة ما يدرسونه

من ظواهر، وما هو معروف عن الحداثة النسبية لانسلاخ علمهم عن الفلسفة واستقلاله عنها موضوعًا ومنهجًا، وهو حدث مضى عليه الآن ما يزيد قليلاً عن قرن من الزمان فقط، منذ أن أنشأ فونت Wundt أول معمل لعلم النفس فى العالم كله، وكان ذلك بجامعة ليبزج فى ألمانيا عام ١٨٧٩؛ وعلى غراره بدأت تنتشر وتتطور معامل علم النفس فى العالم.

الفصل الثاني :

فروع علم النفس ومدارسه ولمحة تاريخية

فروع علم النفس

يكتسب علم النفس الحديث منذ نشأته قوة وتأثيراً وانتشاراً يومًا بعد يوم، فهناك الآن مايزيد عن ٣٠٠,٠٠٠ (ثلاثمائة ألف) متخصص نفسى Psychologist فى أنحاء العالم؛ يعمل ثلثهم -تقريبًا- فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها (Zimbardo: 1992: p8).

وعلم النفس -شأن كثير غيره من العلوم- له فروع عدة؛ تغلب على بعضها النزعة النظرية، بينما تغلب على البعض الآخر النزعة التطبيقية، وإن كانت النزعتان لاتنفصلان فى الواقع إلا نادراً، ويكاد التقسيم يكون لتبسيط الدراسة وتيسيرها، ولخدمة التعمق والتخصص أكثر من كونه تقسيمًا حاداً قاطعًا. ولذا، سوف نجد كثيراً من الموضوعات والظواهر المشتركة بين أكثر من فرع من هذه الفروع؛ كما أننا -أيضاً- سوف نجد أن كلاً منها يستفيد من الآخر ومن تقدم المعرفة فيه.

أولاً : الفروع النظرية

لعل من أهم فروع علم النفس النظرية الفروع التالية:

١ - علم النفس العام General Psychology:

ويعتبر الأساس النظرى لكل فروع علم النفس الأخرى، سواء أكان يغلب عليها الطابع

النظرى أم الطابع التطبيقى. فعلم النفس العام يهتم أصلاً بدراسة المبادئ العلمية التى تكمن وراء سلوك الناس عامة، من غير تركيز على فئة خاصة منهم دون الأخرى. كما أنه يدرس الظواهر النفسية الشائعة بين كافة الناس؛ كالدوافع النفسية والقدرات العقلية والذكاء والنمو النفسى والاتزان النفسى والشخصية واضطراباتها.. وباختصار شديد، فإن علم النفس العام يهتم بدراسة مبادئ علم النفس وأسسه وأصوله العامة، والتى ينظر إليها على أنها الأصول الأولية والمعلومات الأساسية فى علم النفس، والتى تمثل أهمية كبيرة فى العلم وتتخذ منطلقًا لدراسة ظواهره وموضوعاته المختلفة؛ والتى تحتاج فيما بعد إلى دراسات وبحوث متعمقة ومتخصصة أكثر. وكتابنا هذا يقع فى هذا المجال أو الفرع.

ومن الجدير بالذكر أن القسم الأول من جمعية علم النفس الأمريكية(*) ،الـ APA، مخصص لعلم النفس العام، ويحمل اسمه للاعتبارات السابقة -التى قلناها فى تعريف هذا الفرع وفى بيان موضوعه وأهدافه. كما أن هذا الفرع من علم النفس تعترف به كافة جمعيات علم النفس وأقسامه الجامعية فى العالم، حتى أنه إذا اقتضت الضرورة تدريس

(*) تعتبر جمعية علم النفس الأمريكية والمعروفة اختصاراً بالـ "APA" أكبر جمعية لعلم النفس في العالم كله، علي اعتبا ر أن علم النفس في أمريكا أكثر انتشاراً عن أي مكان آخر في العالم، حيث يبلغ أعضاؤها في الوقت الحالي (أبريل ٢٠٠٨) حوالي المائة والأربعين ألف عضو (١٤٠٠٠٠) بمن فيهم من أعضاء منتسبين.

كما تعتبر جمعية علم النفس الأمريكية أيضاً من أقدم جمعيات علم النفس، بل ربما كانت أقدمها، حيث يرجع تاريخ إنشائها إلي عام ١٨٩٢ تحت رئاسة ستانلي هول Stanly Hall .

وتعقد الجمعية مؤتمراً علمياً سنوياً تختار له ولاية معينة كل عام تعلن عن مكانه وموعده قبل عقده بعامين أو أكثر. هذا علاوة علي إصدارها لعدد كبير من الدوريات العلمية النفسية بشكل منتظم بخلاف الكتب والبحوث.

وحسب إحصاء لأقسام هذه الجمعية، كما توضحها دعوة مؤتمرها لعام ١٩٩٩، فإنها تبلغ ٥٢ قسماً قائماً بذاته، و٥٦ قسماً حسب بياناتها علي الانترنت عام ٢٠٠٨ (أبريل)، سواء نظرنا إلي كل قسم منها علي أنه فرع مستقل من فروع علم النفس أو علي أنه مجال من مجالاته أو موضوع هام من موضوعاته. وهكذا نجد أن هذه الجمعية دائمة النمو من حيث زيادة أقسامها عدداً مع الزمن.

ونظراً لضخامة هذه الجمعية ودقة تنظيمها وعظم نشاطها، فإنه كثيراً ما يحتج علي شرعية وجود فرع من فروع علم النفس باعتراف هذه الجمعية به؛ وإفرادها قسماً خاصاً له.

فرع واحد فقط من فروع علم النفس فى معهد علمى، أو قسم جامعى من أقسام الدراسة، كان هذا الفرع هو «علم النفس العام»، فى غالب الأحوال. وقد يدرس (أو يؤلف فيه) تحت عناوين أخرى؛ مثل «أصول علم النفس» أو «أسس علم النفس»، أو «مبادئ علم النفس».

٢ – علم النفس الارتقائى Developmental Psychology:

فرع يهتم بدراسة كيفية النمو النفسى ومراحله التى يمر بها الفرد، وخصائص كل مرحلة، ووصف السلوك الشائع فيها، ومواصفات وارتقاء العمليات الذهنية والانفعالية والاجتماعية ومقدار اكتساب المعرفة واللغة والمهارات المختلفة.. فى كل من هذه المراحل.

ويدرس هذا الفرع عادة فئات عمرية مختلفة، أو يتتبع مجموعات من الأفراد يعاود دراسة كل منها بين الحين والآخر لتحقيق هدفه من فهم كيفية النمو النفسى وارتقاء الفرد عبر تاريخه منذ ولادته، وربما قبلها إلى وصوله مرحلة الرشد والاكتمال. ثم الكهولة والشيخوخة .

وغالباً ما يقسم هذا الفرع تقسيماً داخلياً إلى: سيكولوچية الطفولة، سيكولوچية المراهقة، سيكولوچية الرشد، سيكولوچية الكبار.. ومن الجدير بالذكر أن هذا الفرع تخصص له جمعية علم النفس الأمريكية القسم السابع منها.

٣ – علم النفس الفارقى Differential Psychology:

فرع علم النفس الذى يهتم بدراسة الفروق السيكولوچية بين الأفراد بعضها البعض، أو بين الجماعات بعضها البعض، أو بين المجتمعات والسلالات بعضها البعض، أو بين الذكور والإناث سواء فى مجتمع بعينه أو فى البشرية بصفة عامة، مع بيان عوامل هذه الفروق وأسبابها النفسية والاجتماعية والبيئية والوراثية. ولذا، فعلم النفس الفارقى يهتم بقياس هذه الفروق والتنظير لها وتبرير ظهورها تبريراً علميًا مدروسًا (Anas-tasi: 1984; p.374-375).

وعادة ما ينقسم علم النفس الفارقى إلى قسمين متمايزين: أحدهما علم نفس الفروق

الفردية Individual Differences والآخر هو علم نفس الفروق الجماعية Group Differences؛ فالأول يركز على دراسة مدى أسباب وعوامل اختلاف الأفراد فى جماعة واحدة أو مجتمع واحد، مثل بيان أسباب ارتفاع ذكاء الفرد «أ» إلى هذا الحد وأسباب انخفاض ذكاء الفرد «ب» إلى ذاك الحد، وأسباب توسط ذكاء الفرد «جـ» والفرد «د» ....، ومثل بيان أسباب تفوق هذا الفرد فى الاستفادة من التعليم أو التدريب وأسباب تخلف ذاك، ومثل إجابة التساؤل المتعلق بأثر التعليم (أو التدريب) الموحد فى زيادة أو إنقاص الفروق بين الأفراد. فعلى سبيل المثال، لو أننا وضعنا مجموعة تلاميذ بينهم فروق فردية بسيطة -فى مستوى تحصيلهم- ليدرسوا معاً فى فصل دراسى واحد، فهل هذا يعمل على إزالة هذه الفروق فى نهاية العام الدراسى، أم يبقى عليها بنفس النسبة، أم يزيد نسبة فروق مستوى التحصيل بين تلاميذ هذا الفصل عنها فى السابق؟... وما تبرير النتيجة التى نحصل عليها كإجابة لهذا السؤال.

أما علم نفس الفروق الجماعية فهو يدرس -على سبيل المثال أيضًا- هل صحيح ما يقال من أن الإناث أسهل فى الاستثارة الانفعالية وأسرع من الذكور؟ وهل صحيح أن الذكور أعلى فى الاستعداد الميكانيكى وأقل فى الاستعداد اللغوى من الإناث؟ أم أن كل ذلك محض افتراء ومجرد أفكار دارجة ليس لها وجود علمى يؤيدها؟ وماهو التبرير العلمى وراء نتائج دراسة مثل هذه الموضوعات أياً كانت اتجاهات هذه النتائج.

٤ – علم النفس الاجتماعى Social Psychology:

فرع من علم النفس يختص «بالدراسة العلمية للطريقة التى بها تتأثر أفكار الناس، ومشاعرهم، وسلوكهم بوجود أناس آخرين. سواء كان هذا التواجد واقعيًا أو متخيلاً (Allport, 1985). فعلماء النفس الاجتماعى مهتمون بدراسة كيفية وسبب (How and Why) أن تكون أفكارنا ومشاعرنا وسلوكاتنا Behavior محددة ومتأثرة بالبيئة الاجتماعية الكلية.. ومما له أهمية خاصة لدى علماء النفس الاجتماعى هو ما الذى يحدث فى عقل فرد عندما تتصارع مؤثرات مختلفة مع بعضها البعض. فهذا

عادة مايحدث عندما يذهب أناس صغار السن (مثل كثير من قرائنا) إلى الكلية ويجدون أنفسهم ممزقين بين المعتقدات والقيم التى تعلموها فى بيوتهم والمعتقدات والقيم التى يعبر عنها أساتذتهم وزملاؤهم (فى أقوالهم وأفعالهم)» (Arinson, Willson & Akert, 2007,6).

وهو فرع من علم النفس يركز -أيضًا- على دراسة العوامل السيكولوچية وراء تكوين الجماعات ونموها وقوتها وتماسكها وارتفاع روحها المعنوية، أو تدهور كل ذلك. مع الاهتمام بدراسة العلاقات الاجتماعية والإنسانية والنفسية المتبادلة بين أعضاء الجماعة بعضهم البعض، وما يفرزه ذلك من قيادات، وسيطرة أو خضوع، وتوحد أو نفور بين أعضاء الجماعة، والتأثير الذى تمارسه الجماعة على أعضائها، وذلك الذى يمارسه العضو -أيضًا- على الجماعة، وأثر كل ذلك -تفصيليًا- على نجاح الجماعة فى تحقيق أهدافها أو فشلها فى ذلك. كما يهتم علم النفس الاجتماعى -أيضاً- بالدراسة السيكولوچية لمختلف الظواهر الاجتماعية والنفسية التى تنشأ عن وجود الجماعة وتفاعلاتها وتكويناتها وعضوياتها واحتكاكات أعضائها وعلاقاتهم بعضهم بالبعض؛ كالتعاون والتنافس والقيم والمعايير الخاصة بالجماعة.

هذا ويعرف معتز سيد عبد الله وعبد اللطيف محمد خليفة علم النفس الاجتماعى فى كتابهما «علم النفس الاجتماعى» بأنه: «الدراسة العلمية التى تهدف إلى فهم وتفسير التفاعل الاجتماعى بين الأفراد وبعضهم البعض فى مختلف المواقف الاجتماعية، والوقوف على الكيفية التى يتأثر بها تفكيرهم ومشاعرهم وسلوكهم بوجود الأفراد الآخرين الفعلى أو المتخيل أو الضمنى». (معتز سيد عبد الله وعبد اللطيف محمد خليفة: ٢٠٠١، ١١).

ويوسع عبد الحميد صفوت ويعمق فى الآن نفسه من مفهومنا عن علم النفس الاجتماعى فيذكر أنه «علم دراسة السلوك بين الأفراد ويهدف إلى استنتاج قوانين نشأة وتطور وطبيعة السلوك بين الأفراد... وهو تخصص رئيسى تقوم عليه فروع تطبيقية مثل: الإعلام والرأى العام، وعلم النفس التنظيمى، والصناعى، والحرب النفسية، وعلم النفس

الدينى والدولى (الخاص بالقضايا والمشكلات الدولية)، وظواهر الانتحار، وعلم الإجرام، والأسرة، وبعض أنواع العلاج النفسى، وعلم النفس المدرسى... ومن جهة أخرى فعلم النفس الاجتماعى ليس مجرد فرع من علم النفس العام، ولكنه يشكل أساساً لفهم الظواهر النفسية فى كافة التخصصات الرئيسية أيضاً. فلا يوجد شخص يعيش بمفرده فى عزلة عن الآخرين بشكل كامل. فالواقع أن كل شخص فى هذا العالم يعيش فى وسط اجتماعى يؤثر فى كل سلوك مهما كان يبدو فى الظاهر خصوصياً وبعيداً عن ذلك الوسط كالأحلام، والخيال، والدوافع، وعادات النوم والطعام، وكلها سلوكيات تنبع من الواقع الاجتماعى وتهدف إلى التأثير فيه، مما يدعونا للقول بأن علم النفس لايمكن فهمه إلا من خلال علم النفس الاجتماعى...» (عبد الحميد صفوت: ٢٠٠٠، ١٣).

«وبمعنى آخر، نجد أن علم النفس الاجتماعى عبارة عن الدراسة العلمية لسلوك الكائن الحى ككائن اجتماعى؛ أى يعيش فى مجتمع مع أقرانه، يتفاعل معهم فيتأثر بهم ويؤثر فى سلوكهم، أى أن علم النفس الاجتماعى كفرع من فروع علم النفس يعرض لدراسة الفرد فى إطار المجتمع. ويتناول علم النفس الاجتماعى بالوصف والتجريب والتحليل والفهم خبرات وسلوك الفرد فى تفاعله مع الآخرين فى المواقف الاجتماعية أو المجال الاجتماعى» (حامد عبد السلام زهران: ١٩٧٤، ١٥).

وهكذا، فإننا نجد من الموضوعات الرئيسية الهامة التى يدرسها علم النفس الاجتماعى موضوعات؛ مثل: ديناميات الجماعة، والقيادة، والروح المعنوية، والتعاون، والتنافس، والتمركز حول الذات Egocentricity فى مقابل التمركز حول الجماعة Sosiocentricity وقرار الجماعة، والشائعات، والدعاية، والاتجاهات، والرأى العام..

ومن الجدير بالذكر أن جمعية علم النفس الأمريكية قد خصصت قسمها الثامن لعلم النفس الاجتماعى والشخصية.

٥ – علم النفس عبر الثقافى Cross - Cultural Psychology:

فرع من علم النفس يهتم بدراسة أوجه الشبه والاختلاف بين الخصائص النفسية الشائعة

فى مجتمعات أو ثقافات مختلفة. كما يهتم بالدراسة المقارنة بين أكثر من مجتمع أو أكثر من ثقافة بالنسبة لموضوع واحد. ويقع فى دائرة اختصاصه -أيضًا- دراسة موضوع واحد أو ظاهرة معينة فى أكثر من بيئة، أو دراسة موضوع واحد يهم أكثر من شعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات.

وعلى هذا، فإن قضية الحرب النووية ونزع السلاح، ومشكلات الأقليات فى أى مجتمع من المجتمعات، وتوزيع الذكاء والقدرات العقلية بين الشعوب والثقافات المختلفة.. إلخ، كل ذلك أمثلة من اهتمامات علم النفس عبر الثقافى.

ومما يجدر ذكره أن علم النفس عبر الثقافى فرع حديث النشأة، فلم يكن متبلوراً كفرع خاص من علم النفس قبل عقود أربعة من الزمان. أما الآن فله جمعية دولية خاصة به تضم علماء من أنحاء مختلفة من العالم، وتعقد مؤتمراً دولياً كل عامين فى بلد مختلف من أنحاء العالم، حيث عقدت مؤتمرها الأول عام ١٩٧٢ فى هونج كونج، وعقدت مؤتمرها الثامن فى استانبول صيف عام ١٩٨٦.

٦ - علم النفس المرضى Psychopathology:

ويهتم هذا الفرع من علم النفس بدراسة أنواع الاضطرابات والأمراض النفسية والعقلية وأعراضها المميزة وتشخيصها، وبيان أسبابها وعللها، وعوامل تكوينها وتطورها، ومختلف الظروف المؤثرة فيها. فهو -على سبيل المثال- يدرس الظواهر العصابية والذهانية، والانحرافات السلوكية، والأمراض السيكوسوماتية، وجرائم الكبار، وانحرافات الأحداث، والسيكوباتية بأشكالها المختلفة، كل ذلك بهدف بيان أعراضها ومسبباتها ودينامياتها وتطورها.

٧ - علم النفس الفسيولوچى Physiological Psychology:

ويركز على دراسة الأساس الفسيولوچى الجسمى للسلوك الإنسانى وعلى علاقة الجسم بسلوك الإنسان. وبالتالى، فهو يهتم بدراسة الجهاز العصبى ووظائفه وتأثيرها على السلوك والشخصية. كما يدرس الغدد الصماء والعوامل الفسيولوچية وراء بعض الأمراض النفسية،

كما يدرس -أيضًا- النواحى الفسيولوچية فى الانفعالات المصاحبة للدوافع ومختلف النشاطات السلوكية..

ومن الجدير بالذكر أنه «ترجع البداية الحديثة لعلم النفس الفسيولوچى بوصفه دراسة علاقة السلوك المتكامل بالوظائف البدنية المتنوعة، إلى العالم النفسى الشهير فونت Wundt، فهو الذى أطلق هذا الاسم على ذلك الفرع من الدراسة عندما أسس معمله السيكولوچى فى ليبزج عام ١٨٧٩ » (أحمد عكاشة: ١٩٧٧، ١٩).

ومن الجدير بالذكر أن نضيف إلى النص السابق أن فونت لم يكن مجرد عالم نفس شهير فقط بل كان -فى الأصل- طبيباً ثم تحول إلى فسيولوچى، وقد ظل لمدة ثلاثة عشر عامًا مساعداً فى معهد هلمهولتز للفسيولوچيا ثم أستاذاً به فى هيدلبرج. ثم تحول بعد ذلك من فسيولوچى إلى سيكولوچى. وقبل إنشائه المعمل وأثناءه رأس قسم الفلسفة بجامعة ليبزج (فلوجل: ١٩٧٣، ١٢٢ - ١٢٣).

وعلى أى حال، فإن علم النفس الفسيولوچى من الفروع التى تحتاج إلى تخصص أساسى فى الطب أولاً قبل التخصص فيه، ويضمه القسم السادس من جمعية علم النفس الأمريكية.

ثانيا : الفروع التطبيقية

أما الفروع التطبيقية فى علم النفس فلعل من أهمها :

١ - علم النفس التربوى Educational Psychology:

ويهتم هذا الفرع من علم النفس بتطبيق مبادئ علم النفس ونظرياته ومناهج البحث الخاصة به فى مجال التربية والتدريس والتعليم والتدريب وما يظهر فيه من مشكلات وظواهر فى حاجة إلى دراسة أو علاج أو حلول. ويهدف هذا الفرع من كل هذا إلى رفع

كفاية العملية التربوية أو التعليمية وجعلها أكثر عائداً وأقل تكلفة وأفضل نجاحاً.

ولذا، فإن علم النفس التربوى يعطى عناية خاصة لدراسة موضوعات مثل النمو العقلى والنفسى ومراحله، ومشكلات الطفولة والمراهقة، وظاهرة التعلم وشروطها وعلاقاتها بالذكاء والقدرات العقلية المختلفة، ونظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية، وظاهرة التفوق الدراسى، وظاهرة التخلف الدراسى، وظاهرة التفكير، وظاهرة التذكر والنسيان ونظرياتهما وعواملهما.. هذا، ويحتل هذا الفرع من علم النفس القسم الخامس عشر من أقسام جمعية علم النفس الأمريكية.

٢ – علم النفس العسكرى Military Psychology:

فرع هام من فروع علم النفس التطبيقية، يهتم بكل تطبيقات علم النفس فى القوات المسلحة وفى الدفاع العسكرى والمعنوى عن تراب الوطن، وأيضاً بتطبيقات علم النفس فى القوات العسكرية وإدارتها وتحريكها ورفع روحها المعنوية والقتالية عند الدفاع أو الهجوم والاقتحام والغزو. كما يهتم علم النفس العسكرى –أيضًا– بالأسس النفسية التى تعمل على رفع الروُح المعنوية للشعب أثناء المعارك وتعبئته للقتال وللتضحية...

وعلى هذا، فإن علم النفس العسكرى يهتم بموضوعات؛ مثل: الأسس النفسية التى تعمل على رفع الكفاية التدريبية للجنود والضباط، والأسس النفسية التى ترفع من الروح المعنوية والقتالية بين الجنود والضباط، والدعاية السياسية، والشائعات، والثقة فى عدالة القضية التى يدافع عنها الوطن، ورفع درجة الالتحام والتماسك والثقة بين الشعب والجيش والقيادات السياسية.. وتخصص جمعية علم النفس الأمريكية قسمها التاسع عشر لهذا الفرع من علم النفس.

٣ – علم النفس الصناعى والتنظيمى

Industrial And Organizational psychology

هذا الفرع التطبيقى من علم النفس تخصص له جمعية علم النفس الأمريكية قسمها الرابع عشر، وقد كان هذا الفرع يطلق عليه علم النفس الصناعى، ونتيجة للتوسع فى موضوعاته عدل إلى هذه التسمية الحديثة. ويستهدف هذا الفرع دراسة المشكلات ذات الطبيعة النفسية التى تنشأ فى مجال العمل ومؤسساته ومنظماته بواسطة المنهج العلمى المستخدم فى البحوث النفسية، واقتراح الحلول لهذه المشكلات وحلها. كما يستهدف – أيضًا– تطبيق النظريات والمعلومات النفسية لفهم هذه المشكلات وحلها. ومن أمثلة هذه المشكلات: انخفاض الروح المعنوية للعاملين، وضعف الإنتاج كمًا وكيفاً، وكثرة غياب العاملين، وكثرة إصابات العمل، وكثرة المشاحنات والخلافات بين العاملين بعضهم وبعض، أو بينهم وبين الإدارة. كل ذلك إلى جانب ما يستهدفه بشكل أساسى من تطبيق الإجراءات العملية والعلمية اللازمة لوضع «الشخص المناسب فى المكان أو العمل المناسب»، مثل عمليات الاختيار المهنى والتوجيه المهنى والتأهيل المهنى...

والهدف النهائى لعلم النفس الصناعى والتنظيمى –فى مثل مجتمعاتنا– هو زيادة الإنتاج كماً وكيفاً، وتحقيق الراحة النفسية والجسمية للعاملين، والارتفاع بمستوى الكفاية الإنتاجية للعامل ولمؤسسة العمل على السواء. (فرج عبد القادر طه، ١٩٧٠، ٢٦–٣٦).

٤ – علم النفس الإدارى Managerial Psychology:

يُعَرِف معجم بنجوان لعلم النفس "The Penguin Dictionary of Psychology" علم النفس الإدارى بأنه «ميدان فرعى من علم النفس الصناعى والتنظيمى يركز على دور المدير أو المشرف فى المؤسسة وعلى العمليات التفاعلية بين المشرفين ومن يخضعون لإشرافهم» (Reber: 1987, 416).

كما يعرفه معجم ماكملان لعلم النفس MaCmillan Dictionary of Psychology

بأنه «دراسة العلاقات داخل الإدارة، وبين الإدارة والعاملين مع أخذ زيادة الكفاية الإنتاجية في الاعتبار» (Suther Land: 1989, 245).

هذا؛ بينما تعرفه «موسوعة علم النفس والتحليل النفسي بأنه فرع من علم النفس التطبيقي، يستهدف دراسة العلاقات بين إدارات مؤسسة العمل، وبين الإدارة والعاملين وذلك حتى يمكن الوصول بها إلى أفضل مستوى ممكن لصالح العمل والعاملين بالمؤسسة في الوقت نفسه. كما يهدف أيضًا إلى طرح الأسس والعوامل النفسية التي تساعد على تنمية العلاقات الإيجابية المتبادلة بين مؤسسة العمل ومحيطها ومجتمعها خاصة؛ وكل من يتعامل معها عامة. ويمكن اعتبار علم النفس الإداري فرعًا من علم النفس الصناعي والتنظيمي، أو جزءاً أساسياً منه». (فرج عبد القادر طه: ٢٠٠٣، ٥٥٧ – ٥٥٨).

وعلى هذا؛ فإن دراسة الروح المعنوية السائدة بين العاملين في المؤسسة بهدف تشخيصها والبحث عن العوامل المؤدية إليها والإجراءات المثلى لرفعها مما يدخل مباشرة في مجال علم النفس الإداري، كما أن دراسة الأساليب والأجواء الإدارية من ديموقراطية أو ديكتاتورية أو فوضوية التي تسود في إدارة مؤسسة ما، أو رئاسة منظمة ما، أو قيادة فريق ما... إلخ إنما تمثل دراسة أو بحثًا في ميدان علم النفس الإداري وتدخل ضمن اهتماماته. كما يصدق نفس القول على دراسة أو دعم العوامل والإجراءات التي تؤدي إلى تحسين صورة المؤسسة بين جمهورها وعملائها خاصة ومجتمعها عامة... إلخ.

٥ – علم النفس الصناعي والإداري

Industrial and Managerial Psychology

لقد اقترحتُ في مقال كتبته في نهاية عام ٢٠٠٧ بالعربية بعنوان: حان الوقت لتغيير علم النفس الصناعي والتنظيمي ليصبح «علم النفس الصناعي والإداري»؛ نشر في مجلة «الثقافة النفسية المتخصصة» بلبنان؛ حيث أُختير ملفا لعددها الصادر في يناير: ٢٠٠٨، وفي مقال آخر بالإنجليزية نشرتُه في عدد أبريل: ٢٠٠٨ من مجلة «دراسات نفسية» التي تصدر

عن رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية؛ أطرح فيهما وأبرز رؤيتى فى ضرورة تغيير علم النفس الصناعى والتنظيمى ليصبح «علم النفس الصناعى والإدارى»، وذلك لما نلاحظه بوضوح من اشتراك وتشابك وتشابه وتكامل فيما يتناوله كل من علماء النفس الصناعى وعلماء الإدارة من موضوعات، ويبحثونه من ظواهر ومشكلات، ويسعون لتحقيقه من نتائج وأهداف... الأمر الذى يجعل من الأفيد لصالح التخصص العلمى خاصة (حيث التغذية العلمية المتبادلة)، ولصالح الإنتاج والمجتمع عامة؛ أن يندمج علم النفس الصناعى مع علم الإدارة Management فى كيان واحد هو «علم النفس الصناعى والإدارى».

هذا؛ وتوضح دراستى عن علم النفس الصناعى والإدارة (فرج عبد القادر طه: ٢٠١٠، ٢٤١-٢٧٨)؛ إضافة إلى المقالين المشار هنا إليهما؛ مدى الاندماج والتداخل والتغذية المتبادلة بين علم النفس الصناعى والإدارة، مما يقنعنا بضرورة دمجهما فى علم واحد لصالح العلم والمجتمع ؛ فى نفس الآن.

وتطبيقاً لهذه الرؤية وتحقيقاً لها؛ فقد نشرت عام (٢٠٠٧) طبعة تجريبية أولية لكتاب بعنوان: علم النفس الصناعى والإدارى. وفى العام التالى (٢٠٠٨) أصدرتُ الطبعة الأساسية الأولى للكتاب (فرج عبد القادر طه: ٢٠٠٨)؛ وفى مطلع عام (٢٠١٠) نشرتُ كتاب قراءات فى علم النفس الصناعى والإدارى، حتى يحل هذان الكتابان محل كتابىَّ السابقين علم النفس الصناعى والتنظيمى وقراءات فى علم النفس الصناعى والتنظيمى؛ وذلك بعد أن قمت فيهما ببعض التعديلات اللازمة.

هذا؛ ويتسع علم النفس الصناعى والإدارى ليهتم بظواهر بدأ ينتبه إلى خطورتها والاهتمام بعلاجها المهمومون بالعمل والإنتاج وإدارة مؤسساتهما؛ مثل ظاهرة الإحتراق النفسى فى العمل Work Burnout، والضغوط النفسية فى العمل(أو ضغوط العمل) أو الضغوط المهنية. كما بدأ الباحثون فى العالم العربى يهتمون بإعداد مقاييس نفسية تصلح لقياس هذه الظواهر، وعمل بحوث ميدانية لدراستها وتشخيصها (راجع بهذا الخصوص رسالة الدكتوراة التى ناقشها السيد مصطفى راغب عام ٢٠٠٨ عن سيكولوچية الإحتراق

النفسى فى العمل تحت إشرافنا بكلية الآداب-جامعة عين شمس كنموذج لما نقول؛ ولاهتمامات علم النفس الصناعى والإدارى، علاوة على اهتماماته بكل موضوعات علم النفس الصناعى والتنظيمى التقليدية.

٦ – علم النفس السياسى **Political Psychology :**

فرع من علم النفس يهتم بتطبيق مبادئ علم النفس وأسسه ومقولاته ونظرياته ومناهجه فى البحث وطرقه؛ لدراسة المشكلات السياسية والقضايا المختلفة بين الدولة (أو الدول) وغيرها، للوصول إلى أفضل الحلول وأنجحها وأفيدها. فهو يهتم –على سبيل المثال– بدراسة أفضل سبل تحقيق السلام بين الأعداء، أو نشر السلام ومقاومة الحروب ومنع التورط فيها (Taha: 1986)، وسيكولوچية التفاوض، وأفضل أساليب الحوار بين الأطراف المتصارعة وأجداها، وأنسب السبل لإقناع الخصم بوجهة النظر، ووسائل كسب الرأى العام الداخلى والدولى بعدالة قضايانا السياسية، وكيفية تغيير اتجاهات الخصم أو الرأى العام لزحزحته عن موقفه إلى الموقف الذى ندعو له أو نطالب به، بحيث يصبح مقتنعاً بعدالة قضيتنا.. إن علم النفس السياسى هو –باختصار– استغلال الأسس النفسية لدراسة وفهم وعلاج الظواهر والقضايا السياسية وما يتعلق بها أو ينجم عنها؛ وعلى نحو ما نعترف بها؛ ونريد لها من حلول.

هذا؛ وتغذى الصراعات العسكرية والخلافات السياسية وتناقض المصالح الدولية هذا الفرع من علم النفس، وتستحدث له موضوعات بحثية كثيرة؛ تستهدف أساساً دراسات وتطبيقات سيكولوچية لخدمة السياسة المحلية أو الدولية. وبهذا الصدد تحصى وتشير شاهين فى مقالها لمحة عن علم النفس السياسى فى العالم العربى إلى الكثير من البحوث والدراسات، والكتب والمقالات، التى نشرت فى الوطن العربى فى ميدان علم النفس السياسى (روز مارى شاهين: ٢٠٠٦، ٢٩–٣٣)، كما أن حسين عبد القادر قد نشر عام٢٠٠٤ تحليله النفسى لشخصية بوش الصغير، وقام محمد سيد خليل مع زملائه: مجدة أحمد محمود وطه أحمد المستكاوى ومنى حسين أبو طيرة بنشر كتابهم عن صورة الذات

والآخر عام ٢٠٠٤، حيث كان جزؤه الأول عن الصراع العربى الإسرائيلى. وينشر جيمى بشاى عام ٢٠٠٧ مقاله عن موقف العرب من الصدمات والحروب والكوارث بمجلة الثقافة النفسية المتخصصة. وينشر الآن قدرى حفنى مقالات دورية فى جريدة الأهرام أغلبها مما يدخل فى مجال علم النفس السياسى؛ كما أنى نشرت فى عام ٢٠٠٧ (أبريل) مقالى عن تأملات نفسية فى آثار أحدث حرب عربية (عن حرب إسرائيل وحزب الله) فى مجلة الثقافة النفسية المتخصصة (فرج عبد القادر طه: ٢٠٠٧، ٧٢-١٠٠)؛ كما سبق أن نشرت فى ذات المجلة أيضًا مقالى «أضواء على سيكولوچية الشخصية العربية» (فرج عبد القادر طه: ١٩٩٢، ٥٠-٦٢)؛ الأمر الذى يشير بوضوح إلى اهتمام متزايد فى العالم العربى بفرع علم النفس السياسى ومباحثه.

ولعل مجلة الثقافة النفسية المتخصصة التى يصدرها ويرأس تحريرها بلبنان محمد أحمد النابلسى أول مجلة نفسية عربية تهتم بإصدار أعداد متخصصة للدراسات النفسية فى المجال السياسى، مثل عددها بعنوان «سيكولوچية الأزمات» (يناير ٢٠٠٢)، وعددها بعنوان «سيكولوچية أطفال الانتفاضة» (أبريل ٢٠٠٢)؛ حيث نجد فيهما مقالات مثل «اضطرابات ما بعد الضغوط الصدمية»، و«الآثار النفسية للكارثة الطبيعية»، و«الاختبارات النفسية المستخدمة فى أوضاع الكوارث والأزمات»، و«خصوصية الضغوط النفسية الناجمة عن وضعية الانتفاضة (الفلسطينية)»، و«قراءة سيكولوچية طفل الانتفاضة»، إلى جانب موضوعات أخرى قريبة من مجال علم النفس السياسى. مما يشير إلى اهتمام متزايد فى العالم العربى بفرع علم النفس السياسى ومباحثه، خاصة فى أيامنا هذه، حيث تتزايد الحروب والصراعات والأزمات السياسية فى بلاده انتشاراً وعنفاً.

هذا؛ ويلاحظ أن «البحث العلمى الحقيقى فى ميدان السيكولوچيا السياسية بدأ فى الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية، حين تدعمت هذه البحوث بهجرة مكثفة لعلماء النفس الأوروبيين الهاربين إلى أمريكا من الحرب. فبدأت هذه البحوث من منطلقات إثنية (عرقية) وسخرت هذه البحوث لدراسة اللاوعى الجماعى والشخصيات الأممية

(القومية) لأصدقاء الولايات المتحدة وأعدائها فى محاولة لتسخير سيكولوچية الرأى العام فى الاتجاه السياسى المناسب». (محمد أحمد النابلسى: ١٩٩٩، ١٧). ويعتبر كتاب «سيكولوچية السياسة العربية» الذى ألفه النابلسى (١٩٩٩) من الكتابات العربية الرائدة فى هذا الفرع من علم النفس؛ خاصة فصوله عن سيكولوچية الصراع العربى الإسرائيلى، وسيكولوچية الكوارث العربية، والشخصية العربية فى عالم متغير.

ولم يتبلور بعدُ هذا الفرع بما فيه الكفاية، إلا أن أخطار الحروب أو التهديد بها الآن فى كل مكان من العالم كفيل بالإسراع فى دعم هذا الفرع والاعتراف به، وإن كانت هناك بحوث كثيرة بدأت تنشر فى مجاله. كما أن له مجلة تحمل عنوانه "Political Psychology" تصدر فى نيويورك من أواخر سبعينيات القرن العشرين.

ومن الجدير بالذكر أن مجلة الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقى The International Association of Applied Psychology والمسماة علم النفس التطبيقى Applied Psychology قد خصصت أساساً عددها الأول من مجلدها السابع والأربعين، والصادر فى يناير ١٩٩٨ لعلم النفس السياسى. ومن بعض مقالاتها فى هذا العدد «علم النفس السياسى كعلم نفس تطبيقى Political Psychology as Applied Psychology. وإسهامات علم النفس الاجتماعى فى صنع السلام وبنائه فى الشرق الأوسط». هذا مع العلم بأن هناك قسماً من جمعية علم النفس الأمريكية أفتتح عام ١٩٩٠ باسم علم نفس السلام Peace Psychology (القسم رقم ٤٨)، مما يمكن اعتبار تخصصه ضمن موضوعات تخصص علم النفس السياسى لكنها لاتغطى تخصصه كله، بل تعتبر مجرد جزء من كل، وإن كان أهم أجزاء هذا الكل وأكبرها.

٧ – علم النفس الجنائى Criminal Psychology:

فرع من علم النفس يهتم بدراسة العوامل السيكولوچية وراء جرائم الكبار وانحرافات الأحداث، ومدى جدوى العقوبة وعدالتها فى الفعل الجنائى المرتكب، سواء أكانت الجريمة من الراشدين أم من الأطفال. وما هى القيمة الوظيفية للعقوبة بصفة عامة؟! هل هى

للإصلاح أم للردع أم للقصاص؟! وهل وظيفة العقوبة هى التأثير على مرتكب الجرم، أم لردع من تسول له نفسه الإقدام عليه فتصبح بذلك وظيفة هامة للمجتمع.. كما يهتم علم النفس الجنائى بسيكولوچية المجرم وشخصيته ومدى مسئوليته عن جريمته ووعيه بها.. وهل هو فى حاجة إلى عقاب يردعه عن تكرار جريمته، أم إلى علاج يشفيه من دوافعه الإجرامية ويحصنه ضد تكرار وقوعه فيها.. ومما يجدر ذكره أن القانون الجنائى عادة لايدين المجنون عن جرمه إذا ثبت خلله العقلى، بل يحكم عليه بالإيداع بالمستشفى أو المصحة حتى يتم شفاؤه فيخلى سبيله ويفرج عنه.

ولقد خصصت جمعية علم النفس الأمريكية قسمها الحادى والأربعين لهذا الفرع من علم النفس تحت اسم «علم النفس والقانون» Psychology and Law.

٨ - علم النفس الإكلينيكى Clinical Psychology:

فرع تطبيقى من علم النفس يركز -بصفة خاصة- على المرضى والمضطربين والمنحرفين بهدف تشخيص مرضهم أو اضطرابهم أو انحرافهم وممارسة العلاج لهم بأى طريقة أو منهج من طرق العلاج النفسى وأساليبه المختلفة. ومع التشخيص والعلاج وأثناءهما يضع الأخصائى الإكلينيكى تنبؤات لمسار المرض أو الاضطراب، وأجدى وسائل علاجه، ومدى احتمالات الشفاء منه، ووفق هذا كله يقوم بالاستمرار فى نوع العلاج الذى يمارسه أو تغييره أو تعديله أو الاستعانة بغيره ممن تخصص فى أسلوب آخر من أساليب العلاج يرى أنه أكثر جدوى للحالة التى يقوم بعلاجها.

وكثيراً ما يكون أخصائى علم النفس الإكلينيكى عضواً فى فريق إكلينيكى متكامل Clinical Team يشتمل أساسًا على طبيب نفسى Psychiatrist وأخصائى نفسى إكلينيكى Clinical Psychologist وأخصائى اجتماعى إكلينيكى Clinical Social Worker، حيث يشارك كل عضو من أعضاء هذا الفريق فى تشخيص وعلاج المريض أو المضطرب والقيام بعمليات التنبؤ اللازمة لتطور المرض ومساره، كل حسب تخصصه،

ويجتمعون فى لقاءات دورية يناقشون فيها أساليب العلاج، ومدى جدواه، ومدى الحاجة إلى استمرارها أو تغييرها أو الاكتفاء بإدخال بعض التعديلات عليها...

ولعله من الواضح هنا أن علم النفس الإكلينيكى -كفرع تطبيقى- يعتمد جل الاعتماد على الأسس العلمية التى يمده بها الفرع النظرى -السابق حديثنا عنه- وهو علم النفس المرضى.

هذا، وتفرد جمعية علم النفس الأمريكية القسم الثانى عشر منها لهذا الفرع من علم النفس.

٩ - علم النفس الإرشادى Counseling Psychology:

فرع تطبيقى من علم النفس، خصصت له جمعية علم النفس الأمريكية قسمها السابع عشر، ويهتم بتشخيص وعلاج المشكلات والاضطرابات السلوكية السطحية، والتى ليست ذات جذور ضاربة فى أعماق الشخصية بحيث لا يجدى معها إلا العلاج النفسى. فالإرشاد النفسى هو علاج نفسى سطحى لمشكلات السلوك والحياة اليومية، وكأنه إرشاد وتوجيه للفرد حتى يسوس مشاكله ويتعامل معها بحكمة وكياسة. ومن هنا، فالإرشاد النفسى -فى أساسه- عملية مساندة للفرد وتوجيهه لاتباع أفضل الأساليب لعلاج مشكلاته، مع مساعدته على التبصر بها وبعواملها وديناميātها حتى يصبح أكثر فهماً لها، وبالتالى تحكماً فيها وسيطرة عليها. فإذا فشل الإرشاد النفسى فى علاج مشكلة الفرد، كان عليه أن يتحول إلى أخصائى فى العلاج النفسى يتناول حالته بمستوى أعمق من التشخيص والعلاج؛ أى وجب عليه أن يتحول إلى أخصائى نفسى إكلينيكى يتابع علاجه.

على أن الإرشاد النفسى لاتقتصر مهمته على علاج المشكلات السلوكية فقط، بل إنه يهتم -أيضاً- بمساعدة الفرد على اكتشاف قدراته ومواهبه ونقاط القوة والضعف فيه، حتى يستفيد من كل ذلك فى التعرف على نوع الدراسة أو المهنة التى يتفوق فيها ويتوافق، ويحقق فيها ذاته وطموحاته بنجاح واقتدار؛ فيتجه إليها.

١٠ – علم النفس العائلى Family Psychology:

هذا فرع من علم النفس حديث ، حيث لم تفرد له جمعية علم النفس الأمريكية قسماً من أقسامها إلا حديثًا؛ حيث إن نشرة الجمعية عام ١٩٨٢ لم يكن بها هذا القسم. أما الآن فهو يحتل القسم الثالث والأربعين منها. وهو فرع نظرى تطبيقى فى الآن نفسه؛ وإن كان يغلب عليه الجانب التطبيقى. فهذا الفرع يهتم بدراسة العلاقات النفسية بين أعضاء الأسرة بعضهم وبعض: الزوج والزوجة، الآباء والأبناء، الأمهات والأبناء، وبين الأبناء بعضهم البعض مع دراسة تطور كل هذه العلاقات ومراحلها وارتقائها. كما أنه يدرس الوظائف السيكولوجية للعائلة كمؤسسة اجتماعية، مع وضع التوصيات التطبيقية التى ترتقى بمستوى أداء الأسرة لهذه الوظائف النفسية؛ كتربية النشء الخالى من الاضطرابات النفسية، وتنمية الإحساس بالأمان النفسى بين أعضاء الأسرة مع الحفاظ على دفء علاقات المودة والحب المتبادل، وكل ما يؤثر على علاقات الزوج بزوجته من عنف أسرى وخلافه... وفى نفس الوقت يمارس أخصائى علم نفس العائلة، عن طريق عيادات العلاج النفسى العائلى واجباته العلاجية والإرشادية عندما تختل علاقات أى عضو فى الأسرة بعضو آخر فيها أو بأكثر. أو عندما نتوقع أن يكون اضطراب المريض أو مشكلة الفرد موضع العلاج أو الإرشاد ناشئة أساساً عن علاقاته الأسرية أو بيئته العائلية، أو عرضا أو رد فعل للعلاقات المتبادلة بين أعضاء أسرته.

وفى هذا يقول جراهام ريتشارد إن «العلاج العائلى هو طريقة للعلاج تصبح فيها العائلة ككل موضوعاً للعلاج وهدفًا له. ونقوم بهذا عندما نحس أن المشكلات النفسية لعضو فى العائلة هى بشكل ما مرتبطة بديناميات العائلة ككل (بتفاعل أعضاء العائلة وعلاقاتهم المتبادلة). فمشكلات الفرد المعين من أعضاء العائلة قد تكون عرضاً (نتاجاً) لكيفيات التعاملات بين أعضائها. وهنا يصبح تحليل هذه المشكلات وفهمها فى حاجة إلى منظور يرى العائلة وكأنها وحدة كلية دينامية التفاعل As Dynamic Wholes ... ومع أن دور العائلة فى خلق المشكلات النفسية معترف به منذ أمد بعيد؛ إلا أن نشأة العلاج الأسرى Family Therapy لم تبدأ كمجال محدد إلا فى خمسينيات القرن الماضى. ومن أوائل

رواده جريجورى بيتسون Gregory Bateson (الذى ينسب إليه صك المصطلح فى عام ١٩٦٠)، (Graham Richards: 2009, 85).

ومن الجدير بالذكر تزايد الاهتمام فى وقتنا الحالى فى البلاد العربية بالبحوث الميدانية فى هذا المجال، على نحو دراسة محمود غلاب المعنونة: العلاقة بين ضغوط العمل وكل من الرضا الزواجى والقلق والإكتئاب لدى عينة من الأزواج والزوجات؛ على اعتبار أن مجالى العمل والأسرة من أكثر مجالات التفاعل الاجتماعى للإنسان فى علاقته بالبيئة والتى يتعرض فيهما لأنواع متعددة من الضغوط (محمود عبد الرحيم غلاب: ٢٠٠٢، ٢٤٣-٣٠٢). ومثل أيضًا دراسة «العنف الأسرى (المنزلى) فى اليمن (مدينة عدن)؛ باعتبار أن دراسة مشكلات العنف المنزلى وما يعنيه من مترتبات العنف الموجه بدرجة رئيسية ضد المرأة وبالتالى نحو الأطفال، إنما يلامس وحدة النسيج الأول فى المجتمع (الأسرة)». (معن عبد البارى قاسم: ٢٠٠١، ٢٣-٣٩).

ومن نافلة القول أن نذكر أن علم نفس العائلة يستفيد كثيراً من المبادئ السيكولوچية فى كثير من فروع علم النفس؛ كالتحليل النفسى والصحة النفسية والإرشاد النفسى وعلم النفس الإكلينيكى.. إلخ.

١١ - التحليل النفسى Psychoanalysis:

فرع من فروع علم النفس يغلب عليه الجانب التطبيقى، حيث يهتم بدراسة الظواهر السلوكية والاجتماعية والحضارية وفق منهج التحليل النفسى ونظريته، واللذين أقامهما فرويد منذ ما يزيد على مائة عام. ولذا يعتبر التحليل النفسى من أقدم فروع علم النفس. وقد أفردت له جمعية علم النفس الأمريكية قسمها التاسع والثلاثين.

ولعل أشهر ما يعرف به التحليل النفسى كونه طريقة خاصة من طرق العلاج النفسى للأمراض النفسية والاضطرابات السلوكية، تمتاز عن سائر الطرق الأخرى بعمق تناولها لشخصية المريض أو المضطرب، وبشمول هذا التناول، وبتتبع مسار المرض أو الاضطراب وصولاً إلى أعمق أصوله وعوامله وأبعدها تاريخاً فى شخصية المريض. يصاحب كل ذلك

الكشف عن ديناميات المرض وتطور أعراضه ووظائف كل منها، والأخذ بيد المريض حتى يصل هو نفسه إلى كل ذلك، بحيث تملؤه القناعة بكل ما يكتشف أثناء تحليله النفسى. ويساعد المحلل المريض على الانتقال من مرحلة المعرفة إلى مرحلة الشفاء وفق قاعدة إذا عرفت استطعت، حيث يأخذ بيده نحو تبنى السلوك الأمثل والأصح وترك السلوك الأعوج المريض الذى كان يتشبث به قبل التحليل، فإذا بالشفاء يواتيه والصحة النفسية تعاوده تلقائياً عند المراحل النهائية من علاجه (مصطفى زيور: ١٩٨٥، ٧ – ٣٩).

١٢ – علم النفس الرياضى Exercise and Sport Psychology:

يعتبر هذا الفرع من أحدث فروع علم النفس، حيث أفردت له جمعية علم النفس الأمريكية قسماً خاصاً به هو القسم السابع والأربعين. ويهتم هذا الفرع بدراسة العوامل السيكولوجية وتطبيق المعلومات والنظريات النفسية فى مجال الأنشطة الرياضية المختلفة، مع استخدام منهج البحث النفسى فى دراسة أية مشكلة أو ظاهرة تستحق الدراسة فى هذا المجال. ويهدف علم النفس الرياضى، من وراء كل هذا، إلى فهم العوامل السيكولوجية اللازمة للأداء الكفء للنشاط الرياضى المعين، سواء أكان لعب كرة أم تنس أم سباحة أم مصارعة..إلخ.

وعلى هذا، فهو يهتم بدراسة تأثير وأهمية وفاعلية الظواهر النفسية المختلفة، كالإيحاء، والانتباه، والإدراك، وأثر الهالة، والمثابرة، والتدريب، والمهارات الحسية الحركية... على فوز اللاعب أو الفريق، أو على هزيمتهما.

١٣ – علم النفس الصيدلى Psychopharmacology:

فرع يهتم أساسًا ببحث ودراسة أثر العقاقير والأدوية على الحالة النفسية للفرد، واستخداماتها لعلاج الأعراض النفسية المرضية؛ كأعراض الاكتئاب أو الهوس أو الفصام أو القلق... أو الإدمان... مع اكتشاف الجديد منها والذى يحقق هذه الأهداف.

وواضح أن التخصص فى هذا الفرع من علم النفس يحتاج إلى تخصص مسبق فى الطب أو الصيدلة، حيث يأتى التخصص النفسى تالياً لأيهما ومتكاملا معه.

ومن الجدير بالذكر أن جمعية علم النفس الأمريكية قد أفردت القسم الثامن والعشرين منها لهذا الفرع من علم النفس.

١٤ – علم النفس البيئى Environmental Psychology:

فرع تطبيقى من علم النفس يركز على دراسة مدى تأثير مختلف الظروف الطبيعية والبيئية التى تحيط بالإنسان على صحته النفسية، وأجهزته العقلية والعصبية، وحالته الانفعالية، وكفايته الإنتاجية، ومختلف أنشطته الحياتية؛ وذلك لفهمها ومعرفتها، واكتشاف أفضل الأساليب لتحسينها أو لعلاج آثارها السلبية، ومقاومة تأثيراتها الضارة، وحماية الإنسان من أخطارها. مع تطبيق، (أو النصح بتطبيق) أنجح الوسائل وأفضل الإجراءات لتقليل أخطار البيئة النفسية، ومقاومة آثارها السلبية، وعلاج ما قد يصيب الأفراد والمجتمعات والإنتاج من أضرارها الخطيرة. ونظراً لأهمية هذا الفرع من علم النفس، فقد أفردت له جمعية علم النفس الأمريكية قسماً خاصاً (هو القسم رقم ٣٤).

وعلى هذا، فإن علم النفس البيئى يهتم ببحوث وتطبيقات المعلومات والنتائج النفسية فى موضوعات تأثير الظواهر البيئية والطبيعية المحيطة بالإنسان؛ مثل التلوث، والضوضاء، والزلازل، والظروف الجوية؛ كالعواصف، ودرجات الحرارة، والرطوبة، والتهوية والإضاءة الصناعية... (Groldenson: 1984, 261). وغنى عن البيان مدى اهتمام المجتمعات فرادى، والعالم كوحدة كونية بأخطار البيئة، خاصة التلوث فى عصرنا الحالى.

ملاحظات عامة حول فروع علم النفس:

استعرضنا -فيما سبق- بعضاً من فروع علم النفس النظرية والتطبيقية، والتى يكاد يجمع معظم علماء النفس على شرعيتها، ويؤكدون وجودها ومسمياتها، وكان رائدنا الأساسى فى ذلك اعتراف جمعية علم النفس الأمريكية بهذه الفروع وإفراد أقسام خاصة منها لها، على نحو ما عرضنا. وكنا فى هذا الاستعراض نوجز أشد الإيجاز مكتفين عند الحديث عن الفرع المعين من علم النفس بالتعريف السريع له ولأهدافه، تاركين التوسع فى هذه التعاريف لمن يريد ذلك بالرجوع إلى الكتب المتخصصة فى كل منها على حدة.

كما أننا لم نشغل بالنا كثيراً بإحصاء كل فروع علم النفس، بل اخترنا نماذج –

فقط- من فروعه الهامة؛ قديمها الذى لازال يلقى الاعتراف والاهتمام، وحديثها الذى يلقى الاعتراف وبدأ فى الانتشار. وينبغى أن نختم عرضنا السابق لفروع علم النفس بهذه الملاحظات العامة:

(١) أن بعض فروع علم النفس تدرس فى الجامعات تحت مسميات قد تختلف بعض الشيء عما ذكرناه، وأن بعضها -أيضاً- قد ينقسم إلى أكثر من فرع، وأن بعضًا آخر قد يضم معًا مكوناً فرعًا واحداً. وهذا دليل على حيوية العلم واستجابته لمتطلبات كل مجتمع وكل جامعة وظروفهما. فعلى سبيل المثال، نجد أن علم النفس الصناعى والتنظيمى يدرس فى بعض المجتمعات أو الجامعات تحت اسم علم النفس المهنى Vocational Psychology، مع زيادة أو نقصان بعض الموضوعات المتفق على ضمها فى دائرة علم النفس الصناعى والتنظيمى. كما أن علم النفس الهندسى Engineering Psychology وسيكولوجية التأهيل Rehabilitation Psychology وعلم نفس المستهلك Consumer Psychology تدرس جميعها تحت فرع علم النفس الصناعى والتنظيمى فى بعض الجامعات، كما تدرس كفروع مستقلة فى جامعات ومجتمعات أخرى. كما أن علم النفس الصيدلى يدرس فى بعض الجامعات كموضوع من موضوعات علم النفس الفسيولوچى، وينفصل كفرع مستقل فى غيرها...

(٢) أن هناك إرهاصات بفروع جديدة فى علم النفس لم تكتسب بعد شرعية كافية لوجودها المستقل وانتشارها مثل علم النفس السياسى Political Psychology مع أن له جمعية علمية دولية تصدر مجلة دورية باسمه من أمريكا منذ عام ١٩٧٩. ومثل -أيضًا- علم النفس الإدارى Managerial Psychology، والذى يهتم بتطبيق الأسس والمعلومات النفسية ومناهج البحث فى علم النفس؛ لدراسة ومعالجة المشكلات الإدارية المختلفة فى مؤسسات العمل. وهو يتداخل -إلى حد ما- مع علم النفس الصناعى والتنظيمى فى بعض ما يهتم به من موضوعات وظواهر؛ كالأجواء الإدارية، والروح المعنوية، والمنافسة والتعاون...

(٣) أن فروع علم النفس يغذى بعضها بعضاً، ويعتمد بعضها على بعض، وأن الفصل بين موضوعاتها كثيراً ما يكون فصلاً تعسفيًا، حتى أن كثيراً منها يدرس موضوعات وظواهر مشتركة، فلا غرابة أن نجد موضوعًا واحداً يدرس فى أكثر من فرع من فروع علم النفس ويعتبر -فى الآن نفسه- مكوناً أساسياً لكل منها. فعلى سبيل المثال فقط، نجد أن موضوعًا كموضوع القيادة والإدارة والرئاسة يدرس فى كل من علم النفس الاجتماعى، وعلم النفس الصناعى والتنظيمى. وعلم النفس العسكرى، وعلم النفس السياسى، وعلم النفس التربوى... ولذا ينبغى أن تكون نظرتنا إلى هذه الفروع متسمة بالمرونة، رافضة للتقسيم الحاد الجامد. وهذا يدعم ملاحظتنا الأولى.

(٤) تعقد مؤتمرات دولية بصفة دورية لعلم النفس، لعل أقدمها وأكبرها على الإطلاق هوالمؤتمر الدولى لعلم النفس International Congress of Psychology، حيث عقد لأول مرة فى باريس عام ١٨٨٩ . وبعد أن تكون الاتحاد الدولى لعلم النفس International Union of Psychological Science (IUPS) فى عام ١٩٥١ (وكانت مصر ضمن العشرين عضواً المؤسسين له) أخذ على عاتقه عقد هذا المؤتمر بصفة دورية منتظمة كل أربعة أعوام. وهكذا عقد المؤتمر الدولى الرابع والعشرون باستراليا عام ١٩٨٨، وسبقه المؤتمر الثالث والعشرون بالمكسيك عام ١٩٨٤، أما المؤتمر الثانى والعشرون فقد عقد بليبزج بألمانيا الشرقية عام ١٩٨٠ بنفس الجامعة التى شهدت إنشاء أول معمل لعلم النفس فى العالم على يد فونت، وكان بمثابة احتفاء واحتفال من الإتحاد الدولى لعلم النفس بمرور مائة عام على إنشاء فونت لمعمله بتلك الجامعة؛ هذا المعمل الذى نقل علم النفس نقلة هائلة كما نعلم. ويصل عدد المشاركين فى المؤتمر الدولى لعلم النفس إلى قرابة الثلاثة آلاف عضو، ويعرض فيه ما يقارب الألفى بحث، علاوة على محاضرات عامة للأساتذة المدعوين من أنحاء مختلفة من العالم. ويعتبر هذا المؤتمر هو مؤتمر علم النفس بكافة فروعه وتخصصاته. ويلى المؤتمر الدولى لعلم النفس هذا -من حيث القدم وعدد المشاركين فيه- مؤتمر

دولى آخر يعرف بالمؤتمر الدولى لعلم النفس التطبيقى International Congress of Applied Psychology، وهو المؤتمر الذى تتولى تنظيمه وعقده الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقى International Association of Applied Psychology. وقد أنشئت فى عام ١٩٢٠ لتضم المهتمين بمجالات علم النفس التطبيقية من أنحاء العالم. ويعقد هذا المؤتمر بصفة دورية كل أربعة أعوام. ويشارك فيه حوالى ألفى عضو. ويقدم فيه حوالى الألف بحث بخلاف المحاضرات العلمية العامة التى يلقيها علماء مدعوون من أنحاء العالم. ولقد عقدت الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقى مؤتمرها الواحد والعشرين فى صيف عام ١٩٨٦ بالقدس، أما مؤتمرها السابق عليه (المؤتمر العشرون) فقد عقد بأدنبره Edinburgh (باسكتلندا) فى صيف عام ١٩٨٢.
وهناك جمعيات دولية أخرى فى علم النفس عامة، أو فروع متخصصة منه، تقوم بعقد مؤتمرات دورية (كل عام أو كل عامين أو أكثر)، كجمعية علم النفس عبر الثقافى، والتى سبق أن أشرنا إلى عقدها للمؤتمر الثامن لها فى صيف عام ١٩٨٦ باستانبول (تركيا). وكلها جمعيات أحدث، وعدد المشاركين فى مؤتمراتها أقل.

(٥) هناك -أيضاً- مؤتمرات محلية دورية لعلم النفس تنظمها وتعقدها جمعيات علم النفس بكل بلد على حدة، كالمؤتمر السنوى الذى تعقده جمعية علم النفس الأمريكية، وسبقت الإشارة إليه.

(٦) ومن الجدير بالذكر والتنويه الإشارة إلى المؤتمر الدورى (السنوى) الذى تقوم بتنظيمه وعقده الجمعية المصرية للدراسات النفسية منذ عام ١٩٨٥، حيث عقدت المؤتمر الأول لعلم النفس فى مصر بجامعة حلوان، ثم عقدت مؤتمرها الثانى فى عام ١٩٨٦، ثم الثالث فى عام ١٩٨٧ بجامعة القاهرة، ثم الرابع عام ١٩٨٨ بجامعة عين شمس، ثم الخامس عام ١٩٨٩ بجامعة طنطا. وفى فبراير من عام ١٩٩٨، عقدت مؤتمرها الرابع عشر لعلم النفس فى مصر فى كلية التربية بجامعة عين شمس بالقاهرة، حيث احتفت فيه واحتفلت بالعيد الخمسينى على إنشائها، وفى نفس المقر الذى شهد ميلادها عام ١٩٤٨. كما عقدت رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية

بالقاهرة مؤتمرها الإقليمى الأول عام ٢٠٠٧ .وهى جميعًا مؤتمرات مخصصة لكل فروع علم النفس دون تحديد، تلقى وتناقش فيها البحوث النفسية، إلى جانب ما يعقد فيها من ندوات لمناقشة قضايا محددة تهم المجتمع المصرى والعربى، والعلم والمشتغلين به على حد سواء.

(٧) هذا، إضافة إلى المجلات والدوريات العلمية المتخصصة فى علم النفس والتى يصعب حصرها وتصدر فى أنحاء مختلفة من العالم بصفة دورية؛ ومنها فى عالمنا العربى على سبيل المثال مجلة علم النفس التى تصدر فى مصر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب منذ عام ١٩٨٧، ومجلة علم النفس المصرية السابقة عليها، والتى كان يصدرها يوسف مراد ومصطفى زيور من دار المعارف منذ عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٥٣ . والمجلة المصرية للدراسات النفسية التى تصدرها الجمعية المصرية للدراسات النفسية منذ عام ١٩٩١ حتى الآن، ومجلة دراسات نفسية التى تصدرها رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية منذ عام ١٩٩١ حتى الآن، ومجلة الثقافة النفسية المتخصصة التى يصدرها مركز الدراسات النفسية بلبنان منذ عام ١٩٩٠ وحتى الآن.

مدارس علم النفس

تمثل مدارس علم النفس اتجاهات عامة نظرية وتطبيقية متميزة ومختلفة فى النظر إلى سيكولوچية الإنسان. وهذا التمايز والاختلاف لايمنع من وجود أوجه اتفاق كثيرة أو تشابه بين بعضها وبعض؛ وإن ظلت كل مدرسة ذات طابع متميز يغلب عليها فى النظر إلى الإنسان والبحث فى جوانبه النفسية المختلفة. فإذا أضفنا إلى كل ذلك ما يلاحظ من تعصب بعض أنصار المدارس -حتى ولو بالباطل- لمدارسهم، ومن هجوم -حتى ولو بالباطل أيضًا- على غيرهم من أنصار المدارس الأخرى تبين لنا الأثر السلبى الناجم عن تقسيم علماء النفس إلى مدارس، وترويج كل منهم ادعاءات باطلة عن ميزات مدرسته، وأنها

الوحيدة صاحبة الحق المشروع فى الوصول إلى الحقيقة النفسية، وصاحبة الأداة الصحيحة الوحيدة الموصلة إلى ذلك؛ بمعنى صاحبة المنهج العلمى الوحيد فى دراسة النفس البشرية... وبالتالى، فما وصلت إليه من نتائج هى وحدها الحقائق النفسية وما عداها فهو باطل منكور.

ولقد نسى هؤلاء المتعصبون ضيقو الأفق أن العلم هو أولاً وأخيراً علم، وأننا ينبغى أن نحترم الحقائق التى يثبت صدقها ويقوم الدليل على فائدة تطبيقاتها وجدوى منفعتها، أياً كان العالم الذى وصل إليها، ويغض النظر عن انتمائه الوطنى أو السياسى أو الاجتماعى أو المدرسى... فالعلم كما يقولون لا وطن له، وبالتالى لا انتماء له.

ولا بأس على العالم -فى نظرنا- من أن يتخصص- دون تعصب- فى جانب معين من جوانب العلم أو فرع معين فيه، وأن يعالج بحوثه بمنهج معين يجيده، بدلاً من أن يدعى أنه ينتمى إلى هذه المدرسة أو يتعصب لها؛ لأن هذا الانتماء أو التعصب سوف يقوده إلى رفض حقائق توصلت إليها غيرها من المدارس وإلى تبنى -عن طريق التعصب الأعمى- بعض أباطيل قد تكون روجت لها مدرسته.. وهذه آفة العلوم الإنسانية قاطبة، ومنها علم النفس بطبيعة الحال، وهذا ما نريد التنبيه إليه منذ البداية.

ولعل ما سبق أن ذكرناه عن موقفنا من ظاهرة مدارس علم النفس لا يعفينا من نظرة عجلى على أهم مدارسه المعاصرة فى كتاب كهذا، قصدنا به أن يكون مدخلاً عاماً لعلم النفس الحديث.

١ - مدرسة التحليل النفسى Psychoanalysis:

تعتبر مدرسة التحليل النفسى من أقدم مدارس علم النفس، وأكثرها شيوعاً وتأثيراً فى العلم وفى غيره من علوم الإنسان حتى الآن. بل إن تأثيرها قد امتد ليشمل الفن والأدب والطب والفلسفة والأنثروبولوجيا والاجتماع والتربية والثقافة بعامة، منذ بدء انتشار أفكارها ومكتشفاتها من أواخر القرن التاسع عشر وحتى الآن.

ويرجع الفضل فى إنشاء هذه المدرسة إلى الطبيب والعالم النفسى النمساوى سيجموند فرويد Sigmund Freud (١٨٥٦ – ١٩٣٩).

ففى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين شُغل فرويد بالبحث المتعمق لاكتشاف أسباب وعوامل بعض الظواهر النفسية التى كانت آنذاك مستغلقة على الفهم والتفسير؛ مثل: الأحلام والأمراض النفسية والاضطرابات السلوكية... ونجح عند ذاك فى ابتداع منهج لدراسة كل ذلك هو التداعى الطليق Free Association الذى قاده فى النهاية إلى مكتشفاته الكبرى فى النفس البشرية؛ كاللاشعور Unconscious والكبت Re-pression والمقاومة Resistance والصراع النفسى Psychological Conflinct وغريزة الحب Love Instinct وغريزة الموت Death Instict والهو ID والأنا Ego والأنا الأعلى Super Ego وحيل الدفاع Defence Mechanisms وعقدة أوديب Oedipus Complex... ولقد دخلت مقولات التحليل النفسى هذه وغيرها مختلف جوانب حياتنا الثقافية والعلمية والتطبيقية وأثرت فيها تأثيراً كبيراً، خاصة فى المجال النظرى وفى المجال العلاجى.

٢ – المدرسة السلوكية Behaviorism:

نشأت المدرسة السلوكية فى علم النفس فى صورة متبلورة فى العقد الثانى من القرن العشرين كرد فعل على كل من التحليل النفسى فى بحثه عن أعماق النفس البشرية وديناميـاتها والمعنى الكامن وراء مظاهرها، وعلى الاستبطان Introspection كاتجاه منهجى سائد فى البحوث النفسية آنذاك، وأيضًا على الوجدان والشعور كمصدر أساسى لدراسة الظاهرة النفسية.

وتقوم النظرة السلوكية على أساس افتراض أن السلوك الإنسانى إنما يحدده أساسًا ما تعلمه الإنسان فى حياته، خاصة عن طريق الثواب والعقاب (Bernstein & Nash : 2002, 3). وبالتالى فإنها تهدف إلى دراسة السلوك الذى يمكن ملاحظته، وتشرحه

وتفسره وفق مبادئ التعلم ومن خلالها، ولهذا يقوم منهجها فى العلاج النفسى على أساس تعلم السلوك السوى الجديد ونسيان أو تحاشى السلوك المرضى القديم، وذلك عن طريق أساسى هو تكرار الإثابة على السلوك المرغوب وتكرار العقاب على السلوك المدان والمطلوب تحاشيه.

ويعتبر عالم النفس الأمريكى جون واطسون John Watson (١٨٧٨–١٩٥٨) أهم أعمدة المدرسة السلوكية وأبرز واضعى أسسها، ومحددى اتجاهاتها. ويعتبر كتابه «السلوكية Behaviorism»، والذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٢٤ (Watson:1970)، وظل يعيد النظر فيه طوال حياته، أهم الكتب التى عرضت اتجاهات المدرسة السلوكية فى علم النفس وأصلتها.

ولبيان اتجاهات هذه المدرسة وفلسفتها الأساسية ننقل هنا نصاً من كتاب واطسون الذى نشره عام ١٩١٤ بعنوان: «السلوك: مقدمة لعلم النفس المقارن» حيث يقول فيه: «علم النفس كما يراه السلوكى هو شعبة تجريبية موضوعية خالصة من العلم الطبيعى. وهدفه النظرى هو التنبؤ بالسلوك وضبطه. وليس الاستبطان جزءاً رئيسياً من مناهجه، ولا القيمة العلمية لحقائقه تقوم على استعدادها لأن تعبر عن نفسها بألفاظ الشعور... ولعله لابد قد حان الوقت الذى يطرح فيه علم النفس كل إشارة إلى الشعور، إذ لم تعد به حاجة بعد إلى أن يخدع نفسه فى حسبان أن يجعل الحالات العقلية موضوعاً لملاحظته.. من الممكن أن نكتب فى علم النفس، وأن نعرفه بما عرفه به بلزبرى Pillsbury من أنه (علم السلوك Science of Behavior) فلا نرجع القهقهرى فى التعريف، ولا نعود قط إلى استخدام ألفاظ: الشعور: والحالات العقلية، والذهن، والمضمون، والإرادة، والتصور وما شابهها... فإن من الممكن أن تؤديها ألفاظ: المنبه والاستجابة، وكلمات: تكوُّن العادة، وتكامل العادة، وما أشبهها... وغاية ذلك أن نتعلم الطرائق العامة والخاصة التى يمكن أن يضبط بها السلوك... فإذا سار علم النفس على هذه الخطة المقترحة؛ فإن عالم التربية، والفيزيقى، والقانونى، ورجل الأعمال يمكن أن ينتفعوا بحقائقه من الناحية العملية، بالقدر الذى يمكن أن تحصل به من الناحية التجريبية». (ودورث: ١٩٨١، ١٠٤).

ولقد ابتدأت هذه المدرسة تاريخها بالتركيز على دراسة الارتباط الآلى بين المنبه والاستجابة كما تبدو فى التجارب الشديدة التبسيط فى بعض معامل علم النفس، متجاهلة تماماً الإنسان بما يحتوى عليه من مشاعر ووجدان، وما يعمل بداخله من ديناميات لاسبيل إلى تجاهلها إذا أردنا فهم سلوكه وتقويمه. وتعتبر تجربة واطسون التى استطاع فيها أن يزرع فى الطفل الصغير ألبرت خوفًا مرضياً Phobia من الفأر، ثم استطاع بعد ذلك علاجه بالتجريب أيضاً؛ نقول تعتبر هذه التجربة نموذجاً للسلوكيين فى دراساتهم ونظرتهم إلى السلوك الإنسانى. وخلاصة هذه التجربة أن ألبرت كان يحب الفأر الأبيض ويلعب معه، فابتدأ واطسون تجربته بإحداث صوت مزعج مخيف كلما ظهر الفأر للطفل وحاول أن يلعب معه. وكرر ذلك مراراً حتى ربط الطفل بين ظهور الفأر وبين الخوف من الصوت المزعج، فأصبح مجرد ظهور الفأر يستثير خوف الطفل. وفى المرحلة التالية من التجربة، والتى استهدفت علاج الطفل من هذا الخوف المرضى، كان المجرب يقدم لألبرت قطعة من الشيكولاتة مع ظهور الفأر من بعيد، وفى كل مرة يكرر نفس المحاولة، مع اقتراب الفأر أكثر وأكثر من ألبرت، حتى تعلم ألبرت من جديد حب الفأر واختفى الخوف منه وذلك بالربط بين ظهور الفأر وبين حصول الطفل على شىء يحبه، حتى أصبح ظهور الفأر مقدمة لحصول ألبرت على شىء يحبه، وبالتالى أصبح محبوباً لا مخيفاً. وواضح أن حياة الإنسان النفسية ليست بمثل هذه البساطة التى ظهرت فى هذه التجربة.

ومع مرور الزمن واتساع بحوث علماء هذه المدرسة بدأوا يفطنون إلى الحقائق التى كانت غائبة عنهم، ويعترفون بها ويخففون من غلوائهم وتعصبهم، فبدأوا –على استحياء– فى الاعتراف بالديناميات النفسية وبالأعماق اللاشعورية وبمعانى السلوك ودلالاته ومغزاه.

٣ – مدرسة الجشتلط Gestalt Psychology:

مع ظهور المدرسة السلوكية فى أمريكا ظهر فى نفس الوقت تقريباً بألمانيا مدرسة علم نفس الجشتلط على يد ثلاثة من العلماء النفسيين الشبان الذين تزاملوا فى جامعة برلين، وهم: ماكس فريتمر (١٨٨٠ – ١٩٤٣) Max Wertheimer وكيرت كوفكا (١٨٨٦ –

١٩٤١) Kurt Koffka وفولفجانج كوهلر (١٨٨٧ - ١٩٦٧) Wolfgang Kohler لكنهم لم يكونوا على صلة بعلماء النفس السلوكيين آنذاك، وإنما كان التزامن مجرد صدفة. وعندما تعرف علماء كل من المدرستين على زملائهم فى المدرسة الأخرى تبين لكل منهم مدى الخلاف فى الرأى والبون الشاسع فى نظرة كل منهما إلى الظاهرة النفسية. لقد كانت مدرسة الجشتلط، كما نشأت -أيضاً- المدرسة السلوكية، ثورة على علم النفس السائد آنذاك وتصحيحاً -كما يرون- لتوجهاته وفلسفته ومناهجه، وإن كنا نرى أنها وغيرها لم تكن أكثر من إضافات وتصويبات فى النظر إلى الظاهرة النفسية حتى تصبح النظرة أكثر دقة وصواباً وقرباً من الحقيقة، وحتى يصبح تناول الظاهرة النفسية وبحثها أكثر تكاملاً وشمولاً وعمقاً.

فلقد ثارت مدرسة الجشتلط على النزعة التفتيتية للظاهرة النفسية والنزعة التحليلية للشعور والإدراك. ولعل أهم ما لفتت هذه المدرسة النظر إليه هو فكرة أن الكل غير مجموع أجزائه، وأن الجزء يكتسب معنى معيناً، ويقوم بوظيفة مخالفة إذا نزع من الكل Whole الذى يحتويه ووضع فى كل آخر مغاير، أو نزع من الصيغة Gestalt التى يدخل ضمن مكوناتها، ووضع فى صيغة أخرى جديدة. ومن هنا، عرفت هذه المدرسة بهذه اللفظة الألمانية Gestalt.

وهكذا، «فالجزء فى كلٍّ هو شىء يختلف عن هذا الجزء منعزلاً أو فى كل آخر، وذلك بفضل الخصائص التى يكتسبها من وضعه ومن وظيفته فى كل حالة من الحالات. وتغير شرط موضوعى يمكن -أحياناً- أن يتمخض عن تغيير (جزئى) فى الجشتلط موضوع الإدراك، ويمكن -أحياناً أخرى- أن (يؤدى) إلى تغيير فى خصائص الجشتلط برمتها (جيوم: ١٩٦٣، ٣٣). وفى هذا المعنى، يذكر صلاح مخيمر أن أهم ما يميز نظرية الجشتلط -كرد فعل لعلم النفس الوصفى- أنها نظرية تشتغل بالوحدة الكلية (الجشتلط)، وتبدأ منها متجهة إلى الأجزاء... أى... من أعلى إلى أسفل، ولكن الحركة من أسفل إلى أعلى ليست بمستبعدة. فثمة فى الحق حركة ديالكتيكية من الذهاب والمجئ ما بين الكل والأجزاء وهى حركة تثرى النظرة الإجمالية الكلية الأولى عن الكل، مما يتيح حيناً

الإمساك بالوحدة فى تكثرها، وحيناً بالكثرة فى توحدها (صلاح مخيمر: بدون تاريخ؛ ٢٠، ٢١). كما يضيف فى تعقيبه أسفل الصفحة رقم ٢٠ «يتوهم البعض أن مفهوم الوحدة الكلية (الجشتلط) يقتصر على الإدراك، مع أن نظرية الجشتلط ترى أن كل ظاهرة حية، فسيولوچية أو نفسية أو اجتماعية، هى جتشتلط، بل إن بعض الظواهر الفيزيائية هى جشتلطات».

هذا، وقد قام علماء النفس الجشتلطيون بكثير من التجارب المعملية التى تدلل على صواب رؤيتهم ودقتها، من حيث ضرورة النظر إلى الظواهر فى كلياتها والتعامل معها وفق هذه الرؤية دون التركيز على الأجزاء المكونة للظاهرة كأجزاء مستقلة، بل -فقط- من حيث علاقتها بالكل المعين. وتجاربهم فى موضوع الشكل والأرضية Figure and Background وفى عامل الغلق والتكميل Closure، وفى ظاهرة الحركة Phi-Phenomena، وفى ظواهر الإدراك -عموماً- معروفة وموضع تقدير.

ولاشك فى صحة فكرتهم هذه، فالجنيه فى جيب فقير لايملك كثيراً غيره، له قيمة كبيرة ووظيفة أهم، إذا ما قارناه بجنيه فى جيب غنى يملك كثيراً من الألوف غيره، على سبيل المثال.

ولعل من أشهر أعضاء هذه المدرسة -بعد الثلاثة الذين أسسوها- هو كيرت ليفين (١٨٩٠ - ١٩٤٧) Kurt Lewin، والذى زاملهم -أيضاً- فى جامعة برلين لفترة من حياته الأولى كعالم نفس، إلا أن هذه المدرسة لم تستكمل للأسف -مسيرتها، ولم تتابع دراساتها، بعد موت أقطابها.

٤ - مدرسة علم النفس الإنسانى Humanistic Psychology :

تمثل هذه المدرسة اتجاهاً حديثاً فى علم النفس، أو تياراً من تياراته بدأ فى الستينيات من القرن العشرين، وربما كانت تسميته بتيار أو اتجاه فى علم النفس -على الأقل فى الوقت الحالى- أنسب من تسميته مدرسة. إذ أنها فى دور النشأة ولم تتبلور بعد فى منطلقات واضحة الاتجاه، محددة المذهب، متكاملة النظرة بما فيه الكفاية، على نحو ما

نرى فى المدارس النفسية الثلاث سابقة الذكر. ويرى البعض أن علم النفس الإنسانى يمثل قوة ثالثة فى علم النفس تقف بين السلوكية والتحليل النفسى.

وتمثل مدرسة علم النفس الإنسانى، أو حركة علم النفس الإنسانى، تياراً فى علم النفس ينظر إلى الإنسان ويتناوله بالدراسة بما هو إنسان؛ أى على أنه إنسان وليس آلة أو حيواناً. فهو إنسان له وحدته وتميزه، وإرادته وحريته فى الاختيار، كما أن له قدراته الابتكارية والفكرية الهائلة، وله رغباته وآماله وأحلامه، ومخاوفه وآلامه، وقواه المختلفة، ومداركه المتسعة. وبالتالى، فإنه مسئول عن أفعاله وتصرفاته، وهو- علاوة على كل هذا- عضو فى مجتمع إنسانى يؤثر فيه ويتأثر به، له ماضيه الذى يؤثر فى حاضره، كما له حاضره الذى يؤثر فى تحديد مستقبله.

ونجد لهذا التيار أنصاراً كثيرين من علماء النفس، ويعتبرون مؤصليه حتى قبل أن يظهر بهذه التسمية؛ ومنهم ألبورت Allport وفروم Fromm وماسلو Maslow وروجرز Rogers وآدلر Adler وميلتزر Meltzer وودورث Woodwarth؛ على الرغم مما بين كل منهم من تباين.

ومن الجدير بالذكر أن جمعية علم النفس الأمريكية قد أفردت لعلم النفس الإنسانى القسم رقم ٣٢ منها، كاعتراف بأهمية هذا التيار السيكولوچى المتزايد قوة وتأثيراً.

٥ – علم النفس الإيجابى Positive Psychology:

ربما كان هذا توجُّهاً أكثر منه مدرسة نفسية بالمعنى الصرف؛ حيث إنه لايزال فى بداياته؛ لم ينتشر بعد أو يتبلور بما فيه الكفاية؛ إذ أن التبشير الصريح به لم يمض عليه سوى بضع سنين قليلة. فقد قدَّمه عالمان نفسيان أمريكيان هما سيلجمان Seligman (أستاذ علم النفس بجامعة بنسيلفانيا)، وشيكزينتميهاليى Csikszentmihalyi (أستاذ علم النفس بجامعة كلاريمونت Claremont) فى عدد يناير عام ٢٠٠٠ من مجلة American Psychologist التى تصدرها جمعية علم النفس الأمريكية فى مقال بعنوان: (علم النفس الإيجابى: تقديم Positive Psychology: An Introduction) وذلك كافتتاحية

للألفيـة الثـالثـة، وللقـرن الـواحد والعشرين، وللعـدد فـى الـوقت نفسه (American Psy-chologist, January, 2000, 5-14).

هذا؛ «ويمتـاز طرحـهـمـا وتأصيلهـمـا لهـذا التـوجـه الجـديد، فى علم النفس بـالعقـلانيـة الرفيعـة، والإقناع الشديد، والمنطـق السديد. وفيه يقـولان: إنه مـع دخـول ألفيـة جـديـدة يواجـه الأمـيركيـون بخيـار تاريخـى. فقـد أصبـحت الولايات المتحـدة وحدها على قـمـة القيادة الاقتصاديـة والسياسيـة للعالـم، مما يتيح لها استـمرارهـا فى زيادة ثرائها المادى Material Wealth فى حين تتجاهل الحاجات الإنسانية Human Needs لشعبها، وأيضاً لبقية شعوب العالم. ومثل هذا الطريق يحتمل أن يؤدى إلى زيادة الأنانية، واتساع الفجوة بين الأكـثر غنى والأكثر فقراً (من الشعـوب) وفى نهاية الأمر يؤدى إلى الاضطرابات واليأس. وفى مثل هذه الظروف يمكن للعلوم الاجـتماعـية والسلوكـية أن تلعب دوراً هامًا وكبيراً. فهى يمكن أن تطرح رؤية للحياة الطيبة (الخيرة)، وكيف يمكن أن تصبح الحياة مفهومة ومرغوبة وجذابة فى الواقع (المعاش)، فهى (هذه العلوم) يمكن أن تشير بالأفعال والأنشطة التى تؤدى إلى السعادة والرفاهية للجميع، وإلى تنشئة أفراد إيجابيين ومجتمعات مزدهرة. ويجب على علم النفس أن يكون قـادراً على أن يسـاعد فى بيان أىٍّ الأسـر تنتج أطفـالاً ناجـحين، وأى مـؤسسات عـمل تحـقق أقصـى رضـاء بين العمـال، وأى السيـاسـات والإجراءات تودى إلى بذل أقصـى جهد فى العمل والإنتاج من جانب المواطنين، وكيف يمكن أن تصبح حياة الناس جديرة بأن تعاش محققة للخير والمتعة».

كما يضيفان: «إن علماء النفس حتى الآن لديهم معرفة ضئيلة عما يجعل الحياة تستحق أن تعاش. كمـا أن فـهـمهم قليل عن كـيـفـيـة حـيـاة الناس وظروف الشـدة والمعاناة التى يكابدونها. ومن ناحية ثانية، فإن علماء النفس يعرفون القليل جداً عن كيفية نجاح الناس العاديين عندما تكون الظروف أكثر سواءً. فعلم النفس، ومنذ الحرب العالميـة الثانية، قد أصبح -على نطاق واسع- علمًا للعلاج. فقد ركـز على إصـلاح التـدمـير اللاحق بأداء الإنسـان لوظائفـه -كما هو الحال- فى النمـوذج المرضى. وهذا التركيـز -الغـالب- على أسباب الأمراض وأعراضها وعلاجها إنما يهمل ما يتعلق (من معرفة وفهم وعلم) بـالفرد

الواعد، والمجتمع المزدهر. ولذا فإن هدف علم النفس الإيجابى هو البدء فى إحداث تغيير فى تركيز علم النفس من الإنهماك فقط فى عمليات إصلاح (علاج) الأشياء السيئة فى الحياة إلى -أيضًا- بناء خصائص تمتاز بالإيجابية، وهكذا يكون مجال علم النفس الإيجابى على مستوى الموضوع هو البحث عن الخبرات والتجارب ذات القيمة والفائدة المرغوبة: حُسن الحال، والرفاهية، والسعادة، والاطمئنان،والرضا (عن الماضى)، والأمل والتفاؤل (فى المستقبل)، والسعادة والانطلاق (فى الحاضر). أما على المستوى الفردى، فهو (موضوع وبحث) عن السمات والخصائص الإيجابية للأفراد: القدرة على الحب والعمل، والشجاعة والجرأة، والمهارة فى العلاقات الاجتماعية، وتذوق الجمال والاستمتاع به، والمثابرة، والتسامح، والأصالة، والعقلية المستقبلية، واحترام القيم الروحية، والموهبة العالية، والحكمة. فى حين أنه على المستوى الجماعى يكون موضوعًا وبحثًا عن القوى والمؤسسات التى تدفع نحو المواطنة الصالحة؛ الإحساس بالمسؤولية وتقديرها، وتقديم الرعاية والعون للمحتاج، والإيثار، ودماثة الخلق، والاعتدال، والتسامح،والقيم الأخلاقية للعمل» (Seligman & Csikszentmihalyi: 2000, 5). .

«إن العالمين الأميركيين يعرضان مجال علم النفس الإيجابى هنا كتوجه علمي، أو لنقل صراحة كمدرسة نفسية علمية، نتنبأ بأن يكون لها شأن كبير مستقبلاً فى علم النفس، بوصفها دعوة لتركيز علم النفس، إلى جانب علاج وإصلاح الجوانب المرضية فى الحياة والأفراد، على دراسة كل ما من شأنه الارتقاء بحياة الناس كافة، سواء على المستوى الفردى، أو المستوى المجتمعى، أو المستوى العالمى. وإكسابهم فى كل هذه المستويات أقصى ما يمكن من الشعور بالسعادة والرفاهية والراحة، وإبعادهم قدر المستطاع عن شرور الحياة ومآسيها (سواء فى المجتمعات فرادى أو العالم ككل) المتمثلة كأوضح ما يكون فى ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وفى مآسى الحروب وما تلحقه بالبشرية من دمار، وفى كل التصرفات الفردية والجماعية التى تهدر القيم الإنسانية النبيلة فى مختلف أشكالها».

«هكذا -وعلى سبيل المثال فقط- يكون من صميم علم النفس الإيجابى عمليات التوجيه والإرشاد التربوى؛ التى تختار لكل مؤسسة تعليمية التلاميذ الذين تتوافر فيهم القدرات

والخصائص اللازمة للنجاح فيها، وتوجه كل تلميذ إلى نوع الدراسة المناسب لشخصيته ومواصفاتها، كما يكون من مهامه أيضاً الاختيار والتوجيه والتأهيل المهنى الذى يختار لكل عمل فى مؤسسات العمل والإنتاج من يناسبه من أفراد، أو يوجه الأشخاص ويؤهلهم أو يدربهم على ما يناسبهم من أعمال، أو يُعيِّنهم أو يختارهم أو يرقيهم إلى المناصب التى تؤهلهم لها كفاءاتهم الشخصية، ومهاراتهم القيادية، ومواهبهم الإدارية.. ويكون التعرف على عوامل النجاح الإدارى وتوافر مسبباته ومقوماته اللازمة لنجاح كل نوعية من المؤسسات والمنظمات، واختيار قيادييها وفقها من صميم اختصاص علم النفس الإيجابى. كما يكون التعرف على أفضل أساليب تنشئة الصغار على المهارات والكفاءات والفضائل والسمات التى تجعل منهم مواطنين صالحين نافعين لمجتمعهم وإخوانهم من البشر، والأخذ بها فى تربيتهم -أيضاً- من أهم واجبات علم النفس الإيجابى. وبالمثل يكون كل ما ينمى الصحة النفسية للفرد ويبعد عنه الإصابة بالاضطرابات والانحرافات النفسية من المهام الأساسية لعلم النفس الإيجابى، ناهيك عن تدريب الأفراد وغرس اتجاهات لديهم تحبذ التعاون والتنافس الشريف كبديل عن الصراع المدمر والمنافسة اللاأخلاقية،سواء أكان ذلك بين الأفراد، أم بين الجماعات أم بين المجتمعات... وعن غرس العادات الطيبة لدى النشء وتعويدهم عليها، مع تجنيبهم وتنفيرهم من كل ما هو سيئ وضار من مختلف العادات وأنواع السلوك» (فرج عبد القادر طه: ٢٠٠٤، ٢٩-٣١).

«إن مؤسس علم النفس الإيجابى هو الأستاذ السيكولوچى المعروف مارتن سيلغمان. وهو أيضاً صاحب نظرية (التفاؤل المتعلّم واليأس المتعلّم) فى جامعة بنسلفانيا، ورئيس الجمعية النفسية الأمريكية لعام ١٩٩٨/١٩٩٩. وقد مُنح جائزة مؤسسة جون تامبلتون... اعترافاً بأبحاثه الفذة التطبيقية فى ميدان علم النفس الإيجابى.. ويرى سيلغمان أنه لابدّ من أن يأتى يوم يكون فيه علم النفس قادراً على إتمام اهتمامه بإصلاح الخلل والعطب بواسطة (علم نفس الأمل) وأن يتعرف على الطرائق التى من خلالها يغذى الشجاعة، والشرف، والأمل، كطريق لمنع انتشار الاكتئاب وغيره من الاضطرابات النفسية... فعلم النفس الإيجابى هو علم القرن الواحد والعشرين كما يرى سيلغمان، وهو لايقوم على الوقاية من المرض النفسى فحسب، بل قد يقود إلى فهم علمى لكيفية بناء القوة الشخصية والفضيلة

المتعلقة بالمواطنية، وذلك هو أفضل الأشياء فى الحياة الإنسانية» (محمد حمدى الحجار: ٢٠٠٤، ٤٦).

كما يضيف الحجار: «من أجل بناء علم النفس الإيجابى، كما يرى الأستاذ الدكتور مارتن سيلغمان، نحتاج إلى مفهوم إيجابى لحياة إنسانية جيدة، فالثقافة الحديثة، الأمريكية بخاصة، هى كارهة جداً لإعلام الناس كيف يجب عليهم أن يعيشوا... ولكن فى نهاية المطاف لابدّ من أن نتساءل ماذا نفعل؟». (المرجع السابق بنفس الصفحة).

«ونتوقع لهذا الاتجاه فى علم النفس أن يتبلور فى مدرسة علمية فى المستقبل يتزايد أنصارها مع مرور الوقت، وإن كنت لا أتوقع له أن يصبح فرعًا علمياً محدداً على نحو ما هو معروف فى علم النفس بعلم النفس التربوى، أو علم النفس الإكلينيكى، أو علم النفس الاجتماعى، أو غير ذلك من فروع العلم المختلفة والمعروفة. إذ إن علم النفس الإيجابى (على نحو ما طرحناه هنا) يأخذ من كافة فروع علم النفس فى أسسه وأهدافه وموضوعاته، ويقوم على أكتافها. وبالتالى لايصلح أن يكون نداً لها يقف إلى جوارها، بل الأصوب أن نقول إنه يتداخل معها، وإنه يمثل اتجاهاً إيجابيًا مُحبّذاً ومطلوباً فى دراسة موضوعات كل منها، دون أن يستقل بموضوعات خاصة أو بمنهج خاص... وحبذا لو أخذ علماء النفس فى مصر والعالم العربى بهذا التوجه فى علم النفس، حتى يثبتوا أن علمهم يبحث عما هو أنفع للناس، ويجلب لهم الكم الأكبر من المتعة والرفاهية والسعادة، سواء كان ذلك على مستوى الفرد، أو على مستوى المجتمع المحلى أو على مستوى البشر جميعًا... فنزعة علم النفس الإيجابى شديدة الوضوح فى إنسانيتها، معلية إلى أبعد حد من قيمة المثل العليا والفضائل التى توصلت إليها البشرية فى مسيرتها من حق وعدل، ورحمة وتعاون، وسلام وأمن، وخير وسعادة للناس كافة، والبشر قاطبة، وهكذا يثبت علم النفس أنه صار أكثر نفعاً للتنمية البشرية والاجتماعية معاً» (فرج عبد القادر طه: ٢٠٠٤، ٣١).

لمحة تاريخية

لم يكن علم النفس معروفاً كعلم مستقل محدد الموضوعات والاهتمامات والمنهج إلا فى نهايات القرن التاسع عشر. لكن العلماء والفلاسفة -منذ كتاباتهم الأساسية عبر العصور السابقة- كانوا يتناولون موضوعات متفرقة بالبحث والدراسة، مما يدخل الآن ضمن اختصاص هذا العلم. ففلاسفة اليونان من قبل الميلاد كانت لعظمائهم نظريات وآراء فى النفس البشرية، وما تنطوى عليه من نزعات ودوافع وما تستهدفه من لذة، وما تدركه من معرفة وحقائق، وما تتميز به من جوهر أساسى أو صفات عارضة...إلخ. وكذلك الأمر بالمثل لدى علماء المسلمين وفلاسفتهم، ثم علماء الغرب وفلاسفتهم من بعدهم. فالنفس وظواهرها كانت منذ القدم ومازالت تستثير الفلاسفة للتفكير فيها والتأمل، والعلماء لبحثها وتمحيص حقائقها. ولعل الشعار الفلسفى (إعرف نفسك) الذى رفعه فيلسوف اليونان العظيم سقراط (٤٧٠-٣٩٩ ق.م. Socrates) منذ ما قبل الميلاد بأكثر من أربعة قرون مازال - حتى يومنا هذا- مرفوعاً يستحث العلماء والفلاسفة لدراسة النفس وسبر أغوارها.

ويؤكد لنا توفيق الطويل نشأة علم النفس كجزء من الفلسفة منذ القدم فى عبارات واضحة صريحة فيقول:نشأ علم النفس Psychology كجزء من الفلسفة عند القدماء، إذ اعتبروا العقل مبدأ للحياة، ومن ثم صدرت عنه الظواهر النفسية. يمثل هذه الوجهة من النظر أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م. Aristotle) الذى اعتبر علم النفس جزءاً من العلم الطبيعى، الذى كان عنده يدرس الوجود من حيث هو متحرك ومحسوس (والعلم الطبيعى عند أرسطو هو الفلسفة الثانية، على اعتبار أن الفلسفة الأولى هى ما سمى بما بعد الطبيعة) ،وذلك لأن الانفعالات -من غضب وفرح وكراهية ومحبة- تصدر عن النفس والجسم معاً؛ ولأن الإحساس من فعل النفس مشتركة مع العضو الذى يدرك المحسوس، بل إن العقل وهو من وظائف النفس، يتطلب التخيل الذى لايتحقق بغير جسم، ومن أجل هذا دخلت الانفعالات النفسية فى العلم الطبيعى كما تصوره أرسطو قديماً. بل إن أرسطو قد عرض فى كتابه فى النفس De Anima للحديث عن ماهية النفس وقواها: الغاذية (أى

النامية) والحيوانية (أى الحاسة) والناطقة (أى العاقلة التى تميز الإنسان عن سائر الكائنات) فكانت النفس عنده مبدأ الحياة فى الكائنات الحية، والعقل مبدأ الحياة فى الإنسان، ولبثت نظرية أرسطو قائمة فى العصور الوسطى، بل وجدت أنصارها حتى فى مطلع العصر الحديث عند فلاسفة إيطاليا الطبيعيين بوجه خاص، وكان البحث يدور حول طبيعة النفس وخلودها ومصيرها ونحو ذلك. وفى القرن السابع عشر، فرق ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) René Descartes بين النفس والجسم تفرقة حاسمة، فاعتبر جوهر النفس قائماً فى التفكير (أو الشعور) وجوهر الجسم قائماً فى الامتداد (الذى يشغل حيزاً)، وساعد هذا على جعل الظواهر المادية موضوعاً لعلم الطبيعة، والظواهر العقلية أو الشعورية موضوعاً لعلم النفس؛ وهكذا أصبح موضوع علم النفس دراسة الشعور، بعد أن كان يدرس ماهية النفس وكنه العقل؛ وجاء جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤) John Loke فميز بين الظواهر الطبيعية المادية والظواهر العقلية النفسية على اعتبار أن العقل هو الجوهر المقوم للإدراك الباطن، وشاعت هذه التفرقة زمناً طويلاً، وعولجت الظواهر الشعورية النفسية بمنهج يعزى إليه وهو منهج الاستبطان أو التأمل الذاتى Introspection (توفيق الطويل: ١٩٧٩، ص٩٧-٩٨). على أننا ينبغى أن نتوقف عند عامى ١٧٣٢ و١٧٣٤، إذ من الأرجح أن مصطلح علم النفس Psychology بدأ يستخدم لأول مرة فى تاريخ العلم كعنوان فى كتابى وولف Wolff علم النفس التجريبى Psychologia Empirica وعلم النفس العقلى Psychologia Rationalis (فلوجل: ١٩٧٣، ص١٣) ويتكون مصطلح علم النفس -فى الأصل- من كلمتين يونانيتين، هما Logos بمعنى علم، و Psyche بمعنى نفس.

ومنذ وولف فى القرن الثامن عشر وحتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ظل العلماء والفلاسفة المهتمون بالدراسة العلمية للنفس وظواهرها المختلفة ينادون بضرورة إدخال التجريب إلى علم النفس حتى يصبح علماً تجريبياً، يمكن التحقق من معلوماته ونتائجه، بدلاً من كونه مجرد نظريات يختلف حولها المفكرون والعلماء، دون أن يكون هناك محك يفصل بين الصحيح منها والباطل. وما أن جاء عام ١٨٧٩ حتى قام فيلهم فونت (١٨٣٢-١٩٢٠) Willhelm Wundt الفيلسوف وعالم الفسيولوجيا وعالم النفس

الألمانى بافتتاح أول معمل لعلم النفس فى العالم بجامعة ليبزج فى ألمانيا، حيث كان رئيساً لقسم الفلسفة بها. ولم تلبث شهرة هذا المعمل أن ذاعت وجذبت إليه طلاباً من أنحاء مختلفة من العالم لتتلمذ فى هذا المعمل على يد منشئه فونت. وما لبث هؤلاء حتى عادوا إلى بلادهم ينشئون بها معامل لعلم النفس على شاكلة معمل فونت. وكان من أشهر تلاميذ فونت فى أمريكا جيمس ماكين كاتل James Macheen Cattell الذى حصل على الدكتوراة تحت إشراف فونت فى معمله، وبعد أن عاد إلى أمريكا أخذ يعمل بهمة لنشر معامل علم النفس بها وإنشاء اختبارات نفسية تستخدم فيها وفى غيرها من المجالات المختلفة.

ويحق لنا اعتبار هذا التاريخ هو تاريخ ميلاد علم النفس بمفهومه العلمى الحديث. ففى هذا التاريخ، انسلخ علم النفس عن الفلسفة كعلم مستقل مصطنعاً له منهجاً علمياً مختلفاً عن منهج الفلسفة التأملى، ومستعيراً إياه من العلوم الطبيعية والفسيولوچية، ذلك هو منهج التجريب. ولاشك أن سيادة النزعة التجريبية الوضعية فى القرن التاسع عشر وما أدت إليه من تقدم مذهل فى العلوم الطبيعية والفسيولوچية هى التى هيأت المناخ واستحثت فونت وساندته فى إنشاء معمله، وأدت إلى ترحيب مختلف العلماء به، والترويج لاتجاهه التجريبى فى دراسة الظواهر النفسية. ومنذ ذلك الحين، بدأ علم النفس يتبلور تدريجياً فيما يعرف به الآن بعد أن كان مجرد موضوعات متفرقة متناثرة هنا وهناك ضمن موضوعات الفلسفة التى يتأملها الفلاسفة عبر العصور.

وفى الربع الأول من القرن العشرين بدأ بعض الساسة والمفكرين فى إدانة فونت ومعمله، وأساءوا فهم الثورة التى أحدثها فونت فى علم النفس، خاصة مفكرو النزعة الاشتراكية وأنصارها، إلا أنهم عادوا أخيراً وانقلبوا على أنفسهم وردوا إليه اعتباره، واعترفوا بفضله فى بلورة علم النفس وانطلاقته الحديثة. ولقد كان المؤتمر الدولى الثانى والعشرون لعلم النفس، والذى قام الاتحاد الدولى لعلم النفس بعقده فى مدينة ليبزج فى صيف عام ١٩٨٠، بمثابة تخليد للذكرى المئوية لنشأة معمل علم النفس الحديث. وفى هذا المؤتمر، اشترك ما يزيد عن الثلاثة آلاف عالم من الشرق والغرب، منهم نسبة كبيرة من

ألمانيا (التى عقد المؤتمر على أرضها) ومن الولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا، وتشيكوسلوفاكيا وبولندا، وغيرها من الدول.

وإذا كان يرجع إلى فونت فضل استقلال علم النفس عن الفلسفة التى تعتبر العلم الأم لكافة العلوم، على نحو ما أوضحنا، وانطلاقته كعلم قائم بذاته، فإنه يرجع الفضل إلى طبيب وعالم نفسى نمساوى آخر ظهرت بحوثه ونظرياته منذ أواخر القرن التاسع عشر فعمقت من فهمنا للنفس البشرية ومدت موضوعات علم النفس وبحوثه إلى آفاق عديدة من الظواهر الإنسانية، وجعلتها موضوعات ثرية لدراسات علم النفس وبحوثه، هو سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩) Sigmund Freud. فلقد استطاع هذا العالم بنفاذ بصيرته، وبعمق نظرته، وبدأبه فى البحث، وبجرأته فى تحرى الحقيقة وكشفها أن يصل إلى أعماق النفس البشرية باحثًا ومنقبًا عما تحتويه من خبرات وذكريات، وما يعتمل بعمقها من مشاعر ودوافع ونزعات وديناميات، وجدَّ فى سبيل ذلك ما يزيد عن نصف قرن من التنقيب والكشف، حتى كشف مستور النفس البشرية، وأظهر خباياها. وهكذا، تم له اكتشاف اللاشعور والكبت والمقاومة ودوافع الحب ودوافع التدمير وعقدة أوديب والمعنى الكامن وراء الهفوة والحلم والمرض النفسى... وما إلى ذلك من مكتشفات أساسية فى النفس البشرية، يرجع الفضل الأكبر فى معرفتها واستبصارنا بها إلى فرويد.

العالم العربي وعلم النفس:

ويجب ألا يفوتنا فى هذه اللمحة التاريخية الموجزة أن نشير إلى أننا «إذا استعرضنا تاريخ علم النفس نجد أن أسلافنا من العرب والمسلمين؛ نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ الرئيس ابن سينا والفارابى والكندى والغزالى، كانت لهم مساهمات قيمة أغنت هذا العلم ووضعت له بعض الأسس المنهجية وتناولت موضوعات شبه متخصصة فى مجال الشخصية والعلاج النفسى بمثابة إشارات هادية أنارت الطريق لمن خلفهم من الباحثين فى هذا المجال» (حسن صديق: ١٩٩٥، ١٣٢).

وفى هذا الصدد يذكر لنا -أيضًا- إبراهيم مدكور: عرض المسلمون لموضوع النفس

منذ عهد مبكر، برغم أن فى بعض آى القرآن ما لايشجع عليه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [سورة الإسراء : آية ٨٥]. وبرغم أن رجال الصدر الأول كانوا يتحاشونه. وذهب مالك (٧٩٥) والشافعى (٨٢٠) إلى تحريم التعرض له. وإذا كان السلف لم يتعمقوا فى بحثه، فإن الفرق والمدارس الإسلامية المختلفة توسعت فيه، سواء أكانت شيعية أم سنية، ويكفى أن نشير إلى موقف المتكلمين والمتصوفة والفلاسفة منه. اختلف المتكلمون فى طبيعة النفس اختلافًا شبيهاً بذلك الذى عرف لدى مفكرى اليونان، فنزع بعضهم إلى المادية المفرطة، ونزع بعض آخر إلى الروحية الخالصة. ومن الماديين من أنكر النفس جملة، أو قال إنها جسم أو عرض لجسم. وعلى رأس هؤلاء أنصار نظرية الجوهر الفرد، وفى مقدمتهم أبو الهذيل العلاف (٨٤٨)، أحد شيوخ المعتزلة، والواضع الأول لهذه النظرية فى الإسلام. وهو يقرر أن النفس عرض الجسم، وأنها فى تغير مستمر... و... الباقلانى (١٠١٣) ... وعنده أن الروح عرض، وأنها ليست شيئًا آخر سوى الحياة، وعلى عكس هذا، يذهب الروحيون إلى أن النفس ليست جسماً ولا عرضاً لجسم، وإنما هى قوة روحية تحرك البدن وتدبر شئونه. ومن أنصار هذا الرأى بين المعتزلة معمر (٨٣٥) الذى يقول إن النفس علم خالص وإرادة خالصة..(إبراهيم مدكور: ١٩٨٤، ١٤٤-١٤٥). ويضيف إبراهيم مدكور فى نفس السياق: ولا أساس لتصوف ينكر وجود النفس، ولا ثمرة له ولا غاية إن لم يسلم بروحيتها وبقائها. ومتصوفو الإسلام -على الإطلاق- صريحون كل الصراحة فى القول بروحية النفس وتميزها من البدن... وقد عرضوا لبعض الظواهر النفسية؛ كالعشق والحب واللذة والألم، وفصلوا القول فى الأحوال والمقامات التى تُعد باباً هامًا من أبواب علم النفس الوجدانى. وعولوا على (التأمل الباطنى)، وعاشوا فيه لحظات قبل أن يتوسع فيه علماء النفس المحدثون. والتصوف -فى اختصار- ثورة روحية فى الإسلام، ثورة على العبادات التى تصبح مجرد حركات جسمية دون إحساس أو عاطفة، وعلى المعتقدات التى تقف عند أفكار مجردة دون ذوق أو شعور، وما هو فى الحقيقة إلا حياة بالنفس وللنفس». (المرجع السابق، ١٤٦).

ثم يستطرد إبراهيم مدكور فيقول: «وقد عنى فلاسفة الإسلام بموضوع النفس عناية قل

أن نجدها لدى مفكرى التاريخ القديم والمتوسط، فاستقصوا مشاكله، وعمقوا بحثه، ووضعوا فيه مؤلفات شتى شعراً ونثراً. ويجمعون على وجود النفس وتميزها من البدن، وإن اختلفوا فى جوهريتها. فالكندى (٨٧٣) يرى أنها جوهر بسيط، شريف الطبع، من جواهر اللّه، وإذا فارقت البدن انكشفت لها جميع الحقائق. ويقرر الفارابى (٩٥٠) أن القوة الناطقة أفضل قوى النفس، وهى التى تدرك الكلى وتستطيع أن تتصل بالعالم العلوى. وابن سينا (١٠٣٧) واضح كل الوضوح فى القول بوجود النفس وجوهريتها، وحاول أن يثبتها بأدلة مختلفة. وانتهى إلى أن هناك حقيقة مغايرة للجسم ومتميزة عنه كل التميز. قد يسميها صورة مجاراة لأرسطو، أو جوهراً وصورة فى آن واحد، والرأى عنده أنها جوهر روحى قائم بذاته يمكن أن يوجد بمعزل عن الجسم، فى حين أنه لايوجد جسم بدون نفس. وقد أخذ فلاسفة الأندلس بما أخذ به فلاسفة المشرق بوجه عام، فابن باجة (١١٣٨) وابن طفيل (١١٨٥) يقولان بسيادة النفس على البدن، ويسلمان بإمكان اتصالها بالعالم العلوى. أما ابن رشد (١١٩٨) فيقف عند لغة أرسطو ومبادئه، ويقرر أن النفس، وهى صورة الجسم، لايمكن أن تكون جوهراً، ولاتنفصل عن مادتها، والصورة -على كل حال- شىء غير المادة. فيجمع مفكرو الإسلام تقريباً على إثبات وجود النفس وإن اختلفوا فى طبيعتها. وإذا كان من بينهم من نحا نحو المادية، فإن أغلبيتهم ألصق بالروحية، ويرون أن النفس حقيقة مجردة متميزة من الجسم تمام التميز، وهى مصدر الحس والتفكير بل والحياة والحركة. (المرجع السابق: ١٤٦- ١٤٧).

ويمكن أن نشير فى هذه العجالة -إضافة إلى ما ذكرناه عن إبراهيم مدكور وتوفيق الطويل- ما قدمه العرب من إسهامات أخرى للدراسات النفسية مثل كتاباتهم عن الفراسة Physiognomy. وهى ظاهرة نفسية اهتم بدراستها -ويهتم- الفلاسفة والأطباء ودارسو النفس البشرية، وفى الحديث الشريف: «اتقوا فراسة المؤمن» قال الكتانى: «الفراسة مكاشفة اليقين ومعاينة الغيب. وقال بعض الصوفية هى اطلاع على ما فى ضمائر الناس بما أضافه اللّه على قلب عبده المؤمن من أنوار الإيمان». (محمد شهيد الشافعى المنفلوطى، جواهر النفاسة فى أحكام علم الفراسة، ١٥).

وقال ابن الأثير تعليقًا على الحديث الشريف (وعلى معنى الفراسة أيضًا): يقال بمعنيين: «(١) أحدهما ما دل ظاهر الحديث عليه وهو ما يوقعه الله تعالى فى قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس. والثانى نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق فتعرف به أحوال الناس.

(٢) قسم من أقسام الحكمة الفرعية الطبيعية. والغرض فيه (المقصود من الفراسة) الاستدلال من الخلق على الأخلاق». (ابن سينا، أقسام العلوم، رسائل، ١١٠).

«وقد كتب فى هذا العلم أبقراط وجالينوس وأفليمون اللاذقى، كما أنه نُسب إلى أرسطو كتاب خاص فى علم الفراسة. وقد اهتم العرب بهذا العلم. ومن أمهات كتب الفراسة العربية كتاب الفراسة، للإمام فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ والذى حققه يوسف مراد». (مراد وهبه: ٢٠٠٧، ٤٥٤).

هذا؛ وفى المقدمة التى كتبها يوسف مراد لدراسته الضافية لبحثه (الفراسة عند العرب- باللغة الفرنسية وقدمها وناقشها بجامعة السربون فى يناير ١٩٤٠ باعتبارها الرسالة الثانية لدرجة الدكتوراه، إحياءً لجانب من التراث العربى فى الدراسات السيكولوچية، كما يذكر مترجمها مراد وهبه: ٢٠٠٩، ٧)؛ نقول فى هذه الدراسة يذكر يوسف مراد ما يعنيه لفظ فراسة فى اللغة العربية فيقول: «ذهن سريع الاستدلال بدون حد وسط من المعلوم إلى المجهول. ولفظ فراسة يُعد أيضًا من مصطلحات المتصوفة. ويميز العلماء العرب بين (الفراسة) الفلسفية و(الفراسة) الإلهية التى هى قدرة على التنبؤ يهبها الله للقديسين وكبار المتصوفة... وكان يستعان بالفراسة كذلك لمعرفة أخلاق الأرقاء وأمزجتهم، وعلى الأخص النساء منهم، قبل أن يتم الشراء. وتوجد فى بعض الكتب مقاييس للجمال يستدل بها على السمات والبنية الخفية للرقيق فى ضوء سحنة الوجه». (يوسف مراد: ٢٠٠٩، ١٢). كما يشرح يوسف مراد فى الدراسة نفسها كيف أن دراسة مبادئ الفراسة -التى قدمها العرب أو الأجانب- قد أسهمت فى تأسيس نظرية الجشتلط التى عرضنا لها فى الفصل الثانى من كتابنا هذا).

وفى هذا يقول يوسف مراد: «من أهم ما أسهمت به دراسة مبادئ الفراسة تأسيس نظرية الجشتلطت، أى سيكولوجيا الشكل. وفى ضوء الأبحاث التجريبية لهذه المدرسة اتضح أن العلاقة بين الشكل والمضمون وبين العلامة ودلالتها، ليست دائماً علاقة برانية. إن هذه العلاقة واقعة أولية تفرض نفسها. وفى إمكان الملاحظ الساذج اكتشافها تلقائيًا، فى حين أنها قد تختفى إذا ما أجرى عليها تحليل دقيق. ولهذا فإن سيكولوچيا الشكل كانت عنيفة فى مقاومة الاتجاه التحليلى للسيكولوچيا التى يقال عنها إنها علمية والتى كانت تهدف إلى تطبيق نفس المناهج، التى حققت نجاحًا فى الفيزياء، على دراسة النفس الإنسانية ومظاهرها. وحين تصور علم النفس الارتباطى أنه قد رد الوقائع النفسية إلى عناصرها المزعومة، حاول أن يعيد تركيب الحياة النفسية كلها ابتداء من هذه العناصر، وحين أدرك أن هذه العملية ليست طبيعية استعان بقوة التأليف العقلى؛ إذ أن مهمتها منح الحياة والديناميكية لهذا المركب من وحدات». (المرجع السابق، ٢٥).

«إن مفهوم الجشتلطت عن الذكاء يذكرنا بمفهوم الفراسة بمعنى الحكمة أو العقل الحدسى أو الاشراق من حيث أن هذا الذكاء يدرك لأول وهلة علاقات بدائية معينة تنطوى على وجود سيكولوچى مسبق لعناصر معزولة ومنفصلة. والمماثلة التى يعقدها ابن عربى بين النور الباطنى الذى ينير النفس وبين رؤية العالم الخارجى، هذه الرؤية المشروطة بعضو البصر وببنية العالم المدرك، يبرر هذا التقريب بين الذكاء والفراسة. وثمة اعتبار آخر يدعم هذا التقريب: إن كلا من الذكاء والفراسة ليس فعلاً عقلياً محضاً، ولكنهما ينتسبان إلى مجال العاطفة وعلى الأخص فى بداية نشأتهما، دون أن يتوقفا عن الانتساب إلى مجال المعرفة. إنهما يدركان خصائص الهيئات، وتعبيرات الكل التى، فى ظروف معينة لتنظيم عضوى ما وبنية ما، تبرز فجأة وتفرض ذاتها بقوة على البصر، ويلازمها يقين جارف ليس وليد تردد أو ترنح». (المرجع السابق، ٢٨).

«وبالإضافة إلى مفهوم خاصية الكلية للكائن العضوى الحى والخصائص الكلية لسلوكه ثمة مفهوم آخر عزيز لدى الطب القديم وضامن لصدق الأحكام الفراسية فى نظر علماء العصر الحديث، ونعنى به مفهوم الهيئة... ويقصد الأطباء بلفظة «الهيئة» صحة الفرد

وتكوينه الجسمي، وجملة سماته النفسية والحسية من حيث تمايزها عما هي في فرد آخر. وأي طبيب جدير بأن يكون كذلك ينبغي عليه، في المقام الأول، أن يبصر الهيئة الخاصة بكل فرد قبل أن يصف له العلاج المطلوب. ولهذا ينبغي على الأطباء ممارسة مهنة الفراسة. وليس من قبيل الصدفة أن كبير أطباء العرب محمد بن زكريا الرازي يكرس فصلاً عن الفراسة في كتابه الموسوم بالطب المنصوري. وفي سوق النخاسة يتعرض العبيد لفحص دقيق من قبل الطبيب المشتغل بالفراسة لكي يقدم تقريراً عن التكوين الفيزيقي والأخلاقي للعبد المطلوب اختياره». (المرجع السابق، ٢٩-٣١)

فإذا انتقلنا لنقرأ كلام الإمام فخر الدين الرازي نفسه في كتابه الفراسة وجدناه يقول: «الفراسة عبارة عن الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة. وتقرير هذا الكلام أن المزاج إما أن يكون هو النفس وإما أن يكون آلة النفس في أفعالها وعلى كلا التقديرين فالخَلْق الظاهر والخُلُق الباطن لابد وأن يكونا تابعين للمزاج وإذا ثبت هذا كان الاستدلال بالخَلْق الظاهر على الخُلُق الباطن جارياً مجرى الاستدلال بحصول أحد المتلازمين على حصول الآخر؛ ولاشك أنه نوع من الاعتبار صحيح». (فخر الدين الرازي: ٢٠٠٩، ٩٤-٩٥)

ومن هذه اللمحة التاريخية عن النفس الإنسانية في الفكر الإسلامي، يبدو واضحاً تأثر مفكري الإسلام -على اختلاف مذاهبهم في النفس البشرية- بمصدرين أساسيين، هما الفلاسفة الإغريق، وعلى الأخص ثلاثتهم الكبار سقراط وأفلاطون وأرسطو من جانب، والمعتقدات الإسلامية من جانب آخر، مع اختلاف نصيب كل من هذين المصدرين في مذهب عن الآخر. وفي العصر الحالي وجدنا العلماء المسلمين يجدُّون في بحث الظواهر النفسية كما يجد العلماء الغربيون مستخدمين نفس مناهجهم، ودارسين نفس موضوعاتهم، ومستعينين بنفس مقولاتهم ومصطلحاتهم (مع نضج العلم الذي يقوده إلى الوحدة والتكامل العالمي) ويقلعون عن تحفظهم القديم الذي ذكره لنا إبراهيم مدكور، كما أشرنا، فيستقيم لهم فهم الآية الكريمة رقم (٨٥) من سورة الإسراء، وينتبهون إلى ما تفرضه عليهم الآية الكريمة رقم (٢١) من سورة الذاريات ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ وما تحث عليه من ضرورة البحث العلمي في النفس، والاجتهاد في بذل كل ما يستطاع

للاستبصار بجوانبها ونزعاتها وقوانينها... حتى نحصل على أدق فهم لها، وأصدق معلومات عن أحوالها وطبائعها، فعند ذاك نستفيد من كل هذا فى معرفة أفضل السبل لسياستها، والسيطرة عليها، وعلاج جموحها وأمراضها وعللها المختلفة... وتوجيهها وترشيد سلوكها والاستفادة من إمكانياتها لخيرها؛ ولصالح البشرية جمعاء.

والآن؛ فإن علم النفس يصدق عليه -إلى حد كبير- رأى جون برنال J. Bernal عالم الطبيعيات الإنجليزى الشهير، وهو يتحدث عن تاريخ العلوم، فيشير إلى أن علم النفس، يكاد يكون العلم الوحيد من بين العلوم الإنسانية جميعها الذى حقق أكبر تقدم فى القرن العشرين، كما أن له أكبر التأثير على تشكيل الاتجاهات العامة نحو الحياة والمجتمع (Bernal: 1969 (vol.4)' 1154).

مصر وعلم النفس:

لعل من الواجب علينا -ونحن نكتب هذه اللمحة التاريخية لعلم النفس- أن نشير إلى تاريخه فى مصر؛ مجرد إشارة عابرة وسريعة تعطى مجرد انطباع عن وضعه ومكانته ومستواه (ذلك أن تحقيق هذا الهدف ليس مجاله كتاب كهذا فى الأصول العامة لعلم النفس، بل كتاب متخصص يستهدف استجلاء كافة جوانب هذا التاريخ الثرى).

وبهذا الخصوص؛ نقتطف ما قاله على زيْعور: كان للباحثين العرب، فى الجامعات المصرية، من مثل زيور، وصفوان، وعلى، ومراد، والقوصى فضل الريادة والمؤسس والحارث الشجاع والصبور. ولقد ذكرت مراراً أن زيور (وصفوان من بعده) قد لعب دور البطل فى جذب كثيرين (وأنا منهم) إلى التحليل النفسى. ثم إن القوصى على سبيل الشاهد الآخر، قد حظى بمركز واحترام عالميين. ولقد نبهنا سابقًا إلى أن أولئك المنتجين القديرين قد التفتوا إلى المحلى والخصوصى. وهم قد دجنوا وعربوا ونشروا وعلموا، ثم نظموا المؤسسات وتولوا توجيهها. (على زيعور: ١٩٩٦، ٩٣).

كما نذكر ما كتبه فؤاد أبو حطب: «وحسبنا أن نشير إلى أن الدول العشرين المؤسسة للاتحاد الدولى لعلم النفس من خلال جمعياتها الوطنية (فى عام ١٩٥١)، هى بلجيكا،

البرازيل، كندا، كوبا، الدنمارك، مصر، ألمانيا الغربية، فنلندا، فرنسا، إسرائيل، إيطاليا، اليابان، هولنده، النرويج، أسبانيا، السويد، سويسرا، بريطانيا، أوراجواى، والولايات المتحدة الأمريكية. وهذا السبق الذى تحقق لوطننا فى مجال علم النفس ولجمعيته الوطنية فيها (الجمعية المصرية للدراسات النفسية) تفوقت به مصر على عدد كبير من الدول. وحسبنا أن نشير -أيضًا- فى هذا الصدد إلى أن استراليا والاتحاد السوفيتى انضمتا إلى الاتحاد عام ١٩٥٧، والهند عام ١٩٦٦، وهونج كونج عام ١٩٧٢، وكوريا عام ١٩٧٣، وأيرلندا عام ١٩٧٤، والأرجنتين عام ١٩٧٦، والصين عام ١٩٨٠، واليونان والبرتغال وسنغافورة عام ١٩٩٢، وجنوب أفريقيا عام ١٩٩٦ ... والاتحاد الدولى لعلم النفس منظمة تضم الجمعيات الوطنية التى تسعى إلى تنمية علم النفس العلمى، سواء أكان بيولوچياً أم اجتماعياً، سوياً أم مرضياً، بحتًا أم تطبيقيًا. وهدفه الأساسى تنمية تبادل الأفكار والمعلومات العلمية بين علماء النفس من مختلف الأقطار، وعلى وجه الخصوص تنظيم المؤتمرات الدولية وغيرها من الاجتماعات حول الموضوعات ذات الاهتمام العام أو الخاص لعلم النفس. وللاتحاد الدولى لعلم النفس مكانة المؤسسات الاستشارية (غير الحكومية) لمنظمة اليونسكو. ومن أهم أنشطة الاتحاد الدولى لعلم النفس تنظيم الكونجرس الدولى لعلم النفس كل ٤ سنوات...» (فؤاد أبو حطب: ١٩٩٨، ١٢-١٣).

وفى مقاله: علم النفس العربى وتحديات القرن الحادى والعشرين ينبهنا عبد الحميد صفوت إلى أن مسيرة علم النفس فى العالم العربى، ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين -ولعله يصف بالدرجة الأولى مصر- يعترضها خطر الجمود ضمن ما يعترضها من تحديات، فيقول: «الخطر الذى يواجه بعض العاملين فى علم النفس العربى هو الدوجماطيقية -أى الجمود العقلى على موقف معين يتصورون أنه الصحيح، وأن أى موقف آخر خاطئ بالضرورة. ويعتبر المثال (الذى سبق طرحه) للمتحيزين للبحوث الإمبيريقية مقابل البحوث النظرية أو التأملية نموذجاً على الجمود فى المواقف، لكن الأمر يتعدى ذلك بكثير. نجد الجمود فى أقسام علم النفس باشتهار بعضها بمعالجات إحصائية دون سواها، وأقسام أخرى لابد من إدخال مفاهيم التحليل النفسى فى أبحاثها، وثالثة تتبع

منهجاً أو طريقة تسود بين كل طلابها وأساتذتها. ونجد الجمود -أيضًا- فى الفصل الحاد بين الدرجة فى علم النفس من كلية الآداب أو من كلية التربية، وشتان ما بين الاثنين عند التعيين فى الوظائف الجامعية. ويظهر هذا التناقض فى تخصص مثل علم النفس الاجتماعى، حيث نجد أن مصر هى الدولة الوحيدة التى نجد فيها تخصص علم نفس اجتماعى ذى طابع تربوى، وآخر ليس له هذا الطابع. إن استعدادنا لدخول القرن الجديد يجب أن يكون بالانفتاح والمرونة، وعدم الخوف على المناصب والمراكز، بقدر ما يكون خوفنا على مستقبل التخصص، ومستقبل الأجيال على حد سواء. فمن يتابع البحوث العالمية يجد مرونة كافية فى استخدام الطرق الملائمة للوصول إلى الهدف، وهو الفهم والتنبؤ والتحكم فى الظواهر ذات الطابع السيكولوچى، حتى إننا لنجد دراسات تعتمد على استبيانات، أو جمع بيانات باستخدام التليفون، أو عينات قد تصل إلى شخص واحد، وكلها طرق معروفة، لكنها لاتشيع فى البحوث النفسية العربية، بسبب التركيز على أسلوب واحد والتمسك به، مهما كانت طبيعة الموضوع» (عبد الحميد صفوت: ١٩٩٦، ٣-٤).

وفى مقالة عن «الألفية الجديدة: التحديات والآمال» قمتُ بطرح عدة أفكار وأمنيات لعلم النفس فى وطننا العربى عامة ومصر خاصة جاء فيها: الأمل فى سرعة استكمال الإجراءات الرسمية لقيام الاتحاد العربى لعلم النفس؛ إذ لايزال حتى الآن ومنذ جلسته التأسيسية فى عام ١٩٩٠ تحت الإنشاء. والأمل أيضًا فى أن تنجح إحدى جمعيات علم النفس العربية فى استقطاب الاتحاد الدولى لعلم النفس لإقامة أحد مؤتمراته الدولية بها؛ إذ أخفقت مصر عند قيامها بأول محاولة لذلك فى عام ١٩٩٨ ليعقد مؤتمر عام ٢٠٠٤ فيها حيث فازت عليها الصين؛ راجين نجاح المحاولة -سواء لعقد المؤتمر فى مصر أو أية بلد عربى آخر- فى مرة قادمة إن شاء الله. كما طرحت -أيضًا- أمنية إذابة الفوارق والتقسيمات والتعصبات الشديدة بين علماء النفس والتى تؤدى إلى صراعات جانبية تضر بعلم النفس، وتبدد طاقات علمائه فيما لا طائل وراءه. مع زيادة وعى الناس فى المجتمع العربى -على امتداده- بالتخصص النفسى وبالفرق بينه وبين تخصصات قريبة منه مثل الطب النفسى، والخدمة الاجتماعية. ولايتم ذلك إلا بإعلام وتعليم واع وجاد من جانب

الصحافة والإذاعة والتليفزيون والمؤتمرات والندوات... ومع أيضاً اهتمام بحركة البعثات العلميـة للخارج، ومنح التفرغ للبحث العلمى، وزيادة ميزانياته فى مجال علم النفس... (فرج عبد القادر طه: ٢٠٠٢، ١٧١-١٧٣).

الفصل الثالث :

منهج البحث في علم النفس

المعرفة الدارجة والمعرفة العلمية :

لم تظهر العلوم المعروفة فى وقتنا الحالى، وبصورتها الراهنة فى أول أمرها، على هيئة معرفة علمية منظمة كما هى الآن، بل بدأت تتطور تدريجياً قبل عصور الكتابة والتسجيل على هيئة معارف دارجة، يحصلها الشخص العادى (أو كما نطلق عليه رجل الشارع) بشكل عشوائى غير مقصود ولا منظم؛ وإنما تلقائياً من خبرته اليومية، ومما يشهده أو يشترك فيه أو يسمع عنه من أحداث وخبرات وتجارب. فكانت المعرفة فى بداياتها أشبه بالتعلم التلقائى الذى تأتى به حياة الفرد اليومية وخبراتها المتتالية. يدعمها حب الاستطلاع كدافع فى الإنسان يقوده إلى معرفة الجديد، وتتناقلها الأجيال بعد أن تتناولها بالتعديل والإضافة مع ازدياد خبرة الإنسان، وتعاقب الأجيال. ولقد ظل الحال هكذا حتى اخترعت الكتابة وشاع التسجيل وازدادت المعارف وتنوعت، ثم ظهرت التخصصات العلمية حديثاً وتمايزت العلوم، وبدأ كل منها يستقل بموضوعه ومنهجه وعلمائه، ويُحصَّل بشكل منظم فى مدارس ومعاهد خاصة بالتعليم والتحصيل.

معنى هذا أن علم الحساب -على سبيل المثال- لم يكن موجوداً بصورته المتمايزة الحالية قبل اختراع الكتابة، ومع ذلك كانت الناس فى حياتها اليومية ولضروراتها العادية تتعامل باستخدام أصول الحساب ومبادئه، فكانت تجمع وتطرح عندما تبيع أو تشترى أو تبادل على بضائعها ومنتجاتها، وكانت القبيلة أو الأسرة تقسم الأنصبة على أفرادها.. وهكذا. وما يقال عن علم الحساب يصدق بالمثل على غيره من العلوم، ذلك أن بقاء الحياة

واستمرارها وتطورها رهن بما كان معروفًا فى الماضى وما هو معروف الآن من معارف ومعلومات تيسر لنا سبل الحياة، وتمكننا من السيطرة عليها وتطويعها لصالحنا وضروراتنا.

ومع اختراع الكتابة والتسجيل، ومع تطور المعارف وتمايز العلوم وتقدمها ونضجها -كما هى عليه الآن- لم تتخل المعرفة الدارجة عن وظيفتها ودورها خصوصاً لدى الصغار ولدى العوام، حيث يقل مستوى التعليم الرسمى المنظم أو يكاد ينعدم، فعندئذ يتضاعف دور المعرفة الدارجة (أو تعليم الحياة كما يشار إليه بالحياة علمتنى) وتمارس نفوذها فى مختلف نواحى الحياة بقوة وتأثير. وبصفة عامة، فإننا جميعًا، كباراً وصغاراً، متعلمين وأميين، ذكوراً وإناثاً، أغنياء وفقراء، أصحاء ومرضى لاغنى لنا عن الاستعانة -فى كثير من مواقف الحياة- بالمعرفة الدارجة فى مختلف التخصصات. فالشخص الذى لم يذهب إلى مدرسة ولايعرف القراءة ولا الكتابة يذهب إلى التاجر ويشترى منه، ويعطيه ويأخذ منه ويحاسبه دون خطأ مستعيناً فى ذلك بمعرفته الدارجة بالحساب.

وبالمثل، يستحيل علينا التوافق والتوفيق فى حياتنا مع غيرنا ما لم نكن على قدر من المعرفة النفسية لمن نتعامل معهم ونعيش بينهم ونحتك بهم. كما يستحيل علينا -فى نفس الوقت- أن نحقق نجاحاً فى حياتنا ما لم يكن كل منا على قدر من المعرفة بنفسه وبنفوس الآخرين. وهذا القدر تكفله لنا المعرفة الدارجة، ونحصله من خبراتنا اليومية ومن مصادر المعرفة الدارجة التى أشرنا إليها فيما سبق. تتقدم إلى شخص تريد أن يقدم لك خدمة معينة، فإذا بك ترى ملامح الغضب والاستثارة بادية عليه فتدرك -تلقائيًا- أنك لو طلبت منه أداء هذه الخدمة فإنه سوف يرفض، فتؤجل ذلك ريثما تهدأ نفسه، وتصفو سريرته، ويصبح فى حالة من الارتياح. وعند ذاك تتقدم طالباً منه ما تريد. ويجرى لاعب الكرة يقذفها بقدمه غير بعيد منه حتى يلاحقها، فإذا هجم عليه منافسه من الفريق الآخر لينتزعها منه أدرك نواياه فإذا به يقذفها بقوة نحو زميل له منتبه إليه ومستعد لتلقيها. وهو لايفعل ذلك إلا إذا اطمأن إلى انتباه زميله واستعداده لتبادل الكرة معه، حتى لاتضيع إلى الفريق المنافس. يتفوه الطفل الصغير بألفاظ يتهلل لها وجه أبيه وتنفرج أساريره، فيدرك الطفل بعفويته ذلك، فيكررها عندما يريد إدخال السرور على أبيه. فنحن -إذن- جميعنا نرتب سلوكنا وفق معرفتنا بما تريده نفوسنا وبما نعرفه عن نفوس من

نتعامل معهم، حتى نحقق أقصى ما نستطيع من توفيق ونجاح، ونحصل على أقصى ما يمكن من مكاسب. وإن لم نوفق فى هذه المعرفة فشلنا فى تحقيق ما نريد، وعند ذاك لاينبغى أن نلوم إلا أنفسنا بالدرجة الأولى.

ومن حسن الحظ، أن كلاً منا يتاح له تحصيل هذه المعرفة الدارجة، وبشكل تلقائى ويطبقه بشكل عفوى؛ يكاد لايفطن إلى أنه يقوم بذلك فى كثير من الحالات، حتى أن الأمر بالنسبة له لايكون متميزاً عن التصرف العفوى الذى يقوم به.

ومع توافر المعرفة الدارجة وشيوعها، سواء أكان بالنفس أم بغيرها من فروع المعرفة المختلفة، إلا أننا فى أمس الحاجة إلى المعرفة العلمية، وهى تلك المعرفة التى تأتينا عن النظر الواعى المقصود والبحث المنظم الدؤوب والدقيق، للكشف عن حقائق الظواهر واستجلاء كنهها وفض غموضها، والاستفادة من كل ذلك فى زيادة سيطرة الإنسان على ظواهر الكون وأمور الحياة، حتى يؤدى ذلك بالإنسان إلى رفاهية أكثر، وسعادة أشمل عن طريق تحقيق أهداف العلم؛ على نحو ما بيّنا فى الفصل الأول. ولاتتأتى هذه المعرفة العلمية إلا باستخدام المنهج العلمى فى تحصيل المعرفة، مما يجعل المعرفة العلمية أدق وأشمل وأكثر صدقاً، وبالتالى أدعى للثقة فيها، وأكثر تطبيقاً وإفادة. فالمعرفة العلمية تنقى المعرفة الدارجة من شوائبها وأخطائها، وتوسع من موضوعاتها، وتدقق معلوماتها، وتتحقق من صوابها أو خطئها...

المقصود بالمنهج العلمى Method:

هو الخطوات التى يتبعها الباحث أو العالم للوصول إلى الحقيقة المتعلقة بالظاهرة التى يبحثها، ويوجز عبد الرحمن بدوى تعريف المنهج فيقول: «...معناه إذن: الطريق المؤدى إلى الكشف عن الحقيقة فى العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحديد عملياته حتى يصل إلى حقيقة معلومة» (عبد الرحمن بدوى: ١٩٧٧، ٥).

هذا؛ ويقول مراد وهبه: «المنهج على العموم هو الطريق الواضح فى التعبير عن شىء أو فى عمل شىء، أو فى تعليم شىء، طبقًا لمبادئ معينة، وبنظام معين، وبغية الوصول إلى

غاية معينة... يقول ديكارت: المنهج عبارة عن قواعد مؤكدة بسيطة إذا رعاها الإنسان مراعاة دقيقة كان فى مأمن من أن يحسب صوابا ما هو خطأ. (مراد وهبه: ٢٠٠٧، ٦٢٨).

وعن المنطق الحديث يذكر محمود قاسم: «هو منطق خاص لأنه لا يدرس القواعد الشكلية العامة، كما كان يزعم أنصار المنطق القديم، لكنه يدرس الطرق الخاصة التى تُتّبع بالفعل فى كل علم من العلوم. ومن البديهى أن مناهج العلوم تختلف باختلاف الظواهر التى تعالجها» (محمود قاسم: ١٩٧٠، ٤٦)، والمقصود بالمنطق الحديث هنا هو مناهج البحث.

ويشير محمد عابد الجابرى إلى شيء قريب من هذا حيث يقول: «والمنهاج العلمى هو جملة العمليات العقلية، والخطوات العملية، التى يقوم بها العالم، من بداية بحثه حتى نهايته، من أجل الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها. وبما أن العلوم تتمايز بموضوعاتها، فهى تختلف كذلك بمناهجها. ولذلك، لايمكن الحديث عن منهاج عام للعلوم، للكشف عن الحقيقة فى كل ميدان، بل فقط عن مناهج علمية. إن لكل علم منهاجه الخاص، تفرضه طبيعة موضوعه». (محمد عابد الجابرى: ١٩٧٦، ١٩-٢٠).

ومما سبق، نستنتج أن على العالم أو الباحث العلمى أن يكيف خطوات بحثه وأسلوبه وفق الطبيعة الخاصة لعلمه، بل وأيضاً وفق الطبيعة الخاصة للظاهرة المعينة التى يكون بصدد بحثها. ومن هنا، اختلفت مناهج كل علم عن غيره فى قواعدها الخاصة. كما اختلفت الخطوات التى يتبعها العالم الواحد المتخصص فى علم بعينه فى بحثه لظاهرة معينة عن بحثه لظاهرة أخرى بعض الاختلاف. وهكذا، يمكن أن يكون للعلم الواحد أكثر من منهج طالما اختلفت طبيعة ظواهره فيما بينها، بحيث يصبح منهجاً معيناً أصلح من غيره لدراسة ظاهرة معينة من ظواهر هذا العلم. وما يهمنا هنا هو المناهج العلمية العامة للبحث فى مجال علم النفس (خاصة)، ويمكن تقسيمها إلى أربعة مناهج أساسية متمايزة هى:

١ – منهج الاستبطان. ٢ – منهج الملاحظة.

٣ – منهج التجريب. ٤ – المنهج الإكلينيكى.

بل إن بعض هذه المناهج ينقسم إلى مناهج فرعية، على نحو ما تنقسم الملاحظة إلى: ملاحظة طارئة، وملاحظة مقصودة، وملاحظة بالمشاركة.

أولاً: خطوات المنهج العلمي

عندما نريد القيام ببحث علمى فى مجال علم النفس، وبغض النظر عن نوع المنهج الذى سوف نستخدمه، فإن علينا أن نراعى اتباع خطوات المنهج العلمى الأساسية على النحو التالى عادة:

١ – تحديد موضوع البحث :

فهنا ينبغى علينا أن نوضح –قدر الإمكان– الظاهرة التى نريد القيام ببحثها، ونُعرِّف تعريفًا واضحًا الجوانب المحددة من هذه الظاهرة التى نقوم ببحثنا من أجل الوصول إلى الحقائق المتعلقة بها. فمثلاً، إذا كنا نريد بحث ظاهرة الأحلام، فينبغى علينا أن نحدد جوانب محددة فى هذه الظاهرة نريد بحثها، ولتكن علاقة الأحلام بالحالة النفسية للفرد قبل نومه. وحتى فى هذه الحالة علينا أن نقوم بتحديد أكثر لما نقصده بالفرد: هل هو الطفل أم هو المراهق أم هو الشاب أم هو الكهل؟؛ ثم أى أنواع الأفراد الذين نريد دراسة الظاهرة فيهم؛ هل هم الذكور أم الإناث.. وهكذا، يجب علينا أن نحدد موضوع البحث تحديداً دقيقًا وأن نضع تعاريف واضحة للجوانب التى نريد القيام بدراستها. ويفضل الكثيرون استخدام التعريفات الإجرائية Operational Definition التى تعتمد على تحديد المفهوم وفق إجراءات محسوسة أو محكات مرئية أو قياسات دقيقة التحديد؛ وذلك مثل تعريف الجوع بعدد ساعات حرمان الفرد من الطعام، وتعريف الذكاء بما يقيسه مقياس وكسلر–بلفيو أو مقياس بينيه..إلخ

٢ - تحديد هدف البحث (أو فروضه):

وكما فعلنا فى الخطوة السابقة ينبغى أن نبين ما نهدف إليه من قيامنا بهذا البحث، هل هو اختبار فروض معينة لمعرفة مدى صدقها أو مدى زيفها... وفى مثل هذه الحالة، علينا أن نذكر هذه الفروض بشكل محدد... أم أن هدف البحث هو اكتشاف كل مايمكن اكتشافه من حقائق ومعلومات متعلقة بالظاهرة التى نبحثها حتى نزداد فهماً لها، ووعياً بعواملها وظروف حدوثها... أم الإجابة عن تساؤلات واستفسارات معينة متعلقة بالظاهرة التى نريد بحثها...

٣ - تحديد عينة البحث:

إن تحديدنا للخطوتين السابقتين بوضوح ودقة سيؤدى بنا إلى تحديد مجتمع البحث Population تحديداً دقيقًا. ففى المثال السابق عن بحث ظاهرة الأحلام عندما نحدد موضوع بحثنا بأنه علاقة الأحلام بالحالة النفسية للمراهق الذكر قبل نومه وعندما نحدد هدفنا من البحث فى كشف ما نستطيع اكتشافه من حقائق متعلقة بهذه الظاهرة، فإن هذا التحديد سيحدد بدوره مجتمع البحث وهو كل المراهقين من الذكور. إلا أن إمكانيات الباحث فى غالب الحالات لاتمكنه من أن يجرى بحثه ويجمع بياناته من كل أفراد مجتمع البحث، كما هى الحالة فى مثالنا هذا. فلا يكون أمام الباحث -والحال هكذا- إلا أن يقنع بإجراء وجَمْع بياناته من عدد محدود من أفراد المجتمع الأصلى للبحث وفق طاقته. ونطلق على هذا العدد المحدود عينة البحث Sample. على اعتبار أنها مجرد عينة نستعيض بدراستها عن دراسة كل أفراد المجتمع الأصلى؛ أى أنها عينة من المجتمع الأصلى تقوم مقامه وتمثله. حتى إذا خرجنا بنتائج من بحث هذه العينة فقط يمكن أن نقوم بتعميمها على المجتمع الأصلى، وكأنها أتت منه ولم تأت من مجرد عينة. ولذا وجب أن يكون حجم العينة كبيراً بعض الشيء. ويساعدنا علم الإحصاء فى تحديد الأعداد المناسبة للعينات التى تقوم مقام المجتمع الأصلى، كما يحدد أيضاً مدى دلالات النتائج المستخرجة من حجّم تلك العينات والاعتماد على جوهريتها للاطمئنان إلى الثقة فيها.

إلا أن هناك شروطاً هامة لكى تصلح العينة للبحث العلمى (أى لكى نستطيع تعميم نتائجها على المجتمع الأصلى، وحتى يمكن الاعتماد على نتائجها والاطمئنان عليها)، وأهم هذه الشروط جميعاً أن تكون العينة ممثلة تمثيلاً صادقاً Representative للمجتمع الأصلى؛ بمعنى أن تتوافر فيها كافة خصائص المجتمع الأصلى الرئيسية التى يُرجح تأثر الظاهرة موضوع البحث بها؛ كالدين، والتعليم، والمستوى الاقتصادى الاجتماعى، والبيئة المحلية... والسن، والنوع... بل وبنفس نسب توافرها تقريباً فى المجتمع الأصلى. وأن تكون العينة -أيضاً- عينة غير متحيزة Unbiased؛ بمعنى أن نتيح لكافة أفراد المجتمع الأصلى أو مفرداته فرصاً متساوية للوقوع فى العينة Equal Chances. وترشدنا مراجع مناهج البحث ومراجع الإحصاء إلى الخطوات التفصيلية التى تمكننا من تحقيق ذلك بشكل مرضٍ.

٤ - تحديد أدوات البحث ووسائله وإعدادها وتطبيقها:

أو ما يطلق عليه أحياناً جمع بيانات البحث إن الخطوات الثلاث السابقة سوف تقودنا معًا إلى تحديد أنسب أدوات البحث التى تساعدنا فى تحقيق أهدافنا وأكثرها ملاءمة لذلك، كما أنها تساعدنا فى تفاصيل كيفية إعداد هذه الأدوات وتجهيزها واختيار الملائم منها. كما أن شخصية الباحث نفسه، وإعداده، وخبراته، وظروفه جميعًا سوف تؤثر فى تفضيل استخدام أداة على غيرها، أو اختيار أداة دون غيرها... فكل بحث فى حاجة إلى بيانات يجمعها الباحث، ثم يعالجها ويحللها ويستنتج من كل ذلك أو يستقرئ أو يستدل على الحقيقة أو المعلومة التى يبحث عنها. ولكى يجمع الباحث هذه البيانات المطلوبة لابد له من أدوات Tools أو وسائل Means يجمع بها بيانات بحثه. وتتنوع هذه الأدوات وتلك الوسائل بالنسبة للباحث النفسى: فهناك الاختبار النفسى Psychological Test، وهناك المقابلة Interview، وهناك الاستبيان Questionnaire، وهناك الاستبطان Introspec-tion، وهناك الملاحظة Observation، وهناك التجريب Experimentation... وهناك الدراسة النظرية والمكتبية.. وكل من هذه الأدوات وتلك الوسائل يحتاج إلى تدريب وتأهيل وخبرة من جانب الباحث حتى يجيده. كما أن الباحث نفسه قد يحتاج إلى تصميم وإعداد،

أو اختيار أنسب المتاح من هذه الأدوات وتلك الوسائل ليجمع بها ما يريد من بيانات دقيقة عن الظاهرة موضوع البحث، تمهيداً لمعالجتها فى الخطوة التالية؛ للخروج بنتائج البحث التى يستهدفها.

ومن الجدير بالذكر أن الباحث قد يلجأ إلى أكثر من أداة لجمع البيانات فى بحث واحد.

٥ – معالجة البيانات Data Processing:

بعد الانتهاء من جمع البيانات Data Collection الذى قمنا به فى الخطوة السابقة نقوم فى هذه الخطوة بمعالجة البيانات التى جمعناها لنخرج منها بنتائج البحث. وغالبًا ما يتم لنا ذلك بنوع أو أكثر من هذه المعالجات الشائعة التالية، والتى يحددها هدف البحث ومساره:

(أ) تصنيف البيانات Data Classification: ويتم ذلك بتقسيم البيانات وتصنيفها إلى أقسام أو فئات على نحو ما يحدث فى الجداول التكرارية Frequency Tables المعروفة، أو الفئات النوعية التى يمكن أن تصنف إليها هذه البيانات وتقسم؛ كبيانات الذكور وبيانات الإناث، أو بيانات الصغار وبينات الكبار؛ أو بيانات صغار الذكور وبيانات كبار الذكور، وبيانات صغار الإناث وبيانات كبار الإناث... على سبيل المثال. وطبيعة البحث وهدفه هى التى سوف تحدد لنا التفاصيل الأنسب لتصنيفات بياناته.

(ب) عرض البيانات Data Presentation: بعد أن تصنف البيانات يمكن القيام بعرضها فى جداول تكرارية أو فى رسوم بيانية Diagrams أو على لوحات أو بطاقات توضح لنا نتائج البحث أو –على أقل تقدير– توحى لنا باتجاهات هذه النتائج وما يستخلص منها على وجه التقريب.

(جـ) التحليل الكمى للبيانات Quantitative Analysis: وهو معالجة البيانات على المستوى الإحصائى الرقمى، وهنا يستعين الباحث الذى يريد أن يقوم بمعالجة كمية لبيانات بحثه، بالأساليب والمعاملات الإحصائية المختلفة، حتى تخرج نتائجه فى

صورة أرقام تجسد الحقائق التى يسعى عن طريق بحثه إلى كشفها وإبرازها. وقد يقوم هو نفسه بهذه المعالجات الإحصائية، وقد يستعين بالكمبيوتر ويعهد إلى مشغليه وأخصائييه بذلك بعد أن يعطيهم بيانات بحثه التى يريد معالجاتها الإحصائية، والمعاملات والتحليلات الإحصائية المطلوبة واللازمة لها.

ومن أمثلة المعالجات الإحصائية للبيانات استخراج المتوسطات الحسابية Means والانحرافات المعيارية Standard Deviations، ومعاملات الارتباط Correlations، وتحليلات التباين Analysis of Variance، ومقاييس الدلالة الإحصائية Tests of Significance...

وكثيراً ما تتحقق أهداف البحوث عن طريق الوصول إلى هذه المعاملات الإحصائية؛ مثال ذلك أن يكون هدف الباحث هو معرفة مدى العلاقة بين التحصيل الدراسى والذكاء فى المدرسة الابتدائية. فيطبق الباحث مقياساً للذكاء على عينة من تلاميذ المدرسة الابتدائية ينتهى منه إلى تحديد مستوى ذكاء كل منهم، أو نسبة ذكائه. ثم يقوم بحساب معامل الارتباط بين نتائج مقياس الذكاء ونتائج اختبارات التحصيل الدراسى التى تبين مستوى تحصيل كل من أفراد هذه العينة. وباستخراج هذا المعامل ومعرفة مقداره واتجاهه (سالباً أم موجباً) ومدى دلالته الإحصائية يتحقق الهدف الذى من أجله قام الباحث ببحثه.

(د) التحليل الكيفى للبيانات Qualitative Analysis: ويقصد به استنتاج الدلالات التى توحى بها البيانات؛ أى قراءة ما بين سطورها، واستكشاف ما يكمن خلفها من ميول واتجاهات، وانفعالات وعواطف، ودوافع وديناميات، ورغبات وآمال، ومخاوف ومقلقات، واضطرابات وانحرافات،أو سواء واتزان... ومن أمثلة ذلك أن يقوم الباحث بدراسة العلاقة بين التحصيل الدراسى وديناميات الشخصية فى المدرسة الثانوية. فيطبق -على سبيل المثال- اختبار تفهم الموضوع "TAT" على ثلاث مجموعات من طلبة المدارس الثانوية؛ مجموعة منها تمثل مجموعة المتفوقين تحصيلياً وفق الاختبارات التى تحدد مستوى تحصيلهم، والثانية تمثل مجموعة الفاشلين تحصيلياً،

أما الثالثة فتمثل مجموعة المتوسطين تحصيلياً. وبعد ذلك يقوم الباحث بتحليل استجابات كل مجموعة لهذا الاختبار بقراءة هذه الاستجابات واستكشاف دلالاتها الدينامية المميزة للشخصية، والشائعة فى كل مجموعة على حدة. ثم يقوم بعد ذلك بمقارنة ديناميات الشخصية فى هذه المجموعات الثلاث لاستخلاص العلاقة بين التحصيل الدراسى وديناميات الشخصية.

وقد يتطلب بحث معين التحليل الكيفى وحده، دون حاجة إلى تحليل كمى، كما هو الحال فى المثال السابق، وقد يتطلب بحث آخر التحليل الكمى وحده، كما كان الحال فى المثال الأسبق، وقد يتطلب بحث ثالث قيام الباحث بالنوعين من التحليل معاً؛ مثال ذلك أن يقوم باحث بدراسة سيكولوچية التحصيل الدراسى فى المدرسة الثانوية فلا يكتفى بأن يطبق على المجموعات الثلاث -التى أشرنا إليها فى المثال السابق -اختبار تفهم الموضوع بل يضيف إليه اختباراً للذكاء، وآخر للذاكرة، وثالثاً للاستعداد اللغوى، ورابعاً للمعلومات العامة...، حيث يعالج البيانات التى يحصل عليها من اختبار تفهم الموضوع معالجة كيفية، ويعالج البيانات التى يحصل عليها من الاختبارات الأخرى معالجة كمية. وواضح من ذلك أن طبيعة البحث وظروفه وأهدافه ونوعية البيانات التى تجمع له، تشترك جميعها فى تحديد نوع المعالجات التى تلزم له وتناسبه.

٦ - تفسير النتائج Interpretation:

لاينبغى على الباحث أن يتوقف فى بحثه بمجرد وصوله إلى النتائج التى كان يبحث عنها، والتى ينتهى إليها من استكمال الخطوة السابقة، بل ينبغى عليه أن يجتهد فى تفسير نتائجه، وتأمُّل أسباب خروجه بها، مقترحاً ما تنطوى عليه من مضمون سيكولوچى يبررها، ومنطق عقلى يقنع بها. ويساعده فى ذلك عمق بصيرته وسعة إطلاعه، ومستوى علمه ودقة تخصصه، وموسوعية معرفته بجوانب الظاهرة التى يبحثها. ويعينه فى كل هذا إمكاناته العقلية، واستعداداته النفسية، وبحوثه المكتبية...

فعلى سبيل المثال؛ إذا كانت نتيجة البحث فى مثالنا السابق عن علاقة الذكاء

بالتحصيل الدراسى فى المدرسة الابتدائية هى وجود معامل ارتباط موجب جزئى قدره (+٠,٥)، فإنه يجب علينا أن نبرر هذه النتيجة، فنوضح لماذا خرج لنا الارتباط موجباً وليس سالباً، وجزئياً وليس تاماً. كأن نقول إن الذكاء يعنى -ضمن ما يعنيه- القدرة على التعلم وعلى الفهم، وعلى إدراك العلاقات والمتعلقات بين الأشياء والأمور بعضها البعض. والتحصيل الدراسى فى المدرسة الابتدائية يتطلب كل هذه القدرات، ومن هنا كان الارتباط موجباً بين الذكاء والتحصيل (أى أنه كلما ارتفع ذكاء التلميذ كان هناك احتمال أكبر أن يرتفع مستوى تحصيله الدراسى). أما كونْ معامل الارتباط جزئياً وليس تاماً فإن ذلك يرجع إلى أن التحصيل الدراسى لايعتمد فقط على الذكاء. بل يعتمد على عوامل كثيرة من أهمها الذكاء، لكنه ليس الوحيد. فالتحصيل الدراسى يعتمد -مثلاً- على صحة التلميذ الجسمية وعلى صحته النفسية، وعلى ظروفه الاقتصادية، وعلى مستوى وعى والديه وثقافتهما.. والتلميذ الذكى قد لاتكون ظروفه الأخرى -المساعدة على التحصيل- متوافرة فيضعف تحصيله بالرغم من ذكائه، والتلميذ المتوسط فى ذكائه قد تكون ظروفه الأخرى المساعدة على التحصيل متوافرة بدرجة كبيرة فيتفوق فى تحصيله على زميله الأذكى منه.. وهكذا، لايكون الاتفاق تاماً بين الذكاء والتحصيل الدراسى، بل يكون اتفاقاً أو ارتباطاً جزئياً فقط (أقل من الواحد الصحيح).

٧ - تطبيقات البحث Applications:

معظم البحوث العلمية -ما لم يكن كلها- تستهدف الفائدة التى تعود من تطبيقات نتائجها لصالح الناس ولرفاهية المجتمع، وإنجاحه فى تحقيق أهدافه. ولذا، ينبغى على الباحث العلمى أن يجتهد فى وضع توصيات لتطبيقات نتائج بحثه لصالح مجتمعه، ويقترح كيفية تطبيق توصياته، ومجالات الاستفادة من نتائج بحثه، إذا كانت نتائج بحثه مما يمكن الاستفادة العملية منها.

فعلى سبيل المثال، لو كان من نتائج البحث -الذى سبق لنا أن ضربناه مثلاً عن سيكولوچية التحصيل الدراسى فى المدرسة الثانوية -أن ضعف الذكاء واضطراب الصحة النفسية، كل منهما يؤدى بالطالب إلى فشله فى التحصيل الدراسى؛ عند ذاك يمكن

للباحث أن يوصى المسئولين عن المدارس الثانوية بعدم قبول التحاق الطلاب بها إلا بعد إجراء اختبارات ذكاء عليهم، واطمئناننا إلى أنهم فى مستوى ذكاء مناسب، ورفض منخفضى الذكاء ونصحهم بالتوجه إلى مراكز تدريبية مهنية -على سبيل المثال- تكون أنسب لهم، ويرجى فيها نجاحهم. كما ينصح المسئولين -أيضًا- بعلاج الاضطرابات النفسية التى تظهر لدى الطلاب حتى يرتفع مستوى تحصيلهم..

٨ – كتابة البحث وتقديمه Written Presentation:

وتكون الخطوة الأخيرة المتعلقة بالبحث هى تدوينه كتابة لتقديمه إلى من يريده الباحث سواء أكان لجهة كلفته به، أم للجامعة ليحصل به على درجة علمية، أم لمؤتمر علمى، أم فى ندوة، أم فى محاضرة، أم فى كتاب، أم فى مجلة ... وفى كافة هذه الأحوال، عليه أن يلتزم الأسلوب العلمى السليم والمتعارف عليه فى تقديم البحوث.. كما عليه أن يسجل الخطوات التى انتهجها فى بحثه ويصفها وصفاً يفى بالغاية التى يكتب بحثه من أجلها، ويناسب الظرف الذى يقدم بحثه فيه. وبالتالى، تتفاوت كتابة البحث وأجزائه بين الشرح المطول والتلخيص الموجز من حالة لأخرى حتى يناسب ظروف تقديمه. بل إن مواطن التركيز والاهتمام فيه سوف تختلف -أيضًا- حتى تناسب الظرف المعين. فعلى سبيل المثال، إذا كنا نقدمه للحصول على درجة علمية قد يصل مئات الصفحات، بينما إن كنا نقدمه لمؤتمر علمى أو للنشر فى إحدى المجلات فلا ينبغى أن يتجاوز عشرات الصفحات..وهكذا.. ويجب ألا ينسى الباحث ذكر مراجع بحثه التى استعان بها.

وينبغى أن نؤكد هنا -كتعقيب على الخطوات الأساسية الثمان التى سبق أن وضعناها للمنهج العلمى- أن هذه الخطوات هى -من وجهة نظرنا- خطوات عامة وشائعة وقابلة للحذف والإضافة والتعديل والاتفاق والاختلاف، وفق حالة الباحث وظروف بحثه، طالما أن هذا لايؤثر على صلب المنهج العلمى وجوهره.

ثانيًا: مناهج البحث

تكاد تتشابه البحوث النفسية المختلفة فى الخطوات الأساسية -التى سبق أن عرضناها- باستثناء خطوة هامة هى خطوة أدوات البحث ووسائله (الخطوة الرابعة)؛ حيث تتمايز البحوث بهذا الخصوص تمايزاً واضحاً. ونظراً لهذا، ووفقًا لمبدأ إطلاق الجزء على الكل؛ فإن منهج البحث كله يعرف بخصوصية الوسيلة أو المنهج الخاص أو الأداة التى استخدمت له؛ فيقال هذا بحث إكلينيكى، أو هذا بحث تجريبى، أو هذا بحث استبطانى، أو هذا بحث بالملاحظة...

وعلى هذا؛ فإن هناك مناهج علمية أربعة أساسية -على نحو ما سبق أن أشرنا فى مطلع هذا الفصل- يحسن أن نتحدث- الآن- بشىء من التفصيل عن كل منها:

(أ) منهج الاستبطان:

يعنى الاستبطان Introspection أن ينظر الإنسان إلى داخله ليحدثنا عما يجرى ويحدث بداخله، ولذا يسمى أحياناً بالملاحظة الداخلية، أو الملاحظة الذاتية Subjective Observation، حيث يقوم الفرد بملاحظة ذاته ويحدثنا عنها. كما يطلق عليه أحياناً أخرى التأمل الذاتى؛ أى تأمل الفرد لذاته ليحدثنا عنها، وكلها لها نفس المعنى وتحوى نفس المضمون.

ومن أمثلة استخدام هذا المنهج أن يقوم الباحث (كما فى المثال الذى سبق أن أشرنا إليه) بدراسة ظاهرة الأحلام فى علاقتها بالحالة النفسية للفرد قبل نومه؛ فيسأل كل فرد -ممن يبحثهم- أن يدلى بما رآه فى نومه، ثم يسأل عن حالته النفسية قبل نومه، عن مشاعره، عن آماله، عن رغباته، عن جوعه، عن عطشه، عن خوفه.. عن الأفكار التى وردت عليه عندما استلقى على فراشه قبل أن يدخل فى نومه العميق... إن الباحث هنا يطلب من الفرد أن يتأمل ما بباطن نفسه ويصفه له ويحدثه عنه. فهو هنا يستخدم الاستبطان منهجاً لبحثه ولجمع مادته التى يعالجها من بعد ليخرج بنتائج بحثه عن حقيقة العلاقة بين الحالة النفسية للفرد وبين أحلامه.

والباحث عندما يستخدم طريقة الاستبطان (أو منهجه) قد يستعين فيها -أيضًا- بما يراه مناسباً من أدوات تساعده فى بحثه، سواء فى ذلك الاختبار النفسى أو الاستبيان أو المقابلة.. لاستكمال ما يريد جمعه من بيانات، أو ما يبحث عنه من معلومات عن عينة بحثه.

تقييم لمنهج الاستبطان :

لعل أهم ما يؤخذ على هذا المنهج أنه منهج ذاتى Subjective إلى حد كبير؛ أى تعتمد البيانات التى نحصل عليها من استخدامه على ذاتية الشخص القائم بعملية الاستبطان:

١ – فهو قد يتعمد خداعنا وتضليلنا فيدلى ببيانات كاذبة بقصد منه.

٢ – أو قد يدلى ببيانات كاذبة فعلاً لكن دون أن يتعمد تضليلنا وذلك لوجود دوافع لاشعورية (لايحس بها ولا يدركها) تموّه على الحقيقة وتزيفها، خاصة إزاء الظاهرة موضوع البحث.

٣ – أو قد يكون عَيِياً فى التعبير عن نفسه ضعيفاً فيه (كنتيجة لضعف استعداده اللغوى أو لضعفه العقلى...) وبالتالى -حتى مع افتراض صدق نياته- لا يعطى لنا البيانات الصحيحة اللازمة لبحثنا.

٤ – أو قد يجد حرجًا فى مواجهة ذاته والإفصاح عما بها فيمتنع عن الإدلاء ببيانات صحيحة عن استبطاناته.

٥ – لايصلح هذا المنهج مع صغار الأطفال الذين لم يجيدون الكلام بعد.

٦ – لايصلح -أيضاً- فى دراسة الحيوانات.

٧ – عندما نطلب من فرد أن يحدثنا عن مشاعره وانفعالاته، خاصة أثناء تواجد مشاعره وانفعالاته، فإنهما يتأثران فتخفان فى حدتهما؛ نظراً لأنه ينقسم على نفسه بين مُلاحِظ ومُلاحَظ؛ أى أن طاقته التى كانت تنصرف كلية لمشاعره أو انفعالاته يسحب جزءاً منها ليستهلكه فى عملية الملاحظة والاستبطان، فتقل بالتالى حدة مشاعره وانفعالاته.

إلا أن علماء النفس يمكنهم علاج الكثير من نقاط الضعف السابقة، فعلى سبيل المثال:

١ – يُختبر مدى صدق القائم بالاستبطان، وذلك بمقاييس للصدق تستخدم كثيراً فى الاختبارات النفسية القائمة على الاستبطان؛ كأن نكرر السؤال بصيغة مختلفة حتى لايفطن المبحوث إلى أنه نفس السؤال. ويكرر ذلك الأمر بالنسبة لعدد من الأسئلة لنرى مدى اتساق إجابات الفرد فيها، إذ يعبر مدى الاتساق عن مدى الصدق. ويُستبعد من البحث كل من كان مقدار صدقه منخفضًا، ويركز البحث على ذوى درجات الصدق المرتفعة. ومثل –أيضاً– أن تضع للمبحوث عدداً من الأسئلة التى يجيب عنها الصادقون بشكل معين، فكلما أجاب عنها المبحوث بنفس كيفية إجابة الصادقين ارتفعت درجة صدقه، وكلما خالف فيها الصادقين انخفضت درجة صدقه؛ مثل سؤال: أجب بنعم أو لا على العبارات التالية:

– أنام مبكراً دائماً.

– لم أكذب ولا مرة واحدة فى حياتى.

– كل الناس تثق فى.

– ....

ويستبعد بالمثل من البحث من كانت درجة صدقه منخفضة، ونركز فى بحثنا –فقط– على ذوى درجات الصدق المرتفع.

٢ – لانطلب من الفرد أن يحدثنا عن مشاعره وانفعالاته فى حينها إن خشينا أن تتأثر نتيجة الاستبطان، بل ننتظر فترة مناسبة ثم نطلب منه أن يحدثنا عنها من الذاكرة ويصفها من استرجاعاته.

٣ – عدم استخدام منهج الاستبطان مع من نقدر أنه لايصلح معهم واستبدال غيره به، كدراستنا لسلوك الحيوانات أو صغار الأطفال على سبيل المثال؛ فنستخدم –مثلاً– الملاحظة أو التجريب بدلاً منه.

أما أهم ما يحسب من إيجابيات لهذا المنهج، فهو:

١ – كثيراً ما يكون المنهج الوحيد لمعرفة الحقيقة بالنسبة لبعض الظواهر. فمثلاً، هو السبيل الوحيد لمعرفة الأحلام التى رآها النائم فى نومه. فلا نستطيع معرفة الحلم الذى رآه الفرد فى نومه إلا إذا حدثنا هو نفسه به. وبالمثل، لا نستطيع معرفة حالة الفرد من جوع أو عطش أو الفكرة التى شت ذهنه إليها أثناء حديثنا معه، إلا إذا اعترف هو بذلك. فعلى سبيل المثال؛ إذا وجدت مجموعة تأكل وواحداً ممتنعًا عن مشاركتهم فأنت لاتستطع أن تقطع بأن امتناعه هذا عن مشاركتهم الطعام راجع إلى أنه لايحب هذا اللون الذى يتناولونه من الطعام، أو أن هذا اللون من الطعام ممنوع من تناوله بسبب مرض معين يعانيه، أو أن شهيته إلى تناول الطعام معدومة بسبب امتلاء معدته بالطعام أو بسبب حزنه الشديد... إنك لاتستطيع معرفة الحقيقة فى مثل هذه الحالات إلا إذا أدلى بها الفرد نفسه.

٢ – اعتمدت البحوث والآراء والنظريات النفسية فى كثير منها –منذ فلاسفة ما قبل الميلاد– على منهج الاستبطان. ولم تكن دعوة سقراط التى رفع فيها شعار اعرف نفسك سوى تطبيق مباشر لفهم الذات، ومعرفة حقيقة ما تنطوى عليه نفس الفرد وأبعادها المختلفة باستخدام هذا المنهج عن طريق تأمل الفرد لذاته.

٣ – تعتبر طريقة الاستبطان الأساس الذى قام عليه قسم كبير وهام من الاختبارات والمقاييس النفسية التى تستهدف دراسة الشخصية وقياس خصائصها وسماتها، وهى الاختبارات والمقاييس التى تُصنّف تحت قوائم الشخصية Personality Inventories وهى مستخدمة على نطاق واسع فى القياس النفسى؛ مثل اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه للشخصية The Minnesota Multiphasic Personality Inventory، والذى قام بترجمته وإعداده للبيئة المحلية عطية محمود هنا، ومحمد عماد الدين إسماعيل، ولويس كامل مليكة (لويس كامل مليكة وزملاؤه: ١٩٥٩).

٤ – طريقة الاستبطان هى –أيضًا– الأساس الذى تقوم عليه المقابلة Interview كأداة

أساسية من أدوات الأخصائى النفسى أو المعالج النفسى، بل وأيضًا الطبيب البشرى، حيث يصف الفرد ما يحس به وما يشعر، ومتى بدأت آلامه ومشكلاته ومتاعبه النفسية أو الجسمية وكيف تطورت، والصورة التى آلت إليها بعد الاستمرار فى العلاج المعين... هذا علاوة على استخدام المقابلة على نطاق واسع فى البحوث والدراسات الميدانية، سواء فى علوم النفس، أو الطب، أو الاجتماع، أو الأنثروبولوچيا.

(ب) منهج الملاحظة :

يقصد بالملاحظة Observation قيام الباحث بملاحظة الظاهرة التى يريد دراستها، وهى تحدث بتلقائية فى ميدانها الطبيعى، ودون تصنع أو افتعال، أو دون تدخل من جانب الباحث فى مسارها، مع تسجيل دقيق لكل ما يلاحظه من ظروف وعوامل وملابسات تحيط بالظاهرة. ويستعين الباحث على دقة التسجيل بكل ما يستطيع من أدوات التسجيل كالكاميرات والمسجلات والتصوير والتسجيل السينمائى و(الموبايل) و(الفيديو)... هذا علاوة على تسجيل ملاحظاته كتابة، أو على هيئة رسوم أو أشكال توضيحية.

وينبغى على القائم بالملاحظة أن يكون على درجة عالية من اليقظة والانتباه والتركيز على ما يلاحظه، حتى لايفلت من دائرة ملاحظته شىء هام يلقى مزيداً من الضوء أو المعرفة أو الفهم للظاهرة التى يلاحظها، وحتى تقع عينه على كل ما يحدث أمامه من أمور، وما تحيط بالظاهرة التى يبحثها من عوامل تؤثر فيها، ومن ظروف تتأثر بها. مع تسجيل كل ذلك تسجيلاً دقيقاً واعياً وأميناً.

ويمكن للباحث أن يطبق اختبارات نفسية ومقاييس شخصية، ويعقد مقابلات مع من يرى أن له علاقة بالظاهرة، بغية إلقاء مزيد من الضوء على ما استغلق على الباحث من جوانب الظاهرة، أو من أمور أثارتها الملاحظة...

هذا: ويمكن تقسيم الملاحظة إلى ثلاثة أنواع رئيسية هى:

١ – الملاحظة الميدانية (أو الملاحظة فى المجال الطبيعى) Field Observation: وهى الملاحظة التى ينزل فيها الباحث إلى حيث تحدث الظاهرة فى مجالها الطبيعى، ويسجل ما يلاحظه. وتمتاز بأن الباحث يمكنه أن يعاود ملاحظاته فيذهب إلى حيث تحدث الظاهرة مرة أخرى، ليستوثق من ملاحظاته أو يستكملها. بل يمكن لباحث آخر أن يستوثق من نتائج ملاحظات زميل له –إن شك فيها– بأن يذهب بنفسه ويقوم هو بالملاحظة. كما أن الباحث تتاح له فى هذا النوع من الملاحظة أن يعدّ نفسه للملاحظة ويرسم خطتها ويجهز أدواته ويختبرها.

٢ – الملاحظة بالمشاركة Participant Observation: وهى الملاحظة لجماعة أو لظاهرة بحيث يشترك فيها الباحث نفسه فيأخذ دوراً داخل الجماعة، أو يسهم فى تفاعلات الظاهرة مع غيره من أعضاء أو مشاركين فى الظاهرة. وهذا النوع من الملاحظة يعتبر منهجاً أساسياً لعلماء الاجتماع والأنثروبولوچيا خاصة، وللرحالة بصفة عامة، وإن كان يستعين به علماء النفس أحياناً. فيذهب الباحث إلى حيث تحدث الظاهرة بين الناس ويعيش معهم كواحد منهم، ويسجل كل ملاحظاته وانطباعاته عن كل ما يحدث متعلقاً بالظاهرة التى يهتم بدراستها. ونجد فى هذا النوع من الملاحظة قدراً –لابأس به– مما يمتاز به النوع السابق من الملاحظة. ولقد أدى هذا النوع من طريقة الملاحظة إلى خدمات جليلة لعلوم كثيرة؛ كالتاريخ والجغرافيا والاجتماع والأنثروبولوچيا والآثار... على نحو ما خلفه لنا كبار الرحالة من كتابات عن ملاحظاتهم فى الرحلات التى قاموا بها. كما يرجع الفضل إلى هذا النوع من الملاحظة فيما عرفناه من عادات وخصائص وقيم منتشرة بين القبائل والمجتمعات القديمة والحديثة، ومن مشاهداتهم فيها، مما ألقى المزيد من الضوء على طبائع الإنسان، وعمّق من فهمنا لدوافعه الفطرية والمكتسبة، ولقيمه الاجتماعية ومعاييره

الأخلاقية، التى تبدو غريبة علينا كل الغرابة فى بعض الأحيان؛ خاصة ما تعلق منها بالإنسان القديم والقبائل البدائية...

٣ - الملاحظة الطارئة (أو العارضة) Accidental Observation: وهى التى تحدث بشكل طارئ دون أن يعد الباحث نفسه لها. فقد يتصادف مرور عالم نفس أو عالم اجتماع بمكان يحدث فيه عراك بين شخصين، فيقف على مقربة يلاحظ هذه الظاهرة، وكيف تطورت من عراك بين شخصين فقط إلى معركة ضخمة بين عدد كبير من الناس، ويصف ما تم فيها وانتهت إليه وصفًا تفصيليًا متضمناً الظروف والملابسات والعوامل التى أحاطت بها وأثرت فيها أو نجمت عنها. وعلى الرغم من أن الملاحظة الطارئة ليست لها ميزات النوعين السابقين، خاصة ما يتعلق باستعداد الباحث لها، وإمكانية معاودتها لاستكمال بعض الفجوات فيها، وقيام من يتشكك فى صحة معلوماتها بإعادتها بنفسه (حيث إنها ملاحظة طارئة)، إلا أن هذا النوع من الملاحظة شديد الأهمية، حيث يكون المتاح الوحيد لدراسة بعض الظواهر، كما هو الحال فى المثال السابق.

تقييم لمنهج الملاحظة:

وعموماً، فإن من أهم ميزات منهج الملاحظة هو دراستنا للظاهرة على طبيعتها، وكما تحدث دون تصنُّع أو تكلف يفقدها الكثير من أصالتها وخصائصها الجوهرية التى قد تُشوَّه إذا ما استحدثت الظاهرة استحداثًا مصطنعًا، على نحو ما يحدث أحياناً فى التجريب، وكأننا أمام ظاهرة تمثيلية وليست طبيعية، ظاهرة مفتعلة وليست حقيقية مما قد يجعلها مختلفة بعض الشىء عن الظاهرة على طبيعتها. هذا علاوة على إمكانية إعادة الملاحظة فى غالبية الأحوال للتأكد من نتائجها، باستثناء الملاحظة الطارئة كما سبق أن أشرنا.

(جـ) منهج التجريب :

يعنى التجريب Experimentation أن يقوم الباحث بإحداث الظاهرة التى يريد دراستها إحداثاً، أو أن يتدخل فى مسارها الطبيعى فيعدل فى ظروف حدوثها، أو يغير من عواملها أو مسبباتها بالزيادة أو النقصان، أو بالحذف أو الإضافة أو التعديل.. حتى يمكنه بعد ذلك أن يقوم بدراستها وفهمها، ومعرفة مختلف الظروف والعوامل التى تؤثر فيها أو تتأثر بها، مما يجعلنا نستفيد من هذه المعرفة فى التحكم فى الظاهرة فنجعلها تحدث وفق مانريد، ومتى نريد، وذلك عن طريق تحكمنا فى الظروف والعوامل التى أثبت التجريب تأثر الظاهرة بها، وتأثيرها فيها. إذن، فالتجريب هو قيام الباحث بالتحكم فى الظاهرة وضبط متغيراتها وعواملها وشروط حدوثها ضبطاً مقصوداً بهدف زيادة فهم الظاهرة، وإثراء العلم بها والتحكم فى حدوثها وفى تعديلها وفق رغباته.

وفى التجريب يستعين عالم النفس فى معمله –شأن غيره من العلماء– بوسائل التحكم والضبط المختلفة الخاصة بظروف التجربة؛ كالإضاءة والحرارة والتهوية والضوضاء... كما يعد المكان الذى يجرى فيه تجربته الإعداد المناسب؛ كأماكن جلوس المبحوثين والمجربين، وأثاثات المعمل وأدواته ومعداته وأجهزته...كما يستعين الباحث فى معمله بمختلف وسائل القياس التى يريدها، سواء أكانت نفسية أم طبيعية، حتى يمكنه قياس الظاهرة أو جوانبها أو ظروفها.. قياساً كمياً دقيقاً. والمجرب فى كل هذا يستعين بالتقدم العلمى الضخم الذى حدث فى تجهيزات المعامل Laboratories العلمية، وفى الأجهزة التكنولوچية المختلفة.

والباحث فى المنهج التجريبى –شأن زميليه فى المنهجين السابقين– عليه أن يتبع بصفة عامة خطوات المنهج العلمى الأساسية –التى سبق أن أوضحناها– مع بعض التعديلات البسيطة التى تفرضها طبيعة الظاهرة التى يقوم ببحثها، وظروف بحثه، واستعداداته الخاصة كباحث. وسوف يقوده حسه المنهجى فى كل ذلك. وهو الحس الذى ينميه الفرد من دراساته لمناهج البحث ومن اطلاعه على خطوات المنهج العلمى التى

اتبعها العلماء فى مجال تخصصه عند تناولهم لظواهرهم بالبحث والدراسة.

المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة:

فى كثير من الحالات لايصح علمياً أن نقوم بدراستنا على مجموعة واحدة فنخرج منها بنتائج نطمئن إليها. فلو أننا -على سبيل المثال- أردنا أن ندرس أثر دواء معين على الشفاء من مرض معين، فأتينا بمجموعة من المرضى بهذا المرض وأعطيناهم هذا الدواء لمدة معينة لنجرب تأثيره على الشفاء، ثم بعد هذه المدة وجدنا أن حوالى نصفهم قد تم شفاؤه. ففى مثل هذه الحالة يكون من الخطأ استنتاج أن تعاطى هذا الدواء يؤدى إلى شفاء نصف الحالات تقريباً من مرضى هذا المرض. ذلك لأن هناك احتمالاً كبيراً أن يكون الشفاء الذى تم لهؤلاء المرضى إنما كان أساساً بسبب عوامل الشفاء التلقائى؛ وليس بسبب تعاطى الدواء. ومعظمنا يعلم أن كثيراً من المرضى يشفون بسبب عوامل الشفاء التلقائى هذه، ودون تعاطى أى دواء، كما هو معروف فى مرض الزكام والانفلونزا، إذ يشفى المرضى به بعد فترة معينة من مرضهم دون علاج.

وفى مثل هذه الحالات، لكى نصل إلى استنتاج صحيح نطمئن إلى علميته لابد لنا من أن نجرى دراستنا على عينة من المرضى تنقسم إلى مجموعتين متكافئتين من حيث الخصائص والظروف؛ فتكونا متكافئتين من حيث السن والجنس وطول مدة المرض وشدته والمستوى الاقتصادى الاجتماعى الثقافى... إلى حد كبير. ثم نعطى المجموعة الأولى الدواء ونترك المجموعة الثانية بدون دواء. وبعد فترة معينة، نحصى نسبة الشفاء فى كل من المجموعتين ونقارنهما. ومن هذه المقارنة قد نستطيع أن نستنتج مدى تأثير الدواء. فمثلاً، إذا كانت نسبة الشفاء فى المجموعة التى تعاطت الدواء (٥٠ ٪) بينما كانت نسبة الشفاء فى المجموعة التى لم تتعاط الدواء (٢٠ ٪) فإننا نصل إلى استنتاج فحواه أن لهذا الدواء تأثيراً على الشفاء من هذا المرض يصل إلى حوالى (٣٠ ٪)، وهو الفرق بين نسبة الـ(٥٠ ٪) للمجموعة التى تعاطت الدواء والـ(٢٠ ٪) للمجموعة التى لم تتعاط دواء، لكنها شفيت شفاءً تلقائياً.

ونحن نطلق على المجموعة التى جربنا عليها الدواء مصطلح المجموعة التجريبية

Experimental Group لأننا جربنا الدواء فيها بينما نطلق على المجموعة الثانيـة، والتى تتكافأ معها (تقريباً) فـى معظم العوامـل الهامـة المرتبطـة بالشفـاء ما عدا تنـاول الـدواء، والتـى نتـخـذهـا محكاً لقـيـاس مـدى تـأثيـر الـدواء، مـصطلـح المجـمـوعـة الضـابطة Control Group؛ حيث إنها تضبط لنا نتائج التجربة من الناحية المنطقيـة.

حتى فى هذا المثال، فإننا نصل -فقط- إلى استنتاج فحواه أن لتعاطى هذا الدواء تأثيراً على الشفاء، لكننا لا نستطيع أن نقطع بما إذا كان هذا التأثير ناجماً عن طبيعة خاصة بهذا الدواء وبما يحتوى عليه من عناصر ومركبات، أم أن تأثير تعاطى هذا الدواء ناجم فقط عن عامل نفسى هو القـابلية للإيحـاء Suggestibility؛ حيث إن تعاطـى المريض للدواء سواء أكان ذلك بأمر من الطبيب أم بطلب من المجرب، إنما يتضمن إيحاءً للمريض بأن هذا الدواء يعمل على شفائه، وبالتالى قد يكون الشفاء -أساسًا- راجعاً إلى الإيحـاء كعامل نفسى وليس إلى الطبيعة الخاصة للدواء؛ ومن المعروف أن للإيحـاء تأثيراً كبيراً على كثير من الناس.

وللفصل بين هذين النوعين من تأثير التعاطى (العامل الطبيعى المتعلق بطبيعة الدواء والعامل النفسى المتعلق بالإيحـاء Suggestion)، فإننا يجب أن نقوم بدراستنا على ثلاث مجموعات متكافئة من المرضى: إحداها نعطيها الدواء الحقيقى، والثانية نعطيها دواءً مزيفاً يشبه فى مظهره الدواء الحقيقى (لكنه من مواد غير فعالة لاتضر ولاتنفع) حتى يطمئن الفرد إلى أنه دواء حقيقى، أما الثالثة فلا نعطيها شيئًا. وبعد مدة معينة نقارن بين نسب الشفاء فى المجموعات الثلاث، فلو افترضنا أن نسبة الشفاء كانت (٥٠ ٪) فى مجموعة الدواء الحقيقى، وكانت (٥٠ ٪) فى مجموعة الدواء المزيف. وكانت (٢٠ ٪) فى المجموعة التى تُركت دون تعاطى شىء؛ فإن معنى هذا أن طبيعة الدواء لا تأثير لها وإنما كان ارتفاع نسبة الشفاء فقط نتيجة عامل الإيحاء، بدليل أن من تعاطوا الدواء المزيف ارتفعت نسبة شفائهم بنفس القدر. لكن، لو افترضنا أن نسبة الشفاء فى المجموعة التى تعاطت الدواء الحقيقى كانت (٥٠ ٪) بينما كانت فيمن تعاطت الدواء المزيف (٢٠ ٪)، وكانت فى المجموعة التى لم تتعاط أى دواء (٢٠ ٪) أيضًا: فعند ذاك نستنتج أن التأثير الطبيعى لهذا

الدواء على الشفاء يصل إلى نسبة (٣٠٪) بينما تأثيره عن طريق الإيحاء لايكاد يوجد. في حين أننا لو افترضنا أن من شفوا بعد تعاطى الدواء الحقيقى كانت نسبتهم (٥٠٪)، وأن من شفوا ممن تناولوا الدواء المزيف كانوا (٣٥٪) وأن من شفوا شفاءً تلقائيًا (حيث إنهم تركوا دون تعاطى شيء) كانوا (٢٠٪) فإننا نستنتج عندئذ أن نسبة تأثير الدواء الطبيعى على الشفاء تعادل نسبة التأثير النفسى من تعاطيه (والناجم عن الإيحاء النفسى)؛ حيث إن الفرق بين (٥٠٪) و(٣٥٪) كالفرق بين (٣٥٪) و(٢٠٪) ... وعلى هذا المنوال نمضى فى استنتاجنا.

وواضح فى المثال السابق أن المجموعة الثالثة (التى لم تتعاط شيئًا) هى المجموعة الضابطة، حيث تتخذ نتائجها لضبط الاستنتاج عندما نقارن بين نتائجها ونتائج كل من المجموعتين الأخريين، أما المجموعة الأولى (التى تعاطت الدواء الحقيقى) فكانت هى المجموعة التجريبية. لكن المجموعة الثانية (التى تعاطت الدواء المزيف) فيمكن اعتبارها مجموعة تجريبية بالنسبة لدراسة أثر الإيحاء، واعتبارها -فى نفس الوقت- مجموعة ضابطة بالنسبة لدراسة أثر طبيعة الدواء.

يمكننا- إذن أن نعرِّف المجموعة التجريبية بأنها مجموعة المبحوثين الذين نجرب عليهم تأثير عامل معين أو ظرف معين فندخله عليهم؛ مثل تعاطى الدواء فى المثال السابق. أما المجموعة الضابطة فهى مجموعة مكافئة للمجموعة التجريبية فى العوامل والظروف الأساسية التى تؤثر على الظاهرة المدروسة باستثناء العامل أو الظرف الذى نريد التحقق من تأثيره، حيث يغيب فيها أو ينقصها، وهو فى المثال السابق تعاطى الدواء، حيث لا تتعاطى المجموعة الضابطة الدواء. وتشتق اسمها من كونها تضبط لنا الاستنتاجات التى نخرج بها من التجربة التى نجريها، أو الدراسة التى نقوم بها.

المتغير المستقل والمتغير المعتمد :

يمتاز التجريب بأنه المنهج العلمى الوحيد الذى يؤدى بنا إلى الكشف عن العلاقات

السببية بين الظواهر، ونحن على ثقة كبيرة من صدق استنتاجاتنا. ففى الأمثلة السابقة التى ضربناها عن دراسة تأثير تعاطى الدواء على الشفاء ما يؤيد صحة رأينا هذا، حيث يمكننا أن ندرس أثر الدواء على الشفاء، أو أن ندرس مدى الشفاء الذى يتم بسبب تعاطى الدواء أو بسبب الإيحاء.. ففى هذه الأمثلة، يعتبر الدواء هو المتغير المستقل Independent Variable، حيث إنه المتغير التجريبى الذى نريد أن ندرس تأثيره على غيره، وليس تأثير غيره عليه (فهو ليس متأثراً بشكل أو بآخر -بالشفاء ولا معتمداً عليه)، فى حين يعتبر الشفاء هو المتغير المعتمد Dependent Variable أو المتغير التابع فى أمثلتنا تلك؛ لأننا نريد أن ندرس فى هذه التجارب مدى اعتماد الشفاء من هذا المرض على تعاطى هذا الدواء (فى حالة تعاطى الدواء) أو على الإيحاء (فى حالة تعاطى الدواء المزيف خاصة). إذن، فالمتغير المعتمد أو التابع هو الذى يزيد أو ينقص أو يتغير تبعًا لزيادة أو نقصان أو اختفاء المتغير المستقل؛ أى يعتمد -بشكل أو بآخر- على المتغير المستقل ويتأثر على نحو ما به.

وينبغى أن نشير إلى أن المتغير المستقل فى دراسة قد يكون هو نفسه متغيراً معتمداً أو تابعًا فى دراسة أخرى. فعلى سبيل المثال، إذا أردنا أن نبحث مدى تأثير التدريب على رفع مستوى ذكاء الأفراد فأتينا بمجموعتين متكافئتين من الأطفال. عرّضنا إحداهما لتدريب مكثف على الأعمال والواجبات الذهنية والفكرية، وتركنا الأخرى دون تدريب. ثم اختبرنا ذكاء المجموعتين وقارنا بينهما، فإن الذكاء فى هذه التجربة يعتبر متغيراً معتمداً أو تابعًا، بينما يعتبر التدريب هو المتغير المستقل. ولكن، لنفترض أننا أردنا بعد ذلك -أو أثناءه- دراسة تأثير الذكاء على التحصيل الدراسى، فأتينا بمجموعتين متكافئتين من التلاميذ باستثناء أن إحداهما مجموعة من الأذكياء والأخرى مجموعة من الأغبياء، وهيأنا لهم جميعًا ظروفًا موحدة للتحصيل الدراسى، وفى نهاية العام نعرضهم لاختبارات تحصيلية موحدة، ثم نقارن بعد ذلك مستويات التحصيل فى كل من المجموعتين. إن دراسة تجريبية كهذه يعتبر فيها الذكاء متغيراً مستقلاً والتحصيل متغيراً تابعًا أو معتمداً. وهكذا، يكون الذكاء فى المثل الأول (أثر التدريب على الذكاء) متغيراً معتمداً أو تابعاً، بينما

يكون هو نفسه فى المثل الثانى (أثر الذكاء على التحصيل الدراسى) متغيراً مستقلاً.

تقييم لمنهج التجريب:

إن استقراءنا لتاريخ علم النفس يوضح أن الفضل فى استقلال علم النفس عن الفلسفة كعلم خاص قائم بذاته إنما يرجع إلى اصطناعه للمنهج التجريبى، إذ أتاح له المميزات التالية (علاوة على بروزه كعلم محدد بعد أن كان مجرد موضوع فلسفى):

١ - إمكانية الضبط العلمى والتحكم الدقيقين فى الظروف والعوامل التى تؤثر على الظاهرة المدروسة، حيث تتوافر هذه الإمكانية فى المعامل -على نحو كبير- نتيجة التقدم العلمى والتكنولوچى فى صناعة أجهزة الضبط والقياس.. مما يساعدنا على ضبط أعلى للنتائج، ودقة أكبر فى الاستنتاج. وهكذا، ترتفع الموضوعية إلى أعلى حد ممكن وتقل الذاتية.

٢ - إمكانية إعادة نفس التجربة مرات عديدة للاطمئنان إلى صدق استنتاجاتنا، حيث يمكن فى المعمل خلق نفس الظروف المتماثلة بدقة كبيرة نتيجة سهولة الضبط والتحكم التى تتيحها المعامل وتجهيزاتها.

٣ - إجراء التجارب -عادة- لايحتاج إلى كفاءات ولا إلى تدريب شاق كما هو الحال فى المناهج الأخرى. وبالتالى، يكون المنهج التجريبى منهجاً سهلاً يمكن لمعظم الباحثين استخدامه مع درجة كافية من الاطمئنان إلى دقة نتائجهم وصوابها؛ بعد قدر ضئيل من التدريب.

٤ - المنهج التجريبى أقدر المناهج جميعاً على حماية الباحث من التأثر بأهوائه وانحيازاته وعواطفه وهو يدرس الظاهرة النفسية، وذلك عن طريق وسائل الضبط الموضوعية، والتى يسهل تحقيقها لظروف ومتغيرات وعوامل الظاهرة التى يبحثها عن طريق الاستعانة بأجهزة الضبط والتحكم والقياس المختلفة.

٥ – يسمح لنا منهج التدريب بالاستعانة بمناهج البحث الأخرى ونحن نستخدمه فى دراسة الظواهر النفسية؛ فعلى سبيل المثال، نستطيع ملاحظة من نجرب عليهم وتسجيل ملاحظاتنا عن تأثير إدخال ظرف جديد على التجربة أو إزالة أو تقليل متغير معين... (منهج الملاحظة). كما يمكن لنا أن نسأل المبحوثين عن مشاعرهم وأحاسيسهم أثناء التجربة عندما عدلنا فى هذا الظرف أو ألغينا ذلك أو أدخلنا غيره... (منهج الاستبطان). كما يمكن أن نطبق اختبارات نفسية ونجرى مقابلات إكلينيكية لمن نجرب عليهم لمعرفة أثر عامل معين أو ظرف معين على شخصية الفرد واتجاهاتها وتصرفاتها وانفعالاتها..

٦ – هذا، إضافة إلى ما سبق أن ذكرناه –عند حديثنا عن المتغير المستقل والمتغير المعتمد– من كون منهج التجريب هو الوحيد الذى يسمح لنا باكتشاف العلاقات السببية، ويمكّننا من اكتشاف العلة والمعلول فى متغيرات الظاهرة وعواملها المختلفة بشىء أكبر من الثقة والاطمئنان إلى صواب الاستنتاج.

أما أهم ما يوجه إلى منهج التجريب فى علم النفس من نقد فلعله ما يلى:

١ – أن كثيراً من موضوعات علم النفس وظواهره لايمكن دراستها بالتجريب؛ حيث إن كرامة الإنسان، والمسئولية الجنائية المترتبة على أى ضرر يصيبه من جراء إجراء تجربة عليه، من العوامل التى تقيد التجريب وتحده فى كثير من الظواهر النفسية. والمجربون النفسيون، وعلماء النفس عامة يعون ذلك جيداً، ويضعونه فى الاعتبار عند التمييز بين ما يمكن دراسته تجريبياً من الظواهر النفسية عند الإنسان، وما لا يمكن، وما لا يستحب.

٢ – أن تدخل المجرب فى مسار الظاهرة النفسية (وهو جوهر التجريب) يفقد الظاهرة جوهر طبيعتها ويفسدها، فيصبح المجرب وكأنه يقوم بدراسة شىء آخر غير الظاهرة المراد دراستها؛ نظراً لما أصابها من تصنُّع وتكلُّف بسبب إحداثها أو التدخل التجريبى فى مسارها. والرد على ذلك أن المجربين أنفسهم يبتعدون عن الظواهر التى يفسدها

التجريب ويستخدمون منهجهم التجريبي فقط في دراسة الظواهر التي لايفقدها التجريب أصالتها وجوهر طبيعتها. ولنضرب لذلك مثلاً بدراسة للمقارنة بين سهولة حفظ المادة المفهومة والمادة غير المفهومة؛ فتأتي بمجموعة أفراد نعطي كلاً منهم مدة دقيقتين لكي يحفظ ما يستطيع حفظه من قائمة بها عشرون كلمة ذات معنى، تتكون كل منها من ثلاثة أحرف (مثل: قلم- رجل- أكل). ثم نطلب منهم تذكر ما حفظوه. وبعد ذلك نعطي كلاً منهم نفس مدة الدقيقتين لكي يحفظ مايستطيع حفظه من قائمة بها عشرون مقطعًا عديم المعنى كل منها يتكون أيضًا من ثلاثة أحرف (مثل: رلق- زنع- منس). ثم نطلب منهم تذكر ما استطاعوا حفظه. ثم نقارن بين النتيجة في حالات الكلمات الحاصلة على معنى (المفهومة) والنتيجة في حالة المقاطع التي لامعنى لها (غير المفهومة). فلا شك، أن متوسط عدد الكلمات المفهومة التي يستطيع أن يتذكرها هؤلاء الأفراد سيكون أعلى كثيراً من متوسط عدد المقاطع غير المفهومة (غير الحاصلة على معنى) والتي يستطيع أن يتذكرها نفس الأفراد.. ونظراً لأن الأفراد لم يتغيروا (تثبيت عامل قوة الذاكرة)، ونظراً -أيضًا- لأن الزمن واحد (دقيقتان في كل حالة)، ونظراً لأن عدد الأحرف واحد (ثلاثة أحرف في كل كلمة، أو مقطع)، فإن الفرق بين سهولة حفظ القائمة الحاصلة على معنى يرجع بالفعل -إلى حقيقة أن المادة المفهومة أسهل في تعلمها من غير المفهومة. ولعله من الواضح أن استحداث ظاهرة الحفظ في هذه التجربة لم يغيرها، أو يفسدها، أو يفقدها جوهرها الطبيعي. ويمكن في مرحلة أخرى من هذه التجربة أن نأتي بمجموعة أخرى نبدأ معها التجربة بالمقاطع غير المفهومة، ونثني بالمقاطع المفهومة (لتحييد تأثير البدء بأيهما) فنصل إلى نفس النتيجة السابقة من سهولة وسرعة حفظ المادة المفهومة مقارنة بالمادة غير المفهومة. مما نطمئن معه إلى صدق نتيجة التجربة الأولى، أو المرحلة الأولى من التجربة. ومن نافلة القول هنا أن نشير إلى أن هذه النتيجة يمكن تطبيقها والاستفادة منها في نصح المعلمين بضرورة إفهامهم الطلاب للمادة التي يدرسونها لهم حتى يسهل ثباتها في أذهانهم واستفادتهم الفعلية منها.

ويمكن القياس على هذه الحالة بذكر الكثير من التجارب التى يجريها علماء النفس وباحثوه. وهكذا، تسقط حجة الناقدين للتجريب فى علم النفس فيما يتعلق بهذا المأخذ.

(د) المنهج الإكلينيكى:

هناك حدود للتجريب على الإنسان، وقيود تقلل من كم الظواهر النفسية التى يمكن إخضاعها للدراسة التجريبية. فنحن -مثلاً- لانقوم بتعريض الإنسان عمداً لصدمة نفسية شديدة لنرى تأثيرها على نفسيته، فقد تؤدى به إلى اضطراب نفسى خطير لايشفى منه أبداً. كما أننا لانستطيع أن نطلب من زوجين أن ينفصلا لكى ندرس أثر انفصال الأبوين فى الصغر على نفسية الابن وطابع شخصيته عند الكبر.

لكن الظروف الطبيعية والبيئية والاجتماعية تمدنا -بشكل تلقائى- بعدد لانهائى من الحالات التى تحدث لها صدمات نفسية، أو ينفصل فيها الأبوان منذ طفولة الفرد الأولى فيشب محروماً من الجو العائلى السوى الذى يتربى فيه الطفل وينمو بين أبويه.. وهنا يستعيض الباحث النفسى بهذه الظروف التى نشأت تلقائياً ودون تعمد منه وليس له فيها دخل قصدى عن إجراء تجربة تحقق له نفس الشىء، لكنه لايستطيعها. وكأن الباحث هنا ينتهز هذه الفرص التى يفرزها المجتمع تلقائياً، لكى يحقق غرضه من بحث الظاهرة المرتبطة بها، على نحو الأمر فى المثالين السابقين (أثر الصدمة النفسية-أثر انفصال الأبوين).

وفى مثل هذه الحالات، خاصة ما تعلق منها بظواهر الاضطرابات الشخصية، والأمراض النفسية، والمشكلات الاجتماعية، والانحرافات الخلقية؛ نجد أن المنهج الإكلينيكى Clinical Method يكاد يكون أفضل المناهج العلمية وأدقها، وأقدرها على دراسة الظاهرة.

فالطريقة الإكلينيكية تعنى التركيز على دراسة الحالات الفردية التى تمثل الظاهرة المراد دراستها، حيث يقوم الباحث باستخدام أدوات البحث النفسى المختلفة؛ والتى تمكنه من دراسة الحالة (أو المبحوث) دراسة شاملة ومتعمقة حتى تصل به إلى فهم للعوامل

العميقة فى شخصية المبحوث، والتى تأثرت بالظاهرة موضع الدراسة أو أثرت فيها، وإلى المنطق السيكولوچى والمبرر العلمى لهذا التأثير والتأثر. ولذا، فالباحث بالمنهج الإكلينيكى قد يستخدم الاختبارات النفسية الإسقاطية وهى اختبارات تقيس أعماق النفس الإنسانية دون الاكتفاء بما يظهر على السطح، بل تتخذ ما يظهر مدخلاً إلى ما يختفى فى الأعماق. والباحث الإكلينيكى إذا ما استخدم اختباراً من طبيعة كمية، لايكتفى غالباً بذلك بل يجتهد للاستفادة منه استفادة كيفية أيضاً، فيقوم بتحليل استجاباته ودرجاته تحليلاً كيفياً قد يقوم هو بابتداعه مستفيداً من أسس النظريات النفسية، خاصة ما تعلق منها بسيكولوچية الأعماق وبالتحليل النفسى وبديناميات الشخصية ودوافعها وصراعاتها... كما أن الباحث بالمنهج الإكلينيكى غالبًا ما يستخدم المقابلة استخداماً موسعًا (حيث يجرى أكثر من مقابلة طويلة مع نفس المبحوث)، ويقوم بتحليل مادتها وما لاحظه على المبحوث أثناءها تحليلاً عميقًا يمتاز بالدقة والشمول واستقراء ما بين السطور، وإيحاءات العبارة، ودلالات الكلمة والإشارة، والحركة والسكون، والغضب والضحك والبكاء... إذ يقرأ كل هذا ويحلله قراءة الخبير، وتحليل المتخصص الواعى (سامية القطان: ١٩٨٠، ٦٧-٧٧). ثم هو غالباً ما يستفيد من تاريخ الحالة التى يسردها من يقوم ببحثه ليعرف الظروف التى عاشها، والخبرات والصدمات التى أثرت فيه، والعلاقات الاجتماعية ذات المغزى فى تاريخه، والأحداث الهامة التى مرت به، وتطور المرض أو الاضطراب أو الظاهرة المعنية أياً كانت. وغالباً ما يقوم الباحث بالمنهج الإكلينيكى بربط كل تحليلاته تلك لما تجمع لديه من بيانات ومعطيات عن المبحوث المعين الذى استخدم معه أدوات نفسية مختلفة، ليكوّن عن هذا الفرد صورة إكلينيكية متكاملة عن شخصيته بكاملها: عما يعتمل بداخلها، وعما تمتاز به من خصائص، وعن عناصر قوتها ومواطن ضعفها.. عن اتزانها أو اضطرابها، عن تكاملها أو تصدعها.. وعن وضع خطة علاجها والتنبؤ بنجاحه، إن كان بحثه متعلقاً بمرض أو اضطراب نفسى...

ولما كان المنهج الإكلينيكى يمتاز بكل هذا العمق والشمول فإنه يتطلب جهداً ووقتاً كبيرين من جانب الباحث العلمى، وبالتالى يصعب أن نطالبه بحجم كبير لعينة بحثه.وقد

يقل حجم العينة فى البحث العلمى إلى حد الاكتفاء بدراسة حالة واحدة دراسة شاملة متعمقة؛ إذ تكون فى بعض الحالات كافية لتحقيق هدف البحث (خالد محمد عبد الغنى، ٢٠١٠، ١٦٩-١٩٦). ومن حسن الحظ أن كلاً من الدقة والعمق والشمول فى الدراسة الإكلينيكية يعوِّض الضعف المتمثل فى صغر حجم العينة ويغطيه؛ كما أن التقنيات والتحليلات الإحصائية الحديثة والمتقدمة تساعد الباحث كثيراً فى مثل هذه الحالات؛ التى تصغر فيها العينات.

تقييم للمنهج الإكلينيكي:

يمتاز المنهج الإكلينيكى عن غيره من مناهج البحث النفسى بميزات، لعل من أهمها:

(١) قدرته على الوصول إلى أعماق النفس البشرية وإظهار خباياها وكشف مكنوناتها، وتلك أمور يصعب على غيره من المناهج تحقيقها. ولذا؛ فإن المنهج الإكلينيكى يُستخدم أساسًا فى تشخيص وعلاج الاضطرابات والأمراض والانحرافات النفسية وكثير من المشكلات الاجتماعية والسلوكية.

(٢) قدرته على إعطاء صورة شاملة ومتكاملة عن الشخصية وجوانب قوتها، ومواطن ضعفها. وهذا أمر كثيراً ما نحتاج إليه عند اختيار شخص لمسئوليات هامة أو موقع مميز، أو فى حالة محاكمته على جرائم جنائية للتبرئة أو تخفيف الحكم...

(٣) يمكن لهذا المنهج أن يستعان به فى تعميق نقطة معينة من نقاط بحث يستخدم له؛ أى من المناهج الأخرى بصفة أساسية. كما يمكن أن يحدث العكس فيستعين المنهج الإكلينيكى، الذى يُستخدم بصفة أساسية لبحث ظاهرة معينة بمنهج من المناهج الأخرى التى تصلح لبحث نقطة معينة فى هذه الظاهرة. فعلى سبيل المثال، يمكننا أن نستخدم المنهج التجريبى لدراسة تأثير الذكاء على التحصيل الدراسى فنجد أن الذكاء يعمل على رفع مستوى التحصيل، لكن نلاحظ فى العينة التى درسناها، بعض مرتفعى الذكاء الذين فشلوا فى التحصيل، فنقوم بدراستهم دراسة إكلينيكية للتعرف على العوامل والأسباب التى تجعلهم يفشلون فى التحصيل على الرغم من ارتفاع مستوى ذكائهم...

ومع هذا، توجد بعض المآخذ على هذا المنهج، ربما يكون من أهمها:

١ - أن المنهج الإكلينيكي يتطلب كفاءة عالية من جانب الباحث، وتأهيلاً عاليًا دقيقًا، وخبرة واسعة، وعلاوة على ذلك بصيرة نافذة وشخصية متزنة نفسياً إلى حد كبير. مما يجعل قلة -فقط- من المتخصصين هم الذين يستطيعون استخدامه بكفاءة فى البحث. وهذا من شأنه أن يُحدّ من عدد البحوث والباحثين الذين يستخدمونه. ولا نعتقد أن هذا مأخذ جوهرى يقلل من شأن هذا المنهج، بل على العكس من ذلك، إذا نظرنا إليه من الناحية الكيفية حيث الدقة والعمق.

٢ - أن هذا المنهج لاتوجد ضوابط محددة له، مما يسمح للذاتية أن تؤثر على نتائجه فتقل تبعًا لذلك الموضوعية، والتى هى من أهم ركائز البحث العلمى وشروطه. ومن يعتقد فى صحة هذا المأخذ كأنه يريد أن يقول لنا إن نتائج البحث الذى يستخدم المنهج الإكلينيكى تعتمد على أهواء الباحث بحيث تختلف إذا قام بها الباحث (أ) عنها إذا قام بها الباحث (ب). وردنا على ذلك أن الكفاءة العالية، والتأهيل العالى الدقيق، والخبرة الواسعة، والبصيرة النافذة، والشخصية المتزنة، والتى سبق أن أشرنا إليها فى البند السابق كشروط لابد من توافرها فى الباحث الإكلينيكى، سوف تعمل جميعها على تقليل الذاتية ورفع الموضوعية فى البحث الذى يستخدم الطريقة الإكلينيكية، كما أنها تُمكّن الباحث من السرعة والدقة فى الوصول إلى الحقيقة التى يريد كشفها. هذا إضافة إلى أن إعداد الباحث الإكلينيكي وتدريبه يستهدفان تقنين خطوات البحث الإكلينيكى، وتوحيد كيفيات تحليل البيانات التى تجمع عن طريقه، وتفسيرها واستنتاج ما ينبغى منها. فلا يُسمح -مثلاً- باستخدام اختبار إسقاطى، مثل بقع الحبر لرورشاخ، أو اختبار تفهم الموضوع، كما لايُسمح باستخدام المقابلة الإكلينيكية... إلا لمن دُرب عليها، وأُهل تأهيلاً عاليًا على استخدامها، ويشمل ذلك كيفية تطبيقها، وتفسير مادتها، واستنتاج الحقائق والمعلومات النفسية منها. وكأن التقنين هنا ينقلب من تقنين الأداة المستخدمة إلى تقنين الباحث ذاته.

خاتمة عن مناهج البحث في علم النفس:

إن لمناهج البحث فى علم النفس مراجع خاصة متخصصة فيه. ولم نقصد بعرضنا لمناهج البحث فى هذا الفصل من كتابنا إلا أن يكون مدخلاً موجزاً للمبتدئين فى دراسة علم النفس. ولمن يريد التوسع والمزيد، فعليه أن يرجع إلى المراجع المتخصصة فى الموضوع والشارحة له سواء الواردة منها فى قائمة المراجع بنهاية الكتاب أو غيرها، حتى يجد تفصيل ما أجمل، وشرح ما أوجز، وبيان ما غمض، وذكر ما لم يتسع الفصل لذكره.

ولاينبغى لنا أن نفرغ من هذا الفصل قبل أن نشير أو نذكّر (إذا كانت الإشارة قد سبقت) بما يلى:

١ - أن اختيارنا لمنهج دون غيره يعتمد بشكل أساسى على طبيعة الظاهرة التى نقوم بدراستها، ومدى صلاحية هذا المنهج لكشف الحقائق التى نبحث عنها، ومدى قدرة الباحث ومهارته فى استخدامه.

٢ - أن بعض الظواهر قد يصلح له أكثر من منهج لدراسته، وهنا قد يقوم الباحث باستخدام أكثر من منهج فى نفس الوقت لدراسته، ويجمع بين النتائج التى حصل عليها من أكثر من منهج للخروج بمعرفة متكاملة عن الظاهرة. فقد يصلح منهج أو أكثر لدراسة زاوية من الظاهرة، كما يصلح منهج آخر أو أكثر لدراسة زاوية أخرى. فيجمع الباحث بين نتائج استخدامه لهذه المناهج جميعاً للخروج بمعرفة متكاملة أو فهم أشمل لنفس الظاهرة. وما ذكرناه فى البند الثالث تحت تقييم المنهج الإكلينيكى يعتبر مثلاً على هذا.

٣ - أن الباحث عليه أن ينتقى من مناهج البحث المختلفة ذلك المنهج؛ ليس فقط، المناسب لبحث الظاهرة التى يريد دراستها، بل -أيضاً- الذى يعلم أنه يُجيد استخدامه؛ لأنه ما لم يجد استخدام منهجه أدى به ذلك إلى الخروج بمعلومات زائفة، وبنتائج باطلة، ضررها أكثر من نفعها.

٤ – على الباحث أن يوضح -بالتفصيل- الخطوات التى اتبعها فى بحثه لكى يتبين من يطلع على البحث مدى علمية هذه الخطوات وجديتها ومنطقيتها، ومدى ملاءمة النتائج التى توصل إليها الباحث عن طريقها للأخذ بها أو تطبيقها فى المجال الذى يهتم به المطلع على البحث. فعلى سبيل المثال، إذا علم الفرد من اضطلاعه على خطوات بحث معين عن علاقة التحصيل الدراسى بالذكاء أن عينة البحث كانت من تلاميذ المدرسة الإعدادية العامة، فإنه سوف يستنتج من تلقاء نفسه أن نتائج هذا البحث مشكوك فى صدقها على العلاقة بين الذكاء والتحصيل الدراسى فى قسم للرسم بأكاديمية الفنون... وهكذا.

٥ – ينبغى أن يراعى الباحث العلمى منتهى الدقة التى يستطيعها، والنزاهة والرغبة المخلصة فى كشف الحقيقة أياً كان نوعها أو اتجاهها، دون تعصب لوجهة نظر معينة، أو لمذهب محدد، أو لنظرية خاصة، وإنما يقصد -فقط- وجه الحقيقة كيفما كانت. وهذا ما يعرف بالموضوعية؛ وهى شرط أساسى للتفرقة بين البحث العلمى والبحث غير العلمى.

٦ – أن الباحث إذا أحسن استخدام أدوات مختلفة؛ كالاختبارات النفسية المتنوعة والمقابلة والملاحظة، فسوف يدعم بعضها بعضاً فى اتجاهات نتائجها، أو على أقل تقدير سوف تتكامل لكنها لن تتضارب إلا فى القليل النادر، طالما كانت كلها أدوات علمية، ويجيد الباحث استخدامها وتفسير نتائجها ومعالجتها.

٧ – أن علم الإحصاء ووسائله ومعاملاته وبرامج الكمبيوتر الإحصائية ووسائله وإمكانياته تقوم بدور لاغنى عنه فى البحث العلمى، سواء فى مرحلة اختيار عينات البحث، أو معالجة بياناته كمياً، أو تحديد مدى الثقة فى نتائج البحث، على نحو ما ذكرناه فى الخطوة الخامسة من خطوات البحث العلمى. ولذا وجب على الباحث النفسى أن يكون على دراية -لابأس بها- بعلم الإحصاء، بحيث يعرف متى وكيف يستفيد منه فى بحثه.

٨ - ينبغى أن تكون عينات البحوث كبيرة الحجم بعض الشىء؛ خاصة إذا كان الباحث سوف يلجأ إلى التحليلات الكمية لبيانات بحثه؛ حيث يتطلب الأمر فى مثل هذه الحالات تحكيم المقاييس الإحصائية المعروفة بمقاييس الدلالة Tests of Significance فى قبول نتائج البحث والثقة فيها، وهذه بدورها تعتمد -إلى حد كبير- على أحجام العينات.

الباب الثانى

عوامل السلوك ومحدداته

الفصل الرابع : الجهاز العصبى

الفصل الخامس : الدوافع وحيل التوافق

الفصل السادس : الذكاء والقدرات الخاصة

الفصل السابع : الإدراك والتعلم والتذكر والتفكير

مقدمة الباب الثاني

بعد أن فرغنا من الباب الأول -الذى مهدنا به للدخول إلى صلب الكتاب على نحو ما أشرنا فى مقدمته- نبدأ منذ الآن فى تقديم أصول علم النفس الحديث ومبادئه الأساسية، باعتبارهما الهدف الأساسى للكتاب. ولكى يسهل علينا عرض هذه الأصول وتلك المبادئ؛ فإننا سوف نقوم بتنظيمها حول محورين رئيسيين:

أولهما: عوامل السلوك ومحدداته؛ حيث إن دراسة السلوك -كما أوضحنا فى الباب الأول- هى هدف علم النفس الأول.

أما المحور الثانى: فهو الشخصية (الهدف الآخر لعلم النفس)؛ حيث إن كل دراسات علم النفس وبحوثه تنطلق من الشخصية لتنتهى إليها؛ هادفة فهمها، وكيفية تنميتها، وتحقيق سلامتها وسوائها، حتى تتفتح كل إمكانياتها، وتتحقق كل قدراتها الإنتاجية والإبداعية، لصالحها وصالح المجتمع كله.

وعلى هذا، فقد خصصنا هذا الباب ليدور حول محور عوامل السلوك ومحدداته. وينبغى منذ البداية أن نحدد رؤيتنا للسلوك على أنه نشاط يقوم به الفرد بكامل كيانه، من حيث هو وحدة متكاملة تتكون أساسًا من جانب مادى هو جانبها الجسمى، وجانب أقرب إلى المعنوى هو جانبها النفسى، وأن الجانبين متفاعلان معًا، ومشتبكان معًا فيما يشبه المتصل Continuum الذى يكون أقصى طرفه الأيمن هو الجسم وأقصى طرفه الأيسر هو النفس، مع تبادل تأثير كل منهما فى الآخر وتأثره به بشكل متفاعل يصعب فيه الفصل القاطع بين ما هو جسمى بشكل خالص، وما هو نفسى بشكل خالص فى تحديد سلوك معين. حتى أننا يندر أن نجد سلوكًا مصدره الجسم فقط (حيث يقوم بالدور الوحيد فى إحداثه وتحديده)، كما يندر أن نجد فى المقابل سلوكًا مصدره النفس فقط، (حيث تقوم بالدور الوحيد فى إحداثه وتحديده). لكننا سوف نجد فى كل سلوك -تقريبًا- جانبه الجسمى

وجانبه النفسى، وإن ظهر دور الجانب الجسمى فى سلوك بعينه على دور الجانب النفسى، أو غلب تأثير الجانب النفسى فى سلوك معين على تأثير الجانب الجسمى؛ إذ يقع السلوك المعين فى نقطة ما على متصل أقصى طرفيه هما التأثير الجسمى، والتأثير النفسى؛ فيه.

وتمشياً مع هذه الرؤية، نقسم هذا الباب، عن عوامل السلوك ومحدداته، إلى فصول أربعة على النحو التالى:

الفصل الرابع : ومحوره الجهاز العصبى.

الفصل الخامس : ومحوره الدوافع وحيل التوافق.

الفصل السادس : ومحوره الذكاء والقدرات الخاصة.

الفصل السابع : ومحوره الإدراك والتعلم والتذكر والتفكير.

الفصل الرابع:

الجهاز العصبي

يعتبر الجهاز العصبى Nervous System أهم الأجهزة الجسمية فى الإنسان وأخطرها وأعقدها على الإطلاق؛ إذ هو «الجهاز الذى يسيطر على أجهزة الجسم المختلفة لضبط وتكييف وتنظيم العمليات الحيوية المختلفة الضرورية للحياة بانتظام وبتآلف تام، فيقوم كل عضو بما خصص له فى الوقت المناسب، وتشمل هذه العمليات الإرادية التى نقوم بها بمحض إرادتنا، وكذلك العمليات غير الإرادية التى لاقدرة ولا سيطرة لنا على تسييرها. ولعل الجهاز العصبى هو أهم وسائل تكامل الكائن الآدمى وقيامه بوظائفه فى وحدة كاملة متضامنة، وبفضله يستطيع الجسم أن يتفاعل مع بيئته الداخلية والخارجية. ويعتبر الجهاز العصبى -من بعض الوجوه- جهاز اتصال يربط بين الأعضاء المتصلة بالبيئة الخارجية - كالجلد والأذنين واللسان- وبين لوحة القيادة المركزية (السنترال) التى تسمى المخ، والتى يتم فيها اتخاذ القرارات التى تمكن الجسم من أن يتصرف التصرفات الملائمة بالنسبة للأحوال والأوضاع المختلفة. وتقوم عندئذ الأجزاء المتنوعة من جهاز التوصيل بنقل تلك القرارات إلى الأعضاء المختصة؛ لتنفيذها على الوجه الصحيح» (أحمد عكاشة وطارق عكاشة: ٢٠٠٩، ٢٩).

ونظراً للتعقد الشديد لهذا الجهاز ولما يقوم به من وظائف، فإن معلوماتنا عن الكيفيات الدقيقة المفصلة لقيامه بوظائفه لازالت حتى الآن ناقصة، لاتشبع نهمنا فى معرفة دقائق نشاطه وتأثيراته؛ مثل نشاطه وكيفيته عند تفكيرنا فى حل مسألة حسابية، وكيف يختلف ذلك عن تفكيرنا فى كتابة موضوع إنشائى، وكيف يختلف هذا بدوره عن تأليف رواية أدبية، أو قصيدة شعرية... وما هى الكيفية التى يختلف بها نشاط الجهاز العصبى

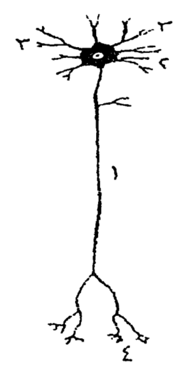
عند مـريض بـجنون الـهـذاء Paranoia (انظر جنون الـهـذاء فى البـاب الثـالث من هذا الكتاب) يعتقد أن الوحى يتنزل عليه مطالباً إياه بدعوة معينة لإنقاذ البشرية، وبين مريض آخر بجنون الهذاء أيضاً، لكنه يعتقد أن أخاه يدس له السم فى الطعام حتى يتخلص منه.

ومع هذا الطموح المعرفى، الذى نرجو أن نصل إلى تحقيقه يوماً ما، فإن ما نعرفه حتى الآن عن الجهاز العصبى شيء كثير، وإن كان غير كاف، كما سبق لنا أن ذكرنا. وفى هذا الفصل نحاول أن نعرض -فى شيء من التبسيط، وفى كثيرمن الإيجاز- بعضاً من المعلومات الأساسية عنه:

الخليـة العصبيـة:

إن الخلية الأساسية فى الجهاز العصبى هى الخلية العصبية التى تسمى النيورون Neuron، ويوجد فى الإنسان حوالى عشرة آلاف مليون خلية عصبية. ويختلف هذا الطراز من الخلايا عما سواه فى الجسم من وجوه متعددة، لعل أهمها -فيما يتعلق بالمرض والإصابة- ما كان يعتقد سابقاً من أن الخلية العصبية لاتعوض؛ إذ أن الإنسان يولد مزوداً بكافة خلاياه العصبية التى ستبقى فى جسمه دون زيادة إلى نهاية حياته، فإذا ما تعرضت إحدى خلاياه العصبية للتلف فلن تنشأ خلية عصبية جديدة لتحل مكانها. ولكن تغيرت هذه المعلومة بأن المخ قادر على المطاوعة واللدونة (Plasticity)، وتكوين خلايا جديدة تعويضية. أى أن بعض أجزاء المخ قادرة على القيام بوظائف بديلة، عما أصابها خلل أو تلف بتكوين هذه الخلايا الجديدة. وكذلك، تتميز أى خلية عصبية بأنها ترسل زائدة طويلة واحدة قد يمتد طولها قدمين أو ثلاثة أقدام. وتسمى هذه الزائدة الطويلة، التى هى فى الواقع امتداد لجسم الخلية نفسه، المحور أو الأكسون Axon. وللخلية -بالإضافة إلى ذلك المحور- عدد متفاوت من زوائد أخرى قصيرة تسمى الشجيرات. وتتميز هذه الزوائد جميعها بميزة للخلية العصبية لاتشاركها فيها معظم خلايا جسم الإنسان؛ ألا وهى قدرتها على توصيل السيالات أو النبضات الكهربائية. وتقوم الشجيرات بنقل تلك السيالات إلى

الخلية، أما المحور فإنه ينقلها منها، ومن ثم نستطيع عند فحصنا الجهاز العصبى بالمجهر، أن نستنتج من اتجاه محور أية خلية عصبية هل تلك الخلية تقوم بالتوصيل من الأعضاء إلى المخ أم من المخ إلى الأعضاء (أحمد عكاشة وطارق عكاشة: ٢٠٠٩، ٢٩-٣٠).

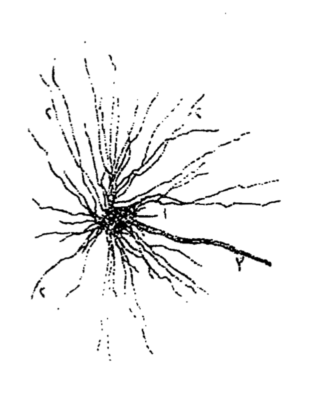


شكل (١)

رسم تخطيطى لخلية عصبية محركة

١ - المحور ٢ - جسم الخلية

٣ - الشجيرات ٤ - النهايات العصبية



شكل (٢)

الخليـة العصبيـة

١ - جسم الخلية ٢ - الشجيرات

٣ - المحور

نقلاً عن: (أحمد عكاشة وطارق عكاشة: ٢٠٠٩، ٣٠)

«ويحوى الجهاز العصبى -بالإضافة إلى ما فيه من الخلايا العصبية وزوائدها- بعض الخلايا الداعمة التى تقابل خلايا الأنسجة الضامة الموجودة فى سائر أعضاء الجسم، ولكنها تسمى هنا باسم خاص هوالغراء: (الغراء العصبى أو النيورالجيا). وتكتسب أجزاء المخ والنخاع الشوكى أشكالها الخاصة مما فيها من غراء، ومن الأوعية الدموية التى تنتشر

-بالطبع- فى مادتها، فهى الدعائم والجدار التى تضم شبكة الجهاز الرقيقة». (المرجع السابق، ٣٣).

«وتحاط محاور الخلايا العصبية بغلاف أبيض اللون، ويتكون من مادة دهنية تسمى الميلين Myelin، أما الخلايا العصبية نفسها وكذلك الغراء العصبى.. فليست لها أغلفة من هذا القبيل. وإذا فحصنا المخ أو الحبل الشوكى بالعين المجردة.. اتضح لنا أن بعض المناطق فيهما ذات لون سنجابى أو رمادى، وهى المعروفة بالمادة السنجابية أو الرمادية، التى تضم الخلايا العصبية الأصلية جميعها تقريباً. ولكننا نلاحظ فيهما أيضاً مناطق ذات لون أبيض، وهى المعروفة باسم المادة البيضاء التى تضم المحاور بأغلفتها البيضاء. وتتجمع المحاور عادة لتكون حزمًا تسمى الأعمدة أو المسارات، إذا كانت موجودة فى مادة المخ، أو الحبل الشوكى، وتسمى الأعصاب أو الأجذاع العصبية بعد خروجها من المخ والحبل الشوكى، متجهة إلى عضاء الجسم المختلفة» (المرجع السابق، ٣٣).

ومن الناحية التشريحية يمكننا -مع شىء كبير من التبسيط والإيجاز- أن نقسم الجهاز العصبى إلى:

(أ) الجهاز العصبى المركزى :

ويتكون الجهاز العصبى المركزى Central Nervous System فى أساسه من الدماغ Brain (أو ما قد يسميه البعض بالمخ). والحبل الشوكى Spinal Cord (أو ما يطلق عليه البعض النخاع الشوكى Spinal Meddulla). أما الدماغ فهو كل النسيج العصبى الذى يوجد داخل الجمجمة، ويشتمل -أساسًا- على المخ Cerebrum والمخيخ Cerebellum (وليم الخولى: ١٩٧٦؛ ٧٦). فى حين أن الحبل الشوكى يوجد بداخل القناة الفقرية ممتداً من قاعدة الدماغ وحتى أسفل الظهر على شكل اسطوانة مفلطحة. ويحتوى الحبل الشوكى على عدد كبير من الممرات Tracts الصاعدة والهابطة والمكونة من ألياف عصبية Nerve Fibers، بعضها يقوم بتوريد الأحاسيس Sensations ويقوم بعض آخر بتصدير الحركات Motors، فى حين يقوم بعض ثالث -هو الغالبية- بالوظيفتين (Levanway: 1972, 213 & Win-gare: 1972, 289).

(ب) الجهاز العصبى الطرفى :

يعتبر الجهاز العصبى الطرفى Peripheral Nervous System الجزء الأساسى الثانى من الجهاز العصبى. وهو يمثل كل الأعصاب خارج الدماغ والحبل الشوكى. وهو عبارة عن أحبال عصبية تخرج من الدماغ ومن الحبل الشوكى، وتتحكم فى الدفعات أو التيارات الواصلة إلى كافة أجزاء الجسم أو الواصلة منه. (Wingare: 1972, 324).

والجهاز العصبى الطرفى يتكون من:

١ - الأعصاب الدماغية وعددها ١٢ على كل جانب (من الدماغ).

٢ - الأعصاب النخاعية الشوكية وعددها ٣١ تقريباً على كل ناحية (من الحبل الشوكى).

٣ - الأعصاب الذاتية أو اللاإرادية أو المستقلة، وتنحصر فى الجهاز السيمبتاوى (الذاتى - التعاطفى)، والجهاز الباراسيمبتاوى (نظير الذاتى- نظير التعاطفى)، . (أحمد عكاشة: ١٩٧٧، ٢٨-٢٩).

ونتحدث فيما يلى حديثًا مبسطاً وموجزاً عن المكونات الرئيسية للجهاز العصبى بجزئيه؛ المركزى والطرفى. وعلى من يريد الاستزادة والتوضيح أن يرجع إلى المؤلفات العربية والأجنبية التى اختصت فيه، سواء فى مجال علم النفس الفسيولوچى، أو فى مجال الطب النفسى، أو الطب العصبى، أو الطب عمومًا؛ كتلك التى اقتطفنا منها، أو اقتبسنا عنها، أو رجعنا إليها فى هذا الفصل.

أولاً : الدماغ (أو المخ Brain):

وهو أحد الجزأين الرئيسيين اللذين يتكون منهما الجهاز العصبى المركزى -كما سبق أن ذكرنا- ويبلغ وزنه حوالى الكيلو جرام والثلث فى المتوسط، ويقل وزنه فى النساء عن الرجال بحوالى ٦ ٪، وهو بدوره يشتمل على المخ والمخيخ. والدماغ يمثل مركز قيادة الجسم كله، أو لنقل الشخصية كلها؛ إذ يشتمل على المراكز التى تصل إليها الأحاسيس المختلفة (بصرية، سمعية، شمية، لمسية... ألم... حرارة، ضغط...) فيترجمها، ويقوم بإصدار أوامره كرد عليها. وهذه الأوامر عبارة عن تنشيط لأعضاء الجسم المعنية للقيام

بالرد المطلوب. ولاننسى أن ما يرد إليه، أو ما يصدر عنه، سوف يكون عبارة عن سيالات عصبية تحملها إليه أو منه الخلايا العصبية التى تصل ما بينه وبين كل جزء من أجزاء الجسم. كما أن كل مركز من مراكز الدماغ -أو لنقل كل جزء من أجزائه- مختص بوظيفة معينة... فهذا مركز للإبصار، وهذا مركز للسمع، وآخر للشم... وغيرها للإحساس بالحرارة... فإذا ما تلف جزء منه مختص بوظيفة معينة تعطلت هذه الوظيفة، فإذا بالفرد -على سبيل المثال- الذى تلف مركز الإبصار عنده لايستطيع أن يرى على الرغم من سلامة عينيه وسلامة الأعصاب الموصولة بين العينين ومركز الإبصار فى المخ... ومن حسن الحظ، أنه فى كثير من الحالات عندما يتلف مركز فى الدماغ يمكن للجزء القريب منه فى الدماغ أن يقوم بنفس الوظيفة، لكن -بطبيعة الحال- يكون ذلك بدرجة أقل من الكفاءة. هذا علاوة على أن الدماغ يحتوى على مراكز التفكير والتذكر وكافة العمليات الذهنية والعقلية.

ويتكون (الدماغ) ،من كتلة من النسيج العصبى الموجود داخل الجمجمة... ومن الناحية التشريحية، يتكون (الدماغ) من ٣ أجزاء رئيسية يقوم كل منها بوظيفة منفردة، ولو أنها جميعها تقوم بأدوارها الخاصة بتناسق مع المواقع والأعضاء الأخرى من (الدماغ)... وتشمل الأجزاء الثلاثة المكونة (للدماغ) ما يلى:

(١) النصفان الكرويان Cerebral Hemispheres: وهذا هو الجزء الأكبر من (الدماغ) ويشمل معظم حيز التجويف الجمجمى، ويتكون هذان النصفان من الآتى:

أ - القشرة المخية Cerebral Cortex: وهى مادة رمادية قريبة من سطح المخ.

ب - المادة البيضاء White Matter: والتى تتكون من المسارات العصبية الذاهبة إلى القشرة المخية، أو الخارجة منها.

جـ - العقد القاعدية Basal Gaglia: وهى مجموعة من الخلايا العصبية المختصة بتنظيم الحركات الإرادية، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمخيخ Cerebellum...

وهذان النصفان يغلفان كل أجزاء (الدماغ) -التى تقدم ذكرها- باستثناء المخيخ، حيث

يقع هذا الجزء أسفل النصفين الكرويين. ويوجد بين نصفي المخ أخدود عميق يفصل بينهما إلى نصف كرة أيمن ونصف كرة أيسر. وهذان النصفان ليسا منفصلين، ولكنهما يرتبطان معًا عن طريق ألياف بيضاء متداخلة معًا تسمى بالجسم الصلب أو الجامد أو الجاسيء Corpus Callosum، ويتولى كل نصف كروى إدارة الأجزاء الجسمية الموجودة فى النصف الآخر من الجسم؛ بمعنى أن النصف الكروى الأيسر يقوم بإدارة أجزاء النصف الأيمن من الجسم.

(٢) جذع المخ؛ ويتكون هذا الجزء مما يلى:

أ – المهاد أو الثلاموس Thalamus: وهو ذلك الجزء الذى يتلقى كل المسارات الحسية من الجسم ما عدا حاسة الشم. كما أنه تصدر عنه سيالات إلى قشرة المخ، حيث يتم تقييم الأحاسيس المختلفة وإدراكها على الصور المألوفة والمفهومة عندنا. ويتصل المهاد بمراكز الكلام أيضًا، ويعمل على تكاملها، كما يتصل بالتكوين الشبكى والعقد القاعدية والهيبوثلاموس.

ب – المخ الأوسط Midbrain: ويخرج من هذا الجزء اثنان من الأعصاب الدماغية، هما: العصب البصرى Optic Nerve والعصب البَكَرى Troch-lear Nerve؛ وهما العصبان المسئولان عن تحريك عضلات العين، بالإضافة إلى العصب الدماغى السادس.

جـ – القنطرة Pons؛ ويحوى هذا الجزء عدداً كبيراً من المسارات التى تتصل بالنخاع الشوكى والنخاع المستطيل والمخيخ.. ويخرج من هذا الجزء أربعة من الأعصاب الدماغية، هى: العصب الخامس والسادس والسابع والثامن.

د – النخاع المستطيل Medulla Oblongata: ويمثل هذا الجزء الأخير من جذع المخ ويقع تحته الحبل الشوكى، وفوقه القنطرة. وفيه يستقر أهم مركزين من مراكز الجهاز العصبى الذاتى، وهما: مركز التنفس ومركز القلب والدورة الدموية المختص بضربات القلب ووظائف الجهاز الوعائى كله. وتخرج من هذا الجزء

الأربعة أعصاب الأخيرة من الأعصاب المخية، وهى:العصب التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر.

(٣) المخيخ Cerebellum: ويقع فى الجزء الخلفى من الدماغ، وهو المسئول عن المحافظة على توازن الجسم وتآزر وتنسيق الحركات الإرادية، (سامى عبد القوى على: ١٩٩٥، ٤١-٤٤).

ثانيًا: الحبل الشوكي:

وهو الجزء الرئيسى الآخر الذى يكوّن مع الدماغ -كما سبق أن ذكرنا- الجهاز العصبى المركزى، وله وظيفتان أساسيتان؛ إحداهما أنه همزة الوصل بين الأحاسيس الواردة إلى الدماغ من أعضاء الجسم وأطرافه المختلفة، حيث يقوم بنقلها عن طريق المسارات العصبية الموجودة به إلى الدماغ، كما أنه فى نفس الوقت -أيضًا- ينقل الإشارات الصادرة من الدماغ إلى أعضاء الجسم وأطرافه عن طريق المسارات العصبية بذلك داخله، حيث ينقل هذه الإشارات إلى أعصاب الحركة فينشط العضو المعين من الجسم، والذى صدرت إليه الأوامر من الدماغ.

أما الوظيفة الأساسية الثانية للحبل الشوكى فهى كونه مركزاً رئيسياً من مراكز الأفعال المنعكسة؛ وهى أفعال تتم مباشرة من مراكز الأفعال المنعكسة دون حاجة إلى أن تصل إلى المراكز العليا فى الدماغ، من هنا كانت سرعة رد الفعل المنعكس. فإذا لامس إصبعك جسماً ساخناً نقلت الأعصاب الحسية هذا الإحساس إلى العقد الخاصة فى الحبل الشوكى عن طريق السيال الإحساسى فتقوم هذه العقدة العصبية بالحبل الشوكى بالرد المباشر تواً عن طريق سيال حركى ينبعث منها لتحريك اليد بعيداً عن مصدر الحرارة. ويتم ذلك دون حاجة إلى تفكير أو إلى استثارة مراكز الدماغ العليا. وينتج عن هذا الاختصار سرعة شديدة فى الرد على المثير.

ثالثا: الأعصاب الدماغية:

الأعصاب الدماغية Cranial Nerves عددها اثنا عشر على كل جانب من جانبى

الدماغ، وهى أحد الأجزاء الثلاثة الرئيسية التى يتكون منها الجهاز العصبى الطرفى (الفرعى)–على نحو ماسبق أن ذكرنا.

وهى عبارة عن أعصاب تخرج من الدماغ أو تنتهى إليه، ويختص كل منها بوظيفة معينة؛ فمثلاً العصب الدماغى الأول يختص بحاسة الشم ولذا يسمى بالعصب الشمى Olfactory Nerve، ووظيفته القيام بنقل إحساسات الشم إلى مركزه بالدماغ. فإذا ما تلف هذا العصب اضطربت حاسة الشم أو انعدمت. وبالمثل، فإن العصب الثانى يسمى بالعصب البصرى Optic Nerve، ووظيفته نقل الإحساسات البصرية إلى مركز الإبصار بالدماغ، فإذا ما تلف هذا العصب ضعف الإبصار أو انعدم لدى الفرد، حيث تتوقف السيالات البصرية من كل من العينين إلى مركز الإبصار أو تضطرب. أما العصب الثالث والرابع والسادس فتتصل بالعضلات التى تحرك مقلتى العينين وجفونهما لضبط الإبصار وتكييفه، وتلف هذه الأعصاب يؤدى إلى اضطراب التحكم فى حركات العين، أو إصابة القدرة على تكييفها بالشلل.

هذا فى حين أن العصب الخامس ويسمى بالعصب التوأمى الثلاثى Trigeminal Nerve يساعد فى حركا المضغ، كما يقوم بتوريد الإحساسات من الوجه كله، حتى إذا ما أصيب اضطربت حركات المضغ وفقدت الأحاسيس المرتبطة بأجزاء الوجه. وأهم وظائف العصب السابع والمسمى بالعصب الوجهى Facial Nerve هى نقل إحساسات التذوق من ثلثى اللسان الأماميين إلى مركزه بالدماغ، علاوة على تشغيله للعضلات التى تحرك الحواجب والأفواه وتجعلنا نبتسم أو نقطب، ولذا يسمى بالعصب الوجهى. وإصابته تؤدى إلى إعوجاج الفم أو عدم القدرة على قفل العين أو تحريك الحاجب.

أما العصب الثامن والمسمى السمعى الدهليزى Auditory Vestibular فهو مرتبط بوظيفتين؛ إحداهما السمع حيث يقوم بتوصيل السيالات السمعية، والأخرى هى نقل السيالات الخاصة بالاتزان والواردة من جهاز الدهليز Vestibule الكائن بالأذن الداخلية Internal Ear. ونظراً لأن هاتين الوظيفتين مختلفتان، فإن هذا العصب ينقسم بدوره إلى عصبين متميزين؛ أحدهما هو العصب السمعى Auditory Nerve، والثانى هو العصب

الدهليزى Glossopharyngeal Nerve بحمل سيالات التذوق وأحاسيسه من اللسان، بالإضافة إلى أنه يساعد فى عملية إفراز اللعاب وعملية البلع. فى حين أن العصب العاشر والمسمى بالعصب الحائر Vagus Nerve تكثر وظائفه، حيث تنظم وظائفه الجهاز التنفسى ووظائف القلب ووظائف الجهاز المعدى والمعوى. ويؤدى التلف فى هذا العصب الحائر إلى اضطراب فى عمليات التنفس، وضربات القلب، والهضم...

ويطلق على العصب الحادى عشر اسم العصب الشوكى الإضافىSpinal Accessory Nerve؛ وهو عصب حركى يمكن الإنسان من تحريك رأسه وأكتافه. أما العصب الثانى عشر والأخير فهو العصب تحت اللسان Hypoglossal Nerve؛ وهو المختص بعضلات اللسان.

رابعًا : الأعصاب النخاعية الشوكية :

وتمثل الجزء الرئيسى الثانى الذى يتكون منه الجهاز العصبى الطرفى أو الفرعى، وهى عبارة عن واحد وثلاثين عصباً شوكياً Spinal Nerves فى كل جانب من جانبى الجسم. توجد الثمانية الأولى منها فى منطقة العنق، ويليها اثنا عشر آخرون فى منطقة الظهر، تليها خمسة فى المنطقة القطنية، ثم خمسة أخرى فى المنطقة العجزية، بينما يقع آخرها فى المنطقة العصعصية.

وهذه الأعصاب تتصل بسائر أجزاء الجسم ومناطقه، حيث تمدها بالأعصاب الحركية والحسية المختلفة وتياراتها.

خامسًا : الجهاز العصبي الذاتي:

ويعرف أحياناً بالجهاز العصبى المستقل أو الجهاز العصبى اللاإرادى. ويعتبر الجهاز العصبى الذاتى Autonomic Nervous System بمثابة الجزء الثالث الرئيسى والمكمل (مع الأعصاب الدماغية والأعصاب الشوكية اللذين تحدثنا عنهما فى البندين السابقين) للجهاز العصبى الطرفى أو الفرعى.

والجهاز العصبى الذاتى هو جهاز يعمل من ذاته (ومن هنا كانت تسميته بالذاتى أو اللاإرادى أو المستقل). فهو يعمل -فى أحيان كثيرة- دون إرادة واعية منا، أو دون تدخل إرادى من جانبنا؛ وهو يغذى وينظم ويسيطر على العضلات اللاإرادية؛ كالقلب والغدد وحدقة العين. وإن كان هذا الجهاز ليس مستقلاً تمام الاستقلال عن الجهاز العصبى المركزى، بل هو -لاشك- خاضع فى النهاية له، يتكيف معه، ويخضع لسيطرته وتنظيمه.

وينقسم الجهاز العصبى الذاتى بدوره إلى جهازين يقوم كل منهما بعمل مضاد للآخر: أحدهما هو الجهاز السيمبثاوى Sympathetic System، والثانى هو الجهاز الباراسيمبثاوى Parasympathetic System.

أ - الجهاز السيمبثاوى:

فالجهاز السيمبثاوى «عبارة عن حبل مسبحى واحد على كل ناحية من العمود الفقرى... ويشتمل:

١ - عدة عقد يربط بعضها ببعض ألياف عصبية.

٢ - كما يربطها بالأعصاب الشوكية والنخاع الشوكى جملة خيوط تعرف بالأعصاب الموصولة.

٣ - يخرج من هذه العقد ألياف توزع إلى أجزاء الجسم المختلفة يتخللها كثير من العقد الثانوية» (أحمد عكاشة: ١٩٧٧، ٥١).

«ومن الناحية الوظيفية فإن وظيفة الجهاز السيمبثاوى وظيفة استثارية تنبيهية تتولى القيام بإثارة الجسم وأعضائه المختلفة فى حالات الخطر أو الانفعال. فهى التى تستجيب فى مواقف الخطر أو الغضب؛ وذلك عن طريق تنشيط إفراز هرمون الأدرينالين الذى يتكون فى نخاع الغدة الكظرية (فوق الكلوية) والذى يطلق عليه هرمون الطوارئ؛ حيث يقوم بإعلان حالة الطوارئ بالجسم فيزيد من كمية سكر الجلوكوز فى الدم، ويزيد من كمية الدم الوارد إلى العضلات والقلب والرئتين، ويقلل من مقدار الدم الذاهب إلى الجهاز

الهضمى.. إلخ. كل هذا ليزيد من قوة الجسم فى مواجهة الطوارئ والأخطار.

ويمكن أن نلخص وظائف الجهاز السيمبثاوى فيما يلى:

(١) توسيع حدقة العين ورفع الجفن العلوى مما يزيد من مجال الرؤية.

(٢) كف الغدد الدمعية، وكف الغدد اللعابية عن الإفراز، فيحدث جفاف الفم أو الحلق، وكف الغدد العرقية. وجدير بالذكر أن الغدد العرقية تأخذ تعصيباتها من الجهاز السيمبثاوى (أى من الناحية التشريحية)، ولكنها تعمل وظيفياً مع الجهاز الباراسيمبثاوى.

(٣) ارتخاء العضلات الملساء للشعب الهوائية مع تمددها بما يسمح باحتواء كمية أكبر من الهواء، كما يقلل معدل التنفس.

(٤) ارتخاء العضلات الملساء لجدران المعدة مع انقباض العضلات العاصرة مما يمنع مرور الطعام منها إلى الأمعاء فتتعطل عملية الهضم.

(٥) تحويل الجليكوجين Glycogen فى الكبد إلى سكر تزداد نسبته فى الدم، مما يعطى قدراً أكبر من الطاقة والنشاط.

(٦) تنبيه الغدة فوق الكلوية لإفراز هرمون الأدرينالين للقيام بتعبئة الجسم فى حالة الخطر.

(٧) ارتخاء العضلات الملساء لجدران الأمعاء والقولون، مع انقباض العضلات العاصرة، مما يعطل عملية الهضم ويسبب الإمساك.

(٨) ارتخاء العضلات الملساء لجدران المثانة البولية، مع انقباض عضلاتها العاصرة، مما يسمح باحتواء كمية أكبر من البول، وتتعطل عملية التبول.

(٩) تنبيه عضلات الرحم وانقباضها، مما يؤدى إلى حالات الإجهاض نظراً لتقلص هذه العضلات، وطرد الجنين.

(١٠) انقباض الأوعية الدموية المغذية لسطح الجلد، مما يسبب شحوب لون الجلد بشكل عام، بينما تتمدد الأوعية الدموية المغذية للعضلات والقلب لزيادة كمية الدم بها؛ نظراً للحاجة إلى نشاط هذه الأجزاء وقت الخطر.

(١١) انقباض عضلات الأوعية الدموية للقضيب عند الذكور، مما يسبب الضعف الجنسي وعدم القدرة على الانتصاب. كذلك انقباض عضلات الحويصلة المنوية وعضلات البروستاتا، مما يؤدي إلى القذف» (سامى عبد القوى على: ١٩٩٥، ٨٤، ٨٦).

ب – الجهاز الباراسيمبثاوى:

أما القسم الثانى من الجهاز العصبى الذاتى (اللاإرادى)، فهو الجهاز الباراسيمبثاوى. وهو يتكون من «بعض الأعصاب الدماغية (الأعصاب رقم: ٣، ٧، ٩، ١٠) التى تنشأ من المخ الأوسط والنخاع المستطيل. وكذلك من الأعصاب العجزية الناشئة من الحبل الشوكى، وهى: العصب الثانى والثالث وربما الرابع. ولذلك، يطلق على هذه المجموعة الأعصاب المخية العجزية Cranio-Sacral. وهذه الأعصاب تتجه مباشرة إلى الأعضاء التى تغذيها، والتى تشمل.. العين والغدد الدمعية والحلق والغدد اللعابية والقلب والرئتين والجهاز الهضمى والمثانة والأعضاء التناسلية.

«وتعتبر وظيفة الجهاز الباراسيمبثاوى وظيفة مهدئة وكافة Inhibitory، وهى وظيفة تعمل بتناسق كامل مع الوظيفة التنبيهية للجهاز السيمبثاوى، ولكن فى اتجاه مضاد ويكف الاستثارة الزائدة لوظيفة ما؛ بمعنى أن المنبه الذى ينبه أحد الجهازين يسبب تهدئة أو كف الجهاز الآخر. وإذا كانت الوظيفة الاستثارية تحفز للعمل والفعل فإن الوظيفة الباراسيمبثاوية تحاول أن تقلل من الفعل الزائد. وبالتالى، تحافظ على الأعضاء الحيوية من التلف السريع نتيجة للانفعال الشديد.

ويعمل الجهاز العصبى الباراسيمبثاوى من خلال الموصل العصبى الأسيتايل كولين Acetylcholine؛ (وهى مادة عضوية تفرز من نهاية بعض الخيوط العصبية عند تنبيهها، وتعمل على توصيل التنبيه العصبى من نيورون لآخر)، ويمكن أن نلخص وظائفه المختلفة فيما يلى:

(١) انقباض العضلات الخاصة بحدقة العين، مما يؤدى إلى ضيق الحدقة. كذلك، يعمل على خفض الجفن العلوى للعين.

(٢) تنبيه الغدد الدمعية وإفراز الدموع.

(٣) تنبيه الغدد اللعابية وزيادة إفرازها.

(٤) تنبيه الغدد العرقية وإفراز العرق. وكما ذكرنا من قبل، فإن هذه الغدد تعمل وظيفياً مع الجهاز الباراسيمبثاوى على الرغم من أن تعصيباتها سيمبثاوية. ولذلك فإن العقاقير التى تكف عمل الأعصاب الباراسيمبثاوية تؤدى إلى كف إفراز العرق. كما أنها تكف إفراز كل من الغدد الدمعية واللعابية (جفاف الحلق).

(٥) كف القلب، وانقباض الأوعية الدموية المغذية لعضلة القلب، مما يؤدى إلى نقص كمية الدم المتدفقة خلال عضلاته، ونقص معدل الدقات وانخفاض كمية الدم التى يضخها القلب.

(٦) انقباض العضلات الملساء الخاصة بالشعب الهوائية، مما يضيق من مجرى الهواء مع زيادة سرعة التنفس.

(٧) انقباض عضلات جدران المعدة مع ارتخاء عضلاتها العاصرة مما يساعد على عملية الهضم ومرور الطعام من المعدة إلى بقية أجزاء الجهاز الهضمى، مع زيادة إفراز العصارة المعدية والعصارة البنكرياسية والعصارة الصفراء من الحويصلة المرارية.

(٨) انقباض العضلات الملساء لجدران الأمعاء والقولون، مع ارتخاء العضلات العاصرة، مما يساعد على الهضم والإخراج.

(٩) تنبيه البنكرياس لإفراز الأنسولين الذى يعمل على حرق السكر بالدم.

(١٠) ارتخاء العضلات الملساء الخاصة بالأوعية الدموية فى أعضاء التناسل، مع تمددها وزيادة كمية المد بها، مما يؤدى إلى الانتصاب عند الرجل، وتمدد أوعية البظر عند المرأة، (سامى عبد القوى على: ١٩٩٥، ٨٦، ٨٨-٨٩).

سادسًا: الثلاموس Thalamus:

ويطلق عليه المهاد ويعتبر ،جزءاً هاماً من أجزاء الجهاز العصبى المركزى. وهو جسم بيضى الشكل يوجد بأعلى جذع المخ، ولونه رمادى، ويتكون من الخلايا العصبية التى لها قدرة على تمييز بعض الإحساسات؛ مثل الألم والحرارة واللمس والضغط. ولكنها مراكز أقل قدرة فى تمييز هذه الإحساسات عن القوة الحسية فى المخ. والثلاموس هو المحصلة التى تصل إليها الإحساسات الواردة من الجسم ومنه تخرج الإشارات العصبية عبر مجموعة من التوصيلات، والمسارات إلى القشرة المخية، حيث يتم إدراك هذه الإحساسات. ويتم فى الثلاموس نفسه الإحساسات الانفعالية الأولية، وهى: الإحساس بالألم ودرجات الحرارة والوجدان المصاحب للإحساس. أما جميع الأنواع الأخرى من الإحساس فتلتقى فى الثلاموس وترحل بعد ذلك إلى المناطق الخاصة بها فى القشرة المخية؛ كالمناطق البصرية والشمية والسمعية. كما ترحل هذه الإحساسات إلى المناطق الحسية الترابطية الموجودة فى فصوص المخ المختلفة... وهى المناطق التى تعطى للإحساسات معناها فيتم إدراكها.ويعتبر الثلاموس بمثابة لوحة التوزيع، حيث يتلقى كل المسارات الحسية الصاعدة إلى نصفى المخ، ولذلك يُعد البوابة أو المدخل إلى القشرة المخية. كذلك، يلعب الثلاموس دوراً هامًا فى عملية الوعى واليقظة والانتباه عن طريق إرتباطه بالتكوين الشبكى. وكذلك، فإن الثلاموس يرتبط بكل مناطق القشرة المخية تقريبًا إرتباطاً وثيقًا، وبالتالى يسهم فى تنظيم نشاطها والتحكم فيها، (المرجع السابق، ص٩١).

سابعًا : الهيبوثلاموس Hypothalalmus :

ويطلق عليه أيضاً المهاد التحتى أو الوطاء؛ أو المُهَيْد كتصغير لكلمة مهاد. وهو يقع تحت المهاد –ومن هنا جاء اسمه بالمهاد التحتانى وتقع تحته الغدة النخامية Pituitary Gland . وعلى الرغم من أنه يشغل حيزاً صغيراً من المخ إلا أنه على جانب كبير من الأهمية، حيث يرتبط بالمناطق المسئولة عن الوظائف الحشوية والوعائية والانفعالية. ولذلك، فهو يسيطر على العديد من العمليات الحيوية التى تحدث داخل الجسم عن طريق مجموعة من الألياف العصبية التى تربطه بعدة أجزاء من المخ.

ويتصل الهيبوثلاموس بالقشرة المخية والثلاموس والجهاز الشبكى Reticular System ؛ وهو جزء فى جذع المخ يتميز باختلاط المادة الرمادية والمادة البيضاء فى تجمعات صغيرة تبدو كالشبكة. وهذا الجهاز يؤثر على النخاع الشوكى وتوتر العضلات وأمور أخرى خاصة بالوجدان واليقظة والنوم. كما توجد (بالهيبوثلاموس) عدة مراكز؛ ففيه مراكز الجهاز العصبى الذاتى ويؤثر عن طريقه على القلب والدورة الدموية وضغط الدم والجهاز الهضمى والجهاز التناسلى وسائر الأحشاء. كما توجد فيه مراكز تتعلق بالانفعالات وبالحالات الشعورية المختصة باليقظة والنوم. ومراكز تنظيم درجة حرارة الجسم وضبط عمليات التمثيل الغذائى والسيطرة على الغدة النخامية التى تعتبر (مايسترو) لجميع الغدد الصماء عن طريق ما تفرزه من هرمانات منشطة لبقية الغدد...

،ويمارس الهيبوثلاموس سيطرته على السلوك عن طريق ميكانيزمين: الأول سيطرته على نشاط مجموعة الخلايا العصبية الموجودة فى ساق المخ وبعض المراكز الموجودة فى الجهاز العصبى المركزى. والثانى أنه مركز السيطرة الرئيسى لوظائف الغدد الصماء بواسطة سيطرته على الغدة النخامية. وفيما يلى عرض لوظائف الهيبوثلاموس:

(١) التحكم فى وظائف الجهاز العصبى الذاتى... لتحكمه فى فرعى هذا الجهاز: السيمبثاوى والباراسيمبثاوى..

(٢) التحكم فى درجة حرارة الجسم.. وحفظها ثابتة عند مستواها الطبيعى وهو ٣٧ درجة

مئوية. ويتم ذلك عن طريق بعض خلاياه التى تتأثر بدرجة حرارة الدم بدقة فائقة. فإذا انخفضت درجة حرارة الجو المحيط بالفرد صدرت الأوامر إلى العضلات فتقوم باختلاجات هادئة تنتج عنها طاقة تعوض الجسم ما فقد منه من حرارة بتأثير البرد المحيط به، فتحتفظ بذلك درجة حرارته عند معدلها الثابت. وإذا زادت برودة الجو، زادت اختلاجات العضلات فيظهر ارتعاش الأطراف ليزيد معدل إطلاق الطاقة الحيوية. كما يزداد نشاط الهرمونات فى حرق المواد الغذائية والسكر فى الدم، فينتج عن ذلك انطلاق كميات كبيرة من الحرارة تعوض درجة البرودة. كما تنقبض الأوعية الدموية السطحية فى الجلد فتقل كمية الدم بها وبالتالى يقل فقد الجسم لحرارته. أما إذا ارتفعت درجة حرارة الجو المحيط بالجسم فإن الغدد العرقية تنشط ليزيد إفراز العرق إلى خارج مسام الجلد ليتبخر فى الجو فيحافظ بذلك على جعل الجسم رطباً. كما يقوم الهيبوثلاموس -أيضاً- بتنظيم حرارة الجسم عند حدوث الإصابة ببعض الميكروبات. وإذا أُصيب الجزء الأمامى من الهيبوثلاموس، سواء بنزيف أو جلطة أو ورم فإنه يفقد قدرته على تكييف درجة حرارة الجسم، نظراً لإصابة مركز تنظيم الحرارة، مما ينتج عنه ارتفاع حاد وشديد فى درجة حرارة الجسم قد تؤدى إلى الوفاة ما لم تتخذ الإجراءات اللازمة.

(٣) التحكم فى ضغط الدم...

(٤) تنظيم شهوة الطعام: يشير العلماء إلى وجود مركزين هامين بالهيبوثلاموس لتنظيم عملية شهوة الطعام... الأول هو مركز الشبع Satiety Centre وهو المركز الذى يثبط هذه الشهوة. والمركز الثانى هو مركز الجوع Hunger Center الذى يقوم بتنبيه شهوة الطعام. ويتم التأثير فى هذين المركزين من خلال حساسيتهما لكمية السكر الموجودة فى الدم، فإذا انخفض مستوى الجلوكوز فى الدم تأثر مركز الجوع بهذه الحالة ونشط فيدفع الفرد إلى الإقبال على الطعام حتى يعود مستوى الجلوكوز إلى المستوى العادى فتقف شهوة الطعام، ويصل الفرد إلى حالة الشبع. وعموماً، فإن عملية تحكم الفرد فى كمية الطعام التى يتناولها لاتعتمد -فقط- على انقباضات المعدة وما

تحدثه من آلام تسمى آلام الجوع فتدفع إلى الأكل، كما أنها لاتعتمد -فقط- على مراكز الجوع الموجودة فى المخ، والتى تتأثر بكمية السكر الموجودة فى الدم. بل يوجد -أيضاً- عدة مراكز للتحكم فى الطعام؛ مراكز طرفية مثل الكبد، وأخرى مركزية فى المخ. ولذلك، فإن عملية التحكم العصبى فى تناول الطعام تُعد عملية معقدة ومتشابكة، ويؤدى عطب مركز الجوع إلى رفض الطعام أو فقدان الشهية Anorexia ، بينما يؤدى عطب مركز الشبع إلى الإفراط فى تناول الطعام، وقد يكون ذلك أحد أسباب السمنة.

(٥) التحكم فى النوم واليقظة: يقوم الهيبوثلاموس بدور هام فى تنظيم عملية النوم واليقظة من خلال اتصاله بالتكوين الشبكى (المركز الشبكى).. ويقوم التكوين الشبكى بإعطاء إشارات تنبيهية لقشرة المخ ليبقى الفرد فى حالة يقظة. ولذلك، فإن أى تأثير على هذا التكوين الشبكى، أو فى الجزء الخلفى من الهيبوثلاموس الذى يمثل الجزء الأعلى من التكوين الشبكى يصيب الفرد (بحالة) من النوم العميق أو الكسل أو الخمول.

(٦) التحكم فى السلوك الانفعالى: تؤكد معظم النظريات المفسرة للانفعال دور الهيبوثلاموس فى السلوك الانفعالى والذى نعنى به تلك المظاهر التى تظهر على الفرد عند تعرضه للانفعال؛ مثل: سرعة دقات القلب واحمرار الوجه والعرق وجفاف الحلق... إلخ. ويحدث هذا السلوك الانفعالى من خلال تأثير الهيبوثلاموس على الجهاز العصبى الذاتى بشقيه السيمبثاوى والباراسيمبثاوى، محدثاً بذلك مجموعة التغيرات الفسيولوجية المصاحبة للانفعال والتى تختلف باختلاف نوع الانفعال ونشاط أى جزء من الجهازين.

(٧) التحكم فى السلوك العدوانى: تدل البحوث الحديثة على علاقة العنف والعدوان بالعديد من مراكز المخ ومنها الهيبوثلاموس من خلال اتصاله بالتكوين الشبكى والجهاز الطرفى فى المخ Limbic System، الذى يعطى إشارات استرخائية أو عدوانية إلى الهيبوثلاموس فيقوم بتعديلها وتنظيمها وتوزيعها حسب حاجة الجسم وإعطاء

الأوامر إلى الجهاز السيمبثاوى والباراسيمبثاوى حسب الحالة التى يتطلبها الجسم، سواء كانت حالة للاسترخاء أو للعدوان والهجوم...

(٨) التحكم فى عمليات التذكر والتعلم: يلعب الهيبوثلاموس دوراً هاماً فى عمليتى التذكر والتعلم خاصة تذكر الأحداث القريبة. فإذا أُصيب الجزء الخلفى من الهيبوثلاموس حدث اضطراب فى قدرة الفرد على تذكر الأحداث القريبة.

(٩) التحكم فى وظائف الفص الأمامى للغدة النخامية: يفرز الفص الأمامى للغدة النخامية الموجودة عند قاعدة المخ خمسة هرمونات هامة تؤدى إلى تنشيط إفراز هرمونات الغدة الدرقية والغدة فوق الكلوية والغدد التناسلية وهرمون النمو والهرمون المدر للبن (البرولاكتين). وهذه الهرمونات المنشطة تقع تحت التأثير المباشر لمجموعة من الهرمونات التى يفرزها الهيبوثلاموس وتسمى بالعوامل المُطلقة Releasing Factors؛ لأنها تؤدى إلى إطلاق الهرمونات السابقة.

(١٠) التحكم فى الفص الخلفى للغدة النخامية: يفرز الفص الخلفى للغدة النخامية هرمونين هما هرمون رافع الضغط Vasopressor وهرمون معجل الولادة Oxyto-cin. والحقيقة، أن هذين الهرمونين ليسا إلا هرمونين يفرزهما الهيبوثلاموس، وتقوم الغدة النخامية بتخزينهما وإفرازهما عند حاجة الجسم إليهما.

(١١) التحكم فى إفراز الماء: بالإضافة إلى الهرمون المعجل للولادة الموجود فى الفص الخلفى للغدة النخامية يوجد هرمون آخر يسمى بالهرمون المضاد لإدرار البول Antidiuretic وهو هرمون يعتقد أن الهيبوثلاموس هو الذى يقوم بإفرازه. وهذا الهرمون يساعد على امتصاص الماء من الكلية وبالتالى نقص كمية البول؛ أى يمنع إدرار البول للخارج فى حالات الجفاف، بينما ينقص هذا الهرمون إذا زادت كمية الماء فى الجسم. ونقصه هذا يساعد على إدرار كمية أكبر من البول لكى يفرز الجسم الماء الزائد. وبالتالى، فإن عمل هذا الهرمون هو المحافظة على (اتزان) كمية الماء الموجودة فى الجسم. ولذلك، فإنه فى حالة نقص هذا الهرمون يزداد إفراز البول بكميات هائلة تصل إلى ١٠-١٥ لتراً فى اليوم؛ وهو ما يسمى بمرض السكر

الكاذب Diabetes Insipidus لتفريقه عن مرض البول السكرى، الذى يرجع إلى اضطراب فى إفراز الأنسولين من البنكرياس». (سامى عبد القوى على: ١٩٩٥، ٩١-٩٧).

ثامنًا: الغدد الصماء:

تعتبر الغدد الصماء Endocrine Glands جزءاً متممًا للجهاز العصبى، أو على الأقل جزءاً متكاملاً معه، حيث تصب هذه الغدد مفرزاتها مباشرة فى الدم فتذهب إلى الغدد والعضلات بحيث تجعلها تستجيب فى نشاط متكامل. والغدد الصماء تتلقى أوامرها من الجهاز العصبى مباشرة، كما أنها تؤثر -أيضًا- فيه، حتى أن بعض العلماء ينظر إلى الغدد الصماء على أنها مكون أساسى من مكونات الجهاز العصبى وأحد أجزائه الهامة.

ويوجد بالجسم ثلاثة أنواع من الغدد؛ أحدها هو الغدد غير الصماء أو خارجية الإفراز Exocrine Glands، وهى التى تفرز مفرزاتها فى قنوات أو من فتحات تخرج بها خارج الجسم أو على سطحه؛ مثل: الغدد الدمعية والغدد العرقية والغدد اللعابية. والنوع الثانى هو الغدد الصماء، وهو الذى يصب مفرزاته مباشرة فى الدم (داخلى الإفراز Endo-crine) ولاتوجد له قنوات تسرى فيها مفرزاته، حيث لا يحتاج إليها وذلك مثل الغدة الدرقية. أما النوع الثالث فهو مشترك يجمع بين صفات النوعين السابقين؛ حيث يفرز إفرازاً خارجياً وآخر داخليًا معًا؛ مثل البنكرياس، فهو يسهم بإفرازه الخارجى فى عمليات الهضم، كما يسهم -أيضًا- بإفرازه الداخلى حيث يفرز الأنسولين، ومثل -أيضًا- الغدد الجنسية إذ تكوّن الخلايا التناسلية (الحيوانات المنوية عند الذكور والبويضات عند الإناث) وتفرزها خارجياً، كما أنها تفرز داخلياً فى الدم ما يعرف بالهرمونات الجنسية.

ومن أهم الغدد الصماء، وعنها، نتحدث حديثاً موجزاً فيما يلى:

١ - الغدة النخامية **Pituitary Gland** :

وهى غدة توجد عند قاعدة المخ. وتسمى الغدة النخامية -أحياناً- بالغدة المسيطرة (أو

القائدة) Master Gland على الجسم؛ لأن مفرزاتها تتحكم فى توقيت وكمية ما تفرزه الأعضاء الصماء الأخرى؛ مثل الغدة الدرقية، والغدة الأدرينالية، والمبيضين أو الخصيتين. هذا مع ماينبغى أن نلاحظه من كون الأعضاء الصماء خاضعة لتنظيم طويل الأمد بواسطة الغدة النخامية، وخاضعة -أيضًا- لتنظيم قصير الأمد بواسطة الجهاز العصبى الذاتى أو المستقل (Kalat: 1984, 101-102).

والغدة النخامية تفرز هرمون النخامين Pituitrin بواسطة فصها الخلفى. وهو هام لتنظيم إدرار البول وانقباض عضلات الرحم وضغط الدم وإدرار اللبن بزيادة انقباض عضلات الثدى، كما أنه يساعد فى تنظيم عملية انقباض عضلات المثانة أثناء التبول وانقباض جدران الأمعاء لتنظيم عملية التبرز.

أما الفص الأمامى من الغدة النخامية فإنه يفرز هرمون النمو Growth Stimulating Hormone، فإذا ما زاد هذا الهرمون عن الحد الطبيعى أدى ذلك بالفرد إلى أن يصبح عملاقاً، أما إن نقص عن الحد الطبيعى فإنه يجعل الفرد قزماً. كما أن هذا الفص الأمامى للغدة يفرز -أيضاً- هرمون الجونادوتروبين Gonadotropin؛ وهو هرمون يعمل على نمو الغدد الجنسية لدى الذكور والإناث، وينشط إفراز الهرمونات الجنسية فى كليهما. هذا علاوة على إفراز هذا الفص الأمامى من تلك الغدة لهرمون البرولاكتين Prolactin الذى يقوم بتنشيط إفراز اللبن بعد وضع المولود، وهرمون الثيروتروفين Thyrotrophic Hormone الذى يعمل على تنشيط الغدة الدرقية ويحول دون ضمورها، لكن فى حالة زيادة إفراز هذا الهرمون عن المعدل المناسب فإنه يؤدى إلى تضخم الغدة الدرقية وزيادة مفرزاتها فتضطرب وظيفتها. كما أن الفص الأمامى للغدة النخامية يفرز -أيضًا- هرمون الأدرينوكورتيكوتروفين Adrenocorticotrophic Hormone؛ وهو الذى ينظم نمو الغدة الأدرينالية ويضبط حجمها ويتحكم فى إفرازها لهرموناتها. علاوة على أن هذا الهرمون يشترك فى ضبط وتنظيم مستوى السكر فى الدم.

ومن هذا يتضح لنا مدى استحقاق الغدة النخامية لأن يطلق عليها صفة الغدة المسيطرة على الجسم.

٢ – الغدة الدرقية Thyroid Gland:

وتقع هذه الغدة فى مقدمة الرقبة. وتؤثر هذه الغدة وتتأثر -أيضًا- بغيرها من الغدد الصماء وخاصة الغدة النخامية. ولعل أهم وأخطر وظائفها هو إفرازها لهرمون الثيروكسين Thyroxine Hormone اللازم للنمو الجسمى والنفسى السوى، حيث ينشط عمليات النمو، كما يؤثر فى عمليات الهدم Catabolism والبناء Anabolism والمعروفة بعمليات الأيض Metabolism ويشارك فى تنظيمها. وبالتالى، فإن اضطراب الغدة الدرقية، والذى يؤدى إما إلى نشاطها الزائد أو إلى خمولها، سوف ينتج عنه اضطرابات فى نمو الطفل أو فى نمو الجسم ونسب أعضائه ومكوناته، مما ينتج عنه تشوهات سواء فى الطفولة أو فى مرحلة الرشد، كترهل الجسم، وزيادة وزنه أو نقصه، وتساقط شعر الرأس، وكسل الفرد وميله المستمر للنعاس، كما تكون حالة الفرد النفسية والعقلية -أيضاً- عرضة للاضطراب والخلل. مما يتحتم معه ضرورة الإسراع بالعلاج. ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من الحالات التى تتردد على المعالجين النفسيين قد يكون سببها الأساسى اضطراب مثل هذه الغدة، حيث شدة تأثيرها على الحالة الانفعالية والعقلية للفرد مما يقربها من حالات الاكتئاب أو الهوس أو الفصام أو التدهور العقلى والبلادة.

٣ – الغدة الأدرينالية Adrenal Gland:

ولدى كل فرد منها غدتان تقع كل منهما فوق إحدى كليتيه؛ ولذا تسمى الغدة الأدرينالية أحياناً بالغدة فوق الكلوية Suprarenal Gland. وتتكون هذه الغدة من جزئين متمايزين تماماً فى الناحية البنائية، وأيضاً فى الناحية الوظيفية، هما القشرة Cortex وهى الجزء الخارجى الذى يعرف باللحاء. والنخاع أو اللب Medulla وهو الجزء الداخلى.

ويعتبر نخاع الغدة أو لبها (جزؤها الداخلى) امتداداً للجهاز العصبى الذاتى أو المستقل ويتلقى تنبيهه منه. وهو يفرز نوعين من الهرمونات؛ أحدهما هو الأدرينالين Adrenaline والذى يقوم بدور كبير أثناء الحالات الانفعالية فيعبئ طاقة الجسم لمواجهة الحالات الطارئة والخطيرة التى تستثير انفعالاته (كحالات الخوف والغضب والضيق)، وبالتالى يكتسب

الفرد قدرة أكبر على مواجهتها بنجاح. فمن تأثير الأدرينالين زيادة ضربات القلب وسرعتها، وانقباض الأوعية الدموية فى الأحشاء (لعدم حاجة الجسم لعمل الأحشاء فى مثل هذه الحالات) وتوسيع الأوعية الدموية الواصلة إلى القلب والعضلات (لحاجة الجسم إلى زيادة كفاءتهما فى العمل)، وتحويل الجليكوجين Glycogen المختزن فى الكبد إلى سكر جلوكوز يصب فى الدم ليمكن حرقه مولداً طاقة تحتاجها عضلات الجسم لتنشيطه وإكسابه قوة أكبر للحركة والفاعلية وتأجيل التعب، حتى يتمكن من التغلب على موقف الخطر بنجاح كبير. كما أن من تأثير الأدرينالين -أيضًا- زيادة سرعة التجلط فى الدم منعًا لاستمرار نزفه لمدة طويلة؛ حيث إن مواقف الخطر تزيد احتمال تعرض الفرد للجروح.

أما النوع الآخر من الهرمونات التى يفرزها نخاع الغدة الأدرينالية فهو النورادرينالين Noradrenaline؛ وهو يشارك فى وظائف الأدرينالين، ويكون مفعوله أقوى منه فى رفع ضغط الدم.

وفى حالة اضطراب نخاع الغدة الأدرينالية أو إصابتها بمرض يضطرب إفرازها سواء للأدرينالين أو النورادينالين؛ فيؤدى ذلك إلى أعراض قلق نفسى شديد مع زيادة فى ضربات القلب والضغط وارتفاع نسبة السكر فى الدم، أو ينعكس الأمر إلى بلادة انفعالية واضحة (حسب نوع الاضطراب).

أما الجزء الخارجى للغدة الأدرينالية، والمسمى بالقشرة، فتنشطه هرمونات الغدة النخامية. ومفرزاته شديدة الأهمية لبقاء الكائن حيًا وتمكينه من احتمال الأخطار الشديدة والمؤثرات سواء التى يتعرض لها جسمه أونفسه؛ كالتعرض للعوامل المؤذية والأمراض والجروح، والبرودة الشديدة والحرارة الشديدة، والأزمات الانفعالية الحادة والشدائد النفسية، حيث تساعده على التصدى لكل ذلك ومواجهته.

وتفرز قشرة الغدة الأدرينالية -أيضاً- هرمونات الكورتيزول Cortisol والكورتيزون Cortisone، وهى تزيد من عمليات البناء والهدم، كما تزيد من نسبة السكر فى الدم، وترفع

ضغط الدم. كما أن هذه القشرة تفرز -كذلك- هرمونات الذكور (الأندروجين) Androgen فى الجنسين معاً، فإن زاد إفرازها أدى بالطفل الصغير إلى البلوغ الجنسى المبكر، الذى قد يكون فى سن الخامسة، فيتضخم قضيبه وتظهر لحيته وشاربه، كما أن إفرازها يؤدى إلى اتضاح سمات الذكورة وتضخمها إن زاد إفرازها. أما بالنسبة للإناث، فإن زيادة هرمونات الذكورة التى تفرزها قشرة غددها الأدرينالية تؤدى إلى ظهور سمات الرجولة عليها، سواء من الناحية الجسمية أو السلوكية، مما يؤدى إلى استرجالها Virilism .

ومن الجدير بالذكر أن «استئصال الغدة الأدرينالية بأكملها يؤدى إلى الموت فى ظرف أربعة أو خمسة أيام، أما استئصال نخاع الغدة دون القشرة فليس له آثار خطرة» (أحمد عكاشة: ١٩٧٧، ١٣٩) .

٤ - البنكرياس Pancreas :

ويقع خلف المعدة، وهو من الغدد المشتركة حيث يفرز إفرازاً خارجيًا عبارة عن إنزيمات تساعد فى عملية الهضم ويصبها فى الأمعاء الدقيقة عن طريق قناة، كما أنه فى نفس الوقت يقوم بإفراز هرمون الإنسولين Insulin ويصبه مباشرة فى الدم. وهذا الهرمون هو الذى يقوم بضبط مستوى السكر فى الدم. وفى حالة عجز البنكرياس عن إفراز الإنسولين -لأى سبب مرضى يصيبه- ترتفع نسبة السكر فى الدم فيصاب الإنسان بمرض السكر Diabetes Mellitus، حيث تختل فى الجسم عمليات التحول الغذائى للمواد الدهنية والزلالية والكربوأيدراتية، حتى إذا ما بلغت نسبة السكر فى الدم حداً معيناً ظهر السكر فى البول أيضاً. ومريض السكر تنتابه حالات من اضطراب الشعور والإدراك الذهنى والذهول، كأعراض لغيبوبة السكر عندما تتزايد عنده نسبة السكر عن الحد المحتمل، ولذا ينبغى عليه أن يظل حريصًا وحذراً وعلى وعى بحالة السكر عنده، حتى لايتعرض كثيراً لغيبوبة السكر هذه.

أما فى حالة زيادة إفراز البنكرياس للأنسولين (بسبب تورمه مثلاً) فإن هذا يؤدى إلى انخفاض نسبة السكر فى الدم. ولما كان الجهاز العصبى -والمخ خاصة- يعتمد فى غذائه

على السكر الذى يصله مع الدم فإنه يصاب بالخلل فى أداء وظائفه ويعجز عن الوفاء بها، مما يؤدى بالفرد إلى اضطراب سلوكه وحركته وانفعاله وإدراكه. وقد يصل الأمر عند اشتداد الحالة إلى سقوط الفرد فى غيبوبة يحتاج معها إلى الإسعاف السريع عن طريق حقنة بالجلوكوز، وإلا فارق الحياة.

٥ – الغدد الجنسية Sexual Glands:

يقصد بالغدد الجنسية الخصيتان Testes عند الذكر والمبيضان Ovaries عند الأنثى (المفرد خصية Testis ومبيض Ovary). وهما مثل البنكرياس لهما نوعان من المفرزات؛ أحدهما خارجى حيث يكونان الخلايا التناسلية، والتى هى عبارة عن الحيوانات المنوية Sperms لدى الذكر وتفرزها الخصيتان، والبويضات Ova (المفرد Ovum) لدى الأنثى ويفرزها المبيضان. أما النوع الآخر من مفرزاتهما فهو المفرزات الداخلية؛ أى التى تصب فى الدم مباشرة، وهى الهرمونات الجنسية Sex Hormones.

فالخصيتان تفرزان هرمونات الذكورة Androgens، وأهمها وأكثرها فاعلية هو هرمون التستسترون Testosterone، والذى يبدأ إفرازه مع مرحلة البلوغ. ويقل إفرازه مع نقص فيتامين ب بصفة خاصة ونقص التغذية بصفة عامة. ويلجأ بعض الذكور إلى تعاطى هرمونات للذكورة هادفين من وراء ذلك إلى تقوية دافعهم الجنسى وإكسابهم قدرة أعلى على ممارسة الجنس. وفى هذا خطورة عليهم، حيث يؤدى إلى إضعاف نشاط الغدة النخامية، مما يؤدى بالتالى إلى نقص هرمونات الذكورة التى تفرزها الخصيتان؛ إذ يخضع نشاط الخصيتين لتأثيرات الغدة النخامية ووظائفها. ،كذلك يجب أن نعلم أن معظم حالات الضعف الجنسى أو سرعة القذف التى تصيب الشباب هى حالات من القلق النفسى وليس لها علاقة بإفراز الخصيتين. وتتلخص وظائف هرمونات الذكورة فيما يلى:

١ – نمو أعضاء التناسل وظهور الخصائص الجنسية الثانوية؛ وهى خشونة صوت المراهق، ونبت الشعر فى بعض مناطق الجسم، مثل الشارب، واللحية، والعانة... إلخ... وزيادة النمو العضلى، وخشونة الجلد.

٢ – تزيد من حيوية الحيوانات المنوية وقابليتها للإخصاب، وتحافظ على سلامة الأوعية المنوية.

٣ – تؤثر فى النمو الانفعالى لدى المراهق وتقوى لديه الدافع الجنسى، كما أنها تعين -إلى حد ما- اتجاهه السليم نحو الجنس الآخر، وتسهم فى ظهور سمات الرجولة النفسية، غير أنه يجب أن نذكر أن أثر هرمونات الرجولة فى بناء الشخصية وفى توجيه السلوك خاضع لشتى العوامل الشرطية التربوية والنفسية، التى قد تدعم هذا الأثر أو تضعفه، (أحمد عكاشة: ١٩٧٧، ١٤٥).

ومن الجدير بالذكر أن الخصيتين تفرزان -أيضًا- قدراً محدوداً من هرمونات الأنوثة Oestrogens، مما يؤيد أن كل جنس يحمل قدراً من خصائص الجنس الآخر، ولاتكون التفرقة الفسيولوجية بينهما قاطعة.

أما المبيضان فيقومان عند الأنثى -علاوة على إفرازهما للبويضات- بإفراز الهرمونات الأنثوية وأهمها الإيستروجين Oestrogen. ،ووظائف الإيستروجين عند الأنثى شبيهة بوظائف التستسترون عند الذكر:

١ – نمو أعضاء التناسل وظهور الخصائص الجنسية الثانوية فى مرحلتى البلوغ والمراهقة مع نمو الجسم العام، وتكوين الثديين.

٢ – تنشيط الدافع الجنسى وتثبيت السمات الأنثوية النفسية وتوجيه النمو النفسى الجنسى فى اتجاهه السوى.

٣ – تعمل على تعجيل نمو العظام، ومن ثم تدفع إلى توقف نموها. وهذا هو السر فى أن النساء أقصر-بصفة عامة من الرجال.

٤ – تؤثر فى ترسيب الدهن وتوزيعه الأنثوى فى جسم المرأة، كما أنها تعمل على تمسك الجسم بما فيه من ماء وأملاح، (المرجع السابق، ١٤٦).

هذا، ويخضع نشاط المبيضين -كما يخضع نشاط الخصيتين- لعمل الغدة النخامية ووظائفها.

وعن ظاهرة التكامل فى عمل الغدد الصماء معًا، وتبادل نشاطها -التأثير والتأثر مع بقية الأجهزة الجسمية المختلفة- يجدر بنا أن نقتطف النص التالى عن محمد عماد فضلى كنموذج لهذا الرأى: «إن هذه الظواهر ليست منفصلة بعضها عن بعض، بل هى تنتظم فى منظومات يربط أجزاءها روابط متبادلة تجعل منها منظومة مترابطة، بحيث يمكن أن تؤثر كل جزء منها فى الأجزاء الأخرى، ومثل هذا التأثير المتبادل يجعل كل هذه الظواهر تعمل معاً حسب برنامج محدد، بحيث يتزن عملها ويبقى دائماً فى حدود مقدرة. فمثلاً، إذا تأملنا غدد الجسم الصم (الغدد الصماء) -أى التى تبعث هرموناتها مباشرة إلى الدم ولذا فهى غير مقناة... أى ليس لها قناة تنقل إفرازها إلى جزء معين من أجزاء الجسم، نجد أن هذه الغدد الصم مرتبطة كيماوياً بعضها ببعض. فإذا أفرزت الغدة الدرقية هرمون الثيروكسين فى الدم، وصل هذا الثيروكسين إلى كل عضو من أعضاء الجسم ليؤثر فيه. ومن بين تلك الأعضاء الغدة النخامية الموجودة عند قاع المخ، وهنا تتبين الغدة النخامية مدى نشاط الغدة الدرقية، فإن كان مفرطاً أنقصت هى هرمونها الحاث لنشاط الغدة الدرقية، فتعود الغدة الدرقية إلى مستوى نشاطها السوى، وإن كان النشاط الدرقى هابطًا، زادت الغدة النخامية من هرمونها فعادت الغدة الدرقية إلى مستوى نشاطها السوى. ومن هنا يبقى النشاط الهرمونى دائمًا حول المستوى السوى، ولايزيد أو يقل إلا بقدر لايؤثر على صحة الإنسان ولمدة عابرة. وهنا يكون مفهوم المرض مرادفًا لاختلال هذه المنظومة لسبب أو لآخر. فإذا زاد نشاط الغدة الدرقية ولم تتبين الغدة النخامية هذه الزيادة ولم تصلحها، استمر نشاط الغدة الدرقية فى الزيادة إلى أن تصل إلى حالة التسمم الدرقى (أو فرط الدرقية) والعكس بالعكس» (محمد عماد فضلى: ١٩٨٨، ٤٣-٤٤).

وإلى هنا، نرجو أن نكون فيما كتبناه عن الجهاز العصبى وأهم أجزائه فى هذه العجالة الموجزة -والتى تبدو فى أحيان كثيرة مبتسرة وغير وافية- قد أوضحنا الجانب الفسيولوجى الجسمى الأساسى الذى يرتكز عليه السلوك، ومهدنا للانتقال إلى الفصول التالية من هذا الكتاب، والتى تركز على الجانب العقلى والنفسى للسلوك محاولة شرحه وفهمه، والحديث عن أهم نظرياته وقوانينه.

الفصل الخامس :

الدوافع وحيل التوافق

تمثل الدوافع النفسية المحرك الأساسى والأول لكل سلوك يقوم به الإنسان خاصة والكائن الحيوانى عامة. حتى أنه من المأثور فى علم النفس القول بأنه لايوجد سلوك بدون دافع. أما حيل التوافق (أو أساليب التوافق) فتمثل الحيل والأساليب التى يلجأ إليها الفرد للتعامل مع دوافعه ومعالجتها وفق ظروف الواقع ومتطلباته، ووفق أيضاً -مع هذا- رغبات الجوانب المختلفة والمتصارعة من شخصية الفرد. ولنبدأ بتعريف المقصود بالدافع، ثم بعد ذلك نعرِّف بعض المصطلحات والمفاهيم الهامة التى تتعلق به.

١ – الدافع Motive:

نقصد بالدافع قوة بيولوچية نفسية داخل الفرد تستحثه على القيام بنشاط معين لإشباع (أو إرضاء) رغبة محددة، كما أن هذه القوة تستمر فى دفع الفرد وتوجيه سلوكه حتى يشبع رغبته هذه (أو حاجته تلك). وتظل تعدل فى سلوكه ما لم تشبع الرغبة، وتواصله حتى يتحول الفرد عن طلب إشباع هذه الرغبة إلى طلب إشباع غيرها، أو يصبح عاجزاً تمامًا عن النشاط الذى يرجى أن يؤدى به إلى إرضاء الرغبة أو إشباع الحاجة التى استهدفها الدافع ونشط من أجلها. فإذا اتخذنا دافع الجوع كمثال لتطبيق هذا التعريف وجدنا أن هذا الدافع أمر داخل ذات الفرد وليس خارجه؛ ولذا فإن الجائع هو الفرد الوحيد الذى يدرك هذا الجوع ويحسه ويقدره؛ فيقول مثلاً: إنى جائع جداً، أو أكاد أموت جوعًا، أو أكاد أحس الآن فقط بالجوع، أو لا أحس بالجوع الآن... إلخ. كما أن الجوع مصدره بيولوچى فى الغالب، حيث تكون المعدة فارغة من الطعام مع نقص المواد الغذائية وخاصة السكر

فى الدم، وما يصاحب كل ذلك من انفعالات الجوع، والرغبة النفسية فى تناول الطعام واللهفة عليه، والتلذذ من تناوله، حتى إذا ما تناول الفرد كفايته من الطعام اختفى الإحساس بالجوع وبرز بدلاً منه الإحساس بالشبع. ولنفترض أنه استمر فى تناول الطعام بعد أن أحس بالشبع، أو أجبر على المزيد عن حد معين بدأ تحول الإحساس باللذة من تناول الطعام إلى إحساس نفسى بالضيق به والاستياء منه والرغبة فى الانصراف عن تناوله. ولنفترض – فى حالة أخرى– أن الجائع ذهب إلى مكان كان يجد فيه الطعام عادة ويتناوله، فإذا به لايجد فيه الطعام، فإنه عند ذلك سوف يتوجه بدافع الجوع إلى مكان آخر يتوقع أن يجد فيه طعاماً؛ ولنفترض –أيضاً– أنه لم يجد طعاماً فإنه سوف يعدل وجهة سلوكه فيتوجه إلى مكان ثالث... وهكذا... يظل يعدل من سلوكه ووجهته مستهدفاً هدفاً معيناً هو البحث عن الطعام وتناوله، حتى يجد الطعام ويشبع حاجته منه فيهدأ نشاطه ويرضى دافع الجوع عنده؛ ويتفرغ عند ذاك لتحقيق هدف آخر أو دافع آخر من دوافع الفرد التى لايكاد يبلغها حصر.

لكن، لنفترض أن الفرد ظل هكذا يعدل من سلوكه ويغير من نشاطه، ويذهب إلى هنا وهناك بحثًا عن الطعام فلا يجده، إنما يجد ماء يمكنه شربه فإنه لن يتحول عن طلب الطعام إلى شرب الماء ويهمل بعد ذلك فى بحثه عن الطعام، بل إنه سوف لايلتفت إلى طلب الماء إلا إذا كان أصلاً لديه دافع للشرب فيشرب ليواصل بعد ذاك بحثه عن الطعام، حتى يحصل عليه، أو تخور قواه من كثرة السعى والجد فى البحث عن الطعام، فلا يعود يقوى على مواصلة النشاط فيسقط من الإعياء، وقد يهلك ما لم ينقذه أحد بالطعام والماء والغذاء.

ولنفترض أن هذا الجائع كان فى بيئة حارة، وكان يبحث عن الطعام فلا يجده، فإنه لن يلبث طويلاً حتى يحس بالعطش والحاجة إلى شرب الماء. وفى حالة عدم وجود الطعام وعدم وجود الماء لتناولهما سوف تتراجع حاجته إلى الطعام والتماسه له شيئًا فشيئاً تاركة الأولوية للحاجة إلى الماء وطلب شربه، وكلما ازداد عطش الفرد –فى مثل هذه الحالة– سوف يقل إحساسه بالجوع حتى ينعدم ويتحول كل دافعه واهتمامه إلى طلب

شرب الماء والرى منه، بحيث تتمحور كل احتياجاته وكل رغباته وكل متطلباته حول جرعة ماء ينقذ بها حياته، فى حين ينسى الطعام تماماً أو لاتعود له شهية لتناوله حتى لو وجده. وذلك لأن الجسم -عادة- يستطيع احتمال الجوع ونقص التغذية لفترة أطول من استطاعته احتمال العطش ونقص الماء. وبالتالى، يمثل العطش خطورة أكبر من الجوع على حياة الشخص، حتى أن الشخص الذى يستحيل عليه الطعام والشراب معًا يموت دائمًا بسبب العطش وليس بسبب الجوع، إذ يمكنه احتمال الجوع عدداً أكثر من الأيام حتى يهلك تماماً. ولذا، فإن الشخص يوجه اهتمامه وطاقته نحو الأهم والأخطر وهو التماس الماء للشرب طالما كان عطشاً، ويسحب بذلك اهتمامه وطاقته اللذين كانا موجهين من قبل نحو الرغبة فى الحصول على الطعام لإشباع جوعه، فيقل بذلك دافع الجوع والإحساس به طالما أن خطورته أقل كثيراً على حياة الفرد من دافع العطش.

٢ – الحاجة Need:

تعرضنا فى شرحنا السابق لمصطلح الدافع إلى مصطلح آخر هو الحاجة. وهو يحتاج -أيضًا- إلى شرح مماثل حتى يتضح معناه. فالفرد عندما ينشط لديه دافع يجعله هذا يحس بأن شيئاً ما ينقصه؛ أى أنه فى حاجة إلى شىء يشبع هذا الدافع ويرضيه. فعندما ينشط دافع الجوع عند الكائن الحى أو الإنسان فإنه يحس بحاجته إلى تناول الطعام. وعندما ينشط دافع العطش يحس بحاجته إلى شرب الماء.

فالحاجات -إذن- مرتبطة بالدوافع وناشئة عنها، حتى يسعى الفرد لإشباعها فيحفظ بذلك نفسه ونوعه، ويحقق متعته وصالحه وصالح مجتمعه. وبالتالى يرتبط إشباع الحاجات بإحساس نفسى غامر باللذة والسعادة والارتياح.

٣ – الإشباع Satisfaction :

يجدر بنا هنا -أيضاً- أن نشرح المقصود بالإشباع. إنه إرضاء الحاجة وتحقيق المطلب الذى يلح عليه الدافع. وبالتالى، فإن إشباع الدافع سوف يصاحبه إحساس باللذة وشعور بالاستمتاع. وفى نفس الوقت، فإن إشباع الدافع سوف يؤدى إلى زواله أو ضعفه سواء

بصفة مؤقتة ليعاود الإلحاح من جديد بعد فترة معينة (كدافع الجوع والعطش والجنس) أو بصفة دائمة (كدافع الحصول على مؤهل معين كالليسانس أو البكالوريوس مثلاً).

وينبغى أن يكون واضحاً فى أذهاننا جميعاً أن إشباع الدوافع قد لايكون إشباعاً كاملاً، كما أنه قد لايكون -أيضاً- إشباعاً مباشراً فى كثير من الحالات، حيث يضطر الفرد إلى القبول بالإشباع المنقوص أو غير المباشر أو هما معاً تحت وطأة الظروف والقيود التى قد تفرضها البيئة المادية، أو المجتمع الإنسانى، أو جوانب شخصيته المختلفة وإمكانياتها، أو كل ذلك أو بعضه مجتمعاً.

٤ - الباعث Incentive:

هناك مصطلح مرتبط، ومتداخل مع ما سبق أن عرضناه من مصطلحات حتى الآن يحسن أن نشرح المقصود منه حتى لايختلط علينا الأمر عند ذكره فى متن هذا الكتاب، وهو مصطلح باعث. ويقصد بالباعث شيئاً خارج الذات يستثير الدافع ويستحثه، فتندفع الشخصية فى سلوك يستهدف الحصول على هذا الشىء. وبالتالى، يصبح هذا الشىء باعثاً للفرد على قيامه بنشاط ما أو سلوك معين. وذلك مثل مكافأة محددة لمن يتفوق فى أداء شىء معين. فهذه المكافأة التى تستحث الشخص للفوز بها تسمى باعثاً له على التفوق. أما إن لم تنجح فى حثه على التفوق؛ أى لم تستثر دافعه للفوز بها، فإنها عندئذ لاتعد باعثاً. وبهذا، فإن الباعث (كشىء خارجى) لابد وأن يستثير الدافع للحصول عليه (كشىء داخلى)، وإلا سقطت عنه صفة الباعث. وعلى هذا، فإن ما يعد باعثاً بالنسبة لفرد معين قد لايكون باعثاً بالنسبة لآخر. ومن هنا وجب علينا أن نطلق تسمية بواعث العمل على كل أنواع المكافآت التى نقدمها للعاملين عندما يزيدون إنتاجهم أو يحسنونه أو يقدمون خدمات هامة له. وهكذا، تكون البواعث عوامل خارجية تسهم إلى جانب الدوافع كعوامل داخلية فى فهم أسباب سلوك الفرد وتفسيره. وفى بعض الحالات قد يكون الباعث سلبياً (Allen & Santrock: 1993, 337)؛ كعقاب القانون على ارتكاب الجرائم، حيث يعمل هذا على حث الفرد على تفادى التورط فى السلوك المجرم.

هذا؛ وكثيراً ما يخلط البعض بين الباعث والحافز، مما يجعلنا فيما يلى نشرح المقصود

بالحافز حتى يتضح الفارق بينهما.

٥ – الحافز Drive:

من المصطلحات الأكثر عمومية والأقل تحديداً فى علم النفس. ولعل أوضح استخدام وأشيعه لمصطلح الحافز هو مايقصد به الدفعات الداخلية التى تحفز الكائن ليقوم بسلوك معين. ويغلب أن تكون هذه الدفعات فطرية الأصل توجه الكائن الحى نحو غاية حيوية بالنسبة له؛ كالحافز الجنسى على سبيل المثال. هذا، وكثيراً ما يطلق المسئولون عن العمل والإنتاج فى مختلف ميادينهما مصطلح حوافز الإنتاج للدلالة على المكافآت التى تقدم للعاملين مقابل زيادة إنتاجيتهم وتحسينها، إلا أن الأصوب من ذلك والأدق هو بواعث الإنتاج. كما سبق أن تحدثنا فى الفقرة السابقة عن الباعث.

٦ – التوتر Tension :

إحساس بالقلق والضيق والاستياء وعدم اتزان نفسى وفسيولوچى، وبالحاجة الماسة إلى إزالة التوتر ليعود للفرد هدوءه واتزانه. ولايزول التوتر حتى تقضى الحاجة التى سببت التوتر أو تزول أو تقل حدتها نسبيًا. وقد يكون التوتر شعورياً، حيث يشعر الفرد ويعى أنه متوتر وفى حاجة إلى شىء معين ليزيل توتره، كالجائع المتوتر بسبب الجوع ولن يزيل توتره إلا تناول الطعام؛ وكالفرد الذى يحس إلحاح الرغبة الجنسية فيظل متوتراً حتى يرضيها... وكالخائف الذى يتوتر بسبب الخوف فلا يزول هذا التوتر حتى يأتيه إحساس بالأمان عن طريق ابتعاد مصدر الخوف أو المساندة الخارجية التى تحميه منه... إلا أن التوتر –مع الأسف– كثيراً ما يكون لاشعورياً؛ لايشعر الفرد بوجوده، ولا يعى عنه شيئًا، وهنا تكون خطورته على الصحة النفسية للفرد شديدة؛ كالتوتر الذى ينتج عن الصراعات النفسية والمخاوف اللاشعورية، حيث يؤدى إلى أمراض سيكوسوماتية؛ كالسكر وارتفاع ضغط الدم وقرحة المعدة والصداع والربو... أو يؤدى إلى الأمراض النفسية المعروفة، والتى سوف نتعرض لها فيما بعد.

٧ – المثير (أو المنبه) :Stimulus

الشيء أو الموضوع الذى يستثير السلوك وعن طريقه أو بسبب تنبيهه للفرد يتم إشباع الدافع. فالطعام يعتبر مثيراً أو منبهًا بالنسبة للجائع، حيث يستثير دافعه لتناوله أو ينبه الجائع إلى تناوله. لكن الطعام هذا لايثير الدافع نحو تناوله بالنسبة لغير الجائع، وبالتالى قد لاينتبه إليه ولايحرك فيه الرغبة فى سلوك معين. وبالتالى لا يصبح فى هذه اللحظة منبهاً أو مثيراً بالنسبة له.

إذن، فالمثير أو المنبه هو ما ينجح فى إثارة سلوك معين عند الكائن الحى أو فى تنبيهه للقيام بسلوك معين إزاءه أو استجابة له. وقد يكون المثير خارجيًا كالطعام، أو داخليًا كامتلاء المثانة بالبول.

٨ – الموقف :Situation

جملة منبهات أو مثيرات متشابكة تحيط بالفرد فى ظرف معين، وتحتاج منه إلى القيام بسلوك محدد يتوافق به مع هذا الموقف؛ كموقف الامتحان بالنسبة للطالب، أو موقف المحاكمة بالنسبة للمتهم.

٩ – الاستجابة : Response

سلوك أو نشاط يقوم به الإنسان أو الكائن الحى عمومًا كاستجابة لدافع معين، أو لموقف يواجهه، أو منبه ينبهه، أو مثير يثيره. فمثلاً، تناول الطعام هو الاستجابة الطبيعية لدافع الجوع، والهرب هو الاستجابة المعتادة لدافع الخوف، ودمع العين هو الاستجابة التلقائية لأى جسم غريب يدخل العين، والضيق هو الاستجابة الانفعالية لما يؤلم الكائن الحى، والسرور هو الاستجابة المتوقعة لما يلائم الكائن الحى ويفيده ويمتعه... وهكذا، فإن الكائن الحى يرد على ما يثيره أو يستثيره باستجابة تتفق والبناء النفسى والجسمى للكائن الحى، وتتأثر –أيضًا– بالظروف أو الموقف الذى يتواجد فيه الكائن الحى وقت الاستثارة أو التنبيه؛ بما فيه نوع المثير أو المنبه وطبيعتهما.

هذا، ويمكن أن تكون هذه الاستجابة نشاطاً حركياً، كما يمكن أن تكون نشاطاً ذهنياً، كما يمكن أن تكون نشاطاً انفعالياً، كما يمكن أن تكون نشاطاً حسياً، كما يمكن أن تكون نشاطاً فسيولوجياً.. إلخ، وغالباً ما تكون خليطاً من أكثر من نوع من النشاط أو السلوك. فمثلاً، قد يستجيب الفرد عندما يتعرض لموقف ما بارتفاع ضغط الدم أو الشلل أو الإغماء، كما قد يستجيب بسلوك سوى. وغالباً ما تختلف استجابات الأفراد وفق اختلاف بنائهم النفسى الجسمى ووفق ظروفهم الخاصة أيضاً، عندما يتعرضون لنفس الموقف.

ويعتبر مصطلح استجابة من أكثر مصطلحات علم النفس شيوعاً واستخداماً. فمن المعروف أن كل ما يأتى به الكائن من سلوك هو شكل من أشكال الاستجابة، ومن ثم فإن أى دراسة علمية للسلوك هى فى جوهرها دراسة للاستجابة فى شتى صورها. ويمكن أن يسمى علم النفس -فى أخص تعريفاته- بعلم دراسة الاستجابة، باعتبارها وحدة السلوك الأساسية. والاستجابة دائماً متغير تابع لمتغيرات أخرى نطلق عليها المثيرات أو المنبهات، فلكل مثير استجابة، كما أنه لاتوجد استجابة بدون مثير، أو ظرف، أو موقف يثيرها.

والاستجابة يمكن أن تكون -أيضاً- فى صورة إجابة تقليدية عن سؤال، أو تكون فى شكل عملية عقلية، أو حركية، أو تغيرات بدنية لبعض أعضاء الجسم داخلية أو خارجية؛ مثل الاستجابة بإفراز بعض الهرمونات، أو بارتفاع فى ضغط الدم أو بصب سكر فى الدم، أو بخلجة نفس، أو بومضة فكر، أو بقفزة هائلة، أو بإغماءة مفاجئة...إلخ

١٠ – التوافق Adjustment:

كل سلوك أو نشاط يقوم به الإنسان خاصة والكائن الحى عامة هو نشاط يهدف منه إلى تحقيق التوافق. والتوافق يعنى أن يحقق الفرد نجاحاً فى مواقف حياته فيستفيد منها، أو يتحاشى ضررها. وعندما يفشل السلوك فى تحقيق التوافق الذى يبتغيه الفرد لنفسه نصفه بالانحراف أو الاضطراب أو المرض النفسى. فالفرد فى مثل هذه الحالات يكون هدفه الأساسى تحقيق التوافق إلا أنه قد أخطأ الوسيلة.

تصنيف الدوافع :

دوافع الإنسان كثيرة متنوعة لايكاد يبلغها الحصر. ولسهولة عرضها وشرحها يحسن أن نصنفها وفق أساسين نرى أنهما أشيع انتشاراً بين العلماء، وأدق تعبيراً عن خصائص الدوافع، وأقرب إلى المنطق والعقلانية؛ وهما: تصنيف الدوافع على أساس مصدر الدافع، أو تصنيفها على أساس مدى الوعى بالدافع أو الشعور به.

أولاً : تصنيف الدوافع علي أساس المصدر

ونقصد بهذا التصنيف أن يكون على أساس المصدر الذى جاء منه الدافع للفرد. وعلى هذا، يمكن تصنيف الدوافع إلى قسمين كبيرين: أحدهما الدوافع الأولية Primary Motives (أو الفطرية أو الوراثية) والآخر هو الدوافع الثانوية Secondary Motives (أو المكتسبة أو البيئية).

(أ) الدوافع الأولية أو الفطرية :

وهى مجموعة من الدوافع غرست فى الكائن الحى، إنساناً كان أم حيواناً، عن طريق الوراثة التى يرثها الكائن الحى عن آبائه خاصة ونوعه عامة. ولذا، فهى توجد فى كافة أفراد النوع الواحد فى كافة العصور، وفى كافة الأمكنة، فالفرد ليس فى حاجة لأن يتعلمها؛ بل إنه ولد مزوداً بها، حتى وإن تأخر ظهورها بعض الوقت حتى يحين مستوى النضج المناسب لظهورها. وهذا الصنف من الدوافع شديد الأهمية لحياة الفرد أو لحياة النوع، ومن هنا ولد مزوداً بها وإلا مات الفرد أو انقرض نوعه. يصدق هذا على الإنسان كما يصدق على الحيوان؛ مثل غريزة الجوع، وغريزة العطش، وغريزة الجنس، وغريزة الأمومة. فلولا غريزة الجوع وغريزة العطش لمات الكائن الحى، ولولا غريزة الجنس وغريزة الأمومة لانقرض نوعه.

الغريزة Instinct:

وعادة ما يطلق على الدوافع الفطرية لفظ الغرائز؛ فالغريزة دافع فطرى يولد الفرد (أو الكائن الحى) مزوداً بها حيث تجعله ينتبه إلى أشياء معينة فى بيئته فينفعل لذلك انفعالاً معيناً، ويندفع بالتالى ليسلك إزاءها سلوكاً معيناً تحقيقاً لهدف محدد، أو يحس - على أقل تقدير- رغبة فى القيام بسلوك معين إزاء هذا الذى أدركه أو انتبه إليه فى بيئته. فغريزة الجوع -على سبيل المثال- تجعل الفرد ينتبه إلى ألوان الأطعمة فينفعل بانفعال الجوع، ويندفع نحوها لتناولها، أو على الأقل يحس رغبة شديدة فى تناولها، هادفًا من ذلك إلى إشباع جوعه وإعادة توازنه النفسى الفسيولوچى الذى أخلت به حالة الجوع التى يعانيها.

ومن أمثلة الغرائز نذكر غريزة الجوع (أو البحث عن الطعام)، وغريزة الجنس (أو غريزة الحب)، وغريزة العدوان (Storr: 1985) (أو غريزة المقاتلة)، وغريزة الخوف (أو غريزة الهرب)، وغريزة الأمومة أو الأبوة أو الوالدية، وغريزة الاستطلاع (أو غريزة حب المعرفة والبحث)، والغريزة الاجتماعية، وغريزة التملك. وقد قال بهذه الغرائز جميعاً ماكدوجال McDougal منذ أوائل هذا القرن. ويلاحظ أن هذه الغرائز لها أساس فسيولوچى وأساس نفسى معاً -على نحو ما أشرنا من قبل فى هذا الكتاب- بحيث تصاحب انفعالات الغرائز كثير من التغيرات، والنشاطات الفسيولوچية والكيميائية التى تحدث فى الجسم وتستهدف تهيئة الإنسان أو الكائن الحى للتصرف فى الموقف الذى استثيرت فيه الغريزة تصرفاً ناجحاً موفقاً.

ولقد جاء فرويد Freud معاصراً لماكدوجال فجمع الغرائز كلها فى غريزتين فقط، هما غريزة الحب Love Instinct (أو غريزة الجنس أو غريزة الحياة) وغريزة التدمير Thanatos Instinct (أو غريزة العدوان أو غريزة الموت). فغريزة الحب تشمل كل الدوافع التى تتصف بالبناء والود والتدعيم والإيجابية وتحقيق المصالح واستمرارية الحياة؛ كدوافع الجنس والأمومة والأبوة والبحث عن الطعام والشراب والمعرفة والاستطلاع، وكل ما من

شأنه ازدهار الحياة ونموها؛ أما غريزة التدمير، فتتضمن كل دوافع الكراهية والاعتداء والتدمير والقتال، إلى غير ذلك من الدوافع التى تقوض الحياة وتضعفها وتؤدى إلى الموت والدمار والخراب (Taha, Farag: 1986) . ومن الجدير بالذكر أن الغريزة فى نظر فرويد والمحللين النفسيين تطلق على الغريزة كمفرد، كما تطلق -أيضاً- على مجموعة الغرائز أو الدوافع بحيث تعنى الجمع أيضاً. وفى رأى التحليل النفسى أن الغريزة «مفهوم يقع على حدود الظواهر البيولوچية والظواهر النفسية، فهى تمثل مطلب الجسم قبل الحياة النفسية. ويمكن تمييز عدة أوجه فى مجرى العملية الغريزية: فالمصدر هو حالة من التهيج داخل الجسم، والهدف هو القضاء على هذا التهيج. والموضوع هو الأداة التى تحقق الإشباع أو توصل إليه» (لاجاش: ١٩٥٧، ٤٥).

ولما كان من النادر جداً وجود خاصية وراثية مائة بالمائة، وكانت الغريزة تعتمد على كونها وراثية تماماً، فإن أغلب المتخصصين لايوافقون على مصطلح الغريزة ويفضلون بدلاً منه مصطلح الدافع الذى تغلب عليه الصفة الوراثية أو الفطرية. حيث نجد أنه لا تكاد توجد غريزة عند فرد إلا وتتأثر بكل ما بالبيئة التى نشأ فيها أو يوجد بها. فمثلاً غريزة الجوع، يفترض أنها فطرية، وراثية، لكن تؤثر فيها البيئة والتعود والخبرة. فمن تعود على الإفطار مبكراً يجد نفسه جائعاً فى الصباح الباكر، ومن تعود على عدم الإفطار لايجد نفسه جائعاً إلا فى الموعد الذى قد عود نفسه على تناول الطعام فيه. بل إن غريزة الجوع -فى حد ذاتها- قد تغيرت بفعل البيئة والتنشئة والتعود، فالأصل فى غريزة الجوع هو التماس الثدى والرضاعة حتى يشبع الفرد. لكن، بفعل البيئة والتعود والتدريب والتنشئة تتحول الغريزة من التماس الثدى والرضاعة إلى تناول الطعام المطهو أو المعد. ثم إن الطعام المعد هذا يتغير من بيئة إلى أخرى، فهذه بيئة يجد من نشأ فيها شهية قوية لتناول الضفادع المطهوة فى حين أن من نشأ فى غيرها يتقزز من هذا الطعام نفسه لدرجة التقيؤ... وهكذا...

(ب) الدوافع الثانوية أو المكتسبة :

إن كان القسم الأول من تصنيف الدوافع على أساس مصدرها هو الدوافع الأولية أو الفطرية أو الوراثية فإن القسم الثانى هو الدوافع الثانوية أو المكتسبة أو البيئية، وهى الدوافع التى نكتسبها من البيئة التى نشأنا بها أو البيئة التى تحيط بنا حاليًا. يأتى اكتسابها عن طريق التعلم والخبرة والتعود والتقليد والتنشئة، وتجارب الفرد واحتكاكه بوسطه وبيئته الخاصة. ومن هنا، كان اختلاف كل منا عن غيره فى هذه الدوافع المكتسبة، فى حين أننا جميعاً نتفق فى الدوافع الأولية الفطرية. فكلنا يلتمس ثدى الأم للرضاعة فى الأيام الأولى من ولادته، لا فرق فى ذلك بين مصرى أو هندى أو أوروبى؛ حيث إن التماس ثدى الأم للرضاعة فى الأيام الأولى من الولادة دافع فطرى غريزى، لكن مع النمو يتحول هذا الدافع الأولى الفطرى الغريزى إلى دوافع ثانوية مكتسبة من البيئة، وبالتالى مختلفة باختلاف البيئات. فهذا قد عوده وعلمه والداه على طعام معين فإذا به يشتهيه ويندفع لتناوله، وآخر لم يعود على تناوله فإذا به يتقزز منه وينفر؛ وهذا قد اكتسب حب شعب معين من الشعوب، بينما ذاك قد اكتسب كراهية نفس الشعب؛ وهذا يحب فلاناً بالذات وذاك يكرهه؛ وهذا يميل لمادة دراسية معينة، وذاك ينفر منها... وهكذا...

هذا؛ ومن أهم الدوافع الثانوية المكتسبة:

١ – الاتجاه النفسى Attitude:

الاتجاه هو «استعداد وجدانى مكتسب، ثابت نسبيًا، يحدد شعور الفرد وسلوكه إزاء موضوعات معينة من حيث تفضيلها أو عدم تفضيلها» (أحمد عزت راجح: ١٩٧٩، ١٢١) فإذا بالفرد يحبها ويميل إليها (إن كان اتجاهه نحوها إيجابيًا)، أو يكرهها وينفر منها (إن كان اتجاهه نحوها سلبيًا). ويقصد بالثبات النسبى للاتجاه قابليته للتغير أحياناً، حيث إنه مكتسب فى الأصل.

أما موضوع الاتجاه فيمكن أن يكون شخصاً معيناً، أو جماعة ما، أو شعبًا، أو مدينة، أو مادة علمية، أو مذهباً أيديولوجياً... إلخ.

٢ – الميل Interest:

اتجاه نفسى إيجابى محب نحو موضوع معين قد يكون شخصاً أو مادة دراسية أو فكرة... إلخ، على نحو ما ذكرنا سابقًا عن الاتجاه النفسى. فهذا الطالب –على سبيل المثال– يميل إلى هذه المادة الدراسية المعينة؛ أى أنه يحبها ويقبل عليها، ويستمتع بصرف جزء كبير من وقته فى حضور دروسها واستذكارها. وهذا الفرد يميل إلى هذا الرأى؛ بمعنى يحبذه ويؤيده ويناصره...

ويعتبر الميل من الدوافع النفسية المكتسبة، حيث نكتسبه من البيئة التى تحيط بنا، والخبرات التى نمر بها، وبالتالى تختلف ميول كل فرد منا عن الآخر، تبعاً لاختلاف البيئة والخبرات. والميل باعتباره اتجاهًا نفسياً يصدق عليه ما يصدق على الاتجاهات النفسية من ثبات نسبى، ومن تغير وتعدل أحياناً إذا مرت بالفرد خبرات أو ظروف تدعو إلى تغييره وتعديله.

٣ – العاطفة Sentiment:

اتجاه نفسى (إيجابى محب، أو سلبى كاره) نحو موضوع معين، إلا أنه مشحون بشحنة انفعالية قوية سواء من الحب أو من الكره، موجهة نحو موضوع العاطفة. وهكذا، نجد عاطفة الأم نحو ابنها، أو عاطفة الصديق نحو صديقه، أو العدو نحو عدوه...إلخ. ويصدق على العاطفة –باعتبارها اتجاهاً نفسيًا– ما سبق أن ذكرناه عن الاتجاه النفسى من حيث اكتسابها، وثباتها النسبى، وتحولها أحياناً.

٤ – التعصب Prejudice:

اتجاه نفسى لدى الفرد يجعله يدرك فرداً معيناً أو جماعة أو موضوعًا معيناً إدراكًا إيجابيًا محباً، أو سلبياً كارهاً؛ دون أن يكون لهذا الإدراك أو ذاك ما يبرره من المنطق أو الأحداث أو الخبرات الواقعية. ولذا، فإن المحاجاة المنطقية والأحداث الواقعية لاينجحان غالباً فى إزالة التعصب أو التخلى عنه. ومن هنا، فالتعصب يقاوم التغيير والتعديل وإن كان

لايمنعه كلية. وأوضح مثل على ذلك تعصب البيض ضد الملونين فى الولايات المتحدة الأمريكية، أو تعصب ضيقى الأفق من المتدينين ضد أصحاب الأديان الأخرى، أو تعصب أصحاب المذاهب السياسية ضد بعضهم البعض، أو تعصب أعضاء القبيلة الواحدة بعضهم للبعض ومناصرتهم بعضهم بعضاً حتى لو كانت هذه المناصرة ضد الحق، وانتصاراً لباطل؛ ومن هنا كان وصف التعصب بأنه أعمى عنيد.

والتعصب -بصفة عامة- ظاهرة سلبية؛ خاصة التعصب الدينى أو العرقى أو الطائفى. فهو يمثل مشكلة خطيرة تهدد السلام الاجتماعى داخل المجتمعات القائمة؛ حتى فى أيامنا هذه، فكلنا يعرف تعصب البيض ضد الزنوج فى أمريكا. ومع ظهور الجماعات الإرهابية أخيراً فى مصر كان يصحب فكرهم وسلوكهم أحياناً مظاهر تعصب ضد المسيحيين؛ مما جعل الدولة تشتد فى مقاومة الإرهاب وملاحقته، وجعل العلماء يتجهون إلى إيثار ظاهرة التعصب ببعض اهتماماتهم، حتى أن باحثين مصريين قاما بتحليل (٣١) دراسة فى علم النفس عن التعصب، قد تمت فى مصر، فى أقل من عقدين من الزمان (عبد الحميد صفوت، ومحمد الدسوقى: ١٩٩٣).

والتعصب كاتجاه نفسى يصدق عليه ما قلناه عن الاتجاه النفسى من حيث الاكتساب، والثبات النسبى، وتأثيره على سلوك المتعصب، حيث التطرف والإنغلاق فى رؤاه وقيمه وقناعاته. وفى هذا المعنى يقول عثمان حمود الخضر إنه: «من خلال مسح الدراسات السابقة، يتبين أنها تستخدم مصطلحات: أحادية العقلية، والتصلب والتعصب، والإنغلاق، والجمود، كمفاهيم مترادفة، لكن يبدو أن أحادية العقلية عامل عام يختزل القدر الأكبر من تباين هذه المفاهيم» (عثمان حمود الخضر: ٢٠٠٠، ٣-٢٨).

٥ - العادة Habit:

دافع ومهارة مكتسبان على أداء سلوك معين -سواء أكان حركياً أم ذهنياً -بطريقة آلية مع السرعة والدقة والاقتصاد فى المجهود، كعادة السباحة أو تناول الطعام. والعادة تجعل الشخص يميل إلى تكرار السلوك على وتيرة واحدة مع التشبث به ومقاومة تغييره.

وتتحكم العادة فى الشطر الأكبر من سلوكنا. فطريقة كل فرد فى المشى والكلام والتفكير والمأكل والمشرب والنوم والعمل... كل هذا يتم على وتيرة واحدة تقريبًا، وبشكل شبه آلى بفضل عادة الفرد فى كل هذه النشاطات. ويلاحظ أن هذا التحكم للعادة فى الشطر الأكبر من نشاطنا أمر ضرورى ومفيد للفرد، فمن دونها يصعب أداء النشاط المطلوب بسهولة وسرعة ويسر، فالإنسان بطبعه ينزع إلى بذل أقل جهد لبلوغ غاياته فى أسرع وقت.

٦ - مستوى الطموح Level of Aspiration :

هو، المستوى الذى يضع فيه الفرد أهدافًا معينة (Morgan, et al.: 1986, G-14)؛ فلكل فرد منا مستوى طموح معين يضعه أمامه ويجتهد فى تحقيقه. ويعنى الطموح، عمومًا، تطلع الفرد إلى بلوغ مستوى معين من الأداء أو الإنجاز، أو إلى بلوغ مستوى علمى أو مهنى أو اقتصادى أو اجتماعى... معين. والطموح بهذا يعتبر سمة من سمات شخصية الفرد، يؤثر فى سلوكها ويطبعها بطابع معين. فهذا طالب يطمح أن يكون أول دفعته، وهذا آخر يطمح أن يصبح طبيبًا، وهذا ثالث يود أن يكون أديبًا لامعًا، وهذا رابع يريد أن يصبح عالمًا شهيرًا، وهذا خامس يريد أن يجمع ثروة طائلة تنتشله من مستوى الفقر الذى يعيش فيه إلى مستوى اقتصادى رفيع... إلخ. وكما يختلف الأفراد فى طموحاتهم فإنهم يختلفون أيضًا فى مستوى الطموح Level of Aspiration. بمعنى شدة الطموح ومدى قوته». (فرج عبد القادر طه: ١٩٩٤(ب)، ٢٨٠).

وقد ينجح الفرد أو يفشل فى تحقيق مستوى الطموح الذى يضعه لنفسه. ولاشك فى أن هذا يعتمد على مدى كفاءته وقدراته، وعلى مدى ملاءمة ظروفه الخاصة وبيئته الطبيعية والاجتماعية والنفسية. ولكل منا مستوى طموح معين بالنسبة لكل مجال من مجالات حياته ونشاطه. فهذا الطالب الذى يطمح فى الحصول على الدكتوراه قد يطمح فى نفس الوقت إلى أن يصبح أديبًا مشهورًا أو شخصًا غنيًا، وإلى أن يكون أسرة سعيدة، وإلى أن يمتلك كذا وكذا... لكننا نجد عادة أن طموحًا معينًا هو الذى يحتل مكان الصدارة عند الفرد مقارنة بطموحاته الأخرى.

ولاشك أن مستوى طموح الفرد يعتبر دافعاً له يدفعه للكد والسعى حتى ينجح فى تحقيق هدفه المنشود، ففى أحد البحوث الميدانية فى مصر، وصل معامل الارتباط بين التحصيل الدراسى ومستوى الطموح +٠,٣٠٩ وهو معامل دال إحصائياً عند مستوى ٠,٠٠١ وله قيمة فى مثل هذا المجال. (فرج عبد القادر طه: ٢٠١٠، ٢٠٠) . هذا ويدعم مستوى طموح الفرد ما يصادفه فى طريق تحقيقه من نجاح، بينما قد يعمل ما يصيبه من فشل على تخفيض مستوى طموحه أو التخلى كلية عنه.

وهكذا، تؤثر ظروف الفرد واستعداداته وخبراته فى تحديد مستوى طموحه وما يتوقعه لنفسه.

وقبل أن ننتهى من الحديث عن هذا التقسيم للدوافع إلى أولية موروثة، وثانوية مكتسبة ينبغى أن نؤكد أن هذا التقسيم لم يعد مقنعاً لكثير من علماء النفس إلا إذا نظرنا إليه نظرة مرنة؛ لأنه من النادر جداً أن نجد جانباً من الفرد تنفرد الوراثة بتحديده (حتى ماعرف بالغرائز) أو تنفرد البيئة بتحديده (حتى ما عرف بالدوافع المكتسبة)، وإنما الأقرب للصواب أن نقول بأن كل دافع يتحدد بالوراثة والبيئة معاً فى تفاعلهما، وكل ما فى الأمر أن دافعاً يكون أكثر تأثراً بالوراثة، وأن دافعاً غيره يكون أكثر تأثراً بالبيئة، وأن ثالثاً غيرهما يبدو متأثراً بالوراثة وبالبيئة بقدر متقارب... بل إن كل دافع نفسى يتشعب بدوره إلى عدد غير محدود من الدوافع النفسية، فالفرد فى حالة الجوع -على سبيل المثال- نجده فى كثير من الأحيان مدفوعاً للبحث عن طعام وليس أى طعام، وهذا الدافع نحو طعام معين يختلف عند الفرد فى حالة الجوع من وقت لآخر؛ فهو فى جوعه الآن يفضل الحصول على طعام معين تدفعه إليه رغبة شديدة فى تناوله بالذات، بينما كان فى جوعه بالأمس يفضل تناول لون آخر من الطعام، وهو فى ظرف ثالث من جوعه يبحث عن أى طعام دون تحديد، كما يحدث عندما يتهدد بالموت جوعاً، فيلتمس أى شيء يقتات به ليمنع عنه الهلاك حتى لو كان مما تعافه نفسه فى حالة الجوع العادية.

وبمعنى آخر، فإن الشخص يكون لديه عدد غير محدود من الدوافع بقدر ما له من عدد غير محدد من الرغبات التى يسعى إلى تحقيقها أو يتمنى -على الأقل- لو تحققت له. فلدى كل منا رغبات يشترك فيها مع غيره. ورغبات أخرى خاصة به ومرتبطة ببنائه النفسى الخاص، لايكاد يشاركه فيها غيره. ورغبات الفرد متجددة دائماً لاتكاد تتحقق واحدة أو بعض منها حتى يبرز غيرها. وهكذا، لاتنتهى رغبات الفرد وبالتالى دوافعه (إذ أن وراء كل رغبة دافعاً خاصاً بها) إلا بنهاية حياته.

ثانيًا : تصنيف الدوافع علي أساس الوعي

أما التصنيف الثانى للدوافع فهو على أساس وعى الفرد بالدافع، وشعوره بوجوده فى داخله. وقد نشأ هذا التصنيف للدوافع بعد أن اكتشف فرويد أن هناك دوافع داخل الفرد توجه سلوكه وتؤثر على نشاطه دون أن يعلم عنها شيئاً، حتى إذا ما سئل عنها أنكرها تماماً لعدم شعوره بوجودها، أو وعيه بها.

ووفق هذا التصنيف، فإن دوافع الشخص مهما كانت فطرية أو مكتسبة، وراثية أو بيئية، فإنه يمكن تقسيمها -كما فعل فرويد والمحللون النفسيون- إلى نوعين من الدوافع من حيث شعوره ووعيه بوجودهما، وهما:

١ - الدوافع الشعورية Conscious Motives:

وهى تلك الدوافع التى يشعر الشخص بوجودها ويعيها، أو يمكن له أن يستدعيها ويتذكرها إذا ما سئل عنها، مثل: بماذا تحس الآن، أو ماذا تريد؟ وبماذا كنت تحس بالأمس، أو ماذا كنت تريد؟ فحالات الشخص الذى يحس بدافع الجوع، والشخص الذى يميل للون معين من الطعام ويحس بدافع نحو تناول هذا الطعام، والشخص الذى يكره فلاناً من الناس ويحس بكراهيته له.. تعتبر مثل هذه الحالات جميعاً دوافع شعورية، حيث يعيها الشخص الذى توجد فيه ويحس بدفعها له إلى سلوك معين، أو تحقيق رغبات محددة.

ومن الجدير بالذكر أن هناك اصطلاحين مرتبطين بالشعور ويختلطان بمفهومه

وبوصفه، ومعناهما غير محدد تحديداً واضحاً، لذا، يقل استخدامهما فى التراث العلمى؛ وهما اصطلاح القبشعور Preconscious واصطلاح ماتحت الشعور Subconscious، وهما يصفان دوافع نفسية أو عمليات عقلية يمكن للفرد أن يحس بها ويشعر عندما يوجه انتباهه إليها أو ذاكرته لاسترجاعها والحديث عنها. وكأنها دوافع أو عمليات على عتبة الشعور يمكن أن تدخله عندما يستدعيها الفرد، أو يحس الحاجة إلى الوعى بها أو تذكرها. ولذا، يحسن أن ندرجها فى عداد الدوافع الشعورية أو العمليات الشعورية.

٢ – الدوافع اللاشعورية Unconscious Motives:

وتتمثل فى دوافع الشخص التى لايشعر بأنها موجودة لديه تدفعه لسلوك معين، وهى دوافع لاتظهر فى شعور الفرد ولا فى وعيه، لذا لا نجد غرابة فى إنكاره لها. وكل شخص لديه دوافع لاشعورية غير محدودة تؤثر فى سلوكه فتطبعه بكيفيات دون أن يعى الفرد وجودها وتأثيرها. بمعنى آخر، فإن هذه الدوافع اللاشعورية، بالرغم من وجودها داخل الشخص، إلا أنه لا يحس بها ولا يعى عنها شيئاً؛ وكأنها غريبة عليه لعدم إدراكه لها، وانعدام شعوره بها.

وكثيراً ما تكون الدوافع الشعورية غطاءً لدوافع لاشعورية مناقضة؛ إذ كثيراً ما نجد دافع الحب الشعورى المفرط لدى شخص نحو آخر غطاءً يخفى وراءه كراهية لاشعورية لهذا الآخر قد تتبدى صراحة فى أحلامه، فإذا به يرى فى أحلامه هذا الآخر وقد قتل فى حادث أو ناله ضرر فى موقف معين، وهكذا... وفى مثل هذه الحالات تكون الكراهية لهذا الآخر دافعاً لاشعورياً، بينما حبه يكون دافعاً شعورياً.

على أن الدوافع اللاشعورية تجاهد دائماً لأن تصبح شعورية، إلا أنها تفشل فى ذلك نتيجة مقاومة الأنا (أحد أجهزة الشخصية على نحو ما سوف نرى عند الحديث عن نظريات الشخصية) لهذه الدوافع، وردها إلى المنطقة اللاشعورية إذا حاولت تجاوزها إلى الشعور، إلا أن عملية التحليل النفسى للفرد كفيلة بتفتيت مقاومة الأنا لهذه الدوافع

والنزعات اللاشعورية، وبالتالى يتاح لها أن تطفو على السطح وتدخل المنطقة الشعورية من النفس البشرية فتصبح بذلك شعورية يعيها الشخص ويحس بها ويعترف بوجودها؛ فيتاح له عندئذ أن يحسن التعامل معها والسيطرة عليها وفقًا لمبدأ إذا عرفت استطعت، ولذا كانت معرفة المريض النفسى بنفسيته ودوافعها اللاشعورية أولى خطوات الشفاء فى علاجه بالتحليل النفسى (مصطفى زيور: ١٩٨٥).

هذا، وينبغى أن نذكّر هنا بأن دوافع الفرد الخاصة فطرية كانت أم مكتسبة، شعورية كانت أم لاشعورية تحتل أهمية بالغة فى بنائه النفسى وفى أوجه نشاطه المختلفة. فهى التى تدفع الفرد للقيام بكافة أنواع السلوك، وهى التى تكمن وراء كافة مايقوم به من نشاط، حتى أن القانون النفسى يقول لاسلوك بدون دافع، فإن لم يكن الفرد يحس بالدافع ويعيه فإنه يكون موجودا، لكنه لا يشعر به. وليس الدافع اللاشعورى -كما يتوهم البعض- أمراً مَرَضياً أو شاذاً فى الشخصية، بل هو أمر طبيعى فى البناء النفسى لأى شخصية بشرية؛ فكل منا له دوافعه اللاشعورية الخاصة به، كما أن له دوافعه الشعورية. وكلا النوعين من الدوافع طبيعى، إنما الذى يسبب المرض النفسى هو طريقة تعامل الفرد ومعالجته لدوافعه، وهى طريقة خاصة بكل شخص على حدة، وقد تكون سوية سليمة، أو شاذة مرضية.

التدرج الهرمي للدوافع Hierarchy of Motives

يعتقد كثير من علماء النفس فى صدق نظرية مازلو Maslow (١٩٠٨ - ١٩٧٠) التى طرحها عام ١٩٥٤ عن التدرج الهرمى للدوافع، ونسق أهميتها وأولويات اهتمام الفرد بإشباعها. وفكرتها أن دوافع الإنسان تقع فى تدرج هرمى حسب اهتمام الفرد بإشباعها. فالحاجات الأساسية Basic Needs أو الدوافع الأساسية؛ يأتى إشباعها فى المقام الأول يليها إشباع الحاجات الأقل أساسية فالأقل... وهكذا. وعلى هذا، يرى مازلو أن لكل إنسان خمس حاجات (أو دوافع) رئيسية Main Needs عليه إشباعها وفق ترتيب أهميتها مبتدئاً بالدوافع أو الحاجات الفسيولوچية Physiological Needs (والتى تقع فى المقام الأول من الأهمية)، تليها دوافع الأمن Safety Needs (أو الحاجة إلى الأمن والأمان

بعيداً عن الخوف والتهديد)، ثم دوافعه أو حاجته إلى الحب والانتماء Love and Belongingness إلى جماعة، أو مجتمع، وبعدها دافعه أو حاجته إلى تقدير الذات Self-esteem، وأخيراً حاجته أو دافعه إلى تحقيق الذات Self-actualization (Al- len&.Santrock, 1993:337). ويبدو هنا رأى مازلو منطقياً ومقنعًا إلى حد كبير؛ حيث إن حرمان الفرد من إشباع حاجاته ودوافعه الفسيولوچية قد يؤدى بحياته ذاتها أو يؤدى إلى انقراض نوعه، ومن هنا يكتسب أهمية قصوى وأولوية فى سلم الإشباع عنده. وهكذا، نتدرج حتى نصل إلى تقدير الذات ثم تحقيقها حيث يقل هنا الضرر الناجم عن عدم الإشباع، أو عن إعاقة إرضاء الدافع، حيث يمكن أن يستمر بقاء الفرد حياً واستمرار نوعه – أيضًا– مع حرمانه من إشباع دافعى تقدير الذات وتحقيقها، وإن أصابه بعض الضيق والاضطراب، على نحو ما نجده لدى بعض المنحرفين أو المضطربين نفسياً.

ولنا أن نتوقع صدق التدرج الهرمى للحاجات وفق نظرية مازلو فى ظروف الحياة العادية، وأن هذا التدرج قد يطرأ عليه بعض التغيير فى حالات الضغوط والكوارث والحروب.. وهذا ما اتضح بالفعل من بحث حديث قام به باحث مصرى (عبد الحميد صفوت إبراهيم) مع زميل أمريكى (Tang & Ibrahim: 1998) على عينة من ٣٨٧ من العرب. فقد تبين لهما –ضمن نتائج أخرى تفصيلية لبحثهما– أن تحقيق الذات والنمو – على سبيل المثال– أقل إلحاحاً وقوة فى زمن الحرب عن زمن السلم. كما أن قيادة السائق سمير عبد الحليم لشاحنته المشتعلة فى منطقة سكنية بمدينة جدة السعودية ليُبعد المنطقة السكنية عن الضرر الذى يصيبها إذا انفجرت الشاحنة فيها، وتعريض حياته للخطر داخلها حتى خرج بها بعيداً عن الأحياء السكنية بالمدينة، «ولم تمض على تركه لها سوى دقائق معدودة انفجرت بعدها الشاحنة» (الصفحة الأولى من أهرام ١٩٩٨/٤/٢٦)؛ نقول إن مثل هذا الحدث يؤكد على أن هناك بعضًا من الناس يقدمون الواجب الإنسانى (وهو دافع مكتسب لا يضر الفرد كثيراً التخلى عنه) على الدافع الفطرى وهو الهروب من مصدر الخطر حفاظًا على استمرار الذات وبقائها (غريزة المحافظة على الحياة)، وتكثر مثل هذه الحالات فى حروب الدفاع عن الوطن، والتضحية بالحياة فى سبيل العقيدة...

الاحباط Frustration

عندما ينشط دافع لدى الفرد طالباً الإشباع -سواء اصطلحنا على تسميته دافعاً فطرياً أم دافعًا مكتسبًا، دافعًا شعورياً أم دافعًا لاشعورياً- كدافع الجوع أو الدافع الجنسى أو دافع العدوان على سبيل المثال- فإن الفرد قد يستطيع إشباعه إشباعًا فورياً وصريحًا وكاملاً؛ وهذه هى الحالة المثلى لإشباع الدوافع. وعند ذاك يحس الفرد بالراحة واللذة والاستمتاع. ويزول توتره الذى أثاره نشاط الدافع، وإلحاحه فى طلب الإشباع. فالإنسان عندما ينشط لديه دافع الجوع يحس بالتوتر والقلق والضيق والرغبة فى تناول الطعام حتى يشبع دافع الجوع ويزول التوتر ويحس بالراحة واللذة؛ وهكذا يكون الأمر فى مختلف الدوافع. إلا أن الإنسان كثيراً ما يفشل فى إشباع دوافعه التى تنشط طالبة الإشباع الفورى والصريح والكامل، فقد لا يستطيع إشباعها الفورى، أو قد لا يستطيع إشباعها الصريح، أو قد لايستطيع إشباعها الكامل، أو قد يعجز عن إشباعها على أية صورة. وعند ذاك يكون الفرد فى حالة نسميها بالإحباط، أى وجود دافع مستثار يعجز الفرد عن إشباعه بالصورة التى يريدها. وهذه الحالة تسبب له القلق والضيق والاستياء والتوتر والألم النفسى، لذا يود أن يتخلص منها.

ومن التجارب الجديرة بالذكر فى مجال الإحباط؛ تلك التى أجراها ليفين Lewin وزميلاه بجامعة أيوا Iowa نشرت عام ١٩٤١ بأسماء Barker. Dembo and Lewin تحت عنوان: الإحباط والنكوص: تجربة مع أطفال صغار Frustration and Regression: Experiment with Young Children؛ حيث وضع الأطفال فى مواقف عادية يسعون فيها إلى تحقيق رغباتهم، وفى مواقف أخرى محبطة. ولقد أوضحت التجربة أن الأطفال عندما يواجهون الإحباط ينكصون فى سلوكهم، فيسلكون بشكل غير لائق بمستواهم، وأن الاستجابات التى تتصف بالعدوانية ترتفع بشكل ملحوظ بينهم. وقد لخصت نتائج تلك الدراسة فى هذه العبارات «لقد نتج عن الإحباط الذى استثير فى هذه التجارب تدهور فى مستوى الوظيفة العقلية، ونقص فى الإحساس بالسعادة، واستياء، وميول

تدميرية، وضعف فى وحدة الجماعة، وزيادة الدفعات العدوانية خارج الجماعة. كما كانت الاضطرابات الانفعالية تزيد بزيادة حدة الإحباط. (Watson & Evans: 1991, 615).

لكن، ما هى القوى الأساسية التى تعوق إشباع دوافع الفرد فتسبب له هذه الحالة المؤلمة من الإحباط، مع ما يصاحبها من تداعيات نفسية سلبية على نحو ما أشرنا من تجارب ليفين وزميليه؟ إنها قوى أساسية ثلاث، هى:

١ - الواقع: فقد يكون الواقع الخارجى غير ملائم للإشباع (شح الواقع)؛ كالجائع الذى لايجد حوله أو قريباً منه مصدراً يحصل منه على الطعام، فيضطر للبقاء جائعًا حتى يرجع إلى بيته. كما أن الواقع قد يفرض -فى كثير من الحالات- قيوداً صارمة وقوانين رادعة تمنع بعض أنواع الإشباع أو تحرمه وتعاقب عليه. فيضطر الفرد خوفاً إلى تجنبها مؤثراً الإحباط مع السلامة.

٢ - الأنا الأعلى أو الضمير: والأنا الأعلى هو أحد أجهزة الشخصية (على نحو ما سوف نرى عند الحديث عن نظريات الشخصية) وهو ينشد دائمًا الكمال والمثالية، ويحرس الشخصية، ويحاول توجيهها حتى لاتحيد عنهما. والضمير (كما تعرفه العامة) هو أحد مكونات الأنا الأعلى. ولذا، يعتبر الأنا الأعلى إحدى القوى التى تعارض الشخصية فى إشباع دوافعها وتسبب لها بالتالى الإحباط إن كانت دوافع الشخصية، أو إشباعها مما لايرضى عنها لأنا الأعلى. فقد يكون الشخص جائعاً يسير فى الشارع، وليس معه نقود لشراء الطعام، ويمكن له أن يسرق الطعام دون أن يراه أحد، ومع ذلك يظل جائعاً ويرفض سرقة الطعام؛ لأن ضميره أو أناه الأعلى لايسمح بذلك.

٣ - عجز الفرد ذاته: فقد يكون الواقع الخارجى ملائماً لإشباع الدافع سامحًا به، وليست هناك تحريمات معينة يقيمها الأنا الأعلى (أو الضمير) لمنع هذا الإشباع، ومع ذلك لايستطيع الشخص القيام بهذا الإشباع نتيجة لقصور إمكانياته الذاتية؛ مثل ضعف قدراته العقلية، أو طاقاته الحركية، أو إمكانياته الحسية. فعلى سبيل المثال، قد يكون

الشخص فى منزله جائعًا ويوجد بالمنزل الطعام الكافى لإشباع جوعه، والشهى فى نفس الوقت، ومع ذلك يظل جائعًا حتى يأتيه أى شخص يحضر له الطعام؛ لأنه مريض لايقوى على الوصول إلى مكان تواجده، وقد يطول انتظاره وهو فى هذه الحالة السيئة من الإحباط.

ففى تلك الحالات التى يعاق فيها إشباع الدافع إشباعًا فورياً وصريحًا وكاملاً، يقوم صراع بين الدافع الذى يلح فى طلب الإشباع وبين القوى التى تعوق هذا الإشباع، فتصطنع الشخصية ما يعرف بأساليب التوافق أو بحيل التوافق، حيث تلجأ إليها للتوفيق بين القوى الداخلة فى الصراع وإرضائها إرضاءً نسبيًا فى صورة حل ودى Compromise للصراع. ولما كانت هذه القوى المتدخلة فى هذا الصراع متعارضة فى رغباتها، ولما كان على الأنا (أحد أجهزة الشخصية الثلاثة، والتى سوف نتحدث عن وظائفها تفصيلاً فيما بعد عند الحديث عن نظريات الشخصية) أن يرضى هذه الرغبات المتعارضة، فإن الأساليب أو الحيل التى يلجأ إليها تتسم بالمرونة والخديعة والالتواء، حتى ترضى هذه الرغبات المتعارضة فى آن واحد، وبذلك يحقق الأنا القدر المطلوب منه لتحقيق توفيق الشخصية وتوافقها، واستمرارها ناجحة فى محيطها الاجتماعى.

حيل التوافق Adjustment Mechanisms

أما حيل التوافق التى يلجأ إليها الأنا (والمعروفة أيضاً بأساليب التوافق) فهى كثيرة، ويمكن أن نذكر من أهمها:

١ - القمع Suppression:

عملية يقوم فيها الأنا بتأجيل إشباع الدافع أو التعبير عنه إلى أن تتهيأ الظروف المناسبة لهذا الإشباع أو التعبير. فلو عدنا إلى المثال السابق عن نشاط دافع الجوع لدى فرد يسير فى الشارع ولا يملك نقوداً لشراء ما يشبع جوعه، فإن أناه فى هذه الحالة يقوم بعملية قمع لدافع الجوع حتى يذهب إلى منزله فيشبع جوعه؛ حيث تكون الظروف الواقعية فى هذه الحالة مهيئة لهذا الإشباع. وكما يحدث لمرءوس يكتم غيظه من رئيسه طالما كان فى

حضرته، حتى إذا انصرف من أمامه كال له أقبح الشتائم الممزوجة بأشد الإهانات وأسوأ التجريح.

إذن، فالقمع هو عملية استبعاد مؤقت للإشباع إلى حين أن تتهيأ الظروف المناسبة لهذا الإشباع، مع علم الأنا ووعيه التام بأنه يقوم بهذه العملية ويسيطر عليها. وبمعنى آخر، فإن القمع عملية شعورية؛ نمارسها جميعاً فى مواقف الحياة.

٢ – الكبت Repression:

هو عملية يقوم فيها الأنا باستبعاد الدافع أو الذكريات أو الأفكار من منطقة الشعور إلى منطقة اللاشعور. وعند ذلك، لاتعود الدوافع أو الذكريات أو الأفكار محسوسة يشعر بها الفرد، بل تصبح لاشعورية. غير أن هذه الدوافع لاتموت بانتقالها إلى اللاشعور، بل تظل حية نشطة تعمل على ولوج منطقة الشعور مرة أخرى، إلا أن قوى المقاومة والكبت تظل حائلاً بينها وبين أن تصبح شعورية. فتضطر هذه الدوافع بعد أن تصبح لاشعورية إلى التماس الإشباع بغير الطريق الصريح المباشر، فتشبع نفسها فى هفوة أو حلم أو مرض نفسى... إشباعاً محرفاً مُقَنَّعاً.

والأنا يقوم بعملية الكبت دون أن يشعر؛ أى يقوم بها على مستوى لاشعورى. وكأن الكبت هنا هو المقابل اللاشعورى لعملية القمع، حيث الكبت يصبح تجاهلاً لاشعورياً للواقع. ويقوم الكبت بالدور الرئيسى فى نسياننا لرغباتنا وذكرياتنا وأفكارنا فى الطفولة الأولى، بحيث لانعود نحس أو نتذكر غالبيتها.

٣ – النقل Displacement:

وهو عملية يقوم فيها الأنا بنقل دافع أو رغبة مرتبطة بموضوع معين إلى موضوع آخر. فقد يكون الشخص راغباً فى إشباع جوعه عن طريق تناول طعام معين يجدُّ فى البحث عنه فلا يجده. فيضطر إلى نقل هذه الرغبة إلى نوع آخر متوافر من الطعام يتناوله

لإزالة الجوع. كما نرى -مصداقاً لذلك- أن الشخص الذى عنفه رئيسه ولم يستطع أن يرد عليه بما يكفل إشباع رغبته في الاعتداء على هذا الرئيس خوفًا منه؛ يعتدى على أول شخص يقابله دون أن يكون مستحقًا لهذا العدوان. فكل ما حدث أن العدوان الذى كان ينبغى أن يوجه -أصلاً- إلى رئيسه نقل إلى شخص آخر لاستحالة توجيهه لرئيسه. وهكذا، قد يصب الزوج المهان فى عمله جام غضبه على زوجته وأولاده دون ذنب جنوه، إلا رغبة الزوج فى تصريف دافع العدوان الذى استثير لديه. ويقوم الأنا بعملية النقل هذه غالباً على مستوى لا شعورى كما فى الهفوات والأحلام والأمراض النفسية، وأحياناً أخرى على مستوى شعورى، كما فى الأمثلة السابقة عندما يتنبه إلى حالته.

٤ - التسامى Sublimation:

التسامى إحدى العمليات التى يلجأ إليها الأنا فى حله للصراع، وذلك بأن يقوم بتحويل طاقة دافع من موضوع أصلى تريد أن تنطلق إليه إلى موضوع آخر بديل مقبول اجتماعياً. وهذه العملية تتم أساسًا على مستوى لا شعورى، على نحو ما يحدث لدى المراهقين من تحويل طاقة الدافع الجنسى القوية إلى موضوعات لا يعارضها المجتمع، بل يحبذها؛ كالرياضة والفن والخدمات الاجتماعية والإنهماك فى الدراسة. وهكذا، تستغل الطاقة الموجهة أساساً إلى الجنس لتستثمر فى نشاط مقبول ومحبذ اجتماعياً كبديل لهدفها الأصلى المرفوض اجتماعياً، والمتمثل فى الإشباع الجنسى المباشر والذى يحرمه المجتمع والضمير ما لم يكن بالطريق المشروع.

وكما يحدث التسامى بطاقة الدافع الجنسى، فإنه يحدث -أيضاً- بطاقة الدافع العدوانى؛ فبدلاً من أن تنصرف طاقة الدافع العدوانى نحو الاعتداء أو التدمير المرفوض اجتماعيًا يتسامى بها الأنا فيصرفها فى الرياضات العنيفة؛ كما فى الملاكمة والمصارعة وغيرها من أوجه النشاط المقبولة، بل والمحبذة اجتماعيًا. وعملية التسامى تتم على المستوى اللاشعورى أحياناً والشعورى فى أحيان أخرى.

٥ – الإسقاط Projection:

عملية يلجأ إليها الأنا فى حله للصراع الدائر فى الشخصية حول دافع معين بأن يتخلص من هذا الدافع برميه على شخص آخر أو أى شيء خارجي. وبهذا، ترى الشخصية فى هذا الشخص أو الشيء الخارجي دوافعها هى، واتجاهاتها هى، وخصائصها هى، دون أن تفطن إلى أنها دوافعها الشخصية واتجاهاتها الذاتية؛ مثال ذلك أن يسقط البخيل دافع البخل على الآخرين فيصفهم ظلماً بالبخل الشديد دون أن يفطن إلى أن البخل جزء من نفسه هو وليس من الآخرين.

وهكذا، فنحن نميل إلى أن نسقط دوافعنا وأحاسيسنا وميولنا، التى نستنكف من الاعتراف بها،على غيرنا من الأشخاص والأشياء، بحيث نراها ملتصقة بهم بعيدة عنا. تماماً، كما يعتقد مريض الجنون أنه عاقل وأن الآخرين هم المجانين حقاً وليس هو. ونحن حين نكره أحداً كثيراً ما نسقط كراهيتنا عليه فنرى أنه هو الذى يكرهنا ولسنا نحن الذين نكرهه، خاصة أن دافع الكراهية غير محبذ اجتماعياً، فنتخلص منه بنسبته إلى الغير ونفيه عنا، حتى لانصغر أمام أنفسنا.

والإسقاط يحدث على مستوى لا شعورى دون أن تفطن الشخصية إلى أنها تقوم بعملية إسقاط. وهو لا يشمل –فقط– الدوافع والاتجاهات والخصائص المرفوضة اجتماعياً، بل ويعم غير المرفوضة –أيضاً– من الدوافع والاتجاهات التى نريد إشباعها والاعتراف بها. فالجائع غالباً ما يدرك الصور الغامضة على أنها صور لألوان شهية من الأطعمة، والشخص الذى يحس السعادة غالباً ما يدرك الآخرين على أنهم سعداء، وهكذا..؛ ولعل هذا يذكرنا بالمثل السائر: كل إناء ينضح بما فيه.

٦ – التوحد Identification:

لكى نفهم المقصود بعملية التوحد لابد من أن نحدد المقصود بعملية المحاكاة أو التقليد Imitation. فهذه العملية الأخيرة يقوم فيها الشخص بوعى وبقصد منه بتقليد

ومحاكاة شخص آخر فى حركاته وتفكيره ونشاطه عموماً. وعملية المحاكاة هذه مؤقتة، بحيث يعود المقلد إلى شخصيته الأصلية بعد انتهاء عملية المحاكاة، تماماً كما يقوم الممثل بتقليد نابليون فى حركاته وتفكيره وعاداته طوال اعتلائه خشبة المسرح حتى إذا انتهى من روايته عاد الممثل سيرته الأولى، وفى موسم مسرحى تالٍ يمثل شخصية أخرى... إذن، فهو يضع نفسه بشكل شعورى وضعاً مؤقتاً مكان الشخصية التى يمثلها.

أما التوحد فهو عملية تلجأ إليها الشخصية بشكل لا شعورى فتتمثل بهذه العملية وتستدمج اتجاهات ودوافع وسمات شخص آخر، بحيث تصبح اتجاهات ودوافع وسمات أصلية لها تضرب جذورها فى أعماق بنائها الأساسى. وهكذا، فإن التغير الذى يحدث فى الشخصية نتيجة عملية التوحد لا يكون مقصوداً ولا مؤقتًا ولا مفتعلاً كالذى يحدث فى عملية المحاكاة، بل يكون غير مقصود، وعميقاً فى تأثيره، ومستمراً إلى حد بعيد.

وعلى هذا، فالابن يتوحد بأبيه ولا يقلده، والبنت تتوحد بأمها ولا تقلدها، كما أن الشخص يتوحد بالشخصيات التى يرى فيها مثله العليا. وفى حالة التوحد هذه، يكون النجاح الذى يحدث لمن نتوحد به نجاحًا لنا نحن، ويكون إشباع دوافع من نتوحد بهم إشباعاً خاصاً لدوافعنا نحن، كما يكون الإحباط Frustration الذى تلاقيه دوافعهم، (أو ما يعرف بحرمان دوافعهم من الإشباع) إحباطاً خاصاً لنا نحن. وهكذا، نسعد لسعادتهم ونتلذذ من إشباع دوافعهم، كما نحزن لحزنهم ونيأس ليأسهم.

ومن أنواع التوحد ذلك التوحد الذى يقوم به الأب لابنه، فإذا بالأب يتوحد بابنه، تماماً كما أن الابن يتوحد بأبيه. ويتمثل توحد الأب بابنه، فى رغبة الأب أن يكون الابن استمراراً واقعياً لأبيه، فيدفعه إلى تحقيق ما فشل هو فى تحقيقه، فالأب الذى فشل فى تخصص دراسى أو مهنى معين قد يدفع ابنه إلى نفس التخصص، ويحاول تهيئة كافة الظروف لنجاحه فيه، ذلك أن تحقيق نجاح الابن هو تحقيق لنجاح الأب الذى يعتبر الابن امتداداً له نتيجة لتوحده به، وكأنهما الاثنين كائن واحد. كما أن الابن –من جانب آخر– يتوحد بأبيه، وعن طريق هذا التوحد تنمو خصائصه وسماته وتنضج كما هى

بالنسبة لأبيه، وكذلك تتوحد البنت بأمها وهى تلعب بعرائسها وتعتنى بها.. إلخ.

وهكذا، فإننا نميل لأن نتوحد بمن يشبع دوافعنا ويحقق ميولنا، كنوع من إشباع وإرضاء هذه الدوافع التى قد تكون محبطة فى الواقع. ويعتبر استمتاعنا بما يحصل عليه أبطال الروايات التى نشاهدها أو نقرؤها من إشباع لحاجتهم عائداً إلى عملية التوحد التى تتم بيننا وبينهم، فلا عجب أن نجد بين المشاهدين من ينغمر سعادة لما يلاقيه البطل من نجاح، أو ينفجر باكياً لما يلاقيه البطل من مآس وآلام.

٧ – التحول Conversion:

عملية يلجأ فيها الفرد إلى حل صراعه النفسى عن طريق تحويله إلى حل يبدو فى عرض جسمى. وكأن الفرد هنا بدلاً من أن يعبر عن صراعاته الشخصية تعبيراً نفسياً خالصاً حوله إلى تعبير جسمى. وتتم هذه العملية على مستوى لا شعورى. ونجد هذه العملية أوضح ما تكون فى الهستيريا التحولية؛ كالشلل الهستيرى للذراع مثلاً؛ إذ فى هذه الحالة لا توجد بالذراع ولا بمراكزه بالمخ ولا بوصلاته العصبية أية إصابات عضوية يمكن ملاحظتها، أو تشخيصها طبياً، ومع هذا يكون الذراع مشلولاً. وتفسير ذلك أن الصراع النفسى الذى يهدف إلى منع الذراع من عمل شىء معين وإعاقته عن الحركة قد تحول إلى عرض جسمى تمثل فى الكف الفعلى لوظيفة الذراع فلا يعود المريض يقوى على تحريك ذراعه. ويفشل العلاج الجسمى فى علاج المريض، ولا ينجح إلا العلاج النفسى، حيث يعالج الصراع النفسى الذى أدى إلى هذا الشلل، فيسترجع الذراع بذلك قدرته على الحركة وممارسة وظائفه.

٨ – التكوين العكسى Reaction - Formation:

المقصود بهذه العملية تكوين سمة شخصية مضادة لدافع أو لميل غير مرغوب فيه يوجد دفيناً فى الشخص، بحيث يطرأ تغير جوهرى على هذا الدافع أو الميل يقلبه إلى الضد تماماً فى شعور الشخص إمعاناً فى قهره. وفى هذه الحالة، يكون شعور الشخص مضاداً تماماً لما هو موجود بلاشعوره. من أمثلة ذلك؛ التقزز الشديد من لبن الأم لدى الكبير كتكوين

عكسى لرغبتـه اللاشعورية الشديدة فيه والمكبوتة منذ طفولته الأولى، حيث كان لبن الأم أفضـل شـىء يحصـل عليه الرضيع من العالم الخارجى. ومن أمثلة ذلك -أيضًا- عدم الاشتهاء الجنسى للمحارم عند الكبار كتكوين عكسى لاشتهائهم فى الطفولة الأولى، والشفقة المفرطة كـتكوين عكسى للرغبـة الجامحة فى القسوة والاعتداء، وهكذا تتحـول الكراهية الشديدة والغيرة بين الإخوة فى طفولتهم الأولى إلى حب شديد. يتمثل فى قول الصديق لصديقـه أنا أحبك أكثر من أخى. لكن يمكن للعداوة اللاشعورية المدفونة بين الإخوة أن تنتهز فرصة خلاف على أشياء بسيطة لتظهر فى الشعور عداء واقعيا بين الإخـوة... أو وهمياً كما فى الأمراض النفسية...

ويلاحظ أن الرغبـات أو الميول أو الدوافع التى يعالجـها الأنا باستـخدام عمليـة التكوين العكسى هى الرغبات والميول والدوافع المنبوذة اجتماعيًا والتى يقاومـها الضمير، فيضطر الأنا إلى عكسها إرضاءً للمجتمع وتمشياً مع قيم الضمير والأنا الأعلى. ومن الجدير بالذكر أن عـمليـة التكـوين العكسى هذه تتم كـاملة على المسـتوى اللاشـعـورى بحـيث لايدرى الشخص أنه يقوم بهـذه العملية، كمـا أنه -أيضًا- لا يعود يشعـر بالرغبـات أو الميول أو الدوافـع الأصليـة والتى عـولجـت بتكوين عكسهـا، وظهـوره علـى السطـح غطـاءً للـدفين المكبوت.

٩ – التبرير Rationalization:

عمليـة لا شعوريـة يلجأ إليهـا الفـرد (أو الأنا) ليبرر ويسـوغ سلوك الشخصية أوميولها أو دوافعها التى لا تلقى قبولاً من المجتمع أو الغير أو الأنا الأعلى، بحيث يقدم الأنا -فى هذه الحالة- أسباباً وجيهة يقتنع الشخص على المستوى الشعورى بهـا، ويحـاول إقناع الغير -أيضاً- حتى لا يلام على ذلك. تماماً، كالتلميذ الذى رسب فى مادة دراسية فيبرر ذلك بأن المدرس تعمد ذلك لخلاف شخصى بينهما، ويكون التلميذ ذاته مقتنعاً بذلك التبرير. وعملية التبرير هنا تؤدى للشخـصية فوائد كبيرة، حيث تحفظ للشخص ثقته وتقديـره لكفايتـه ولنزاهـة دوافعـه ومـيولـه وسلوكـه، كمـا ترفع قـيمتـه فى نظـر الآخرين، أو علـى الأقل

تحافظ عليها.

وفى المثل الشعبى القائل حبيبك يمضغ لك الزلط وعدوك يتمنى لك الغلط ما يمكن أن يلخص جوهر عملية التبرير، ويؤكد كثرة لجوء الشخصية إليها. فالحبيب هنا يبرر كافة سلوك المحبوب بحيث يصبح مقبولاً حتى ولو كان مرفوضاً، وهذا تبرير لعملية الحب ذاتها. أما العدو فيفسر كل شيء من جانب عدوه على أنه خطأ وضار وعدائى مهما كان صواباً، وذلك لكى يبرر العدو سر عدواته لعدوه، حتى تصبح عملية العداء هذه عملية مقبولة لاينظر المجتمع إليها على أنها مشوبة بالتجنى والافتراء. وهكذا، تبرر الشخصية لنفسها وللمجتمع عمليات الحب والعداء فى نفس الوقت.

على أن هذا التبرير كعملية يلجأ إليها الأنا فى حل الصراعات التى تدور فى الشخصية، ويواجه بها دوافعها، إنما تتم على المستوى اللاشعورى بحيث لا تعود الشخصية تدرك أنها تقوم بعملية تبرير، وتكون الشخصية صادقة فى اقتناعها بما تقدمه من أسباب تبريرية لسلوكها أو دوافعها أو ميولها. وهذا -بطبيعة الحال- يختلف عن عملية التمويه والخداع والغش والكذب التى يلجأ إليها الشخص شعورياً ليقنع غيره بعذر أو سبب ملفق يبرر به سلوكه. ففى حالة التمويه هذه يكون الشخص واعياً تماماً أنه يقدم تبريرات ملفقة وأعذاراً كاذبة؛ وخير مثال على ذلك الشخص الذى يضرب موعداً لآخر دون نية الوفاء به، وبعد انقضاء الموعد وعدم الوفاء به يبرر ذلك لزميله بأنه قد انتابه مرض مفاجئ أقعده عن الوفاء بوعده، مع علمه تماماً بأنه عذر ملفق يبديه ليتفادى به الحرج فى مواجهة هذا الزميل.

١٠ – النكوص Regression:

يقصد بالنكوص عودة الشخصية إلى أشكال وأنماط من السلوك والإشباع النفسى لدوافعها لاتتفق مع مرحلة النمو التى وصلت إليها، فتصبح -على سبيل المثال- كالشخص الراشد الذى ينطق الكلام بطريقة طفلية.

وهكذا، يؤدى النكوص بالشخصية لأن يصبح سلوكها غريباً؛ غير متفق مع مستواها فى النضج أو مستواها الاجتماعى... وتلجأ الشخصية إلى عملية النكوص هذه إذا استحالت إمكانية إشباع دوافعها فى الوقت الراهن بالطريقة السوية، سواء بسبب تقييد تضعه الشخصية على نفسها يمنعها من الإشباع السوى، أو بسبب قيود الواقع التى تحول دون تهيئة الظروف المناسبة لهذا النوع من الرشباع. ومن أمثلة ذلك لجوء الراشد إلى العبث بأعضائه التناسلية إشباعًا لدوافعه الجنسية عندما يستحيل عليه الإشباع الجنسى السوى مع فرد من الجنس الآخر، وهذا العبث بالأعضاء التناسلية يعتبر طريقة طفلية للإشباع الجنسى سبق للراشد أن تخطاها أثناء مراحل نموه السوى نحو الرشد. ولهذا، فإن عملية النكوص تلعب دوراً أساسياً فى كافة الأمراض والانحرافات النفسية، حيث نجد الشخصية التى بلغت سن الرشد، وقد تراجعت إلى دوافع وأساليب إشباع غير ناضجة لم تعد تتفق وما وصلت إلى الشخصية من نضج جسمى وسن ومستوى اجتماعى وثقافى... ولذا، تضطر الشخصية -فى كثيرمن حالات نكوصها- إلى تحريف دوافعها وأساليبها الطفلية حتى تموهها على الآخرين وعلى الذات؛ وهذا ما يجعل أعراض الأمراض النفسية شاذة غير مفهومة، وكثيراً من الأحلام مستغلقة على الفهم والتفسير. وعملية النكوص هذه تتم غالبًا على مستوى لا شعورى، وفى بعض الأحيان على المستوى الشعورى.

١١ - الاستدماج Introjection:

عملية تتمثل فى أن يقوم الفرد باستدماج الموضوعات التى يهتم بها فى داخل ذاته؛ بحيث تصبح جزءاً من ذاته. تماماً كما يستدمج الرضيع لبن الأم ويتمثله فيصبح بعد ذلك جزءاً من ذاته. وكأن الفرد يمتص موضوعات العالم الخارجى ويدخلها، أو يبتلعها فى ذاته. وطالما ابتعلت الموضوعات التى يهتم بها الفرد فأصبحت داخل ذاته فإنه يستطيع أن يوجه عندئذ اهتماماته ودوافعه التى كانت موجهة أصلاً إلى موضوعات فى العالم الخارجى إلى ذاته هو، حيث أصبحت تلك الموضوعات جزءاً من ذاته (أى جزءاً من عالمه الداخلى). وهذا يساعد الفرد على أن ينفصل عن العالم الخارجى ويتمركز حول ذاته، يوجه

إليها اهتماماته؛ ويجد فيها إشباعاته؛ فيستعيض بها عن العالم الخارجى المحيط بحالة أشبه ما تكون بالاكتفاء الذاتى. ويلاحظ أن هذه العملية فى جوهرها مقابلة لعملية الإسقاط. وتتم على المستوى اللاشعورى تماماً.

١٢ – التعويض Compensation:

وهى حيلة تلجأ إليها الشخصية أحياناً بشكل شعورى وأحياناً على مستوى لاشعورى، وأحياناً ثالثة تجمع بينهما؛ حين تحس نقصاً فى جانب بتقوية جانب آخر للتغلب على هذا النقص أو التعويض عنه. أو حين تحس الحرمان من نوع معين من الإشباع فتفرط فى نوع آخر من الإشباع، لكى تعوض باللذة المتاحة وتقهر ألم الحرمان من الإشباع المستعصى. وغالباً تمعن الشخصية فى استخدام حيلة التعويض هذه وتشتد فى نشاطها فيتحول الأمر إلى ما يعرف بالتعويض الزائد Over-Compensation، والذى جعله أدلر Adler محور نظريته على نحو ما سنرى فيما بعد عن نظريات الشخصية.

وعلى هذا، ربما نجد من فشل فى تعليمه وقد انخرط فى دوامة من النشاط والأساليب جلبت له كماً هائلاً من المال يُكسبه الإحساس بالقوة التى حرمه الفشل فى التعليم منها. كما قد نجد الضعيف فى عضو من أعضائه الجسمية، قد اندفع فى أنشطة واهتمامات تقوى لديه –بشكل كبير– عضواً غيره من أعضاء جسمه، بحيث تغطى قوة العضو الأخير إحساس الضعف والعجز المتسبب عن قصور العضو العاجز. وتلخص الحكمة الشعبية القائلة كل ذى عاهة جبار فكرة التعويض الزائد هذه. وهناك أمثلة كثيرة من الواقع تؤيد ذلك. فالشخص يحب أن يثبت ذاته ويؤكدها فى مواجهة الآخرين، وكأنه يقول لنفسه ولهم «لئن كنت قد حُرمت من كذا؛ إلاَّ أنى عُوِّضت بهذا... ولئن كنتم أفضل منى فى كذا؛ فإنى أفضل منكم فى هذا....» وفى كل ذلك تعزية له وسلوى، ورد اعتبار لذاته، وعلاج لجراحه.

١٣ – الأحلام Dreams:

تعتبر الأحلام إحدى الوسائل الأساسية التى يلجأ إليها الشخص لإشباع دوافعه التى تلح

على طلب الإشباع، خاصة إذا كان هذا الإشباع مستحيلاً فى عالم الواقع. ففى الأحلام، يرى الفرد دوافعه وقد تحققت فى صورة حدث يتم أو خبرة يعيشها فى الحلم. والمثل الشعبى القائل الجعان يحلم بسوق العيش خير تعبير عن هذه الحقيقة العلمية، بل إنه قد سبق إلى اكتشافها وتسجيلها. ويصدق هذا على أحلام اليقظة Day Dreams، كما يصدق على أحلام النوم Dreams. ففى أحلام اليقظة، يستسلم الفرد لتخييلات يرى فيها نفسه وهو يحقق آماله ويشبع دوافعه ويتخطى العقبات التى تحول دون ذلك. وهكذا، يحلم الفقير بفوزه بجائزة مالية ضخمة، ويتخيل نفسه وقد تسلمها، ثم ذهب إلى هنا وهناك لشراء ما يلزمه وتحقيق ما يريده من هذا المال، كما يحلم الفاشل بالنجاح، ويحلم الموتور من خصمه بفوزه عليه وبأضرار تلحقه، وهكذا...

أما أحلام النوم فغالبًا ما تكون الرغبات فيها مموهة مخفاة، بحيث لا يعى الحالم نفسه ودوافعه التى تشبعها؛ وذلك لأن العمليات والحيل، التى يلجأ إليها النائم فى تكوين الحلم لإشباع دوافعه، هى عمليات وحيل من طبيعة خاصة تميز اللاشعور عن الشعور فيما يستخدم من منطق وحيل. ولهذا، فإن الكثير من أحلام النوم تبدو ممسوخة خلواً من المعنى والمنطق كتفكير المجانين ومنطقهم؛ بعكس أحلام اليقظة. ويرجع ذلك إلى أن حالة النوم تعطى فرصة أكبر للاشعور الفرد ليعبِّر عن نفسه ويشبع دوافعه ويخرج مخزونه طالما أن الأمر لن يزيد عن كونه هلاوس تخييلية وليس واقعًا فعليًا فقد يضر به أو بغيره، أو يعرضه لمساءلة قانونية أو اجتماعية. لهذا، فإن ذاكرتنا فى النوم أقوى من ذاكرتنا فى اليقظة؛ ففى أحلام النوم نتذكر بوضوح الكثير من الأحداث والشخصيات المنسية فى حالة اليقظة. ولما كنا فى أحلام اليقظة أقرب إلى الشعور، بينما كنا فى أحلام النوم أقرب إلى اللاشعور، فإن أحلام اليقظة تكون أكثر استخدامًا لأساليب التفكير والمنطق الشعورى المتحضر، بينما تكون أحلام النوم أكثر استخدامًا لأساليب التفكير اللاشعورى ومنطقه البدائى. ومن هنا، يصعب تفسير أحلام النوم؛ لأننا غير متعودين على التفكير والمنطق اللاشعورى. وينجح التحليل النفسى وحده فى تفسير أحلام النوم وكشف ما يتحقق فيها من دوافع تشبعها هذه الأحلام. وينبغى أن نضيف أن أحلام النوم لاتنتج -فقط- عن دوافع لا

شعورية، بل فيها الكثيرمن الدوافع الشعورية التى يعرفها الحالم جيداً. ومن هنا، كانت نسبة كبيرة من أحلام المراهق -سواء فى اليقظة أو النوم- من طبيعة جنسية، لشدة الدافع الجنسى لديه، وحرمانه غالباً من الإشباع الواقعى له.

ملاحظات عامة علي حيل التوافق:

وينبغى أن نختتم عرضنا السابق هذا لأساليب التوافق بأربع ملاحظات عامة وهامة:

١ - أننا جميعاً -سواء أكنا أسوياء أم مرضى نفسيين- نلجأ إلى جميع هذه الحيل والأساليب ونستخدمها جميعاً ولا تستقيم الحياة إلا باستخدامنا لها؛ لكن، الذى يفرق بين استخدام الأسوياء لها واستخدام المرضى هو الاستخدام المعتدل والمناسب لها؛ بحيث يؤدى إلى تحقيق توافق الشخصية ونجاحها فى التعايش مع المجتمع والواقع؛ أو الاستخدام السيئ لها؛ بحيث يؤدى إلى فشل الفرد فى تحقيق التوافق والتوفيق فى علاقاته مع الواقع والمجتمع. فمرضى الاكتئاب -مثلاً- يسرفون فى استخدام أسلوب الاستدماج، بحيث يؤدى إلى سوء توافقهم، ومرضى الهذاء -مثلاً- يسرفون فى استخدام أسلوب الإسقاط حتى يؤدى بهم إلى سوء التوافق.

٢ - أن الشخص فى مواجهة دافع واحد قد يستخدم أكثر من حيلة أو أسلوب من هذه الأساليب والحيل. ففى مواجهة الشخص لدافع حب محرم نحو آخر قد يلجأ إلى إسقاط هذا الدافع عليه، فإذا بالمحبوب هو الذى يحب الشخص؛ وليس الشخص هوالذى يحب المحبوب. كما قد يلجأ الشخص -أيضًا- فى نفس الوقت إلى أسلوب التكوين العكسى لدافع الحب هذا نحو الآخر. وبهذا، يصبح الموقف هكذا: الشخص يحس بكراهية نحو هذا الاخر، ويحس فى نفس الوقت بأن هذا الآخر يحبه. وهذا مظهر من مظاهر تعقد الحياة النفسية للإنسان، بحيث يعالج الإنسان دافعه الواحد بعدة طرق. فيصعب بذلك فهم السلوك.

٣ - أن الشخص كما يمكنه أن يلجأ إلى أكثر من حيلة أو أسلوب لإشباع أو مواجهة دافع واحد -على نحو ما رأينا فى الملاحظة السابقة -فإنه- أيضًا- كثيراً ما يلجأ إلى

أسلوب واحد أو حيلة واحدة لإشباع أو مواجهة أكثرمن دافع فى نفس الوقت. فكبت الشخص أو قمعه لدافع العدوان نحو رئيس قد يشبع عدة دوافع لديه؛ مثل إبعاد خوفه من عقاب الرئيس، ورغبته فى عدم تأخير الترقية، ورغبته فى إشباع حاجته للأمن، وهكذا... ولاشك أن هذا -أيضًا- مظهر -آخر- من مظاهر تعقد الحياة النفسية للإنسان. ومن هنا كانت الصعوبة التى تواجهنا فى تشخيص السلوك الإنسانى وتفسيره وعلاجه.

٤ - بعض هذه الحيل نقوم به، ونستخدمه بشكل شعورى فى أحيان قليلة، وبعضها نستخدمه بشكل لاشعورى فى أحيان كثيرة. وفى بعضها الآخر نمزج فى استخدامنا له بين المستويين ونجمع بينهما؛ فنعى أحياناً أنَّا نقوم به، ولا نعى فى أحيان أخرى؛ على نحو ما ذكرنا.

الفصل السادس :

الذكاء والقدرات الخاصة

من محددات سلوك الفرد الرئيسية جهازه العصبى (موضوع الفصل الرابع من هذا الكتاب)، ودوافع الفرد وحيل التوافق التى يلجأ إليها (موضوع الفصل السابق)، وذكاء الفرد وقدراته الخاصة (موضوع هذا الفصل)، حيث تتحدد كفاءة السلوك ونجاحه -إلى حد كبير- بمدى ذكاء الفرد وقدراته الخاصة، ولعل نجاح التلميذ ومدى تحصيله أوضح مثال على ذلك.

وينبغى -قبل أن نتقدم فى هذا الفصل- أن نعرِّف كلاً من القدرة والاستعداد والعامل العام والعامل الخاص والعامل الطائفى.

القدرة Ability:

تمثل القدرة إمكانية الفرد الحالية التى وصل إليها بالفعل -سواء أكان ذلك عن طريق نضجه أم نموه أم خبرته أم تعليمه أم تدريبه- على مزاولة نشاط ذهنى أو حسى أو حركى فى مجال معين. فلو قلنا -على سبيل المثال- إن فلاناً قدرته فى لغة معينة عالية فإن هذا يعنى أن لديه حالياً مهارة كبيرة فى فهم هذه اللغة وفى التعبير عن نفسه والتعامل بها.

الاستعداد Aptitude:

نقصد بالاستعداد تلك الخصائص الموجودة لدى الفرد حاليًا، والتى تمكننا من التنبؤ بمقدار أو كم القدرة التى يمكن أن يصل إليها فى مجال معين بعد إعطائه قدراً من التعليم والتدريب (كما فى المدارس والمعاهد والجامعات ومراكز التدريب المختصة)، أو بعد

حصوله على قدر من الخبرة (كتلك التى نتعرض لها فى حياتنا فى خبراتنا اليومية والمهنية). فلو قلنا إن فلاناً لديه استعداد طيب لتعلم لغة معينة، فإننا نقصد بذلك أن فلانًا هذا سوف يصل إلى قدرة عالية فى هذه اللغة إن توافر له التدريب والتعليم المناسبان فيها. ومن هنا، فإن الكليات والمعاهد العليا المختلفة تنظر إلى درجات الطالب فى الثانوية العامة على أنها تشير إلى مدى استعداده للنجاح والتفوق فى تحصيل علومها.

وهكذا نجد أن هناك فرقًا جوهريًا بين اللفظين (استعداد وقدرة). فبينما يمثل الاسعداد قدرة كامنة لم يتح لها الظهور بعد (كالاستعداد العالى لدى فرد لتعلم لغة معينة لم يعرف بعد منها حرفًا واحداً)، نجد أن القدرة تمثل إمكانية حالية ظاهرة فى الفرد. ففى المثال السابق، نجد أن الفرد لديه استعداد طيب لتعلم اللغة المعينة، بينما هو -فى حقيقة الأمر- منعدم القدرة فى هذه اللغة، حيث إنه لم يتعلمها بعد.ومن هنا، فإن امتحان الثانوية العامة يقيس استعداد الطالب للنجاح فى المعاهد العليا والكليات، ولا يقيس قدرته على النجاح فى تلك المعاهد والكليات. بينما هذا الامتحان نفسه يمكن النظر إليه على أنه يقيس قدرة الطالب التى وصل إليها فى المواد الدراسية فى المدرسة الثانوية. إذن، نفس الامتحان يعتبر من ناحية اختبار قدرة، ومن ناحية أخرى اختبار استعداد. وهكذا، نجد أن كافة الاختبارات النفسية تمثل استعدادات بالنسبة لخصائص الفرد فى المستقبل والتى نريد أن تنبئنا عنها تلك الاختبارات، وهى-أيضًا- تمثل قدرات راهنة على أنواع معينة من النشاط العقلى أو الحسى أو الحركى.

أما تسمية اختبار بأنه لقياس قدرة معينة؛ أو لقياس استعداد معين فسوف تعتمد على الهدف من استخدامه. فإن كنا نهدف منه إلى قياس إمكانية حالية لدى الفرد سميناه اختبار القدرة المعينة التى نريد قياسها؛ أما إن كنا نهدف منه إلى التنبؤ بما سوف يكون عليه الفرد مستقبلاً فى خاصية معينة سميناه اختبار استعداد لهذه الخاصية.

العامل العام والعامل الخاص والعامل الطائفي:

ويقصد بالعامل العام القدرة (أو الاستعداد) المشترك بين جميع أوجه النشاط الذى ندرسه أو تقوم الاختبارات والمقاييس التى نستخدمها فى بحثنا أو دراستنا بقياسه. فإن كنا على سبيل المثال نستهدف دراسة النشاط العقلى وقسمناه إلى أنشطة فرعية كالتذكر والتصور والمهارة اللغوية والقدرة العددية والاستعداد أو المهارة أو الفهم الميكانيكى... ووضعنا لكل واحد من هذه الأنشطة مقياسًا خاصًا فسوف نجد بالتحليل العاملى عاملاً عامًا General Factor تشترك فيه هذه الاختبارات جميعاً نسميه بالعامل العام «أى يشيع فى كل هذه المقاييس، ويتشبع به كل مقياس بدرجة مختلفة تناسب ارتباطه بالعامل العام، ويمكن فى هذه الحالة أن نطلق عليه الذكاء أو القدرة العقلية العامة. أما العامل الخاص (Special Factor) فإنه «لايتجاوز الإطار الذى يحدده له اختباره. فهو يدل على الناحية التى يتميز بها الاختبار عن جميع الاختبارات الأخرى» (عماد أحمد حسن: ٢٠١٠، ٦٩)؛ أى ما يقيسه الاختبار بصفة خاصة كالمهارة اللغوية مثلاً، أو القدرة العددية... أما العامل الطائفى Group Factor فإنه: «يدل على الصفة (أو الاستعداد أو القدرة أو الخاصية) المشتركة بين طائفة من الاختبارات بحيث لاتمتد هذه الصفة حتى تستغرق جميع الاختبارات فتصبح عامة، ولاتضيق فى نطاقها على اختبار واحد فتصبح خارجية». (المرجع السابق، ٧٠).

وهكذا -ومع التبسيط الشديد- لو كان عندنا خمسة اختبارات أو مقاييس على النحو التالى:

١ - اختبار لقواعد اللغة. ٢- اختبار لمفردات اللغة. ٣- اختبار للجمع. ٤- اختبار للقسمة. ٥- اختبار للمعلومات الميكانيكية؛ فإن العامل العام فيها سيكون القدرة العقلية العامة (أو النشاط العقلى العام-أو الذكاء). وسيوجد فيها عاملان طائفيان هما القدرة اللغوية، (وتجمع اختبار القواعد اللغوية واختبار المفردات)، والقدرة الحسابية (وتجمع اختبار الجمع واختبار القسمة)، وعامل خاص هو المعلومات الميكانيكة.

أولاً : الذكاء Intelligence

يعتبر «مفهوم الذكاء أقدم فى نشأته الأولى من علم النفس ومباحثه التجريبية. فقد نشأ فى إطار الفلسفة القديمة، ثم اهتمت بدراسته العلوم البيولوچية والفسيولوچية العصبية، واستقر أخيراً فى ميدانه السيكولوچى الصحيح الذى يدرسه كمظهر عقلى من مظاهر السلوك الذى يخضع للقياس العلمى الموضوعى. ومازالت آثار هذا الماضى الطويل تضفى طابعها الخاص على بعض المعانى الشائعة لمفهوم الذكاء. وعندما نجحت وسائل القياس العقلى، أعانت العلماء على تحديد المظاهر الرئيسية لهذا المفهوم، وبذلك تطورت معانى الذكاء حتى أصبحت فروضاً تهدف إلى رسم الإطار التمهيدى للأبحاث العقلية، ثم تعدل هذه الفروض أو تلغى لتستبدل بها فروض أخرى تبعاً لنتائج تلك الأبحاث. وهكذا، ينتهى بنا ذلك التطواف فى رحاب الزمان إلى تحديد المفهوم الحديث للذكاء تحديداً يقوم فى جوهره على أنه موهبة المواهب، وقدرة القدرات، والمحصلة العامة لجميع القدرات العقلية المعرفية». (فؤاد البهى السيد: ١٩٧٦، ١٨٥).

هذا؛ ويحدثنا محمد طه عن الأصول التاريخية للاهتمام بالذكاء فيقول: «يرجع الاهتمام بالذكاء والقدرات العقلية المختلفة إلى تاريخ موغل فى القدم. فقد استرعت الفروق بين الناس فى هذه الجوانب وانعكاساتها على مناحى السلوك المختلفة انتباه الناس. ويعود أول قياس للذكاء والقدرات إلى القرن الثانى قبل الميلاد على أيدى الصينين، وهو تاريخ يعود إلى حوالى ٢٠٠٠ عام قبل بزوغ المحاولات الغربية فى هذا المجال على يدى غالتون وبنيه. فقد أشار بومان إلى مجموعة من الاختبارات الموضوعية التى استخدمتها السلطات المحلية فى الأقاليم المختلفة فى الصين بتوجيه من الإمبراطور لاختيار أفضل المرشحين للوظائف المختلفة على المستويين المحلى والقومى. وهى اختبارات تقيس مختلف الاستعدادات بدءاً من مستوى القراءة والكتابة حتى جغرافية الإمبراطورية مروراً بمستوى مهارة القراءة والكتابة، والمهارة فى العمليات الحسابية، والمعرفة بالقانون.

«وفى الوقت نفسه تقريبًا قدم أفلاطون على لسان أستاذه سقراط، فى محاورة الجمهورية، نظرية حول القدرات العقلية. وتفترض هذه النظرية أنه يمكن تقسيم البشر إلى ثلاث فئات: الحكام–الفلاسفة وهم فى أعلى سلم القدرات العقلية، يليهم القادة العسكريون، ويأتى العمال والفلاحون فى أدنى السلم. وحسب هذه النظرية، فإن هذا التقسيم محدد وراثيًا، ويتحدد بشكل نهائى عند الميلاد وغير قابل للتغير كطبيعة المعادن. فالحكام مصنوعون من الذهب، والقادة مصنوعون من الفضة، أما العمال والفلاحون فمصنوعون من الحديد. كذلك ربط أرسطو بين الوظائف العقلية والمخ، وقدم تصوراً للذكاء يقوم على افتراض أنه يتكون من ثلاثة جوانب: الجانب الأول نظرى يتعلق بفهم الجوانب المجردة، أما الثانى فهو عملى يتصل بالمهارة فى الحياة العملية، وجانب إنتاجى يتعلق بالقدرة على الإبداع والابتكار.

«أما فى الحضارة العربية–الإسلامية، فربما كانت أكثر محاولات دراسة الذكاء مباشرة وعمومية هى دراسات ابن الجوزى (٥١٠هـ – ٥٩٧هـ/ ١١١٠م–١١٩٧م) عن الذكاء، وذلك فى كتابه عن «الأذكياء». وقد ناقش ابن الجوزى فى كتابه قضايا البيئة والوراثة والعلاقة بين التكوين الجسمى والذكاء وأثر المناخ فى الذكاء. إلا أن جانبين رئيسيين استأثرا باهتمام ابن الجوزى عند درساته للذكاء: الأول هو الذكاء اللفظى. وهو ما يتجلى فى الاهتمام بمعانى المفردات وإدراك الفروق الدقيقة بينها، وكيفية التلاعب بالألفاظ، والقدرة على معرفة المعنى الواحد باختلاف الكلمات المعبرة عنه. ومن ذلك ما أورده بسنده من حديث مالك، إذ قال: «جاء رجل إلى النبى» يستحمله (أى يطلب منه أن يحمله على دابة بغرض الغزو والجهاد) فقال إنى حاملك على ولد الناقة. قال يارسول الله وما أصنع بولد الناقة؟ قال: وهل تلد الإبل إلا النوق». أما الجانب الثانى الذى اهتم به ابن الجوزى فكان الذكاء العملى، أو قدرة حل المشكلات والتى تعتمد على إدراك المشكلة وسرعة الاستجابة لها. ومن ذلك ما أورده ابن الجوزى من رواية الأصمعى عن أبيه من أنه أتى عبد الملك بن مروان برجل كان مع بعض من خرج عليه فقال: اضربوا عنقه. فقال يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائى منك. قال: وما جزاؤك؟ قال: والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر إليك، وذلك أنى رجل مشؤوم ما كنت مع رجل

قط إلا غُلب وهُزم. وقد بان لك صحة ما أدعيت وكنت خيراً لك من مائة ألف معك. فضحك وخلى سبيله». وربما يمكن فهم تركيز ابن الجوزى على هذين الجانبين –أى المفردات وحل المشكلات– عند دراسة الذكاء فى ضوء أهمية اللغة فى حياة العرب قبل الإسلام وبعده، وفى ضوء أهمية حل المشكلات التى تواجههم سواء فى بيئتهم الأصلية القاسية أو فى البلاد الجديدة التى فتحوها بعد الإسلام». (محمد طه: ٢٠٠٦، ١٦-١٧).

وقد «أشار بيرت Burt إلى أن مصطلح الذكاء Intelligence يرجع إلى الكلمة اللاتينية Inteligentia، والتى ابتكرها الفيلسوف الرومانى شيشرون (سليمان الخضرى الشيخ: ١٩٧٨، ٥٢). كما أشار سبيرمان إلى أن الفضل فى إدخال مصطلح (الذكاء) فى علم النفس الحديث يرجع إلى هربرت سبنسر Spencer فى أواخر القرن التاسع عشر. فقد حدد سبنسر الحياة بأنها (التكيف المستمر للعلاقات الداخلية مع العلاقات الخارجية). ويتم التكيف لدى الحيوانات الدنيا بفضل الغرائز، أما لدى الإنسان فإنه يتحقق بواسطة الذكاء. وبهذا، يرى سبنسر أن الوظيفة الرئيسية للذكاء هى تمكين الإنسان من التكيف الصحيح مع بيئته المعقدة، والدائمة التغير» (المرجع السابق، ٥٣).

وبصفة عامة، فإن علم النفس الحديث يعنى بذكاء الشخص إمكانيته العقلية العامة التى تكمن وتؤثر بدرجات متفاوتة فى مختلف جوانب نشاطه العقلى. وفى ضوء المناقشة السابقة عن الاستعداد والقدرة، فإننا يمكننا النظر إلى الذكاء على أنه استعداد عقلى عام أو قدرة عقلية عامة حسب الهدف من الدراسة. فإن كنا ندرس ذكاء فرد بهدف تحديد مستواه العقلى العام فى الوقت الراهن سميناه قدرة عقلية عامة، وإن كنا ندرسه بهدف التنبؤ بما سوف تكون عليه قدرته العقلية العامة فى المستقبل سميناه استعداداً عقلياً عاماً. فمقدار ذكاء طفل فى العاشرة من عمره يمكن أن نسميه قدرته العقلية العامة إذا كنا نريد أن نحدد به قدرته الحالية على مزاولة النشاط العقلى، وفى نفس الوقت يمكن أن نسميه استعداده العقلى العام إذا كنا نريد أن نتنبأ عن طريق كم ذكائه الحالى بما سوف يكون عليه ذكاؤه فى سن الخامسة عشرة على سبيل المثال، أو بما سوف يكون فى إمكانه مزاولته من نشاط عقلى بعد فترة معينة.

هذا، ويتضح ذكاء الفرد أكثر ما يكون فيما يلى:

١ - حدة الفهم وسرعته ودقته وصوابه. «الإدراك الشامل، والإحاطة الكاملة القائمة على فهم قضية أو موقف معين. ويتمثل الفهم فى قدرة الفرد على معرفة العلاقات والوظائف المترتبة عليها. فالفهم عملية عقلية أكبر من مجرد التعرف على شىء، أو تحصيل معلومات حوله؛ بل إنه يعنى التمثل والإستيعاب للتفاصيل، وبالمقدار الذى يجعل الفرد قادراً على المشاركة بالرأى، وقادراً على المعالجة والإسهام حيث يتطلب الأمر ذلك». (شاكر قنديل: ١٩٩٣، ٦٠٣).

٢ - القدرة على التعلم، كالتحصيل الدراسى فى المدرسة أو المعهد أو الجامعة.

٣ - القدرة على معالجة المواقف الجديدة التى تتعرض لها الشخصية بمهارة ونجاح.

٤ - القدرة على إدراك العلاقات المجردة بين الأشياء، أو الموضوعات، أو الظروف، أو الأسباب، أو العوامل المختلفة.

٥ - القدرة على التعامل بالرموز والمجردات.

٦ - القدرة على الاستفادة من الخبرات الماضية فى مواجهة المواقف والظروف والمشكلات الحالية، والتعامل معها بنجاح.

٧ - القدرة على إنجاز أعمال وواجبات تتميز بالصعوبة والتعقيد.

٨ - القدرة على الإبداع والابتكار وإظهار الأصالة أثناء قيام الفرد بأوجه نشاطه المختلفة.

ويستمتع كل فرد بدرجة ما من الذكاء (أو بقدر ما من الذكاء) كبرت هذه الدرجة أم صغرت. فكما أن لكل منا طولاً معيناً فإن له -أيضًا- ذكاءً معيناً. وهكذا، لايوجد فرد معدوم الذكاء، مهما بدا غبيًا، فحتى ضعاف العقول لهم ذكاء ولكنه منخفض فى درجته، ومتدن فى مقداره. وكثيراً ما يعبر عن ذكاء الفرد بنسبة ذكائه Intelligence Quotient وتعرف كثيراً باختصارها الأجنبى "I.Q". وهذه النسبة تكون متوسطة عندما تكون قريبة من الـ١٠٠. وكلما زادت عن ذلك كان الفرد أكثر ذكاءً حتى تصل إلى ١٤٠ فما فوقها، عندئذ يعد الفرد عبقرياً. وكلما انخفضت عن الـ١٠٠ كان الفرد قليل الذكاء حتى تصل إلى الستين وما دونها، عندئذ يعد الفرد ضعيفاً عقلياً.

وتحسب نسبة ذكاء الفرد عن طريق قسمة عمره العقلى (كما تظهره اختبارات الذكاء ومقاييسه التى نطبقها عليه) على عمره الزمنى (أى سنه التى وصل إليها – حسب تاريخ مولده– مع اعتبار حده الأقصى ١٥ عاماً، والتغاضى عما زاد عن ذلك) مع ضرب الناتج فى مائة.

ومع أن ذكاء الفرد –عادة– يظل ينمو حتى الخامسة عشرة أو ما بعدها بقليل، شأنه شأن خصائص كثيرة كالطول والوزن، إلا أن نسبة ذكائه ثابتة –عادة– أو تكاد؛ نظراً لأن النسبة تحسب –كما ذكرنا سابقًا– عن طريق المقارنة بالسن؛ أى بأقرانه من نفس السن. وهكذا، فالطفل الذكى فى سن العاشرة هو عادة الذكى فى سن الرشد، وضعيف العقل فى سن السابعة هو نفسه ضعيف العقل فى سن الرشد إلا ما ندر من حالات لا حكم لها، وتعتبر الاستثناء الذى يؤكد القاعدة. ويرجع ذلك –فى جزء كبير منه– إلى أن الذكاء أكثر تأثراً بالوراثة عنه بالبيئة؛ فالآباء الأذكياء –عادة– يرتفع الذكاء بين أبنائهم، والآباء الأغبياء – عادة– ينخفض الذكاء بين نسلهم.

هذا؛ وهناك الكثير من الاختبارات الصالحة لقياس الذكاء فى مجتمعاتنا المحلية أو المجتمعات الأجنبية، والتى اطمأن مؤلفوها أو معدوها، عن طريق تجربتها وإجراء الدراسات الميدانية والإحصائية المختلفة عليها –وهذا ما يعرف بالتقنين– من صلاحيتها للاستخدام، كلّ فى المجتمع الذى أعد خصيصاً له، وجرت تجربته عليه. ومن المبادئ المعروفة فى القياس النفسى عمومًا أن الاختبار الصالح لقياس قدرة أو خاصية نفسية فى بيئة (أى تم تقنينه عليها) لايشترط بالضرورة صلاحيته فى بيئة أخرى، ومايصلح لمجتمع معين Population أو فئة أو جماعة معينة لايشترط بالضرورة صلاحيته لمجتمع آخر أو جماعة أخرى. ولهذا، فإن عملية ترجمة اختبار ذكاء صالح لبيئة ومجتمع أجنبيين وإعداده حتى يصلح لبيئة المصريين ومجتمعهم يعتبر أمراً صعبًا صعوبة تأليف اختبار جديد؛ حيث يتطلب الأمر أن تعاد عليه فى صورته المترجمة جميع أنواع الدراسات والتجارب التى أجراها عليه مؤلفه الأصلى. وهذا أمر يستغرق الكثير من الوقت والجهد، ويتطلب الكثير من الإمكانيات والنفقات. ومن هنا، كانت القلة النسبية لاختبارات الذكاء

الصالحة للبيئة العربية، والقلة النسبية للاختبارات النفسية عموماً؛ لحاجتها للكفاءات العلمية والتكاليف المادية والاستعدادات الفنية والتقنية العالية، اللازمة جميعها لما يعرف بتقنين الاختبار النفسي؛ لمعرفة مدى صلاحيته.

تقنين اختبارات الذكاء والقدرات والاستعدادات الخاصة

نعني بتقنين الاختبار Test Standardization كافة الدراسات النظرية والميدانية والتجريبية والإحصائية التي نجريها على الاختبار النفسي حتى نطمئن على صلاحيته للقياس الذي نريده. وهكذا، إذا كنا نؤلف اختباراً لقياس الذكاء أو نعده وجب علينا أن نجري عليه عمليات التقنين حتى نطمئن إلى أنه بالصورة التي هو عليها صالح لقياس الذكاء، بحيث نطمئن إلى الدرجة التي يعطيها لذكاء من نطبقه عليه. وإذا كنا بالمثل نؤلف أو نعد اختباراً لقياس الذاكرة وجب علينا قبل استخدامه والاطمئنان إلى نتائج تطبيقه أن نجري عليه عمليات التقنين هذه، حتى نثق في الدرجة التي يعطيها لنا عن ذاكرة من نطبقه عليه... وهكذا في بقية الاختبارات والمقاييس النفسية.

ولذا، فإن تقنين الاختبار النفسي، سواء أكان مقياساً للذكاء أم مقياساً لأي قدرة خاصة، أم لأي سمة شخصية إنما يعني في جوهره وهدفه شيئاً واحداً. وتكاد تتفق خطوات التقنين وتتشابه باستثناء بعض التفصيلات الشكلية التي لاتمس الجوهر. ولما كان كتابنا هذا كتاباً في علم النفس العام وأصوله العامة، فإن حديثنا فيه عن تقنين الاختبارات سوف يكون حديثاً عامًا تاركين التفاصيل الكثيرة والجزئيات الدقيقة للكتب المتخصصة في القياس النفسي، يرجع إليها من أراد التوسع في معرفة تفاصيل التقنين وأصوله الدقيقة (انظر على سبيل المثال مراجع أنستازي Anastasi، وكرونباخ Cronbach؛ وجيلفورد Guilford؛ التي كرست أساساً للقياس النفسي، وأيضاً كتابنا «علم النفس الصناعي والتنظيمي». (٢٠٠١، الفصل الخامس).

ولنتحدث الآن عن أهم الخطوات العامة التى يمر بها تقنين اختبار للذكاء كنموذج لتقنين الاختبارات النفسية عامة:

١ - تحليل الوحدات Item Analysis:

الوحدة (أو الفقرة) هى أصغر جزئية فى الاختبار النفسى (أو أصغر بند أو سؤال) حيث تُعطى درجة خاصة بها. وهكذا، فإن الاختبار النفسى يتكون فى نهاية الأمر من جملة وحدات. وينبغى أن تختار كل وحدة (أو توضع فى الاختبار) بناءً على دراسات نظرية وميدانية وتجريبية وإحصائية تثبت صلاحية الوحدة للقياس المقصود. وتسمى هذه الدراسات التى تجرى على الوحدة بتحليل الوحدات، بحيث تصبح -من حيث شكلها وتكوينها وصعوبتها وصدقها وترتيبها فى المقياس أو الاختبار- مناسبة وصالحة.

فعلى سبيل المثال (فقط)، لو كنا نؤلف اختباراً لذكاء أطفال ما قبل المدرسة فإن وحدة كهذه: ما هو حاصل جمع (٣١٥ + ٦٢٧ + ٣٢,١٦) لا تصلح لأنها شديدة الصعوبة على هذا المستوى، وبالتالى فلن تفرق بين الذكى والغبى لأن الجميع تقريباً سوف يأخذ صفراً على هذه الوحدة، فيتساوى الأذكياء مع الأغبياء. ولو وضعنا فى هذا الاختبار وحدة كهذه: هل تقلق كثيراً أثناء نومك بالليل؟ فإنها لا تصلح أيضًا (لأنها ليست صادقة فى قياس الذكاء، وربما كانت صادقة فى قياس الشخصية)، هذا علاوة على صعوبة فهمها على من هم قبل سن المدرسة... والدراسات الميدانية والتجريبية هى التى سوف تفصل فى كل هذا، وبناءً عليها سوف نحذف الوحدة أو نعدلها أو نضعها كما هى فى الاختبار النهائى، بل إن هذه الدراسات سوف تحدد وضعها وترتيبها -أيضاً- فى الاختبار بحيث توضع فى بداياته أو أواسطه أو أواخره، وفق مستوى صعوبتها الذى تحدده الدراسة الميدانية والتجريبية.

٢ - ثبات الاختبار Test Reliability:

إن الاطمئنان إلى صلاحية الوحدات ومناسبتها للاختبار لا يضمن بالضرورة صلاحية الاختبار ككل؛ حيث إن صلاحية الأجزاء منفصلة لا تضمن صلاحية الكل كوحدة متكاملة، وإن كان فساد الأجزاء وضعفها -لاشك- يفسد الكل ويضعفه. ولذا، فإنه بعد أن

نستوثق من صلاحية أجزاء الاختبار (فى الخطوة السابقة)، لابد أن نستوثق -أيضًا- من صلاحية الكل (أى الاختبار فى شكله النهائى المتكامل). ومن أهم الدراسات الميدانية والتجريبية والإحصائية التى تجرى لتحقيق ذلك هى دراسات الثبات والصدق وتحديد المعايير.

هذا، ويقصد بثبات الاختبار مدى إعطاء الاختبار نفس الدرجات أو أقرب ما يكون إليها لنفس الأفراد عند إعادة تطبيقه عليهم. فالاختبار الثابت هو الذى إذا طبقته على فرد ثم أعدت تطبيقه على نفس الفرد بعد فترة مناسبة، يعطيك تقريبًا الدرجة التى أعطاها فى المرة الأولى، إذ لا قيمة لاختبار ذكاء -على سبيل المثال- تطبقه اليوم على فرد فى العشرين من عمره فيعطيه نسبة ذكاء (١٢٠) ثم تطبقه على نفس الفرد بعد خمسة عشر يوماً فيعطيه نسبة ذكاء (٨٠) أو (١٥٠) مع علمك بأنه لم يطرأ على ذكاء الفرد من تغيير يعلل كل هذا التغير فى نسبة ذكائه، الأمر الذى يجعلنا نستنتج أن الدرجات التى يعطيها هذا الاختبار لاتعتمد على مقدار الذكاء الحقيقى للفرد بقدرما تعتمد على الظروف الخارجية أو الذاتية التى لا تتعلق بذكائه. وبالتالى، فإن درجة هذا الاختبار لاتكون مؤشراً صالحًا للذكاء. والأمر فى هذه الحالة يشبه ميزاناً وزنت نفسك به الأمس فأعطاك (٧٠) كيلو جرامًا، ثم وزنت نفسك به اليوم فأعطاك (٥٠) أو (٩٠) مع تيقنك بأنه لم يطرأ على وزنك ما يبرر كل هذا التغير. إذن، فهذا ميزان لايستحق الثقة فيه، ولا يصلح بالتالى لقياس الوزن. وهكذا، فإن الثبات صفة لازمة للاختبار النفسى أو المقياس النفسى الجيد لزومه للاختبار أو المقياس الجيد للظواهر الطبيعية عادة.

وبطبيعة الحال، فإن النظرة السطحية أو التأمل النظرى لا يصلحان للتحديد المقبول لمدى ثبات الاختبار، وإنما يلزم القيام بدراسات ميدانية وتجريبية وإحصائية لتحديد مدى ثبات الاختبار النفسى، كطريقة إعادة تطبيق الاختبار على نفس الأفراد بعد مدة مناسبة، ثم حساب معامل الارتباط بين درجات التطبيق الأول والتطبيق الثانى فإن وصل إلى +٠,٧ أو زاد عن ذلك كان ثباته مقبولا، (أو كطريقة الصور المتكافئة، أو طريقة التقسيم النصفى للاختبار، أو طريقة كودر-ريتشاردسون... إلخ).

وعادة، لايعتد بثبات الاختبار إن قل عن +٠,٧ مع ملاحظة أن معامل الثبات فى

جوهره هو معامل ارتباط(*)؛ أي لايمكن أن يزيد عن الواحد الصحيح (+١) .

٣ - صدق الاختبار Test Validity:

تعتبر دراسة صدق الاختبار أهم خطوة من خطوات تقنين الاختبار النفسي؛ حيث إن صدق الاختبار النفسي يعتبر أهم وأعظم خصائصه على الإطلاق.

ونعنى بصدق الاختبار مدى الدقة فى قياس الاختبار بالفعل للقدرة أو الاستعداد أو الخاصية التى وضعنا الاختبار ليقيسها. فإذا وضعنا اختباراً بقصد قياس الذكاء، فإلى أى حد هذا الاختبار يقيس فعلاً خاصية الذكاء وليس شيئاً غيرها؟. لهذا، فصدق الاختبار يعتبر أهم صفاته الأساسية التى ينبغى أن تتوافر له، وإلا فقد الاختبار قيمته كوسيلة لقياس الاستعداد أو القدرة أو الخاصية التى وضع لقياسها، فيفقد بهذا مبرر وجوده أصلا. وهكذا، فإن دراسة صدق الاختبار لايمكن الاستغناء عنها مهما كانت شروط التقنين الأخرى متوافرة فيه بدرجة كافية. فالاختبار النفسى قد يكون ثابتاً إلى درجة عالية جداً وله معايير مدروسة (على نحو ما سوف نشرح فى البند التالى)، ووقت محدد وطريقة تصحيح موضوعة بناءً على دراسات دقيقة، ومع ذلك لا يكون صادقًا، وبالتالى لا يصلح لقياس الاستعداد أو القدرة أو الخاصية المطلوب قياسها، وتصبح الدرجات التى يعطيها مزيفة مضللة. فلو أننا أردنا قياس ذكاء مجموعة من الأفراد فاستخدمنا لذلك المتر فإن الدرجات التى يعطيها المتر لهؤلاء الأفراد تعتبر ثابتة -إلى حد كبير- كمقياس لذكائهم، ذلك أننا لو كررنا عملية

(*) معامل الارتباط هو معامل إحصائي يقع بين +١ و- ١ وهو جزئي غالبًا. ويشير إلي مدي ارتباط خاصية أو أي شيء بخاصية أخري أو أي شيء آخر؛ كالارتباط بين الطول والوزن أو بين الذكاء والتحصيل الدراسي. فإذا كان الارتباط موجباً عالياً مثل +٠,٧ دل ذلك علي أنه كلما زادت الخاصية الأولي زادت الخاصية الثانية غالبًا، وكلما قلت الخاصية الأولي قلت الخاصية الثانية علي الأرجح، كما في علاقة التحصيل الدراسي بالذكاء. أما إذا كان الارتباط سالبًا مثل -٠,٧ دل ذلك علي أنه كلما زادت الخاصية الأولي نقصت -غالبًا- الخاصية الثانية، وكلما نقصت الخاصية الأولي زادت - في الغالب- الخاصية الثانية؛ كالعلاقة بين المرض النفسي والتحصيل الدراسي. وكلما اقترب الارتباط من الصفر، دل ذلك علي أن العلاقة بين لخاصيتين علاقة ضعيفة لا وزن لها (المؤلف).

قياس ذكائهم باستخدام المتر فإنه سوف يعطينا نفس الدرجات تقريبًا، لكن الأمر الذى يجعل المتر غير صالح لقياس الذكاء هو عدم صدقه فى قياس الذكاء؛لأنه لا يقيس الذكاء بالفعل على الرغم من ثباته، وإنما يقيس خاصية أخرى مختلفة عن الذكاء هى الطول، كما هو معلوم.

هذا، ويدرس صدق الاختبار النفسى بوسائل كثيرة ومتنوعة حسب نوع الاختبار النفسى. ففى حالة اختبار الذكاء، يمكن دراسة صدقه عن طريق ارتباط درجات الاختبار مع محك Criterion كالتحصيل الدراسى، إذ يعتبر مدى نجاح الفرد فى التحصيل الدراسى معياراً (أو محكًا) لمدى ذكائه، خاصة إذا كان تحصيلاً دراسيًا عامًا (كما فى المدرسة الابتدائية والإعدادية العامة والثانوية العامة) وليس نوعًا متخصصًا. ويمكن -أيضًا- أن يدرس صدق اختبار الذكاء عن طريق المجموعات المتناقضة؛ فنطبقه على مجموعة من التلاميذ العاديين وعلى مجموعة من تلاميذ مدارس الضعف العقلى (والتى تسمى بمدارس التربية الفكرية) من نفس السن لنرى مدى قدرة الاختبار على التفرقة الكبيرة بين المجموعتين. كما يمكن -أيضًا- أن ندرسه عن طريق مدى ارتباط اختبار الذكاء الجديد باختبار ذكاء آخر معترف بصدقه ومستخدم بالفعل فى البيئة المحلية... إلخ.

ومعامل الصدق -مثل معامل الثبات- فى جوهره معامل ارتباط، وبالتالى لايزيد عن الواحد الصحيح، ويعتبر مقبولاً إذا وصل (+٠,٦) أو أكثر.

٤ – معايير الاختبار Test Norms :

يقصد بالمعايير الدرجات المحولة Transformed Scores كمقابل للدرجات الخام Raw Scores. فالدرجة الخام هى الدرجة التى يحصل عليها المفحوص على الاختبار قبل أن تحول إلى ما يقابلها من درجات المعايير، حتى تكتسب معنى ومدلولاً. ودرجات المعايير هذه مثل الدرجة التائية، أو نسبة الذكاء الانحرافية، أو الدرجة المئينية أو العمر العقلى. ذلك أن الدرجة الخام فى حد ذاتها (قبل أن تحول إلى درجة من درجات المعايير) لا قيمة لها ولا مدلول. فمثلاً، إذا حصل (س) من الناس على درجة (٢٠) فى اختبار

معين فإننا لا نعلم من هذه الدرجة ما إذا كان ممتازاً أو جيداً أو متوسطاً أو ضعيفاً، إلا إذا كشفنا فى جداول المعايير الخاصة بهذا الاختبار عما يقابل هذه الدرجة الخام. فإذا تبين أنها تقابل –على سبيل المثال– درجة تائية (٥٠) فعند ذاك نعلم أن هذا الفرد يمتلك الاستعداد أو الخاصية التى يقيسها الاختبار بدرجة متوسطة، أى أنه بالنسبة لأقرانه ليس متفوقاً وليس ضعيفاً بل وسطاً، بينما إذا تبين أن هذه الدرجة الخام تقابل درجة تائية (٧٠) فهذا يعنى أن هذا الفرد يمتلك الاستعداد أو الخاصية التى يقيسها هذا الاختبار بدرجة عالية جداً لا يكاد يتفوق عليه فيها من أقرانه أكثر من (٣٪)، فى حين لو تبين أن الدرجة التائية المقابلة لهذه الدرجة الخام هى (٣٠)؛ فمعنى هذا أنه ضعف جداً فى هذا الاستعداد أوتلك الخاصية التى يقيسها الاختبار، ويكاد يتفوق عليه فيها حوالى ٩٧٪ من أقرانه. وهكذا، تكتسب الدرجة الخام مدلولها الذى كانت تفتقده قبل هذا التحويل، حيث تتم معرفة مستوى الفرد فى الاختبار عن طريق تحويلها إلى درجات المعايير.

ويقوم واضع الاختبار ومعده بإعداد جداول معايير لاختباره وفق دراسات ميدانية يقوم بها تستهدف هذا الغرض، ويعد بناءً عليها أنواع المعايير التى يراها مناسبة لاختباره، وعادة توضع فى جداول معايير؛ كجداول الأعمار العقلية، أو نسب الذكاء الانحرافية، أو الدرجات التائية أو المئينية.

٥ – جوانب أخرى من التقنين :

كما أن هناك دراسات تقنينة أخرى يقوم بإعدادها واضع الاختبار أو مُعده مثل وضع تعليمات تطبيق الاختبار، ومثل تحديد زمن كل وحدة من وحدات الاختبار أو تحديد زمن كلى للاختبار، ومثل وضع نماذج لتصحيح وحدات الاختبار... إلخ. ويتم كل ذلك بناءً على دراسات ميدانية وتجريبية وإحصائية تجرى على الاختبار وفق أصول علمية معينة.

عينة التقنين Standardization Sample:

هى العينة (أو العينات) التى نستخدمها فى عمليات التقنين المختلفة. وهى عينة ينبغى أن تكون صادقة التمثيل للمجموع أو الفئة التى نعد الاختبار لقياس ذكائها أو خصائصها. إذن، فهى العينة التى تتم عليها تجربة الاختبار النفسى للاطمئنان إلى صلاحيته من كافة الوجوه. ويمكن أن تكون عينة واحدة كما يمكن أن تكون عينات عدة -مثلاً- عينة نختارها لدراسة الوحدات، وعينة غيرها لدراسة الثبات، وعينة ثالثة لدراسة الصدق، وعينة رابعة لدراسة وتحديد المعايير، وعينة خامسة لـ...إلخ.

إلا أنها جميعاً ينبغى أن تكون كل منها -على حدة- ممثلة صادقة التمثيل للفئة أو المجتمع الذى نعد الاختبار له. وينبغى أن يتضمن كتيب الاختبار وصفًا شاملاً ودقيقاً لها، حتى نعرف حدود صلاحية الاختبار النفسى فى التطبيق، بحيث إذا طبق الاختبار على عينة تختلف اختلافًا جوهريًا عن عينة (أو عينات) التقنين فإن نتائج الاختبار عندئذ لايعتد بها. فمثلاً، لو كانت عينة تقنين اختبار معين من الأميين بمدينة القاهرة فإن هذا الاختبار لا يصلح لطلبة جامعة أسيوط مثلاً، إلا إذا أُعيد تقنينه على عينة تمثلهم، وعدل فيه حتى أصبح مناسبًا لهم. وعند ذلك، لابد من إعادة دراسة الوحدات والثبات والصدق والمعايير... على عينة أو عينات تمثل طلبة جامعة أسيوط.

وعلى واضع الاختبار أو معده أن ينشر فى كُتيب الاختبار ويصف عينات تقنينه، وخطوات هذا التقنين بالتفصيل، ونتائجه، حتى يعرف من يستخدم الاختبار حدود صلاحيته، ودلالة درجاته.

ترجمة اختبار الذكاء:

كثيراً ما يقوم المتخصصون النفسيون بترجمة اختبارات الذكاء ومقاييسه أو غير ذلك من اختبارات القدرات والاستعدادات والسمات والخصائص النفسية المختلفة. وتختلف ترجمة الاختبارات النفسية -عموماً- عن الترجمة بمعناها المعروف، وهو الترجمة الحرفية كما يتبع فى ترجمة الكتب. إنما تتم ترجمة الاختبارات بمعنى خاص بها، وهو ترجمة

المضمون أو الجوهر، لأن الشكل غالبًا ما يكون مرتبطاً بالبيئة التى ألف الاختبار لها. فمثلاً، إذا كان هناك سؤال فى اختبار ذكاء أمريكى يسأل عن المسافة بين واشنطون ونيويورك فإننا نترجمه -على سبيل المثال فى مصر- ليسأل عن المسافة بين القاهرة والإسكندرية. ذلك أن مضمون السؤال الأمريكى هو معرفة الفرد لمعلومة عامة عن المسافة بين مدينتين أمريكيتين من مستوى سهولة معينة بالنسبة للفرد الأمريكى، وهذا المضمون يعادل تقريبًا فى سهولته المعلومة العامة لدى المصرى عن المسافة بين القاهرة والإسكندرية. أما لو لجأنا إلى الترجمة الحرفية فسألنا المصرى عن المسافة بين واشنطون ونيويورك، فعند ذلك يصبح السؤال شديد الصعوبة بالنسبة للمصرى..

كما أن الاختبار النفسي بعد ترجمته لابد وأن يقوم مترجموه أو المهتمون بنقله إلى البيئة المحلية بإعادة تقنينه فى صورته المترجمة على عينة، أو عينات من البيئة المحلية. فيعيدون دراسة وحداته وثباته وصدقه وتحديد معايير ونماذج التصحيح والزمن...إلخ. كما سبق أن أوضحنا من خطوات تقنين الاختبار. ولهذا، فإن ترجمة الاختبار النفسى تحتاج، حتى يتم إعداده للبيئة الجديدة، جهداً من المتخصصين يكاد يقترب من الجهد الذى بذله فيه مؤلفوه. ومن هنا، وجدنا القلة النسبية لاختبارات الذكاء الصالحة والمقننة على البيئة المصرية، والتى تحتاج بدورها إلى إعادة تقنين إذا رغبنا استخدامها فى أية بيئة عربية غير مصرية، حيث نجد أن لكل مجتمع عربى خصوصياته التى ينبغى أن تنعكس بالتالى على اختباراته النفسية.

ومن الجدير بالذكر أن هناك بعض اختبارات الذكاء ومقاييسه التى ألفت أو ترجمت لمصر، وجرى فيها تقنينها كاملاً أو جزئياً، ويستعان بها فى الدراسات والبحوث والفحوص النفسية المختلفة؛ مثل مقاييس وكسلر-بلفيو لذكاء الراشدين والمراهقين، والذى ألفه دافيد وكسلر، وترجمه وأعده للبيئة المصرية (لويس كامل مليكة ومحمد عماد الدين إسماعيل: بدون تاريخ)، كما نقله وأعده للبيئة المغربية (فرج عبد القادر طه، وصلاح أحمد مرحاب ١٩٧٧)، وأيضًا أعده للبيئة الأردنية (هايل موسى تحت إشراف فرج عبد القادر طه وعبد الرحمن عدس: ١٩٨٢).

ومن أمثلة اختبارات الذكاء التى ألفت لمصر وقننت فيها نذكر اختبار الذكاء الإعدادى واختبار الذكاء العالى، والذين ألفهما السيد محمد خيرى (السيد محمد خيرى: بدون تاريخ).

ولما كان مؤلف الاختبار النفسى-عادة- يقتبس وحدات وأجزاء من اختبارات أخرى بالنص أو بالتعديل، كما يضيف إليه من عندياته، دون ضرورة الإشارة إلى ذلك فى نص الاختبار (وهذا أمر لا يجوز فى تأليف الكتب)، فإن بعض مؤلفى الاختبارات النفسية المصرية يفضلون استخدام لفظ إعداد بدلاً من لفظ تأليف، كما أن الأجانب يفضلون استخدام مصطلح Developed By بدلاً من Authored by. ونحن نرى أن الاختبارات النفسية عموماً، سواء منها اختبارات الذكاء أو القدرات الخاصة أو اختبارات الشخصية... وسواء أكانت مؤلفة أم مقتبسة أم مترجمة يصدق على معديها (سواء أكانوا أجانب أم عرباً) أنهم يؤلفون حيث يقتبسون أو يترجمون، كما يترجمون ويقتبسون حيث يؤلفون. وهذا أمر مشروع تماماً فى الاختبارات النفسية لطبيعتها الخاصة، وإن كان من الأفضل التنبيه إلى ذلك بشكل عام؛ عندما يصدر معد الاختبار كتاباً (أو كتيبا) خاصاً عنه يتناول فيه بالتفصيل فكرة الاختبار وهدفه وخطوات بنائه وإعداده وتقنينه ونتائجها.

نسبة الذكاء Intelligence Quotient (I.Q)

نسبة ذكاء الفرد هى النسبة التى تنتج من قسمة عمره العقلى Mental Age (M.A) على عمره الزمنى Chronological Age (C.A) مع ضرب الناتج فى مائة؛ أى أنها تنتج عن التعويض فى المعادل التالية:

$$\text{نسبة الذكاء} = \frac{\text{العمر العقلى}}{\text{العمر الزمنى}} \times ١٠٠$$

ويقصد بالعمر العقلى لفرد معين أنه العمر الذى يكون فيه ذكاء المتوسط معادلاً لذكاء

الفرد. فمثلاً، إذا قلت إن عمر أحمد العقلى يساوى عشر سنوات؛ فمعنى هذا أن ذكاء أحمد يعادل ذكاء طفل متوسط الذكاء وعمره عشر سنوات. أما العمر الزمنى فالمقصود به الزمن الذى انقضى بين ولادة الفرد والوقت الذى نقيس فيه ذكاءه؛ أى سن الفرد.

وعلى ذلك، لو كان عندنا فرد عمره العقلى عشر سنوات وعمره الزمنى ثمان سنوات، فإن نسبة ذكائه تكون:

$$\frac{١٠}{٨} \times ١٠٠ = ١٢٥$$

وإذا كان هناك فرد آخر عمره العقلى عشر سنوات وعمره الزمنى عشر سنوات أيضًا، فإن نسبة ذكائه تكون:

$$\frac{١٠}{١٠} \times ١٠٠ = ١٠٠$$

وإذا كان هناك ثالث عمره العقلى عشر سنوات، لكن عمره الزمنى اثنتنا عشرة سنة، فإن نسبة ذكائه تكون:

$$\frac{١٠}{١٢} \times ١٠٠ = ٨٣$$

ومن الخطأ كتابة علامة النسبة المئوية كتمييز؛ أى من الخطأ كتابة نسبة الذكاء السابقة هكذا (٨٣٪)، بل تكتب فقط (٨٣). وإذا كان ولابد لها من تمييز فتكتب (٨٣) نقطة. ومن الأفضل والأصح تركها رقماً دون تمييز لطبيعتها الخاصة.

ويجب أن ننتبه إلى أن نسبة الذكاء غير نسبة الذكاء الانحرافية Deviation I.Q؛ حيث إن نسبة الذكاء الانحرافية من طبيعة مختلفة تمامًا، فهى مجرد درجة معيارية مُعَدَّلة وليست نسبة ذكاء حقيقية ناتجة عن قسمة العمر العقلى على العمر الزمنى مضروباً فى مائة، وإن كانت دلالة النسبة فيهما واحدة تقريباً من حيث ارتفاع الذكاء أو انخفاضه.

ونسبة الذكاء -كما هو واضح من تسميتها وتعريفها- لا تستخدم إلا فى اختبارات الذكاء خاصة، فهى لا تصلح لاختبارات القدرات الخاصة أو الشخصية على سبيل المثال.

والشخص متوسط الذكاء تكون نسبة ذكائه مائة، فإذا زادت نسبة ذكائه عن مائة فهو مرتفع الذكاء بمقدار هذه الزيادة، أما إذا نقصت عن مائة فهو ضعيف الذكاء بمقدار هذا النقصان. ويكاد يكون من المتفق عليه تصنيف مستويات ذكاء الأفراد حسب ما يلى:

١ – فئة العباقرة: وتقع نسب ذكائهم فى مستوى (١٤٠ فأكثر).

٢ – فئة الأذكياء جداً: وتقع نسب ذكائهم بين (١٣٠) و(١٣٩).

٣ – فئة الأذكياء: وتقع نسب ذكائهم بين (١٢٠) و(١٢٩).

٤ – فئة ما فوق المتوسط: وتقع نسب ذكائهم بين (١١٠) و(١١٩).

٥ – فئة متوسطى الذكاء: وتقع نسب ذكائهم بين (٩٠) و(١٠٩).

٦ – فئة ما دون المتوسط: وتقع نسب ذكائهم بين (٨٠) و(٨٩).

٧ – فئة الأغبياء: وتقع نسب ذكائهم بين (٧٠) و(٧٩).

٨ – فئة الأغبياء جداً: وتقع نسب ذكائهم بين (٦٠) و(٦٩).

٩ – فئة ضعاف العقول: وهم من كانت نسب ذكائهم أقل من (٦٠).

ويلاحظ أن حوالى نصف الناس يقعون فى فئة متوسطى الذكاء، وكلما ارتفع مستوى الذكاء عن المتوسط أو انخفض قلت نسبة الناس حتى لا نكاد نجد فى فئة العباقرة إلا حوالى ١٪ أو ٢٪ من الناس، ومثلهم فى فئة ضعاف العقول تقريباً.

وليست كل اختبارات الذكاء تتخذ من نسبة الذكاء معياراً لها، بل بعضها فقط، وإن كانت هناك جداول إحصائية ورسوم بيانية يمكن الاستعانة بها فى تحويل أنواع المعايير المختلفة بعضها للبعض الآخر، حسب حاجة الباحث أو رغبته فى استخدام معيار معين.

ولا يصلح استخدام نسبة الذكاء وفق المعادلة السابقة إلا مع الأطفال، لكن إذا كان ولابد من استخدامها مع الراشدين وجب علينا أن نتجاهل أى سنوات فى العمر الزمنى تزيد عن

(١٥) . فعلى سبيل المثال، لو كان العمر الزمنى لفرد ما هو (٣٥) سنة وكان عمره العقلى (١٨) سنة، فإن نسبة ذكائه تحسب هكذا:

$\frac{١٨}{١٥} \times ١٠٠ = ١٢٠$ ؛ أى أنه يقع فى فئة الأذكياء، وذلك نظراً لاعتبار أن نمو ذكاء الفرد يكاد يتوقف تقريباً عند سن الخامسة عشرة، وإن كانت الدراسات الحديثة تشير إلى أن الذكاء ينمو بعد هذه السن إلا أن نموه يكون بطيئًا جداً لا يكاد يحس ليتوقف عند سن العشرين تقريباً أو بعدها بقليل (وإن كان لكل حالة خصوصياتها، شأنه فى ذلك شأن الطول على سبيل المثال) . لكننا لو تجاهلنا الملحوظة السابقة (إسقاط ما يزيد عن ١٥ من العمر الزمنى) فى المثال السابق فإن هذا الفرد تصبح نسبة ذكائه $\frac{١٨}{٣٥} \times ١٠٠ = ٥١$ ؛ أى أنه يكون ضعيف عقل. وفى هذا ظلم كبير فى تقدير ذكائه، حيث يهبط به من فئة مرتفعى الذكاء إلى فئة ضعاف العقول، وقد يكون من خريجى الجامعة المتفوقين فى واقع الأمر.

ثانياً : القدرات (أو الاستعدادات) الخاصة

إذا كان الذكاء كقدرة أو استعداد عقلى عام، يؤثر بدرجات متفاوتة فى كل أنواع النشاط العقلى -كما سبق أن أشرنا- فإن القدرات أو الاستعدادات الخاصة يؤثر كل منها فى نوع واحد من النشاط حسب نوعية القدرة أو الاستعداد. ومن هنا، كانت تسميتها بالقدرة الخاصة أو الاستعداد الخاص، وهى -فى نهاية المطاف- عبارة عن ذكاء لكنه فى مجال محدد. ولذا، فإن القدرات الخاصة تقابل الذكاء العام أو القدرة العقلية العامة، على نحوما عرّفنا سابقًا، لكن فى مجال خاص. وهناك عدد كبير من القدرات أو الاستعدادات الخاصة المعروفة، والتى من أهمها:

١ - القدرة (أو الاستعداد) اللفظية Verbal:

ويقصد بها مدى قدرة الشخص (أو استعداده) على التعامل بالألفاظ سواء فى ذلك

استخدامها بكفاءة وطلاقة للتعبير عن المعاني والأفكار التي يريد أن يوصلها إلى غيره منطوقة أو مكتوبة، أو قدرته على فهمها بسرعة ودقة ليستدل منها على المعاني والأفكار التي يسمعها من غيره أو يقرؤها عنه. وكأنها ذكاء في التعامل باللفظ إنشاءً وفهماً.

وواضح من هذا التعريف للقدرة (أو الاستعداد) اللفظية وجوب توافرها بدرجة عالية للنجاح في بعض الأعمال؛ كالتدريس بصفة عامة، وتدريس اللغات بصفة خاصة، بينما لاتلزم في أعمال أخرى كالأعمال الميكانيكية مثلاً. ويمكن لهذه القدرة (أو الاستعداد) الخاصة أن تنقسم إلى قدرات (أو استعدادات) أكثر تخصصاً؛ مثل القدرة اللفظية العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية... ويشترط للاختبارات التي تقيسها ما يشترط لاختبارات الذكاء من تقنين ودراسات تجريبية وإحصائية تؤكد صلاحيتها للقياس، وثقتنا فيما يؤدي إليه من نتائج.

٢ – القدرة (أو الاستعداد) العددية Numerical :

وتعني مدى قدرة الشخص (أو استعداده) للتعامل بالأرقام من حيث الدقة والسرعة والكفاءة في هذا التعامل. ولهذا، فهي تشتمل على قدرة الفرد على القيام بالعمليات الحسابية البسيطة والمعقدة سواء من جمع وطرح وضرب وقسمة، وقدرته على اكتشاف العلاقات بين الأرقام بعضها البعض، وكأنها بهذا ذكاء في التعامل بالأرقام.

ويتبين من هذا التعريف أن القدرة العددية يجب أن تتوافر بدرجة عالية حتى يمكن للشخص النجاح في بعض الأعمال التي تحتاجها؛ مثل أعمال الحسابات والمراجعات وتدريس الرياضيات، بينما لا تكاد تلزم لأعمال أخرى كتدريس اللغات مثلاً.

ويصدق ما قلناه سابقًا عن القدرة اللفظية على هذه القدرة العددية، فيما يتعلق بإمكانية انقسامها إلى قدرات أكثر تخصصاً، وفيما يتعلق -أيضاً- باختبارات قياسها.

٣ – القدرة (أو الاستعداد) الميكانيكية Mechanical:

والمقصود بها هو مدى القدرة (أوالاستعداد) على معرفة كيفية فك الآلة إلى أجزائها المكونة لها، وتركيب هذه الأجزاء معًا لتكوين الالة من جديد، وفهم كيفية عملها والعلاقات الوظيفية بين مختلف أجزائها، ومعرفة كيفية صيانة الآلة، ومكان العطل بها، والقدرة على إصلاح أعطالها بدقة وسرعة. فهى –إذن– ذكاء فى مجال الميكانيكا.

وكما هو واضح من هذا التعريف للقدرة الميكانيكية نجد أنه من اللازم توافرها بدرجة عالية فى الشخص حتى ينجح فى بعض المهن؛ كما فى الأعمال الميكانيكية على اختلاف مستوياتها (من مستوى الصبى الذى يتدرب على العمل الميكانيكى إلى مستوى المخترع أو المصمم الذى يخترع الآلة، أو يعدل فى تصميمها وكيفية عملها ليكسبها إمكانية أعلى على العمل والإنتاج). بينما نجد أن هذه القدرة لا تكاد تلزم لأعمال أخرى؛ كتدريس اللغات مثلاً.

ويصدق على هذه القدرة –أيضاً– ما يصدق على سابقتها من إمكانية انقسامها إلى قدرات أكثر تنوعاً وتخصصاً، ومن توافر شروط اختبارات قياسها.

٤ – القدرات (أو الاستعدادات) الكتابية Clerical:

وهذه القدرة (أو الاستعداد) فى حقيقتها جملة من القدرات (أو الاستعدادات) الفرعية التى تلزم للنجاح فى الأعمال الكتابية (كتلك الأعمال التى توجد بالمؤسسات والمصالح والمتعلقة بوظائف كتبة الآلة الكاتبة والسكرتارية وموظفى الأرشيف)؛ مثل التصنيف فى ملفات وحفظ الملفات، والمراجعة، والكتابة على الآلة الكاتبة؛ والسرعة فى اكتشاف الأخطاء اللغوية أو الحسابية البسيطة، وتلخيص الموضوعات، وإجراء العمليات الحسابية الروتينية، والاختزال، وتشغيل الآلات الحاسبة البسيطة والكمبيوتر... وعلى هذا، فإن اختبار القدرة الكتابية سوف يختلف، من حيث محتوى القدرات الفرعية الممثلة فيه، باختلاف العمل الكتابى الذى يُستخدم الاختبار للتنبؤ بمدى النجاح فيه. فإذا كان هذا العمل لايتطلب الاختزال –على سبيل المثال– فلن توجد فى اختبار القدرة الكتابية الخاصة بهذا العمل أية

فقرات لقياس القدرة على الاختزال، وهكذا... وعلى هذا، فالقدرة الكتابية هى ذكاء فى مجال الأعمال الكتابية.

وبالمثل، فإن للقدرة الكتابية اختباراتها التى تقيسها، والتى ينبغى أن تتوافر بها نفس شروط الاختبارات النفسية الأخرى، من حيث الدراسات التى تجرى عليها لتقنينها وللتأكد من صلاحيتها للقياس فى الموقف والبيئة المعنيين.

٥ – القدرة (أو الاستعداد) المكانية Spatial:

ويقصد بهذه القدرة (أوالاستعداد) إمكانية فهم وتصور النواحى والحقائق والعلاقات المكانية وإدراكها والحكم عليها بدقة وسرعة وكفاءة؛ مثل إدراك الفرد للاتجاه والشكل والحجم والمسافة والمكان باستخدام وسائل الحس المختلفة، ومثل تصور الفرد لما سيكون عليه المبنى من مجرد رؤيته لرسمه، أو قراءته لوصفه أو سماعه له. وكأن هذه القدرة هى ذكاء فيما يتعلق بالمكان.

وهناك بعض الأعمال التى ينبغى للنجاح فيها أن تكون قدرة الشخص المكانية عالية؛ مثل عمل مهندسى المبانى والإنشاءات ومقاوليهما، وعمل مصممى الآلات...إلخ.

وتوجد للقدرة (أو الاستعداد) المكانية اختباراتها النفسية الخاصة بها، والتى ينبغى أن تتوافر لها نفس الشروط الواجب توافرها فى الاختبار النفسى الصالح للاستخدام، على نحو ما سبق أن أشرنا.

٦ – القدرات (أو الاستعدادات) الفنية Artistic:

يوجد عدد كبير من القدرات (أو الاستعدادات) الفنية، يختص كل واحد منها بنوع من أنواع النشاطات الفنية، فمنها ما هو خاص بالشعر، أو بالأدب، أو بالرسم، أو بالنحت، أو بالموسيقى، أو بالغناء أو بالتمثيل... إلخ. وتتعلق كل منها بقدرة الشخص على الإبداع فى النشاط الفنى المعين وعلى تذوقه فى نفس الوقت. فالقدرة الموسيقية –على سبيل المثال– تتضمن مدى كفاءة الشخص فى تذوقه الموسيقى والحكم عليها والإنتاج

المبدع فيها وكذا الأمر بالنسبة للرسم أو غيره من النشاطات الفنية المختلفة، وكأن القدرة هنا ذكاء فى المجال الفنى المعين.

وقد نجد شخصًا يجمع بين التفوق فى أكثر من نوع من أنواع القدرات الفنية، كما نجد آخر لايتفوق إلا فى نوع واحد فقط، وثالثاً لا يتفوق فى أى من القدرات الفنية. وما من شك فى أن الطلاب الذين يريدون الالتحاق بأى من أقسام المعاهد الفنية المختلفة يلزم أن تتوافر لديهم القدرات أو الاستعدادات الفنية اللازمة لهذه الأقسام وتلك التخصصات بدرجات عالية. فمثلاً، أقسام الرسم تتطلب فى الفرد قدرة أو استعداداً فنياً فى الرسم خاصة، وأقسام النحت تتطلب قدرة أو استعداداً فنيًا عاليًا فى النحت خاصة... وهكذا. ولذا، فإن هذه الأقسام الفنية لا تكتفى بقبول طلابها بناءً على المجموع العام الذى يحصلون عليه من الشهادات العامة، بل وتشترط ضرورة اجتياز الطلاب لاختبارات القدرات والاستعدادات الفنية الخاصة بهذه الأقسام، والتى تختلف -بالضرورة- من قسم لآخر حسب نوع النشاط الفنى الذى يختص به القسم.

هذا، وتتطلب اختبارات القدرات والاستعدادات الفنية نفس الشروط الواجب توافرها فى الاختبار النفسى الصالح للاستخدام، كما سبق أن ذكرنا.

٧ - القدرة (أو الاستعداد) الإبداعية Creativity :

تختص هذه القدرة بمدى الأصالة Originality والجدة Newness فى أفكار الشخص وحلوله للمواقف التى تجابهه وأنشطته وإنتاجاته بصفة عامة. ولقد بدأت هذه القدرة تلقى اعترافاً واهتمامًا متزايدين من جانب علماء النفس فى النصف الثانى من القرن العشرين، حيث ركز بعض الباحثين على دراستها كقدرة خاصة تقف جنبًا إلى جنب مع بقية القدرات المعروفة.

ومما وجه اهتمام العلماء نحو هذه القدرة ودفعهم للاعتراف بها كقدرة مستقلة (بعد أن كان ينظر إليها على أنها مجرد عامل يكمن وراء القدرة الفنية) تزايد الاهتمام بضرورة اكتشاف ذوى المواهب العالية فى البحث العلمى وفى الهندسة وفى الإدارة وفى الفن...،

حيث اتضح أنها شأن الذكاء يملك كل فرد نصيباً معيناً منها يزيد أو يقل عن زميله.

ومما يجدر ذكره أن الكثير من المرضى العقليين (والمجانين) لديهم أفكار ويقومون بأفعال تتميز بالجدة، إلا أن أهم ما يميز ذوى القدرة الإبداعية العالية عن هؤلاء المرضى (والمجانين) هى أن الأصالة والجدة فى أفكار وأفعال ذوى القدرة الإبداعية العالية تساعد أكثر على التوافق والنجاح فى حياتهم وإمتاع الآخرين بنتائج أصالتهم وجدتهم، بعكس الأمر عند هؤلاء المرضى، حيث يعوقهم مرضهم عن النجاح فى الحياة والتوفيق فيها؛ حيث تكون جدة أفكارهم وسلوكهم سبباً فى سوء توافقهم، مع إحداث مشاكل ومآسى للآخرين.

هذا، وتوجد اختبارات نفسية لقياس القدرة الإبداعية عند الأشخاص، تراعى تحقق شروط صلاحية الاختبار النفسى الجيد فيها، كما هو الحال بالنسبة لبقية القدرات والاستعدادات.

٨ – الذاكرة Memory:

ونقصد بهذه القدرة (أو الاستعداد) إمكانية استيعاب ذاكرة الشخص للمعلومات والأفكار والخبرات والأحداث التى مرت به، وإمكانية تذكرها واستعادتها إلى ذهنه فى المواقف التى تتطلب منه ذلك. ولذا، تعتبر ذاكرة الفرد إحدى قدراته (أو استعداداته) الخاصة الأساسية؛ إذ أن كفاءته فى كثير مما يقوم به من نشاط تعتمد -إلى حد كبير- على مدى قوة ذاكرته؛ كالجغرافى والمؤرخ والصحفى والمعلم. ولعل أهمية الذاكرة ودورها الكبير يتضحان أكثر ما يكون جلاءً فى التحصيل الدراسى للتلاميذ، فهم فى حالة ماسة -علاوة على فهمهم لدروسهم- إلى تذكر تفاصيلها وجزئياتها واسترجاعها للاستفادة منها فى تحصيل دراسى لاحق، أو فى امتحان قادم، أو فى القيام بنشاط مهنى منتظر. ولشدة إحساس العامة بأهمية الذاكرة وتقديرهم لدورها فى حياة الفرد ونشاطه يساوون بينها وبين الذكاء فيصفون الفرد بأن عنده ذاكرة قوية قاصدين أنه مرتفع الذكاء، أو يصفونه بالذكاء المرتفع عندما يقصدون الإشادة بذاكرته القوية...

ويمكن أن تنقسم الذاكرة -كقدرة خاصة- إلى قدرات عدة أكثر تخصصاً؛ كذاكرة الأسماء، وذاكرة الأفكار، وذاكرة الأشكال والصور، وذاكرة الألوان، والذاكرة القريبة، والذاكرة البعيدة... إلخ.

وهناك الاختبارات النفسية التى تقيس الذاكرة بنوعياتها المختلفة، والتى لابد من تحقيق شروط صلاحية الاختبار النفسى فيها حتى يمكن لنا استخدامها باطمئنان.

٩ - القدرات (أو الاستعدادات) الحسية Sensory:

تتمثل القدرات الحسية فى قدرات الشخص على أنواع الحس المختلفة؛ مثل قدرة الإبصار، وقدرة السمع، وقدرة التذوق، وقدرة الشم، وقدرة الحس اللمسى، وقدرة الحس العضلى.

وعلاوة على حاجة الفرد إلى هذه القدرات الحسية فى توافقه فى حياته العامة والخاصة نجد أن ارتفاع بعض هذه القدرات يعتبر ضرورة لازمة للشخص حتى ينجح فى عمله المعين. وتحتم معظم مجالات العمل ومؤسساته نجاح الشخص فى اجتياز اختبارات حسية معينة كشرط لتعيينه فى الوظائف الخاصة بها؛ كوظيفة السائق على سبيل المثال.

وتعتبر القدرات الحسية هذه أدخل فى اختصاص الجانب الجسمى من الشخصية عنه فى اختصاص الجانب النفسى. ومن هنا، فإن تشخيصها وعلاجها هو أساساً من اختصاص الأطباء البشريين، الذين يبتكرون لكل منها الوسائل والاختبارات الصالحة لقياسها وتشخيصها واكتشاف جوانب العيب والقصور فيها، ويحاولون بشتى الأساليب علاج عيوبها، والتخفيف من قصورها.

وكثير من القدرات الحسية يمكن أن ينقسم بدوره إلى قدرات فرعية أكثر تخصيصاً؛ فالقدرة البصرية مثلاً يمكن أن تنقسم إلى: قدرة خاصة بالإبصار القريب، وأخرى خاصة بالإبصار البعيد، وثالثة خاصة بإبصار الألوان... إلخ.

١٠ – القدرات (أو الاستعدادات أو المهارات) الحركية Motor:

وهى مجموعة من القدرات المختصة بحركة أعضاء الجسم المختلفة، وتعنى مدى مهارة الحركة ودقتها وسرعتها وقوتها. وتعتمد هذه القدرات على عدة عوامل متفاعلة متكاملة من أهمها مستوى حيوية الفرد، وجهازه العضلى والجسمى، وخصائص جهازه العصبى، وبنائه النفسى، وخواصه الحسية. فهذه العوامل متفاعلة متكاملة تؤدى بالنشاط الحركى لأن يصبح طائشاً أو صائباً، سريعاً أو بطيئاً، قوياً أو ضعيفاً، كما أنها تحدد مقدار كل ذلك.

ومن أمثلة القدرات الحركية نجد مهارة الأصابع، ومهارة اليدين، ومهارة الساقين، والقدرة على العدو والمهارات فى أنواع الرياضات المختلفة ككرة القدم أو السلة أو السباحة... إلخ، وهناك الاختبارات النفسية والاختبارات الجسمية الخاصة بكل من ذلك، والصالحة لقياسه وفق المعايير اللازم توافرها لدقة القياس.

١١ – التآزر الحسى – الحركى Sensory - Motor Coordination :

يقصد بالتآزر الحسى – الحركى مدى دقة الحركة وسرعتها وفق ما يحسه الشخص. ويتحدد نوع التآزر الحسى – الحركى بنوع الحس والحركة المتداخلين فى هذا التآزر. فمثلاً، حركة اليد الواحدة أو اليدين فى تناسق مع ما تراه العينان تعرف بتآزر اليد والعين، وحركة اليدين والقدمين على أساس ما تراه العينان تعرف بتآزر العين واليد والقدم، وحركة اليد اليسرى فى تناسق مع ما تقوم به اليد اليمنى تسمى التآزر بين اليدين، وتحريك اليدين والقدمين وفق ما يسمعه الشخص من منبهات يسمى بالتآزر بين الأذن واليد والقدم، وهكذا...

ويلاحظ أن الأعمال الحركية تتطلب أنواعًا مختلفة من التآزرات، وبدرجات مختلفة أيضاً. فمثلاً، عمل السائق يتطلب أن يكون التآزر كبيراً بين العين والأذن واليد والقدم، ذلك أن يديه وقدميه كل منهما تقوم بحركات معينة متناسقة مع بعضهما، ومع ما تراه عيناه وتسمعه أذناه، وإلا تسبب فى حادثة أو اختلت قيادته.

ومن الجدير بالذكر أن الحركة وثيقة الصلة بالإحساس، بحيث إنها لا تتم بكفاءة عالية إلا بتوجيه من الحس، كما أن العيب فى الجهاز الحسى يترتب عليه بالضرورة نقص فى صواب الحركة. وبالمثل -أيضاً- فإن العيب فى الجهاز الحركى يؤثر على صواب الحركة بالرغم من دقة الحس وكفاءته.

وتتوقف قدرة الشخص على التآزر الحسى -الحركى- إضافة إلى كل هذا- على مستوى حيوية الشخص، وكفاءة جهازه العضلى والجسمى، وخصائص جهازه العصبى وبنائه النفسى. ومن هنا، فإننا نجد أن التآزر الحسى -الحركى، يقع فى مرحلة متميعة بين الجانب الجسمى والجانب النفسى من الشخصية، فهو ليس نفسياً خالصاً ولا جسمياً خالصاً. ولذلك نجد اهتمامات بالتآزر الحسى-الحركى، من جانب الطبيب البشرى والأخصائى النفسى على السواء.

هذا، وتوجد لمختلف أنواع التآزرات اختبارات نفسية وجسمية خاصة بكل منها وفق المعايير المطلوبة لدقة القياس.

١٢ - الذكاء الاجتماعى :

الذكاء، الذى تحدثنا عنه فى هذا الفصل، يسمى الذكاء العام General Intelligence أو القدرة العقلية العامة General Mental Ability؛ وهو -كما سبق أن ذكرنا- قدرة عقلية عامة؛ أى تتدخل فى كافة الأنشطة العقلية والذهنية والفكرية والمعرفية بدرجات مختلفة. وهكذا، فإن حل أى مسألة حسابية يتطلب إلى جانب القدرة الحسابية قدراً من الذكاء العام، كما أن إصلاح أعطال السيارة يتطلب إلى جانب القدرة الميكانيكية قدراً من الذكاء العام، كما أن التحصيل الدراسى أو التفوق العلمى أو الإبداع الفنى... يتطلب قدراً من الذكاء العام إلى جانب القدرات والاستعدادات الخاصة المناسبة لكل. أما الذكاء الاجتماعى Social Intelligence فيقع على الحدود بين الذكاء العام والقدرات الخاصة والتوافق الاجتماعى النفسى. وهو -فى واقع الأمر- أقرب إلى التوافق الاجتماعى والنفسى منه إلى الذكاء العام، ولذا فهو يُعد سمة شخصية أكثر مما يُعد قدرة عقلية. ويعتمد على سلامة البناء النفسى،

والصحة النفسية للفرد، وديناميات شخصيته وقدرته على التوافق النفسى أكثر مما يعتمد على ذكاء الفرد العام. ويعنى الذكاء الاجتماعى استعداد الفرد وإمكانياته فى التعامل المريح الناجح مع غيره من الناس، وفى إقامة علاقات اجتماعية طيبة وموفقة معهم تؤدى به إلى النجاح فى تحقيق رغباته مع إراحة الآخرين واستمتاعهم فى علاقاتهم وتعاملاتهم معه. حتى أن جيمس دريفر J. Drever فى قاموسه عن علم النفس (Drever: 1974, 273) يشير إلى أن الذكاء الاجتماعى مرادف تقريباً للباقة Tact. ومن هنا؛ فإننا قد نجد بعض مرتفعى الذكاء العام منخفضين فى ذكائهم الاجتماعى، بينما نجد بعض منخفضى الذكاء العام مرتفعين فى ذكائهم الاجتماعى أيضاً، إذ ليست العلاقة قوية بين النوعين من الذكاء نظراً لاختلاف طبيعة كل منهما.

١٣ – الذكاء الوجدانى Emotional Intelligene :

مفهوم حديث نسبياً، يمثل قدرة أو استعداداً نفسياً يقابل الذكاء العقلى بمعناه المتعارف عليه ويمكن اعتباره جانباً منه. ولا نكاد نجد إشارات عنه أو تعريفاً به، أو دراسات فيه، قبل عقدين من الزمان. ولعل أفضل تقديم له جاءنا من دانييل جولمان Daniel Goleman فى كتابه (الذكاء الوجدانى Emotional Intelligence) الذى نشر فى الولايات المتحدة عام ١٩٩٥، وترجمته ليلى الجبالى بمراجعة محمد يونس، ونُشر فى سلسلة عالم المعرفة التى تصدر عن الكويت–أكتوبر، عام ٢٠٠٠، بعنوان (الذكاء العاطفى).

وفى تقديمه لكتابه يقول لنا جولمان: «ولقد كان علىّ أن أنتظر حتى وقتنا الراهن حيث اكتمل الحصاد العلمى بما يكفى لتقديم مثل هذا الكتاب، كذلك يجئ ظهور هذه الأفكار والتأملات الواردة فيه متأخرة جداً، لأن موقع الشعور قد لقى إهمالاً غريباً من جانب الباحثين على مدى سنوات طوال، وتركت العواطف أرضاً مجهولة بالنسبة للعلم السيكولوجى. وفى ظل هذا الخواء العلمى، انتشرت كتب هدفها –على أحسن الفروض– النصيحة القائمة على الآراء الإكلينيكية التى ينقصها الكثير، وفى مقدمتها الافتقار إلى الأسس العلمية. على أن العلم أصبح بإمكانه أخيراً أن يتناول بثقة تلك الأسئلة

الملحة المحيرة المتعلقة بالنفس الإنسانية فى أكثر صورها العقلانية، وأن يرسم بقدر من اليقين خريطة للقلب الإنسانى. والواقع أن رسم هذه الخريطة عن طريق العلم يطرح تحدياً على هؤلاء الذين يؤيدون تلك النظرة الضيقة للذكاء والقائلة إن حاصل الذكاء I.Q (نسبة الذكاء) هو من المعطيات الوراثية الثابتة التى لا تتغير مع الخبرات الحياتية، وأن قدرنا فى الحياة مرهون إلى حد كبير بهذه الملكات الفطرية. ويتجاهل هذا الرأى السؤال الأكثر تحدياً والمتمثل فى: ما الذى يمكن أن نغيره لكى نساعد أطفالنا على تحقيق النجاح فى الحياة؟ وما العوامل المؤثرة التى تجعل من يتمتع بمعامل ذكاء مرتفع على سبيل المثال، يتعثر فى الحياة بينما يحقق آخرون من ذوى الذكاء المتواضع نجاحًا مدهشًا؟ إننى أذهب فى هذا الصدد إلى أن هذا الاختلاف يكمن، فى حالات كثيرة، فى تلك القدرات التى نسميها هنا (الذكاء العاطفى The Emotional Intelligence) والذى يشمل ضبط النفس، والحماس، والمثابرة، والقدرة على حفز النفس. وهذه المهارات -كما سنرى فيما بعد- يمكن تعليمها لأطفالنا لنوفر لهم فرصًا أفضل، أياً كانت الممكنات الذهنية التى منحها لهم حظهم الجينى. وفيما وراء هذا الإمكان تلوح ضرورة أخلاقية ملحة. فنحن نمر اليوم بأوقات تبدو فيها بنية المجتمع وقد أخذت فى التفكك بصورة متسارعة، كما تفسد الأنانية والعنف والخواء الروحى السواء الأخلاقى لحياتنا المجتمعية. هنا، يتوقف مسوغ القول بأهمية الذكاء العاطفى على الصلة بين الإحساس والشخصية والاستعدادات الأخلاقية الفطرية. إن هناك شواهد متزايدة اليوم على أن المواقف الأخلاقية الأساسية فى الحياة إنما تنبع من قدرات الإنسان العاطفية الأساسية. ذلك أن الانفعال، بالنسبة للإنسان، هو (واسطة) العاطفة، وبذرة كل انفعال هى شعور يتفجر داخل الإنسان للتعبير عنه نفسه فى فعل ما، وهؤلاء الذين يكونون أسرى الانفعال -أى المفتقرون للقدرة على ضبط النفس- إنما يعانون من عجز أخلاقى: فالقدرة على السيطرة على الانفعال هى أساس الإرادة وأساس الشخصية، وعلى النحو نفسه فإن أساس مشاعر الإيثار إنما يكمن فى التعاطف الوجدانى مع الآخرين، أى فى القدرة على قراءة عواطفهم، أما العجز عن الإحساس باحتياج الآخر، أو بشعوره بالإحباط فمعناه عدم الاكتراث، وإذا كان هناك موقفان أخلاقيان يستلزمهما عصرنا، فهما

على وجه التحديد: ضبط النفس والرأفة، (جولمان، ٢٠٠٠، ١١-١٢).

ولعل من أوضح عناصر الذكاء الوجدانى ومكوناته:

١ - قدرة الفرد على إدراك ومعرفة دوافعه وانفعالاته وفهم أبعادها.

٢ - قدرة الفرد على ضبط نفسه والتحكم فيها عند الاستثارة وفى الأزمات.

٣ - احتمال الفرد للإحباط والضغوط دون سرعة الانهيار تحت وطأتها.

٤ - قدرة الفرد على تأمل انفعالاته ودوافعه وضبطها والسيطرة عليها.

٥ - مدى نجاح الفرد فى توجيه انفعالاته ودوافعه وسياستها وتوظيفها بشكل إيجابى ناجح يحقق مصلحته ومصالح الآخرين؛ كأن يختار أفضل وأنجح البدائل السلوكية المتاحة.

٦ - قدرة الفرد على إدراك ومعرفة وفهم دوافع الآخرين وحالاتهم الانفعالية؛ لكى يحسن التعامل معهم ومشاركتهم وجدانيًا، والتعاطف معهم انفعاليًا؛ مما يزيد توافقه بينهم، والنجاح والسعادة فى علاقاته المتبادلة معهم.

٧ - قدرة الفرد ومثابرته وإصراره على مواصلة بذل الجهد لتحقيق أهدافه الإيجابية التى تمثل صالحه وصالح الآخرين أو على أقل تقدير لا تتعارض معها.

٨ - إحساس الفرد بالسعادة والتفاؤل والأمل.

٩ - إحساس الفرد بالثقة فى نفسه، والرغبة فى تحقيق ذاته، وتطوير نفسه بالطرق المشروعة، والوسائل الخيرة.

١٠ - استعداد الفرد لإيثار الآخرين والبعد عن الأنانية والأثرة.

١١ - قدرة الفرد على تخفيف استياء الآخرين وضيقهم وإراحتهم مما يعانونه من وجدانات سلبية تؤدى إلى حزنهم واكتئابهم.

١٢ - مدى الاتزان الانفعالى للفرد واعتدال مستوياته الانفعالية ومدى ملاءمتها ومناسبتها للمواقف الاجتماعية والظروف البيئية.

هذا؛ وقد قامت منى سعيد أبو ناشى بدراسة عاملية عن الذكاء الوجدانى وعلاقته

بالذكاء العام والمهارات الاجتماعية والسمات الشخصية (منى سعيد أبو ناشى: ٢٠٠٢، ١٤٥-١٨٨)، أشارت فى خلاصتها إلى أنها أسفرت عن:

- وجود ارتباط جزئى بين الذكاء الوجدانى والذكاء العام.
- وجود ارتباط بين الذكاء الوجدانى والمهارات الاجتماعية.
- وجود ارتباط بين الذكاء الوجدانى وسمات الشخصية.
- اتضح من خلال التحليل العاملى للدرجة الكلية للذكاء الوجدانى، والمهارات الاجتماعية، وسمات الشخصية والذكاء العام عدم وجود تمايز بين الدرجة الكلية للذكاء الوجدانى وسمات الشخصية.
- كما أسفر التحليل العاملى لأبعاد الذكاء الوجدانى ومتغيرات الدراسة الأخرى عن عدم وجود تمايز بين بعض أبعاد الذكاء الوجدانى والمهارات الاجتماعية والذكاء العام، كما اتضح عدم وجود تمايز بين أبعاد الذكاء الوجدانى وأبعاد سمات الشخصية، (المرجع السابق: ١٨٢-١٨٣).

وهذا يؤيد ما سبق أن قدمت به الباحثة لبحثها؛ وما يراه كثير من علماء النفس من أن الذكاء الوجدانى يقع على حدود الذكاء العام والمهارات الاجتماعية والاتزان الإنفعالى وسمات الشخصية، ويأخذ منها جميعاً، ويتداخل معها جميعاً؛ وإن ظل مميزاً عن أى منها بدرجات متفاوتة. ففى رأينا أنه ميل إى كونه سمة من سمات الشخصية تجنح نحو ذكائها العام، واتزانها الانفعالى.

ولاشك فى أن ارتفاع مستوى الذكاء الوجدانى علاوة على أهميته لنجاح كل فرد فى حياته إلا أنه يزداد أهمية لدى من يعملون فى مهن الخدمات والعلاقات المتبادلة مع الآخرين.

هذا؛ ويلاحظ أن الباحثين والمتخصصين العرب، بدؤوا يولون موضوع الذكاء الوجدانى ومظاهره اهتماماً خاصاً نلمسه فى بعض بحوث جادة، وجهود علمية هامة تتعلق بإعداد مقاييس عربية له، ودراسات جادة لجوانبه ومظاهره (راجع بهذا الخصوص: عادل

هريدى ٢٠٠٢، ٥٧-١٠٨). ويجدر بنا هنا أن نشير أيضًا إلى الدراستين اللتين نشرهما عثمان حمود الخضر من الكويت عن «الذكاء الوجدانى... هل هو مفهوم جديد؟» بمجلة دراسات نفسية المصرية (يناير ٢٠٠٢)، وعن «تصميم مقياس عربى للذكاء الوجدانى والتحقق من خصائصه السيكومترية وارتباطاته» ونشرها أيضًا بالمجلة نفسها (أبريل ٢٠٠٦). إضافة إلى الدراسة الميدانية التى قام بها عادل محمد هريدى فى مصر؛ ونشرها بمجلة دراسات عربية فى علم النفس المصرية (أبريل ٢٠٠٣) عن «الفروق الفردية فى الذكاء الوجدانى فى ضوء المتغيرات الحيوية/ الاجتماعية».

ومما لاشك فيه أن نجاح الإنسان فى حياته يحتاج إلى كل من الذكاء العام والذكاء الاجتماعى والذكاء الوجدانى فى نفس الوقت، حيث لايغنى أحدهم عن الآخر؛ بينما يستطيع الإنسان أن ينجح فى حياته إذا انعدمت لديه بعض القدرات الخاصة وتوافرت أخرى غيرها (كما هو الحال لدى المكفوفين أو الصم أو البكم أو المشلولين أو مقطوعى الأطراف...)

بطارية الاختبارات Test Battery

هى مجموعة اختبارات تطبق معاً فى موقف معين، أو تحقيقاً لهدف معين. فمثلاً، إذا كنا بإزاء اختيار طلبة لأحد الأقسام العلمية بالتعليم الجامعى الذى يلزمه -على سبيل المثال- ذكاء مرتفع، وقدرة عالية فى اللغة الإنجليزية، وذاكرة قوية، وصحة نفسية جيدة؛ ثم طبقنا على من يريدون الالتحاق به اختباراً فى الذكاء، واختباراً فى اللغة الإنجليزية، واختباراً فى الذاكرة، واختباراً فى الصحة النفسية لكى نختار طلبة هذا القسم وفقاً لنتائجها، فإننا نطلق على مجموعة هذه الاختبارات الأربعة تسمية «بطارية اختبارات الالتحاق بقسم كذا»، وهكذا...

وهناك بطاريات اختبارات أعدت وقننت على البيئة المصرية، خاصة فى مجال

القدرات الخاصة؛ مثل بطارية اختيار حرف المعادن، وبطارية اختيار حرف الجلود وبطارية اختيار حرف الزجاج، وهى بطاريات أعدتها وقننتها مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى بوزارة الصناعة، تحت إشراف السيد محمد خيرى، لاختيار تلاميذ مراكز التدريب المهنى التابعة لها من الحاصلين على الإعدادية العامة. وقد قامت المصلحة بنشرها فى كتيب «الاختيار السيكولوجى لتلاميذ مراكز التدريب المهنى» (السيد محمد خيرى: ١٩٧٦). ومثل أيضاً «بطارية اختبارات التوجيه المهنى للصبية». وقد أشرف على إعدادها فرج عبد القادر طه، لكى تستخدمها وزارة القوى العاملة فى توجيه الصبية، الذين يلجؤون إلى مكاتب التوجيه المهنى التابعة للوزارة والمنتشرة فى أنحاء مصر طلباً لتوجيههم إلى المهن المختلفة (فرج عبد القادر طه: ١٩٨٠). وكذلك «بطارية اختبارات الاستعدادات الحسية الحركية للمكفوفين»، والتى أعدها فرج عبد القادر طه للاستعانة بها فى توجيه المكفوفين إلى المهن التى يمكن أن يدربوا أو يؤهلوا عليها (فرج عبد القادر طه: ١٩٧٤). وكل بطارية من تلك البطاريات تتكون من عدة اختبارات كل منها يقيس استعداداً أو قدرة خاصة به. وقد تم تقنين كل اختبار منها فى البيئة المصرية، وعلى العينات المناسبة، وبكتيبات البطاريات تسجيل وافٍ لخطوات التقنين ونتائجها عن كل اختبار.

نماذج لاختبارات الذكاء والقدرات والاستعدادات الخاصة

ليس من المستحب نشر فقرات من الاختبارات النفسية حتى لا تذاع فتفقد بذلك قدرتها على القياس النفسى. والأمر فى هذا يشبه (الفزورة) التى تظل ذات قدرة -إلى حد ما- على التفرقة بين ذوى الذكاء العالى وذوى الذكاء الأقل طالما لم تنتشر، حتى إذا ما أذيعت فقدت هذه القدرة؛ حيث يصبح لدى الكثير من ذوى الذكاء المنخفض معرفة بحلها. ولهذا، فإن من العرف السائد لدى ناشرى الاختبارات النفسية فى بلاد العالم

المتقدمة هو عدم نشرها وعرضها للاستخدام إلا بعد استكمال تقنينها، هذا من جانب، ومن جانب آخر عدم السماح بشرائها أو الاطلاع عليها إلا للمختصين، الذين سوف يستخدمونها استخداماً علمياً هادفاً، وفقاً لأخلاقيات القياس النفسى المتعارف عليها. (راجع بهذا الخصوص ملحق الكتاب: الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر).

وبناءً على هذا، فسوف نعطى نماذج فقط (لبعض اختبارات الذكاء والقدرات والاستعدادات الخاصة) على أن تشمل هذه النماذج الوحدات والأسئلة التدريبية، والتى يسمح للمفحوص بالتدريب عليها ومعرفة حلها، لمعرفة كيفية حل الاختبارات، وهى لهذا ليست وحدات داخلة فى تكوين الاختبار نفسه، ولا تؤثر معرفتها على درجة الاختبار إذ هى خارجة عنه. ومن ثم، فإن ذيوعها لا يؤثر على صلاحية الاختبار (حتى لا يفسد الاختبار الذى قد يكون معده استغرق فى إعداده وتقنينه عدة سنوات). وسوف تكون هذه النماذج قليلة طالما أن هذا ليس مؤلفاً خاصاً بالقياس النفسى. بل إننا نقدمها -فقط- لنعطى القارئ، أو الدارس لأصول علم النفس العام فكرة مجسمة، لما سبق لنا أن أعطيناه من أفكار نظرية عن بناء فقرات الاختبار ووحداته وطبيعتها وخصائصها ووظائفها.

ولما كان قد سبق لنا فى مؤلفنا علم النفس الصناعى والتنظيمى أن عرضنا عدة نماذج لفقرات وأجزاء للاختبارات النفسية، ونرى الآن أنها تصلح للوفاء بهذا الخصوص فى كتابنا هذا، فإننا نعيد هنا عرضها. (فرج عبد القادر طه: ٢٠٠١، ٢٢٦-٢٣٦، أو ١٩٨٦، ١٩٤-٢٠٣).

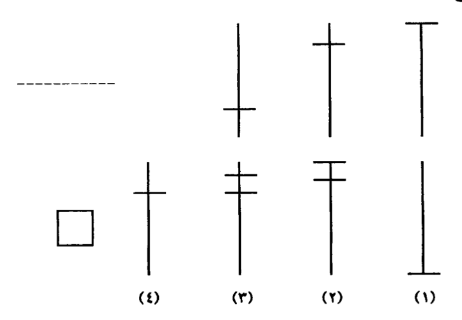
١ - الذكاء Intelligence:

(عن اختبار الذكاء الإعدادى للسيد محمد خيرى)، السابق الإشارة إليه.

مثال (٤) :

فى المثال سلسلة من أربعة أشكال مرتبة ترتيباً خاصاً، حذف منها الشكل الرابع ووضع

مكانه نقط –اختر الشكل المحذوف فى السلسلة من الأشكال الأربعة التى تحتها، وضع رقمه فى الربع المقابل.



مثال (٥) :

فيما يأتى درجات أربعة تلاميذ فى إحدى المواد–اكتب ترتيب كل تلميذ منهم فى خانة الترتيب، ثم أكمل الجمل التى بعد الجدول.

الاسم	الدرجة	الترتيب
حسن	٢٥	
محمود	١٦	
محمد	٣٩	
أحمد	٢٢	

فيكون ترتيب حسن هو :

(أ) الأول (ب) الثانى (ج) الثالث (د) الرابع

مثال (٦) :

ضع علامة X في المربع المقابل لأحسن إجابة :

نحن نلبس الملابس:

(أ) لأن الملابس تحمى أجسادنا من الحر والبرد ☐

(ب) لأن الملابس لها ألوان جميلة. ☐

(جـ) لأن الملابس تميز بين الولد والبنت ☐

(د) لأن الملابس تحسن المنظر ☐

٢ – الاستدلال اللفظى Verbal Reasoning:

(عن اختبار الاستدلال اللفظى من كتيب الاختيار السيكولوچى لتلاميذ مراكز التدريب المهنى– مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى بوزارة الصناعة)، والسابق الإشارة إليه. وفيما يلى نموذج لما يطلب فى الاختبار:

فى كل سؤال مما يأتى جملة تنقصها كلمة –اختر الكلمة التى تكملها على أصح وجه من بين الكلمات الخمس التى تحتها، أملأ الخانة التى تدل على الكلمة الصحيحة فى ورقة الإجابة:

مثال (١) :

عكس أمل هو: ....

(أ) حزن (ب) يأس

(جـ) بؤس (د) حب (هـ) كره

الإجابة الصحيحة التى تكمل الجملة السابقة على أحسن وجه هى كلمة يأس، فتكون الجملة (عكس أمل هو يأس)– لذلك ملأنا الخانة (ب) أمام مثال (١) فى ورقة الإجابة كما هو مبين هنا:

(أ)	(ب)	(جـ)	(د)	(هـ)
‖	█	‖	‖	‖

مثال (٢) :

يشعر الوالد عادة نحو أولاده: ....

(أ) بالاحترام (ب) بالسرور

(جـ) بالشفقة (د) بالحب (هـ) بالرضا

الإجابة الصحيحة التى تكمل الجملة السابقة على أحسن وجه هى كلمة (بالحب) فتكون الجملة يشعر الوالد نحو أولاده بالحب–لذلك ملأنا الخانة (د) أمام المثال (٢) فى ورقة الإجابة، وكما هو مبين هنا:

(أ)	(ب)	(جـ)	(د)	(هـ)
‖	‖	‖	▌	‖

مثال (٣) :

حينما ينبح كلب على طفل فإنه: ....

(أ) لا يخاف مطلقاً (ب) يخاف بشدة (جـ) يخاف أحياناً (د) يخاف دائماً (هـ) يخاف عادة

الإجابة الصحيحة التى تكمل الجملة السابقة على أحسن وجه هى كلمة (يخاف عادة)، فتكون الجملة (حينما ينبح كلب على طفل فإنه يخاف عادة) لذلك ملأنا الخانة (هـ) أمام مثال (٣) فى ورقة الإجابة، وكما هو مبين هنا.

(أ)	(ب)	(جـ)	(د)	(هـ)
‖	‖	‖	‖	▌

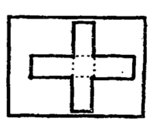
لاتنسى أن لكل سؤال إجابة واحدة فقط، والمطلوب أن تملأ الخانة التى تدل عليها فقط فى ورقة الإجابة.

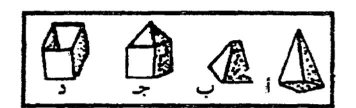
٣ – الاستعداد المكانى أو التصور المكانى Spatial:

(عن اختبار التصور المكانى من نفس الكتيب السابق ذكره).

وفيما يلى نموذج لما يطلب فى الاختبار:

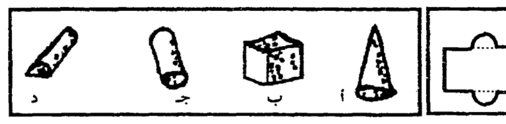
مثال (أ):





فى المربع الذى على اليمين تلاحظ قطعة مسطحة من الورق المقوى، إذا ثنيت هذه القطعة من مكان الخطوط المتقطعة فإنها تتحول إلى شكل واحد من الأشكال الموجودة فى المستطيل الذى على اليسار. لاحظ أن قطعة الورق لا يمكن أن تتحول إلا إلى الشكل(د). وطريقة الإجابة أن تسود تحت الرمز (د) أمام مثال (أ) فى ورقة الإجابة.

مثال (ب):



وفى المثال (ب) الذى فى المربع على اليمين تجد قطعة أخرى مسطحة من الورق لو ثنيت من مكان الخطوط المتقطعة فإنها لا تنتج إلا الشكل (جـ) فقط، سود الرمز (جـ) أمام مثال (ب) فى ورقة الإجابة.

٤ – السرعة الإدراكية Perceptual Speed:

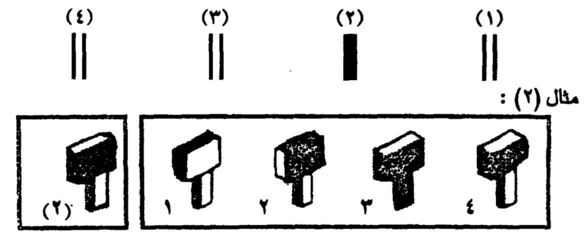
(عن اختبار سرعة إدراك العدد الذى أعده محمود عبد القادر محمد على عن بطارية الاستعدادات العامة (G. A. T. B) أثناء دراسته عن العوامل التى تتضمنها القدرة الميكانيكية (محمود عبد القادر محمد على: ١٩٦٣).

هذا الاختبار يبين قدرتك على سرعة مقارنة الأشكال.

مثال (١) :



المربع الذى على الشمال يوجد به شكل (شاكوش) مظلل بطريقة معينة، وفى المستطيل الذى على اليمين أربعة صور لنفس الشكل ولكنها مختلفة فى طريقة تظليلها إلا شكل (٢) يتفق فى طريقة التظليل. وقد وضعت علامة عند الخانة (٢) كما هو مبين بالتالى:



مثال (٢) :

بنفس الطريقة يمكن أن تقارن بسرعة أياً من الأشكال الأربعة التى فى المستطيل الذى على اليمين تتفق فى طريقة تظليلها مع شكل (٢) الذى على الشمال، كما هو مبين بالتالى:



والمهم أن يتم ذلك بأسرع ما يمكن.

لا تقلب الصفحة إلا بعد أن يطلب منك ذلك.

٥ – السرعة الحركية Motor Speed :

فيما يلى نموذج لاختبار من تصميم مؤلف هذا الكتاب استخدمه فى دراسته الميدانية عن سيكولوچية الحوادث (فرج عبد القادر طه: ١٩٧٩) والاختبار عبارة عن ورقة مقسمة إلى ٣٣٠ مربعًا طول ضلع كل منها ١,٧ سم تقريبًا. ويطلب من الفرد وضع نقطة بالقلم الرصاص وبأسرع ما يمكنه داخل كل مربع منها دون أن يترك مربعًا واحداً. والدرجة على الاختبار هى ناتج قسمة ١٠٠٠ على عدد الثوانى التى يستغرقها الفرد للانتهاء من الاختبار. وهكذا؛ إذا انتهى منه فى ١٠٠ ثانية تصبح درجته $\frac{١٠٠٠}{١٠٠}$ = ١٠ درجات، أما إن انتهى منه فى ٢٠٠ ثانية فإن درجته تصبح $\frac{١٠٠٠}{٢٠٠}$ = ٥ درجات؛ أى نصف الدرجة فى الحالة الأولى، طالما أن الحالة الأولى أسرع، حيث كانت نصف الوقت فى الحالة الثانية؛ وهكذا كلما زادت السرعة زادت الدرجة بنفس النسبة. (انظر النموذج فى الصفحة التالية).

٦ – الاستعداد الميكانيكى Mechanical Aptitude:

اختبار التجميع الميكانيكى Mechanical Assembly عن كتيب الاختيار السيكولوچى السابق ذكره. والاختبار عبارة عن ماكينة صغيرة تتكون من مجموعة من التروس ويد لتحريكها، وتنتهى هذه التروس بدقّاق يدق على قاعدة متصلة برافعة من النوع الأول، وتصل مجموع وحداته إلى ١٣ قطعة؛ كل جزء منها متميز عن الآخر تمامًا. وللجهاز قاعدة مثبتة على صندوق خشبى له غطاء محكم. ويطلب من التلميذ (أو المفحوص أيًا كان) مشاهدة الجهاز وهو يتحرك لمدة دقيقتين. ثم يقدم له نفس الجهاز وهو مفكك ويطلب منه تجميعه فى ٣ دقائق. والدرجة القصوى للاختبار ١٣ (ص ٤٠ من الكتيب المذكور فى طبعته الأولى بدون تاريخ).

٧ – المعلومات الميكانيكية :

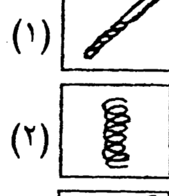
من اختبار المعلومات الميكانيكية عن الكتيب السابق ذكره:

فيما يلى نموذج يوضح ما يطلب فى الاختبار (انظر أعلى الصفحة رقم ٢٢٩).

نموذج لورقة تسجيل الإجابة لاختبار السرعة الحركية. والمفروض أن تشتمل ورقة الإجابة على ٢٣٠ مربعًا طول ضلع كل منها ١,٧ سم تقريبًا، كما سبق أن ذكرنا.

اكتب رقم كل شكل أمام اسمه فى ورقة الإجابة:

أمثلة



* زراذية
* ياى
* كماشة
* بنطة
* مبرد

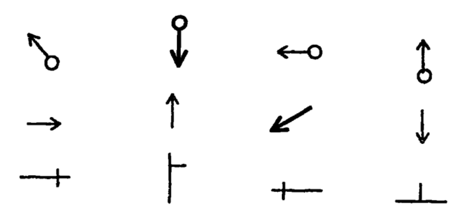
– لاتكتب أس شيء ولاتضع أية علامة فى هذه الكراسة.
– لاتقلب هذه الصفحةحتى يؤذن لك بالبدء فى الاختبار.

٨ – الذاكرة Memory:

(عن اختبار تذكر الأشكال الذى أعده السيد محمد خيرى ننقله عن الكتيب السابق ذكره)، وفيما يلى نموذج لما يطلب فى الاختبار:

يعطى المختبر (المفحوص) مثلاً ثلاثة أشكال كالآتية:

ويطلب منه حفظها فى وقت محدد، ثم تستبعد من أمامه ويعاد تقديمها له بعد وضع كل شكل منها فى مجموعة تشبهه كما يلى:



ويطلب من المختبر أن يميز الشكل الذى سبق أن حفظه من بين أشكال كل مجموعة.

٩ - ثبات اليد Hand - Steadiness :

اختبار ثبات اليد عن الكتيب السابق ذكره فى طبعته الثانية (١٩٧٦)، ويقيس الاختبار أساساً القدرة على التحكم فى حركة اليد، ويتكون الجهاز من لوحة معدنية، بها تسعة ثقوب متدرجة من حيث الاتساع (من ١٢,٨٠ مم إلى ٢,٧٠مم) وقلم من الصلب سمكه ١,٤٥مم؛ ويطلب من المفحوص أن يدخل القلم الصلب فى كل ثقب على التوالى بحيث لا يلمس حواف الثقب، وكل لمسة من القلم لتلك الحواف يتم بها اتصال دائرة كهربائية متصلة بعداد كهربائى يسجل تلك اللمسات كأخطاء. ويتم إجراء الاختبار على مرحلتين: فى المرحلة الأولى، وهى مرحلة التصويب، يطلب من المختبر أن يصوب القلم المعدنى ويدخله فى كل ثقب من الثقوب التسعة على التوالى فى محاولتين؛ وتحسب الأخطاء عن طريق العداد. وفى المرحلة الثانية يطلب من المختبر أن يدخل القلم المعدنى داخل الثقب الخامس (وقطره ٤,٤٠مم، بحيث لا يلمس حواف الثقب ويحتفظ به فى وسط الثقب دون أن يستند القلم على شيء وذلك لمدة ٢٠ ثانية ثم تسجل الأخطاء عن طريق العداد الكهربائى (ص ٤٦-٤٧).

علاقات الذكاء بظواهر وقضايا نفسية هامة

١ - الذكاء والقدرات الخاصة والمرض النفسي أو العقلي:

ليست هناك علاقة واضحة بين الذكاء والقدرات الخاصة من جانب وبين المرض النفسي أو المرض العقلي من جانب آخر؛ فالمرض النفسي أو العقلي إنما يصيب جانباً معيناً من الشخصية هو دوافعها وديناميتها بالدرجة الأولى. ولذا، قد يبقى الذكاء والقدرات الخاصة بمنأى عن التأثير الكبير بهذه الإصابة. وما من شك في أننا نعرف عن أخبار وتاريخ من نقرأ عنهم من عباقرة الإنسانية ومشاهير التاريخ السياسي والحضاري والعلمي والفني... أن بعضاً منهم كان مصاباً بالجنون، أو الاضطرابات العقلية والنفسية، أو الانحرافات السلوكية الواضحة. ومع ذلك، أو بالرغم من ذلك -كما يرى يوسف مراد- ظهرت عبقريتهم وذاعت شهرتهم، مما يوحي بأن الاضطرابات والأمراض والانحرافات النفسية والعقلية لا تعطل الإنجاز الفكري أو الإبداعي أو العلمي... عندهم (يوسف مراد: ١٩٧٤، ٢٠١-٢١١).

كما أن خبرتنا بكثير من المرضى النفسيين والعقليين أو المنحرفين أو المجرمين تؤكد لنا استمتاع كثير منهم بمستويات ذكاء وقدرات خاصة شديدة الارتفاع.

ومع ذلك، فإن هناك أنواعاً معينة من الأمراض العقلية والنفسية (قليلة ومحددة) تؤثر على ذكاء الفرد وقدراته الخاصة كنتيجة للإصابة بها؛ كالفصام وخبل الشيخوخة، على نحو ما سوف نعرض له في الباب الثالث من هذا الكتاب. وما نريد أن نؤكده هو أنه لا توجد علاقة بين الذكاء والجنون، فيوجد مجانين أذكياء، كما يوجد مجانين متوسطو الذكاء، كما يوجد مجانين أغبياء، وهذا عكس ما هو شائع عند العامة من ارتباط العبقرية بالجنون، أو من تأثر الذكاء والقدرات الخاصة بالجنون.

٢ - الفروق بين الشعوب في الذكاء والقدرات الخاصة:

لا توجد هناك فروق بين الشعوب في الذكاء. فكل شعب نجد فيه كافة مستويات الذكاء وبنسب توزيعها المعتادة، حيث يكثر فيه متوسطو الذكاء، وكلما بعدنا عن المتوسط بالزيادة

أو النقصان قلت نسب الأفراد. وعلى هذا، فإنه يوجد عباقرة فى مصر كما يوجد فى أمريكا أو انجلترا أو فرنسا، وبالمثل يوجد ضعاف عقول أيضًا. فإذا قامت دراسة ميدانية أثبتت غير هذا، يكون من المرجح وجود خطأ منهجى بها، أو تكون الاختبارات التى استخدمتها صالحة لشعب دون الآخر، ومن ثم يكون قد وقع بتقنينها ضعف معين، خاصة وأننا نعلم أن بناء الاختبار وتقنينه يرتبط أساساً بالمجتمع الذى وضع الاختبار فيه وقنن.

وإذا سلمنا بانعدام الفروق فى الذكاء بين الشعوب، فلماذا يتقدم شعب ويتخلف آخر؟ ولماذا يحقق شعب مستوى ثقافيًا أو علميًا أو حضارياً أو تكنولوجيًا أو اقتصادياً أو اجتماعيًا أعلى من شعب آخر؟ إن ذلك يرجع إلى حسن استغلال عباقرته وأذكيائه وحسن تربيتهم وسلامة مناهج وطرق تعليمهم، وكفاءة إدارتهم وقيادتهم من حيث إتاحتها وتشجيعها وتهيئتها لفرص الإبداع والاختراع والتفوق العلمى والمهنى... ويرجع – بالإضافة إلى كل ذلك أيضًا– إلى المستوى العلمى والاقتصادى والحضارى والثقافى والأخلاقى الذى وصل إليه هذا الشعب. وكل هذه أمور يختلف كل شعب فيها عن الآخر، وكل طائفة عن الأخرى، على نحو ما يختلف الأفراد فيما بينهم داخل المجتمع الواحد.

وإذا كانت الشعوب لا توجد بينها فروق فى الذكاء؛ إلا أنه توجد بينها فروق واضحة فى القدرات الخاصة، وذلك نتيجة لكون القدرات الخاصة أكثر تأثراً بالبيئة منها بالوراثة؛ على نحو ما سوف نشير إليه فيما بعد، ونتيجة –أيضًا– لأن بيئات الشعوب تختلف فيما بينها؛ فهذا شعب غنى، وذاك فقير، وهذا شعب متقدم، وذاك متخلف، وهذا نظم التعليم فيه مختلفة عن ذاك، وهذا يغذى فى أبنائه اتجاهات واستعدادات تختلف عن ذاك.. فمثلاً، قدرة الطفل اليابانى على التعامل مع الكمبيوتر وتشغيله أضعاف أضعاف ما هى عليه بالنسبة للطفل المصرى، وقدرة الإنسان الأمريكى فى إصلاح مايحتاجه بيته من سباكة وكهرباء ونجارة... أضعاف قدرة المصرى... إلخ... ولاشك أن هذا يسهم أيضًا –إلى جانب ما سبق أن ذكرناه فى الفقرة السابقة عن تمايز الشعوب– فيما يتعلق بمستويات التقدم والتخلف الاقتصادى والثقافى والعلمى والحضارى...

٣ - الفروق بين الجنسين في الذكاء والقدرات الخاصة:

لا يكاد يختلف الذكور عن الإناث فى المتوسط العام للذكاء؛ إذ أن متوسط نسبة ذكاء كل منهما هو «١٠٠». كما أننا نجد كافة مستويات الذكاء (من مستوى العبقرى حتى مستوى ضعيف العقل) فى كل من الجنسين، وفى أى شعب من شعوب العالم. إلا أن هناك فرقاً جوهرياً فى توزيع الذكاء بين الجنسين يتمثل فى أن الذكور أكثر تشتتاً وتبايناً بعضهم عن بعض عما هو حادث بالنسبة للإناث. كما أن نسبة العباقرة ترتفع فى الذكور عما هى عليه فى الإناث فيكثر الذكور العباقرة بينما تقل الإناث العبقريات. ويكون الأمر بالمثل فى حالة الضعف العقلى حيث ترتفع نسبة ضعاف العقول فى الذكور عنها فى الإناث. ولعل هذا وغيره يفسر لنا ارتفاع معدلات العباقرة والمخترعين والمبدعين والعظماء والرواد فى المجالات الفنية والعلمية والسياسية والعسكرية وغيرها فى الذكور، وندرتها فى الإناث.

لكن إذا ما انتقلنا إلى القدرات الخاصة فسوف نجد بعض الفروق بين الجنسين. فمما تسجله أنستازى Anastasi فى الفصل الذى كتبته عن الفروق الكبرى بين الجماعات فى كتاب ميادين علم النفس: «وقد لوحظ باستمرار أن الذكور يمتازون دائمًا (فى المتوسط العام) فى مختلف نواحى القدرة الميكانيكية والقدرة المكانية... وكذلك... يتفوق البنين بقدر له دلالته، وكان ذلك واضحاً فى مسائل الاستدلال الحسابى، والابتكار فى حل مسائل صعبة فى الاستدلال الحسابى، وكذلك مسائل الاستقراء واستخلاص القواعد العامة من الحقائق العديدة» (أنستازى: ١٩٥٦، ٦٠٣- ٦٠٤). أما عن الإناث فتذكر فى نفس المرجع... «تفوق الإناث -بصفة عامة- فى اختبارات القدرة على القيام بأعمال السكرتارية، فحينما طبق أحد هذه الاختبارات: اختبار مينسوتا للأعمال الكتابية Minnesota تبين أن ١٦ ٪ فقط من الذكور تفوق درجاتهم الدرجة الوسطى لدرجات الإناث. ويتطلب هذا الاختبار مراجعة وموازنة قوائم بالأسماء وبالنمر وعمل المقارنات اللازمة واكتشاف نواحى التشابه والاختلاف. وإن تفوق الإناث فى جميع هذه العمليات يعنى إدراك التفاصيل مع الدقة والسرعة، بنفس الكيفية التى سبق أن تعرضنا لها حينما تحدثنا عن تفوقهن فى اختبارات المهارة اليدوية، والرشاقة والمهارة فى استخدام الأصابع.

وكذلك، أظهرت الإناث دائماً تفوقًا واضحاً في القدرة اللفظية أو اللغوية. ويبدأ هذا الفرق في الظهور في سن مبكرة ويستمر طوال الحياة، وقد أوضحت الملاحظات على جميع الأطفال، سواء في ذلك العاديون أو النوابغ أو ضعاف العقول أن البنات -في المتوسط- يبدأن في الكلام قبل الأولاد. وكذلك البنات في سن ما قبل دخول المدرسة يكون محصولهن اللغوى أكثر من البنين. كذلك وجد أنه في جميع الأعمار تكون نسبة الإصابات باضطرابات الكلام أو التأخر في القراءة أقل كثيراً عند البنات منها عند البنين... كذلك، وجد أن الإناث يمتزن في معظم اختبارات التذكر، (المرجع السابق، ٦٠٥- ٦٠٦) . أما عن المهارات والقدرات الحسية، فتشير أنستازى وفولى Anastasi & Fley إلى أن الفروق بين الجنسين بسيطة وغير واضحة باستثناء ارتفاع نسبة عمى الألوان عند الذكور في المقارنة بالإناث، إذ تبلغ عند الذكور حوالى ثمانية أضعاف ما هى عليه عند الإناث. (Anastasi & Fole: 1954, 647) .

٤ - الذكاء والقدرات الخاصة والتحصيل الدراسي :

يعتمد التحصيل الدراسى (وكذا التدريب المهنى أو أى تدريب تخصصى) على عوامل أساسية من أهمها الذكاء، والقدرات الخاصة المناسبة، وظروف الفرد البيئية، وحالته النفسية والجسمية... ويبدو هذا أوضح ما يكون في التحصيل الدراسى بالمدرسة الابتدائية والإعدادية؛ حيث يقوم مستوى ذكاء الفرد وذاكرته بدور واضح في هذا التحصيل. ويرتبط تحصيل التلميذ ارتباطاً عاليًا بذكائه حتى أنه يصعب على ضعيف العقل أن ينجح في تحصيله الدراسى بالمدرسة الابتدائية، كما يصعب على الغبى أن ينجح في التحصيل الدراسى بالمدرسة الإعدادية، ويصعب على من هو دون المتوسط في الذكاء أن ينجح في مستوى التعليم العالى. وكلما كان التعليم عاماً كان اعتماده على الذكاء أكثر من القدرات الخاصة، بينما يعتمد التعليم النوعى على القدرات الخاصة أكثر من اعتماده على الذكاء، ففى مصر؛ أشرف فرج عبد القادر طه على بحث ميدانى قامت به جامعة عين شمس عن التحصيل الدراسى والذكاء والشخصية (فرج عبد القادر طه: ٢٠١٠، ١٨١-٢٣٦) على عينة من طلبة الجامعة، تبين منه أن معامل الارتباط الثنائى بين التحصيل والذكاء كان

+٠,٢٠٥ وهو معامل دال إحصائيًا، وإن كان يقل عن المتوقع خاصة فى حالات التعليم العام دون الجامعى والذى يزيد عن ٠,٥ فى بحوث كثيرة (فرج عبد القادر طه: المرجع السابق، ٢٠٦) على اعتبار أن الذكاء قدرة عقلية عامة. فعلى سبيل المثال، ينجح فى قسم الرسم، سواء بالتعليم المتوسط أو العالى من كان ممتازاً فى القدرة الفنية الخاصة بالرسم حتى لو كان متوسط الذكاء، بينما يفشل فى هذا القسم من كان ضعيفًا فى القدرة الفنية الخاصة بالرسم حتى لو كان شديد الذكاء. ويصدق نفس الأمر على قسم الميكانيكا سواء بالتعليم المتوسط أو العالى، حيث تقوم القدرة الميكانيكية أو الاستعداد الميكانيكى بدور أهم من دور الذكاء... وهكذا..

٥ - الذكاء والقدرات الخاصة والنجاح المهني:

يعتمد نجاح الفرد فى عمله على عوامل كثيرة؛ مثل شخصيته واتزانها، وتأهيله ونوعيته، وخبرته ومداها، وذكائه، وقدراته الخاصة أيضاً.

وعلاقة النجاح المهنى بالذكاء والقدرات الخاصة تكاد تتشابه مع علاقتهما بالتحصيل الدراسى ونوعيته. فكل عمل معين يحتاج مستوى ذكاء معين، وقدرات خاصة معينة، وبدرجات معينة أيضاً، حسب نوعية العمل. فمثلاً، مدرس اللغة العربية بالمدرسة الثانوية يحتاج إلى ذكاء فوق المتوسط على الأقل، وإلى قدرة لغوية عالية (فى اللغة العربية) وإلى طلاقة لغوية، وإلى سلامة نطق الحروف دون عيب، وإلى ذاكرة قوية، وإلى مؤهل عال فى اللغة العربية... إلخ، فى حين أن المهندس الميكانيكى -على سبيل المثال- يحتاج إلى ذكاء فوق المتوسط أيضًا، مع استعداد أو قدرة ميكانيكية عالية المستوى، وإلى مؤهل عال فى الميكانيكا، لكن لن تهمنا طلاقته اللغوية، ولا قدرته على نطق الحروف نطقًا سليمًا دون عيب... أما مهنة المحامى أو القاضى فإنهما يحتاجان إلى ذكاء شديد؛ مع قدرة فى المحامى على الإقناع. هذا إضافة إلى استعدادات وخصائص أخرى تلزم لكل منهما. وهناك بعض الأعمال التى لاينجح فيها إلا ضعاف الذكاء، بحيث إذا عمل بها متوسطو الذكاء أو مرتفعوه فشلوا فيها، حيث يحب الإنسان فى عمله أن يتحدى قدراته، فإن وجده

دون قدراته بكثير ضاق به وتسرب إليه الملل، فيفشل عند ذاك فيه. ومن طريف التجارب ما قام بها بل Bill (السيد محمد خيرى: ١٩٥٨، ٥٨-٥٩) على بعض عمال عينوا فى مهن تتطلب كل منها مستوى ذكاء مختلف، حيث طبق عليهم اختباراً للذكاء، ثم عاد إلى هؤلاء العمال بعد عامين ونصف ليحصى من ظل منهم فى عمله ومن تركه، فتبين له أن أغلب الأذكياء تركوا العمل الذى يحتاج إلى ضعاف الذكاء. وأن أغلب الأغبياء قد تركوا العمل الذى يحتاج إلى ارتفاع الذكاء. وترك العمل هنا معناه الفشل المهنى؛ فالفرد المتوافق فى عمله -عادة- لا يفصله رؤساؤه بالرغم منه، أو لا يتركه إلى غيره برضاه. والدراسة العلمية لكل عمل (أو تحليله) هى التى تحدد مستوى الذكاء المناسب للعمل، كما تحدد -أيضاً- القدرات الخاصة... وغيرها مما يلزم للعمل.

٦ - الذكاء والقدرات الخاصة والتوافق الاجتماعي:

يقصد بالتوافق الاجتماعى نجاح الفرد فى علاقاته بمن يتعامل معهم فى محيط علاقاته المختلفة فى مناحى الحياة؛ بحيث يؤدى هذا إلى تحقيق صالح الفرد، وصالح الآخرين (إن أمكن) دون إضرار بصالح أحد، مع إحساس بالراحة والسعادة فى تعامله هذا، سواء من جانبه أو من جانب الآخرين.

وعلى المستوى النظرى، فإننا نتوقع أن يؤدى ارتفاع الذكاء والقدرات الخاصة إلى حسن هذا التوافق وسوائه، حيث يكون الذكى أكثر تبصراً فى عواقب أفعاله. لكن الواقع الفعلى لا يسند هذا التوقع النظرى، حيث نجد كثيراً من الأذكياء ومن ذوى القدرات الخاصة المرتفعة سيئ التوافق، ويسببون مشكلات وأضراراً كثيرة لأنفسهم أو من يتعاملون معهم؛ كالمرضى النفسيين أو المنحرفين أو المجرمين... إلخ. فقد يكون كثير من هؤلاء أذكياء ومتفوقين فى قدراتهم واستعداداتهم الخاصة. ويرجع هذا إلى أن التوافق الاجتماعى يرجع إلى مستوى صحة الفرد النفسية أكثر من أى شيء آخر.

٧ - الذكاء العام والذكاء المصطنع:

«فى عام ١٩٥٦، استخدم جون ماكرثى John McCarthy لأول مرة أصطلاح الذكاء المصطنع Artificial Intelligence ليصف الكمبيوترات Computers التى برمجت لتفكر مثل عقول البشر. فالكمبيوتر والعقل البشرى يشتركان فى عمليات كثيرة. فهما يقومان بتحويل البيانات إلى رموز، ويخزنانها، ويسترجعانها، ويقومان بوظائف منطقية (وحسابية وإحصائية وعلاقية كثيرة)... ومع هذا فهما يختلفان اختلافاً جوهرياً. فالكمبيوترات تنجز بعض الوظائف كالسرعة الحسابية أفضل من العقول البشرية، بينما تنجز وظائف أخرى على نحو أسوأ» (Benjamin Lahey, 2001, 282-283). ويضرب لاهى عندما يستمر فى حديثه مثلاً عن ضعف الكمبيوتر بأنه توجد صعوبة فى برمجة الكمبيوترات لكى تقرأ ما هو مكتوب بخط اليد مثل العناوين على أغلفة الرسائل. ونضيف نحن إلى رؤية لاهى أننا لا نستطيع أن نعلم ما سوف ينجح فيه الكمبيوتر أو يفشل مستقبلاً من مجرد قراءة ما نجح فيه أو فشل فى الماضى. ومع استمرار حديث لاهى نجده يقرر أن «هذه العلاقة بين علم النفس وعلم الكمبيوتر كانت مفيدة جداً لكليهما» (المرجع السابق، ٢٨٣). ولاشك أن هذا الأمر صادق وجلى خاصة لاستفادة كل العلوم تقريباً، وليس علم النفس فقط، من سرعة ودقة وسهولة العمليات الإحصائية، والحسابات، واكتشاف العلاقات بين البيانات اللازمة لمختلف البحوث والاكتشافات والوصول إلى المعرفة العلمية المنضبطة.

ولانشك أنه مهما تطورت علوم الكمبيوتر وتحسيناته فإنه لن يتفوق على العقل البشرى فى جوانب كثيرة مثل مرونة التفكير وتحليلاته ومنطقيته، وخيال الإنسان واتساعه وشموله. فليس من المتصور -على سبيل المثال- نجاح الكمبيوتر (بوصفه ذكاء مصطنعاً) بنظم قصيدة شعرية، على نحو ما يبدعه فحول الشعراء؛ أو رواية أدبية على نحو ما يبدعه كبار الكتاب... (بوصف كل ذلك ذكاء طبيعى من خصائص الإنسان الأصلية، ومواهبه الفطرية نسميه الذكاء العام، أو العامل (الاستعداد) العقلى العام، أو القدرة العامة General Ability؛ بصفته متدخلاً فى عموم العمليات العقلية والفكرية والذهنية؛ على

نحو ما سبق أن ذكرنا في هذا الفصل؛ بعكس القدرات الخاصة التي تتدخل كل منها في مجالها وميدانها الخاص بتسميتها.

ملاحظات عامة حول الذكاء والقدرات والاستعدادات الخاصة

قبل أن ننتهي من حديثنا عن الذكاء العام والقدرات والاستعدادات الخاصة ينبغي أن نذكر بعض الملاحظات الهامة حولها، أو نذكّر بها:

١ - يتوافر الذكاء لدى كافة الأشخاص لكن بدرجات متفاوتة من شخص لآخر. فليس هناك شخص معدوم الذكاء، ولا شخص كامل الذكاء، بل هناك شخص يمتلك الذكاء بمستوى عال جداً، وثان بمستوى عال، وثالث بمستوى متوسط، ورابع بمستوى أقل من المتوسط، وخامس بمستوى ضعيف، وسادس بمستوى ضعيف جداً، مع توافر كل مستوى من هذه المستويات بدرجات متفاوتة؛ بمعنى أننا نجد شخصين على مستوى ذكاء عال جداً، لكن أحدهما يمتلك الذكاء، بدرجة أعلى من زميله، كأن تكون نسبة ذكاء هذا (١٥٠) ونسبة ذكاء ذاك (١٤٥). وهذا ما يعرف في الإحصاء وفي القياس النفسي بالتوزيع المتصل Continuum Distribution.

٢ - غالبية الأشخاص تمتلك الذكاء بمستواه المتوسط (بدرجاته المختلفة الواقعة بين نسبة ذكاء قدرها ٩٠ و١٠٩؛ إذ أن متوسط نسبة الذكاء بين أفراد المجتمع عامة هي ١٠٠)، وقلة تمتلكه بمستوياته المرتفعة، ويقابلها قلة تمتلكه بمستوياته المنخفضة، وكلما ابتعدنا عن المتوسط بالزيادة أو النقصان قلت نسبة الأفراد وهذا ما يعرف بالتوزيع الاعتدالي Normal Distribution؛ حيث يتركز الأفراد في الوسط وتقل نسبتهم كلما اتجهوا نحو الأطراف سواء بالإرتفاع أو بالانخفاض.

٣ - نسبة ذكاء الفرد (أي مقدار ذكائه في ضوء سنه) قليلة التغير وإن لم تكن مستحيلة، فمع توفر بيئة أفضل لتنمية ذكاء الشخص لا يرتفع مستوى ذكائه كثيراً عن ذي قبل. وهذا ما نلاحظه -حتى الآن- من فشل محاولات علاج الضعف العقلي والوصول به

إلى المستوى المتوسط من الذكاء، على الرغم من الجهود الضخمة التى تبذلها المؤسسات، وتبذلها أسر ضعاف العقول للوصول بهم إلى مستوى متوسطى الذكاء؛ وذلك لأن الوراثة تلعب الدور الأكبر إذا ما قورن بدور البيئة فى تحديد مستوى ذكاء الفرد.

٤ – فإذا تركنا الذكاء –كقدرة أو استعداد عقلى عام– إلى القدرات أو الاستعدادات الخاصة، وجدنا الأمر يختلف أحياناً عن الذكاء ويتفق أحياناً أخرى معه. فالاستعدادات الخاصة –كإمكانية كامنة– توجد لدى كافة الناس بمستويات ودرجات متفاوتة على نحو يكاد يقترب –فى كثير من الأحيان– من التوزيع الاعتدالى السابق ذكره فى ملاحظتنا عن الذكاء. إلا أن الاستعدادات الخاصة أكثر تأثراً بالظروف البيئية من الذكاء، ولذا يسهل بعض الشىء تنميتها وتقويتها. فالاستعداد للعدو أو القفز، والاستعداد للتفوق فى علوم الطب أو الهندسة –على سبيل المثال– يمكن أن يقوى عن طريق الاهتمام والتدريب والمتابعة والتشجيع قبل التحاق الشخص بكلية الطب أو بكلية الهندسة أو بالفريق الرياضى للعدو أو القفز...

٥ – فإذا ما تركنا الذكاء والاستعدادات الخاصة إلى القدرات الخاصة وجدنا الأمر يكاد يختلف اختلافًا كبيراً. فكل قدرة لها شكل توزيعها الخاص فى كل جماعة معينة أو حتى فى مجتمع بأسره. ذلك أن القدرة أكثر تأثراً بالبيئة منها بالوراثة. فمثلاً، قدرة غالبية الناس فى مصر فى اللغة الألمانية تكاد تكون صفراً بعكس قدرة الألمانيين فى اللغة الألمانية؛ لأن هذه القدرة تتأثر بالبيئة إلى حد بعيد. فإذا ما دخل مصرى مدرسة لتعلم الألمانية وتابع دراسته فيها تصبح لديه قدرة فى اللغة الألمانية... وبالمثل إذا عاش مصرى فى ألمانيا... كما أن قدرة الرياضى فى نوع الرياضة التى يمارسها ترتفع –إلى حد كبير– بمتابعة التدريب فيها، وتنهار بسرعة إن اعتزلها أو أهمل تدريباتها. وبالمثل أيضًا فإن قدرة الفرد على أعمال ميكانيكا السيارات تكاد تكون صفراً، لكن بعد أن يتدرب عليها ترتفع إلى حد كبير، خاصة إذا كان مرتفع الذكاء، وكان لديه دافع لتعلم هذا النوع من الميكانيكا مع استعداد ميكانيكى جيد وهكذا...

٦ – إن كافة الاستعدادات والقدرات بما فيها الذكاء (كقدرة أو استعداد عقلى عام) تستند -فى نهاية الأمر- على أساس مادى وجسمى وتتأثر به، وهو المخ والجهاز العصبى فى الشخصية عمومًا. فإذا ما حدث خلل أو اضطراب فى أى منطقة من مناطق المخ أو الجهاز العصبى تأثرت لذلك قدرات الشخصية واستعداداتها حسب درجة الإصابة ومنطقتها، ووظائف هذه المنطقة المصابة.

٧ – كما يوجد تباين بين الأفراد وفروق فى مستويات ذكائهم وقدراتهم واستعداداتهم الخاصة، كذلك يوجد نفس التباين داخل الفرد الواحد. فنجد هذا الفرد ذاته مرتفعاً فى الذكاء، منخفضًا فى القدرة الميكانيكية، متوسطاً فى القدرة اللغوية... وهكذا... حيث لا يشترط بالضرورة أن يكون الفرد المرتفع الذكاء مرتفعًا فى كل القدرات أو الاستعدادات الخاصة، كما أننا -بالمثل- لا نجد كل فرد طويل الجسم يكون قوى الإبصار سليم السمع... إلخ... ولذا، فإن من يفشل فى دراسة معينة قد يكون من أوائل الناجحين فى دراسة أخرى، ومن ينجح فى عمل أو مهنة معينة قد يفشل فى غيرها، وهكذا...

٨ – للاختبارات والمقاييس النفسية بمختلف أنواعها (سواء أكانت للذكاء أم للقدرات أم للاستعدادات الخاصة أم لسمات الشخصية وديناميـاتها) معايير أخلاقية لابد من مراعاتها فى التعامل معها أو الاستخدام لها؛ ومن أهمها:

(أ) الحفاظ على عدم نشرها، أو إذاعتها، أو أى أجزاء منها بأى وسيلة أو تداولها بأى صورة كانت إلا بين المتخصصين، وللأغراض العلمية الموضوعية فقط. حتى أنها لا تباع إلا للهيئات المتخصصة، أو الأفراد ذوى الاختصاص فى علم النفس.

(ب) لا يستخدمها أو يطبقها إلا المتخصصون فقط.

(جـ) لا ينبغى استخدامها فى أغراض البحث العلمى أو الفحص الموضوعى، إلا بعد الاطمئنان إلى وصول تقنينها إلى مستوى مناسب. ولذا، فإن من أراد أن يستخدم

اختباراً ناقص التقنين عليه هو قبل ذلك استكمال التقنين الناقص له، حتى يمكن الاطمئنان إلى نتائجه، وبناء قرارات أو أحكام عليها. (راجع ملحق الكتاب عن الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر).

٩ - الذكاء والقدرات والاستعدادات الخاصة لاتنعدم فى أى كائن حى -طالما كان له جهاز عصبى- حتى أنواع الحيوانات المختلفة، إلا أنها تكون من طبيعة خاصة بها، ترتقى مع رقى النوع الحيوانى فى سلم التطور. فطالما كان هناك جهاز عصبى للكائن الحى فلابد أن يكون له ذكاء وقدرات خاصة به، كإحدى الوظائف الأساسية للجهاز العصبى، ومن يلاحظ القردة والكلاب والقطط... يتيقن من صدق ذلك.

ومن الجدير بالذكر -بعد أن انتهينا من الحديث عن الذكاء والقدرات والاستعدادات الخاصة- أن نعود فنؤكد على أن الناس جميعاً يتوافر لديهم الذكاء لكن بدرجات متفاوتة من شخص لأخر، وأن الغالبية تمتلك الذكاء بدرجات متوسطة، وأنه كلما ارتفعنا أكثر عن المتوسط أو انخفضنا قلت نسبة الأفراد. فمثلاً، نسبة العباقرة لا تزيد عن ١ ٪ أو ٢ ٪ وبالمثل -أيضاً- نسبة ضعاف العقول. وأنه من الصعب بمكان رفع درجة ذكاء ضعيف العقل أو رفع درجة ذكاء الفرد عموماً إلا فى حدود ضيقة. وعلى الرغم من أن هذه حقيقة تدعو للأسى نظراً لشدة أهمية الذكاء فى حياتنا العامة والخاصة؛ إلا أنه ينبغى علينا التنبيه إليها، حتى لا يذهب بعض الأباء بعيداً وراء أوهام علاج أبنائهم من حالات الضعف العقلى التى يصابون بها. فكل ما تقوم به مؤسسات الضعف العقلى فى مصر، وفى غيرها من البلدان الأجنبية، لا يزيد كثيراً عن كونه تدريباً لهم وتنشئة وتأهيلاً لكى يتعلموا بعض العادات التى تسهم فى توافقهم مع أنفسهم ومع مجتمعهم، دون أن يعنى ذلك رفعاً جوهرياً فى درجة ذكائهم. ويرجع ذلك إلى الدور الأكبر الذى تلعبه الوراثة فى تحديد ذكاء الفرد إذا ما قورن بدور البيئة. وإذا كان هذا بالنسبة للذكاء، فإن الأمر يختلف فى كثير من القدرات حيث تلعب البيئة -فى كثير من الأحيان- دوراً فى تحديدها أكثر مما تلعبه الوراثة؛ ولذا فإن التعليم والتدريب كثيراً ما يرفع مستوى بعض القدرات لدى الأفراد. فمثلاً، قدرتنا على الحديث أو القراءة بلغة أجنبية تعتمد -إلى حد كبير- على ظروف تربيتنا وتعلمنا.

وبالمثل،فإن قدرة فرد على أعمال ميكانيكا السيارات قد تكون قريبة من الصفر، لكن بعد أن يتلقى تدريباً خاصاً على هذه الأعمال ترتفع لديه القدرة الميكانيكية، خاصة إذا كان الفرد ذكياً ولديه ميل قوى واستعداد لتعلم الميكانيكا، وهكذا... وإذا ما قارنا بين الذكاء وبين القدرة الخاصة يتضح لنا الأهمية الكبرى للذكاء، فلا يوجد فرد لا يتأثر بالذكاء أو يمكنه الاستغناء عنه، لكن كثيراً ما توجد القدرات التى يمكن لنا أن نستغنى عنها؛ مثل القدرة الميكانيكية -أو القدرة الفنية، أو قدرة حسية أو حركية معينة...

هذا، وينبغى أن نتذكر باستمرار أن النفس -كما سبق أن أشرنا أكثر من مرة- يرجع أساسها المادى دائماً إلى البدن وأجهزته تحقيقاً لمبدأ وحدة الشخصية الإنسانية المتكاملة من نفس وجسم. وهكذا، فإن كافة القدرات -بما فيها الذكاء باعتباره قدرة عامة- تستند فى نهاية الأمر على أساس مادى (جسمى) وتتأثر به وهو المخ والجهاز العصبى فى الإنسان عموماً. فإذا ما حدث خلل أو إصابة فى أى منطقة من مناطق المخ أو الجهاز العصبى تأثرت تبعاً لذلك قدرات الشخصية وذكاؤها وكافة سمات الشخصية حسب درجة الإصابة ومكانها (راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب).

الفصل السابع :

الإدراك الحسي والتعلم والتذكر والتفكير

لاشك أن صحة الفرد النفسية واضطرابها من أهم العوامل المسهمة فى تحديد سلوكه، شأنها فى ذلك شأن جهازه العصبى (موضوع الفصل الرابع)، ودوافعه وأساليبه التوافقية (موضوع الفصل الخامس)، وذكائه وقدراته الخاصة (موضوع الفصل السابق)، حيث تعتبر جميعها محددات كبرى لسلوك الفرد وأفعاله المختلفة. لكننا نؤثر أن نؤجل الحديث فى موضوع الصحة النفسية إلى الباب التالى (الفصل التاسع)، حيث نخصصه للشخصية وما يصيبها من مرض نفسى أو اضطراب أو انحراف.

وعلاوة على هذه المحددات الكبرى لسلوك الفرد، فإن هناك عوامل ومحددات أخرى كثيرة تسهم فى تحديد سلوكه، يصعب حصرها وتليها فى الأهمية والخطورة، لعل من أبرزها أربعة عوامل أو محددات تسهم إسهامًا واضحاً فى تحديد السلوك وتشكيله؛ وهى: الإدراك الحسى، والتعلم، والتذكر، والتفكير؛ موضوع هذا الفصل.

أولاً : الإدراك الحسي

يعتمد الإدراك الحسى Perception ويرتبط، حتى يكاد يختلط فى أذهاننا بعمليتين أساسيتين هما الإحساس Sensation والانتباه Attention. ولذا لابد لنا من التمهيد لموضوع الإدراك بالحديث عن هاتين العمليتين.

(أ) الإحساس :

هو تنبيه عضو من أعضاء الحس أو الأعضاء الحساسة، وانفعاله وتأثره بمثير أو منبه

معين، سواء أكان خارجياً أم داخلياً.

وتختص أعضاء الحس (العين والأذن والأنف واللسان والجلد) باستقبال التنبيهات الخارجية، أما الأعضاء الحساسة (وهي معظم أعضاء الجسم ومناطقه؛ كالمعدة والأمعاء والمثانة والعضلات والمفاصل والجزء التوازني من الأذن الداخلية..) فتختص بالتنبيهات التي تأتينا من الداخل كالأحاسيس الباطنية العامة. «وتتوقف هذه الحساسية على حالة الأحشاء من امتلاء وإفراغ (معدة- أمعاء- مثانة..إلخ)، وعلى زيادة أو نقصان بعض المواد الكيميائية في الدم وفي سائر السوائل العضوية، وتنتقل هذه الإحساسات بواسطة الأعصاب الموجودة في الأجهزة الحشوية من الجهاز الهضمي، التنفسي، الدوري، الدموي، والبولي التناسلي، إلى الألياف العصبية الموصلة إلى قشرة المخ. ومن مظاهر الحساسية الباطنية العامة: الجوع والعطش والتقزز، والتعب والرعشة، وما يعتري النفس من ارتياح وانقباض...إلخ» (أحمد عكاشة: ١٩٧٧، ٦٥).

كما أن الأعضاء الحساسة تختص أيضاً -بالإضافة إلى الأحاسيس الباطنية العامة التي سبق إيضاحها- بالأحاسيس الباطنية الخاصة وتتركز أساساً في الإحساس بالحركة، وترتبط بأوضاع وحركة العظام والمفاصل والأوتار والعضلات، وفي الإحساس بالتوازن، وهو الوظيفة الأساسية للجزء التوازني من الأذن الداخلية، وأيضاً في الإحساس بالتوتر العضلي؛ كالإحساس بثقل الأجسام والضغط والجهد..

ولعل حديثنا -حتى الآن- عن الإحساس يوضح أنه عملية أقرب إلى أن تكون فسيولوچية جسمية من أن تكون نفسية. ولذا، فإن قياس الإحساس وعلاج أعضاء الحس يكونان أساساً من اختصاص الطبيب، وليس من اختصاص الأخصائي النفسي.

وإذا كانت الأحاسيس الباطنية -سواء أكانت عامة أم خاصة- تختص أساساً بتنبيهنا إلى حالات الجسم وأعضائه واحتياجاته المختلفة، فيتحرك الفرد ليسلك وفق متطلبات هذا الجسم وتلك الأعضاء (فيأكل ليزيل الجوع ويشرب ليزيل العطش ويرتاح من النشاط ليزيل حالة

التعب ويعتدل في وضعه حتى يزيل حالة التوازن الذي اختل بسبب حركات واهتزازات عشوائية أفقدته التوازن، فيرمي عن كتفه هذا الحمل الثقيل الذي يئن من حمله...) وبذلك تساعدنا في استعادة توازننا الجسمي والفسيولوجي، فيضمن الإنسان -أو الكائن الحي عموماً- بقاءه واستمراره. نقول إذا كانت الأحاسيس الباطنية لها هذه الوظيفة الهامة فإن الأحاسيس الخارجية أو المستمدة من الحواس الخمس تعتبر «المادة الخام للخبرة، حيث تتميز بالمعنى البسيط والتنظيم القليل. فالطفل الرضيع عندما ينظر إلى هذه الصفحة من هذا الكتاب، فإنه سوف يبصر علامات سوداء على ورقة بيضاء، وهذه هي نفس الأحاسيس البصرية التي تتكون لدينا...» (Bruno: 1986, 209). ومن جملة هذه الأحاسيس مع قيامنا بتفسيرها سوف نكوِّن ما نحصِّله من خبرات ومعلومات ومعرفة، فيتحقق لنا النمو المعرفي والعقلي والنفسي بمختلف أبعاده ومستوياته.

ويمارس كل عضو من أعضاء الحس أو الأعضاء الحساسة نشاطه الحسي وفق قانون الانتقاء «بحيث يتجه الانتباه إلى نوع معين من المثيرات أو نقطة معينة من التأثير دون غيرها. فأثناء المحاضرة يكون صوت المحاضر هو نقطة الانتباه، وتحوطه المثيرات الأخرى دون أن تحتل ما يسمى بمركز الانتباه. إلا أن الإنسان لا يفطن إلى أنه ليس منتبهاً إلا لمثير وحيد، وذلك لسرعة تنقل انتباهه من مثير إلى آخر» (أحمد فائق: ٢٠٠٣، ١١٥). وهكذا؛ «فالعضو الحساس ينتقي الجانب الذي يستجيب إليه من مجال التأثير. ولا يقتصر اتباع الاختيار والانتقاء على مجرد عزل الشدة عن النوع، بل يتعداه إلى الإحساسات نفسها. ففي بعض المجالات، تتم عملية انتقاء لنوع المثير؛ كانتقاء الإحساس البصري دون غيره من الإحساسات، كما هو الحال في النشاط الإنساني أمام بعض الآلات» (أحمد فائق ومحمود عبد القادر: ١٩٧٢، ٩٨-٩٩).

(ب) الانتبـــاه:

هو تلقي الإحساس بمنبه ما أو مثير ما، سواء أكان هذا الإحساس على مستوى الحواس الخارجية أم الأحاسيس الباطنية أم مستوى الإدراك الذهني بحيث يشعر الفرد بهذا الإحساس

متبلوراً واضحاً جلياً، وكأن الانتباه Attention هو تركيز الإحساس.

وانتباه الفرد فى لحظة معينة لا يكون -عادة- إلا فى موضوع معين، إلا أن الانتباه لا يجمُد بل ينتقل باستمرار وبسرعة خاطفة؛ خلال أجزاء من الثانية مما يوحى بأن مجال الانتباه متعدد واسع. فالمدرس فى الفصل يخيل إليه أنه فى كل لحظة منتبه إلى جميع تلاميذه، لكن الحقيقة أنه لا يكاد ينتبه فى لحظة معينة إلا إلى تلميذ واحد أو موضوع واحد يكون فى بؤرة انتباهه Focus of Attention، وللسرعة الفائقة فى نقل بؤرة انتباهه من موضوع إلى آخر، أو من مثير أو منبه، إلى غيره، يخيل إليه أنه ينتبه إلى موضوعات عدة فى نفس اللحظة.

بؤرة الانتباه وهامش الانتباه:

عندما يكون موضوع أو مثير معين فى بؤرة الانتباه، فهذا يعنى أن انتباه الفرد مركز عليه خلال لحظة معينة. وأن الموضوعات الأخرى المحيطة به أو المرتبطة به تكون فى هامش الانتباه Margin of Attention، حيث يكون الفرد عندئذ أقل انتباهاً لها، ووعياً بها. وقد يحتل موضوع (أو منبه) من موضوعات هامش الانتباه فى لحظة بؤرة الانتباه فى لحظة تالية، ويتراجع ما كان سابقاً فى بؤرة الانتباه إلى هامش الانتباه، أو يتلاشى تماماً من مجالى الانتباه معًا (البؤرة والهامش) ... وقد يفرض موضوع جديد نفسه على انتباه الفرد، أو قد يتعمد الفرد توجيه انتباهه نحو موضوع معين. وهكذا، تمضى الأمور وتستمر بالنسبة لانتباه الفرد.

ويشير رابابورت Rapaport وزملاؤه إلى أن الانتباه يقابل -باستخدام مفاهيم التحليل النفسى- حركة الطاقة غير المقيدة بتأثير انفعال، أو ميل، أو دافع معين؛ بل تكون تحت السلطان المطلق للأنا، يستخدمها فى التفكير والتعامل مع الواقع. وهكذا، فإن الانفعالات غير المتزنة وأوجه القلق والأفكار المحملة بانفعالات شديدة -كالأوهام والتخييلات والوساوس- يمكن لها أن تؤثر على الانتباه؛ لأنها تقيد الطاقات المفروض أن يستعملها الأنا

بحرية فى تعامله مع الواقع (Rapaport et al.: 1972, 107). وبالتالى، فإن الأمراض النفسية كثيراً ما تؤدى إلى نقص الانتباه وضعفه واضطرابه.

عوامل الانتباه:

تقول أتكنسون Atkinson وزملاؤها: «الانتباه عملية معقدة، بدأنا فى فهمها الآن فقط. وهى عملية لها عواملها (أو مكوناتها) السلوكية الظاهرية Overt Behavioral Components وعواملها الباطنية Internal Components. فعندما يسمع المخيمون (النازلون) بالغابة صوتاً لأول مرة ليلاً، فإنهم يقفزون ويتوجهون نحو الصوت؛ وفى نفس الوقت تحدث تغيرات فسيولوچية ينتج عنها التيقظ والاستعداد للتصرف. هذه المجموعة من الاستجابات الظاهرية والباطنية تعتبر بمثابة فعل منعكس تكيفى. وهذا هو نفس الشىء الذى يحاول معلم المدرسة الابتدائية استثارته عندما يقول؛ (والآن انتبهوا) ... وفى معظم الأحيان، نجد أننا قد أمطرنا بوابل من المنبهات. لكن بعضها يقتحم مجال وعينا مهما كانت انشغالاتنا، لكن، فى حدود؛ بمعنى أننا نستطيع انتقاء ما نقوم بإدراكه. فعندما تجلس للقراءة، توقف لحظة، واقفل عينيك، ووجه انتباهك للمنبهات المختلفة التى تصل إليك. لاحظ -على سبيل المثال- ضيق حذائك الأيسر، ماذا تسمع من أصوات؟ هل هناك أية رائحة فى الهواء؟، إنك -من المحتمل- لم تكن واعياً بهذه المنبهات إلا بعد أن وجهت انتباهك إليها. فبدون القدرة على الانتقاء كنا سنصبح مغمورين بكل هذه المنبهات. وعادة، فإن ما ننتقيه (لننتبه إليه) يعتمد على ما هو مهم بالنسبة لنا فى هذه اللحظة، لكن هناك منبهات معينة بارزة دائماً ندركها؛ ونقول عنها إنها (تأسر انتباهنا Capture our attention). أما العوامل التى تزيد من احتمال انتباهنا إلى المنبه فهى الشدة Intensity، والحجم Size، والتناقض Contrast، والحركة Movement، والجدة Novelty» (Atkinson, et al. 1987:197).

ولقد ذكر أحمد عزت راجح نفس المعنى عندما قال: «ونتساءل الآن عن العوامل التى تجعل بعض المنبهات والمواقف تجذب انتباهنا دون غيرها من المنبهات والمواقف؛ أى عن العوامل التى تهيمن على اختيار المنبهات. هناك منبهات خاصة تفرض نفسها علينا فرضاً

بحكم خصائصها فتجذب انتباهنا إليها؛ كالرعد القاصف أو البرق الخاطف. غير أن انتباهنا -لحسن الحظ- ليس ألعوبة فى يد هذه المنبهات، فهناك عوامل داخلية ذاتية تعارض أثرها أو تخفف من قوتها...» (أحمد عزت راجح: ١٩٧٩، ١٩٢).

ثم يفصل راجح عوامل الانتباه إلى عوامل خارجية تتعلق بالمنبه ذاته، حيث يذكر:

«**شدة المنبه**: فالأضواء الزاهية والأصوات العالية والروائح النفاذة أجذب للانتباه من الأصوات الخافتة والأصوات الضعيفة والروائح المعتدلة. غير أن المنبه قد يكون شديداً ولا يجذب الانتباه، وذلك لتدخل عوامل أخرى أكثر وزناً فى جذب الانتباه من الشدة كأن يكون الفرد مستغرقاً فى عمل يهمه.

«**تكرار المنبه**: فلو صاح أحد (النجدة) مرة واحدة فقد لا يجذب صياحه انتباه الآخرين، أما إن كرر هذه الاستغاثة عدة مرات كان ذلك أدعى إلى جذب الانتباه... على أن التكرار، إن استمر رتيباً وعلى وتيرة واحدة، فقد قدرته على استرعاء الانتباه. وهذا ما يلاحظه المعلنون إذ يلجأون إلى التنويع المستمر فى إعلاناتهم. وصوت المدرس إن كان رتيباً أدى إلى إغفاء التلاميذ.

«**تغير المنبه**:... فنحن قد لا نشعر بدقات الساعة فى الحجرة، لكنها إن توقفت عن الدق فجأة انتبهنا إليها. كذلك الحال أثناء قيادة السيارة، فأى تغير فى صوت الماكينة يلفت نظر السائق. فانقطاع المنبه أو تغيره فى الشدة أو الحجم أو النوع أو الموضوع له أثر فى جذب الانتباه. وكلما كان التغير فجائياً زاد أثره.

«**التباين** Contrast : كل شيء يختلف اختلافًا كبيراً عما يوجد فى محيطه من المرجح أن يجذب الانتباه إليه. فنقطة حمراء تبرز فى مجال انتباهنا إن كانت وسط نقط سوداء، كذلك وجود امرأة بين عدد من الرجال. ويمكن اعتبار تغير المنبه نوعاً من التباين.

«**حركة المنبه**: الحركة نوع من التغير. فمن المعروف أن الإعلانات الكهربية المتحركة أجذب للإنتباه من الإعلانات الثابتة... (إلا إذا كان الإعلان الثابت وسط إعلانات أخرى متحركة أيضاً).

«**موضع المنبه**: وجد أن القارئ العادى أميل إلى الانتباه إلى النصف الأعلى من صفحات الجريدة التى يقرؤها منه إلى الانتباه إلى النصف الأسفل.. كذلك، اتضح أن الصفحتين الأولى والأخيرة أجذب للانتباه من الصفحات الداخلية». (المرجع السابق:١٩٢-١٩٣).

ويضيف راجح إلى عوامل الانتباه الخارجية تلك عوامل الانتباه الداخلية، والتى تتعلق بذات القائم بعملية الانتباه وبشخصيته؛ فيقول: «هناك عوامل داخلية مختلفة، مؤقتة ودائمة، تهيئ الفرد للانتباه إلى موضوعات خاصة دون غيرها، فمن العوامل المؤقتة:

«**الحاجات العضوية**: فالجائع إن كان سائراً فى الطريق استرعت انتباهه الأطعمة وروائحها بوجه خاص.

«**الوجهة الذهنية Mental Set**: فإذا كنت تريد شراء سلعة معينة كانت أول شيء تراه فى المحل الذى تدخله. كذلك، ترى الممرضة حساسة لنداء المريض، والطبيب لجرس التليفون ليلاً. والأم النائمة إلى جوار طفلها قد لا يوقظها صوت الرعد، لكنها تكون شديدة الحس لكل حركة أو صوت يصدر من الطفل.

«ومن العوامل الدائمة الدوافع الهامة والميول المكتسبة التى تعتبر تهيؤاً ذهنياً دائماً للتأثر ببعض المنبهات والاستجابة لها.

«**الدوافع الهامة**: فلدى الإنسان وجهة ذهنية موصولة للانتباه إلى المواقف التى تنذر بالخطر أو الألم، كما أن دافع الاستطلاع يجعله فى حالة تأهب مستمر للانتباه إلى الأشياء الجديدة أو غير المألوفة. ثم إن اهتمام المرء بما يقوله الناس ويفعلونه وبأداء واجباته نحوهم يجعله فى حالة استعداد مستمر لأداء هذه الواجبات: تحيتهم عند لقائهم، وملاحظة آداب الطريق، والإصغاء إليهم حين يتحدثون.

«**الميول المكتسبة**: يبدو أثرها فى اختلاف النواحى التى ينتبه إليها عدد من الناس حيال

موقف واحد: فى اختلاف الأشياء التى ينتبه إليها رجل وزوجته وطفله وهم يسيرون فى الطريق... أو فيما يلتفت إليه عالم نبات وجيولوچى وسيكولوچى يزورون حديقة الحيوان: أما أولهم فتلفت نظره -غالبًا- وبوجه خاص الزهور والنباتات، وأما الثانى فينتبه -بوجه خاص- إلى ما قد يوجد بالحديقة من أحجار وصخور، وأما الثالث فيجذبه سلوك الحيوانات فى الأقفاص، أو بالأحرى سلوك من يتفرجون عليها خارج الأقفاص». (المرجع السابق: ١٩٤-١٩٥).

وينبهنا يوسف مراد إلى أن الانتباه «يتراوح بين طرفى الإفراط والتفريط، والإفراط فى الانتباه هو حالة (الوسواس Obsession) التى يفقد فيها الذهن حرية التصرف ويصبح أسير الوساوس المحيرة والهواجس المتسلطة والأفكار الثابتة... أما التفريط فى الانتباه فهو على ضروب مختلفة أهمها الشرود الذهنى والغفلة والسهو. ففى الشرود الذهنى لا يستأثر أمر دون غيره ببؤرة الشعور، فهو حالة عدم مبالاة. أما الغفلة فتكون عن الشيء الموجود فى الواقع، والذى يفوت الشخص أن ينتبه إليه لأسباب موضوعية وذاتية معاً.. وقد يؤدى بذل الجهد فى تركيز الانتباه إلى إزالة الغفلة... أما السهو فهو حالة عدم انتباه تام يكون الموضوع فيها كأنه غير موجود على الإطلاق... ويرجع السهو إلى عوامل ذاتية محضة؛ كهبوط مفاجئ للتوتر النفسى لا يدوم طويلاً. ويكون الشخص الساهى -أثناء-سهوه- فى حالة غيبوبة عابرة، فالسهو شبيه بالإغماء أو بالنوم» غير أنه فتور يعترى الذهن مدة وجيزة من الزمن ثم يزول» (يوسف مراد: ١٩٦٦، ٣٥٠) .

الإدراك الحسي

نقصد فى هذا الفصل بالإدراك Perception ما يعرف بالإدراك الحسى على وجه التحديد؛ أى إضفاء معنى على ما تنقله إلينا حواسنا وأحاسيسنا. ويختلف هذا عن الإدراك العقلى، أو الاستبصار العقلى، أو التفهم الذى يأتينا عن طريق التأمل والتفكير Apper-ception؛ على نحو ما يحدث لنا عند حل مسألة حسابية أو هندسية أو رياضية، وهو من

أهم وظائف الذكاء؛ على نحو ما أوضحنا فى الفصل السابق. كما أنه يختلف أيضًا عن الإدراك الاجتماعى Social Perception والذى يقصد به «عملية تكوين انطباعات Im-pression عن الآخرين، وتقييمهم، والحكم على سلوكهم وخصالهم (سواء فيما يتعلق بالنوع، أو اللون، أو الشكل، أو الحجم أو الملبس، أو السلوك، أو ملامح الوجه...). كما يتضمن وضع الفرد للأشخاص الآخرين فى فئات ذات معنى، كأن يصنفهم على أساس المظهر الجسمى، أو على أساس بعض المتغيرات السيكولوچية مثل العداوة أو الكراهية، مقابل التسامح والحب» (عبد اللطيف محمد خليفة وأسامة سعيد أبو سريع: ١٩٩٤، ٢١).

وفيما يذكره أحمد عزت راجح من تعريف للإدراك الحسى يشير إلى أنه «يتضمن عملية تأويل الإحساسات تأويلاً يزودنا بمعلومات عما فى عالمنا الخارجى من أشياء، أو هو العملية التى تتم بها معرفتنا لما حولنا من أشياء، عن طريق الحواس؛ كأن أدرك أن هذا الشخص الماثل أمامى صديق لى، وأن الحيوان الذى أراه حمار، وأن هذا الصوت الذى أسمعه صوت سيارة مقبلة أو مدبرة... وكأن أدرك أن هذا التعبير الذى ألمحه على وجه شخص هو تعبير الغضب، وأن هذه التفاحة أكبر من تلك، أو أن جلدى لوّحته الشمس – وجسم الشخص جزء من عالمه الخارجى –أو أن عضلة معينة فى ساقى فى حالة تشنج» (أحمد عزت راجح: ١٩٧٩، ٢٠١). كما يذكر شاكر قنديل فى تعريف الإدراك الحسى: «يطلق مصطلح الإدراك الحسى على العملية العقلية التى تتم بها معرفتنا للعالم الخارجى عن طريق المنبهات الحسية. فالإدراك نوع من الاستجابة للأشكال والأشياء الخارجية؛ لا من حيث هى أشياء وأشكال حسية بل كرموز ومعان؛ وترمى الاستجابة إلى القيام بنوع معين من السلوك. ويتوقف ذلك على طبيعة المنبه الخارجى، وعلى الحالة الشعورية والوجدانية للفرد، وعلى اتجاهه الفكرى، وخبراته السابقة إزاء مثيرات مشابهة» (شاكر قنديل: ١٩٩٣، ٦٣). فأنت عندما تنظر إلى برقية وصلتك للتو لا تدركها على أنها علامات سوداء على ورقة بيضاء (هذا هو الإحساس البصرى الذى تشترك فيه مع الطفل

الصغير الذى لم يتعلم القراءة بعد، أو الشخص الأمى أياً كان)؛ بل سوف تدركها على أنها تهنئة بعث بها فلان إليك يقول لك فيها كذا، كذا..

ولا يكاد يخرج العلماء فى تعريفهم للإدراك الحسى Perception عن هذا المعنى -فعلى سبيل المثال- يعرفه فريدمان بأنه تفسير المعلومات الآتية من أعضاء الحس لإقامة تصور للعالم الخارجى (Freedman: 1982, 591).

هذا؛ ويتم إدراك المحسوس فيما يشبه اللازمن، حتى ليكاد يختفى الفاصل الزمنى بين عمليتى الإحساس والإدراك الحسى من شدة تداخلهما وسرعة الانتقال من الحس إلى الإدراك، مما يمكّن الفرد من سرعة وكفاءة التعامل مع ما يواجهه ويحيط به من عالمه الخارجى، فيمكنه عند ذاك تحقيق أكبر الفوائد، واتقاء أشد الأضرار، دون تباطؤ.

عوامل الإدراك الحسي:

سبق أن أشرنا إلى أن الإدراك يتأثر بعوامل تتعلق بالموضوع أو الشىء المدرك (ويمكن أن نسميها عوامل موضوعية أو خارجية)، كما يتأثر -فى الوقت نفسه بعوامل تتعلق بالفرد القائم بالإدراك (ويمكن أن نسميها عوامل شخصية أو ذاتية).

(أ) العوامل الموضوعية Objective Factors:

ومن أهمها:

١ - إدراكنا للكليات Gestalts : فنحن نميل إلى إدراك الأشياء أو الموضوعات إدراكاً كلياً واضحًا، بينما ندرك الجزئيات الداخلية فى هذا الموضوع أو المكونة له إدراكًا أقل وضوحًا، بل ربما انعدم إدراكنا لبعض التفاصيل، فمثلاً، لو قابلت شخصاً ما وجلست معه لساعة تتحدثان ثم تركك وانصرف، فربما لا تتذكر لون ملبس معين مما كان يلبسه، وربما لم تدرك لون أزرار القميص الذى كان يرتديه... إلخ.

٢ - الشكل والأرضية Figure and Background : الشكل يقصد به الموضوع البارز

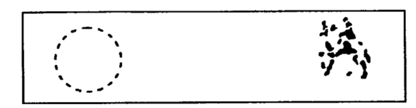
الذى ندركه، أما الأرضية فهى الخلفية التى تقف خلف الشكل أو تحيط به، وإدراكها يكون أقل وضوحاً. فأنت عندما تذهب للقاء فرد فى مكان معين يكون هذا الفرد بمثابة الشكل، ويكون المكان بمثابة الأرضية. وعندما تدخل فى الشتاء مكاناً دافئاً يكون المكان الدافئ بمثابة الشكل، أما الجو البارد خارج هذا المكان، والذى كنت للتو فيه، فهو فى هذا المثال بمثابة الأرضية أو الخلفية، وهكذا..

وإدراكنا للشكل يتأثر -إلى حد كبير- بالأرضية التى يوجد فيها أو بالخلفية التى توجد خلفه أو تحيط به. بحيث إن إدراكنا لشكل معين يختلف باختلاف خلفية هذا المدرك. فمثلاً، قطعة القماش البيضاء تبدو رمادية فاتحة إذا وضعت على قطعة قماش شديدة البياض. ومن هنا، فإن لون الشيء يختلف باختلاف ألوان الأشياء التى تحيط به. حتى أننا إذا ما عودنا طائراً على التقاط الحب من إناء أبيض يقع بين إناءين أحدهما شديد البياض والآخر رمادى فاتح، ثم رفعنا هذين الإناءين ووضعنا مكانهما إناء رمادياً غامقاً وآخر رمادياً فاتحاً، نجد أن الطائر يتجه مباشرة إلى الإناء الرمادى الفاتح بعد أن كان يتركه فى الحالة الأولى إلى الإناء الأبيض؛ ومعنى هذا أن الطائر لم يكن يتجه إلى لون الإناء (وهو الأبيض) فى الحالة الأولى لأنه أبيض، بل لأنه لون يقع بين لون أفتح وآخر أغمق. ولهذا، فلما غيرت ألوان الآنية اتجه إلى لون يقع بين لون أفتح وآخر أغمق كما تعلم فاتجه فى الحالة الثانية إلى الإناء ذى اللون الرمادى الفاتح، والذى يقع بين الرمادى الغامق والأبيض؛ أى أن الطائر لم يدرك لون الإناء الذى به الحب كلون موضوعى منعزل عن الألوان التى تحيط به، بل كلون وسط بين لونين يحيطان به. وبالمثل، إذا وضعت يدك فى ماء ساخن لمدة دقيقتين ثم نقلتها إلى ماء دافئ لأدركت أنه بارد. والعكس، لو أنك وضعتها فى ماء شديد البرودة لمدة دقيقتين ثم نقلتها إلى ماء بارد لأحسست أنه دافئ...

ومن هنا، كان اهتمام مخرجى الأفلام السينمائية والروايات المسرحية والرسامين بمكونات المشهد وديكورات المكان الذى يتحرك فيه الأبطال، أو خلفيات الصورة التى يقومون برسمها... حتى تعطى الإيحاء المطلوب من العمل الفنى. بل إن اختيار البطل فى

الفيلم أو الرواية واختيار الممثلين المساعدين يتم -أيضاً- وفق مبدأ الشكل والأرضية.

٣ - عامل التكميل أو الغلق Closure: عندما ننظر إلى هذا الرسم الذى ننقله عن برايس وزملائه (Price, et al. 1985, 104) سوف ندرك دائرة على اليسار وفارسًا



يمتطى جواده على اليمين. ويتم لنا ذلك الإدراك وفق مبدأ هام من مبادئ تنظيم الإدراك هو مبدأ التكميل أو الغلق. ويقول هذا المبدأ إننا نميل إلى إدراك موضوع كامل، حتى لو كانت بعض أجزائه ناقصة (Morgan. et al. 1986, 114). ويورد مورجان Morgan وزملاؤه، إلى جوار النص السابق، نفس الشكلين مع شكل ثالث يمثل مربعًا. فالشكل الذى على اليمين مجرد بقع سوداء والشكل الذى على اليسار مجرد خطوط متقطعة منحنية، ومع ذلك، فلقد أكملنا فى إدراكنا ما بين هذه الخطوط من فراغات فأدركنا دائرة،وما بين تلك البقع السوداء من نواقص لكى ندرك موضوعاً كاملاً أو شكلاً كاملاً هو الفارس الممتطى لجواده.

ويرتبط هذا المبدأ بمبدأ نفسى آخر هو رغبة الفرد فى إزالة الغموض. حيث يبعث الغموض على الخوف والقلق. فنحن نخشى ما لا نعرفه، وبالتالى نبادر إلى استطلاعه ومعرفته (لاحظ طفلاً فى سن السنتين وقد أطفئت الإضاءة فجأة، تجده يصرخ، وذلك لأن المجال الذى يحيط به كان معروفًا له أثناء الإضاءة، أما بعد انطفاء الإضاءة فقد أصبح مجهولاً). ومن هنا، فإن عامل الغلق يساعد الشخص على إزالة الغموض ومعرفة موضوعات العالم من حوله، فيهدئ هذا من روعه ويقلل من خوفه من المجهول بعد أن صار معلوماً.

وتستخدم وسائل الإعلام هذا المبدأ كثيراً حيث يظل اهتمام المشاهدين باستكمال المسلسل الروائى قائماً ومتزايداً حتى نصل إلى النهاية (أى إغلاق الموضوع الذى فتح واستكماله).

على الرغم من أن الموضوع قد يكون تافهاً. كما تلجأ الصحافة إلى نفس الشيء عندما تنشر روايات أو تحقيقات أو موضوعات نشراً متقطعاً على حلقات. ويمكن أن تحس بمدى الضيق الذى يستولى عليك إن كنت تقرأ فى كتاب ثم تفاجأ بأن بعض صفحاته منزوعة... إلخ. أو عندما يحدثك صديق عن حدث معين ثم ينقطع حديثه دون أن يتمه لسبب أو لآخر، إذ تظل متلهفاً على سماع البقية (لإغلاق الموضوع وتكميله)، وهكذا...

٤ - **التجميع الإدراكى Perceptual Grouping**: يعتبر عامل التقارب Approximity أحد العوامل الهامة فى تنظيم مدركاتنا. ففى هذا الشكل الذى ننقله عن أتكنسون At-kinson وزملائها نلاحظ ثلاثة أزواج من الخطوط ثم خطاً منفرداً (Atkinson, et al.: 1987; 183)، فنحن قل أن ندرك سبعة خطوط، ذلك أن عامل التقارب بين كل خطين جعلهما شيئاً واحداً (زوجاً) ولم يجعلهما شيئين اثنين (خطين).



٥ - **التشابه Similarity**: وبالمثل -أيضاً- فإن عامل التشابه أو التماثل يؤثر تأثيراً كبيراً على تنظيم إدراكنا حيث نميل إلى إدراك المتشابهات كوحدة واحدة. ففى هذا الشكل الذى ننقله عن (أحمد عزت راجح: ١٩٧٩، ٢٠٨) نجد أننا ندرك الجزء

الأيسر منه على أنه أعمدة، بينما ندرك الجزء الأيمن من الشكل على أنه صفوف. هذا فى نفس الوقت الذى نلحظ فيه أن جزئيات كل من الجزءين واحدة (فجزئياتهما عبارة عن نقط ودوائر) إلا أن إدراكنا يجعلنا ندرك المتشابهات وحدة واحدة أو موضوعاً واحداً، وبالتالى ندرك الدوائر المنتظمة أسفل بعضها كوحدة واحدة فتبدو كأنها أعمدة رأسية أو خطوط رأسية، وكذلك النقاط. أما الدوائر المنتظمة بجوار بعضها فإننا ندركها وحدة واحدة أو موضوعاً واحداً فتبدو كأنها صفوف متراصة أو خطوط أفقية، وكذلك النقاط.

(ب) العوامل الذاتية Subjective Factors:

سبق أن ذكرنا أن الإدراك الحسى يتأثر بعوامل موضوعية تحدثنا عنها فى البند (أ). وبعوامل ذاتية تتعلق بذات الشخص القائم بالإدراك وتختص به، ومن أهمها:

١ - **التعلم والخبرة Learning & Experience**: فكل منًا يـُؤول ما يحسه فى ضوء ما سبق له أن تعلمه أو عرفه أو خبره. وبالتالى، فإن إدراكك لما هو مكتوب فى هذا الكتاب أو هذه الصفحة سوف يختلف عن إدراك الشخص الأمى الذى لم يتعلم القراءة ولا الكتابة؛ حيث يدركها على أنها مجرد علامات سوداء على صفحة بيضاء. بل إن إدراك المتخصص النفسى سوف يختلف عن إدراك غير المتخصص النفسى، ذلك أن كلاً منهما سوف يدرك ما بهذا الكتاب أو بهذه الصفحة متأثراً بما سبق له أن تعلمه، وتخصص فيه فعرفه...

وعلى هذا، فإن الفلكى يدرك فى السماء ما لا يدركه المتخصص النفسى، ويدرك عالم النبات فى الغابة غير ما يدركه عالم الحيوان، وهذا غير ما يدركه المتخصص الجيولوچى... ويدرك المتخصص فى إصلاح الساعات ما لا تستطيع أنت أن تدركه بسبب خبرته ومعرفته...

٢ - **الاتجاهات والميول والعواطف**: سبق لنا أن تحدثنا عن الاتجاهات والميول والعواطف (فى الفصل الخامس من هذا الكتاب) وشرحنا المقصود بكل منهما. ولكل هذه العوامل تأثير كبير فى تأويل ما نحسه، وفى كيفية إدراكنا له. ولقد أصاب المثل الشعبى

لب الحقيقة عندما قال: بَصَلّةُ المحب خروف وعين الحب عمياء وحبيبك يمضغ لك الزلط وعدوك يتمنى لك الغلط. ويصدق على الدول ما يصدق على الأفراد، فتجد أن الدولة المعادية لأخرى تفسر كل تصرف تقوم به على أنه معادٍ لها، كما تفسر كل شيء مختلف عليه على أنه من حقها وحدها. وكثيراً ما نجد المتخاصمين أمام القاضي وكل منهما على يقين بأن الحق في جانبه... وهكذا، فإن اتجاهات الفرد وميوله وعواطفه غالبًا ما تزيف إدراكه للأمور، وتقصر تأويله لما يصله عن طريق حواسه في اتجاه معين. ومن هنا، فإن الفرد لا يصلح أن يكون قاضياً لمن تربطه به قرابة أو صداقة أو عداوة. وينبغي على القاضي النزيه في مثل هذه الحالات أن يتنحى عن نظر القضية، أو يعتذر عن الفصل فيها.

٣ – **التعصب Prejudice**: سبق لنا –أيضاً– أن تحدثنا عن التعصب (في الفصل الخامس من هذا الكتاب) وشرحنا المقصود منه. وقد بينا أنه انحياز Bias مع أو ضد موضوع معين أو شيء معين أو شخص معين، انحيازاً أعمى جامداً لا يترك مجالاً للتفكير ولا للمراجعة. وبالتالي، يؤثر التعصب على كيفية إدراك الفرد لكل ما يتعلق بموضوع تعصبه على النحو الذي تؤثر به الاتجاهات والميول والعواطف، لكن بدرجة أشد، حيث يتميز التعصب بالحدة والتطرف. ولو حضرت جدلاً بين اثنين متدينين، كل منهما يتبع ديناً مخالفًا، حول موضوع عقائدي يختلف عليه الدينان، فسوف تجد أن الجدل محتدم وكل يقدم براهينه وأدلة صدق معتقده، ومع هذا، ينتهي الجدل دون إقناع أي منهما للآخر، وتظل مدركات كل منهما على ما هي عليه دون اتفاق، وعلى الرغم من مجافاتها كل منطق وتفكير سليم في غالب الأحوال.

وشبيه بهذا ما نجده في التعصب السياسي بين الأحزاب في البلد الواحد؛ حيث يدرك كل منهما القضية المعينة، أو الحدث الواحد، إدراكاً مختلفاً يصل إلى حد التناقض، كما هو الحادث الآن حول قضية السلام مع إسرائيل، سواء بين الأحزاب العربية نفسها، أو بين الأحزاب الإسرائيلية ذاتها. فهذا الحزب العربي يرى في السلام كل الخير، وذاك الحزب العربي يرى فيه كل الضر، وهذا الحزب الإسرائيلي يرى فيه كل الخير، بينما غيره يرى فيه كل الضر...

٤ – **المعتقدات Beliefs**: المعتقد هو «حكم يتعلق بالواقع، يقبله الفرد باعتباره صحيحاً. ويختلف المعتقد عن القيمة، فبينما نلاحظ أن القيمة تتصل بما يعتبره الفرد مرغوباً فيه أو مرغوباً عنه، فإن المعتقد حكم صادق وقاطع. ويعتمد المعتقد على الملاحظة الإمبريقية، والمنطق، والتقليد، والإيمان. وهكذا، نستطيع أن نتحدث عن المعتقدات العلمية وغير العلمية، وتكون المعتقدات البناء الأساسى لتصور الفرد للعالم (بناؤه المعرفى)، والإطار الذى يشكل إدركاته» (محمد عاطف غيث: ١٩٧٩، ٣٨).

ولاشك، أن معتقدات الفرد تؤثر على كيفية إدراكه وإحساسه بالأشياء والموضوعات والأمور أياً كانت. فمن يعتقد أن أصحاب دين معين، أو اتجاه سياسى أو عقائدى معين هم أناس شريرون سوف يرى فى كل ما يقومون به أو يصدر عنهم الشر بعينه، ويصعب أن تقنعه بغير ذلك. وما نذكره هنا يتفق مع ما سبق أن أشرنا إليه فى البندين السابقين (٢، ٣) ويتكامل معهما.

٥ – **القيم Values**: القيم هى كل ما يراه الفرد جديراً بالاهتمام والتقدير. ولذا، فإن الفرد فى سلوكه إنما يتحرى أن يتفق مع قيمه. فمن كانت تحتل القيمة الاقتصادية أو المادية قمة قيمه وجدناه –فى غالبية سلوكه– ينشد الكسب المادى، ويقيِّم كل شيء أو أمر وفق ما يعود عليه من نفع اقتصادى أو كسب مادى. حتى أن علاقاته الإنسانية، ومعاملاته الاجتماعية، يتم معظمها فى إطار المكسب والخسارة المادية. ومن كانت القيمة الإنسانية هى التى تحتل عنده قمة قيمه، وجدنا الاعتبارات الإنسانية هى العامل الأول وراء سلوكه، حتى لو أصابه منها بعض الخسارة، حيث يعوضه عنها إسعاده للآخرين. ومن كان الولاء الوطنى عنده يحتل قمة قيمه وجدناه فى معظم سلوكه وتصرفاته ينشد مصلحة وطنه، ويغلِّبها حتى على صالحه الشخصى. ولاشك، أن مهربى المخدرات ومروجيها وتجارها تحتل القيمة الاقتصادية لديهم أعلى السلم بينما قيمة الولاء الوطنى أدناه. ولذا، كان اهتمامهم بالكسب، حتى لو كان على حساب تدمير وطنهم، وانكسار شعبهم، فى تحديات الإنتاج والانتعاش والتنمية المنشودة.

هذا، وفى دراسة تجريبية نشرها برونر Bruner وجودمان Goodman عام ١٩٤٧ عن القيمة والحاجة كعاملين منظمين للإدراك، تبين لهما «أن الأطفال الفقراء يميلون لتقدير حجم العملات المالية بأكبر مما يقدره الأطفال الأغنياء. وقد قررا -بناءً على ذلك- أن الافتراض المنطقى وراء ذلك هو أن الأطفال الفقراء لديهم حاجة ذاتية للمال أكبر من حاجة الأطفال الأغنياء...» (Lambert, et al.: 1966, 317) وواضح من هذه التجربة كيف تؤثر القيمة الاقتصادية التى يؤمن بها الطفل على إدراكه.

وهكذا، يكون إدراكنا للأمور والحكم عليها ملوناً ومتأثراً بما نتبناه من قيم، حيث تعتبر أهدافاً أساسية لنا، وإطاراً يحكم إدراكاتنا، وبالتالى استجاباتنا وسلوكنا ونشاطنا كله.

٦ - **المثل والأخلاقيات والمعايير الدينية والاجتماعية**: وكلها أمور تتعلق بضمير الفرد وأخلاقياته ومبادئه. وسوف نرى فيما بعد عندما نتحدث عن الشخصية أنها من أهم مكونات أحد جوانبها أو أجهزتها، والمعروف بالأنا الأعلى Super Ego. وهذه الأمور جميعًا تعتبر بمثابة معايير للخير والشر. نحكم فى ضوئها على سلوكنا وتصرفاتنا. ولكل منا نصيب منها يختلف عن غيره، ولذا نجد البعض يسعى للخير ويقاوم الشر ويتحاشاه، بينما نجد عكس ذلك عند بعض الناس؛ حيث تكون مصالحهم الخاصة مهما كانت مضادة لمصالح الآخرين هى غايتهم الأساسية، مهما كانت الوسيلة المؤدية إليها شريرة أو مدانة.

وتعتبر المثل والأخلاقيات والمعايير الدينية والاجتماعية من أهم البصمات التى يتركها المجتمع على أفراده وإن اختلف الأفراد فيما بينهم. ولذا، فإن لها درجة من العمومية بين المجتمعات المختلفة بمثل ما لها من درجة خصوصية لكل مجتمع أو مجموعة مجتمعات. وترجع العموميات إلى الفطرة السلمية؛ كتفضيل العدالة والأمانة، وإدانة الظلم والخيانة، وتفضيل الحب على البغض، والسلام على العدوان، والاتحاد على الفرقة. أما الخصوصية فى مجتمع أو عدة مجتمعات فترجع إلى اختلاف الثقافات فى هذا المجتمع أو تلك المجتمعات عن غيرها. ففى المجتمعات العربية -على سبيل المثال- تدان ممارسة الجنس

قبل الزواج بينما هى محبذة فى مجتمعات أخرى... وبالتالى، فإن إدراك مثل هذه الأمور والحكم عليها والتصرف إزاءها، قد يختلف من مجتمع لآخر؛ كما أنه كثيراً ما يختلف أيضاً من فرد لآخر داخل نفس المجتمع .

٧ – **التهيؤ العقلى أو النفسى Mental Set**: أو الوجهة الذهنية –على نحو ما يذكرها أحمد عزت راجح– فى النص الذى نقلناه عنه عند الحديث عن الانتباه.

وتشرحه موسوعة علم النفس والتحليل النفسى فى قولها إنه: «استعداد نفسى لدى الفرد أو اتجاه نفسى لديه يجعله مهيئاً لإدراك شيء بكيفية معينة، أو فهم موقف على وجه معين يتفق وهذا الاستعداد. أى أنه حالة الفرد النفسية التى تؤثر فى إدراكه وفهمه للأمور فهماً يتفق معها. فنحن –على سبيل المثال– مهيئون لإدراك وتفسير كل سلوك الحبيب معنا على أنه طيب خير القصد، حتى إذا ما سلك الحبيب نحونا سلوكًا عدائياً أدركناه على أنه خير لنا؛ فإذا ما اتضح تمامًا ضرره لنا فسرناه على أنه ضرر غير مقصود، واستبعدنا أن يستهدف حبيبنا الإساءة إلينا، وهكذا... وتلخص الحكمة الشعبية ذلك فى قولها: بصلة المحب خروف». (فرج عبد القادر طه: ٢٠٠٩، ٤١٩).

ومن هنا يتضح أن التهيؤ العقلى أو الحالة النفسية للفرد أو استعداده النفسى، يهيئه وييسر له إدراك ما يتفق وحالته النفسية، وما يفكر فيه، وما يأمله أو يخافه، ومن هنا قال المثل الشعبى: اللى يخاف من العفريت يطلع له، بمعنى أنك لو فكرت فى شيء وانشغلت به خيل إليك أنه ماثل أمامك فى أى شيء. ولو كنت منتظراً مجئ شخص ما، خيل إليك أن ما تسمعه هو وقع أقدامه، أو طرقه على الباب.

٨ – **صحة الفرد النفسية Mental Health**: فالفرد الذى يستمتع بدرجة أعلى من الصحة والاتزان النفسى يكون إدراكه للموضوعات والأشياء إدراكًا أقرب إلى الموضوعية، وإلى حقيقتها دون تحريف كبير. وبذلك يكون حكمه على الأمور، وتأويله للأحداث والموضوعات، أقرب إلى الواقع وأبعد عن التزييف. فالصحة النفسية

تؤدى إلى دقة إدراك الواقع وسلامة الحكم عليه، وبالتالى كفاءة التعامل معه. فلو جلست مع مرضى عقليين أو نفسيين لوجدتهم يحدثونك عن مخاوف ومدركات محرفة تدلك بالفعل على خللهم العقلى والفكرى والإدراكى. فهذا كلما جن الليل ينزل عليه رسول من السماء بآيات يتلوها عليك، فإذا هى بلا معنى وغير مفهومة. وهذا يحدثك عن المحاولات التى حاولها أبوه أن يدس له السم فى الطعام إلا أن هاتفًا من السماء أنقذه فنبهه إليها، فامتنع عن تناول الطعام عندما قدمه له أبوه.. وما إلى ذلك من هلاوس وهذاءات سوف نتعرض لها بالتفصيل عندما يأتى حديثنا عن الأمراض النفسية فى الفصل التاسع من هذا الكتاب.

هذا، ومن عرضنا السابق للإحساس والانتباه والإدراك الحسى يتبين لنا أن الإحساس أقرب إلى المستوى الحيوى والجسمى، ويقل فيه العامل النفسى، أما الانتباه فيتضح فيه المستوى الجسمى، كما يتضح -أيضًا- المستوى النفسى، حتى إذا ما وصلنا إلى الإدراك فإننا نجد فيه غلبة الجانب الذاتى النفسى وسيادته على الجانب الحيوى الجسمى. ومن هنا، فإن الإحساس بالشىء الواحد لا يكاد يختلف إلا قليلاً بين الناس، أما الانتباه فإنه يختلف بينهم إلى حد ما، لكن الإدراك للشىء الواحد نجده يختلف اختلافًا بينًا بين الناس؛ نظرًا لاختلاف البناء النفسى لكل منهم. فنحن -على سبيل المثال- لا نختلف على إحساسنا بآدمى يقف أمامنا لكن يشتد اختلاف كل منا فى إدراكه. فهذا يدركه على أنه صديق حميم، وآخر يدركه على أنه عدو لدود، وثالث يدركه على أنه شخص غريب... وإذا ذهب ثلاثة لمشاهدة فيلم سينمائى ثم سألت كلاً منهم عما أعجبه فى الفيلم وعما لم يعجبه لتباينت إجابات كل منهم. وقد تصل إلى حد التناقض، حيث يتضح لك أن ما أعجب هذا ذكره ذاك على أنه لم يعجبه. ويدل هذا على مدى تأثير الجانب النفسى الذاتى للفرد على كيفيات إدراكه للأمور والأشياء، وحكمه عليها، وتأويله لها؛ حتى أن اختلاف إدراك الأفراد للموضوع الواحد غالبًا ما يكون كبيرًا.

فإذا ما انتقلنا إلى أثر مبدأ الانتقاء، أو عامل الانتقاء، فى كل من الظواهر الثلاث السابق شرحها (الإحساس والانتباه والإدراك) لوجدنا أن عامل الانتقاء يبدو أقل فى ظاهرة الإحساس، وربما أكثر بعض الشىء فى ظاهرة الانتباه، أما فى ظاهرة الإدراك فيبدو عامل

الانتقاء شديد الوضوح والتأثير، حتى أن علماء النفس يقولون بأن الإدراك انتقائى؛ أى أنك لا تدرك غالبًا إلا ما تريد إدراكه، أو ما ترغب فى إدراكه، وتغفل عن إدراك ما ترفض إدراكه. ولعل فى عوامل الإدراك الذاتية -التى ذكرناها- ما يؤيد هذا المبدأ، ويؤكد صدقه إلى حد كبير. ونلاحظ أن الفطرة السليمة والحدس التلقائى الصائب يؤيدان هذا الأمر بشكل واضح.

فها هو الإمام الشافعى يقول فى بعض حكمه بعنوان: عين الرضا:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدى المساويا
ولست بهياب لمن لا يهابنى ... ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا
فإن تدن منى تدن منك مودتى ... وإن تنأ عنى تلقنى عنك نائيا

(الإمام الشافعى : ١٩٧٤، ٩١)

كما أننا نجد المتنبى يقول بيته هذا الشهير كحكمة صائبة:

ومن يَكُ ذا فم مُرٍّ مريض ... يجد مرا به الماء الزلالاَ

وذلك فى قصيدته التى يمدح فيها أبا الحسن الطبرستانى والتى كان مطلعها:

بقائِى شاءَ ليس همُ ارتحالا ... وحُسْنَ الصبر زمُّوا لا الجمالاَ

(المتنبى: ١٩٩٥، ١٣٠)

والحكمة الذائعة -أيضاً- تقول «كل إناء ينضح بما فيه».

ولما كان الإدراك يعنى فهمنا وتأويلنا وتفسيرنا لما يأتينا من العالم الخارجى عن طريق حواسنا وأحاسيسنا فإن استجاباتنا وأوجه نشاطنا المختلفة لابد وأن تتأثر بعملية الإدراك تلك. فلاشك فى أن استجاباتى لما أدركه على أنه إيجابى مفيد، تختلف عن استجاباتى فيما لو أدركته على أنه سلبى ضار. كما أن استجاباتنا للأصدقاء تختلف عن استجاباتنا للأعداء، وهكذا حتى يستطيع الفرد أن يكيف سلوكه ونشاطه مع بيئته ومن حوله، ويتوافق

معهم توافقًا ناجحًا. ومن هنا كانت دراستنا للإدراك فى هذا الكتاب نظراً لأنه أحد العوامل الهامة المؤثرة على السلوك الإنسانى (موضوع علم النفس بعامة) والمحددة له.

ثانيًا: التعلــم

التعلم Learning هو الظاهرة التى تتم بها عملية اكتساب المعارف والمعلومات والخبرات والمهارات المختلفة. وكما يعرِّفه مصطفى زيور فى معجم العلوم الاجتماعية هو «اصطلاح فى علم النفس يشير إلى ما يطرأ على سلوك الكائن الحى من تغيير وتعديل يرجع إلى الخبرة والممارسة، أو إلى العلاقة المتبادلة بينه وبين العالم الخارجى بصفة أساسية، أكثر مما يرجع إلى النضج.... ويتصف هذا التعديل أو التغيير الناتج عن التعلم بقدر من الثبات والاستقرار، ويزيد من كفاءة الكائن على التعامل مع العالم الخارجى. ويتجلى ذلك فى تزايد القدرة على تحقيق حاجاته ومطالبه وعلى التعرف على عالمه، والتوافق معه، والامتثال لمقتضياته، وذلك بفضل ما اكتسب من أنماط إدراكية ولغوية وحركية وانفعالية لها جدواها». (مصطفى زيور: ١٩٧٥، ١٦١).

أما فرانك برونو Frank Bruno فيعرِّف التعلم تعريفًا شديد الإيجاز؛ حيث إن كل ما يقوله فى هذا التعريف: «التعلم -على وجه التقريب- هو تغير مستمر فى نزعة سلوكية كنتيجة للخبرة. ثم يذكر أمثلة على التعلم فيقول: نحن نتعلم الكلام، والكتابة، وركوب الدراجة، والسباحة، ولعب الورق، وإجراء العمليات الحسابية، وهكذا. وفى الحقيقة، نجد أن الجانب المكتسب فى أى سلوك هو جانبه المتعلم، ولهذا كان التعلم من الشمول حتى أن بعض السيكولوچيين جعلوا منه اهتمامهم الأساسى عندما يقومون بدراسة السلوك. فإيفان بافلوف Invan Pavlov ، وسكينر B. F. Skinner، وإدوارد ثورنديك Edward L. Thorndike، وجون واطسون John Watson كلهم اعتبروا التعلم على أنه أهم عملية منفردة The Most Important Single Process لتفسير السلوك الإنسانى». (Bruno: 1986, 125-126).

أما أحمد عزت راجح فيعرِّف التعلم بقوله: «يستخدم التعلم فى علم النفس بمعنى أوسع

بكثير من معناه فى اللغة الدارجة. فهو لا يقتصر على التعلم المدرسى المقصود أو التعلم الذى يحتاج إلى دراسة ومجهود وتدريب متصل، أو على تحصيل المعلومات وحدها دون غيرها من ضروب المكتسبات، بل يتضمن التعلم -أيضًا- كل ما يكتسبه الفرد من معانٍ وأفكار واتجاهات وعواطف وميول وقدرات وعادات ومهارات حركية وغير حركية، سواء تم هذا الاكتساب بطريقة متعمدة مقصودة أو بطريقة عارضة غير مقصودة». (أحمد عزت راجح: ١٩٧٩، ٢٢٥).

ويورد أنور محمد الشرقاوى فى كتابه: التعلم: نظريات وتطبيقات تعريفًا يتفق وما سبق -إلى حد كبير- فيذكر: «التعلم هو عملية تغير شبه دائم فى سلوك الفرد لا يلاحظ بشكل مباشر ولكن يستدل عليه من السلوك ويتكون نتيجة الممارسة، كما يظهر فى تغير الأداء لدى الكائن الحى». (أنور محمد الشرقاوى: ١٩٩٨، ١١ - ١٢).

ونكتفى بهذه النماذج السابقة فى تعريف التعلم حيث تلتقى جميعها وتتكامل لتوضح لنا مدى أهمية التعلم كعامل أساسى من العوامل المحددة للسلوك الإنسانى، والمؤثرة عليه. وبالتالى، فإن دراسة عملية التعلم أمر شديد الأهمية لمن يدرسون أصول علم النفس، وعوامل السلوك ومحدداته.

شرطا التعلم:

التعلم نشاط أو سلوك يقوم به الإنسان (أو الكائن الحى عمومًا)، ولذا ينطبق عليه ما ينطبق على أى نشاط أو سلوك من شروط أساسية لابد من توافرها، وفى حالة غياب أحدها لا يحدث السلوك أو لا تتم ممارسة النشاط. وشرطا التعلم هما:

١ - الدافع:

فلقد سبق لنا عند الحديث عن الدوافع (فى الفصل الخامس من هذا الكتاب) أن أشرنا إلى أن كل نشاط أو سلوك يقوم به الإنسان أو الكائن الحى عمومًا لابد أن يكون وراءه دافع يدفعه إلى ممارسة هذا النشاط. تحقيقًا لهدف معين يسعى إليه الفرد أو الكائن الحى. فأنت

لا تسعى إلى شرب الماء وتبذل جهدك فى ذلك إلا إذا كنت عاطشاً تستهدف من وراء ذلك إزالة التوتر والضيق اللذين تسببهما حالة العطش، وتحقيق المتعة والراحة اللتين تشتقهما من شربك للماء وأنت عاطش.

وبالمثل، فنحن لا نتعب أنفسنا ببذل جهد فى التعلم، إلا إذا كان هناك دافع يدفعنا إلى هذا أو هدف نستهدف تحقيقه من وراء هذا التعلم، أو كسب -أياً كان- ننتظره نتيجة لهذا التعلم. وهكذا، لا نستطيع أن نعلم حيواناً القيام بسلوك معين نطلبه منه، إلا إذا كان جائعًا أو فى حاجة إلى الطعام أو الهدية التى نقدمها له إن أحسن القيام بالسلوك المطلوب (وهذا ما يعرف بالدافع الإيجابى)، أو إذا عاقبناه إن لم يحسن القيام بالسلوك المطلوب (وهذا ما يمكن وصفه بالدافع السلبى؛ أى الدافع إلى تحاشى الألم والأذى الناتجين عن العقاب). وتقوم فكرة تدريب الحيوانات أساسًا على هذا المبدأ.

ولذا، فإن التعلم يقوم به الفرد أساساً لتحقيق مكاسب معينة أو الاستمتاع بإشباع دوافع خاصة، حتى وإن كانت خافية علينا. ولنا أن نتصور أن المدرسة تعاقب كل من أجاد تحصيل دروسه وتثيب كل من فشل فى ذلك، فلابد عندئذ أن تفشل العملية التعليمية وتعجز المدرسة عن أداء وظيفتها، وتفقد عند ذاك مبرر وجودها. ومن هنا، كان رفع دافع التلميذ نحو التحصيل الدراسى واستثارته من أهم واجبات الأسرة والمدرسين والمجتمع عامة. وكذلك بالمثل تمامًا يجب علينا رفع دافع المدرسين واستثارته لصالح العملية التعليمية. ولاشك فى أن هذا أو ذاك من واجبات المجتمع الأساسية.

٢ – القدرة (أو الاستعداد) :

لا يكفى الدافع وحده كشرط لإتمام السلوك أو النشاط أياً كان نوعه بما فيه التعلم، إذ لابد أن تتوافر القدرة (أو الاستعداد) التى تمكن الفرد من إنجاز السلوك أو القيام بالنشاط. فلو أردنا تعليم طفل فى سن الثانية قيادة السيارات، فلن نفلح مهما أوتينا من ظروف مواتية لإنجاز هذا التعليم، ذلك لأن إمكانية هذا الطفل، أو مستوى نضجه، أو مستوى قدراته لم تصل بعد إلى القدر الكافى الذى يجعله يستفيد من محاولاتنا تعليمه قيادة السيارات. ومهما

كان دافع الطفل مرتفعاً لتعلم قيادة السيارة فإنه لن يستطيع تعلمها. فالدافع وحده، وإن كان شرطاً ضرورياً للتعلم إلا أنه غير كاف، ولابد وأن يضاف إليه شرط آخر لا يقل أهمية هو القدرة (أو الاستعداد) على التعلم؛ وسواء أكانت هذه القدرة ناتجة عن النضج الطبيعي Maturity كحالة هذا الطفل عندما يكبر، أم كانت ناتجة عن خبرة وتجارب وتعلم سابق وتدريب، أم كانت ناتجة عن ارتفاع مستوى إمكانياته العقلية ومهاراته الحسية والحركية والعضلية... فالمهم لكى تنجح العملية التعليمية أن تتوافر فى الفرد -أيضاً- القدرة على القيام بها وإنجازها؛ أى القدرة على هذا التعلم المعنى.

ولكل نوع من التعلم ما يلزمه من قدرة (أو قدرات واستعدادات خاصة) ومستوى مناسب لها. ولذا فإن من يفشل فى تعلم شيء قد يكون من أوائل الناجحين فى تعلم شيء آخر. ففى المثال السابق تفشل محاولاتنا تعليم طفل فى الثانية من عمره قيادة السيارة، لكن تنجح محاولاتنا الجادة الصائبة والدؤوبة لتعليمه لغة أجنبية معينة، كأن نضعه فى مجتمع يتكلم هذه اللغة فنجده بعد فترة قليلة قد تعلمها.. وهكذا..

(أ) نظريات التعلم التقليدية

نظراً لأهمية التعلم فى حياة الإنسان عموماً، وفى فهم وتفسير وتوجيه سلوكه خصوصاً، فقد حاول العلماء دراسته والخروج بنظريات توضح لنا وتشرح كيف يتعلم الإنسان. ولعل أهم وأشهر النظريات التقليدية التى تعتبر -بشكل أو بآخر- أصولاً أساسية استمدت منها معظم نظريات التعلم الحديثة، وأقامت عليها، أو انطلقت منها، ثلاث نظريات هى:

أولاً : نظرية التعلم الشرطى الكلاسيكى

Classical Conditioning Theory

بينما كان إيفان بافلوف Invan Pavlov (١٨٤٩-١٩٣٦) العالم الفسيولوچى الروسى، والحائز عام ١٩٠٤ على جائزة نوبل فى الفسيولوچيا يجرى فى أوائل القرن العشرين تجارب فسيولوچية متعلقة بسيل اللعاب وبالإفرازات الهاضمة عند الكلاب، اكتشف ما سبب له دهشة كبيرة، حيث كانت حيوانات المعمل تستجيب بسيل اللعاب لمجرد دخول

الشخص الذى كان سابقاً يقدم لها الطعام إلى حجرتها. فبدأ عند ذلك سلسلة من التجارب ساعدته على تكوين نظريته فى قيام المخ بوظائفه؛ وعرفت بعد ذلك بالتعلم الشرطى، ثم بالتعلم الشرطى الكلاسيكى، تمييزاً لها عن نوع من التعلم الشرطى اكتشف بعد ذلك هو التعلم الشرطى الإجرائى؛ الذى سوف نرجئ الحديث عنه لحين تعرضنا لنظريات التعلم الحديثة.

تحول بافلوف بعد اكتشافه سيل لعاب الكلب دون تقديم طعام له، لكن لمجرد دخول الشخص الذى كان يقدم له الطعام سابقاً، إلى التركيز على هذه الظاهرة الجديدة التى اكتشفها، وبدأ سلسلة من التجارب كان نموذجها قرع جرس ثم تقديم طعام إلى الكلب مباشرة والكلب جائع (لرفع دافع الكلب واستثارته للتعلم). وكرر ذلك عدداً كبيراً من المرات؛ وصل فى بعض الأحيان أكثر من مائة مرة. فكان الكلب بعد ذلك يفرز اللعاب لمجرد سماع الجرس حتى لو لم يعقبه تقديم طعام وهنا نقول إن الكلب قد تعلم أن يفرز اللعاب لمجرد سماع الجرس، حيث قام الكلب بالربط بين قرع الجرس وتقديم الطعام، فأصبح قرع الجرس مبشراً بتقديم الطعام وبمثابة تهيئة الكلب لتناول الطعام وتنبيهه إلى ذلك، فيستعد الكلب بإفراز اللعاب لهضم الطعام. ولذلك أطلق بافلوف على هذه الحالة من إفراز اللعاب مصطلح الإفراز النفسى Psychic Secretion حتى يميزه عن إفراز اللعاب الطبيعى، والذى يتم نتيجة وضع الطعام فعلاً فى فم الحيوان.

وتتلخص فكرة التعلم الشرطى الكلاسيكى فى أن مثيراً غير طبيعى (الجرس فى التجربة السابقة) نتيجة لاقتران تقديمه عدداً من المرات مباشرة قبل تقديم المثير الطبيعى (الطعام فى التجربة السابقة) يصبح عند ذاك قادراً على استثارة نفس الاستجابة التى يستثيرها المثير الطبيعى (وهى اللعاب فى التجربة السابقة).

أما المدة المنقضية بين تقديم المثير الشرطى والمثير الطبيعى فينبغى أن تكون قصيرة جداً.، فقد وجد أن الفترة المثلى هى نصف ثانية، ومن تجارب كثيرة أنها إن زادت عن ٣٠ ثانية لم يحدث الفعل المنعكس الشرطى،. والفعل المنعكس الشرطى فى تجربتنا تلك هو

إفراز اللعاب. أما عدد مرات تكرار قرع الجرس ثم تقديم الطعام للكلب الجائع حتى يتعلم إفراز اللعاب لمجرد قرع الجرس فقد كان يتراوح بين عشر مرات ومائة مرة. (أحمد عزت راجح: ١٩٧٩، ٢٣٤).

أما تسمية هذا النوع من التعلم بالتعلم الشرطى فيرجع إلى أنه لا يحدث إلا بشروط معينة. فى حالة النموذج السابق نجد شرط قرع الجرس قبل تقديم الطعام عدداً كبيراً من المرات. كما نجد شرطاً آخر هو أن يكون الكلب جائعاً فى كل مرة، وشرطاً ثالثاً أن تكون المدة المنقضية بين قرع الجرس وتقديم الطعام مدة وجيزة جداً فى كل مرة، على نحو ما سبق أن أشرنا...

هذا، وقد قام بافلوف وتلاميذه بتكرار مثل هذه التجارب باستخدام مثيرات شرطية (مصطنعة) أخرى سواء أكانت صوتية كرنة شوكة معدنية، أم ضوئية كإسقاط دائرة ضوئية أمام الحيوان، أم إشعال مصباح كهربى... إلخ. وفى كل هذه الأحوال تأكدت ظاهرة التعلم الشرطى.

وقد قاموا بإجراء تجارب استهدفت اكتشاف قوانين هذا التعلم الشرطى ومبادئه. فكان من أهم ما توصلوا إليه ما يلى:

١- مبدأ الاقتران المتآنى أو المتتابع: اتضح أن المثير الشرطى يكون له أثر فعال إن صاحب المثير الأصلى فى الزمان أو سبقه، أما إن تلاه فلا تحدث الاستجابة الشرطية إلا بصعوبة بالغة...

٢- مبدأ المرة الواحدة: لقد كان بافلوف -فى تجاربه الأولى- يكرر ربط المثير الشرطى بالمثير الأصلى عدة مرات قد تبلغ المائة أو تزيد، وقد أدى ذلك إلى الاعتقاد بأن التكرار شرط أساسى للتعلم. غير أنه اتضح أن الاستجابة الشرطية قد تتكون من فعل المثير الشرطى مرة واحدة ليس غير. ويحدث هذا -بوجه خاص- فى الحالات التى تقترن فيها التجربة بانفعال شديد. ولذلك أمثلة كثيرة فى الحياة اليومية؛ فالطفل

الذى لسعته النار... يحجم عن الاقتراب منها بعد ذلك، كذلك الطفل الذى أوشك على الغرق (يتحاشى النزول إلى الماء مرة أخرى) ...

٣، - مبدأ التدعيم Reinforcement : لاحظ بافلوف أن الاستجابة الشرطية لا تتكون أصلاً إلا إذا اقترن المثير الطبيعى (الطعام) بالمثير الشرطى (الجرس) أو تبعه مباشرة مرات متتالية ولعدة أيام متتالية، كما أنها متى تكونت فإنها لا تثبت وتبقى إلا إذا قُوِّيت من آن لآخر وبصورة منتظمة، شأنها فى ذلك شأن كل عادة وكل استجابة مكتسبة. وتسمى تقوية الرابطة بين المثير الشرطى والاستجابة الشرطية بالتدعيم، والاستجابة الشرطية متى تكونت وتمكنت بقيت عدة شهور أو ما يزيد. ويلاحظ أن التدعيم فى هذه الحالة نشأ عن إشباع دافع الجوع عند الحيوان؛ أى انخفاض حالة التوتر لديه، فكأن تقديم الطعام كان بمثابة مكافأة للكلب ونوع من الثواب على استجابته المقبلة...

٤، - مبدأ الانطفاء Extinction : هو عكس مبدأ التدعيم. فالانطفاء يعنى أن الاستجابة الشرطية تأخذ فى التضاؤل والزوال إن تكرر المنبه الشرطى دون تدعيم أو بتدعيم سلبى (عقاب عند الاستجابة). ويتلخص (مبدأ الانطفاء) فى أن المثير الشرطى إن تكرر ظهوره دون أن يتبعه المثير الأصلى من آن لآخر؛ أى دون تدعيم، تضاءلت الاستجابة (المتعلمة) بالتدريج حتى تزول (تماماً). فالكلب الذى تعود أن يسيل لعابه عند سماعه جرساً لا يعود يسيل لعابه إن تكرر سماعه الجرس مرات كثيرة دون أن يتلو ذلك تقديم الطعام إليه...

٥، - مبدأ تعميم المثيرات Generalization : لوحظ أن الكلاب تستجيب بإفراز اللعاب، فى أول الأمر، لجميع المثيرات التى تشبه المثير الشرطى من بعض الوجوه... فالكلاب التى تعلمت أن يسيل لعابها عند سماع نغمة ذات تردد معين (١٠٠٠ ذبذبة/ثانية) يسيل لعابها -أيضاً- عند سماعها نغمات تقترب فى ترددها من هذه النغمة (٨٠٠ ذبذبة/ ثانية).. وكلما زاد التشابه بين المثير الشرطى (المشابه) والمثير

(الشرطى) الأصلى زادت قوة الاستجابة الشرطية وكانت أكثر دواماً وبقاءً.. هذا هو مبدأ تعميم المثيرات، ويتلخص فى انتقال أثر المثير أو الموقف إلى مثيرات ومواقف أخرى تشبهه أو ترمز إليه. وهو يفسر لنا كثيراً من سلوكنا اليومى، فمن لدغه ثعبان فإنه يخاف من رؤية الحبل، والطفل الذى عضه كلب معين يخاف من جميع الكلاب الأخرى، كذلك الطفل الذى يخاف أو يكره أباه فإنه يخاف أو يكره كل من شابه أباه فى المركز أو النفوذ أو الشكل، فإذا به يتوجس أو ينفر من المدرسين والرؤساء ورجال الشرطة والأطباء..

٦ - **مبدأ التمييز Discrimination**: لوحظ أن المثيرات المتشابهة التى يستجيب لها الكلب بإفراز اللعاب فى أوائل التجربة، لو تدعم أحدها -أى اقترن بتقديم الطعام- ولم يتدعم الآخر استجاب الكلب للمثير الذى ناله التدعيم ولم يستجب للآخر. من ذلك أن أحد الكلاب قد تعلم أن يستجيب عند سماع نغمة ترددها ٨٠٠ ذبذبة فى الثانية، فكان فى أول الأمر يستجيب لنغمات أعلى حتى ما بلغ تردده ١٠٠٠ ذبذبة فى الثانية. لكن المجرب، عن طريق تدعيم بعض هذه المثيرات وعدم تدعيم الأخرى، استطاع أن يجعل الكلب يميز بين نغمات ترددها ٨٠٠ و٨١٢ و٨٢٥ ذبذبة فى الثانية؛ أى يستجيب لبعضها ولا يستجيب لبعضها الآخر. فالتمييز هو التغلب على التعميم؛ أى التفرقة بين المثير الأصلى والمثيرات الأخرى الشبيهة به نتيجة لتدعيم المثير الأصلى وعدم تدعيم المثيرات الشبيهة به. فهو نوع من التدعيم الانتقائى، أساسه التدعيم والانطفاء. ويبدو أثر هذا المبدأ فى مظاهر كثيرة، فالطفل الصغير يسمى كل رجل يراه (بابا)، لكنه بفضل التدعيم وعدم التدعيم من البيئة الاجتماعية لا يلبث أن يصحح خطأه هذا وتعميمه الفضفاض، فلا يعود يطلق هذا اللفظ إلا على أبيه فقط. كذلك الحال وهو يتعلم الأشياء: كلب، قط، تفاح، قلم... فهو يعمم أولاً ثم يصحح أخطاءه بالتمييز تدريجياً. كذلك الطفل إن رأى سلوكاً معيناً يحوز رضا والديه مال إلى تكرار هذا السلوك مع الغير (تعميم). فإن رأى أن هذا السلوك يقابل بالاستهجان من الآخرين تركه إلى غيره (تمييز).

٧ - مبدأ الاستتباع Succession: دلت التجارب على الحيوانات أن المثير الشرطي ينتقل أثره إلى مثير آخر يسبقه مباشرة، فإن كان الضوء الذي يبشر بقدوم الطعام يسيل لعاب الكلب فالجرس الذي يسبق الضوء يسيل لعابه أيضاً... وتسمى الاستجابة الشرطية في هذه الحالة استجابة من الرتبة الثانية. فإذا كان ظهور العصا يحمل الطفل على تلبية ما نأمره به، فسماعه كلمة التحذير التي تسبق ظهور العصا يكفي لحمله على الإطاعة. بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك، فنجعل الكلب يسيل لعابه لصدمة كهربية تسبق دق الجرس الذي يسبق ظهور الضوء مباشرة؛ أي أننا نستطيع تكوين استجابة شرطية من الرتبة الثالثة.. وهكذا... وهذا يبدو في حالة الطفل الصغير، إذ يكف عن البكاء حين ترضعه أمه، ثم حين تحمله، ثم حين يراها، بل حتى حين يسمع صوتها قبل أن يراها، (أحمد عزت راجح: ١٩٧٩، ٢٣٧-٢٤٢).

وينبغي أن نشير هنا إلى أن ما ينطبق على حيوانات التجارب في تعلمها الشرطي، وما يصدق عليها من مبادئه وقوانينه ينطبق -أيضاً- ويصدق على الإنسان. فلقد أجرى العلماء كثيراً من تجارب التعلم الشرطي على الإنسان فأدت إلى نفس النتائج. من ذلك أنهم علموا الشخص أن تضيق حدقة عينه بمجرد سماع الجرس (تعلم شرطي)، وذلك بتكرار قرع جرس قبل إلقاء إضاءة على عينيه (مثير طبيعي لتضييق حدقة العين).

ولقد رأى بافلوف وتلاميذه أن نظريتهم في التعلم الشرطي تفسر لنا كل سلوك يقوم به الإنسان، حيث يرون أن كل سلوك إنساني ليس أكثر من ترابط آلي بين مثير واستجابة قد تعلمه الكائن الحي حيواناً كان أم إنساناً. ولقد تعلم الكائن الحي ذلك عن طريق التكرار الذي ربط بين المنبه المعين والاستجابة المعينة ربطاً آلياً، فأصبح مجرد ظهور المنبه يستتبع الرد عليه بالاستجابة المتعلمة له.

هذا، وقد تركت نظرية بافلوف في التعلم الشرطي وقوانينها ومبادئها أثراً كبيراً على ظهور المدرسة السلوكية في علم النفس على يد واطسون J.B.Watson عالم النفس

الأمريكى الشهير (١٨٧٨ - ١٩٥٨)، والذى انتخب رئيساً لجمعية علم النفس الأمريكية عام ١٩٥١. حيث تركز هذه المدرسة، على فكرة الربط الآلى المتعلم بين المثير (أو المنبه) وبين الاستجابة المعينة له، كنتيجة للتدعيم الذى يلقاه الإنسان أو الحيوان للاستجابة المعينة للمثير المعين. ولقد سبق لنا -فى الفصل الثانى من هذا الكتاب- أن أشرنا إلى تجربته التى تثبت نظريته تلك، كما أنها تؤيد إمكانية استخدام عملية تعلم شرطى بسيطة فى إحداث ظاهرة الخوف المرضى (أحد الأمراض النفسية التى سوف يأتى شرحها فى الفصل التاسع من هذا الكتاب)، حيث أتى بطفل صغير -يبلغ من العمر أحد عشر شهراً. وكان هذا الطفل يحب الفئران البيضاء ويلعب كثيراً معها ولا يخشاها أو يخاف منها. فأراد واطسون أن يثبت إمكانية تعليم هذا الطفل الخوف المرضى من الفأر الأبيض وغرسه فيه. فكان يقف خلف هذا الطفل، وبمجرد أن يظهر الفأر الأبيض للطفل ويمد يده للعب معه كان واطسون يحدث دوياً هائلاً بمطرقة تجعل الطفل يفزع منه. وبعد تكرار هذه التجربة عدة مرات ربط الطفل بين ظهور الفأر الأبيض وبين الصوت المخيف، فأصبح مجرد ظهور الفأر الأبيض (مثير شرطى) يستجيب له الطفل بالخوف الشديد (استجابة شرطية)، حتى لو لم يعقبه الصوت المزعج (المثير الطبيعى). ثم بدأ الطفل يعمم استجابات الخوف إلى ما يشبه الفأر من حيوانات ذات فراء (أيزنك: ١٩٦٩، ١٢٢ - ١٢٣). وهكذا، كون واطسون عن طريق التعلم الشرطى التقليدى مرض الخوف من الفئران لدى الطفل. وقد عالجه بعد ذلك بمشاركة تلميذته مارى كوفر جونز Mary Cover Jones على نفس الأساس من مبادئ التعلم الشرطى. فكانت التجربة التى عالجاه فيها تتلخص فى وضع قالب شيكولاتة للطفل مع ظهور الفأر له وبجوار الفأر، إلا أن الطفل كان يذهب بعيداً عنهما معاً نظراً لشدة خوفه من الفأر، فكان أن قدما الفأر بعيداً فى أقصى ركن الحجرة مع تقديم الشيكولاتة قريباً من الطفل، فكان خوف الطفل يقل من الفأر لأنه بعيد عنه، ويتقدم لأخذ الشيكولاتة. وفى كل مرة كانت تحدث فيها التجربة كان الفأر يزداد اقتراباً من الطفل حتى انطفأ خوف الطفل من الفأر وتعلم شرطياً حبه من جديد، نتيجة ربطه بين حب الشيكولاتة ووجود الفأر واللعب معه. (المرجع السابق: ١٣٢-١٣٤).

وهكذا يُعد ميدان التعلم ميداناً مهمًا من ميادين علم النفس حيث يعتبر فى نظر البعض الميدان «الأكثر اتساعًا من حيث إمكانية تطبيق حقائقة فى علاج الاضطرابات العصابية، مفسحًا بذلك مجالاً عريضًا للممارسة الإكلينيكية. فالبداية الحقيقية للعلاج السلوكى -على سبيل المثال- جاءت من نظرية التعلم، ومن واطسون على وجه التحديد. فمن خلال تجاربه هو وروزالى رينور R. Raynor أمكن القيام بتشريط تجريبى لطفل فى الشهر الحادى عشر من عمره لتعليمه استجابة الخوف من أشياء لم يكن يخاف منها من قبل...» (صفوت فرج: ٢٠٠٨، ٥٠)؛ وهى التجربة التى سبق أن أشرنا إليها.

ومن الجدير بالذكر أن بافلوف قد أجرى تجارب كثيرة لدراسة وظائف المخ وعلاقتها بالتعلم واكتساب الخبرات، وتقسيم العمل داخل المخ. «ووصولاً لهذا الغرض استأصل كل لحاء المخ، ووجد أن الحيوان بدون لحاء المخ يعجز تمامًا عن تكوين روابط (شرطية) جديدة، وهى الأفعال المنعكسة الشرطية. ولا يقتصر الأمر هنا على تكوين أفعال شرطية جديدة بل تختفى -أيضاً- كل الأفعال المنعكسة الشرطية التى اكتسبها الحيوان أثناء حياته. فقد لوحظ أن خبرته الماضية قد إمحت تمامًا، فضلاً عن عجزه فى الوقت نفسه عن اكتساب أى خبرة جديدة.. وخلص بافلوف من هذه التجارب إلى أن لحاء المخ هو مركز كل النشاط الانعكاسى الشرطى. إذ أن له وظيفة مزدوجة، أولها: إنشاء روابط جديدة بين الكائن الحى وبيئته، وثانيها: الاحتفاظ بالروابط القديمة التى سبق أن اكتسبها الحيوان فى حياته، كما تبين له أن لحاء المخ هو الذى يسير عملية التعلم على أساس الخبرة. وقد أثبتت هذه التجارب ذاتها أن الأجزاء الدنيا من الجهاز العصبى -منطقة ما تحت اللحاء وساق المخ Brain Stem والحبل الشوكى- تشكل مركزاً للنشاط الانعكاسى غير الشرطى؛ أى الروابط الدائمة التى تربط بين البيئة والكائن العضوى الحى، والتى أصبحت روابط وراثية على مدى تاريخ تطور الأنواع» (هارى ويلز: ١٩٧٥، ١١٢).

ثانيًا: نظرية التعلم بالمحاولة والخطأ Trial and Error:

كان عالم النفس الأمريكى ثورنديك Edward Thorndike (١٨٧٤ – ١٩٤٩) مهتمًا اهتمامًا خاصًا بظاهرة التعلم، يجرى التجارب فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (وظل كذلك طوال فترة عمله) لمعرفة كيفية حدوث التعلم عند الحيوان والإنسان، حتى أن رسالته لنيل درجة الدكتوراه عام ١٨٩٨ كانت عن ذكاء الحيوان: دراسة تجريبية على عمليات الارتباط عند الحيوان، حيث كان يجرى فيها التجارب على كيفية تعلم الحيوان، ولذا تسمى نظريته –أحيانًا– بالنظرية الوصلية Connectionism. وفكرة النظرية الأساسية تقوم على أن الحيوان والإنسان يكتسبان مهارتهما ويتعلمانها عن طريق المحاولة والخطأ، حيث تثبت المحاولات الناجحة أو المقربة إلى النجاح أو الموصلة إليه، وتتلاشى المحاولات الخاطئة أو التى تؤدى إلى الفشل. ومع تكرار التجربة تنطبع فى الجهاز العصبى جوانب السلوك الناجحة وتختفى الفاشلة (Bruno: 1986, 236)، ويتم ذلك بشكل تدريجى، حتى يتم التعلم.

ومن الجدير بالذكر توافق زمن بداية تجارب كل من بافلوف (صاحب نظرية التعلم الشرطى) وثورنديك (صاحب نظرية التعلم بالمحاولة والخطأ). كما أن بافلوف كان يكن تقديرًا بالغًا لثورنديك وتجاربه ودقة ضبطها العلمى.

ففى عام ١٩٢٣، كتب بافلوف –بتواضع العالم وموضوعيته الواجبة– مشيدًا بثورنديك «بعد أن شرعنا فى الدراسة والبحث على هدى منهجنا الجديد ببضع سنوات علمت أن تجارب أخرى مماثلة لتجاربنا على الحيوانات أُجريت فى أمريكا، ولم يجرها فى الحقيقة علماء فسيولوجيا بل علماء نفس. ومن ثم شرعت على الفور فى دراسة تفصيلية للنشرات العلمية الأمريكية، وأحسب أن من واجبى الآن أن أعترف بأن أ.ل. ثورنديك هو الأحق بشرف من خطا الخطوات الأولى على هذا الدرب. فتجاربه أسبق من تجاربنا بعامين أو ثلاثة، ويتعين علينا أن نعتبر مؤلفه فى هذا الصدد (قاصدًا ذكاء الحيوان) مرجعًا علميًا من الطراز الأول، وذلك لسببين: جرأته فى طريقة النظر فى هذا العمل الهائل، ودقة نتائجه» (هارى ويلز: ١٩٧٥، ١٩٦).

ومن نماذج تجارب ثورنديك وضع قطة فى قفص يغلق عليها، وتستطيع فتحه إن ضربت فيه مكاناً معيناً. فنجد أن القطة تضرب كافة جوانب القفص، ثم فى إحدى هذه الضربات ينفتح القفص وتخرج منه لتجد وجبة طعام شهية فى انتظارها، وهى جائعة. ومع تكرار التجربة نجد أن زمن بقاء القطة محبوسة داخل القفص قد قل، كما أن محاولات الضرب العشوائى على مختلف جوانب القفص تقل شيئاً فشيئاً، حتى تكاد تثبت عند المكان المناسب فقط، والذى ينتهى بفتح القفص (أى الحل الناجح). وعند ذاك، نقول إن القطة قد تعلمت، بحيث إنه بمجرد دخولها القفص لا يمضى سوى وقت قليل حتى تخرج منه، ولا تضرب ضربات عشوائية بعيدة عن الحل الصحيح إلا قليلاً.

ويلاحظ أن تعلم الإنسان لمهاراته يتم أساسًا وفق نظرية المحاولة والخطأ، والحركات العشوائية التى لا يتدخل الذكاء فى توجيهها، ويكاد يتساوى فيها الذكى والغبى؛ مثل تعلم السباحة، وتعلم ركوب الدراجة، وتعلم قيادة السيارة، إذ لا يمكن الاعتماد هنا على ذكاء الفرد فقط مهما كان، بل لابد من أن يجرب حركات عشوائية طويلاً قبل أن يجيد التعلم. ويعنى التعلم -فى نهاية الأمر- تدعيم الحركات الصائبة وبقاءها وتلاشى الحركات الطائشة واختفاءها. ويتم هذا التعلم دون فهم من جانب القائم بالتعلم، وإنما بشكل أقرب ما يكون إلى الآلية العمياء. ومن هنا، نقترب كثيراً من التعلم الشرطى الذى سبق أن شرحناه، حيث يحدث ارتباط آلى بين مثيرات واستجابات، حتى أن ثورنديك يُعتبر من علماء التعلم الشرطى بشكل أو بآخر، حيث يرى أن التعلم يتم عن طريق ترابط آلى بين مثيرات تنقلها الأعصاب الحسية واستجابات ترد بها الأعصاب الحركية دون أن يكون للتفكير والشعور دور بينهما.

قوانين التعلم بالمحاولة والخطأ:

لعل من أهم قوانين التعلم بالمحاولة والخطأ ومبادئه:

١ - **قانون التكرار Law of Repetition**: حيث يعتبر أن الحركات الناجحة الموصلة إلى الهدف هى التى يكررها الكائن الحى فى الموقف التعليمى، ولذلك فهى

التى تبقى، فى حين أن الحركات الفاشلة التى لا تحقق الوصول إلى الهدف لا يميل الكائن الحى إلى تكرارها؛ بمعنى أن الكائن الحى يزداد لديه الميل نحو تكرار الأفعال أو الحركات الموصلة إلى الهدف، ولا يميل إلى تكرار الأفعال أو الحركات غيرالناجحة، وخاصة بعد المحاولات الأولى التى يكون فيها قد مارس هذين النوعين من الأفعال. ولذلك، يعتبر (ثورنديك) أن الأفعال أو الحركات التى تبقى، وبالتالى يتم تعلمها هى الأفعال أو الحركات الناجحة التى تؤدى إلى تحقيق الهدف (العوم وليس الغرق فى تعلم السباحة مثلاً)، ولذلك تكون أكثر احتمالاً فى الظهور فى المحاولات التى تتم من الأفعال أو الحركات الفاشلة؛ حيث إن الأفعال أو الحركات الناجحة هى التى تنهى المحاولة بحل المشكلة والوصول إلى الهدف وهو الطعام فى التجارب الرئيسية التى أجراها ثورنديك، فى حين أن الأفعال أوالحركات الفاشلة لا تحقق الوصول إلى الهدف، وبالتالى تكون أميل إلى الاستبعاد من سلوك الكائن الحى، (أنور محمد الشرقاوى: ١٩٩٨، ٥٣-٥٤). ويمكن أن نجد فى قانون التكرار هذا صورة أخرى قريبة ومتكاملة، وفى نفس الاتجاه من مبدأ التدعيم الذى تحدثنا عنه عند عرضنا لنظرية التعلم الشرطى الكلاسيكى كأحد مبادئها وقوانينها الرئيسية.

٢ – **قانون الأثر Law of Effect**: «اعتبر (ثورنديك) أن قوة الارتباط، أو ما يمكن أن يطلق عليه الطبع Stamping لاتنشأ نتيجة تكرار الارتباط بين المثير والاستجابة كما ذكر (واطسون)، ولكن نتيجة الأثر الطيب الناشئ عن التعزيز اللاحق لحدوث الاستجابة. وهو التفسير الذى يقوم عليه قانون الأثر، الذى يعتبر القانون الأساسى فى نظرية ثورنديك، وارتكز عليه كثيرمن نظريات التعلم التالية: ويعتبر (ثورنديك) أنه إذا تبع مثير ما استجابة معينة، وعقب هذه الاستجابة حالة ارتياح، فإن الارتباط يقوى بين هذا المثير وهذه الاستجابة، أما إذا تبع المثير استجابة وأعقبها حالة (عدم ارتياح) فإن الارتباط يضعف بينهما. ولذلك، فإن حالة الارتياح أو حالة عدم الارتياح هى التى تحدد نوع الارتباط بين المثير والاستجابة. ويشير (ثورنديك) إلى

أن تعزيز الاستجابة، والذى تتبعه حالة الشعور بالارتياح التى يسعى الكائن الحى إلى الوصول إليها، هى التى تعمل على تقوية هذه الاستجابة، وبالتالى فإنها تميل إلى الحدوث فى المستقبل. ولذلك، فإن قانون الأثر يقوم على الاستجابات المعززة التى تصبح أكثر تكراراً أو احتمالاً فى الحدوث؛ بمعنى أن تعزيز الاستجابة يزيد من احتمال حدوثها فى المحاولات التالية، وهو ما يعتبر حجر الزاوية الذى تقوم عليه نظرية (ثورنديك)، (المرجع السابق: ٥٥). ولعل قانون الأثر فى هذا النوع من التعلم يقابل مبدأ التدعيم الذى تحدثنا عنه فى نظرية التعلم الشرطى الكلاسيكى، ويعبر عن لب فكرته بصياغة أخرى تمايز بين كل منهما.

ثالثا: نظرية التعلم بالاستبصار Insight:

إذا كانت دراسات بافلوف عن التعلم الشرطى الكلاسيكى قامت مع بدايات القرن السابق (العشرين)، وقد تآونت معها دراسات ثورنديك عن التعلم بالمحاولة والخطأ؛ فإن دراسات التعلم بالاستبصار قد ظهرت مع عشرينيات القرن السابق فى كتاب كوهلر Wolfgang Kohler (١٨٨٧ – ١٩٦٧)؛ وهو عالم النفس الألمانى الذى استقال من جامعة برلين عام ١٩٣٥ احتجاجًا على تدخل النازى فى الجامعة، ثم هاجر بعد ذلك إلى الولايات المتحدة الأمريكية قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية. وقد كان عنوان هذا الكتاب الشهير هو عقلية القرود Mentality of Apes (١٩٢٥)، وفيه يقرر –بناءً على تجاربه– أن القرود تفكر ولديها قدرة استدلالية عقلية Reasoning Ability، وأن التعلم عندها يتم بناءً على الفهم والاستبصار.

وتعتبر نظرية التعلم بالاستبصار هى الرد العملى العلمى معًا الذى قامت به المدرسة الجشتلطية فى علم النفس (حيث يعتبر كوهلر من أقطاب هذه المدرسة ومن ممثلى تيارها العلمى) على النزعة الآلية الميكانيكية الترابطية التى نادت بها مدرسة بافلوف فى التعلم الشرطى ومدرسة ثورنديك فى التعلم بالمحاولة والخطأ، حيث يتجاهلان الفهم والاستبصار العقلى فى عملية التعلم، وينظران إليها على أنها عملية ترابط آلى أو تخبط أعمى خالٍ من

الفكر والفهم والوعى والشعور، ناتجة عن مجرد تكرار آلى يربط ما بين مثير واستجابة لا دخل للعقل والفكر فيه، وهى النظرية التى تبنتها المدرسة السلوكية فى علم النفس -على نحو ما بينًا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب عندما أشرنا إلى مدارس علم النفس- ولهذا، «تدعى النظرية الجشتلطية أن الارتباطات الجزئية الميكانيكية لا تعدو كونها صوراً كاريكاتورية فارغة (للتعلم الحقيقى)، وهو الذى يمتاز بمحاولة الوصول إلى صلب القضية، وهو تعلم (مناسب لطبيعة) المواد التى يراد تعلمها وبنيتها، وهو تعلم يتميز بالتوصل إلى الفهم المرضى لما كان لامعنى له قبل التعلم، أوتلك التجربة التى نصل فيها إلى الاستبصار الحقيقى» (فريتمر: ١٩٨٣، ٢٣٣).

ولقد كان من نماذج تجارب كوهلر القرد الذى يحبسه داخل قفص وهو جائع ويضع خارج القفص موزاً يراه القرد، ويمكنه أن يجذبه ويحصل عليه لأكله إن هو استعمل عصًا طويلة، ويضع مع القرد بعض العصى بأطوال مختلفة، ويمكن لإحداها أن تدخل فى الأخرى بمعالجات بسيطة مكونة عصًا أطول. وكان يراقب حركات القرد ونشاطه، فكان يجد أن القرد فى بداية التجربة يحاول أن يصل إلى الموز بيده فلا يستطيع، فيذهب إلى العصى يستخدمها واحدة بعد الأخرى ليطال بها الموز فلا يستطيع. ويظل يغير من العصى عله يستطيع أن يصل إلى الموز (محاولة وخطأ) فلا يستطيع. وعندئذن ينتحى القرد مكاناً بالقفص وتهدأ حركته بعض الشىء، ويبدأ اللعب بالعصى (بعد أن يئس من الوصول إلى الموز). وفجأة تدخل إحدى العصى فى الأخرى مكونة عصًا واحدة موصولة طويلة، فيقفز القرد إلى الموز ويجذبه بها وينجح فى هذه المرة. وفى المرات التالية نجد القرد يقوم مباشرة يربط العصاتين ببعضهما ليجذب الموز، فإذا ما انفلتت إحداهما أعاد وصلهما. كما كان من نماذج تجاربه -أيضاً- القرد الذى يحبسه جائعاً فى القفص ويعلق أعلى القفص موزاً لا يطاله القرد مهما علت قفزاته، مع وضع صناديق بأركان القفص يمكن للقرد استخدامها ليقرب المسافة أكثر حتى يطال الموز. فكان القرد يحاول عن طريق القفز أن يصل إلى الموز فلا يستطيع، فيكرر ذلك حتى ييأس (محاولات وخطأ) وينتحى ركنًا من القفص فى هدوء، ثم فجأة يقفز فيمسك بأحد

الصناديق ويسحبه حتى يصبح تحت الموز ويصعد عليها، ويكرر محاولات حصوله على الموز فيفشل ثم يهتدى أخيراً إلى الحل وهو وضع صندوق فوق آخر، فيصل إلى الموز. وفى المرات التالية من التجربة نجده يذهب مباشرة إلى الصناديق، فيسحب اثنين يضعهما فوق بعضهما ويحصل على الموز.

ويشرح كوهلر تعلم القرد هنا بأنه عندما تكون عناصر الموقف واضحة على الكائن الحى فإنه يتعلم حل مشكلته عن طريق إعادة ترتيب عناصر الموقف، بحيث يسمح هذا بإيجاد علاقات جديدة بينها تؤدى إلى الحل الصحيح. وواضح أن القرد فى النموذجين السابقين كان يعيد ترتيب عناصر الموقف فيصل عصاً بالأخرى ليكون عصًا طويلة تستطيع أن تصل إلى الموز فيجذبه بها، أو يضع صندوقاً فوق آخر ليقرب مسافة الارتفاع التى تفصله عن الموز، فيمكنه عند ذاك الصعود عليهما والوصول إليه والفوز بجائزته. وما ينطبق على القرد ينطبق -أيضًا- على الإنسان. ويقصد بالاستبصار هنا فهم الفرد لموضوع معين، أوقضية معينة، أو موقف معين، والعلاقات التى تربط بين مختلف عناصره وكيفية إعادة ترتيب العناصر للوصول إلى حل المشكلة. ومن هنا، فإن كوهلر وزملاءه يرون أن الكائن الحى ينجح فى حل مشكلته عندما يستبصر بعناصرها المختلفة، ويُحسن اكتشاف العلاقات المتبادلة بينها، فيعيد -بناءً على ذلك- ترتيبها بما يكفل له الحل الصحيح، وذلك عن طريق الفهم والاستبصار. وتكون قدرة الفرد خاصة أو الكائن الحى عموماً على الاستبصار أعلى كلما كان أكثر ذكاءً، وأحد فهماً، وأعلى يقظة. وكثيراً -ويراه الجشتلطيون غالبًا وليس كثيراً فقط- ما يحدث الاستبصار للفرد بشكل مفاجئ، أو بعد محاولات فاشلة للحل؛ وكأنه إلهام.

ويورد لنا برونو Frank Bruno هذا النموذج ليضرب به المثل على ظاهرة الاستبصار:

«اجمع ما يلى بكل ما تستطيع من سرعة واذكر المجموع: ٢+٨+١+٩+٤+٦+٣+٧+٧+٣. فإن معظمنا عندما يرى هذه المسألة، سوف يضيف كل رقم إلى غيره واحداً تلو الآخر ويصل -ببطء إلى حد ما- إلى المجموع الصحيح، وهو

خمسون. لكن سوف نجد قلة من الناس تهتف فجأة (خمسين!)؛ فالناس فى هذه المجموعة الثانية يمثلون الاستبصار ويثبتونه. فلقد أدركوا أن كل زوج من هذه الأرقام من بداية هذه السلسلة يساوى عشرة، وأن هناك خمسة أزواج منها، فيكون من الواضح أن المجموع خمسون، دون الحاجة للحل التقليدى» (Bruno: 1986, 113).

وفى تعليقهما على النموذج الجشتلطى للمعرفة يقول فؤاد أبو حطب وآمال صادق: «وقد أوضحت تجارب كوهلر الظروف التى تجعل الكائنات العضوية قادرة على الاستبصار، فمقدار الاستبصار يعتمد على عمر المفحوص وذكائه وألفته بالموقف. وقد أعاد ألبرت سنة ١٩٢٨ معظم تجارب كوهلر على الأطفال من سن عامين إلى ٤ سنوات، كما أجرى روجر تجاربه على الألغاز الميكانيكية. وفى هذه التجارب لوحظ أن الشخص العادى يتوقف بعض الوقت يتفحص اللغز للبحث عن أية علاقات لها دلالتها بين الأجزاء، وأثناء عملية الفحص هذه يقوم بتقليب اللغز فى أوضاع مختلفة. وقد يحدث نتيجة لذلك أن تصبح أجزاء اللغز فى وضع أكثر ملاءمة للاستبصار، فإذا فشل المفحوص فى الوصول إلى أى فكرة عن تنظيم اللغز فإنه يعود إلى شده وجذبه بطريقة عشوائية. وقد يصير فى النهاية منفعلاً وتصبح محاولاته نوعًا من المحاولات العشوائية العمياء. وأهم ما نستفيده من هذه النتائج أن الاستبصار يعتمد على قدرتنا على الإدراك الحسى والتنظيم المعرفى. فحينما تكون المشكلة أبعد من قدرتنا على التنظيم أو حينما نعتقد ذلك، فإننا نندفع إلى أنماط بدائية من السلوك من نوع المحاولة والخطأ، ويعتمد طول الفترة التى نقضيها فى المحاولة والخطأ على أهمية المشكلة وعلى صعوبتها الظاهرة. ومن المعروف أنه فى أوقات الاضطراب وعدم التحديد والقلق الشديد قد يلجأ حتى أذكى الناس إلى العرّافين والمنجمين وقارئى الكف والفنجان بحثًا عن حلول المشكلات» (فؤاد أبو حطب وآمال صادق: ١٩٨٠، ٢٣٣).

ولعل فى محاولاتنا حل تمارين الحساب والهندسة والرياضيات ما يوضح بجلاء اعتمادنا على الاستبصار الذى قد تسبقه مظاهر كثيرة من المحاولة والخطأ، ويمكن أن

تؤدى جهودنا هذه إلى استبصار تدريجى ينتهى بحل التمرين، كما يمكن أن يظهر الاستبصار فجأة، على نحو ما يرجح الجشتلطيون، فإذا بحل التمرين أو المشكلة وكأنه هبط علينا بشكل أقرب إلى الإلهام، وأشبه به.

(ب) نظريات التعلم الحديثة

نظريات التعلم الحديثة كثيرة ومتنوعة، ولا تعدو فى أساسها أن تكون تطويراً أو امتداداً أو تعديلاً أو إضافة إلى إحدى النظريات التقليدية السابقة، أو توفيقًا بين نظريتين منها. ولعل من أهم نظريات التعلم الحديثة:

أولاً : نظرية الإشراط الإجرائى Operant Conditioning:

يعتبر العالم الأمريكى بوروس فردريك سكينر Burhus Frederic Skinner (١٩٠٤- ١٩٩٠) أحد أقطاب المدرسة السلوكية فى علم النفس، وهو الذى صك مصطلح الإشراط الإجرائى للدلالة على نظريته فى التعلم، كما أنه هو الذى اخترع جهاز التعلم بالإشراط الإجرائى، والمعروف بصندوق سكينر Skinner Box، نسبة إليه.

ولا تعتبر نظرية الإشراط الإجرائى حديثة بالمعنى التام للكلمة؛ إذ من المرجح أن بداياتها ترجع إلى عام ١٩٣٨، حيث نشر سكينر كتابه سلوك الكائنات الحية The Behavior of Organisms وقدم فيه أساسيات نظريته التى بلورها وطورها فيما بعد. وإنما عددناها هنا من ضمن النظريات الحديثة لاشتمالها على أفكار أحدث من تلك الأفكار التقليدية فى نوعى التعلم الشرطى الكلاسيكى والتعلم بالمحاولة والخطأ، إلى جانب أنها تالية عليهما من حيث الزمن، ولم يزل يطورها سكينر ويثريها حتى الآونة الأخيرة من حياته. ومن الطريف أن سكينر بدأ حياته المهنية كأديب وشاعر، إلا أنه سرعان ما اكتشف أن موهبته الأساسية ليست فى المجال الأدبى والفنى فتحول إلى العلم. ونتيجة لاهتماماته الأدبية فقد كتب روايته التى نشرتها ماكملان عام ١٩٤٨، والتى يصف فيها مجتمعًا يوتوبيًا Utopian Community مبنيًا على أساس من نظريته فى الإشراط الإجرائى

(Rachlin: 1980, 66). وقد كتب شارلز كاتانا C. Catania في تعليقه على هذه الرواية: «ولم تحظ روايته المثلى (أويوتوبيته) المعروفة باسم والدن الثانى (Walden Two) إلا بالقدر اليسير من الملاحظة إذا قارناها بالاهتمام المتزايد بأبحاثه التجريبية. وبعض النقاد الذين انتقدوا فيما بعد خصائص المجتمع المخطط الذى تحدث عنه فى تلك الرواية غاب عنهم ملاحظة الطبيعة التجريبية لذلك المجتمع، وهو ما يمثل أهم مظاهره، فقد أوضح سكينر أن الممارسات التى تفشل فى أداء وظيفتها فى ذلك المجتمع لابد من تعديلها وتطويرها حتى يتم التوصل إلى بديل أفضل» (كاتانا: ١٩٨٣، ١٦٤).

وتقوم نظرية التعلم الإجرائى على التمييز بين نوعين من السلوك؛ أحدهما هو السلوك الاستجابى Respondent Behavior، ويحدث بفعل مثيرات ويكون السلوك هنا هو الاستجابة لهذه المثيرات؛ مثل إغماض العين كسلوك يقوم به الإنسان استجابة لهبة الأتربة. أما النوع الثانى فهو ما يعرف بالسلوك الإجرائى Operant Behavior العملى الفعال، وهو قريب فى معناه من السلوك الأدائى، أو الذى نقوم به بإرادتنا لتحقيق غرض معين. فالسلوك هنا غير مرتبط بمنبه معين كما فى النوع الأول، وكما فى نظرية التعلم الشرطى الكلاسيكية، حيث يستجيب الحيوان للجرس بسيل اللعاب، أو كما يحدث فى تجارب التعلم بالمحاولة والخطأ فيستجيب القط للقفص بضرب مكان معين... فنحن -على سبيل المثال- عندما نريد أن نكلم أحداً فى التليفون لا نقوم بذلك كاستجابة لرؤيتنا جهاز التليفون موضوعاً فى مكان ما بحيث إننا كلما وجدنا تليفوناً اندفعنا للحديث من خلاله. فالواقع، أننا لا نطلب أحداً فى التليفون إلا إذا كنا نريد أن نوصل إليه -عن طريق الحديث- رسالة معينة لتحقيق غرض معين، ويعتبر هذا سلوكًا إجرائياً. «ولو تأملنا فى بكاء الطفل لوجدنا أن الألم أو عدم الارتياح يكون كافيًا لإحداثه، وفى أحيان أخرى يحدث البكاء لأن الطفل قد تعلم أن البكاء من شأنه أن يجلب انتباه والدته. وإذا أردنا التعامل مع بكاء الطفل بصورة مناسبة لابد لنا من التعرف أولاً على مصدره، وهل نشأ عن مثير مؤلم، أم أنه يعتمد على النتائج السابقة لمحاولة الطفل جذب الاهتمام إليه. وبلغة أكثر وضوحاً، فإننا قد نسأل: هل يبكى الطفل لأنه أصيب بمكروه، أو لأنه يريد أن يكون موضع الاهتمام» (المرجع السابق، ١٤٨).

من هنا، يتبين أن السلوك الإجرائى هو السلوك الذى يؤثر فى البيئة، بل إنه يجرى تعديلات فيها لكى تصبح أكثر ملاءمة ونفعاً للفرد. ولهذا، فإن سكينر اهتم بدراسة هذا النوع من السلوك ونبه إليه وركز عليه؛ نظراً لأهميته ووظيفته الأساسية للكائن الحى عموماً والإنسان خصوصاً. ومن هنا، اشتق مسمى نظريته، وردّ بها على السلوكيين التقليديين وأصحاب نظرية التعلم الشرطى الكلاسيكى ونظرية التعلم بالمحاولة والخطأ، وركز على أهمية وعى الكائن عموماً والإنسان خصوصاً بوظيفة الإجراء (أو السلوك) الذى يقوم به، وما يستهدفه من ورائه من أغراض. كما أثبت أهمية الإرادة والقصد وراء السلوك، وبالتالى رد على ميكانيكية الارتباطيين والسلوكيين وعدّل تعديلاً جوهرياً فى النظرية السلوكية، حتى عُدّ من السلوكيين الجدد ذوى الأثر الكبير فى تطوير السلوكية التقليدية الجامدة. فالسلوكيون القدامى كانوا يرون أن كل استجابة لابد لها من مثير يستثيرها، الأمر الذى رفضه سكينر، وقال بوجود أوجه كثيرة من السلوك لا تكون استجابة لمنبه أو مثير معين بل تكون لها مسببات وأغراض، كالمشى الذى يمارسه الإنسان بهدف الوصول إلى مكان معين ليحقق غرضاً معيناً، حيث لا يوجد هنا منبه (أو مثير) بالمفهوم السلوكى التقليدى يستجيب له الفرد بالمشى. وبهذا، فهو ينكر فى ثورنديك محاولته تفسير السلوك على أنه ارتباطات وصلية بين المثير (أو المنبه) وبين الاستجابة، تتكون فى الجهاز العصبى للكائن الحى.

وقد كانت تجارب التعلم بالإشراط الإجرائى تتم داخل جهاز خاص يسمى صندوق سكينر، وهو على أنواع وأشكال وأبعاد مختلفة وفق خصوصية الكائن الحى موضع التجربة، وأهداف التجربة. فعلى سبيل المثال استخدم سكينر ضغط الفئران على رافعة، ونقر الحمام على (مفتاح) دائرة معينة فى الجهاز تشبه مفتاح التليغراف، وجذب الأفراد ذراعاً معينة فى الجهاز... كما استخدم سكينر أنواع المعززات (أنواع الإثابة) التى تناسب الكائنات موضع الدراسة. فمثلاً، حبات الطعام للفئران، والحبوب للحمام، والحلوى للأفراد... ويعتبر سكينر أن المبدأ الأساسى فى عمل هذا الجهاز هو أن استجابات المعالجة التى يقوم بها

الكائن الحى هى التى تؤدى به إلى الحصول على التعزيز (أنور محمد الشرقاوى: ١٩٩٨، ٦٥).

ونعرض التجربة التالية كنموذج لتجارب سكينر من مجموعة تجاربه على الحمام فقد اختار سكينر سلوك رفع الرأس إلى ارتفاع معين موضوعًا للتعلم فى هذه التجارب. فمن المشاهد أثناء تناول الحمام للطعام، أنه يرفع رأسه بين الحين والحين، ولكن ليس بصفة مستمرة، مما جعل سكينر يختار هذا النمط من السلوك موضوعًا للتعلم. وتبدأ التجربة بوضع الحمامة فى الصندوق وهى فى حالة جوع شديد. وفى أثناء تجول الحمامة فى الصندوق بحثًا عن الطعام قد ترفع رأسها إلى مستوى العلامة الذى حدده سكينر. فى هذه الحالة، يعزز هذا السلوك بنزول حبة طعام فى الطبق الموجود فى أرضية الصندوق، فتقوم الحمامة بتناولها. ويتكرر هذا الإجراء عدة مرات إلى أن تظل رأس الحمامة مرفوعة فترة طويلة؛ لأن سلوك رفع الرأس إلى مستوى معين، وهو المطلوب تعلمه يؤدى إلى الحصول على التعزيز. ولذلك يحدث التتابع التالى فى متغيرات التجربة:

س ش	م ش	م ط	س ط
(سلوك رفع الرأس)	(العلامة)	(رؤية طبق الطعام)	(تناول الطعام)

أى أنه بمجرد أن ترفع الحمامة رأسها (س ش) إلى العلامة (م ش) تنزل الحبة (التعزيز) فى طبق الطعام (م ط) فتقوم الحمامة بتناولها (س ط). ولذلك، يشير سكينر إلى أن السلوك المشروط فى هذه الحالة ليس رؤية العلامة، وإنما رفع الرأس (السلوك الذى يؤدى إلى الحصول على التعزيز أو شرط التعزيز)؛ أى أن الطعام الذى يعتبر مثيراً طبيعيًا لا يظهر إلا بعد إجراء (عمل) الاستجابة الشرطية، وهى سلوك رفع الرأس (س ش)؛ بمعنى أن التعزيز (الإثابة) ينصب على الإجراءات التى يقوم بها الكائن الحى (سلوك رفع الرأس فى هذه التجارب) وليس على المثيرات. وهذا ما يميز الاشتراط الإجرائى عند سكينر عن الإشتراط البسيط عند بافلوف (المرجع السابق، ٦٦).

وتنطبق مبادئ التعلم الشرطى البسيط -بشكل أو بآخر- على مبادئ هذا التعلم الإشراطى الإجرائى وإن اختلفت المسميات أحياناً، لكن يظل الجوهر واحداً؛ كمبادئ التدعيم أو التعزيز، والانطفاء، والتعميم، والتمييز، والاستتباع.

ويركز سكينر، فى تطبيقات نظريته على العلاج وعلى التربية وبوجه خاص، على مبدأ التدعيم أو التعزيز (والذى يقسمه إلى تعزيز إيجابى) يتمثل فى الإثابة على السلوك المرغوب، وتعزيز سلبى يتمثل فى العقاب على إتيان السلوك المدان حتى ينطفئ هذا السلوك، أو نعمل على إزالة التعزيزات والإثابات التى يحصل عليها الفرد من إتيانه هذا السلوك غير المرغوب، فينطفئ السلوك غير المرغوب شيئًا فشيئًا، خاصة إذا استبدلنا به سلوكاً مرغوباً نثيب الفرد كلما قام به.

«وفى الدراسة التى أجراها كيلى Kelly (١٩٧٠) لمعرفة تأثير المكافأة والعقاب الاجتماعى على أداء الأطفال فى عمل حركى، استخدم نموذجين من التعزيز الاجتماعى هما: تعزيز موجب منتظم (مدح) وتعزيز سالب منتظم (نقد)، وتضمنت الإجراءات التجريبية مجموعة ثالثة من الأطفال لم تتلق أى نوع من التعزيز أثناء الأداء. وقد أوضحت النتائج أن تأثير العقاب الاجتماعى (النقد) يساعد على تجنب أداء الاستجابات غير الصحيحة بشكل أسرع من تأثير المكافأة التى تؤدى إلى أداء الاستجابات الصحيحة. وقد فسر كيلى هذه النتائج فى ضوء أن تجنب النقد يعتبر دافعًا اجتماعياً قوياً، وأن تأثيره أكثر فاعلية من دافع تحقيق موافقة الآخرين» (المرجع السابق، ٧٨).

ثانيًا: النظرية البنائية لبياجيه Piaget Structuralism:

ينظر الكثيرون إلى العالم السويسرى جان بياجيه Jean Piaget (١٨٩٦-١٩٨٠) المتخصص فى البيولوچيا على أنه أعظم عالم فى مجال سيكولوجية النمو Developmental Psychology وسيكولوچية الطفولة Child Psychology. وظل نشطاً ينشر الجديد القيم من بحوثه وأفكاره حتى السبعينيات من القرن العشرين. ولازالت نظريته -حتى

الآن– تؤثر بقوة فى التربية والتعليم فى أنحاء العالم المختلفة. ولبياجيه تعريف للتعلم ورأى عنه يختلف فيه عن غيره من أصحاب النظريات الأخرى (مثل سكينر الذى يرى أن التعلم تغير فى السلوك ناتج عن تدريب بواسطة التعزيز). فبياجيه يرى أن التعلم الحقيقى هو الذى ينشأ عن التأمل والتروى، وينبع من أفكار المتعلم ذاته، ويتعزز بها (فورمان: ١٩٨٣، ٣٢٥).

ولقد بدأت دراسات بياجيه ونظريته وانتهت بدراساته عن الإنسان، خاصة فى مراحل طفولته المختلفة على عكس غيره، والذين رأيناهم يبدأون من دراسة الحيوان يستقون منها أصول نظرياتهم ومبادئها، ثم يقومون بتطبيقها على الإنسان بعد ذلك. ومن هنا، كان بياجيه «أكثر اهتماماً بالشكل الذى تكون عليه الإجابة (الاستجابات) المعقدة أكثر من اهتمامه بعدد مرات ترددها، ويهتم بمعرفة كيف يتعلم جميع الأطفال تصحيح بعض الأخطاء على هدى من تفكيرهم هم. وعندما يكون البحث متعلقاً بأشكال التفكير الشاملة فمن غير المناسب –إلى حد كبير– اللجوء إلى مجالات التحكم فى المثيرات وأشكال التعزيز. وعند بياجيه، فإن عملية إجابة الطفل عن سؤال ما إنما تفسر بملاحظة بنية هذه العملية وتطورها عبر فترة زمنية تمتد عدة سنوات، فمجرد وصف عملية التغير تشكل، فى حد ذاتها، تفسيراً لهذه العملية» (المرجع السابق، ٣٢٧).

وفيما يتعلق بمصادر المعرفة Sources of Knowledge، فإن بياجيه يرى أن «ما يعرفه إنسان ما إنما ينجم جزئياً عما يتعلمه هذا الإنسان من بيئته الاجتماعية والمادية؛ أى من عالم الناس والأشياء. كما يعترف بأن وجود الكائن بصورة سليمة لم تمس شرط أولى لحصول التعلم. ويضيف إلى عوامل التعلم الاجتماعية والمادية والنضوجية عاملاً آخر هو عملية الموازنة (Equilibration) التى تقود التعلم. والموازنة تعنى كيف يستطيع الإنسان تنظيم المعلومات المتناثرة فى نظام معرفى غير متناقض. وهى لا تنجم مما يراه الإنسان، بل إنها تساعد الإنسان على فهم ما يراه. وعن طريق هذه القدرة الموروثة، التى نطلق عليها اسم الموازنة، يستطيع الإنسان تدريجياً الاستدلال Inference على الكيفية التى ينبغى

أن تكون عليها الأشياء فى هذا العالم، (المرجع السابق، ٣٢٧-٣٢٨).

أما فيما يختص بعملية الموازنة The Process of Equilibration فقد «تمكن بياجيه (١٩٧٢) من التعرف على عدة خطوات فى عملية الموازنة، تهدف إلى القضاء على مختلف أشكال التناقضات، وعملية الموازنة تبدأ ببعض الاضطرابات؛ إذ يشعر الإنسان بأن هناك شيئًا ما ليس على ما يرام. ولنأخذ مثالاً على ذلك الطفلة التى تتنبأ بأن الماء الذى يصب فى كأس قصير عريض سيصل إلى نفس المستوى إذا ما صب فى كأس آخر طويل ضيق. وعندما تلاحظ هذه الطفلة أن مستوى الماء فى الكأس الثانية أعلى منه فى الكأس الأولى فإنها تصاب بالانزعاج. وهذا ما نسميه بالاضطراب Disturbance أو الصراع بين ما هو متوقع وما نشاهده أمام ناظرينا. فالاضطراب يطلق بعض التنظيمات Regulations من أجل العمل على تخفيف حدة الاضطراب. وفى المثال السابق، فقد تعيد الفتاة صب الماء فى الكأس القصيرة المتسعة، (المرجع السابق، ٣٢٨).

وفيما يتعلق بالمعرفة، فإن بياجيه قد ميز «بين نوعين من المعرفة: المعرفة الشكلية Figurative Knowledge، وهى تشير إلى معرفة المثيرات بمعناها الحرفى. فالطفل الرضيع يرى مثيراً ما، متمثلاً فى حلمة زجاجة الإرضاع فيبدأ فى مص الزجاجة. والولد يرى سيارة أبيه قادمة من بعيد فيسرع لفتح باب المنزل. ومعرفة الأشكال تعتمد على التعرف على الشكل العام للمثيرات، ومن هنا جاءت تسميتها بالمعرفة الشكلية، وهذه المعرفة لا تنبع من المحاكمة العقلية (أى الأحكام العقلية النابعة من التفكير العقلى). أما المعرفة التى تنبع من المحاكمة العقلية فإن بياجيه يطلق عليها معرفة الإجراء (الفعل) Operative Knowledge، وهى المعرفة التى تنطوى على التوصل إلى الاستدلال فى أى مستوى من المستويات. وعلى سبيل المثال، لنفرض أننى وضعت كرة الجولف وسط مجموعة من كرات التنس، وبعد ذلك، وفى أثناء قيام طفل بمراقبتى، قمت بنقل تلك الكرة الجولف ووضعتها وسط مجموعة من البلى التى يلعب بها الطفل، وفى هذه الحالة، فإن كرة الجولف ستبدو كبيرة الحجم مقارنة بالبلى. وعندما يستطيع الطفل الذى يقوم بمراقبتى أن يحاج قائلاً طالما أن الكرة هى الكرة وطالما أن الأجسام لاتغير حجمها بسبب تغير

مكان تواجدها فإن كرة الجولف هذه ليست الآن أكبر حجماً مما كانت عليه من قبل، (المرجع السابق، ٣٢٩-٣٣٠).

النمو العقلي والمعرفي في نظرية بياجيه :

يرى بياجيه أن هناك أربع مراحل رئيسية يمر بها الطفل فى تطوره المعرفى، حيث تزداد قدرته -مع النمو- على استخدام المعرفة الإجرائية مع تخلف وضعف المعرفة الشكلية التى كانت تسود فى بداية حياته. ففى السنتين الأولى والثانية من عمر الطفل، أو الفترة الحسية الحركية Sensorimotor Period يتعلم الأطفال فكرة استمرارية الأشياء وكذلك فكرة انتظام الأشياء فى العالم الفيزيقى... وعلى سبيل المثال، فالشيء الذى يخبأ تحت الوسادة يمكن الحصول عليه ثانية... والصوت المنبعث من الخلف ربما كان صادراً عن شيء يمكن رؤيته إذا ما التفتنا إلى الخلف. ومن خلال التنظيم الحسى الحركى يعرف الأطفال أن بعض التغيرات تؤدى إلى بعض الاختلافات، بينما التغيرات الأخرى لاتؤدى إلى ذلك. فإدارة لعبة ما لا تجعل من هذه اللعبة لعبة جديدة حتى ولو بدت مختلفة عن ذى قبل.

،وفى الفترة التالية، أو الفترة ما قبل الإجرائية Pre-Operational Period من سن الثالثة حتى السابعة، يبدأ الأطفال فى معرفة الأشياء فى صورتها الرمزية، وليس مجرد المعرفة القائمة على الأفعال الواقعية، ويصبحون على وعى أكثر بتلك الأشياء التى عرفوها فى المرحلة الحسية الحركية السابقة. وعلى سبيل المثال، يمكن لهم أن يفسروا السبب فى أن اللعبة التى تدار حول نفسها ليست لعبة جديدة (بالقول: ألم تقم قبل قليل بتحريك اللعبة كى تدور حول نفسها؟) ... وفى هذه المرحلة، فترة ما قبل الإجراء، يكتسب الأطفال طلاقة أكثر فى التعبير الرمزى والإيماءات الجسمية والأصوات الإنسانية والكلمات، مما يساعدهم على تجاوز المعرفة القائمة على الوجود الراهن المباشر. ومع ذلك، وحتى مع ازدياد الطلاقة الرمزية فالطفل فى مرحلة ما قبل الإجراء لا يستطيع القيام بالاستدلال الاستنتاجى أو التوصل إلى النتائج التى تكون صحيحة وفق المقتضيات، ومن هنا جاءت تسمية هذه المرحلة بالمرحلة ما قبل الإجرائية.

•أما فى الفترة الإجرائية المحسوسة (العينية) Concrete Operational Period التى توجد ما بين السابعة والثانية عشرة من العمر، فالأطفال يطورون قدراتهم على التفكير الاستدلالى. وهذا الاستدلال محدود ضمن نطاق ما يشاهده الطفل، ومن هنا جاءت تسمية هذه المرحلة الإجرائية بالمرحلة الإجرائية المحسوسة. ولم تكن هذه التسمية موفقة كثيراً، أو كثيراً ما كان الطلاب يسيئون فهم ما يعنيه بياجيه ويعتقدون أنها تعنى التفكير المحسوس وليس التفكير المجرد. حقيقة... إن التفكير فى هذه المرحلة تفكير استدلالى (وهو نوع من التفكير المجرد)؛ فالأطفال فى سن المرحلة الإجرائية المحسوسة باستطاعتهم، على سبيل المثال، أن يستنتجوا –كضرورة منطقية– أن العصا(أ) أغلظ من العصا(جـ) حتى لو لم يروا سوى أن العصا(أ) أغلظ من العصا(ب) وأن العصا(ب) أغلظ من العصا(جـ) وطالما أنهم يروا العصا(أ) والعصا(جـ) مجتمعتين فلا يمكننا –والحالة هذه– أن نقول بأن تفكيرهم يعتمد على الحضور المحسوس لهذه الأشياء. ومع ذلك، فإن محتوى الاستدلال فى هذه السن يقوم على الأشياء الفعلية وليست المجردة.

•والفترة الرابعة التى يطلق عليها اسم الفترة الإجرائية الصورية Formal Operational Period تبدأ فى سن الثالثة عشرة تقريباً. ويستطيع الأطفال فى هذه المرحلة أن يتوصلوا إلى الاستدلالات عن طريق الاستدلالات الأخرى، ومشكلة النسبة مثال جيد على ذلك، (فورمان: ١٩٨٣، ٣٣٠–٣٣٢). ففى هذه المرحلة، لو طلبنا من تلميذ أن يعطينا رقماً تكون نسبته إلى ٨ كنسبة ٥ إلى ١٠، لبادر بأنه الرقم ٤، وهو هنا يقوم بعمليتين حسابيتين هما قسمة ٥ على ١٠، ثم ضرب الناتج فى ٨. والتلميذ هنا قد تسامى بفكره فوق استخدام الأشياء وحدها كمحتوى لتفكيره، بل نجده استخدم رموزاً وعمليات أو إجراءات (الضرب والقسمة) كمحتوى لتفكيره.

وكما هو متوقع، فإن نظرية بياجيه قد ظلت تتبلور وتتطور إبان حياته وعلى مدارها وفق ما كان يصل إليه من نتائج دراساته التجريبية وملاحظاته الثاقبة لحالات الأطفال وأحاديثه معهم فرادى فى غالبية الأحوال. ولقد بدأت اهتماماته الأولى بسيكولوچية الأطفال وإرهاصاته الأولى بنظرية حديثة ومنهج جديد فى أول كتابين له، واللذان يعتبران

من أهم كتبه، وهما كتاب: اللغة والفكر عند الطفل The Language and Thought of the Child (وقد صدرت طبعته الفرنسية -والتى كان يكتب بها بياجيه، عام ١٩٢٣، وطبعته الإنجليزية عام ١٩٥٢، ثم نشرت فى عام ١٩٥٤ ترجمته إلى العربية، والتى قام بها أحمد عزت راجح، بمراجعة أمين مرسى قنديل، بياجيه:١٩٥٤)، وكتاب: الحكم والتفكير الاستدلالى عند الطفل Judgment and Reasoning in the Child (وقد صدرت طبعته الفرنسية عام ١٩٢٣، ثم ترجم عام ١٩٢٨ إلى الإنجليزية). كما أن هناك كتابين هامين من كتبه ضمنهما ملاحظاته عن أطفاله الثلاثة، هما: كتاب أصل الذكاء عند الطفل The Origin of Intelligence in Children (وقد ظهرت طبعته الفرنسية عام ١٩٣٧، ثم ترجم إلى الإنجليزية بعد ذلك). كما أنه نشر فى الأربعينيات والخمسينيات كتبًا وبحوثًا مهمة عن كيفية نمو وتكوين مفاهيم الطفل عن الأعداد والمكان والزمان والمقدار. كما يعتبر كتاب بياجيه بعنوان علم الأحياء والمعرفة Biology and Knowledge وقد نشره بالفرنسية عام ١٩٦٧، ثم ترجم إلى الإنجليزية بعد ذلك، من أهم كتبه؛ إضافة إلى كتاب آخر أصدره قبل وفاته بسنوات قليلة هو كتاب تطور التفكير أو الموازنة فى البنى المعرفية Development of The Thought: Equilibration of Cognitive Structures وهو يعالج قضية التعلم أكثر من أى كتاب من كتب بياجيه (المرجع السابق، ٣٣٦). وقد نشر بياجيه كتابه هذا بالفرنسية عام ١٩٧٥، ثم ترجم بعد ذلك إلى الإنجليزية، ويشير هذا إلى حضور بياجيه وتأثيره فى الميدان السيكولوجى بفكره الجديد المتقد حتى أخريات حياته.

ومن الجدير بالذكر أنه قد نشطت -فى النصف الثانى خاصة من القرن العشرين وإلى الآن -دراسات كثيرة تجريبية وميدانية فى بلاد العالم المختلفة لاختبار نظرية بياجيه، أدى معظمها إلى صدق النظرية -إلى حد كبير- خاصة فى تعاقب مراحل النمو العقلى والمعرفى وكيفياته. فعلى سبيل المثال فقط، تذكر روث بيرد Ruth Beard أن التجارب المشابهة لتجارب بياجيه، والتى أجريت فى إنجلترا، قد أبانت -بصفة عامة- عن وجود المراحل الرئيسية للنمو العقلى والمعرفى التى قال بها بياجيه، وأن العمليات الإجرائية الصورية Formal Operations، لا تظهر -بصفة عامة- حتى سن

المراهقة، وأن ظهورها يعتمد على العمر العقلى أكثر من اعتماده على العمر الزمنى (Beard: 1972, 31-32)، كما وجدت ليلى كرم الدين فى دراستها الميدانية التجريبية لدرجة الماجستير، بإشراف سيد غنيم، على أطفال مصريين صدق نظام تتابع المراحل التى وردت فى نظرية النمو عند بياجيه، وإن كانت هناك اختلافات طفيفة فى التفاصيل داخل المراحل، وفى الأعمار التى يصل عندها الطفل إلى مراحل النمو المختلفة (ليلى كرم الدين: ١٩٧٦). وبالمثل -أيضًا- أيدت سنية جمال عبد الحميد، فى دراستها الميدانية التجريبية للدكتوراه، بإشراف فرج عبد القادر طه على عينات مصرية صدق نظرية بياجيه؛ وفى هذا تقول عن دراستها: «وقد أضيفت بذلك الدراسة الحالية إلى آلاف الدراسات التى تمثل التراث العلمى والدراسات التى أُجريت وأيدت افتراضات بياجيه... وأثبتت صدق نظريته..» (سنية جمال عبد الحميد: ١٩٨٨، ٢٩٦).

تطبيقات نظرية بياجيه في المجال التربوي والتعليمي:

لما كانت نظرية بياجيه فى سيكولوچية النمو تشتق أصولها وأسسها من دراسات ميدانية وتجريبية، ومن ملاحظات ثاقبة محللة على أطفال بشريين، ولماكانت -أيضًا- فى لبها تتعلق بالنمو العقلى وبالقدرات المعرفية والإمكانيات التعليمية للإنسان، فإننا نجد تطبيقاتها الرئيسية إنما تكون فى المجال التربوى والتعليمى.

ويضيق بنا المجال عن تفصيل ذلك، لكننا نقتطف هذا الجزء اليسير مما كتبه جورج فورمان Forman فى هذا الموضوع: وقد ساعد بياجيه المعلمين على معرفة ما الذى ينبغى عليهم تعليمه... وقد ساعد بياجيه المعلمين على إدراك أن الأخطاء التى يرتكبها التلاميذ ليست دائمًا ناجمة عن عدم الاهتمام الكافى، أو الفشل فى أداء الواجبات المنزلية. ففى بعض الأحيان، يعجز الأطفال عن فهم دروسهم؛ لأن المفاهيم التى تتضمنها تلك الدروس تتطلب معرفة تفوق مرحلة نمو الأطفال وتطورهم الحالية. ونظرية بياجيه القائمة على المرحلية تظهر بشكل جلى فى كتب دليل المعلم للمناهج التى تقوم على المستويات المنهجية. وعلى سبيل المثال، فإن منهج العلوم المسمى ١٣/٥ يقسم جميع وحدات

دراسة العلوم إلى ثلاثة مستويات تتفق مع مراحل بياجيه الثلاث: المرحلة قبل الإجرائية والمرحلة الإجرائية المحسوسة والمرحلة الإجرائية الصورية (الشكلية). (فورمان: ١٩٨٣، ٣٩٤-٣٩٥).

ثالثا: نظرية التعلم الاجتماعي Social Learning Theory:

تعزى هذه النظرية -فى المقام الأول- إلى العالم الأمريكى الجنسية الكندى المولد ألبرت باندورا Alpert Bandura (١٩٢٥)، والذى انتخب رئيسًا لجمعية علم النفس الأمريكية عام ١٩٧٣. ففى عام ١٩٦٣، قدم مع والترز Richard Walters كتاب التعلم الاجتماعى ونمو الشخصية Social Learning and Personality Development. وفى عام ١٩٦٩ قدم نظريته المتكاملة فى التعلم الاجتماعى فى واحد من أعظم كتبه، هو أسس تعديل السلوك Principles of Behavior Modification، وفى عام ١٩٧١، قدم كتابًا لخص فيه نظريته تلخيصاً ممتازاً، ثم راجعه ووسعه فى عام ١٩٧٥، ذلك هو كتابه نظرية التعلم الاجتماعى Social Learning Theory. (Sahakian: 1977. 523-524).

وتقوم نظرية التعلم الاجتماعى على فكرة محورية خلاصتها أن معظم نشاطنا الإنسانى وسلوكنا متعلم من خلال ملاحظاتنا لغيرنا من الناس وتقليدهم والاقتداء بسلوكهم، وأيضاً من خلال علاقاتنا المتبادلة معهم والتفاعل القائم بيننا وبينهم (Bruno: 1986, 213) ويضرب فرانك برونو مثلاً شديد الوضوح لتأييد هذه النظرية بطفل فى سن أربع سنوات يعيش مع والديه وأخت كبرى، وجميعهم يتصرف تصرفًا طيبًا عند تناول الطعام. فأولاً: نجد أن الطفل يلاحظ أفراد أسرته وهم يتناولون الأطباق بطريقة معينة، ويمضغون الطعام وفم كل منهم مقفول، وهكذا. وثانيًا: نجد أن هذا الطفل يرمقه أبواه بنظرات الاستهجان عندما يتجاهل الطرق المحبذة فى تناول الطعام والتعامل مع الأدوات المستخدمة لذلك؛ وهى طرق يضع المجتمع معاييرها وتتبناها الأسرة عادة. وثالثاً: فإن هذا الطفل يُعطى نظرات الاستحسان مع امتداح لفظى غالباً من الكبار عندما يتصرف تصرفاً طيباً وهو يتناول طعامه على المائدة معهم. كل هذه عمليات تعلم وتعليم اجتماعية، يتمكن

من خلالها هذا الطفل أن يتعلم التصرف الطيب أثناء مائدة الطعام وتناوله، كما يقوم بهما، الوالدان والأخت (المرجع السابق، ٢١٤) . فكأن الطفل يتعلم هنا ويتدرب على القيام بسلوك معين ويعدل من سلوكه بناءً على التعليم الذى يقوم به المجتمع له، وممثله هنا هو الأسرة فى المثال السابق، كما يستخدم المحاكاة والاقتداء -من تلقاء نفسه- للكبار فى مجتمعه، ويعدل فى تصرفاته، حتى يصبح سلوكه مقبولاً وطيباً كسلوكهم، وبذلك يكتسب تقديرهم، ويتحاشى غضبهم.

ويضيف برونو أن نظرية التعلم الاجتماعى يؤيدها الحس العام Common Sense والإدراك السليم. كما أنها كانت رد فعل للنظرية السلوكية التى تقوم على التبسيط الشديد (منبه ـــــ استجابة) مع تجاهل أهمية الوعى؛ حيث تركز نظرية التعلم الاجتماعى على العمليات الواعية فى الإنسان؛ إذ ترى أن التعليم إنما يتم أساسًا عن طريق الملاحظة والإدراك والأفكار الناتجة عنهما (المرجع السابق بنفس الصفحة) . ولذلك، فهى نظرية التعلم بالملاحظة Observational Learning، والتعلم بالملاحظة يتم - إلى حد كبير- عن طريق ملاحظة تصرفات نموذج أو مثال يعتبر قدوة Model، ويقوم الفرد المتعلم بتقليده فى سلوكه، والاقتداء به فى تصرفاته.

ولقد قدم باندورا طريقة فى العلاج النفسى تقوم على نظريته فى التعلم الاجتماعى سماها العلاج بالاقتداء Modeling Therapy أو بالتقليد، حيث يلاحظ فيه الفرد سلوكاً بديلاً (طيباً وينوب عن السلوك المرضى أو السيئ الذى نرغب فى علاجه) يقوم به أناس آخرون مع امتداحه، وعندئذ يمكن للفرد أن يتعلم ويغير من سلوكه ويعدل فى شخصيته عن طريق مثل هذه الخبرة المباشرة (Sahakian: 1977, 524) .

ولعل من أهم مبادئ التعلم -التى امتازت بها هذه النظرية عن غيرها من نظريات التعلم- مبدأ التعزيز الداخلى أو المعزز الداخلى Internal Reinforcer، وفكرته أن الإنسان، بسبب استمتاعه بحالة الوعى العقلى Conscious Mental وبإمكانيات التخيل Imagination ، فإنه يقدم لنفسه معززات وإثابات ذاتية دون ضرورة أن تُقدَّم له من الخارج. فهو -على سبيل المثال- يمتدح نفسه، ويجد متعة فى عمله، ويشعر بالفخر بشكل

ذاتى، دون استجابة من الخارج، أو رد فعل من الخارج على ما يقوم به من تعلم أو سلوك. فكأن الإنسان يثيب نفسه على تعلم شيء. فيتم عندئذ التعلم دون أن تحدث إثابة من العالم الخارجى، وهذا ما لم تستطيع أن تتبينه أو توضحه النظريات الأخرى؛ كالتعلم الشرطى الكلاسيكى أو الإجرائى... وأنواع التعلم الأخرى التى تربط بين المنبه والاستجابة. ولذا، فإن مثل هذه المعززات تمثل مكافأة ذاتية على السلوك ومعززا داخلياً له، لايقل قيمة عن المعززات الخارجية. بل كثيراً ما نجد الفرد يأتى سلوكاً يعاقب عليه من البيئة أو الآخرين، لكنه يعاوده لأنه يجد فيه إثابة ذاتية خاصة، حيث يدركه على غير ما يدركه الآخرون، وبالتالى يستجيب له وفق تصوراته هو، وتخييلاته الخاصة عنه.

ويحسن أن نختم حديثنا عن نظرية التعلم الاجتماعى بخلاصة لجوهرها هى كل ما ذكره أحد المعاجم الهامة عنها: «نظرية التعلم الاجتماعى هى اتجاه لعلاج السلوك يفترض أن السلوك يتكون ويضبط ويتعدل (أ)بواسطة أحداث مثيرة خارجية؛ مثل تأثير الأفراد والآخرين، (ب)وبواسطة المعززات الخارجية؛ مثل المدح، واللوم، والمكافآت، وأهم من ذلك (جـ)بواسطة تأثير العمليات المعرفية؛ مثل التفكير والحكم على سلوك الفرد وعلى البيئة التى تمارس تأثيراً عليه أو عليها. كما أن المصطلح (نظرية التعلم الاجتماعى) يشير إلى الفكرة العامة من أن التعلم كلية، أو إلى حد كبير، راجع إلى أوجه التأثير الاجتماعى، كما هو حادث فى تقليد الآخرين أو منافستهم» (Gold-enson: 1984, 691).

ملاحظات هامة عن التعلم

١ - استعرضنا فيما سبق نظريات عديدة عن التعلم تحاول كل منها أن تفسر وتشرح كيفية حدوث التعلم، وتؤكد وجهة نظرها بتجارب شتى على الحيوان والإنسان تثبت صدق ما تراه وما تقول به. وينبغى أن نؤكد هنا أن هذه النظريات وإن بدت مختلفة، إلا أنها فى نهاية المطاف متكاملة لا متناقضة. ولقد أتى اختلافها من اختلاف زاوية

النظر، وأيضاً من اختلاف البعد أو الجانب الذى تؤكد عليه كل منها. ولذا، فإن كل نظرية من هذه النظريات صادقة -إلى حد كبير- فيما انتهت إليه، لكن صدقها يتهاوى عندما تلجأ إلى التعميم الشامل، ونفى ما انتهت إليه غيرها. فعلى سبيل المثال، يحدث لنا جميعاً تعلم شرطى بالمعنى الكلاسيكى الذى يقدمه بافلوف، لكن ليس كل تعلم هو تعلم شرطى. فتعليم أبنائنا فى المدارس والجامعات يعتمد -إلى حد كبير- على الاستبصار. كما أننا جميعاً نتعلم عن طريق المحاولة والخطأ، خاصة فيما يتعلق بالمهارات التى لايمكن تعلمها عن طريق الاستبصار وإعمال الفكر، وإنما تعتمد أساساً على التدريب والمران كتعلم قيادة السيارة أو الدراجة أو السباحة أو الرماية فالفرد مهما قرأ من كتب وأخذ من دروس نظرية على يد خبراء لا يستطيع تعلم قيادة السيارة أو الدراجة أو القيام بالسباحة إلا إذا قام بمحاولات عملية للقيام بذلك يستخدم فيها المحاولة والخطأ ويقل فيها الاستبصار والفهم والتفكير... كما أننا نتعلم عن طريق التعلم الاجتماعى، ومن هنا تكتسب التنشئة الاجتماعية والقدوة والمحاكاة والاستحسان الاجتماعى أو الاستهجان الاجتماعى -أهمية قصوى فى عمليات التعليم والتربية وتقويم السلوك، خاصة بالنسبة للأطفال، لكن ليس كل ما نتعلمه يتم وفق نظرية التعلم الاجتماعى، بل بعضه فقط، وبعض آخر وفق نظرية أخرى، وغيرهما وفق نظرية ثالثة أو وفق تكامل أكثر من نظرية... وهكذا... ولذا، فإن أبغض ما يبغضه العلم هو التعصب الأعمى لنظرية بذاتها واعتبار أنها نظرية شاملة تصلح لتفسير كل شىء، والنظر إلى ما عداها على أنه هراء عارٍ من كل صحة، وخال من أى مصداقية. ومما يؤكد صدق ما نقول إن النظريات دائمة التغير والتبدل والتعديل والتطوير، حتى من جانب أصحابها أنفسهم.

٢ - يحدث انتقال أثر التعلم Transfer of Learning؛ بمعنى أن يؤثر تعلم سابق فى تعلم لاحق. ويتم ذلك على نوعين، فإما أن يكون انتقال الأثر إيجابياً وإما أن يكون سلبياً. ومن أمثلة انتقال الأثر الإيجابى أن تعلم لغة أجنبية معينة يسهل للفرد تعلم هجاء كلمة جديدة من هذه اللغة وكتابتها. وهكذا، نقول إن التعلم السابق لهذه اللغة يساعد على

سرعة ودقة تعلم كلمة جديدة على الفرد من هذه اللغة. وهذا انتقال إيجابى مفيد. أما الانتقال السلبى فيعنى أن تعلماً سابقًا قد أعاق تعلماً لاحقاً. ومن أمثلة ذلك ما نلاحظه من صعوبة تعلمنا النطق الصحيح لكلمة سبق أن تعلمنا نطقها خطأ. ذلك أننا نقوم هنا بعمليتين وليس عملية واحدة؛ فأولاً علينا أن ننسى التعلم السابق، وثانياً علينا أن نتعلم الجديد. ولذا، فإن بذل الجهد فى تصحيح تعلم خاطئ أكبر من بذله فى تعلم صحيح يتم لأول مرة. ومن هنا، كانت نصيحتنا للمعلمين بسرعة تصحيح الخطأ الذى يقع فيه التلميذ قبل أن يثبت فى ذهنه فيصعب بعد ذلك تصحيحه، ولذا ينبغى أن نصحح خطأ التلميذ أولاً بأول.

٣ - إذا كان التعلم فى جانب منه يعنى -ضمن ما يعنيه- التعلم والاكتساب والمعرفة، على نحو ما يقوم به التلاميذ والطلاب فى مدارسنا وجامعاتنا، فهل يمكن أن يتم تعلم أثناء النوم؟ وبذلك نستفيد من فترة نوم التلميذ أو الطالب فى تحصيل علومه والتعجيل بتعلمه وتعليمه؟ لقد ثار جدل حول هذا الموضوع، وأُجريت فيه بحوث ودراسات، لعل من أهمها البحث التجريبى الذى قام به تشارلز سيمون ووليم إيمونز (Simon & Em-mons: 1965, 137-143) عن تعلم المواد العلمية والمعرفية أثناء النوم؛ حيث قاما بتطبيق اختبار للمعلومات العامة على عينة من الذكور. وكان الاختبار يحتوى على ٩٦ سؤالاً. ثم نام أفراد العينة فى غرف بها أسرة مجهزة لإجراء التجربة، ويصل إلى كل منهم صوت يلقى كل سؤال وإجابته على المفحوصين وهم نيام، ويفصل بين كل سؤال وغيره خمس دقائق. وبعد انتهاء إلقاء الأسئلة وإجاباتها يستيقظ أفراد العينة ويعاد اختبارهم. وتقارن درجات كل فرد بعد إجراء التجربة بدرجته قبل إجرائها حيث يكون الفرق راجعًا إلى ما تعلمه (أو حصله من معرفة عن إجابات الأسئلة) أثناء نومه. وعن نتائج تجربتهما يقرران أنها تؤيد أن التعلم أثناء النوم أمر بعيد الاحتمال. ويعلقان على ذلك بقولهما: مع أنه يبدو أن التعلم أثناء النوم الحقيقى Real Sleep شيء غير معقول (وبعيد الاحتمال)، إلا أن الاستفادة العملية للتعلم فى حالة

النعاس Drowsy State لازالت مفتوحة للجدل والأخذ والرد. فالنتائج فى هذه الدراسة توضح أن حوالى ٣٠٪ من المواد التى قدمت فى الفترة السابقة على النوم قد استرجعها أفراد العينة. وفى ختام بحثهما يطرحان احتمال أن يؤدى التطور العلمى والتكنولوجى فى المستقبل إلى اكتشاف أو اختراع وسائل أو أجهزة غير معروفة الآن قد تساعد الفرد على التعلم وهو نائم، أما فى الوقت الحالى، فإن التعلم أثناء النوم Sleep Learning أمر غير محتمل التصديق.

ولعله قد اتضح لنا -من كل ما سبق أن عرضناه عن ظاهرة التعلم- مدى تأثيره على سلوك الفرد وقيامه بدور أساسى فى تحديده وصياغته؛ إذ من البديهى أن ما تكتسبه أو تعرفه أو تخبره أو تتدرب عليه (وكلها مظاهر للتعلم) سوف يؤثر على توجيه سلوكك ونشاطك، ويشترك فى تحديد مدى كفاءته ونجاحه، ويعتبر عاملاً أساسيًا فى تشكيله وبلورته. فالسائق الذى قد تعلم قيادة السيارة يستطيع أن يسير بها فيوصلنا من مكان إلى آخر، مع إحساسنا معه بدرجة كبيرة من الأمان. أما الشخص العادى الذى لم يتعلم قيادة السيارة فلا يستطيع ذلك، ولو حاول لورط نفسه ومن معه ومن يسير بالشارع فى حوادث، وعرضهم لأخطار جسيمة. والجراح الذى تعلم الجراحة يمكن أن يجرى العمليات الجراحية للمرضى المحتاجين إليها فيتسبب بذلك فى شفائهم. والمهندس الذى تعلم أصول البناء يمكن أن يبنى بشكل ناجح موفق الكثير من المنشآت اللازمة. وأنت عندما تتعلم لغة أجنبية شائعة كالإنجليزية وتجيد تعلمها يمكنك عند ذاك إذا ذهبت إلى بلد تتكلمها أن تفهمهم عندما يتحدثون أو يكتبون، وأن تعبر عن نفسك بلغة يفهمونها عندما تريد أن تخاطبهم؛ بل إنها تساعدك فى التواصل مع الآخرين، والتعامل معهم فى بلاد أخرى لا تتحدث بها، لكن شيوعها يجعل الكثيرين من هذه البلاد على معرفة بالشائع والأهم من مفرداتها، فتجد عند ذاك من يستطيع أن يفهمك وتفهمه بهذه اللغة الشائعة... بل إن عملية تربية النشء ليصبح مواطناً صالحًا نافعاً لنفسه ولمجتمعه إنما تعتبر -فى نهاية الأمر- عملية تعلم اجتماعى على نحو ما عرضنا عند الحديث عن هذه النظرية فى التعلم.

ومن الجدير بالذكر أننا أحياناً نستخدم كلمة التعليم للدلالة على التعلم، وفى هذا بعض الخطأ اللغوى، حيث ينبغى علينا أن نقصر استخدام كلمة تعليم على النشاط الذى يقوم به فرد آخر لكى يعلم إنساناً ما أو حيواناً ما شيئاً معيناً؛ أى على نشاط المعلم أو المدرب بصفة خاصة.

ثالثا : التذكر والنسيان

يقصد بالتذكر Remembering أو الذاكرة Memory إحدى الوظائف العقلية المختصة باختزان المعلومات والخبرات والمعارف التى مرت علينا أو تعلمناها، واسترجاعها عند الحاجة إلى ذلك، أما النسيان Forgetting فهو الفشل فى أداء وظيفة التذكر؛ أى عدم القدرة على اختزان المعلومات والخبرات والمعارف التى سبق أن مرت علينا وضعفها، أو عدم القدرة على استرجاعها وقت الحاجة وضعفها. ولذا، فإن النسيان هو نفى التذكر، كما أن العدم نفى الوجود، والغياب نفى للحضور. ومن هنا، فإن الحديث عن أحدهما يرتبط بالآخر، ويعتبر الوجه المناقض له؛ وكأننا أمام قدرة أو خاصية أو صفة واحدة تمثل متصلاً Continuum واحداً كالذكاء والغباء، حيث يمثل أعلى الناس تذكراً أقلهم نسياناً، وأكثر الناس نسياناً أقلهم تذكراً، كما يمثل أعلى الناس ذكاءً أقلهم غباءً، ويمثل أكثر الناس غباءً أقلهم ذكاءً.

ويرتبط التذكر ارتباطاً شديداً بالتعلم؛ فنحن لا نتذكر إلا ما سبق أن تعلمناه أو عرفناه أو علمناه مما مر بنا من خبرات أو تجارب أو تدريب أو تحصيل. فأنت عندما تعرف اسم أحد الزملاء ويمر عليك عشرون عاماً دون أن تلتقى به، ثم يقابلك فجأة فى الطريق فتناديه باسمه، فإنك عند ذاك تكون قد قمت بعملية تذكر لما سبق أن كنت تعرفه إذ سبق لك فيما مضى تعلمه (اسم هذا الزميل)، لكنك؛ إن حاولت تذكر اسمه ففشلت فى ذلك واندفعت تسلم عليه وتستسمحه العذر فى نسيانك لاسمه، وإن كنت تعرف شخصه تماماً، فيذكرك عندئذ به فتقوم أنت فى هذه الحالة بإعادة تعلم الاسم الذى كنت تعرفه فى الماضى لكنك

الآن تنساه. ولا تصدق عليك صفة النسيان هذه إلا إذا كنت قد تعلمته سابقًا أو مر عليك الاسم فيما مضى، وكذلك الأمر بالنسبة لقصيدة سبق لنا حفظها فى الماضى ولا نستطيع الآن أن نتذكر منها بيتا. أما القصيدة التى تراها لأول مرة، فأنت لا تعرف عنها شيئاً ولم تتعلمها من قبل؛ لذا لا يصدق عليك وصف النسيان عندئذ. وهكذا؛ فإن مورجان وزملاءه يعرفون التذكر بجملة واحدة فيقولون: «التذكر (أو الذاكرة) هو تخزين المعلومات من الخبرة السابقة؛ وهو شديد الارتباط بالتعلم» (Morgan, et al.: 1986, G14).

إذن، فنحن نتذكر ما سبق لنا أن تعلمناه، أو مر بنا وعرفناه فاستوعبناه فى ذاكرتنا نستدعيه وقت الحاجة. ولو تخيلنا أن ما نتعلمه ننساه مباشرة، لاستحال على التعلم أن يؤدى وظيفته فى الحياة؛ فالتذكر يرفع من كفاءة سلوكنا وييسر لنا قضاء حاجاتنا، وتوفيقنا فى حياتنا وعلاقاتنا ومحيطنا. فلنتخيل إنساناً معدوم القدرة على التذكر، لو أنك كلمته ما فهم كلامك؛ إذ أنه ينسى مفردات اللغة ومعانى الكلمات. ولو ناديته باسمه لما رد عليك؛ لأنه ينسى اسمه. ولو أنه جلس فى فصل دراسى فلن تستطيع تعليمه أى شىء؛ لأنه لا يستطيع تذكر ما يمر به أو يسمعه أو يراه، وبالتالى لن تستطيع تعليمه كيفية الكتابة أو القراءة. بل إن هذا الإنسان عندما يستيقظ من نومه ناسيًا كل شىء فلن يعرف كيف يغسل وجهه ولا أين يمكنه ذلك، ولن يعرف كيف يلبس ملابسه... فكل هذه أمور نتعلمها ونتذكرها عند الحاجة إليها فلا نحتاج إلى تعلمها من جديد. ويتم ذلك بشكل تلقائى دون تركيز وكأنه شىء طبيعى، حتى أننا لا نكاد نحس بأننا نقوم بعمليات تذكر إلا عندما تصادفنا مشكلة تستدعى ذلك، كأن تذهب إلى حيث توجد فرشاة الأسنان فلا تجدها فى مكانها، فتحاول أن تتذكر أين وضعتها بالأمس، وتذهب إلى مكانها لتستحضرها، وهكذا... ومن هنا، فإن أهمية التذكر فى توجيه سلوكنا وفى التأثير على نشاطنا هو من أهمية التعلم وفى قوة تأثيره، حيث يختلط معه على نحو ما بيناً. ولذا، وجبت علينا دراسة التذكر والنسيان كعامل شديد التأثير والأهمية فى سلوك الإنسان ونشاطاته المختلفة. ولشدة أهمية

التذكر، فقد وجدنا روبين وماكنيل يستهلان فصلهما الذى كتباه عنه بقولهما: «من بين كل الإمكانيات العقلية الهامة فى الإنسان، ربما كانت قدرته على التذكر هى أبرزها جميعاً» (Rubin&McNeil: 1979, 137). وفى الفصل السادس من كتابنا هذا تعرضنا للذاكرة كقدرة عقلية خاصة شديدة الأهمية، ونشاطها كما هو معروف هو عملية التذكر، كما أشرنا إلى أن العامة يساوون بينها وبين الذكاء لشدة إحساسهم التلقائى بمكانتها فى النشاط العقلى للإنسان.

مراحل التذكر:

هذا؛ ويشير إنجلش وإنجلش (English & English: 1970, 315) إلى أن هناك أربع مراحل متمايزة فى التذكر، هى:

١ – التعلم أو الاستظهار (الاكتساب أو الحفظ) Learning or Memorizing.

٢ – الاحتفاظ Retention (بما تعلمناه أو استظهرناه أو اكتسبناه فى ذاكرتنا).

٣ – الاسترجاع Recall (أى استعادة ما سبق أن احتفظت به فى ذاكرتى إلى ذهنى من جديد وقت حاجتى إلى ذلك، فأتذكر –على سبيل المثال– ما حدث لى بالأمس).

٤ – أو التعرف Recognition (أى معرفة أن هذا الشىء الموجود أمامك سبق أن مر بك أو عرفته من قبل أو حفظته، كما يحدث لك عندما يمر أمامك شخص سبق لك معرفته من قبل فتميزه من بين كثيرين تراهم لأول مرة).

ويشير منير حسن وأمل محمود بهذا الخصوص إلى أن «دور الذاكرة بعد الاكتساب هو الاحتفاظ، بحيث تصبح هذه المعلومات الرصيد الذى يستخدمه الفرد فى التعامل مع كافة المواقف المطالب بمواجهتها. والاحتفاظ بالمعلومات يتم بالاعتماد على تثبيت المعلومات، فآثار الخبرة السابقة لابد أن تكون قوية تقاوم عوامل النسيان مثل التلاشى فى الذاكرة العاملة، وفقدان الأهمية أو التزاحم والتداخل المعلوماتى فى الذاكرة طويلة الأمد... (وإلى أن) المعلومات التى تستقبلها الحواس هى معلومات فورية وتخزينها يحدث وقت ظهورها، ولكن فترة الإحتفاظ قصيرة جداً تقاس بـ $\frac{١}{١٠٠٠}$ من الثانية، وهو تخزين يعتمد على

كيميائية وفسيولوچية الحواس؛ مثلاً: طعم فاكهة معينة يظل باقياً لفترة أطول من بقاء صورة على شبكية العين أو صوت فى الأذن، وجميع الحواس تختفى من ذاكرتها المعلومات السابقة بظهور معلومات حسية جديدة» (منير حسن جميل خليل وأمل محمود السيد الدوه: ٢٠١٠، ١٢٠-١٢١).

أنواع الذاكرة:

هذا، ويمكن أن نتحدث عن أنواع من الذاكرة تختلف فيما بينها؛ وإن كانت جميعها تشترك فى كونها تندرج تحت الذاكرة أو التذكر:

١ - **الذاكرة القريبة Short-Term Memory**: وهى القدرة على تذكر الأشياء التى عرفناها من مدة قصيرة نسبياً، كتذكر الطالب لموضوعات المحاضرات التى حضرها بالأمس. أو اسم شخص تعرف عليه فى الأسبوع الماضى، أو عبارة ألقيت على مسامعه من لحظات قليلة.

٢ - **الذاكرة البعيدة Long-Term Memory**: وهى القدرة على تذكر الأشياء التى عرفناها والأحداث التى مرت بنا أو خبرناها من مدة طويلة، قد تصل بنا إلى سنوات الطفولة. ومن الجدير بالذكر أن الأفراد قد تختلف فيما بينها فى القوة النسبية للذاكرة البعيدة فى المقارنة بالذاكرة القريبة. فقد تجد هذا قوياً فى ذاكرته البعيدة ضعيفاً فى ذاكرته القريبة، بينما تجد ذاك ضعيفاً فى ذاكرته البعيدة قوياً فى ذاكرته القريبة وهكذا...

هذا؛ ويرى البعض -بناءً على دراسات تجريبية- «أنه من الأفضل عند قيام المعلم بنشاط تعليمى معين فى الفصل أن يعمل دائماً على تنشيط الذاكرة (القريبة) لما لها من دور كبير فى فهم الموضوع الحالى، وإن كانت هناك معلومات سابقة مهمة سبق وأن درسها التلاميذ فعليه أن يساعدهم على استرجاعها من أول الحصة لكى تنتقل من (الذاكرة البعيدة إلى الذاكرة القريبة) فيكون تأثيرها فى الفهم أكبر» (أحمد طه محمد: ١٩٩٤، ٣٢).

٣ - **ذاكرة الأسماء أو ذاكرة الأرقام أو ذاكرة الأماكن أو ذاكرة الأحداث**.. وغالباً ما تختلف قوة الفرد فى إحداها عن الأخرى:

قياس الذاكرة :

هذا؛ ويمكننا قياس الذاكرة لدى الأفراد بثلاث وسائل أساسية، هى الاسترجاع والتعرف وإعادة التعلم (Rubin&McNeil: 1979, 146).

١ - **طريقة الاسترجاع:** ونموذجها أن تعطى الفرد (أو المفحوص أو المبحوث Subject) وقتاً محدداً لحفظ مادة معينة، وبعد انقضاء الوقت المحدد تسحب منه المادة التى كان يحفظها (أو يستذكرها أو يتعلمها أو يكتسبها) ثم تطلب منه أن يذكر لك ما يتذكره منها. وكلما زادت كمية ما يتذكره كلما دل ذلك على قوة ذاكرته، وكلما قلت كمية ما يتذكره كلما دل ذلك على ضعف ذاكرته. هذا، ويمكن أن تكون المادة المطلوب حفظها موضوعة فى مقياس لحفظ ما جاء بها من كلمات. كما يمكن أن تكون عبارة عن عدد من أبيات شعر، أو تكون مجموعة أرقام، أو تكون مجموعة أفكار، أو مقاطع غير ذات معنى... (وذلك حسب هدف الباحث). وفى كل الأحوال، ينبغى أن تكون المادة مناسبة، ووقت حفظها -أيضاً- مناسباً، حسب أصول تقنين الاختبار النفسى (بالفصل السادس من هذا الكتاب).

هذا، ويمكن اعتبار مقاييس مدى التذكر Memory Span وسيلة لقياس الذاكرة بطريقة الاسترجاع. ويقصد بمدى التذكر عدد الوحدات التى يمكن للفرد استرجاعها تواً بعد سماعها أو تقديمها له لمرة واحدة؛ وبنفس الترتيب. وعادة ما تكون هذه الوحدات غير مترابطة، وعبارة عن حروف أو كلمات أو أرقام أو مقاطع. وإعادة سلسلة الأرقام التالية بنفس ترتيبها بعد إلقائها على المفحوص مرة واحدة نموذج لذلك: ٣- ٧- ٢- ٦- ١- ٨- ٥.

٢ - **طريقة التعرف** : ونموذجها أن نعطى المفحوص وقتاً محدداً لحفظ مادة معينة، وبعد انقضاء الوقت المحدد نسحب منه هذه المادة ونعطيه نفس المادة مختلطة عشوائيًا بمادة أخرى من نفس النوع، ونطلب منه أن يتعرف على المادة السابق عرضها عليه،

ويميزها أو يستخرجها، وكلما نجح فى التعرف على قدر أكبر من المادة السابق عرضها عليه كلما دل ذلك على ذاكرة قوية، وقدرة أعلى على التذكر. أما إن نجح فى التعرف على قدر ضئيل -فقط- من المادة السابق عرضها عليه، فإن هذا يدل على ضعف ذاكرته، وقدرته المحدودة على التذكر. ومن أمثلة ذلك أيضاً أن تعرض على المفحوص بطاقة بها عشر صور فوتوغرافية لبعض الأفراد ليحفظها فى مدة دقيقتين، ثم تسحبها منه بعد الدقيقتين ويعطى بطاقة أخرى بها الصور العشر السابقة مختلطة عشوائيًا مع ثلاثين صورة فوتوغرافية أخرى، ويطلب من المفحوص تمييز ماسبق أن رآه من صور فى البطاقة الأولى. وكلما نجح المفحوص فى التعرف على عدد أكبر من صور البطاقة الأولى كلما دل ذلك على ذاكرة أقوى... وقد عرضنا فى الفصل السادس من هذا الكتاب نموذجاً آخر لقياس الذاكرة بهذه الطريقة.

أما مادة التذكر فى مثل هذه الطريقة، فسوف تختلف باختلاف أهداف البحث أو الدراسة المطلوب فيها قياس الذاكرة. فعلى سبيل المثال، يمكن أن تكون المادة المطلوب حفظها عبارة عن عدد من الأسماء الثلاثية تعطى فى بطاقة لكى يحفظها المفحوص فى مدة محددة، ثم تعطى نفس الأسماء مختلطة اختلاطاً عشوائياً مع أسماء ثلاثية أخرى.. كما يمكن أن تكون المادة مجرد كلمات ذات معنى، أو تكون مقاطع صماء غير ذات معنى، أو تكون أرقاماً أو... وينبغى هنا تكرار ما سبق أن نبهنا إليه من ضرورة مناسبة المادة ومدة حفظها مع مراعاة أصول تقنين الاختبار النفسى، حيث ينظر إلى قياس التذكر على أنه اختبار نفسى.

ومن الجدير بالذكر أن التعرف أسهل كثيراً من الاسترجاع، وذلك لأن الاسترجاع عملية إنشاء. ففى التذكر عن طريق الاسترجاع يقوم الفرد بإنتاج أو إنشاء أو تكوين ما سبق له أن حفظه أو اكتسبه أو تعلمه. أما التعرف فهو عملية يبذل فيها الفرد جهداً أقل، حيث تقدم له المادة السابق حفظها أو تعلمها وتصبح أمامه، وما عليه إلا أن يتذكر مدى مألوفيتها له، وما إذا كانت قد مرت عليه من قبل أم لا. وهكذا، يكون دور الفرد هنا سلبياً سهلاً، أكثر من كونه إيجابياً صعباً.

٣ - طريقة إعادة التعلم (الحفظ - الاكتساب) Relearning: ونموذجها أن نعطى المفحوص قصيدة معينة ونحسب له الوقت الذى لزمه حتى حفظها ثم نتركه لمدة طويلة طولاً مناسباً (لاحظ ما سبق أن نبهنا إليه من تقنين الاختبار النفسى)، وربما كانت هذه المدة أياماً، أو شهوراً، أو حتى سنوات. ثم نختبر تذكره لهذه القصيدة فإذا به ينسى بعض أجزائها أو معظمها وربما كلها. ثم نعطيه فرصة أخرى لحفظها نقيس فيها الوقت اللازم له لكى يتم حفظها. ولابد أن يكون هذا الوقت أقل من الوقت الذى لزمه لحفظها فى المرة الأولى. ويمثل الفرق فى الوقت اللازم لكل من الحفظ وإعادة الحفظ مقدار النسيان. فكلما زاد هذا الفرق دل على ارتفاع مستوى النسيان وبالتالى انخفاض مستوى التذكر، وكلما قل هذا الفرق دل على انخفاض مستوى النسيان وارتفاع مستوى التذكر (وذلك وفقًا لفكرة متصل التذكر - النسيان السابق شرحها). وتتنوع مادة التعلم (أو التذكر) فى هذه الطريقة، كما فى سابقتيها وفق أهداف البحث.

نظريات النسيان Theories of Forgetting:

من الأهمية بمكان أن نجيب عن هذا التساؤل: لماذا ننسى؟ أو بمعنى آخر ما هى مسببات وعوامل النسيان التى تجعلنا ننسى ما سبق أن تعلمناه أو عرفناه أو مر بنا من خبرات وأحداث؟ -حاول العلماء الإجابة عن هذا السؤال، ولعل من أهم النظريات التى استهدفت الإجابة عنه ما يلى:

١ - نظرية الضمور أو التحلل مع الترك Trace Decay:

وترى هذه النظرية أن مرور الزمن على ما تعلمناه، دون مراجعة له أو تكرار أو استرجاع كفيل بأن يجعل ما تعلمناه يضمر شيئاً فشيئًا، ويتحلل حتى يُنسى تماماً. ويعتبر ثورنديك (١٨٧٤-١٩٤٩) Edward Thorndike عالم النفس الأمريكى الشهير أبرز من نادوا بهذه النظرية (فى كتابه المنشور عام ١٩٣٢ عن أسس التعلم)، حيث اقترح أحد القوانين التى تيسر لنا فهم التعلم والتذكر، «وهو قانون الممارسة! فعندما يتكرر النشاط أو

تعاد الخبرة من جديد فإنها تقوى، ويزداد تعلمها، ويستمر أكثر. وعندما يترك النشاط أو الأحداث وتهجر ولا يعود الفرد يمارسها فإنها تضعف، وفي النهاية –تفقد من الذاكرة، (Wright, et al.: 1970, 355).

ونحن نجد مصداقاً لهذه النظرية فى كثير مما نتعلمه ونهجره فلا نعود إليه، فنجد أنفسنا وقد نسينا معظمه، وضعفت قدرتنا على تذكره. وحفَظَة القرآن الكريم يعلمون تماماً أن تركه لفترة طويلة دون مراجعة مستمرة يجعلهم ينسون الكثير منه، ومع زيادة فترة الترك يتزايد النسيان ويقل الحفظ. وكأننا هنا أمام أثر تركه القدماء من زمن بعيد، نجده يتحلل بناؤه ويضعف وتتساقط أحجاره، وتتلاشى شيئاً فشيئاً معالم رسومه ونقوشه وكتاباته وتخفت ألوانه، وتختفى معالمه مع تزايد مرور الزمن عليه. كما يصدق هذا بشكل جلى على من أجاد لغة أجنبية –قراءة وكتابة ومحادثة– ثم هجرها لفترة طويلة دون أن يمارس القراءة والحديث بها، فإنه عند ذاك يفقدها من الذاكرة شيئاً فشيئاً، ومع مرور الزمن يزداد ما ينساه منها ويقل ما يتذكره...

ومع ذلك، فإن هذه النظرية لا تصدق على بعض الأحداث التى خبرناها من قديم ولازالت ذاكرتنا تعيها حتى اليوم دون أن ننساها مع مرور الزمن، فى حين ننسى أحداثاً قريبة لم يمر عليها زمن طويل. فكثير منا لايزال يذكر فى طفولته أحداثاً وخبرات بكل وضوح وتفاصيل فى حين أنه ينسى أحداثاً معينة أو تفاصيل معينة مرت عليه فى العام الماضى مباشرة. وكثيراً من أبيات الشعر التى حفظناها فى العام الماضى قد نسيناها، بينما غيرها قد حفظناه فى طفولتنا ولازلنا نذكره.

٢ – نظرية الكبت Repression:

لعلنا نجد فى نظرية الكبت تفسيراً للإشكالية التى طرحناها للتو فيما يتعلق بأننا ننسى أحياناً ما تعلمناه حديثاً، فى حين أن بعض ما تعلمناه قديماً، أو مر بنا فى طفولتنا،لازلنا نذكره بوضوح حتى الآن. وصاحب هذه النظرية هو العالم النمساوى فرويد Freud، صاحب نظرية التحليل النفسى التى أشرنا إليها فى الفصل الثانى من هذا الكتاب.

ففرويد، والمحللون النفسيون عامة، يرون أن السبب الأساسي في النسيان هو وجود دوافع لدى الفرد تدفعه لاستبعاد ذكريات ومواد معينة من مجال ذاكرته ووعيه وإسقاطها في مجال لا شعوره، وبالتالي لا يعود يحس بها، ولا يتذكرها، ولا يعرف عنها شيئاً. وكلما حاولت هذه الذكريات المسقطة في اللاشعور أن تطفو على السطح وتخرج إلى منطقة الشعور حتى يدركها الفرد ويتذكرها سارعت قوى الكبت وقاومتها، ووقفت حائلاً بينها وبين ولوج منطقة الشعور؛ أي الوعي، فتظل هكذا نسياً منسياً. ويفلح التحليل النفسي للفرد -إن تصادف وخضع لعملية التحليل النفسي- في الكشف عن هذه الذكريات المنسية، واستعادة قدرته على تذكر ما كان قد نسيه أو بعضاً منه.

وهكذا، تقول هذه النظرية إن ما نتذكره هو ما لم يقع عليه كبت، وما ننساه هو ما أوقعنا عليه الكبت. أما لماذا نوقع الكبت على حدث أو خبرة أو معرفة معينة ولا نوقعها على غيرها فهذا يرجع إلى دوافع الفرد الخاصة، وإلى تاريخه وتكوينه النفسي الخاص به، وإلى ديناميات شخصيته عموماً، وما يلجأ إليه من حيل دفاعية وأساليب توافقية... وفي كتابه: محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي يقول فرويد بهذا الصدد: فحين ينسى شخص «إسم شخص آخر يعرفه، أو حين يشق عليه أن يحتفظ به في ذاكرته، حتى إن بذل جهده، فنحن في حل من أن نظن أنه يحمل لصاحب الإسم شيئاً في نفسه، فهو لا يحب أن يفكر فيه. ولننظر في الأمثلة الآتية على ضوء هذا، فهي تتناول الموقف النفسي الذي حدثت فيه... أحب السيد (س) سيدة لم تبادله حبه، ثم تزوجت من (ص). ومع أن السيد (س) يعرف (ص) من زمن طويل، بل ويتصل به في أعمال تجارية، فهو ينسى اسمه أبداً، حتى أنه ليضطر إلى أن يطلبه من أشخاص آخرين كلما أراد الكتابة إليه. من الواضح هنا أن السيد (س) لا يود أن يعرف شيئاً عن غريمه السعيد» (فرويد: ٢٠٠٨، ٣٤). كما يضيف «إن نسيان تنفيذ القرارات والمشروعات يمكن أن يعزى -بوجه عام- إلى دافع مضاد يتعارض مع تنفيذ القرار أو المشروع. وليس هذا رأي أصحاب التحليل النفسي وحدهم، بل رأي كافة الناس أيضاً (المرجع السابق، ٣٤). ولذا، فإن الاعتذار بالنسيان غالباً لا يكون مقبولاً، ويقول الفرد لك رداً عليه لو كنت عاوز تفتكر كنت افتكرت».

٣ - نظرية الجشتلط Gestalt Theory:

سبق لنا أن تعرضنا لمدرسة الجشتلط فى علم النفس فى الفصل الثانى من هذا الكتاب، كما سبق أن عدنا فى هذا الفصل وأشرنا إلى إسهاماتها ونظريتها فى ظاهرة الإدراك. ويتكامل مع هذا نظرية سرعة النسيان بسبب عدم اكتمال المكتسب. إن ما نكتسبه فى التعلم أو التدريب أو التحصيل الدراسى... يقاوم النسيان ويبقى فى الذاكرة كلما كان مكتملاً وحاصلاً على معنى؛ أى يكون كلاً مفهوماً، وأساس النظرية هو الفكر الجشتلطى. لقد تبين للجشتلطيين أن التذكر إنما هو تذكر لكليات أو جشتالطات، فكلما كان المكتسب مكتملاً وحاصلاً على معنى كان تذكره أيسر وأقوى، أما الأشياء الناقصة وغير الحاصلة على معنى فهى أكثر قابلية للنسيان. وقد انتهى الجشتلطيون «فى تجاربهم إلى أن اكتمال المكتسب هو أساس تذكره؛ لأن التفاصيل تحصل على معانٍ من خلال الكل أو الجشتلط. أما النسيان فيزيد كلما كانت الخبرة المكتسبة غير مكتملة؛ لأن التفاصيل فى هذه الحالة تكون موزعة ومنعزلة بحيث يمكن فقدانها بسرعة، وبالتالى يكون النسيان» (أحمد فائق ومحمود عبد القادر: ١٩٧٢، ٣٧١).

وتتأكد صحة هذا من التجارب المبسطة التى يجريها طلابنا بأقسام علم النفس، حيث يقدمون للمفحوصين مقاطع غير حاصلة على معنى تتكون من مجرد حروف أو كلمات صماء (مثل: معق- أكن- نكف...) ويطلبون منهم حفظها فى مدة معينة (دقيقتين أو ثلاث على سبيل المثال) ثم يختبرون مدى حفظهم لها. ويقدمون لهم بعد ذلك بفترة راحة مناسبة كلمات ذات معنى (مثل: حسن- أكل- رسم...) مساوية فى عدد الحروف التى كانت تشتمل عليها المقاطع، ويكون عدد هذه الكلمات مساوياً -أيضًا- لعدد المقاطع، وتعطى نفس المدة لحفظها، ثم يختبر المفحوصون فى مدى حفظها... ونقارن بين مدى حفظ الكلمات المفهومة ومدى حفظ المقاطع الصماء أو غير المفهومة فنجد الفارق شاسعاً، حيث يرتفع مستوى حفظ الكلمات المفهومة كثيراً عن المقاطع الصماء غير المفهومة. ولو انتظرنا يوماً أو يومين بعد عملية الحفظ وأعدنا اختبار هؤلاء المفحوصين لنرى ما احتفظت به ذاكرتهم من المقاطع الصماء والكلمات الحاصلة على معنى فسوف نجد أن معظم ما

حفظوه من المقاطع الصماء قد نسوه، فى حين أن معظم ما حفظوه من الكلمات المفهومة لازالوا يتذكرونه. مما يؤيد نظرية الجشتلطيين ويدعمها.

ومن البديهى أن يكون لدينا دافع أقوى للاحتفاظ بالشىء الكامل المفهوم فى ذاكرتنا لكى نعود إليه وقت الحاجة للاستفادة منه فيما يواجهنا من مواقف أو نتعرض له من مشكلات، أما الشىء الناقص غير الحاصل على معنى فسوف يكون مجرد عبء على الذاكرة لا نستطيع الاستفادة منه فى أمور حياتنا فيقل دافعنا لاكتسابه، ويضعف لحفظه. وبالتالى نتعلمه أو نكتسبه بصعوبة، وننساه بسرعة.

٤ – نظرية التداخل Interference:

وترى هذه النظرية أن النسيان يحدث بسبب تداخل واختلاط المواد المتعلمة بعضها مع البعض، فيحدث تشويش متبادل يؤدى إلى اضطراب عملية الاحتفاظ Retention (الحفظ) داخل الذاكرة. فما أتعلمه الآن يتداخل مع ما تعلمته من ساعات وينسى بعضه بعضاً. وفى كتاب جاثرى E. Guthrie الذى نشره عام ١٩٣٥ عن سيكولوچية التعلم يفسر هذه الظاهرة بأن النسيان يحدث بسبب التنافس بين المواد المتعلمة بعضها مع البعض. وأن النسيان لا يتم بسبب الضمور والترك، وإنما لأن بعض ما نكتسبه يأخذ مكان الآخر. (Wright, et al.: 1970. 361-362).

ومن أشهر الدراسات التجريبية عن التداخل تلك التى قام بها جنكنز ودالينباخ J. Jenkins and K. Dallenbach عن النسيان خلال النوم واليقظة ونشراها عام ١٩٢٤. فقد تبين لهما من تجربتهما على فردين قاما بحفظ مادة قدمت لهما أن أحدهما استطاع تذكر ٤ ٪ منها بعد ثمانى ساعات من اليقظة فى مقابل ١٤ ٪ للآخر. أما عند حفظهما المادة ثم نومهما مباشرة لمدة ثمانى ساعات،فقد تذكر أحدهما ٥٥ ٪ منها فى مقابل الآخر الذى تذكر ٥٨ ٪ (Underwood: 1966. 179). وهذا الفارق الكبير بين نسبة النسيان (٩٦ ٪ و٨٦ ٪) فى حالة اليقظة وبين نسبته فى حالة النوم (٤٥ ٪ و٤٢ ٪) إنما يرجع إلى أن النشاط أثناء اليقظة، وما يصاحبه من تعلم وخبرات واكتساب، يؤثر فى التعلم السابق والخبرة السابقة والاكتساب السابق، فيذهب بنسبة كبيرة من كل منها فتنسى. ويقسم العلماء التداخل إلى نوعين:

(أ) تداخل بعْدى Retroactive Interference:

وفكرته أن التعلم اللاحق يذهب أو يفسد أو يضعف التعلم السابق، ونموذج تجاربه إحضار مجموعتين متكافئتين تحفظ إحداهما (أو تكتسب أو تتعلم) مادة معينة، وتحفظها الثانية أيضاً. وبعد ذلك مباشرة تعطى المجموعة الأولى (التجريبية) مادة أخرى لتحفظها، بينما تترك الثانية (المجموعة الضابطة) دون حفظ شيء جديد، أو مزاولة نشاط عقلى. ثم تختبر المجموعتان فى المادة التى اشتركتا فى حفظها لتحديد معدل التذكر والنسيان فى كل منهما. فإن كان معدل نسيان المجموعة التجريبية (المجموعة الأولى التى حفظت مادتين متتاليتين) أعلى بشكل دال إحصائياً عن معدل نسيان المجموعة الثانية (الضابطة) والتى لم تحفظ إلا مادة واحدة ثم استراحت بعْد ذلك، دل ذلك على حدوث تداخل بعدى، حيث تداخلت المادة المكتسبة الثانية مع المكتسبة الأولى وزاحمتها وأخذت بعض مكانها فى الذاكرة. وتعتبر تجربة جينكنز وداللينباخ -هذه- من تجارب التداخل البعدى.

(ب) تداخل قبلى Proactive Interference:

ويقصد به عكس النوع السابق وهو أن التعلم السابق يتداخل مع التعلم اللاحق فيفسده أو يضعفه أو يذهب ببعضه. ونموذج تجاربه إحضار مجموعتين متكافئتين تعطى إحداهما (وتمثل المجموعة التجريبية) مادة معينة لحفظها (أو تعلمها أو اكتسابها) ثم تعطى بعد ذلك مادة ثانية وتحسب المدة اللازمة لحفظها. وتعطى هذه المادة الثانية للمجموعة الأخرى (وتمثل المجموعة الضابطة، ويلاحظ أنها لم تعط المادة الأولى)، وتحسب المدة اللازمة لها لكى تحفظها، فإن كانت المدة اللازمة لحفظ هذه المادة الثانية أكثر فى المجموعة التجريبية) دل هذا على أن حفظ المادة الأولى قد عطل وأخر حفظ المادة الثانية. ومن التجارب التى تمت فى ميدان التداخل القبلى هذا تجربة أندروود B.Underwood التى نشرها عام ١٩٥٧ عن التداخل والنسيان؛ حيث جعل بعض الأفراد يحفظون تسع قوائم مختلفة من الكلمات فى أيام متتالية. وكان يسأل كلاً منهم أن يسترجع القائمة التى حفظها فى اليوم السابق. فوجد أن الأفراد تذكرت فى المتوسط ٧١٪ من القائمة الأولى فى مقابل

٢٧٪ فقط من القائمة الأخيرة. مما يدل على أن تعلم القوائم السابقة وحفظها قدتداخل وأضعف القدرة على تذكر واسترجاع القوائم الأحدث (Mace: 1968,174-184). ويفسر هذا بنفس ما فسرنا به التداخل البعدى. ويمكن لنا فى ضوء هذا أن نفسر ضعف الذاكرة القريبة لدى كبار السن بإرجاعه إلى عامل التداخل القبلى؛ حيث إن ما تعلموه وحفظوه فى ذاكرتهم من مواد كثيرة يجعل قابليتهم واستعدادهم لتعلم الجديد واكتسابه والاحتفاظ به فى الذاكرة أمراً صعباً.

هذا، وما سبق أن قلناه فى ملاحظتنا الأولى عن التعلم –فى هذا الفصل– عن تكامل نظريات التعلم لا تناقضها، ينطبق هنا، وبنفس الدرجة، على تكامل نظريات التذكر والنسيان؛ إذ من الواضح، ومما تؤيده التجارب العلمية والوقائع الحياتية والخبرة المعاشة، أن النسيان يتأثر بعوامل عدة تجمع النظريات الأربع السابق لنا عرضها، وربما غيرها مما لم نعرضه، أو مما لم يكتشف بعد. ولعل الأقرب للاتجاه العلمى أن نرجع الظاهرة النفسية، أياً كانت، إلى تكامل عدة عوامل وأسباب، وليس إلى عامل واحد أو سبب واحد، وإن بدا سبب معين أو عامل معين أكثر وضوحاً وتأثيراً، إلا أنه نادراً ما يكون السبب أو العامل الوحيد. فمن يستطيع أن ينكر أهمية عامل الترك والضمور فى نسيان المادة، ومن منا يستطيع أن يتجاهل أثر الكبت والدوافع النفسية فى نسيان أمور أحدث، بينما نتذكر أخرى ممعنة فى القدم، ومن منا يمكن أن ينكر أثر عدم اكتمال المكتسب أو عدم حصوله على معنى بالنسبة للفرد فى سرعة نسيانه وصعوبة الاحتفاظ به فى الذاكرة. وبالمثل، من يمكنه أن ينكر أثر عامل التداخل وصراع المعلومات وانشغال الذهن فى اضطراب التذكر وصعوبة تعلم الجديد... فكل هذه أمور نلاحظ مدى صدقها على أنفسنا وعلى غيرنا كل يوم وحين.

اضطراب التذكر والأمراض العقلية والنفسية:

فى حديثنا السابق عن التذكر والنسيان كنا نتناول النسيان كظاهرة طبيعية تحدث لنا جميعاً كأسوياء، مع محاولة دراسة أسبابها وعواملها. أما الآن، فيتناول حديثنا اضطراب

التذكر وظاهرة النسيان كعرض (أو نتيجة) لبعض الإصابات العقلية أو الاضطرابات النفسية.

عندما تحدث إصابة أو عطب أو تلف فى المخ تصاب غالباً ذاكرة الفرد بالاضطراب، ويصبح فقدان الذاكرة، أو عدم القدرة على التذكر فى الغالب، عرضاً من أعراض الإصابة العقلية. أما الأجزاء المهمة؛ التى تتعلق بالذاكرة فى المخ، وبالتالى تؤدى الإصابة فيها أو العطب إلى ضعف الذاكرة واضطرابها؛ (فهى):

١ – الفص الصدغي.

٢ – الأجسام الحلمية فى المهاد التحتانى (الهيبوثلاموس).

٣ – الجهاز الطرفى فى المخ.

وكل هذه الأجزاء مع الألياف الموصلة بينها تعمل كوحدة بيولوچية، وتختص هذه الأماكن بوظيفة الاحتفاظ والاستدعاء فى التذكر (أحمد عكاشة وطارق عكاشة: ٢٠٠٩، ٢٣٠–٢٣١). هذا، وقد سبق لنا فى الفصل الرابع من هذا الكتاب أن أشرنا إشارة سريعة عند حديثنا عن وظائف الهيبوثلاس إلى دوره الكبير فى التحكم فى عمليات التذكر.

كما أن عالم الطب الروسى كورساكوف (١٨٥٤–١٩٠٠) S.Korsakov عندما قام بدراسة المرض العقلى، الذى تسمى بعد ذلك باسمه وعرف بذهان كورسكاف Korsa-kov's Psychosis (أو زملة أعراض كورساكوف Korsakov's Syndrome)، والناتج عن إدمان تناول الكحول، وصف اضطراب الذاكرة ونسيان الأحداث القريبة على وجه خاص على أنه العرض الرئيسى لذهان الكحول، وكانت دراسة كورساكوف هذه فى عام ١٨٨٧. وقد تبين له أن اضطرابات التذكر ليست –فقط– قاصرة على مدمنى الكحوليات، بل إنها منتشرة –أيضاً– بين من يصابون بجروح فى المخ، أو بأورام مخية، أو بضمور ناتج عن الشيخوخة وكبر السن (Portnov & Fedotov: 1969, 255).

ويلاحظ –أيضًا– أن النسيان واضطراب الذاكرة كثيراً ما يصاحب بعض الأمراض

النفسية والعقلية الأخرى؛ مثل الهستيريا والفصام والصرع وعته زهرى الجهاز العصبى وعته تصلب شرايين المخ وارتجاج المخ..

معينات للتذكر Mnemonics:

على الرغم من الأهمية القصوى للذاكرة وفائدتها للإنسان، إلا أنه مما يؤسف له أنها قريبة الشبه بالذكاء فى عدم إمكانية تنميتها بالتدريب أو غيره، إلا فى حدود لا تكاد تذكر. فلقد حاول بعض العلماء أن يدرب ذاكرته على الحفظ فلم تقو عما كانت عليه، مثل الفيلسوف وعالم النفس الأمريكى الشهير وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) William James. كما أجرى بعض العلماء تجارب دربوا فيها ذاكرة بعض الأفراد انتهت إلى استحالة تقوية الذاكرة. وهكذا، لم يعد أمامنا إلا حسن استغلال الذاكرة وتوظيفها التوظيف الأمثل طالما صعبت علينا تقويتها، ومن هنا كان الاهتمام بالنصائح المبنية على تطبيق بعض ما انتهت إليه التجارب والدراسات تطبيقًا يساعد على التذكر ويقاوم النسيان فيما يعرف بمعينات التذكر، أو ما يعيننا ويساعدنا على التذكر. ولاشك فى أن الطالب أكثر الناس حاجة لاستخدام هذه المعينات فى تعلم دروسه وحفظها بمنأى عن النسيان؛ ومن أهمها:

١ - ضرورة بذل الجهد فى فهم المادة المراد حفظها؛ حيث إن الفهم يجعل المادة تقاوم النسيان وتحتفظ بها الذاكرة لفترات طويلة، بحيث يسهل استرجاعها عند اللزوم؛ على نحو ما سبق أن أشرنا عند الحديث عن نظرية الجشتلط فى تفسير النسيان.

٢ - ضرورة أن يترك الطالب فترة راحة بين تعلم أو حفظ أو استذكار مادة وأخرى، حتى تثبت المادة السابقة ولا تتداخل مع المادة اللاحقة وتتزاحمان فى الذاكرة فتشوش كل منهما الأخرى وتختلط بها، فترتبك الذاكرة، ويضعف الاستيعاب أو الحفظ (راجع نظرية التداخل فى تفسر النسيان، والتى سبق عرضها فى هذا الفصل).

٣ - ضرورة مراجعة المادة المتعلمة بين الحين والآخر وعدم تركها لفترات طويلة حتى لا تتحلل وتتلاشى من الذاكرة فتنسى (راجع نظرية الضمور مع الترك التى سبق

عرضها فى تفسير النسيان فى هذا الفصل).

٤ – التركيز أثناء الاستذكار فى عملية التحصيل فقط؛ بما يتضمنه من فهم، حتى يكون الذهن خالياً للتحصيل والفهم والاستيعاب، دون مشتتات للتنبيه أو للتركيز.

٥ – حاول أن تلخص المادة المراد استيعابها كتابة؛ وحبذا لو قمت بذلك من ذاكرتك ثم تراجعه، ففى التلخيص تتأكد من فهم المادة وهضمها وتعرف أجزاءها التى لم تحصلها جيداً فتركز عليها، ويصعب عليك اكتشاف ذلك إذا لم تلخصها. هذا علاوة على أن التلخيص يمكنك من المراجعة السريعة للمادة، عندما تدعوك الحاجة إلى ذلك. كما أن هذا يجعل دورك فى التحصيل والتعلم أكثر إيجابية، فيكون العائد أكبر، والناتج أفضل.

٦ – اجعل جزءاً من الوقت الذى تنفقه فى التحصيل والاستيعاب مخصصاً لتسميع ما حفظته أو تعلمته، حتى لو كان ذلك عن طريق كتابة ما انتهيت من استذكاره بعد أن تغلق الكتاب. فلو كان أمامك ساعتان لاستذكار درس وتحصيله فالأفضل أن تقرأه وتدرسه ساعة، وتسمعه فى النصف التالى، وعنده سوف يتضح لك ضعف استيعاب أجزاء معينة فيه، فتقوم بالتركيز على استيعابها فى نصف الساعة الباقية. فهذا سيكون أفضل كثيراً مما لو قضيت الساعتين كاملتين فى قراءة الدرس وإعادة قراءته. كما أن هذا –أيضاً– سوف يزيد من دورك الإيجابى فى التحصيل والاستيعاب، فيحسن التعلم أكثر، وتثبت المادة فى الذاكرة مقاومة النسيان.

٧ – ينبغى أن تهتم بحضور المحاضرات وتعطى لها كل انتباهك وتركيزك لتلتقط كل ما يقال فيها، وليس من المستحب أن تشغل نفسك بأخذ مذكرات أو كتابة ملخصات لما جاء بها أثناء إلقائها إلا فى أضيق نطاق، حتى لا يفوتك الانتباه إلى بعض أجزائها أثناء انشغالك بالتلخيص والكتابة، فتفقد المحاضرة وحدتها وترابطها وتكاملها فى ذهنك (Mace: 1968, 49-50). ويحسن هنا أن نذكر بنظرية الجستلطيين عن أهمية اكتمال المكتسب لمقاومة النسيان.

٨ - بعض الطلاب يجتمعون معًا لاستذكار دروسهم، فلا ننصح بهذه الطريقة إلا فى أضيق نطاق؛ حيث إن اجتماع الزملاء معًا سوف يفتح ثغرات كثيرة للحديث (والدردشة) والجدل البعيد عن مجال المذاكرة وتحصيل الدرس، فيضيع الكثير من وقت الاستذكار فيما لا يعود بنفع على تحصيل الطالب. ولذا، فكلما استطاع الطالب تحصيل واستيعاب دروسه وهو بمفرده كان ذلك أفضل كثيراً، علاوة على أنه يعوّده الاعتماد على النفس والثقة فيها، وهو أمر مطلوب ومفضل.

٩ - يحسن أن نحتفظ معنا باستمرار بمفكرة صغيرة نكتب فيها ما يهمنا ونخشى أن ننساه، كالمواعيد وأرقام التليفونات وبعض البيانات والأسماء والعناوين، وما هو مطلوب منا أو لنا، وما يهمنا من معلومات مختلفة. على أن يكون كل ذلك فى صورة منظمة لسهولة الرجوع إليها، على نحو ما يحدث فى مفكرات الجيب السنوية أومفكرات المكتب.

١٠ - حاول أن تربط المعلومات التى تريد الاحتفاظ بها فى الذاكرة مع أخرى لتساندها أثناء التذكر (Platonov: 1965, 184).

رابعًا: التفكير

يعتبر تفكير الفرد Thinking من المحددات الأساسية لسلوكه، ومن المؤثرات الهامة فى صياغة هذا السلوك وإكسابه الشكل الذى يظهر عليه. فعندما يضطرب تفكير الفرد ينعكس ذلك مباشرة على سلوكه، ويظهر الاضطراب عند ذاك فى نشاطه وتصرفاته.

وعن التفكير يقول أحمد فائق: «تستعمل كلمة التفكير لتدل على أكثر من قصد. فأحياناً نستعملها لتدل على كل ما يدور فى الذهن. فهذا يفكر فى حال الدنيا، وذاك يفكر فى أمر عرض له منذ أيام، وثالث يفكر فيما ينظره من بدائع الطبيعة. وأحياناً أخرى نستعمل كلمة التفكير فى حدود ضيقة، فنقول إن الاستقراء والاستدلال... هما مايقصدان بكلمة التفكير. ولكن مهما يختلف استعمالنا لكلمة التفكير، فلدينا من الاتفاق فى شأنها ما يشجعنا على التعرض لتعريفها...» (أحمد فائق: ١٩٦٥، ٣).

وفى تعريف شاكر قنديل للتفكير يشير إلى أنه: «نظام معرفى يقوم على استخدام الرموز التى تعكس العمليات العقلية الداخلية إما بالتعبير المباشر عنها، أو بالتعبير الرمزى، ومادة التفكير الأساسية هى المعانى والمفاهيم والمدركات» (شاكر قنديل: ١٩٩٣، ٢٣٣). أما فرانك برونو فإنه يعرّف التفكير بأنه «نشاط عقلى، وشكل من أشكال العمليات المعرفية التى تستخدم الإدراك والمفاهيم والرموز والتصورات. وأن من بعض أغراض التفكير وأهدافه هو حل المشكلات، واتخاذ القرارات وفهم الواقع الخارجى وتمثله» (Bruno: 1986, 235). ويذكر برايس وزملاؤه أن التفكير «مجموعة مختلفة من العمليات المعرفية Cognitive Activities، وتشمل حل المشكلات Problem Solving، واتخاذ القرارات Decision Making، والحكم Judgment وحتى التذكر» (Price. et al.: 1985, 585).

ولا يكاد يختلف العالمان السوفيتيان بورتنوف وفيدوتوف Portnov & Fedotov عن العلماء العرب والغربيين عندما يتعرضان للتفكير فيذكران «أن التفكير هو أرقى صور النشاط العقلى الإنسانى... ويتجسد التفكير فى الكلام حيث تخلق الصور الذهنية فى الإنسان وتتكون المفاهيم. وتكمن العملية الفكرية فى تكوين المفاهيم وإقامة العلاقات المنطقية بينها وبين الإحساسات والتصورات عن طريق التجريد من الوقائع التى نتحصل علهيا من خبراتنا وتجاربنا. فالتفكير يمكن الإنسان من أن يفهم القوانين الموضوعية التى تخضع لها الطبيعة والمجتمع وأن يستفيد منها فى التطبيق العملى... ولا توجد حدود –مع ذلك– للتفكير الإنسانى، فقوة تفكيره تمكن الإنسان من أن يغامر فى الفضاء الخارجى، وأن يخترق أعماق الكائنات المادية، وأن يفهم الظواهر التى تخرج عن حدود الإدراك المباشر» (Protnov & Fedotov: 1969, 41). وهكذا، فإننا نستخدم التفكير فى كل العمليات الذهنية التى نقوم بها أثناء الاختراع والابتكار والتخطيط والتصور والتذكر وتحصيل العلم واستذكار الدروس وحل الاختبارات والإجابة عن أسئلة الامتحانات، أو عن مختلف الاستفسارات، وحل الألغاز أو المسائل الحسابية والرياضية، سواء منها البسيطة أو المعقدة. بل إننا أثناء نشاطنا العملى والعضلى نستخدم التفكير ولا نكاد نكف عنه؛ فالميكانيكى عندما يحاول أن يكشف أعطال السيارة أو الماكينة فيفتح هذا، ويفك ذلك، ويربط ذاك

إنما يسبقه تفكيره ويتآنى مع كل هذا النشاط العضلى الحركى، ويستمر إلى ما بعده أيضاً. وينصّدق الشيء نفسه على لاعب الكرة فى ملعبه، والذى يسير فى طريقه، أو يقود سيارته، حتى لو لم يحس أو يدرك أنه يفكر ويستعمل عقله...

وواضح من هذا أن التفكير يعتبر وظيفة أساسية من وظائف الذكاء والقدرات والاستعدادات (راجع الفصل السادس)، كما أن الاستبصار يعتبر إحدى العمليات الفكرية (راجع ما ذكرناه فى هذا الفصل عن التعلم بالاستبصار). ومن ثم، فإن قدرة الفرد على التفكير وكفاءته فيه تعتمدان -إلى حد كبير- على مستوى ذكائه، وأيضًا على مدى سلامته النفسية واتزانه الانفعالى، وتكوينه الدينامى.

أنواع التفكير:

يمكن تقسيم التفكير إلى أنواع عدة تختلف حسب أساس التقسيم. ولعل من أهم هذه التقسيمات:

(أ) حسب تَوَجُّه التفكير:

١ - التفكير الهائم أو غير الموجه **Undirected Thinking**، وهو تفكير لا يكون مركزاً فى موضوع معين، بل ينتقل من موضوع لآخر دون تركيز. وهكذا يكون التفكير مشتتاً بين أكثر من موضوع، قد لا تكون بينها روابط أو علاقات، بل إنها ترد على البال ويفكر فيها الفرد كيفما اتفق. وغالبًا ما يكون التفكير فيها سطحيًا غير متماسك، ويقل فيها وعى الفرد بأنه يقوم بعمليات تفكير، ويكون هدف التفكير غير واضح ولا معين.

٢ - التفكير الموجه **Directed Thinking**: وهو على النقيض من النوع السابق، حيث يتوجه «نحو هدف معين، وهو ذو درجة عالية من الضبط، ويكون مرتبطاً بموقف أو مشكلة بعينها، كما يمكن تقويم هذا التفكير بمعايير خارجية. ويعتبر كل من الاستدلال وحل المشكلة وتعلم المفاهيم أمثلة شائعة للتفكير الموجه» (دافيدوف: ١٩٨٣، ٣٨٣).

(ب) حسب تجريدية التفكير :

١ - **التفكير العيانى Concrete Thinking**: نوع من التفكير يستعين فيه العقل بالصور الحسية، وتكون مادته وتركيزه فى الخبرة المباشرة والتجارب الشخصية والأشياء والأحداث الخاصة والمعينة. وهو نوع أقل رقيًّا من التفكير. ولذا فهو يسود لدى الأطفال والبدائيين والأميين. كما أنه يميز بعض المرضى العقليين، كما فى كثيرمن حالات الفصام والإصابات العقلية العضوية.

ولا يكاد يتخطى هذا النوع من التفكير وقع المحسوسات على الحواس وإدراكها. وهكذا، فإن صاحب هذا المستوى من التفكير يمكنه قراءة ما تشير إليه عقارب الساعة (فالعقارب هنا بوضعها على أرقام معينة تقع على حواس الفرد فيدركها) . أما إن طلبت منه أن يحرك العقارب لكى تشير الساعة إلى وقت معين صعب عليه ذلك. وبالمثل، إذا أعطيت طفلا صغيراً أربع أوراق عملة فئة الخمسة وعشرين قرشًا، ثم أعطيته ورقة واحدة فئة العشرة جنيهات فإن تفكيره العيانى يؤدى به إلى الاعتقاد بأن الورقة الواحدة فئة العشرة جنيهات أقل قيمة من الأربع أوراق فئة الخمسة وعشرين قرشًا مجتمعة. وإذا ما قلت لطفل صغير مشيراً إلى نقطة فوق خريطة جغرافية لبلد ما إن هذه مدينة كذا التى تعيش فيها الآن لرد عليك قائلاً: لا، إن هذه نقطة فوق ورقة؛ حيث إن تفكيره لا يكاد يتخطى الوقع المباشر للمثيرات على حواسه.

٢ - **التفكير المجرد Abstract Thinking**: وهو مستوى أرقى من التفكير، يسود لدى الكبار والمتحضرين والمتعلمين. حيث يعتمد على المعانى والأفكار المجردة والرموز والمفاهيم، وليس فقط على الخبرة المباشرة أو المحسوسات والمجسمات والماديات، أو الصور الذهنية لها. كما أنه يتخطى كل ذلك إلى ما وراءه من معانٍ ورموز ومفاهيم وأفكار مجردة. ولذا يتميز بالتعميمات، وباستخدام الرموز كما فى المعادلات الرياضية واللغة. وهكذا، فإن التفكير فى المسئولية والعدل والحق والخير والشر والمبادئ الأخلاقية والنظريات الفلسفية، ووضع تصور لما سوف يكون عليه المستقبل

بالنسبة لأمر ما أو ظاهرة ما... كل هذا ومثله مما يقع ضمن نوع التفكير المجرد ويشير إليه.

(جـ) حسب الجدّة والأصالة:

١ - **التفكير التقليدى Traditional Thinking**: وهو التفكير المعتاد الذى لا ينتج شيئاً جديداً يتميز بالطرافة والأصالة والتفرد، كذلك الذى يمارسه الشخص العادى فى حله لمسألة جمع أو طرح بسيطة.

٢ - **التفكير الابتكارى Creative Thinking**: وهو نوع التفكير الذى ينتج أشياء طريفة متفردة، لا ترد على بال الكثيرين من الأفراد أو تقل لدى عامة الناس. فهو تفكير خلاق مبدع؛ كما هو الحادث لدى المبدعين من الفنانيين فى مجالات الفنون المختلفة، ولدى الباحثين والمكتشفين والمخترعين والمنتجين لأشياء أو أفكار لم يسبقهم إليها أحد، أو قل من يصل إليها.

(د) حسب تعدد الحلول :

١ - **التفكير التقاربى Convergent Thinking**: وهو التفكير فى المشكلات أو المسائل ذات الحل الصحيح الواحد. فأنت تستخدم التفكير التقاربى لحل مسألة الحساب -على سبيل المثال- حيث لا يحتمل الحل إلا حلاً معيناً صحيحاً وما عداه يكون خطأ. أما عندما تتعدد الحلول الصحيحة للسؤال الواحد فأنت هنا تلجأ إلى النوع الثانى من التفكير وهو:

٢ - **التفكير التباعدى Divergent Thinking**: الذى نلجأ إليه عندما يحتمل السؤال أكثر من حل صحيح، أو عندما تقبل المشكلة حلولاً كثيرة صحيحة. مثل التفكير الذى تلجأ إليه لكى تجيب عن مثل هذا السؤال: ضع عدداً من النهايات لهذه القصة؟ أو اذكر الاستعمالات الممكنة للمسطرة؟

(هـ) حسب سلامة التفكير:

١ - **التفكير المتماسك Coherent Thinking**: وهو التفكير المنطقى المنظم الذى يدل على سلامة عقل صاحبه واستمتاعه بالصحة النفسية والاتزان.

٢ - **التفكير الخلطى Bizarre Thinking**: وهو التفكير المضطرب المشوش الذى يصعب عليك أن تفهم ما يقوله أو يكتبه صاحبه لعدم اتزانه ونقص تماسكه وبعده عن المنطق السليم. وهذا النوع من التفكير يشيع فى بعض الأمراض العقلية ويعتبر عرضاً لها فى كثير من الحالات، حيث يؤثر المرض العقلى على العمليات الفكرية لدى المريض فيصيبها بالاضطراب والشذوذ، على نحو ما نجده لدى كثير من مرضى الفصام (كما سوف نذكر فى الفصل التاسع من هذا الكتاب).

ولعل ما ذكرناه فى هذا الفصل عن التفكير قد أوضح مدى تأثيره على توجيه سلوك الفرد وتحديد مساره، كما أوضح أنه الوظيفة الأساسية للذكاء؛ حتى إنه يتسع فى مدلوله ليتضمن العمليات العقلية الأساسية، كالفهم والاستبصار، والاستنتاج والحكم، والتخطيط والتدبير، والتصور والتخيل... ومن هنا كانت سلامة التفكير وكفاءته من ألزم الأمور لنجاح الفرد فى حياته، وتوافقه مع مجتمعه. بل إن كفاءة التفكير وارتفاع مستواه هى الخاصية الأساسية التى تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية، بحيث جعلته يحتل مكان السيادة، ومستوى السمو عليها جميعاً.

الباب الثالث

الشخصية والصحة النفسية

الفصل الثامن : الشخصية: نظرياتها - نموها - قياسها.

الفصل التاسع : الاضطرابات والأمراض النفسية.

مقدمة الباب الثالث

إن أية ظاهرة نفسية، سواء أكانت سلوكًا أم سمة أم حدثًا، لهى فى نهاية الأمر انبعاث من شخصية (أو شخصيات)، ووصف لها وتعيين لجوانبها المختلفة؛ ومن هنا، فإننا نرى أن الشخصية هى أشمل وعاء يتسع لكى نصب فيه وندخل كافة دراسات وبحوث ونظريات وحقائق علم النفس بمختلف فروعه. خذ مثلاً علم نفس الطفولة أو علم نفس النمو، فإنك لا تجده إلا مجاهداً فى دراسة نمو الشخصية منذ بدايتها، وتعقب مراحل نموها فى جوانبها المختلفة بالوصف والفهم والتفسير، فإذا ما انتقلت إلى علم النفس التربوى أو علم النفس الصناعى والإدارى، وجدت كلاً منهما يجاهد فى فهم وتفسير إمكانيات الشخصية على التحصيل والإنجاز والإنتاج، وبيان خير السبل إلى رفع مستوى كل ذلك دون إرهاق الشخصية أو تجن عليها. فإذا ما تركت هذا كله إلى علم النفس المرضى أو علم النفس الإكلينكى أو التحليل النفسى، وجدت (أن كلاً من تلك الفروع يجاهد فى فهم الشخصية ودراستها: فى سوائها واضطرابها، فى نموها وتدهورها، فى قوتها وضعفها، فى تكاملها وتصدعها، فى سعادتها وشقائها... وفى علاج اضطراباتها وأمراضها. وبالمثل، هى بقية فروع علم النفس.

ولذا، فإن علماء النفس الذين ألفوا فى الشخصية كانوا أمام موضوعات شتى حيرتهم فيما يعالجون وفيما يتركون. كما كانوا أمام دراسات ونظريات ومعلومات سيكولوچية تضخم حجمها حتى استعصت على الإحاطة والحصر. ولذا، لجأ كل منهم فى تأليفه إلى اتجاه يستعين به فى تحديد مادته، وإلى هدف يحدده لبلوغ غايته.

ولما كنا نكتب عن الشخصية كباب فى كتاب عن أصول علم النفس باعتباره تمهيداً لمن يبدأ دراسة علم النفس أو يتخصص فيه، فقد اقتصرنا فى كتابتنا هذا الباب عن الشخصية على المادة السيكولوچية الأساسية، والمعلومات الجوهرية التى يتعين الإلمام بها

فى موضوع الشخصية على وجه خاص؛ كتعريفها ونموها وقياسها ونظرياتها الرئيسية، وانحرافاتها واضطراباتها وأمراضها النفسية. أما الكتابة المفصلة عن سيكولوچية الشخصية فيضيق بها المجال هنا، وتحتاج إلى كتاب مستقل يخصص لها.

ولهذا؛ فقد قسمنا هذا الباب إلى فصلين على النحو التالى:

الفصل الثامن: ومحوره الشخصية ونظرياتها وقياسها.

الفصل التاسع : ومحوره انحرافاتها واضطراباتها وأمراضها النفسية.

الفصل الثامن :

الشخصية : نظرياتها - نموها - قياسها

أهمية دراسة الشخصية :

يتفق أغلب العلماء الذين تعرضوا لدراسة الشخصية Personality على أنها تعتبر من أعقد الظواهر التى تعرض العلم لدراستها حتى الآن. ومع ذلك، فالشخصية الإنسانية من أهم الموضوعات التى يهتم كل منا بدراستها، سواء دراسة علمية منظمة (كما يحدث لعلماء ودارسى الشخصية والمعالجين النفسيين والموجهين المهنيين) أو دراسة عفوية (كما يحدث لنا جميعاً صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، عندما نقوم بالحكم على من نقابل من شخصيات مختلفة، أثناء نشاطنا اليومى ونبدى فيهم رأياً) . ذلك أن أحكامنا أو آراءنا فى الشخصيات؛ والتى تصدر منا، سواء فى مواقف رسمية أو غير رسمية، تعتبر من أهم الأمور التى لا مفر من اللجوء إليها طالما كنا نتحرك فى وسط اجتماعى، سواء فى عملنا أو لهونا، فى جدنا أو هزلنا. وكلما كان حكمنا على الشخصية التى نتعامل معها -أو رأينا فيها- أو فهمنا لها- قريباً من الصواب أفاد ذلك توافقنا وتوفيقنا أثناء تعاملنا مع تلك الشخصية وما يرتبط بها من قضايا بصفة خاصة، ومع الوسط الاجتماعى الذى نعيش فيه بصفة عامة.

ولا تكاد تتحقق للفرد درجة من التوفيق والنجاح فى سلوكه وفى محيطه ومجتمعه؛ إلا إذا تحقق له قدر من الفهم الصائب للشخصيات التى يتعامل معها أو يحتك بها. يصدق هذا حتى على الطفل الصغير، فهو إذا نظر إلى أبيه فلمس فى وجهه وتصرفاته ما يوحى إليه بأن الأب مرتاح للعب الذى يقوم به الطفل استمر فيه بحماس أكثر، أما إن لمس ما يوحى

إليـه بأن أبـاه ضيـق بلعبـه، برم به، كف عنه أو قلل منه أو جرى بعيداً عن أبيـه. وبهـذا يكون تصرف الطفـل مـوفقاً، طالما بناه على فهم صائب لشخصية أبيه وما يجول بداخلها من خـواطر واتجاهات؛ إذ فى الحالة الأولى يعود عليه تصرفـه بمزيد من تقـدير أبيـه له (والذى هو فى حاجـة ملحة ومستمرة له). وفى الحالة الثانية يؤدى تصـرفه إلى تفادى عقاب أبيه (والذى لاشك يخشاه). كما أن الرجل من عامـة الناس يركب السيارة فإذا به يحس أن سائقها شخص ينقصه الاتزان ويغلب عليه التهور والرعونة؛ فينزل من السيـارة قبل أن يصاب فى حادث يرتكبه هذا السائق المتهور. إنه يبنى تصرفه الناجح هنا على فهم صائب لشخصية السائق. والأمثلة لا يمكن أن يدركها الحصر على حاجتنا جميعاً صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، عامة ومتخصصين، رؤساء ومرءوسين... إلى فهم الشخصيات التى نحتك بـها ونتعامل مـعها، إذا كان لنا أن نحقق توفيـقًا فى حياتنا مع تلك الشخـصيات خاصة، ومع وسطنا الاجتماعى عامة. بل وفهم أنفسنا وداخلياتها -أيضًا- حتى نتعامل معها ولها تعاملاً ناجحاً يحقق لنا السلامة واستمرار الحياة والتوافق.

ومن حسن الحظ، بل ومن ضروريات بقائنا، أن هذا الحد اللازم من القدرة على فهم الشخصية التـى نحتـك بها نكتسبه بطريقـة عفويـة تراكمية ديناميـة منـذ الميـلاد عـن طريـق التنشئـة الاجتمـاعيـة ومـواقـف الحيـاة المختلفـة التـى يمر بهـا الواحـد منـا. ويـأتى دور المتخصصين والعلماء فى صقل هـذا الفهـم وتعميقـه وتنظيمـه عن طريق مايقومون به من دراسات وبحـوث نظرية وميدانية فى مجال الشخصية خاصة، وعلم النفس عامة.

تعريف الشخصية:

ومع هذه الأهمية الشديدة لفهم الشخصية الإنسانية ودراستها، فإننا لو حاولنا وضع تعريف دقيق شامل متفق عليه يوضح مفهومها وماهيتها ويبرز جوهرها لصعب علينا الأمر، بل استحال نظراً للتعقد الشديد للشخصية الإنسانية. ولعل من الظواهر الغريبة أن أكثر الأشياء معرفة لنا هى أصعب الأشياء فى تعريفها. فمن منا لا يعرف الشخصية؟ وعلى الرغم من ذلك من منا يستطيع أن يضع تعريفًا دقيقًا شاملاً للشخصية؟ إن هذه

الصعوبة لم تمنع المهتمين بدراسة الشخصية من وضع تعاريف لها اختلفت باختلاف نظرة كل منهم إلى الشخصية الإنسانية وباختلاف فهمه لها وتفسيره لسلوكها، حتى أن كالفن هول وجاردنر لندزى Calvin Hall and Gardner Lindzey فى مؤلفهما عن نظريات الشخصية يقرران «أن الشخصية تعرف بواسطة المفهومات التجريبية الجزئية التى هى جزء من نظرية الشخصية التى يستخدمها الملاحظ، إن الشخصية تتكون عياناً من مجموعة من القيم أو الحدود الوصفية Descriptive Terms التى تستخدم فى وصف الفرد موضوع الدراسة بحسب المتغيرات أو الأبعاد التى تحتل مكاناً مركزياً داخل النظرية المعينة المستخدمة». (هول ولندزى: ١٩٧٨، ٢٣).

وتتفاوت تعريفات الشخصية من التعريفات الدارجة الأقل تحديداً وشمولاً إلى التعريفات العلمية الأكثر تحديداً وشمولاً. فمن التعريفات الدارجة -على سبيل المثال- التعريف الذى يورده روس ستاجنر Ross Stagner «الشخصية هى تأثيرك على الناس الآخرين» (Stagner: 1961, 4). وفى ضوء هذا التعريف يمكن وصف فرد ما بأنه قوى الشخصية؛ أى له فعالية وتأثير كبير ونفوذ على الآخرين. أو بأنه ضعيف الشخصية؛ أى تسهل السيطرة عليه وتوجيهه مع ضعف تأثيره على الآخرين. كما يمكن وصف آخر بأنه جذاب أو عدوانى... إلخ. ويلاحظ على مثل هذه التعريفات أنها غير محددة، كما أنها تركز على جانب واحد أو جوانب قليلة مجزأة من جوانب الشخصية، وبالتالى لا تعطى الشخصية مفهومها المتكامل.

أما التعريفات العلمية (وهى الأكثر شمولاً، والأكثر تحديداً، والأكثر تكاملاً) فمنها تعريف لاهى الذى يقول فيه: «الشخصية هى المجموع الكلى The Sum Total للطرق النمطية للسلوك والنشاط والتفكير والشعور والإحساس التى تجعل من كل شخص وحدة منفردة». (Lahey, 2001, 460). ومنها أيضًا تعريف جيمس دريفر James Drever الذى يورده عن الشخصية فى قاموسه عن علم النفس، حيث يذكر: الشخصية اصطلاح يستخدم بمعانٍ مختلفة، بعضها دارج وبعضها سيكولوجى، وأفضل معنى للشخصية شمولاً وقبولاً هو التنظيم المتكامل والدينامى للخصائص الفيزقية والعقلية والخلقية والاجتماعية للفرد؛ كما يعبر عن نفسه أمام الآخرين فى مظاهر الأخذ والعطاء فى الحياة الاجتماعية،

وبتحليل أكثر فهى تبدو بصفة أساسية أنها تشمل الطبيعى والمكتسب من الدوافع والعادات، والميول، والعقد، والعواطف، والآراء والمعتقدات، كما تتضح من علاقاته بوسطه الاجتماعى...» (Drever: 1974, 208).

ولعل أفضل التعريفات العلمية للشخصية وأكثرها قبولا بين العلماء تعريف جوردون ألبورت G. Allport الذى وضعه عام ١٩٣٧، والذى يقول فيه «الشخصية هى التنظيم الدينامى داخل الفرد لتلك الأجهزة النفسجسمية Psychophysical التى تحدد أوجه توافقه الفريد مع بيئته» (Allport: 1961, 7). وفى مراجعة ألبورت لهذا التعريف فى عام ١٩٦١ أحدث فيه بعض التعديلات الطفيفة والتى لم تمس جوهره؛ إذ يقول: «الشخصية هى التنظيم الدينامى داخل الفرد لتلك الأجهزة النفسجسمية التى تحدد سلوكه وفكره المتميزين» (المرجع السابق، ٢٨). وهو فى هذه المراجعة لتعريفه لم يحدث أى تغيير سوى استبداله السلوك والفكر بتوافق الفرد مع بيئته؛ حيث إن السلوك والفكر يتضمنان أيضاً توافق الفرد مع نفسه. وفى رأينا أن السلوك والفكر ما هما إلا مظهران لتوافق الفرد مع بيئته ومع نفسه، كما أنهما وسيلة الفرد لهذا التوافق. هذا إلى جانب أن التفكير فى حد ذاته نوع من السلوك بمعناه الواسع، حتى أننا نعرف علم النفس بأنه العلم الذى يدرس السلوك.

ويستطرد ألبورت مناقشاً المفاهيم الأساسية فى تعريفه للشخصية، فيذكر ما يلى:

«**التنظيم الدينامى**: لقد وجدنا أن التعريفات التى لا تحتوى على التنظيم غير كافية، فالمسألة الأساسية فى علم النفس هى التنظيم العقلى (أى تكوين أنماط الأفكار والعادات التى توجه النشاط بصفة دينامية أو ترتيبها الهيراركى) فالتكامل وغيره من العمليات التنظيمية هى المسئولة بالضرورة عن نمو وتكوين الشخصية. ومن ثم، فإن التنظيم يجب أن يظهر فى التعريف، كما أن هذا الاصطلاح يتضمن -أيضاً- العملية العكسية فى اختلال التنظيم، خاصة فى تلك الشخصيات الشاذة التى تتسم بالاختلال الشديد فى تكاملها.

• **النفسجسمية**: يذكرنا هذا الاصطلاح بأن الشخصية ليست عقلية فقط ولا عصبية

(جسمية) فقط، فتنظيمها يستلزم تشغيل كل من (العقل) و(الجسم) فى وحدة لا يمكن فصمها.

«أجهزة: الجهاز (أى جهاز) هو مجموعة معقدة من العناصر فى تفاعل متبادل. فالعادة جهاز، وبالمثل -أيضاً- العاطفة، والسمة، والفكرة، وأسلوب التصرف. فهذه الأجهزة كامنة فى الكائن الحى حتى عندما لا تكون نشطة؛ فالأجهزة هى الإمكانية الكامنة لنشاطنا.

«تحدد: الشخصية هى شىء ما ويفعل شيئاً ما، فالأجهزة النفسجسمية الكامنة، عندما تستدعى للعمل، إما أن تدفع وإما أن توجه نشاطاً وفكراً معيناً. وكل الأجهزة التى تكون الشخصية تعتبر كاتجاهات محددة. فهى تمارس تأثيراً توجيهياً على كل أوجه النشاط التوافقى والتعبيرى الذى تصبح الشخصية متميزة به.

«المتميزان: كل السلوك والفكر مميزان للشخص...، وفريدان له. حتى أوجه النشاط والأفكار التى يبدو أننا نشترك فيها مع الآخرين هى فى جوهرها فردية ومميزة. حقيقة إن بعض أوجه النشاط والأفكار تكون أكثر خصوصية من غيرها، لكن ليس هناك ما يمكن أن يوجد منها معدوماً من الميزة الشخصية. ولهذا -وإلى حد ما- يكون استخدام اصطلاح متميزين فى تعريفنا إنما هو من نوع الإسهاب. ومع كل، فإن الإسهاب ليس بالضرورة شيئاً سيئاً، فهو يساعد على الفهم العميق.

«السلوك والفكر: هذان الاصطلاحان هما وعاء ليشمل أى شىء قد يفعله الفرد. وبصفة أساسية، فإن ما يفعله الفرد هو تحقيق التوافق مع بيئته. لكنه يكون من عدم الحكمة أن نعرف الشخصية فى ضوء التوافق فقط. فنحن لا نتوافق -فقط- لبيئتنا بل ونؤثر فيها. وأيضاً، نحن نجاهد لنتحكم فيها، وفى بعض الأحيان ننجح. فالسلوك والفكر، عندئذ، يمارسان معاً من أجل البقاء والنمو، فهما أسلوبان للتوافق والاستمرار يستثاران بواسطة الموقف البيئى التى توجد الشخصية فيه، وهما دائماً خاضعان للانتقاء وموجهان بواسطة الأجهزة النفسجسمية التى تتكون منها شخصيتنا» (المرجع السابق، ٢٨-٢٩).

وفى ختام مناقشة ألبورت للمفاهيم الواردة فى تعريفه يذكر لنا فى ص ٢٩-٣٠ السؤال الذى تستحق إثارته، وهو ما إذا كان للحيوانات -فى ضوء تعريفه هذا- شخصية. ويجيب عن هذا التساؤل بنعم. فمما لاشك فيه أن الحيوانات تتكون لها أشكال بدائية ومختلفة من الأجهزة النفسجسمية الموروثة والمكتسبة تؤدى إلى نشاط مميز وفريد. وإننا لا نعلم شيئًا عن فكرها. لكن تسليمنا بهذا لاينبغى أن يذهب بنا بعيداً أكثر من اللازم. فالتفرد النفسجسمى للحيوانات الدنيا هو بدائى -إلى حد كبير- ولا يمكن أن يصلح كنموذج مناسب للشخصية الإنسانية. بل إننا نغامر فنؤكد أن الفرق بين أى نوعين من الفقاريات الحيوانية ليس كبيراً كما هو بين أى إنسان وآخر. فالتعقيد الهائل للمخ الإنسانى فى المقابلة بالأمخاخ الأكثر بساطة للفقاريات الأخرى، يبدو أنه يؤيد هذا الذى نؤكده. ومن الطريف أن فرويد،أثناء حديثه عن الجهاز النفسى للشخصية الإنسانية وتقسيمه إلى هو وأنا وأنا أعلى، يشير إلى احتمال صدق هذا التقسيم على الحيوانات العليا فيقول: «وهذا التخطيط العام للجهاز النفسى يمكن أن يصدق بالمثل على الحيوانات العليا الشبيهة بالإنسان من الناحية النفسية. ويجب أن نسلم بوجود الأنا الأعلى حيثما وجدت فترة طويلة من الاعتماد الطفلى، كما هو الحال عند الإنسان. أما التمييز بين الأنا والهو فأمر لابد من التسليم به. ولم يتناول بعد علم نفس الحيوان المشكلة الشائقة التى عرضناها ههنا». (فرويد: ١٩٦٢، ١٧).

ومن الملاحظ على تعريف ألبورت -كما يرى ستاجنر- أنه لم يضمنه أى تحديد لنوع الأجهزة النفسجسمية التى أوردها فى تعريفه. وكان هذا ميزة من ميزات هذا التعريف؛ إذ أنه لو قام بتحديد هذه الأجهزة لوجب عليه أن يكون تحديده شاملاً، وليس هناك من يستطيع أن يحدد هذه الأجهزة على وجه الدقة والشمول.

ويرى ستاجنر (Stagner: 1961, 8) أن تعريف ألبورت يناسب كافة متطلبات الدراسة النفسية العلمية للشخصية حتى أنه اتخذه معياراً لكتابه عن الشخصية. كما يضيف ستاجنر، فى تعقيبه أسفل صفحة ٨ من مرجعه المشار إليه، أن القراءة الدقيقة للكتب الحديثة التى ألفها علماء النفس عن الشخصية تبين أن تعريف ألبورت هذا يغطى معظم ما يعنيه المؤلفون بالشخصية، على الرغم من ميلهم إلى تحاشى وضع تعريفات للشخصية.

ولو قارنا بين تعريف جوردن ألبورت هذا للشخصية والتعريف الذى أورده جيمس دريفر على أنهما أكثر تعريفات الشخصية قبولاً وشمولاً لوجدنا اتفاقًا كبيراً يمكننا تحديد أبرزه على الوجه التالى:

١ - فكرة التنظيم الدينامى المتكامل لجوانب الشخصية وأجهزتها تبدو مؤكدة فى كلا التعريفين.

٢ - الجوانب والأجهزة والخصائص الجسمية والنفسية واردة فى كلا التعريفين، وإن كانت واردة بشكل غير محدد فى تعريف ألبورت، وبشكل أكثر تحديداً وحصراً فى تعريف دريفر.

٣ - فكرة التفرد والتميز فى الشخصية تبدو فى كلا التعريفين؛ وإن كانت فى تعريف ألبورت تبدو أكثر وضوحاً عنها فى تعريف دريفر.

٤ - كون الشخصية تبدو فى تفاعلها وتوافقها مع الموقف البيئى الذى تمارس فيه عمليات الأخذ والعطاء والتوافق بعامة. فما أجهزتها إلا وسائلها الدينامية المتكاملة لتحقيق توافقها واستمرار بقائها.

وكما سبق أن أشرنا، هناك الكثير من التعريفات التى أوردها علماء النفس عن الشخصية، إلا أن المجال هنا لا يسمح بالاستطراد فى عرض ومناقشة مثل هذه التعريفات أو الإفادة منها، لهذا سوف نكتفى بما قدمناه من عرض ومناقشة لتعريفى ألبورت ودريفر على اعتبار أنهما أفضل تعريفين للشخصية قبولاً وأكثرهما دقة وشمولاً، ووفاءً لأغراض هذا الكتاب.

هذا، وينبغى أن نعود هنا لنؤكد على أن الشخصية الإنسانية لا تتكون -فقط- من أجهزة عقلية ونفسية. بل -وأيضًا- من أجهزة وهيئة جسمية تتفاعل جميعاً فى وحدة متكاملة هى الشخصية، وتتبادل جميعًا ومعاً التأثير والتأثر على نحو ما سوف نرى نموذجاً واضحاً لذلك عند الحديث عن الأمراض السيكوسوماتية فى الفصل التالى. وما تركيزنا فى

هذا الكتاب على الجانب النفسى من الشخصية إلا التزاماً بالتخصص تاركين لغيرنا من أطباء الجسم وعلماء الفسيولوجيا ما يقال عن الأجهزة الجسمية من وصف وتشخيص وعلاج.

نمو الشخصية ومبادئه

الشخصية فى تغير نسبى مستمر منذ بدء تكوينها، كنتيجة للتفاعل المستمر بين استعداداتها وإمكانياتها الموروثة وظروفها البيئية التى تعيش فيها متأثرة بها ومؤثرة فيها. فكل وقت يمر على الشخص، أو كل حدث يتعرض له، أو ظرف يحيط به يحدث تغييراً - قل أو كبر- فى هذا الكل الدينامى المتكامل من أجهزته النفسجسمية، والذى نصطلح على تسميته بالشخصية. ولعل تضمين فكرة التنظيم الدينامى للأجهزة النفسجسمية للفرد فى تعريف الشخصية خير تعبير عن هذه الحقيقة. وكلما كان التغيير الذى يحدث فى الشخصية نحو الأفضل وصفناه نمواً فى الشخصية أو فى أحد جوانبها، أما إن كان نحو الأسوأ وصفناه تدهوراً فى الشخصية أو فى أحد جوانبها.

فالذى يتتبع طفلاً منذ ولادته يلحظ ضروب النمو بشكل واضح فى شخصيته وجوانبها وأجهزتها المختلفة النفسية والجسمية مع مرور الزمن. فعلى سبيل المثال، يزداد وزن الطفل وطوله، وتتطور أجهزة الطفل الحركية والعضلية فتنمو وتزداد قدرة ومهارة، فبعد أن كان لا يقوى على الحبو نجده يجرى بمهارة. كما تنمو لديه القدرة اللغوية، فإذا بمحصوله اللغوى يزداد وفرة سواء من حيث الفهم أو الاستخدام نطقاً أو كتابة. كما ينمو ذكاؤه وتتفتح وتتمايز وتتزايد إمكانياته العقلية المختلفة مع تقدمه نحو الرشد. لكن، قد يحدث فى بعض الحالات -كنتيجة لظروف غير طبيعية أو سيئة- أن يتوقف جهاز أو جانب من الشخصية جسمياً كان أو نفسياً عن النمو قبل أن يكتمل نموه، أو قد يسوء الأمر أكثر من هذا فيتدهور عن ذى قبل (كما يحدث أثناء الإصابة بشلل الأطفال أو بمرض نفسى).

ولقد اهتم بعض علماء النفس بوضع تخطيط عام للمجرى الطبيعى الذى يسير تبعاً له نمو الشخصية مع تحديد مراحله. وبطبيعة الحال، سوف يختلف العلماء فى هذا الخصوص

باختلاف نظرياتهم عن الشخصية، وأيضاً باختلاف جوانب الشخصية التى يركز عليها العالم أكثر من غيرها فى نظريته.

مبادئ النمو العامة:

هذا وهناك مبادئ عامة يخضع لها نمو الشخصية الإنسانية، يحسن ألا تغيب عن أذهاننا ونحن بصدد هذا الموضوع. ومن أهمها:

١ – أن تقسيم نمو الشخصية إلى مراحل زمنية ليس تقسيماً حاداً وقاطعاً، إنما هو مجرد تقسيم اصطلاحى تعسفى لسهولة الفهم والدراسة. فليست هناك حدود زمنية فاصلة بين كل مرحلة نمو وأخرى، وإنما تتتابع مراحل النمو المختلفة بشكل تدريجى ومتداخل، بحيث تتزايد نسبة تواجد خصائص مرحلة بالنسبة إلى خصائص المرحلة السابقة عليها فتطبع الشخصية بطابعها؛ بما يعنى أن خصائص مرحلة النمو السابقة تبدأ تدريجياً فى التخلى عن سيادتها لتحل محلها خصائص المرحلة التى تتطور إليها الشخصية، دون أن يكون هناك تحديد زمنى قاطع.

٢ – أن وصول الشخصية إلى مرحلة نمو معينة لا يعنى الاختفاء الكامل لجميع خصائص مراحل النمو السابقة. بل إننا فى الواقع سوف نجد بقايا فى الشخصية من خصائص مراحل نموها السابقة. فكثيراً ما يلجأ الراشد السوى إلى العويل أو البكاء فى بعض المواقف، وهما خاصيتان طفيلتان، كما أن الراشد غير السوى قد يكثر لجوؤه إلى العويل والبكاء كمظهر من مظاهر اضطرابه النفسى.

٣ – أن نمو الشخصية عملية دينامية مستمرة تتناول جوانب الشخصية المختلفة ككل متكامل، وإن كنا نجد فى واقع الأمر أن بعض جوانب الشخصية تكون أسرع فى نموها فى بعض المراحل الزمنية من جوانب أخرى. فعلى سبيل المثال، يكون النمو الانفعالى أسرع من نمو الذكاء، كما أن نمو الذكاء يكون أسرع من نمو القدرات العقلية الخاصة (كالقدرة الميكانيكية أو اللغوية مثلاً).

٤ – أن نمو الشخصية لا يعنى زيادة أو إضافة بالنسبة لجميع جوانب الشخصية، بل يعنى

فى كثير من الحالات إضعافاً أو حذفاً لبعض الجوانب أثناء عملية النمو. فحبو الطفل يختفى أو يكاد مع إتقانه المشى، وتخييلات الطفل وتوهماته تقل إلى درجة كبيرة مع تقدمه فى النمو، مما يعنى أن عملية النمو ليست إضافة على طول الخط ولا هى حذف على طول الخط. بل هى فى الواقع عملية متكاملة من حذف وإضافة وزيادة فى بعض خصائص الشخصية حسب طبيعة ووظيفة هذه الخاصية أو تلك، ومدى حاجة النمو إلى تواجدها أو حذفها؛ إلى زيادتها أو نقصانها. حتى تصل الشخصية إلى أعلى درجة من النضج والكفاءة.

٥ – أن نمو الشخصية فى أساسه عملية تمايز فى خصائصها، مما يؤدى فى نهاية الأمر إلى زيادة عدد هذه الخصائص ووضوحها أكثر، وبالتالى تتميز الشخصية عن غيرها من بقية الشخصيات بالنسبة للخصائص المعينة كلما ازدادت نمواً. فعلى سبيل المثال، يكاد يتشابه أغلب الأطفال المولودين حديثًا فى مظهرهم وانفعالاتهم وتصرفاتهم وإمكانياتهم، ومع تقدمهم فى العمر يبدأ كل منهم فى التمايز الواضح عن زميله فى الخصائص السابقة. وبالمثل –أيضًا– فإن الوليد لا نكاد نميز فيه الانفعالات المتعددة التى نجدها فى الكبار؛ كالسرور والانقباض والهياج والغضب والخوف والتقزز، بل نجد انفعالاً عامًا يستجيب به لمختلف المثيرات هو الهياج، والذى يبدأ مع نمو الطفل فى التمايز إلى انفعالات متعددة تستقر ويكتمل تمايزها فيما بعد، مع نموه ونضجه.

النظريات النفسية في الشخصية ومراحل نموها

احتلت النفس البشرية منذ وعى الإنسان وحتى الآن مساحة كبيرة ومتزايدة من اهتمامه الفكرى ومباحثه العلمية. فلمعظم فلاسفة اليونان –ثم علماء المسلمين بعدهم– ثم أخيراً علماء الغرب والعالم بصفة عامة آراء أو نظريات خاصة فى النفس البشرية، تعكس تصور كل منهم لها وتفصل آراءه فيها. وتتناثر هذه الآراء وتلك النظريات فى مؤلفاتهم عامة، وتنتظم أحياناً أخرى فى مؤلفات خاصة بالنفس تحت عنوان النظريات النفسية.

فعلماء النفس -كما يقول راثاس: «يقومون بتنظيم بحوثهم عن السلوك والعمليات العقلية في نظريات. والنظرية هي إبانة (قول-إفادة-عرض Statement) تحاول شرح لماذا تكون الأشياء ما هي عليه، وتحدث بالطريقة التي تحدث بها. فنظريات علم النفس تناقش المبادئ التي تحكم السلوك والعمليات العقلية. والمبدأ Principle هو قاعدة أو قانون Rule or Law؛ مثل المبدأ القائل إنك من المحتمل أن تحصل على درجات أفضل إذا ذاكـــر أكثر. فالنظريات قد تشمل إفادات عن السلوك (مثل النوم أو العدوان)، وعمليات عقلية (مثل التذكر، والتخيلات والأوهام والتصورات الذهنية)، والعمليات البيولوجية مثل (تأثير الكيماويات في العقل). والنظرية النفسية ذات الفائدة هي التي تمكن المتخصص النفسي من التنبؤ بالسلوك والعمليات العقلية... فإذا لم تتنبأ النظرية بالسلوك أو العمليات العقلية بدقة فإن المتخصصين النفسيين يرون ضرورة مراجعتها أو تغييرها بأخرى تحل محلها.

«وفي علم النفس -كما هو الأمر في كثيرمن العلوم الأخرى- فإن كثيراً من النظريات تبين عدم كفاءتها في الشرح الدقيق للأشياء التي تهتم بها النظرية (موضوع النظرية) أو التنبؤ بها. وكنتيجة لهذا؛ فإن مثل هذه النظريات أصبحت مرفوضة أو تمت مراجعتها. فعلى سبيل المثال؛ اعتقد كثير من المتخصصين النفسيين في وقت ما أن تقلصات المعدة Stomach Contractions هي سبب الإحساس بالجوع. لكن لوحظ من بعد أن كثيراً من الناس يشعرون بالجوع حتى عندما لا تكون عندهم تقلصات معدية. وكنتيجة لذلك؛ فإن المتخصصين النفسيين يقتنعون الآن أن التقلصات المعدية هي واحدة فقط من عوامل كثيرة تؤثر على شهية الطعام (Rathus, 2003,6).

هذا؛ ونعرض فيما يلي -في عجالة سريعة؛ مبسطة ومختصرة- بعضاً من النظريات النفسية الهامة والشائعة في علم النفس.

١ - نظرة العرب قبل الإسلام :

فمن آراء العرب قبل الإسلام في النفس البشرية ما سبق أن ذكرناه في التمهيد لكتابنا

هذا من أن «العرب قد تجعل النفس التى يكون بها التمييز نفسين، وذلك أن النفس قد تأمره بالشىء وتنهى عنه، وذلك عند الإقدام على أمر مكروه، فجعلوا التى تأمره نفساً وجعلوا التى تنهاه كأنها نفس أخرى...» ومن ذلك قول حاتم الطائى الذى توفى قبل البعثة المحمدية (عام ٥٧٨م) والذى سبق لنا أن ذكرناه فى الفصل الأول:

أشاور نفس الجود حتى تطيعنى وأترك نفس البخل لا أستشيرها

(حاتم الطائى: ١٩٦٨، ٦٤)

ويوضح هذا أن العرب كانوا من أوائل من قال بتقسيم شخصية الفرد إلى أقسام والصراع بين هذه الأقسام. فقسم من النفس أو الشخصية يدفع إلى الشر، وقسم آخر يدفع إلى الخير، وهما فى الشخص الواحد كأنهما نفسان. وسترد نفس الفكرة بعد ذلك ببضعة عشر قرناً على يد واحد من أكبر علماء الطب والنفس هو سيجموند فرويد فيبلورها ويدلل على فكرة تقسيم النفس أو الشخصية والصراع بين أقسامها فى نظريته المعروفة بالتحليل النفسى، والتى نادى بها منذ أواخر القرن التاسع عشر، وسوف نتعرض لها بعد نظرية ابن سينا.

٢ – نظرية ابن سينا:

أما ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٦) والذى يعتبر من أكبر فلاسفة المسلمين وأشهر أطبائهم وعلمائهم، فقد ألف كتاباً خاصاً عن النفس هو الجزء السادس من الطبيعيات الذى ضمنه فى كتابه الكبير الشفاء. وقد عنيت الهيئة المصرية العامة للكتاب بتحقيقه ونشره. ويعتبر كتاب النفس لابن سينا من أهم ما ألفه المسلمون فى علم النفس، حتى أنه يعادل فى قيمته كتاب النفس لأرسطو. ويرى ابن سينا فى هذا الكتاب أن النفس جوهر روحى، وهى صورة الجسم، ولها أعمال متنوعة تلزم أن تكون لها قوى مختلفة. وهذه القوى تنقسم بوجه عام إلى قسمين: قوى ظاهرة (أو حواس ظاهرة) هى حواس اللمس والشم والذوق والسمع والبصر، وقوى باطنة (أو حواس باطنة) هى الحس المشترك (وهو الحس الذى يميز بين معطيات الحواس المختلفة). من قوى النفس المصورة والمفكرة والمتذكرة والمتخيلة والناطقة. «على أنه برغم فصله بين قوى النفس الظاهرة والباطنة يحرص على أن يشير

إلى أنهـا متداخلـة ومتعاونـة فيما بينهـا، فالإحساس متصـل بالخيـال، والذاكـرة لا عمل لها بدون الصـور الحسيـة، والنفس الناطقـة إنما تغذى عن طـريق الحـواس». (إبراهيم مـدكـور: ١٩٧٥، ى).

وفى تعمق ابن سينا فى شرح نظريته فى الإدراك الباطن يقول «وأما القوى المدركة من باطن فبعضهـا قوى تدرك صور المحسوسات. وبعضهـا تدرك معـانى المحسوسات. ومن المدركات ما يدرك ويفعل معاً، ومنها ما يدرك ولا يفعل ومنها ما يدرك إدراكاً أولياً، ومنها مـا يـدرك إدراكـًا ثانيـًا. والفـرق بين إدراك الصـور وإدراك المعنى أن الصـورة هـى الشىء الذى يدركـه الحس البـاطن والحس الظاهر معـًا. لكن الحس الظـاهر يدركـه أولاً ويؤديه إلى الحس البـاطن؛ مـثل إدراك الشـاة لصـورة الذئب، أعنى لشكله وهيئتـه ولونه، فـإن الحس الباطن من الشاة يدركها، لكن إنما يدركها أولاً حسها الظاهر. وأما المعنى فهو الشىء الذى تدركه النفس من المحسوس من غير أن يدركه الحس الظاهر أولا؛ مـثل إدراك الشاة للمعنى المضاد فى الذئب أو للمعنى الموجب لخوفها إياه، وهربها عنه من غير أن يدرك الحس ذلك البـتـة. فـالذى يدرك من الذئب أولاً الحس الظاهـر ثم الحس البـاطـن فـإنه يخص فى هذا الموضع باسم الصـورة، والذى تدركـه القوة البـاطنـة دون الحس فيـخص فى هـذا الموضـوع باسم المعنى» (ابن سينا: ١٩٧٥، ٣٥). ولعل كلام ابن سينا هذا يذكرنا بما يقوله علم النفس الحـديث عن الحس Sensation والإدراك الحـسـى Perception والانـفـعـال Emotion والعلاقات المتبادلة بين هذه الظواهر الثلاث.

٣ – نظرية فرويد Sigmund Freud:

لعل نظرية فرويد (١٨٥٦ – ١٩٣٩) فى النفس البشرية، والتى تعرف بنظرية التـحليل النفـسى Psychoanalysis هى أشـهـر نظريات علم النفس قـاطبـة. ولقـد بلغت من الذيوع والانتشار حداً جعل استـخدام مـفاهيمها الرئيـسيـة ذائعًا، ليس فقط فى علم النفس، بل – وأيضًا– فى كل مـا يتعلق بالإنسان من علوم وفنون؛ كالطب والاجتمـاع والأنثـروبولوچيا

والفلسفة والدين والأدب والمسرح والفنون التشكيلية.. بل إن كثيراً من المدارس والاتجاهات في تلك العلوم والفنون قد استمدت أصولها ومنطلقاتها من مبادئ التحليل النفسي ومقولاته ونظريته.

يرى فرويد في تشريحه للشخصية الإنسانية أنها تتكون من ثلاثة أجهزة تفاضلت عن بعضها، حيث تكوّن اللاحق منها عن سابقه وتولد منه. وهذه الأجهزة هي:

١ – الهو (أو الهى) Id.

٢ – الأنا Ego.

٣ – الأنا الأعلى Super Ego.

فالهو يمثل الشخصية عند ولادتها قبل أن تحدث عليها أية تحويرات أو تعديلات نتيجة لاحتكاكها بالبيئة ولتراكم خبراتها وتجاربها. وعلى ذلك، فالشخصية عند ولادتها لا تكون إلا هو فقط، ولا يكون الجهازان الآخران للشخصية (الأنا والأنا الأعلى) قد ظهرا بعد. والهو مستودع الطاقة والغرائز، ويعمل وفق مبدأ اللذة (طلب اللذة العاجلة بأية وسيلة وتفادى الألم دون اعتبار لواقع أو تفكير في عواقب). وبعد ولادة الطفل يبدأ احتكاكه بالواقع، ويتمثل مبادئه وينصاع لقيوده، حتى يتعايش معه فلا يسحقه الواقع إن هو تجاهله. ومن هنا، يتعدل جزء من الهو مكوناً الأنا الذى يبدأ في النمو مع زيادة الاحتكاك بالواقع.

ويعمل الأنا وفقًا لمبدأ الواقع (الامتثال للظروف والقيود التى يفرضها عليه العالم الخارجى). وتكون مهمته الأساسية المحافظة على الشخصية ضد ما تتعرض له من أخطار، وإشباع متطلباتها بشكل لا يتعارض مع الواقع وظروفه. ولهذا، فإن بعض نشاط الأنا يكون على المستوى الشعورى (كالإدراك الحسى الخارجى والداخلى والعمليات العقلية)، كما يكون بعض نشاطه لا شعورياً؛ كحيل الدفاع أو ميكانيزمات التوافق المختلفة من كبت وإسقاط وتكوين عكسى وإعلاء، وما إلى غير ذلك.

«ويتكفل الأنا، دون الهى والغرائز، بالدفاع عن الشخصية وتوافقها مع البيئة، وحل

الصـراع بين الكائن الحى والواقع، أو بين الحـاجـات المتـعـارضـة للكائن الحى، وينظم الوصـول إلى الشعـور وإلـى التعبيـر الحـركـى، ويضمـن الـوظيفـة التنسيقيـة للشخصيـة على حد تعبير نونبرج» (لاجاش: ١٩٥٧، ٦٣).

أما الأنا الأعلى فهو جانب من الأنا أصابه التعديل نتيجة اعتناق الشخص وامتصاصه الأوامـر والنواهى والمثل والمعـايير التى تأتيـه من أبويه وممثليـهم. ويطالب الأنا الأعلى الشخصية بالتـزام المثل والأخلاقيـات فى أفعالهـا وسلوكها. «لقد عزونا إليه (الأنا الأعلى) ثلاثـة وجـوه للنشـاط: مـراقبـة الذات، وإقـامـة المثل العليـا، والضـميـر الخلقى... إن الأنا الأعلـى فى نظرنـا، ممثل جميع القيود الخلقيـة، والمتكلم بلسان النزعـة إلى الكمال، وعلى الجملة فهو يمثل من الناحية النفسية مـا ألف الناس أن يسموه الصفات (السامية) فى الحياة الإنسانية...» (فـرويد: بدون تـاريخ، ٦٣). «ويتبـدى نشـاطه فى حـالـة الصـراع مع الأنـا بإنماء انفـعـالات تتـعلق بالوجـدان الخلقـى ولاسيـمـا وجـدان الإثـم. وبعض المواقف التى توجد فـى حـالات السواء؛ مـثل مـلاحظة الذات وانتقاد الذات والتـحـريم، تأخـذ فـى بعض الأمـراض العصـابيـة (الوسـواس ومـرض السـوداء) صـورة تبلغ من الخطورة بحـيث أن قلق الضمير يجـعل الحياة لا تـطاق. وفى هذه الحـالات من (المازوخـيـة النفسيـة)(*) تستحـوذ على الفرد حاجة لا تكبح إلـى اتهام الذات وعقابها، وإلى معانـاة العـذاب والفشل. ويتكـون الأنا الأعلى بتـقـمص الطفل للصـورة المثـاليـة للأب، وفـى الحـالات السـوية يكون الأب المتـقـمص هو الأب الممـاثل جنسيًـا. وينسب فـرويد الدور الرئيـسى إلى التـقـمصـات التى تصفى الصـراع الأوديبى. ولكن هـذه التقمصـات لا تمنـع من وجـود أخـرى أسبق منها أو لاحقـة عليها. وإذا لم يكتمل نمو الأنا الأعلـى اكتمالاً صحيحاً، فإنه يحتفـظ بتركيب مشـوه يتـصـف بمنطـق فج، فنرى الأنـا الأعلـى يعـامـل الأنا مـثلما يعـامل الأب القـاسى ابنه.. ومـوجـز القـول إن الأنا هو الـذى يوجـه وينظم عـمليـات توافـق الشـخـصـيـة مـع البـيـئـة

(*) المازوخية النفسية Masochism نوع من الانحراف أو الاضطراب النفسي يستعذب فيه الفرد ويتلذذ من إيقاع الأذي علي نفسه. وهذا عكس اضطراب آخر هو السادية Sadism، حيث يتلذذ الفرد من إيقاع الأذي علي الغير (علي ما سوف نذكره في الفصل التاسع من هذا الكتاب).

والتوترات التى تحفز الشخصية، وتحقيق إمكانياتها. وفى وظيفته هذه، لا يتقيد الأنا بانعدام أو نقص المقدرات فحسب، بل يتقيد -كذلك- بارتشاحات الهو والأنا الأعلى اللذين يحملانه على العمل فى اتجاه غير ملائم أو يمنعانه عن العمل. كما يحدث -مثلاً- فى صور إجبار التكرار، والمازوخية النفسية». (لاجاش: ١٩٥٧، ٦٣-٦٥).

ويحدثنا حسين عبد القادر عن معاناة الأنا فى قيامه بما هو ملقى عليه من وظائف وواجبات فيقول: «يحارب الأنا إذن فى جبهات ثلاث، أو عله يخدم أسيادا ثلاثة: الهو، والأنا الأعلى، والواقع، ذلك المبدأ الذى يخضع له ليناهض مبدأ اللذة-اللالذة الذى هو ديدن الهو، الأمر الذى يكسبه السيادة على مطالب الدفعات الغريزية، فيسمح لها بالإشباع أو الإرجاء حتى تواتيه ملابسات موائمة؛ وبخاصة أنه يعمل حسابا للأنا الأعلى الذى انفصل عنه، ومثل قوة ثالثة ضاغطة يمتد فيها أثر الوالدين، لكنه فى حالة النوم يفقد صلته بالعالم الخارجى إلى حد ما ويصبح بين شقى رحى؛ الهو برغباته الجموح والأنا الأعلى بمعاييره التى تختلف درجة شدتها...» (حسين عبد القادر: ٢٠٢، ١٦١-١٦٢). وهكذا فإن الأنا يكون مصيباً فى فعله إذا تمكن من التوفيق بين المطالب المتباينة للهو والأنا الأعلى ومقتضيات الواقع، فى نفس الوقت. وإذا كان من الصعب -كما هو مأثور- خدمة سيدين فى نفس الوقت، فلنا أن نتصور الصعوبة التى يواجهها الأنا فى خدمته لثلاثة.

كما يرى فرويد أن الشخصية فى نموها تمر بمراحل تحدد علاقاتها بالعالم الخارجى والداخلى وأساليبها فى إشباع دوافعها. ويحسن «أن نقرر منذ البدء أن التحليل النفسى يرى أن تصور مراحل النمو إنما هو تصور نسبى.. ذلك أن كل المراحل تمضى متدرجة وتتداخل الواحدة فى الأخرى. فكأن مراحل النمو -والحال هذه- إنما هى وسيلة التحليل النفسى لرصد كثرة الظواهر وردها فى سلم منذ الميلاد النفسى مضيا إلى الرشد. وهو عين ما يشير إليه فرويد فى آخر ما خطه عندما يرى خطأ التمييز بين مراحل النمو تمييزاً قاطعاً، فقد تظهر واحدة منها بجانب الأخرى أو تتداخل معها أو تتلاقى جميعها» (حسين عبد القادر: ٢٠٠٩، ١١١٧). وعلى هذا، فهو (فرويد) يرى «أن الطفل يمر عبر سلسلة من

المراحل المتفاضلة ديناميا خلال السنوات الخمس الأولى، ويليها لمدة تستمر خمس أو ست سنوات فترة الكمون، فيتحقق قدر من الثبات والاستقرار الدينامى، وعند بداية المراهقة تنبعث القوى الدينامية مرة أخرى، ثم تستقر بعد ذلك بالتدريج مع الانتقال من المراهقة إلى الرشد. ويرى فرويد أن السنوات القليلة الأولى من الحياة حاسمة فى تكوين الشخصية.

«وتتحدد كل مرحلة من النمو خلال السنوات الخمس الأولى من حيث أساليب الاستجابة من جانب منطقة محددة من الجسم. ففى خلال المرحلة الأولى التى تستمر قرابة العام يكون الفم هو المنطقة الرئيسية للنشاط الدينامى، ويلى المرحلة الفمية نمو الشحنات والشحنات المضادة حول وظائف الإخراج، ويطلق على ذلك اصطلاح المرحلة الشرجية. ويستمر ذلك خلال العام الثانى، ثم يتبعه المرحلة القضيبية حيث تصبح الأعضاء الجنسية المناطق الشهوية الأساسية، ويطلق على هذه المراحل الثلاثة الفمية، والشرجية، والقضيبية المراحل قبل التناسلية. ثم يمر الطفل بعد ذلك بفترة الكمون التى تطول، وهى المسماة بسنوات الهدوء من الناحية الدينامية، وتميل الدفعات فى هذه الفترة إلى البقاء فى حالة كبت، وتؤدى عودة النشاط الدينامى فى المراهقة إلى تنشيط الدفعات قبل التناسلية. فإذا أتم الأنا بنجاح إزاحة هذه الدفعات والتسامى بها، فإن الشخص ينتقل إلى مرحلة النضج الأخير؛ المرحلة التناسلية.

«**المرحلة الفمية** Oral Phase: إن المصدر الرئيسى للذة المستمدة من الفم هى لذة الأكل، فتناول الطعام يتضمن تنبيها لمسيا للشفتين وللتجويف الفمى، كما يتضمن كذلك الابتلاع أو البصق والرفض إذا كان الطعام غير سار. وعندما تظهر الأسنان بعد ذلك تستخدم فى العض والمضغ. وهذان الضربان من النشاط الفمى، ابتلاع الطعام والعض، هما الأنماط الأولية لكثير من السمات الشخصية التالية التى تنمو فيما بعد. فاللذة المستمدة من الابتلاع الفمى قد تزاح إلى أشكال أخرى من الابتلاع أو الاستدماج؛ كاللذة المستمدة من اكتساب المعرفة أو الامتلاك. والشخص الساذج مثلاً، شخص مثبت على المستوى الفمى الاستدماجى للشخصية، فهو يكاد يبتلع كل شىء يذكر له. وكذلك قد يزاح العض أو العدوان الفمى ليأخذ صورة السخرية أو حب الجدال والمناقشة. وإن مختلف صور

الإزاحة والتسامى، وكذلك صور الأساليب الدفاعية حيال الدفعات الفمية البدائية، تمكن هذين النمطين الأولين للوظيفة الفمية من إعطاء أساس شبكة شاسعة من الاهتمامات والاتجاهات والسمات الشخصية.

هذا، بالإضافة إلى أنه طالما أن المرحلة الفمية تقع فى وقت يكون الطفل معتمداً كلية تقريباً على أمه، للحفاظ على حياته؛ إذ تسهر على تربيته ورعايته وحمايته مما يؤرقه، فإن ذلك يؤدى إلى تكوين مشاعر الاعتماد لديه فى هذه الفترة. وتميل مشاعر الاعتماد هذه إلى البقاء والاستمرار طوال الحياة بالرغم من ضروب النمو والتطور التالية للأنا، وتكون على أهبة العودة مرة أخرى عندما يستشعر الشخص الخطر وعدم الأمن.

،المرحلة الشرجية Anal Phase: بعد أن يتم هضم الطعام تتراكم المخلفات فى النهاية السفلى للقناة الهضمية، لتطرد بواسطة الفعل المنعكس عندما يبلغ الضغط على عضلات الشرج العاصرة مستوى معيناً، إن طرد الفضلات يزيل مصدر الضيق ويحدث شعوراً بالراحة. وعند البدء فى التدريب على النظافة، وهذا يحدث -عادة- فى السنة الثانية من العمر، يلتقى الطفل بأول خبرة حاسمة له مع التنظيم الخارجى لدفعة غريزية. فعليه أن يتعلم إرجاء اللذة التى يحققها له تخلصه من توتره الشرجى. وتتوقف نتائج هذا التدريب على أسلوب الأم الخاص فى تدريبه على النظافة (ضبط التبرز) ومشاعرها حيال التبرز. وقد يكون لذلك نتائج بعيدة المدى على تكوين سمات وقيم نوعية. فإذا كانت طريقة الأم شديدة الصرامة والكبت، فقد يقبض الطفل على فضلاته ويصاب بالإمساك. فإذا عمم هذا الأسلوب فى الاستجابة إلى مجالات من السلوك فقد ينمو لدى الشخص خلق قابض، فيصبح عنيداً شحيحًا، كما قد يلتمس الطفل تحت وطأة أساليب الكبت مخرجًا لغضبه بأن يخرج فضلاته فى أوقات غير مناسبة على الإطلاق. وذلك هو النموذج الأولى لجميع أشكال السمات الطاردة، أو القاذفة؛ كالقسوة والانغماس فى الشهوات، والميل إلى التدمير، ونوبات الغضب والهياج والفوضى وانعدام النظام، وما تلك إلا نماذج قليلة تذكر. ومن الناحية الأخرى، فإنه إذا كانت الأم من النوع الذى يتودد إلى طفله ليخرج فضلاته، ويسرف فى مديحه عندما يستجيب لذلك، فإن الطفل تتكون لديه فكرة قوامها أن

النشاط الإخراجى بأسره (التبرز) بالغ الأهمية، وقد تكون هذه الفكرة أساس الخلق والإنتاج. ويقال إن العديد من السمات الأخرى ترجع جذورها إلى المرحلة الشرجية.

المرحلة القضيبية Phallic Phase : فى هذه المرحلة من نمو الشخصية تحتل المشاعر الجنسية والعدوانية المرتبطة بوظائف الأعضاء التناسلية مركز القلق. فمشاعر اللذة المرتبطة بالاستمناء وبحياة التخييل لدى الطفل، والتى تصاحب نشاطه الشهوى الذاتى تهيئ السبيل لظهور عقدة أوديب. وقد اعتبر فرويد كشف عقدة أوديب واحداً من أكبر اكتشافاته.

وتستمد عقدة أوديب اسمها من ملك طيبة الذى قتل أباه وتزوج بأمه.

وعقدة أوديب Oedipus Complex فى إيجاز هى شحنة جنسية تستهدف الوالد من الجنس المقابل وشحنة عدوانية تستهدف الوالد من نفس الجنس؛ فالصبى يرغب فى امتلاك أمه واستبعاد أبيه على حين ترغب الفتاة فى امتلاك أبيها وإبعاد أمها، وتعرب هذه المشاعر عن نفسها فى تخيلات الطفل أثناء الاستمناء وفى التذبذب بين الأفعال الدالة على الحب والأفعال المعربة عن التمرد والثورة إزاء والديه.

ويتميز سلوك الطفل فيما بين الثالثة والخامسة من عمره إلى حد كبير، بفاعلية عقدة أوديب. وهى بالرغم من تعديلها وما تلقاه من كبت بعد الخامسة من العمر، تظل قوة فعالة فى الشخصية طوال الحياة؛ مثال ذلك أن الاتجاهات نحو الجنس المقابل، ونحو ذوى السلطة من الأفراد تكون -بدرجة كبيرة- رهن العقدة الأوديبية.

ويختلف تاريخ عقدة أوديب ومصيرها لدى الذكر عنه لدى الأنثى. فالطفل من كلا الجنسين يحب الأم فى البداية؛ لأنها تشبع رغباته، وينقم على الأب باعتباره غريماً له فى حب الأم وتبقى هذه المشاعر لدى الصبى وتتغير لدى الفتاة. ولنتناول أولاً تتابع الوقائع التى يتميز بها التطور الأوديبى لدى الذكر.

إن اشتياق الصبى المحرم للأم ونقمته المتزايدة على الأب تؤدى به إلى الصراع مع

والديه وبخاصة مع الأب. فهو يتخيل أن منافسه المتسيد سيوقع به الأذى وقد تتأيد مخاوفه بسبب ما يصدر من والد ناقم ومعاقب من التهديدات، ويتركز خوفه مما قد يوقعه به الأب من أذى حول أعضائه التناسلية؛ إذ أنها مصدر مشاعره الجياشة بالشهوة، وهو يخشى أن يستأصل والده الغيور هذه الأعضاء المسيئة، ويؤدى الخوف من الخصاء، أو كما يسميه فرويد حصر الخصاء Castration Anxiety إلى كبت الرغبة الجنسية في الأم والعدوان نحو الأب. كما تساعد -كذلك- على حدوث التعيين الذاتي(*) من جانب الابن بأبيه، ويحصل الصبي بتعيينه الذاتي بالأب على الإشباع البديل لدفعاته الجنسية نحو الأم. وفي نفس الوقت، تتحول مشاعره الشهوية الخطرة نحو الأم إلى مشاعر رقيقة حنون لا خطر منها نحوها. كذلك، يؤدى كبت عقدة أوديب في النهاية إلى آخر مراحل تطور الأنا الأعلى. ويقول فرويد إن الأنا الأعلى هو وريث عقدة أوديب لدى الذكر، فهو سد منيع حيال الرغبة في المحارم والعدوان.

وإنّ تتابع الوقائع فيما يتعلق بتطور عقدة أوديب لدى الأنثى وحلها أكثر تعقيداً. ففي المقام الأول، تغير الفتاة موضوع حبها الأصلي وهو الأم بموضوع جديد هو الأب -أما سبب حدوث ذلك فيتوقف على استجابة البنت بالشعور بخيبة الأمل عندما تكتشف أن الصبي يمتلك عضواً جنسيًا ممتداً هو القضيب على حين تمتلك هي تجويفًا، ويؤدى هذا الاكتشاف الصادم إلى عدد من العواقب الهامة. فهي -في المقام الأول- تعتبر أمها مسئولة عن حالة الخصاء هذه مما يضعف شحنتها الخاصة بأمها. ثم ثانياً، تحول حبها إلى أبيها لامتلاكه العضو القيم الذي تأمل مشاركته له. غير أن حبها لأبيها ولغيره من الرجال يمتزج -كذلك- بمشاعر الحسد لامتلاكهم شيئاً تفتقر إليه. إن حسد القضيب Penis Envy هو المقابل الأنثوي لحصر الخصاء لدى الصبي، ويطلق عليهما معًا اسم عقدة الخصاء Castration Complex. إنها تتخيل أنها فقدت شيئًا ذا قيمة على حين يخاف الصبي من أن يتعرض لفقده. وتعوض المرأة -إلى حد ما- افتقارها إلى القضيب عندما

(*) أي التوحد أو التقمص Identification .

تنجب طفلاً، وبخاصة إذا كان هذا الطفل صبياً.

إن عقدة الخصاء لدى البنت تؤدى إلى ظهور عقدة أوديب عن طريق إضعاف الشحنة المتجهة إلى الأم وتكوين شحنة تستهدف الأب. وعلى عكس عقدة أوديب لدى الصبى التى تكبت أو تتغير بفعل حصر الخصاء، فإن عقدة أوديب لدى البنت يغلب أن تستمر، وإن كانت تتعرض لبعض التعديلات بسبب العوائق الواقعية التى تحول بينها وبين إشباع رغبتها الجنسية فى الأب، ولكنها لا تتعرض للكبت القوى كما هو الشأن بالنسبة للولد. إن هذه الاختلافات فى طبيعة عقدتى أوديب والخصاء هى أساس كثير من الفروق السيكولوچية بين الجنسين.

ويزعم فرويد أن كل شخص هو -بحكم تكوينه- مزدوج الجنسية، فكل جنس ينجذب إلى أعضاء نفس الجنس، كما ينجذب إلى أعضاء الجنس الآخر، وهذا هو الأساس التكوينى للجنسية المثلية Homosexuality وإن كانت الدفعة الجنسية المثلية لدى معظم الناس كامنة. وتؤدى حالة الازدواج الجنسى هذه إلى تعقيد عقدة أوديب إذ تجعلها تتضمن شحنات جنسية تستهدف الوالد من نفس الجنس. ونتيجة ذلك أن تصبح مشاعر الابن حيال الأب والبنت حيال الأم ذات طابع وجدانى ثنائى(*) بدلاً من أن تكون ذات طابع أحادى. ويؤيد افتراض الثنائية الجنسية بحوث الغدد الصماء التى تبين -بصورة قاطعة تقريباً- أن الهرمونات الجنسية الذكرية والأنثوية توجد معاً لدى كل من الجنسين.

إن ظهور عقدتى أوديب والخصاء وتطورهما هما الواقعتان الرئيسيتان فى الفترة القضيبية، وهما واقعتان تتركان العديد من المخلفات فى الشخصية.

المرحلة التناسلية Genital Phase : تتميز شحنات الفترة قبل التناسلية بأنها ذات طابع نرجسى؛ ويعنى هذا أن الشخص يحصل على اللذة من تنبيه واستخدام نفس جسمه.

(*) الطابع الوجداني الثنائي هو ما يعرف بالتناقض الوجداني Ambivalence ،حيث يجمع الفرد بين حب شخص بعينه وكراهيته في نفس الوقت، وسواء في ذلك أكانت العاطفتان شعوريتين أم لا شعوريتين، أم كانت إحداهما شعورية والأخري لا شعورية.

وأن شحناته تستهدف الآخرين؛ لأنهم فحسب يتيحون له أشكالاً إضافية من اللذة (الجنسية) . وأثناء المراهقة يتجه بعض هذا الحب أو النرجسية ملتمساً مسارات تقود إلى اختيار موضوعات أصلية، فالمراهق يشرع فى حب الآخرين تحدوه دوافع الإيثار وليس لمجرد أسباب أنانية أو نرجسية؛ فالجاذبية الجنسية، والتنشئة الاجتماعية، والنشاطات الجماعية، والتخطيط المهنى، والتأهب للزواج وتكوين أسرة تبدأ جميعها فى الظهور. وعند نهاية المراهقة تصبح هذه الشحنات الغيرية المطوّعة للأهداف الاجتماعية على قدر طيب من الثبات والاستقرار فى صورة الأشكال المعتادة من الإزاحة والتسامى والتعيين الذاتى. وبذا، يتحول الشخص من طالب اللذة والنرجسية الطفلية إلى راشد يستهدف الواقع ويتمثل المجتمع، إلا إنه يجب ألا نعتقد أن الدفعات قبل التناسلية تحل محلها الدفعات التناسلية، بل الأحرى أن شحنات المراحل الفمية والشرجية والقضيبية تمتزج بالدفعات التناسلية وتتآلف معها. إن الوظيفة البيولوچية الأساسية للمرحلة التناسلية هى التكاثر، وتساعد الجوانب السيكولوچية على تحقيق ذلك بما تتيحه من قدر معين من الاستقرار والأمن.

وبالرغم من حقيقة هى أن فرويد قد ميز بين أربع مراحل فى نمو الشخصية فإنه لم يفترض أن هناك أى موقف قاطع أو انتقال مفاجئ من مرحلة إلى أخرى. فالتنظيم النهائى للشخصية يمثل إسهامات جميع هذه المراحل الأربع». (هول ولندزى: ١٩٧٨، ٧٥-٨٠).

ومستفيدة مما ذكره حسين عبد القادر فى رسالته للماچستير -على نحو ما ذكرت- تقول نجية إسحاق عبد الله: «وقد تكلم فرويد عن مرحلة فمية، ومرحلة الليبيدو والأمراض المصاحبة للتثبيتات المختلفة فى الشكل المعروض على هيئة جدول والذى أضاف إليه فينيكل تعديلات طفيفة. (نجية إسحق عبد الله: ١٩٩٠، ٦١).

ويرى فرويد أن هناك مرحلة تتوسط بين المرحلة القضيبية والمرحلة التناسلية هى مرحلة الكمون Latent Phase والتى تمتد تقريباً من السادسة حتى بداية البلوغ. وفى

مراحل التنظيم الليبيدي والأمراض المقابلة للتثبيتات علي المراحل المختلفة

مراحل التنظيم الليبيدى	الأمراض المقابلة للتثبيتات على المراحل المختلفة
المرحلة الفمية الباكرة	فصـــام
المرحلة الفمية المتأخرة	هوس واكتئاب - إدمان
المرحلة السادية الشرجية الباكرة	بارانويـــا
المرحلة السادية الشرجية المتأخرة	عُصاب قهـرى
المرحلة الإنسالية الباكرة (القضيبية)	هستيريـا
المرحلة الإنسالية	الســـــواء

مرحلة الكمون هذه تهدأ دوافع الطفل ونزعاته الجنسية والعدائية، وتستقر نفسه تمهيداً لفورتها وهياجها مرة أخرى مع البلوغ، ثم تستقر نفسه ودوافعه تدريجياً فى مسيرة نموه نحو الرشد. كما يرى فرويد أن اضطرابات الشخصية وانحرافاتها وأمراضها النفسية ترجع كلها إلى اضطرابات وصعوبات وعثرات وسلبيات وصدمات صادفها الشخص فى سلسلة نموه النفسى ، خاصة فى مراحل سنواته الخمس الأولى.

أما رأى فرويد فى دوافع الشخصية فإنه يرجعها جميعاً إلى غريزتين أساسيتين هما:

غريزة الحب Love Instinct وغريزة العدوان Aggression Instinct (واللتين تعرضنا لهما فى الفصل الخامس عند الحديث عن الغرائز) . فكل سلوك البشر إما أن يرجع إلى دوافع العدوان أو إلى دوافع الحب أو إلى مزيج منهما فى الأغلب؛ وإن بدا أحدهما أوضح. ولقد توسعت نظريته فى مفهوم العدوان ليشمل أى نزعة تهدف إلى التدمير أو الإضرار بالذات أو بالآخر أو بالأشياء، مهما كان لون الضرر أو درجة العدوان. وبالمثل -أيضاً- توسعت نظريته فى مفهوم الحب، بحيث يشمل كافة دوافع البناء والود والإفادة والجنس والمتعة والحياة، سواء التى يوجهها الفرد نحو ذاته أو نحو غيره من أشخاص أو أشياء. ويرى فرويد أن غريزة العدوان كغريزة الحب فطرية فى الإنسان لا يحتاج إلى

تعلمها ولا يهدأ إلا بإشباعها، فهما مغروزتان فى تكوينه الفطرى الطبيعى.

ولقد دلل بأمثلة كثيرة من التاريخ، ومن الواقع المعاش، ومن التحليل المتعمق لكثير من جوانب سلوكنا وعاداتنا على صدق نظريته فى الدوافع. والنظرة الفاحصة المتأنية ستثبت لنا إمكانية إدخال أى نزعة أو دافع إنسانى تحت واحدة من هاتين الغريزتين. كما أن نظرة شاملة لما يحدث فى عالمنا اليوم، وحدث فيه بالأمس، من أنتشار للتوتر والحروب بين الجيران وغير الجيران من الدول، وتعرض العالم لحربين طاحنتين خلال ربع قرن من الزمان، وفشل محاولات نزع أسلحة الدمار الشامل حتى الآن، واستنزاف الدول الغنية المستمر لاقتصاديات الدول الفقيرة والصعوبات الشديدة والوقت الطويل الذى يستغرقه عقد صلح بين الأفراد أو المجتمعات المعادية مقارنة بالسهولة والسرعة البالغة فى وصولهم إلى الخصومات الشديدة؛ كل ذلك -ولاشك- يؤكد أن التحليل النفسى على حق فى نظرياته الخاصة بما تنطوى عليه النفس البشرية من نزعات ودوافع عدوانية إلى جانب نزعات الحب والبناء فيها بل تكون أقوى منها وأخطر تأثيراً (Taha, Farag: 1986. 30)، بل إن كثيراً من العادات والتصرفات الفردية والمشكلات، والأمراض الاجتماعية؛ كإدمان المخدرات على سبيل المثال، لا يمكن فهمها بمعزل عن دوافع العدوان والتدمير الذى يلحقه الفرد بنفسه وبغيره وبمجتمعه عندما يتعاطى أو يروج أو يتجر فى هذه المخدرات، وتلك السموم. ويمكن أن يقال مثل هذا عن تفسير الجرائم التى ترتكب، ومظاهر العنف المختلفة التى نسمع كثيراً عنها مثل ظواهر الاختلاسات والفساد والإرهاب والبلطجة والعنف المدرسى.. التى تنتشر فى المجتمع؛ مما يلفت نظر كثير من الباحثين النفسيين للتعمق فى دراستها وتشخيصها، والبحث عن عواملها ومسبباتها، فينتهوا بها إلى غريزة العدوان المتأصلة فى النفس البشرية (انظر على سبيل المثال: محمد خضر عبد المختار: ٢٠٠٧، ١٠٨-١٣٢).

بل إن كثيراً من آراء فرويد ونظريته نجد مصداقا لها إن تمعنا فى أنفسنا وفيمن حولنا.

فكثيراً مما نقوم به من سلوك، وما نتصف به من صفات يمكن فهمه وتفسيره فى ضوء نظرية فرويد وآرائه. ففى بيت الشعر الذى ينسب لحاتم الطائى قبل الإسلام، الذى أوردناه سابقاً، ما يؤكد حقيقة انقسام النفس الواحدة إلى أكثر من جانب، وكأن كل جانب منها نفس مستقلة. فحاتم الطائى يقرر أن ذاته تحتوى على نفسين: نفس الجود ونفس البخل، وأن لكل منهما رغبة تضاد الأخرى؛ فالأولى تدفعه للجود والثانية تدفعه للبخل، وهو يغلّب الأولى على الثانية فيأخذ جانب نفس الجود ويطيعها، ويقف ضد نفس البخل ويعصيها. ففى هذا التصوير العميق الدقيق الذى صور به الشاعر العربى الجاهلى شخصيته نجد مكونات النفس الثلاثة التى قال بها فرويد واضحة جلية. فنفس البخل تقابل «الهو» لدى فرويد؛ أى تلك التى تدفع الإنسان لإرضاء شهواته وأغلبها ذميم مكروه، ونفس الجود تقابل «الأنا الأعلى» التى تحض على الإيثار ومكارم الأخلاق وتدفع إليها حتى لو كانت فى ذلك خسارة أو أضرار تعود على الفرد (كتبديد ماله وممتلكاته فى حالة الكرم)، أما ذاته التى تطيع نفس الجود فتمثل «الأنا» التى عليها أن تحسم الصراع بين النفسين، والتى تتكفل بإدارة الشخصية كلها وتنظيم سلوكها والتحكم فى نشاطها وتحقيق إمكانياتها، مراعية الظروف المعاشة والواقع الحى الذى يحيط بها عندما تشرع فى تنفيذ مطالب الهو أو الأنا الأعلى أو الواقع. ولا ينبغى أن تأخذنا الدهشة لاكتشاف العرب، منذ ما قبل الإسلام، حقيقة انقسام النفس والصراع بين أجزائها قبل فرويد. فالحقيقة العلمية تكتشف أكثر من مرة وفى أكثر من عصر؛ وإن نسبت إلى فرد بعينه فى زمن بعينه. كما حدث بالنسبة لفرويد، حيث امتاز بنظرة أعمق وأشمل للنفس البشرية، وبقدرة أعلى على تنظيم المعلومات فى صورة نظرية عامة متكاملة دعمها بكثير من الوقائع والمشاهدات والأمثلة. وفوق كل هذا امتاز بجرأة أكبر على إذاعة الحقيقة والدفاع الشجاع عنها دون خشية الاتهامات والتجريح. مما تسبب فى ذيوع نظريته وانتشارها، واستمراريتها، وعمق تأثيرها فى الفكر البشرى على نحو ما سبق أن أشرنا.

٤ – نظرية يونج Cal Jung:

جمع فرويد حوله عدداً غير قليل من الزملاء والتلاميذ الذين انبهروا بأفكاره ومكتشفاته ونظريته فى التحليل النفسى؛ خاصة ما تعلق منها باللاشعور، وبدوره فى تكوين الأمراض النفسية، وبأساليب وحيل الدفاع، وبفكرة الصراع، وبالدوافع النفسية الكامنة وراء سلوك الإنسان حتى ما تعلق منها بهفواته وبأحلامه، وبظاهرة النمو ومراحله... وما إلى ذلك من مكتشفات وآراء هزت ميدان علم النفس وتطبيقاته، وميدان العلاج النفسى وأساليبه.

وعادة ما ينشق على زملاء الرأى العلمى الواحد بعضهم لخلاف فى الرأى حول مسألة حيوية فى علمهم، فقد يرى بعضهم إسرافاً من الجماعة فى التركيز على فكرة معينة لا يرتضيها، أو إهمالاً من جانبها لفكرة يراها شديدة الأهمية، ولا يوافقه عليها كثير من الزملاء... وهكذا، كان كارل يونج (١٨٧٥–١٩٦١) أحد تلاميذ فرويد وزملائه البارزين فى حركة التحليل النفسى (حتى أن فرويد كان ينظر إليه على أنه خليفته؛ وعندما أسس فرويد الاتحاد الدولى للتحليل النفسى عام ١٩١٠ جعل يونج أول رئيس له، وظل رئيساً له حتى أبريل عام ١٩١٤، حيث اسقال من رئاسته، ثم انسحب من عضويته فى أغسطس)، إلا أنه اختلف مع فرويد وانشق عنه حوالى عام ١٩١٢، مكوناً مدرسة خاصة فى التحليل النفسى سماها بعلم النفس التحليلى Analytical Psychology تمييزاً لها عن التحليل النفسى.

ولقد اتفق يونج فى مدرسته مع فرويد فى كثير من آراء مدرسة التحليل النفسى؛ كاللاشعور والصراع النفسى والوظيفة النفسية للسلوك الإنسانى؛ إلا أنه اختلف معه فى بعض التفاصيل؛ كاللاشعور الجمعى الذى نال كثيراً من التركيز عند يونج، وكالاتجاهات الانطوائية والانبساطية، وكفكرة القناع والشخصية العامة، وكتحديده للوظائف النفسية الأربع، والتى هى التفكير والوجدان والإحساس والحدس. ويعتبر يونج أقرب المنشقين إلى التحليل النفسى الفرويدى، فهو لم يبعد عنه كثيراً، ولم يكن خلافه معه جذرياً، وإن كانت الأيام تعمق بعض الخلافات وتزيدها تأصيلاً. وفرويد لم ينكر معظم ما قال به يونج، وإنما كان ينظر إليه نظرة مجملة فى مجرى الحياة النفسية للإنسان وتكوين شخصيته.

فيونج يرى أن هناك لاشعوراً جمعياً Collective Unconscious يوجد لدينا جميعاً، ورثناه عن البشرية التى انتهى إلينا تطورها الحالى. وأن اللاشعور الجمعى هو الذى يوحد بين التكوين النفسى لنا كبشر، حيث يوجد بداخل كل منا قدر ما من هذا اللاشعور الجمعى، وإن كان هذا القدر يختلف من فرد لآخر، فكأن اللاشعور الجمعى هو المخلفات النفسية التى ورثناها عن أسلافنا من البشر، وهو الذى يحمل لنا الحكمة والمعرفة والخبرة التى أتتنا عن الجدود؛ كالتماس ثدى الأم للرضاعة عند الولادة، والخوف من الظلام والمجهول، واستخدام الرموز فى الأحلام التى نراها فى نومنا، وذلك كنتيجة لخبرات متراكمة مر بها الجنس البشرى وحفرت بشكل فطرى فى عقولنا وتكويننا النفسى. واللاشعور الجمعى فى نفس كل منا يقابل لا شعوره الخاص Personal Unconscious، وهو الذى يتكون من ترسيبات وردود فعل الخبرات الخاصة التى يمر بها كل منا، وهى بطبيعتها تختلف من فرد لآخر. ويرى يونج أن اللاشعور الجمعى أقوى تأثيراً فى نفس الفرد وأخطر أثراً فى تكوين شخصيته من لاشعوره الفردى أو الخاص، بل هو الذى يلون هذا اللاشعور الفردى وينضح عليه.

كما يرى يونج أن هناك اتجاهين تأخذهما النفس البشرية فى موقفها وتعاملها مع غيرها: الاتجاه الانبساطى Extraversion والاتجاه الانطوائى Introversion. ففى الاتجاه الانبساطى يميل الفرد إلى أن يتعامل مع غيره وتكون له علاقات معه، أما الاتجاه الانطوائى ففيه يميل الفرد إلى الانطواء على نفسه والانعزال عن غيره. ويوجد الاتجاهان معاً فى الشخصية الواحدة، إلا أن أحدهما يكون أكثر ظهوراً وسيادة نتيجة التكوين الخاص للاشعور الشخص المعين.

أما فكرة القناع Persona فقد استعارها يونج من مصطلحات المسرح، وقصد بها فى نظريته أن لكل منا قناعاً شخصياً يبدو به أمام الناس، وغالباً ما يكون مغايراً لحقيقته التى يعرفها هو عن نفسه، فكأنه يظهر بشخصية معينة ذات صفات معينة وتصرفات، وأخلاق معينة أمام الناس، اتفاقاً مع تقاليد المجتمع، وتمشياً مع ما يرتضيه الناس، واستجابة

لمقتضيات الواقع. وهذا خلاف شخصية الفرد الخاصة، والتى يحاول إخفاءها عن الآخرين خلف الواجهة الاجتماعية التى يظهر بها. فكأن الفرد أمام الآخرين يقوم بتمثيل شخصية ليست هى حقيقته، كما يقوم الممثل بتمثيل شخصية فى رواية مسرحية. ومن هنا استعار يونج من المسرح فكرة القناع.

ومن الجدير بالذكر أن يونج كان من أقرب علماء النفس والمحللين النفسين اتجاهاً ونزعة نحو الفكر الغيبى فى حديثه بالذات عن اللاشعور الجمعى، وفى أفكاره التى حاول أن يضفى فيها على التحليل النفسى صبغة أخلاقية. بل إن انشقاقه عن فرويد كان أصلاً بسبب قناعة تكونت لدى يونج بأن فرويد -فى بعض ما ذهب إليه- قد تجاهل الاعتبارات الدينية والقيم الخلقية، مما أثار عليه حفيظة بعض رجال الدين، خاصة لإبرازه دور دافع الحب فى النفس البشرية، وتأثيره فى سلوك الناس السوى والمرضى على السواء. ويبلغ يونج فى سنوات عمره الأخيرة درجة عالية فى النزعة الغيبية والأصالة فى نفس الوقت عندما يقدم مع بولى Pouli فى عام ١٩٥٥ مبدأ للعلية السببية يسميانه مبدأ التزامن Synchronisn يفسران به اتفاق حدوث أشياء مرتبطة فى نفس الوقت؛ كأن يرد على بالك شخص ما ثم إذا به يحضر لزيارتك، أو تحتاج فى لحظة ما إلى مساعدة فرد بعينه فإذا به يحضر إليك فى التو، أو تحلم بشىء فى نومك فإذا به يتحقق عندما تستيقظ... مع مراعاة أن هذا التوافق يبدو كأنه صدفة لا تعلله مسببات تربط بين هذه الأمور الاتفاقية. وكأن مجرد التفكير فى شىء ينتج عنه حدوثه الفعلى فى عالم الواقع؛ أى أن الفكر يؤدى إلى التجسيد. ولقد فسر يونج وزميله بهذا المبدأ بعض ما يشاع عن توارد الخواطر وعن تحقق رؤى الأحلام. ولعل فى تاريخ حياة يونج ما يفسر ولعه بالأمور الغيبية والميتافيزيقية، فلقد كان والده من رجال الدين المسيحى ويعمل قسيساً، ولقد رأى يونج حلماً جعله يتحول من دراسة اللغويات إلى دراسة العلوم الطبيعية والطب؛ فاستجاب للحلم مباشرة، وانتهى به ذلك إلى دراسة الطب الذى برز فيه وقاده إلى أن يصبح من أعلام التحليل النفسى البارزين، ومؤسس إحدى مدارسه الرئيسية.

٥ – نظرية أدلر Alfred Adler:

كان أدلر (١٨٧٠–١٩٣٧) تلميذاً هو الآخر وزميلا فى حركة التحليل النفسى التى أنشأها وقادها فرويد. وكان منها فى مركز مرموق، حيث كان رئيساً لجمعية فيينا للتحليل النفسى حتى عام ١٩١١، حين انشق مكوناً مع بعض زملائه جماعة البحث الحر فى التحليل النفسى ثم غير اسمها فى العام التالى لكى تصبح جماعة علم النفس الفردى Indi-vidual Psychology . وقد اكتسبت بعد ذلك أنصاراً كثيرين فى مدرستها.

ويُعد أدلر أكثر بعداً عن آراء فرويد من زميلهما يونج. ويأخذ أدلر على نظرية فرويد أنها تركز على علية السلوك والبحث فى مسبباته فى حين أن نظريته تركز على غائية السلوك. فإذا كان فرويد فى بحثه الرئيسى يحاول أن يتتبع المسببات والعلل التى أدت إلى أن يتم هذا السلوك بهذه الكيفية، وبالتالى معنى هذا السلوك بالنسبة للشخصية التى قامت به أو تقوم به، فإن أدلر –من الجانب الآخر– لا يعير هذا اهتماماً كبيراً، إنما يتجه مباشرة نحو دراسة الهدف من هذا السلوك.

وتركز نظرية أدلر على أن إرادة القوة وإرادة التفوق وإرادة بلوغ الكمال وقهر الإحساس بالدونية أو بالنقص أو بالقصور، هى الدافع الرئيسى لدى الإنسان. وكأن الإنسان فى سعيه إنما يهدف إلى شىء واحد هو أن يكون محققاً لذاته فى مجتمعه كأفضل ما يكون التحقيق. والتحقيق الأفضل هذا للذات سوف يكون معياره مختلفاً بين الأفراد، فبينما يراه البعض فى القوة والغنى والأمور الأنانية الضيقة، كما يفعل المرضى النفسيون، يراه آخرون فى الأهداف النبيلة ذات الطابع الاجتماعى، والتى تؤدى إلى تقوية المجتمع ومساعدته على النهوض وتحقيق تقدمه ورفعته، كما هو الحال لدى أصحاء النفوس، ومن هنا تتبدى نزعة أدلر الاجتماعية الواضحة.

ولذا، فإن نظرية أدلر فى نمو الشخصية تتركز فى أن كلاً منا يبدأ منذ ولادته مراحل نموه الهادفة تصاعدياً إلى بلوغ الكمال أو الاقتراب منه. فالفرد فى نموه يتجه دائماً إلى

أعلى متخطياً مراحل الضعف محققاً القوة. فمثلاً، الطفل الصغير تدفعه رغبة جامحة نحو تحقيق الانتصار والقوة والنجاح وإثبات الذات، وهذا ما يساعده فى نموه. كما أن لكل منا أسلوبه الخاص ورؤاه الذاتية فى كيفية تحقيق قوته أو إثبات وجوده، فهذا يحققها أو يريد أن يحققها عن طريق التفوق العلمى، وهذا يحققها، أو يريد أن يحققها عن طريق السيطرة على الآخرين، وهذا يحققها، أو يريد أن يحققها عن طريق الغنى، وهذا يحققها، أو يريد أن يحققها عن طريق الشهرة...

«ويعطى أدلر لشعور الفرد بالقصور (أو بالدونية أو بالنقص) الدور الأكبر فى سعيه نحو القوة والسيطرة لتعويض هذا القصور ورد الاعتبار إلى الذات، ومن أشهر الأمثلة للتعويض عن القصور (أو الدونية أو النقص) ديموستينس (٣٨٤-٣٢٢ق.م.) Demosthenes، الذى يعتبر أشهر خطباء اليونان قاطبة، والذى كان نطقه ضعيفاً غير سليم، ويقال إنه كان يضع الحصى فى فمه وهو يتكلم أو يخطب حتى تخرج كلماته صحيحة النطق» (فرج عبد القادر طه: ١٩٩٣، ٥٣٦-٥٣٧).

وهكذا، ركز أدلر وأبرز أهمية التعويض الزائد، على نحو ما عرضناه (فى الفصل الخامس) كحيلة أو وسيلة من حيل التوافق التى تلجأ إليها الشخصية لعلاج موقف الإحباط الذى تكون فيه. فلقد دارت سيكولوچية أدلر على محور التعويض الزائد كحيلة تلجأ إليها الشخصية فى مراحل نموها المختلفة لقهر عقدة النقص Inferiority Complex التى تصيبها من جراء إحساسها بالضعف والعجز. وبهذا تعيد الشخصية ثقتها بنفسها عن طريق امتلاك القوة والسيطرة والتفوق، فتندفع فى أنشطة معينة، وتهيئ لنفسها من الظروف ما يمكنها من ذلك، على نحو ما فعل ديموستينوس.

٦ – نظرية مازلو Abraham Maslow:

ينظر مازلو (١٩٠٨ – ١٩٧٠) نظرة كلية دينامية إلى الشخصية، إلا أنه يركز على الجانب الخير فى الإنسان؛ الجانب الإيجابى الطيب فيه. ويعيب على زملائه من علماء

النفس اهتمامهم بدراسة الظواهر السلبية فى الإنسان؛ كالانحرافات والمرض وإهمالهم دراسة الجوانب الإيجابية فيه. ولذا فهو يهتم بالإنسان فى سوائه أكثر من اهتمامه به فى اضطرابه وانحرافه. ويقدم تصوره هذا فى كتاب صدر عام ١٩٥٤ بعنوان الدافعية والشخصية Motivation and Personality. وعندما يتعرض فى هذا الكتاب لنمو الشخصية يقول: «لنحاول أن نقدم الآن فى إيجاز وبصورة عقائدية جامدة -فى البداية- جوهر هذا التصور الحديث لنمو الإنسان الصحيح من وجهة النظر الطبية النفسية. أول هذا وأكثره أهمية الإيمان القوى بأن للإنسان طبيعة جوهرية خاصة به، له هيكل من البناء السيكولوچى يمكن تناوله ومناقشته بصورة مماثلة لتناولنا لبنائه الفيزيقى. إن له حاجات وقدرات وميولاً لها أساسها التكوينى النشوئى، وبعضها يميز الجنس البشرى بأسره على طول الثقافات وعرضها، وبعضها الآخر خاص بكل فرد على حدة مقصور عليه وحده، وهذه الحاجات فى إطارها إما خيرة أو محايدة ولكنها ليست شريرة. ثانياً، ويتضمن ذلك تصورنا أن النمو الكامل والسوى والصحيح المنشود يقوم على تحقيق هذه الطبيعة وإشباع هذه الإمكانيات وفى النمو فى اتجاه النضج، فى الاتجاه الذى تحدده هذه الطبيعة الجوهرية الخفية غير الظاهرة، والتى تبدو بغير وضوح، والتى تنمو -أيضاً- من الداخل دون حاجة إلى الخارج ليعطيها شكلها. ثالثاً، نتبين الآن بوضوح أن علم النفس المرضى - بصفة عامة- ينتج عن إنكار طبيعة الإنسان الجوهرية أو إحباطها أو تحويلها عن وجهتها الأساسية. ما هو -إذن- الخير بهذا التصور؟ إنه أى شىء يؤدى إلى هذا النمو المرغوب فى اتجاه تحقيق الطبيعة الداخلية للإنسان، وما هو الشر أو الشاذ إذن؟ إنه أى شىء يحبط أو يعوق أو ينكر الطبيعة الأساسية للإنسان. وما هو المقصود بالمرض النفسى؟ إنه كل ما يؤدى إلى اضطراب أو إحباط أو انحراف بمسار تحقيق الذات. ما هو العلاج النفسى أو أى علاج من أى نوع يتصل بهذا الأمر؟ إنه أية وسيلة من أى نوع تساعد الشخص على العودة إلى طريق تحقيق الذات، والنمو عبر المسارات التى تمليها طبيعته الداخلية (عن هول وليندزى: ١٩٧٨، ٤٢٣).

وقد كتب فى نفس العام (١٩٥٤) مقالاً هاماً آخر بعنوان مشكلات الشخصية ونمو الشخصية أضاف فيه إلى افتراضاته الأساسية هذا القول: «هذه الطبيعة الداخلية ليست قوية غلابة منزهة عن الخطأ كغرائز الحيوان، بل إنها ضعيفة وهشة، كما يسهل على العادة والضغط الثقافى والاتجاهات الخاطئة حيالها أن تقهرها، ولكن بالرغم من ضعفها فإنها لا تختفى لدى الشخص السوى، وربما حتى لدى الشخص المريض. إنها تبقى كامنة وإن أنكرها صاحبها» (المرجع السابق، ٤٢٤).

«وقد قدم مازلو نظرية فى الدافعية الإنسانية تفترض أن الحاجات تنتظم فى تدرج من الأولوية أو القوة (وهو ما يعرف بالتدرج الهرمى للحاجات والتى أشرنا إليها فى الفصل الخامس من هذا الكتاب). فعندما تشبع الحاجات صاحبة القوة الكبرى أو الأولوية، فإن الحاجات التالية فى التدرج الهرمى تبرز وتلح فى طلب الإشباع هى الأخرى، وعندما تشبع نكون قد صعدنا خطوة أخرى على سلم الدوافع. ويلاحظ أن هذا التدرج الهرمى لا مكان فيه للحاجات المعادية للمجتمع والمحدثة للأذى. إن الإنسان يمكن أن يصبح معادياً للمجتمع فقط، عندما ينكر عليه هذا المجتمع إشباع حاجاته الفطرية» (المرجع السابق، ٤٢٤-٤٢٥).

«ويعتقد مازلو أنه إذا اقتصرت دراسة الأخصائيين النفسيين على العجزة والعصابيين ومتخلفى النمو، فإنهم بالضرورة سيقدمون علماً عاجزاً. ولكى يمكن نمو علم للإنسان أكثر اكتمالاً وشمولاً يصبح حتماً على علماء النفس دراسة الذين حققوا إمكاناتهم إلى أقصى مداها. وهذا هو ما فعله مازلو، فقد قام ببحث متعمق وشامل لجماعة من الأشخاص حققوا ذواتهم... بعضهم كانوا شخصيات تاريخية؛ كلنكولن وجفرسون وبيتهوفن...إلخ، على حين كان البعض الآخر لازال على قيد الحياة عندما قام بدراستهم؛ كروزفلت وأينشتين والبعض من أصدقائه ومعارفه. وقد درسهم مازلو دراسة إكلينيكية لاكتشاف الخصائص المميزة لهم عن بقية الناس العاديين، فظهر له أن تلك هى السمات المميزة لهم:

١ – أن لهم اتجاهاً واقعياً.

٢ – أنهم يتقبلون أنفسهم والآخرين والعالم الطبيعى كما هو.

٣ – أنهم على قدر كبير من التلقائية.

٤ – أنهم يتمركزون حول المشاكل بدلاً من أن يتمركزوا حول أنفسهم.

٥ – أنهم على قدر من الانفصال والحاجة إلى الخصوصية.

٦ – أنهم يتسمون بالاستقلال الذاتى والاستقلال عن الآخرين.

٧ – أن تقديرهم للأفراد والأشياء متجدد، دون نمطية جامدة.

٨ – أن لمعظمهم خبرات روحية أو غيبية عميقة دون أن تكون بالضرورة ذات طابع دينى.

٩ – أنهم يتوحدون بالبشرية كلها.

١٠ – أن علاقاتهم الحميمة بأشخاص قليلين يكنون لهم حبًا عظيماً يغلب أن تكون عميقة وذات طابع انفعالى عميق دون أن تكون سطحية.

١١ – أن اتجاهاتهم وقيمهم تكون ديموقراطية.

١٢ – أنهم لا يخلطون بين الغاية والوسيلة.

١٣ – أن روح المرح لديهم ذات طابع فلسفى، وليست ذات طابع عدائى.

١٤ – أنهم يولعون أشد الولع بالخَلق والابتكار.

١٥ – أنهم يقاومون الامتثال للثقافة والخضوع لها ؛ (المرجع السابق، ٤٢٥–٤٢٦).

هذا، ومما نأخذه على مازلو الحدة الواضحة فى اتهام زملائه من علماء النفس ومنظريه بالتركيز على الجانب السلبى وغير السوى والشرير فى شخصية الإنسان دون

الاهتمام بدراسة النواحى الإيجابية فى شخصيته. وهو اتهام -لاشك- ظالم إلى حد كبير. ذلك أن علماء النفس يهتمون بدراسة الجوانب الإيجابية فى الشخصية الإنسانية؛ كالذكاء والقدرات والإبداع والموهبة... بمثل ما يهتمون بدراسة جوانبها السلبية، لا يهمهم فى ذلك إلا اكتشاف الحقائق المتعلقة بهما. فعلى سبيل المثال، هناك دراسات كثيرة تركز على الجوانب الإيجابية فى الشخصية؛ كالدراسة التتبعية الشهيرة التى قام بها تيرمان L.Terman ومعاونوه اعتباراً من ١٩٢٢، واستمروا فيها إلى ما بعد وفاة تيرمان نفسه فى عام ١٩٥٦ على عينة من موهوبى الذكاء زادت عن الألف، بهدف التعرف على نمو خصائصهم الشخصية والعقلية وتطور سماتهم النفسية، ومدى توفيقهم فى مستقبلهم العلمى والمهنى ومختلف النواحى الإيجابية فى شخصياتهم وأخلاقهم... (Terman: 1975, 25-42). كما قامت كوكس Cox (المرجع السابق، ٢٨) ببحث نشرت نتائجه عام ١٩٢٦ درست فيه ذكاء ٣٠٠ فرد من المشهورين عالمياً، حيث تبين لها أن متوسط نسب ذكائهم كان ١٥٥ (وكما سبق أن ذكرنا عند الحديث عن الذكاء أن من تزيد نسبة ذكائه عن ١٤٠ يعتبر عبقرياً). بل إن الدراسات التى بدأت بالاضطرابات النفسية والجوانب السلبية فى الشخصية أدت فى النهاية إلى فهم أصح للسواء النفسى وللظواهر الاجتماعية والثقافية المختلفة، على نحو ما عرضنا فى النظريات النفسية السابقة، خاصة ما تعلق منها بالتحليل النفسى أو اشتق منه.

٧ – النظريات العاملية للشخصية Personality-Factor Theories:

[نظرية العوامل الخمسة الكبري للشخصية]

وهى نظرية أو نظريات متعددة تستخرج بالعمليات الإحصائية المعروفة بالتحليل العاملى Factorial Analysis؛ وما يخرج عنه من عوامل تمثل سمات أو عناصر الشخصية الأساسية. ومن أهم هذه النظريات ما يعرف بنموذج العوامل الخمسة الكبرى للشخصية.

ويقوم نموذج العوامل الخمسة للشخصية، على تصور مؤداه أنه يمكن وصف الشخصية

وصفا اقتصادياً كاملاً من خلال خمسة عوامل (كبرى) هى: العصابية، والانبساط، والانفتاح على الخبرة، والمسايرة، ويقظة الضمير (فيصل عبد القادر يونس وإلهام عبد الرحمن خليل:٢٠٠٧، ٥٥٤). ولكل عامل من هذه العوامل الخمسة سمات يستوعبها العامل؛ فالإنبساط Extraversion يستوعب «الدفء Warmth، حب التجمع Gregari- ousness، التوكيدية Assertiveness، النشاط Activity، البحث عن الإثارة Excitement Seeking، الانفعالات الإيجابية Positive Emotions». والمسايرة Agreableness، تستوعب «الثقة Trust، الاستقامة Straightforwardnes، الإيثار Altruism، الطاعة أو الانصياع Compliance، التواضع Modesty، الليونة Tendermindedness، والضمير Conscien- tiousness يستوعب الكفاءة Competence، النظام Order، الإحساس بالواجب Dutiful- ness، الاجتهاد فى الإنجاز Achievement Striving، الانضباط الذاتى Self-discipline، الروية Deliberation، والعصابية Neuroticism تستوعب القلق Anxiety والعدائية Hostility، الاكتئاب Depression، الوعى بالذات Self-consciousness، الاندفاعية Im- pulsivity، الهشاشة (القابلية السريعة للمرض) Vulnerability، والانفتاح على الخبرة Openness to exprience يستوعب الخيال Fantasy، تذوق الجماليات Aesthetics، المشاعر Feelings، الأفعال Actions، الأفكار Ideas، القيم Values. (المرجع السابق، عن الجدول ٥٥٥ – ٥٥٦).

وقد أجريت دراسات فى أنحاء مختلفة من العالم للتحقق من مدى صدق هذا النموذج والاتفاق على شيوعه وقبوله، فتأيد صدق هذا النموذج، وكانت هذه البحوث فى صالحه إلى حد كبير. كما قام فيصل عبد القادر يونس وإلهام عبد الرحمن خليل فى مصر بالتحقق من هذا النموذج فى بحث ميدانى على عينة مقدارها ٢٥٢ طالبا من الذكور و٢٨٩ طالبة من الإناث بمجموع٥٤١ من كلية آداب جامعة القاهرة، وكلية آداب جامعة المنوفية، وكلية تربية جامعة كفر الشيخ، مستخدمين ترجمة لقائمة عوامل الشخصية، الخمسة لكوستا وماكراى Costa and Mccrae (1992) «باعتبارها أكثر مقاييس عوامل الشخصية الخمسة استخداماً فى دراسات التحقق عبر الحضارى المعاصرة، والأكثر ثباتاً وصدقًا.. كما

ترجمت إلى أكثر من ٤٠ لغة أو لهجة، وتجمعت معلومات كافية عن ملامحها السيكومترية..»(المرجع السابق، ٥٦٢-٥٦٣) والقائمة (المقياس) التى استخدمها الباحثان المصريان لقياس العوامل الخمسة الرئيسية للشخصية كانت عبارة عن ترجمة ببعض التصرف لتناسب البيئة المصرية؛ وتتكون فى الأصل من ٢٤٠ بندا أضافا إليها ٦٠ بندا آخر. وقبل استخدامها قاما بإجراء دراسات تقنينية مختلفة عليها للاطمئنان إلى صلاحيتها للاستخدام.

وقد أبانت نتائج يونس وخليل عن «درجة عالية من التشابه بين العينة المصرية والعينات الأخرى موضع المقارنة فى ثلاثة عوامل: العصابية، والمسايرة، ويقظة الضمير، بينما تقل درجة التشابه فى حالتى الانبساط والانفتاح على الخبرة. وهكذا تأيد ما استنتجاه من نتائج البحوث التى أجريت فى أنحاء مختلفة من العالم حول العوامل الخمسة الرئيسية للشخصية، من وجود اتفاق كبير بينها؛ حيث يقول الباحثان: «واستنتج الباحثون من تلك النتائج إمكانية استعادة نموذج العوامل الخمسة المستخرجة من عينة التقنين الأمريكية فى معظم الثقافات، مما يعطى تأييدا قويًا لفرض الأنثروبولوچى الألمانى أدولف باستيان Adolf Bastian فى القرن التاسع عشر، والقائل بفكرة الوحدة النفسية للجنس البشرى، ويقدم دليلاً قوياً على الأساس البيولوچى للشخصية» (المرجع السابق، ٥٦٢).

هذا؛ وقد قام الباحث الليبى على كاظم بدراسة ميدانية مبكرة نسبيًا لبحث مؤشرات انطباق نموذج العوامل الخمسة الكبرى فى الشخصية على البيئة العربية؛ أشار فيها إلى أن هذا النموذج يُعد «من أهم النماذج وأحدثها التى فسرت سمات الشخصية (Goldberg, 1993، ومن أكثرها قبولا فى الوقت الراهن (عبد الخالق والأنصارى، ١٩٩٦)، كما أنه من أكثرها اتساقا ورصانة لما يحاول بلوغه من اقتصاد Parsimony ودقة وتكامل (كاظم: ١٩٩٨). ويفترض هذا النموذج وجود خمسة عوامل فقط تستطيع أن تفسر نسبا كبيرة (تتجاوز الثلثين) من التباين Variance فى مجال الشخصية الواسع النطاق (آلاف السمات أو أكثر من ذلك)... (و) يهدف النموذج إلى البحث عن تصنيف علمى -Taxono

my محكم لسمات الشخصية...» (على مهدى كاظم: ٢٠٠١، ٢٧٧) . وفى مناقشة نتائج بحثه على عينة من ١٠٥٣ طالباً وطالبة بجامعة قار يونس بالعام الجامعى ١٩٩٥-١٩٩٦؛ ذكر: «أن النتائج التى توصل إليها البحث الحالى (المؤشرات السيكومترية) تتفق مع نتائج الدراسات السابقة... وهذا الاتفاق يدل بلا شك على أن نموذج العوامل الخمسة الكبرى فى الشخصية يتمتع بالصدق عبر الثقافات». (المرجع السابق بصفحة ٢٩٣) . ومن هذا يتضح أن دراسة فيصل يونس وإلهام خليل سابقة الذكر جاءت مؤيدة لذلك.

ومن الجدير بالذكر أن بعض مراجع علم النفس تطلق عبارة «سمات الشخصية الكبرى» على عوامل الشخصية الكبرى. وليس هناك فارق فى المضمون العلمى طالما أن علم النفس يعرف سمة الشخصية بأنها النمط الثابت نسبياً للسلوك؛ أى للتفكير، والتصرفات والشعور والانفعال والذى يميز الفرد كشخصية متفردة.

خاتمة عن نظريات الشخصية

وهناك حكمة تقول إن النظريات صادقة فيما أثبتت كاذبة فيما نفت. ومن إيماننا بهذه المقولة فنحن لا نرى تناقضاً بين ما عرضنا من نظريات فى النفس البشرية. فكل منها ركزت على جانب أو عدة جوانب معينة وأهملت غيرها. ولقد أتاح لها التركيز اكتشاف حقائق خاصة بكل منها، وإن بدت أحياناً متعارضة إلا أنها فى الحقيقة متكاملة، بحيث تسد كل منها النقص الذى يعيب الأخرى. فمثلاً؛ إذا كانت نظرية فرويد قد تجاهلت الأحكام التقييمية الاجتماعية فقد كان ذلك سعياً من فرويد إلى اكتشاف الحقيقة وإبرازها مجردة موضوعية دون أن تلويها القيم والمواضعات الاجتماعية المختلفة، فتزيفها، أو تقمعها، أو تكبتها، أو تحرفها. فكان جريئاً فى قول ما يراه حقاً دون خشية أن يتعارض مع قيم المجتمع، أو أن يساء فهمه، أو تُجَرّح نواياه. ومن هنا مضى فى إعلان مكتشفاته، بانياً صرح التحليل النفسى الضخم غير هياب أو متردد. ثم جاء يونج فأعطى للتحليل النفسى بعداً روحياً فخفف من جفاف الموضوعية عند فرويد. وجاء معه أدلر فأمد التحليل النفسى بمفهوم الغائية التى تنطبق على سلوك الفرد متخذاً القوة والسيطرة غايته، كما تنطبق على

نشاط المجتمع ككل متخذاً مصالحه العليا فى القوة والنفوذ والبناء والتقدم وقهر المشكلات الاجتماعية والتخلف. ولا تتعارض الغائية -التى ركز عليها أدلر- مع السببية التى ركز عليها فرويد. فما سببية السلوك أو وظيفته إلا تحقيق الغاية التى يسعى الفرد إليها، حتى وإن أخطأ سبيله السوى، فاضطربت لذلك نفسه، وأصيبت بما تسمى الاضطرابات النفسية.

قياس الشخصية

تُقاس سمات الشخصية وخصائصها واستعداداتها وديناميانها وتُدرس باستخدام أنواع مختلفة من المقاييس والاختبارات النفسية؛ نشير فى عجالة إلى نماذج من أهمها -بشيء من الإجمال- فيما يلى (تاركين التفاصيل والتوسع للكتب المتخصصة فى موضوع الشخصية وقياسها، حتى لانخرج عن هدف كتابنا كتمهيد -فقط- لعلم النفس الحديث):

١ - اختبارات الميول والاتجاهات الشخصية Interests and Attitudes:

وهى فى جوهرها استبيانات من نوع التقرير الذاتى Self-report Inventory يطلب فيها من المبحوث (أو المفحوص) إعطاء تقرير عن نفسه على هيئة استجابة لأسئلة أو استفسارات عن نفسه تتعلق باتجاهاته النفسية وميوله التفضيلية إزاء موضوعات معينة، على نحو ما عرفنا الاتجاهات والميول، فيما سبق من حديثنا فى الفصل الخامس من هذا الكتاب، عندما تعرضنا لهما كدوافع مكتسبة.

ومن أمثلة هذا النوع من الاختبارات اختبار سترونج -كامبل للميول Strong-Campell Interest Inventory، وهو التطور الحالى لاختبار سترونج صحيفة الميل المهنى. وقد صدر اختبار سترونج -كامبل عام ١٩٨٥ . وفى مصر، اقتبس عطية محمود هنا الاختبار القديم لسترونج للرجال تحت عنوان اختبار الميول المهنية للرجال وتتكون الصورة العربية من ثمانية أقسام، هى:

١- تفضيل المهن، ٢- تفضيل المواد الدراسية، ٣- أنواع التسلية المختلفة، ٤- أنواع النشاط، ٥ - صفات الأفراد المختلفين، ٦ - المفاضلة بين أوجه النشاط على أساس صفات

أسلوب النشاط، ٧ – المفاضلة بين عملين محددين، ٨ – حكم الفرد على نفسه وتقديرها فى بعض النواحى...

وفى الأقسام الخمسة الأولى من الاختبار، يجيب المفحوص عن كل سؤال فى إحدى فئات ثلاث تعبر عن الميل أو عدم الميل لموضوع السؤال، أو أن الأمر لديه سيان. وفى الأقسام الثلاثة الأخيرة، يطلب من المفحوص ترتيب المناشط المعينة حسب تفضيله لها، أو يطلب منه أن يقارن بين ميوله فى أزواج من الفقرات، أو يقدر قدراته الحالية وخصائصه الأخرى.

«وتشير البحوث الأمريكية إلى ارتفاع معاملات ثبات مقاييس الاختبار على مدى زمنى طويل بلغ ٢٢ عاماً (وسيط معامل الثبات ٠,٧٤)، كما تشير البحوث إلى صدق الاختبار من حيث ارتفاع تطابق الدرجات عليه مع الاختيار الفعلى للمهنة بعد ١٨ عاماً» (لويس كامل مليكة: ١٩٩٧، جـ٢، ٥٥٤–٥٥٩).

ومن أمثلة اختبارات الميول والاتجاهات الشخصية –أيضاً– اختبار كودر المعروف باسم سجل التفضيل الشخصى Kuder Preference Record-Personal.

«وقد اقتبسه إلى العربية أحمد زكى صالح تحت اسم اختبار الميول المهنية... ويقيس الاختبار عشرة ميول رئيسية، هى:

١ – الميل للعمل فى الخلاء. ومن أمثلته المهندس الزراعى والطبيب البيطرى.

٢ – الميل للعمل الميكانيكى: المهندس الميكانيكى والصناعى.

٣ – الميل للعمل الحسابى: المحاسب والصراف وأعمال مسك الدفاتر وحفظ السجلات.

٤ – الميل للعمل العلمى: الطبيب والمهندس الكيميائى والصيدلى والطيار والأعمال الإلكترونية.

٥ – الميل للعمل الذى يحتاج إلى متابعة وإقناع: البائع والأخصائى الاجتماعى ومندوب شركة التأمين.

٦ – الميل للعمل الفنى: أعمال التصوير والفن والنحت والهندسة المعمارية وحلاقة السيدات وتصميم الديكور.

٧ – الميل للعمل الأدبى: الروائى والمؤرخ ومحرر الصحف والناقد المسرحى والناقد الأدبى.

٨ – الميل للموسيقى: الميل لسماع الموسيقى أو القراءة عنها أو عزفها.

٩ – الميل للخدمة الاجتماعية: الأطباء والممرضات ورجال الدين والأخصائى الاجتماعى.

١٠ – الميل للعمل الكتابى أو الإدارى: أعمال السكرتارية والأرشيف والأعمال الإحصائية.

ويطلب من المفحوص أن يضع علامة أمام العبارة التى تعبر عن النشاط المفضل لديه أكثر من غيره، وعلامة أمام النشاط الأقل تفضيلاً من ثلاثة أنشطة فى كل سؤال، (لويس كامل مليكة: ١٩٧٧، ٣٣٣-٣٣٥).

٢ – اختبارات الذكاء الاجتماعى Social Intelligence:

الذكاء الاجتماعى مفهوم يقع بين قدرات الفرد العقلية (الذكاء العام بصفة خاصة) وبين سماته واستعداداته الشخصية والانفعالية، وإن كان أقرب إلى السمات والاستعدادات الانفعالية والشخصية منه إلى القدرة العقلية أو الذكاء بصفة خاصة. ويقصد به مهارة الفرد فى إنشاء علاقات متبادلة مع الآخرين والتعامل المريح والناجح معهم، بحيث يؤدى هذا إلى تحقيق مطالبه وإشباع رغباته من خلال هذه العلاقات الاجتماعية، على نحو ما سبق أن أشرنا فى الفصل السادس عند حديثنا عن الذكاء العام والذكاء الاجتماعى. ولذا، فإن اختبارات الذكاء الاجتماعى تقيس عادة «المعلومات والمهارات التى تتطلبها المواقف الاجتماعية، وتُدرج هذه الاختبارات -أحياناً- تحت اختبارات الاستعدادات الخاصة» (لويس كامل مليكة: ١٩٧٧، ٣٣٦). وينبغى هنا أن نُذكِّر بالاختلاف بين مفهوم الذكاء الاجتماعى (كسمة شخصية انفعالية)، وبين الذكاء العام كقدرة عقلية، تعرضنا لها بشىء

من التفصيل فى الفصل السادس من كتابنا هذا. وبالتالى، فإننا كثيراً ما نجد أفراداً مرتفعى الذكاء العقلى وفى نفس الوقت منخفضين أو ضعافًا فى ذكائهم الاجتماعى، كما يمكن أن نجد بالمقابل أفراداً منخفضى الذكاء العقلى مرتفعين فى ذكائهم الاجتماعى.

«ومن أشهر الاختبارات فى هذا المجال مقياس الذكاء الاجتماعى، وهو مقياس أمريكى من تأليف موسى وزميليه، وقام بتعريب الصيغة المختصرة منه -فقط- الدكتوران محمد عماد الدين إسماعيل وسيد عبد الحميد مرسى، وهى تحتوى على قسمين: (أ) التصرف فى المواقف الاجتماعية، (ب) الحكم على السلوك الإنسانى... ويتكون القسم الأول من ٣٠ عبارة يمثل كل منها موقفًا من المواقف الاجتماعية التى تتطلب التصرف بشكل معين لحل المشكل الموجود فى الموقف، أو الإجابة عن السؤال الذى يثيره. وقد وضع لكل موقف أربعة حلول، على المفحوص أن يختار أحدها. ولا يوجد زمن محدد، ولكن الاختبار لا يستغرق -عادة- أكثر من نصف ساعة. ويتكون القسم الثانى من ٥٠ عبارة يطلب من المفحوص أن يجيب عن كل منها بأن يقرر ما إذا كانت العبارة صحيحة أم خاطئة، وليس هناك زمن للاختبار أيضًا». (لويس كامل مليكة: ١٩٧٧، ٣٣٦).

ونقتطف فيما يلى نموذجين؛ أولهما للقسم الأول، وثانيهما للقسم الثانى:

«النموذج الأول:

لكل موقف أو سؤال من الأسئلة الآتية تجد عدة إجابات، ضع علامة X إلى يمين رقم الإجابة التى تعتبرها صحيحة. ولا تضع أكثر من علامة واحدة لكل سؤال:

١ - دعا شخص خطيبته للذهاب معه إلى السينما، وعندما اقترب من دار السينما اكتشف أنه نسى أن يحضر حافظة نقوده، فالتصرف الحسن فى هذه الحالة هو أن:

(أ) يحاول الحصول على تذاكر السينما ويترك ساعة يده فى الشباك كرهن.

(ب) يحاول البحث عن صديق ليقترض منه نقوداً لشراد تذاكر السينما.

(جـ) يناقش المسألة مع خطيبته بصراحة ليجد حلاً لها.

(د) يحاول إيجاد أى مبرر يدعوه للذهاب إلى المنزل لإحضار النقود.

•النموذج الثانى:

اقرأ كل سؤال من الأسئلة الآتية بعناية. فإذا كانت إجابتك عن السؤال بالإيجاب ضع علامة X فى خانة (نعم) إلى يمين السؤال، وإذا كانت إجابتك بالنفى ضع علامة X فى خانة (لا) إلى يمين السؤال. ليست هناك إجابات صحيحة وأخرى خاطئة بوجه عام، والمطلوب منك هو أن تعبر تعبيراً صادقاً عن نفسك:

نعم لا

١ - هل تشعر بالسعادة والفرح عند وجودك فى حفلة مبهجة أو سارة ؟،

٣ - اختبارات قوائم الشخصية Personality Inventories:

وهى استبيانات من نوع التقرير الذاتى، وتقيس سمات الشخصية وديناميـاتها واستعداداتها وخصائصها التوافقية والمرضية. ويركز كل اختبار منها على جوانب محددة يقيسها فى الشخصية.

ولعل أشهرها -على الإطلاق- ما يعرف باختبار مينيسوتا المتعدد الأوجه للشخصية The Minnesota Multiphasic Personality Inventory (MMPI). ويعتبر هذا الاختبار أكثر اختبارات التقرير الذاتى فى قياس الشخصية استخداماً على الإطلاق، مما جعل أنستازى تشير إلى أن أكثر من ٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة) مرجع قد نُشرت حول هذا الاختبار (Anstasi: 1976, 497). وقد أعد الاختبار هاثاواى وماكينلى Hathaway & Mckinley من جامعة مينسوتا.

ويتكون الاختبار من ٥٥٠ عبارة ليقرر المفحوص عن كل منها ما إذا كانت تنطبق عليه، أم لا تنطبق، أم لا يستطيع أن يقرر أى الإجابتين فيترك العبارة دون وضع إشارة تحت رقمها. وعبارات هذا الاختبار على نحو هذا النموذج: أنا لا أتعب بسرعة.

وهذه العبارات الـ٥٥٠ مصنفة إلى مقاييس صدق بالإضافة إلى عشرة مقاييس إكلينيكية هى مع رموزها: توهم المرض Hypochondriasis هـ س؛ الانقباض Depres-

sion د؛ الهستيريا Hysteria هـ ى؛ الانحراف السيكوباتى Psyhopathic Deviation ب د؛ الذكـــــورة-الأنوثة Masculinity - Femininity م ف؛ البـارانـويـا Paranoia ب أ؛ السـيكاثينيا Psychasthenia ب ث؛ الفصـــام Schizophrenia س ك؛ الهوس الخفيف Hypomania م أ؛ والانطـواء الاجـتـمـاعـى Social Introvension س ى. (لويس كـامل مليكة ومحمد عماد الدين إسماعيل وعطية محمود هنا: ١٩٥٩، ١٣٥).

هذا، وقد قام كل من عطية محمود هنا، ومحمد عماد الدين إسماعيل، ولويس كامل مليكة باقتباس وإعداد هذا الاختبار للبيئة العربية (عطية محمود هنا وزميلاه: ١٩٧٣).

وتستنبط -أحيانًا- مقاييس إكلينيكية غير هذه المقاييس التقليدية من هذا الاختبار. وتابع لويس كـامل مليكة فى مصر دراساته الميدانية عن صدق هذا الاختبار فى البيئة المصرية. وقد قام قبل وفاته (رحمه الله) بتقنين أربعة مقاييس تقنيناً محلياً بعد التأكد من صدقها الإكلينيكى، وهى: الانقباض، والهستيريا، والانحراف السيكوباتى، والفصام.

٤ - الاختبارات الإسقاطية Projective Tests :

نوع من اختبارات الشخصية ومقاييسها تكون وحداته غامضة وناقصة التكوين، بحيث يرى فيها كل فرد ما يعن له أو ما يرد على باله عند عرضها عليه.

وليست هناك استجابات صواب أو خطأ لهذه الاختبارات، وإنما تصحح على أساس الدلالات النفسية لاستجابات المفحوص، وما تكشف عنه من خصائص شخصيته، وبنائه النفسى، وأسلوب تفكيره، وسلوكه، وعلاقاته، ودوافعه الشعورية واللاشعورية، ومخاوفه، وآماله، وآلامه، ورغباته، وميوله، وديناميات حياته النفسية المختلفة.

وتنبنى فكرة الاختبار الإسقاطى على أساس اختلاف الأفراد فيما بينهم فى استجاباتهم للمثير الواحد أو للمنبه الواحد، مما يشير إلى أن هذا الاختلاف إنما يعكس اختلاف البناء النفسى والدينامى لشخصية كل منهم عن غيره، على اعتبار أن استجابات الفرد وسلوكه خاضعان لمبدأ الحتم المعروف فى العلم، والذى يرادفه فى علم النفس ما يعرف بالحتمية النفسية Psychological Overdeterminism؛ بمعنى أن الظاهرة النفسية لا تحدث اعتباطاً

وبشكل عشوائى إنما تخضع لأسباب متضافرة تحتم حدوثها بهذه الكيفية.

وقد اشتق مصطلح الاختبارات الإسقاطية من حيلة الإسقاط التى سبق أن تحدثنا عنها فى الفصل الخامس من هذا الكتاب، على اعتبار أن الفرد يسقط ما بنفسه على أشياء خارجية ويراه متمثلاً فيها، ولما كان ما بنفس كل منا يختلف عن غيره، فإن ما يسقطه كل منا سوف يختلف -أيضًا- عن غيره، ويتفق مع بنائه النفسى الخاص به، وما يعتمل بداخله من مواد نفسيه متنوعة؛ بحيث يصبح ما يسقطه الفرد ترجمة لنفسيته الخاصة، وكاشفاً لمستورها.

هذا؛ وهناك أنواع عدة للاختبارات الإسقاطية منها اختبارات تداعى الكلمات، واختبارات تكملة الجمل، واختبارات الإدراك.

ويعتبر اختبار ساكس لتكملة الجمل واختبار روتر لتكميل الجمل، من أشهر اختبارات تكملة الجمل (لويس كامل مليكة: ١٩٧٧، ص٤٩٤-٤٩٧). وفى مصر، قام محمد سمير فرج، أثناء دراسته للدكتوراة عن سيكولوچية الشخصية المصرية المعاصرة، بإشراف فرج عبد القادر طه بتصميم اختبار من نوع تكميل الجمل أسماه استبيان الشخصية المصرية ليقيس به بعض الملامح الهامة فى الشخصية المصرية كصورتها الذهنية عن نفسها، وطبيعة علاقاتها بالسلطة، وخصائصها المزاجية، وصورتها الذهنية عن غيرها من الشعوب...(محمد سمير فرج: ١٩٨٨، ٢٠٧-٢١٤). ويتكون الاختبار من ٥٠ فقرة يطلب من المفحوص استكمالها. وقد وضعت فقرات الاختبار على النحو الذى تمثله الفقرتان التاليتان منه:

- أعتقد أن السبب الأول فى انتصارنا فى حرب أكتوبر..........
- رأيى أن كبار السن ....

ولعل اختبار تفهم الموضوع Thematic Apperception Test، والمعروف باختبار الـ "T.A.T" يعتبر من أشهر الاختبارات الإسقاطية من نوع اختبارات الإدراك. وهو اختبار للشخصية وضعه موراى ومورجان Murray and Morgan حوالى عام ١٩٣٥.

ولقد وضعا هذا «الاختبار على أساس الفكرة الشهيرة عن أن الفرد عندما يجابه بموقف اجتماعى غامض يطلب منه تفسيره فإنه سوف يكشف عن شخصيته فى هذه العملية. فعند تفسير الموقف الموضوعى (البعيد عن الذات) يكون الفرد أقل مقاومة وأقل وعيًا بما يبحث عنه الفاحص. وعلى هذا، يتزايد احتمال أن يقوم المفحوص بإفشاء الكثير مما يخبئه داخل أعماقه» (Tomkins: 1947, 3).

ويتكون الاختبار من ٣٠ بطاقة، تتضمن كل منها صورة تتفاوت فى غموضها من بطاقة لأخرى، ومن بينها بطاقة واحدة بيضاء ليست بها أية صورة. وهذه البطاقات مقسمة بأرقام وحروف تبين صلاحية البطاقة لفئة أو أكثر من فئات المفحوصين حسب الجنس والسن (أولاد- بنات- رجال- نساء)، بحيث إنه لا يصلح فى الطريقة التقليدية لأى جنس من أى سن إلا عشرون بطاقة فقط. إلا أن الباحثين يميلون -فى الواقع- إلى تجاهل ذلك، فينتقون من بطاقات الاختبار ما يرون أنه أنسب حسب موضوع البحث نفسه والظاهرة التى يقومون بدراستها؛ متغاضين عن التقسيم التقليدى للبطاقات حسب فئات المفحوصين.

ويقدم الفاحص للمفحوص بطاقة إثر أخرى، ويطلب منه أن يقص عن كل منها قصة تبين ما يدور فى البطاقة وما أدى إلى هذا الموقف وكيف ينتهى، مع وصف مشاعر أبطال القصة وما يفكرون فيه وينوون عمله... إلخ. وتترك صياغة التعليمات لكل باحث، لكنها تدور -عادة- حول المضمون السابق، مع حذف أو إضافة بعض التفاصيل حسب هدف كل بحث.

ومما يجدر ذكره أن هذا الاختبار شائع فى بيئتنا العربية إلى حد كبير نسبياً، وقد جرت الاستعانة به فى دراسات ميدانية كثيرة. كما جرت محاولات من جانب بعض الباحثين والمتخصصين لتصميم صور محلية ووضعها على بطاقات وتطبيقها فى بحوثهم على نفس الطريقة بالنسبة لاختبار تفهم الموضوع. وتلقى هذه الاجتهادات من الباحثين المحدثين اعترافًا متزايداً من المتخصصين أو المشرفين على دراساتهم أو المقيمين لها؛ وذلك على

نحو ما قام به محمد خليل، بإشراف فرج عبد القادر طه وقدرى حفنى فى دراسته للماچستير عن الفلاح المصرى (محمد خليل: ١٩٧٩) . وكذلك، ما قام به محمد سمير فرج، بإشراف فرج عبد القادر طه من إعداد بطاقات خاصة لدراسته فى الماچستير عن الولاء وسيكولوچية الشخصية (محمد سمير فرج: ١٩٨٢، فصل ٥ وملحق ٢)، وأيضاً ما قامت به نادية حسن قاسم، بإشراف فرج عبد القادر طه من تصميم ورسم بطاقات خاصة لتناسب موضوع بحثها للماچستير تحت إشراف فرج عبد القادر طه عن أسس الاختيار للزواج لدى طالبات الجامعة (نادية حسن قاسم: ١٩٨٨، ص١٣٤-١٨٢)، وما قامت به - أيضاً- فى رسالتها للدكتوراه من تصميم بطاقات اختبارين لديناميات الأمومة وديناميات الطفولة، تحت إشراف فرج عبد القادر طه، ونجية إسحق عبد الله (نادية حسن قاسم: ١٩٩٧، ٢٣٠-٢٥١ بالملاحق).

٥ - الاختبارات الموقفية Situational Tests:

وهى نوع من الاختبارات النفسية يوضع فيه المفحوص فى موقف فعلى، ويرى الفاحص كيف يتصرف المفحوص فى هذا الموقف. وتكون الدرجة على الاختبار هى نتاج تقييم التصرف الفعلى للمفحوص فى هذا الموقف؛ مثال ذلك تقدير درجة أمانة الفرد عن طريق وضعه فى موقف تتاح له فيه عملية الخداع والغش بسهولة ودون أن يراه أحد، ثم نرى ما إذا كان قد مارس الغش والخداع فعلاً أم لا، وبأى درجة تم له ذلك.

ولعل من أشهر نماذج الاختبارات الموقفية تلك الاختبارات التى أعدها هارتشورن وماى Hartshorne & May واستخدماها فى أعوام ١٩٢٨ و١٩٢٩ و١٩٣٠ فى دراستهما عن الغش والخداع عند التلاميذ (Anastasi: 1976, 594) . ففى أحد هذه الاختبارات لقياس الغش كسلوك عند التلاميذ -على سبيل المثال- كان «يطبق على التلاميذ اختبار فى مادة دراسية، ثم تجمع أوراق الإجابة من التلاميذ، وتعد منها نسخ، ثم توزع الأوراق الأصلية غير المصححة، ويطلب من التلاميذ تصحيحها بأنفسهم طبقًا لمفتاح التصحيح. ويمكن عن طريق المقارنة بين التصحيح الذى يقوم به التلاميذ لأوراقهم، والتصحيح الذى

يقوم به المختبرون لنسخ هذه الأوراق، الكشف عن أى غش يمكن أن يكون قد ارتكبه التلاميذ، (لويس كامل مليكة: ١٩٧٧، ٥٢٥).

٦ – المقابلة الشخصية Interview:

هى إحدى وسائل دراسة الفرد للتعرف على استعداداته وخصائصه الشخصية المختلفة وهى لا تُعد اختباراً نفسياً بالمعنى الحرفى المتعارف عليه فى القياس النفسى، وإن كان ينظر إليها على أنها من أهم وسائل دراسة الشخصية وتقييمها والتعرف على جوانبها المختلفة، جنباً إلى جنب مع الاختبارات النفسية بحيث تتكامل معها وتساندها فى كثير من الدراسات والبحوث السيكولوچية المختلفة، والتى تستخدم منهجاً متكاملاً فى دراسة الشخصية وفهمها.

والمقابلة الشخصية عبارة عن لقاء يتم بين الأخصائى النفسى الذى يقوم بدراسة الشخصية وبين الفرد موضع البحث أو الفحص أو التحليل. وفى هذا اللقاء يتم تبادل الحديث و«الدردشة» بينهما. وتقع على الأخصائى مهمة توجيه الحديث وإدارة المقابلة بحيث تحقق الغرض من المقابلة، والمتمثل فى تقدير بعض الاستعدادات والخصائص الشخصية المعينة التى يهدف الأخصائى أو الباحث إلى تقديرها وتقييمها فى المفحوص الذى يقوم بمقابلته.

والمقابلة الشخصية من أكثر وسائل دراسة الفرد حاجة إلى أخصائى نفسى ماهر، وحاصل على تأهيل عال، وخبرة طويلة فى هذا المجال، حتى لاينخدع بحديث المفحوص أو مظهره فيقيم جوانب شخصيته تقييماً ينحرف كثيراً عن حقيقتها. فأخصائى المقابلة عليه أن يستنتج الكثير من خصائص الفرد ليس من اختبارات أو مقاييس موضوعية أو بيانات محددة لا خلاف عليها، بل من مجرد حوار لفظى يجريه مع الفرد. ومن هنا، فإن الأخصائى النفسى ما لم يكن على درجة عالية من المهارة فى إدارة مثل هذا الحوار، وما لم يكن –أيضاً– على درجة عالية من الفهم والحس، والحدس Intuition والقدرة على قراءة ما بين السطور ومعرفة دلالاته النفسية؛ نقول ما لم يكن متمتعاً بهذا كله سهل على

المفحوص أن يضلل الأخصائي ويخدعه.

ولما كان إجراء المقابلات الشخصية يحتاج إلى كل هذه الدرجة من المهارة والكفاءة، فإن تأهيل وتدريب وخبرة أخصائي المقابلة ينبغي جميعًا أن تكون على مستوى عال، علاوة على شخصيته المتزنة واستعداداته الشخصية الجيدة، حتى يمكنه أن يصل إلى عمق الشخصية ومستوياتها اللاشعورية وكوامن دوافعها واستعداداتها دون أن يخدعه المفحوص أو يضلله عن طريق زخرف الحديث وبريقه، فلا يكتفي الفاحص بقراءة ظاهر السطور بل يقرأ ما تخفيه بينها من دلالات ومعانٍ كامنة، يقاوم المفحوص إظهارها، ويجتهد في إخفائها، سواء بوعي شعوري أو بقصد لاشعوري. (للمزيد مع نموذج لمقابلة مسجلة يرجع إلى: فرج عبد القادر طه: ٢٠١٠، ١١١-١٣٤).

هذا، وفي دراستنا للشخصية سوف يقودنا هدف البحث أو الدراسة وظروفهما، وإمكانيات الباحث وتأهيله ومهاراته إلى استخدام اختبار أو وسيلة دون غيرهما، وإلى – أيضًا– الجمع بين أكثر من اختبار أو وسيلة، أو الاكتفاء بواحدة منها فقط، وكلما تعددت الاختبارات والوسائل، كان ذلك أفضل، حيث تكمل إحداها الأخرى، في معظم الأحيان.

الفصل التاسع :

الاضطرابات والأمراض النفسية

تحدثنا فى الفصل السابق عن الشخصية، ونخصص هذا الفصل للحديث عما قد يصيب الشخصية من أمراض أو اضطرابات نفسية، أو انحرافات سلوكية بدأت جميعها تتزايد وتنتشر أكثر وأكثر فى عصرنا الحديث؛ حيث تعقدت الحياة كثيراً، فزادت حدة الصراعات، وارتفع مستوى الطموحات، وانتشرت مسببات القلق والتوتر، وعوامل الاكتئاب والمخاوف، وفقدان الأمل؛ وكل ما يصاحب ذلك من آثار سلبية مدمرة تنعكس على مستويات الصحة النفسية للأفراد، فى معظم المجتمعات.

هذا، وفى تمهيدنا للفصل السابع من هذا الكتاب، أشرنا إلى أن صحة الفرد النفسية واضطرابها تعتبر من أهم العوامل الكبرى المسهمة فى تحديد سلوكه، وتشكيل أفعاله بطابع معين. كما أشرنا إلى أننا سوف نرجئ الحديث عنها إلى هذا الفصل، وذلك مراعاة لتنسيق الكتاب، وترابط فصوله. وسوف يبدو جلياً من ثنايا حديثنا فى هذا الفصل، الأثر الخطير لمستوى صحة الفرد النفسية واضطراباتها على توجيه سلوكه وتشكيل أفعاله بطابع معين.

الصحة النفسية Mental Health or Psychological Health

المقصود بالصحة النفسية للفرد هو خلو شخصيته من الانحرافات والاضطرابات والأمراض النفسية(*) الواضحة، علاوة على قدرته على التوافق والنجاح فى علاقاته مع

(*) قد لا تكون هناك فروق في الاستخدام أو المعني بين مصطلح الاضطراب Disorder ومصطلح المرض Disease، وإن كان ذوو الاتجاه العلمي المتشدد يفضلون استخدام الاضطراب عن المرض وفي نفس معناه. أما الانحراف Perversion فيحسن قصره علي اضطرابات الشخصية المتعلقة بالجوانب الأخلاقية،أو التي تضاد قيم المجتمع ومثالياته وقوانينه، خاصة ما تعلق منها=

الآخرين، والتحقيق الإيجابى البناء لذاته فى عمله وإنتاجه. يضاف إلى ذلك ما أشار إليه أحمد عزت راجح من «قدرة الفرد على الصمود حيال الأزمات والشدائد وضروب الإحباط والحرمان دون أن يختل ميزانه فينهار» (أحمد عزت راجح: ١٩٦٥، ٥٥٩)، وبمعنى آخر فإن الصحة النفسية هى السواء النفسى Psychical Normality. وفى تفسير أئمة الفقهاء لما جاء بالآية الكريمة ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم:١٧] ما يشير إلى اتفاق تفسيرهم للسواء مع ما سبق أن عرضناه. فعلى سبيل المثال يقول محمد سيد طنطاوى فى تفسيره للآية الكريمة: «﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو جبريل -عليه السلام- فتشبه لها فى صورة بشر سوى، معتدل الهيئة كامل البنية، جميل الخلقة كأحسن ما يكون الإنسان. يُقال فلان رجل سوى، إذا كان تام الخلقة، عظيم الخُلق، لايعيبه فى شأن من شئونه إفراط أو تفريط» (محمد سيد طنطاوى: ٢٠٠٥، ٧٩). وليس من شك فى أن الصحة النفسية مسألة نسبية شأنها شأن بقية جوانب الشخصية كالذكاء وغيره؛ بمعنى أن الصحة النفسية الكاملة أمر لا يكاد يتحقق لفرد ما، وأن مقدار الصحة النفسية يختلف من فرد لآخر، بحيث نجد فرداً أكثر صحة نفسية من غيره، لكننا لا نكاد نجد فرداً كامل الصحة النفسية. كما أننا سوف نجد حتى لدى أشد الناس جنوناً بعض المظاهر -وإن قلت- على سلامة بعض الجوانب النفسية. فكما لا نستطيع أن نقول إن فلاناً كامل الذكاء وفلاناً منعدمه، فإننا لا نستطيع أن نقول إن فلاناً كامل الصحة النفسية وفلاناً منعدمها، هذا من الناحية العلمية البحتة. لكننا نصطلح فى الواقع، ومع التجاوز، على وصف الشخصية بالصحة النفسية إن كانت تكاد تخلو من مظاهر الانحراف أو الاضطراب أو المرض النفسى الواضحة الشديدة، وأن

= بالممارسات الجنسية، وبالجرائم المختلفة؛ كالسرقة والاختلاس والنصب والرشوة والتهريب... إلخ.

هذا، ونري من الأفضل والأصح لغوياً أن نفرق بين المقصود بالمرض والمقصود بالاضطراب علي اعتبار أن الاضطراب مجرد مرض خفيف، أو أنه مرض متقطع وغير مستمر؛ بمعني أنه مرض يظهر -فقط- في بعض الظروف والمناسبات ثم يختفي، حيث توحي كلمة الاضطراب بمعني التأرجح وعدم الاستقرار.

نصفها بالمرض النفسى إن كانت مظاهر الانحراف أو الاضطراب النفسى واضحة فيها أو شديدة.

هذا، ويعتبر مستوى الصحة النفسية جانباً هاماً من جوانب شخصية الفرد، بحيث لا نكاد نصف شخصية إنسان دون ذكر أو إشارة لمستوى صحته النفسية، ذلك أن مستوى الصحة النفسية من أشد جوانب الشخصية تأثيراً على سلوكها ونشاطها وعلاقاتها مع محيطها ومجتمعها بل وأيضاً فى توجهاتها ورؤاها الفكرية والإدراكية (راجع بهذا الصدد بحث مجدَة أحمد محمود عن وجهة الضبط والاضطراب النفسى (مجدَة أحمد محمود: ٢٠٠٥، ٢٧-٦٤). فالصحة النفسية للفرد إن اضطربت انعكس ذلك على كل أفعاله ونشاطه وعلى كل علاقاته بما يحيط به، فإذا بأفعاله ونشاطه يختلان فلا يحققان الهدف منهما وهو التوافق الاجتماعى والنجاح الشخصى، وإذا بعلاقاته المختلفة مع الأفراد والواقع المحيطين به تضطرب، فلا يعود يدركهما الإدراك السليم أو يفهمهما حق الفهم ويؤولهما تأويلاً خاطئاً، بحيث يؤثر كل هذا تأثيراً سلبياً على تعامله معهما. بل إن الأمر قد يصل بالفرد -على نحو ما يحدث فى الجنون -إلى أن يصبح خطراً على نفسه- كما فى حالات الاكتئاب التى يحاول فيها المريض الانتحار؛ أو يصبح خطراً على الآخرين -كما فى حالات جنون الاضطهاد- فيحاول تدمير الآخرين قبل أن يدمروه كما فى وهمه؛ على نحو ما سوف نوضح فيما بعد.

مظاهر (أو أعراض أو علامات) الاضطرابات والأمراض النفسية

لكن، ما هى أبرز المظاهر التى تدلنا على وجود انحرافات أو اضطرابات أو أمراض نفسية فى الفرد؟ هناك مظاهر كثيرة ومتنوعة إن وجد بعضها دلنا على وجود انحراف أو اضطراب أو مرض نفسى فى الشخصية، ومن أهم وأبرز هذه المظاهر ما يلى:

١ – اضطرابات الإدراك Perceptual Disorders:

كإدراك أشياء لا وجود لها فى الواقع الفعلى، مثل الهلاوس Hallucinations . ففى حالة الهلوسة يحس الفرد أحاسيس ليست لها تنبيهات حقيقية؛ كأن يحس المريض بأن شخصاً يناديه أو يحدثه، وهو فى هذه الحالة يراه ويسمع صوته، ويتلقى عنه وينقل إليه. ويكون المريض فى مثل هذه الحالات مصدقاً لكل ما يحس به، كالنائم الذى يرى حلماً فى نومه؛ لكن المريض فى حالة الهلاوس التى تعتبر عرضاً مرضياً يكون فى حالة يقظة.

ومن أنواع اضطرابات الإدراك -أيضًا- ما يعرف بسوء التأويل Illusions. ففى هذه الحالة توجد أشياء فى الواقع لكن لا تدركها الشخصية كما هى عليه فعلاً بل تدركها محرفة، بحيث يتفق هذا التحريف مع حالتها النفسية. فالمتشكك فى الناس يفسر سلوكهم على أساس أنه يخفى نيات سيئة نحوه، كما يفسر سلوك من يعاديه -أياً كان هذا السلوك- على أنه موجه للإضرار به؛ فكوب الشاى الذى يقدمه له كتحية مملوءة بالسم الذى سوف يودى بحياته. وهكذا، يدرك الأشياء الموجودة فى الواقع على غير حقيقتها، وبحيث تتماشى مع نفسيته المريضة. على أن الأشخاص الأسوياء سوف نجد عندهم -أيضًا- أنواعاً من سوء التأويل، لكنه ليس سوء تأويل مرضى كما فى المثال السابق، بل سوء تأويل سوى ناتج مثلاً عن ضعف الحواس أو عن قوانين الطبيعة؛ مثل رؤية القلم المغموس نصفه فى الماء على أنه مكسور.

٢ – اضطرابات التفكير Thought Disorders:

كتسلط أفكار غير واقعية لا منطقية ولا متفقة مع ما هو عليه الفرد من مستوى عقلى أو تعليمى أو اقتصادى أو اجتماعى أو سن؛ مثل ما يعرف بالهذاءات Delusions، وهى عبارة عن معتقدات غير واقعية يعتقدها المريض رغم ما فيها من سخف ولا منطقية، ولا يمكن إقناعه بفساد هذا الاعتقاد وعدم صحته، كاعتقاد بعض المرضى أنهم أنبياء، وينزل عليهم الوحى من قبل الإله، أو اعتقاد آخرين بأنهم شخصيات تاريخية عظيمة، فهذا يعتقد أنه نابليون وذاك يعتقد أنه «ملك الهند»... وهكذا.

على أن هناك نوعًا آخر من الأفكار المتسلطة والتى تعرف بالوسواس Obsession، وتختلف عن الهذاءات فى أن الوسواسى يعتقد أن الفكرة التى تراوده وتتسلط عليه فكرة غير صحيحة ولا واقعية. ومع ذلك، فهى تلح عليه ولا يملك منها فراراً ولا يستطيع أن يبعدها رغم اقتناعه التام بسخفها؛ فهذه أم تلح عليها فكرة وقوع حادث لابنها طوال بقائه خارج المنزل، وتظل تتعذب فى حالة من القلق البالغ على ولدها كلما خرج حتى يعود... إلخ.

ومن اضطرابات التفكير نجد نوعًا آخر يتمثل فى التدهور العقلى Mental Deterioration حيث تصاب القدرة العقلية للمريض بالتحلل والاضمحلال والنقص المستمر. فإذا بمستوى ذكائه ينخفض عما كان عليه منذ بداية مرضه فتقل قدرته على الفهم والاستيعاب، وتقل كفاءته فى التعامل بالرموز وبالأفكار المجردة، ويصاب بنقص ملحوظ فى مختلف وظائفه العقلية والتفكيرية.

كما أن خلط التفكير وغرابته Bizarre Thinking مظهر آخر من مظاهر اضطرابات التفكير. وفى خلط التفكير، فتجد المريض ينتقل فى حديثه أو كتابته من فكرة لفكرة انتقالاً مفاجئاً دون وجود روابط منطقية بين الفكرة السابقة والفكرة اللاحقة، بحيث تصعب على المستمع أو القارئ عملية المتابعة أو الفهم. كما يبدو تفكيره غير متسق ولا متماسك.

ويعتبر اضطراب الذاكرة علامة أخرى من علامات اضطراب التفكير، فالمريض قد يفقد ذاكرته نهائيًا لدرجة قد يستحيل معها أن يعرف هويته وعمله وسكنه وأسرته.. أو قد يفقد أو تضعف ذاكرته المتعلقة بحادثة أو موقف معين، بينما تبقى جوانب ذاكرته الأخرى سوية.

٣ – اضطرابات الانتباه Attention Disorders:

تعتبر قدرة الفرد على تركيز انتباهه ونقله من موضوع إلى آخر، حسب مقتضيات الموقف الذى يوجد فيه، خاصية لازمة لتوافقه وتوفيقه فى حياته. ومن ثم فإن اضطرابات الانتباه تعتبر من علامات الاضطرابات أو الأمراض النفسية أو مظاهرها.

وهناك أنواع من اضطرابات الانتباه، منها سهولة تحول انتباه الفرد من موضوع لآخر

بالرغم من محاولة تركيز انتباهه على الموضوع الأول، إلا أن أقل المنبهات يمكن أن يشتت انتباهه ويقلل تركيزه على الرغم منه. وهكذا، يتحول انتباهه من موضوع لآخر دون قدرة على ضبط الانتباه وتركيزه فى الموضوع الهام الذى يستحق منه التركيز، فتقل بذلك كفاءة الفرد الإنتاجية. ومنها -أيضًا- حالة تبلد الانتباه Apathy؛ بحيث يصعب أن يستثار انتباه الفرد نحو موضوع معين ويصبح كالمخدّر الذى تتبلد أحاسيسه نحو الموضوعات المثيرة من حوله. ومن اضطرابات الانتباه -أيضاً- حالات الهذيان والذهول التى تقلل قدرة الفرد على الانتباه للواقع من حوله، وتصاحبها حالات من الهياج والأوهام والتخييلات، كحالة الذى أسرف فى تعاطى المخدرات أو المسكرات، أو كحالة المحموم.

على أن اضطراب الانتباه يبلغ أقصاه فى حالة الغيبوبة Comatose حيث يفقد الشخص وعيه بما يحيط به، ويكاد يستحيل على المنبهات الخارجية جذب انتباهه إليها، واستجابته لها، أو استثارتها إياه لفترة من الزمن.

٤ – فقدان التوجه Disorientation:

التوجه فى معناه العام يشير إلى «وعى الفرد -ذاتيًا- بكيانه البدنى فى علاقته بمتغيرات الواقع، وذلك فى حدود بعد الزمان والمكان. فالفرد الذى يملك وعيًا صحيحًا بنفسه يعرف هويته، كما يعرف الآخرين الذين هم على صلة به، ومن هم على علاقة ببيئته. فهو يعرف المكان الذى ولد فيه (والمكان الذى يوجد فيه الآن)، والعام الذى يعيش فيه، وكذلك الشهر واليوم من الأسبوع الذى يمر به، والوقت من اليوم الذى يعيش فيه. أما إذا كان الفرد على غير وعى بواحدة أو أكثر من تلك المتغيرات فهو مضطرب أو على غير وعى Disoriented أو فاقد القدرة على التوجه» (شاكر قنديل: ١٩٩٣، ٢٦٠).

٥ – اضطرابات الانفعال Emotion Disorders:

يقصد باضطرابات الانفعال فى الفرد عدم مناسبة الانفعال -سواء من حيث شدته أو من حيث نوعه- للموقف الذى يعايشه هذا الفرد. فالفرد السوى يكون انفعاله مناسبًا للموقف الذى يستثير الانفعال، سواء من حيث نوع الانفعال أو شدته. فالشخص الذى يحس

السعادة الغامرة والفرح البالغ دون أن يكون فى واقعه ما يبرر ذلك، أو الذى يحس بالحزن الشديد دون سبب واقعى؛ كلاهما به ضعف فى صحته النفسية.

وعلى هذا، سوف نجد أنواعًا عدة من اضطرابات الانفعال، منها الاضطراب الهوسى وفيه يبدو الشخص مرحًا متفائلاً سعيداً مرتفع الروح المعنوية، مقبلاً على الحياة فى استمتاع ونشاط زائدين، دون أن يكون هناك فى واقعه ما يستوجب كل هذه الحالة الانفعالية. وهناك الاضطراب المناقض تماماً لهذا، والذى يعرف بحالة الاكتئاب، وفيه يبدو الشخص حزيناً مهموماً كثير البكاء متشائماً يائساً من الحياة، أو معتقداً أنه لا يستحقها، ويفكر جدياً فى إنهائها. وقد ينتهى به الأمر -بالفعل- إلى الانتحار لو ترك وشأنه أو تهاون المحيطون به فى رعايته وحراسته. وقد تتناوب الحالتان السابقتان على نفس الشخص فيبدأ بنوبة من الهوس تعقبها نوبة أخرى من الاكتئاب مباشرة، أو قد تفصل بين النوبتين فترة من الشفاء، أو قد يبدأ بنوبة من الاكتئاب تليها نوبة الهوس، وهكذا (كما هو فى حالات الجنون الدورى التى سنتحدث عنها فيما بعد).

كما أن هناك عرضا آخر من اضطرابات الانفعال يتمثل فى عدم الاستقرار الانفعالى Emotional Instability (أو سهولة الاستثارة الانفعالية)، ويظهر فى ضعف سيطرة الشخص على انفعاله بحيث يثير انفعاله -سواء السار أو الحزين- أضعف المثيرات، فإذا بالفرد يبكى وينتحب بشدة من مجرد مشاهدة رواية محزنة، أو يفرح لدرجة تخرجه عن وقاره لخبر تافه سمعه، وهكذا.

وكذلك، تعتبر البلادة الانفعالية Emotional Hebetude نوعاً من اضطرابات الانفعال. وفى هذه الحالة، تبدو انفعالات الشخص متبلدة إزاء ما يسمع أو يرى من أحداث، سواء أكانت سارة أم محزنة حتى بالنسبة لأقرب المقربين إليه؛ فقد يستقبل نبأ وفاة أحد المقربين إليه بابتسامة بلهاء، كما يستقبل نبأ زواج ابنه بنفس الابتسامة؛ أى أنه لا يستجيب أو يكترث انفعاليًا لما يحدث حوله فى العالم الخارجى، تمامًا كالطفل فى الشهر الأول من ميلاده.

٦ – انحرافات السلوك وشذوذه

Behavior Perversions and Abnormalities

إن انحراف السلوك أو شذوذه عن المألوف يعتبر من مظاهر الاضطراب النفسي في الشخصية، فمختلف الجرائم التى لايبررها الواقع الذى يعيش فيه الفرد؛ كالقتل أو السرقة أو الدعارة تعتبر جميعها من مظاهر الاضطرابات النفسية. وبالمثل -أيضًا- مختلف أنواع السلوك المستنكر من المجتمع طالما لم يكن هناك مبرر قوى لتكراره؛ مثل الكذب والخداع وعدم الوفاء بالوعود.

كما أن الانحرافات الجنسية المختلفة Sexual Perversions، والتى تتمثل فى أن يحقق الشخص استمتاعه الجنسى بشكل أساسى من غير الطريق السوى؛ مثل ممارسة الجنس مع شخص من نفس النوع (الجنسية المثالية Homosexuality)، بحيث يكون هذا أكثر إمتاعاً للفرد من ممارسة الجنس بشكل سوى مع فرد من الجنس الآخر، ومثل اشتقاق اللذة الجنسية عن طريق استثارة أعضاء غير مرتبطة بالجنسية السوية، كاشتقاق اللذة الجنسية عن طريق التواصل الشرجى بحيث تصبح أكثر إمتاعاً للفرد من التواصل الجنسى السوى. ومن الجدير بالذكر أن مثل هذه الانحرافات الجنسية توجد لدى بعض المضطربين نفسياً من كلا الجنسين على السواء.

هذا، ويدخل ضمن انحرافات السلوك وشذوذه اضطرابات النطق والكلام؛ كاللعثمة والتردد وأيضاً ارتعاشات وارتجافات بعض أجزاء الجسم؛ كاليدين أو الساقين أو العينين أو الجفنين أو عضلات الوجه، وإتيان أفعال حركية لا معنى لها ولا فائدة منها للفرد، ومع ذلك يجبر على تكرارها ولا يستطيع التخلى عنها.

٧ – أعراض جسمية Somatics:

هناك بعض الاضطرابات النفسية التى تتخذ من أعضاء الجسم مظهراً للتعبير عنها فيصاب العضو الجسمى بالمرض نتيجة للاضطراب النفسى. وفى هذه الحالة يستحيل علاج العضو الجسمى المريض ما لم يعالج الفرد نفسياً. وتصنف هذه الأعراض الجسمية، تحت نوعين كبيرين:

(أ) الهستيريا التحولية Conversion Hysteria: ويندرج تحت هذا النوع الأعراض التى تتمثل فى فقدان العضو قدرته على ممارسة وظيفته دون إصابة تشريحية فى العضو ذاته، أو فى مراكزه بالدماغ، أو فى الأعصاب الموصلة بين العضو وبين مراكزه بالدماغ. ومن أمثلة ذلك كف البصر الهستيرى، حيث يفقد المريض قدرته على الإبصار بينما تبقى العين وأجزاؤها ومراكزها بالدماغ والأعصاب الموصلة بينها وبين مراكزها سليمة، ومع ذلك لا تستطيع العين أداء وظيفتها. هذا علماً بأن غالبية أجزاء الجسم قابلة للإصابة بالهستيريا التحولية، كما يحدث فى شلل الأطراف الهستيرى، أو فقدان الحس الهستيرى، أو فقدان العضو الجنسى قدرته على ممارسة الجنس، دون أن تكون فى كل هذه الحالات إصابات تشريحية تبرر هذا الخلل فى وظيفة العضو الجسمى.

(ب) الأمراض السيكوسوماتية Psychosomatics: وهى أمراض جسمية تنشأ بسبب نفسى، ويحدث فيها تلف فى البناء التشريحى للعضو المريض، بحيث يمكن للأشعة أو التحاليل أو الطب اكتشاف هذا التلف. إلا أن العلاج الطبى وحده للمرض السيكوسوماتى لا يفلح فى إشفاء المريض، ولابد من اقترانه بالعلاج النفسى حتى يُعالج السبب الأصلى للمرض؛ حيث إن هناك بعض الأعراض الجسمية التى تنتج عن اضطراب يصيب النفس البشرية كبعض أمراض السكر وضغط الدم (واللذين ينجمان عن مخاوف أو انفعالات غضب شديدين أغلبهما على المستوى اللاشعورى) وكبعض قرح المعدة أو الاثنى عشر (والتى تصيب الذين يحتاجون إلى الحب الشديد والرعاية الزائدة، وأيضاً يكون ذلك فى غالبه لاشعورياً) . ومع تقدم البحث يتزايد عدد الأمراض التى يمكن أن تدخل فى هذه الفئة، كبعض أنواع الصداع والحساسية...

ومن الجدير بالذكر أن أهم أعراض (أو مظاهر) الاضطرابات والأمراض النفسية -والتى سبق استعراضها- لاتعتبر من مظاهر الاضطرابات والأمراض النفسية إلا إذا تكررت كثيراً أو استمرت فى الشخصية دون أن يكون هناك مبرر واقعى لوجودها. فالفرد -على سبيل المثال- قد يضطرب إدراكه مرة أو اثنتين دون أن يحملنا ذلك على وصفه

بالمريض النفسى، ولا يصدق هذا الوصف إلا فى حالة ملازمة الاضطراب له أو تكرره كثيراً. كما أننا قد نجد فرداً حزيناً مكتئباً دون أن يوصف بالمريض النفسى؛ لأن الواقع يبرر حالة حزنه تلك، كأن يكون قد فقد عزيزاً عليه مؤخراً.

هذا، والاضطراب أو المرض النفسى الذى يصيب الفرد لايبدو -عادة- إلا فى بعض المظاهر التى ذكرناها، وقل أن يبدو فيها جميعاً. فقد تبدو مظاهر الاضطراب فى مريض أكثر وضوحاً فى الأعراض الجسمية مثلاً، بينما لاتكاد تتضح فى شذوذ سلوكه أو اضطراب تفكيره، وقد يحدث العكس بالنسبة لمريض آخر، وهكذا... حتى أن مظاهر اضطراب التفكير ذاتها قل أن تجتمع فى مريض واحد، فقد يعانى المريض من أفكار وسواسية دون أن يصاحب ذلك جوانب أخرى من اضطراب التفكير؛ كخلط التفكير أو التدهور العقلى أو الهذاء.

على أن انحرافات السلوك وشذوذه تعتبر أكثر أعراض الاضطرابات النفسية انتشاراً؛ مثل الجرائم بأنواعها المختلفة كالقتل والسرقة والدعارة والإنحرافات الجنسية، وجرائم الرشوة والاختلاس والتهريب وترويج المخدرات وتعاطيها.. كل ذلك سلوك منحرف يصدر عن نفسيات بشرية مضطربة ومريضة.

واضطراب الصحة النفسية معناه -فى نهاية الأمر- أنه تبديد لطاقة الإنسان وإهدار لها فى مسارب لاتعود عليه ولا على مجتمعه إلا بالضرر، حتى لا يكاد يبقى للنفس البشرية من طاقة تساعدها على تأدية وظائفها الإنتاجية والإيجابية بكفاءة عالية، تماماً كالمرض الجسمى الذى يصيب الفرد فيبدد طاقته الجسمية، بحيث لا يقوى على أداء الواجبات المطلوبة منه ولا تعود أعضاؤه تقوى على أداء وظائفها؛ كالمشى أو الجرى أو حمل شيء أو دفعه...

تصنيف عام للاضطرابات والأمراض النفسية:

بعد استعراضنا -فى إيجاز- تلك المظاهر أو العلامات الأساسية أو الأعراض التى تشير إلى وجود اضطراب أو مرض نفسى فى الشخصية، يجدر بنا أن نضع تصنيفاً عاماً لمختلف الاضطرابات والأمراض النفسية بحيث يغطى أبرزها وأهمها. وسوف نصنف

الاضطرابات والأمراض النفسية هنا تحت خمس فئات على النحو التالى:

١ - الأمراض العصابية. ٢ - الأمراض الذهانية.

٣ - السيكوباتية. ٤ - الانحرافات النفسية.

٥ - الأمراض السيكوسوماتية.

أولاً: الأمراض (أو الاضطرابات) العصابية Neuroses

تضم هذه الفئة مجموعة من الأمراض النفسية التى تتميز بضعف تأثيرها نسبياً على شخصية المريض، بحيث لا تهدد نجاحه وتوفيقه -سواء فى عمله أو علاقاته الاجتماعية- إلا بقدر بسيط نسبياً. ولهذا فإن المرضى العصابيين -عادة- لا يحتاجون إلى الرعاية والحجز داخل مستشفيات إلا نادراً، وذلك لقلة خطورتهم على أنفسهم أو على المجتمع. لذلك، فإن الكثيرين منهم يعيشون بيننا ناجحين نسبياً فى عملهم وعلاقاتهم، بل فى كثير من الحالات لا نكاد نكتشف مرضهم النفسى إلا إذا حدّثونا هم عنه. وكثيراً ما يأتى المريض العصابى إلى المعالج من نفسه شاكياً له ما يعانيه من أعراض وطالباً مساعدته فى علاجها.

والنكوص فى التنظيم النفسى للمريض العصابى لا يكون إلى مراحل الطفولة المبكرة جداً، بل المتأخرة نسبياً (المرحلة الأوديبية أو الشرجية المتأخرة)، وهذا هو السبب فى أن مرضى العصاب يكونون أكثر تكاملاً واتزاناً فى الشخصية من غيرهم من المرضى، بل غالباً ما يدركون أنهم مرضى وشواذ.

هذا، ومن أبرز الأمراض (أو الاضطرابات) العصابية ما يلى:

١ - الهستيريا Hysteria:

مرض نفسى «يتميز بفقدان الذاكرة، والتوهان والذهول، والتشنجات الزائفة Pseudo... والشلل الزائف وفقدان الحس الزائف، وتلبس الأرواح الوهمى «العفاريت»،

للفرد، والذهول وغياب الوعى والإنسطال Stupor، والغشية أوالغيبوبة Trance، وزيادة القابلية للإيحاء أو التقليد. وهو معروف منذ العصور اليونانية القديمة عندما كان الرحم Hyster هو المسبب المفترض لهذا المرض لأنه كان ينحصر عادة فى الإناث Al-most Exclusively in Women. وهذا المرض يختلف انتشاره اختلافًا كبيراً من ثقافة لأخرى، بمثل ما يختلف أيضاً فى الثقافة نفسها من عصر لآخر. ويظهر مرض الهستيريا على كل من الرجال والنساء، (World Health Organization, 1997, 19)؛ على نحو ما تبينت حقيقته فى العصور الحديثة.

ويشير النص السابق بوضوح إلى أن هذا المرض يعنى «المرض الرحمى» أو المتعلق باضطراب داخل رحم الفرد، وأن التسمية بقيت كما هى نتيجة تجذرها فى التراث القديم، كتسمية اصطلاحية، وإن كانت مناقضة لترجمتها الحرفية القاموسية؛ وذلك وفقاً لقاعدة الخطأ الشائع أفضل من الصواب المهجور. فبقيت التسمية على الرغم من أن العلم فى عصرنا الحديث قد أثبت خطأ معناها عند الترجمة الحرفية.

وبطبيعة الحال والواقع، فإننا لانفهم من النص السابق أن الأعراض المذكورة لابد وأن تجتمع فى المريض الواحد، بل إن بعضها فقط هو الذى نتوقعه عند مريض معين، وسوف يختلف كل هستيرى عن الآخر بعض الاختلاف فيما يعانيه من أعراض هستيرية تزيد أو تنقص؛ تكثر أو تقل؛ تشتد أو تخف..

وليست الهستيريا مرضًا نفسيًا متشعب الأعراض والمظاهر فقط؛ بل ومتعدد الأنواع أيضًا. فهناك –مثلاً– الهستيريا التحولية Conversion، وهى التى سبق أن ذكرنا بعض أعراضها فى البند السادس من مظاهر الاضطرابات النفسية. وهناك الإغماء الهستيرى Hysterical Trance، ويتمثل فى نوبات يفقد فيها المريض وعيه، وقد يتصلب جسمه أو يهذى بكلمات لا معنى لها أو يأتى بحركات شاذة. وهناك التجوال النومى Somnambu-lism، ويتمثل فى المشى أثناء النوم، والقيام بنشاط حركى وإنجاز أعمال والفرد فى حالة نوم، وعندما يستيقظ الفرد فإنه غالبًا لا يتذكر ما فعله أثناء تجواله النومى. كما أن

هناك نوعًا آخر من الهستيريا يشبه هستيريا التجوال النومى وهو المعروف بالتجوال اللاشعورى Fugue، ويتمثل فى فقدان المريض لذاكرته لفترة طويلة، فينسى نفسه وبيته وأهله وعمله، ويخرج متجولاً لفترة قد تطول أيامًا أو شهوراً، ويقوم أثناءها بأعمال ويزاول أنشطة ويجوب مناطق وبلاداً، حتى إذا أفاق من نوبة التجوال اللاشعورى هذا عادت إليه ذاكرته وتعرّف على نفسه ورجع إلى بيته وأهله وعمله. وغالباً لا يتذكر ما فعله أثناء نوبة التجوال؛ وكثيرا ما يصور الأدب الروائى أو السينما مثل هذه الحالات.

ومن أنواع الهستيريا -أيضاً- تعدد الشخصية Multiple Personality، فيعيش المريض فترة فى شخصية معينة، وفترة أخرى فى شخصية غيرها، ثم تعاوده الشخصية الأولى لفترة أخرى، وهكذا يعيش بالتناوب شخصيتين أو أكثر وغالباً لايتذكر المريض الشخصية التى سبق أن عاشها فى الفترة السابقة، بل ربما أشار إليها على أنها شخصية فرد آخر خلافه مستخدماً لها اسماً معيناً أو ضمير هو. وكثيراً ما تكون الشخصيات المتبادلة، التى يعيشها مريض تعدد الشخصية، شخصيات متكاملة فى دوافعها ورغباتها وخصائصها، ومقطوعة الصلة أو تكاد إحداها بالأخرى. وعموماً، فحالات الهستيريا المتعددة الشخصية من الحالات النادرة جداً والتى تستهوى الروائيين وتلهب خيالهم.

والمريض الهستيرى قد يكابد أعراض نوع واحد أو أكثر من أنواع الهستيريا وعلى مستويات مختلفة من الشدة، مضافًا إليها بعض الأعراض العامة للهستيريا؛ مثل اضطرابات الذاكرة، أو شدة القابلية للإيحاء، أو سرعة تقلب المزاج، أو اضطراب بعض الوظائف النفسية.

٢ – الهستيريا السيبيرية Siberian Hysteria:

هذا نوع خاص ومختلف من الهستيريا فضلنا الحديث عنه بشكل منفصل لطبيعته المخالفة لِمَ عليه مرض الهستيريا التقليدى والذى كانت الكتب والمراجع المتخصصة -ولازالت- تعالجه وتدرسه بشكل تفصيلى منذ فرويد وحتى الآن. وقد بدأ الإهتمام به والحديث عنه والإشارة إليه فى المراجع العلمية الحديثة، خاصة ما تعلق منها

بالمعاجم والموسوعات. وتعطيه تسميات مختلفة لم يُستقر على واحد منها حتى الآن؛ لكنها مترادفة فى المقصود والمفهوم.

وتتميز الهستيريا السيبيرية، أو الهستيريا القطبية الشمالية Arctic Hysteria، أو الهستيريا البِيبلْوكتية Piblokto Hysteria بعدة أعراض ومظاهر من أهمها: أنها مرض (زملة أعراض) خاص بثقافة معينة A Culture Specific Syndrome، إذ يتواجد فى مجتمع معين هم سكان سيبيريا والإسكيمو والمناطق القطبية. ويتميز مرضاه بدرجة كبيرة من القابلية للإيحاء، ولتقليد سلوك الآخرين. وعرضه الأساسى هو نوبة من الجرى السريع والهجوم والإندفاع إلى مناطق تواجد الثلوج والقفز فى الثلج والماء الذى يتواجد فيه؛ معرضين حياتهم للخطر والإصابات المرضية، مع الصياح والصراخ وتقطيع ملابسهم والجرى حول أنفسهم عراة فى أجواء ودرجات حرارة ما تحت الصفر، بين الثلوج والماء المخلوط به؛ مقلدين أصوات الحيوانات والطيور، مع استمرار النشاط الزائد هذا إلى حوالى الساعتين حيث تهدأ النوبة وتتلاشى، ثم تعاود من جديد فى وقت آخر (Reber, 1987, 548-Sutherland, 1989, 326- World Health Organization, 1997, 28 Corsini, 1999, 729).

٣ – الخوف المرضى (الفوبيا) Phobia:

الخوف المرضى عبارة عن خوف من موضوع أو شىء أو موقف لايستثير –عادة– الخوف لدى عامة الناس. ومن هنا، اكتسب طابعه المرضى؛ كالخوف من الأماكن المفتوحة Agoraphobia، ويبدو فى خوف المريض من البقاء فى أماكن مفتوحة، فإذا دخل منزلاً لا يستريح إلا إذا أغلق الباب، وإذا جلس فى غرفة يظل قلقًا حتى تغلق منافذها، وإذا سار فى الشارع أو خرج إلى الأماكن الفسيحة انتابه الفزع والضيق...إلخ. وكما أن هناك مرضى يخافون من الأماكن المفتوحة، فهناك –أيضًا– مرضى– على عكسهم تمامًا– مصابون بالخوف من الأماكن المغلقة Claustrophobia، فلا تكاد تغلق باب الغرفة التى يجلسون فيها حتى يصاب الفرد منهم بالخوف والفزع، ويظل فى هذه الحالة حتى يخرج من الغرفة أو تفتح منافذها.

وعموماً، فإن المواقف أو الأشياء أو الموضوعات التى تستثير الخوف المرضى لدى مرضى الفوبيات كثيرة لايمكن حصرها؛ من أمثلة الخوف المرضى من الأماكن المرتفعة Acrophobia، والخوف المرضى من منظر الدم Hematophobia، والخوف المرضى من نوع من الحيوانات كالقطة أو الدجاجة ..إلخ. ولكل مريض بالفوبيا موقف معين أو موضوع معين أو أكثر هو الذى يخيفه، ولا يظهر عليه الفزع والقلق والضيق إلا إذا ظهر موضوع خوفه أمامه، أو وضع فيه؛ بحيث يظل المريض بالفوبيا عادياً لا تظهر عليه أعراض المرض إلا فى حالة ظهور موضوع خوفه. هذا، وتختلف درجة الخوف المرضى من مريض بالفوبيا لآخر؛ فالبعض يظهر عليه الخوف والفزع الشديدان إذا ظهر موضوع خوفه بينما البعض يكون أقل خوفاً وفزعاً.

٤ – الوسواس Obsession:

عبارة عن أفكار ترواد المريض وتعاوده أو تلازمه (ثابتة أو متغيرة) دون أن يستطيع طردها أو التخلص منها بالرغم من شعوره وإدراكه لغرابتها وعدم واقعيتها أو جدواها. بل إن المريض يبذل من طاقته الكثير لمحاولة درء مثل هذه الأفكار عن ذهنه، حتى يصبح شاغله الشاغل هو القضاء عليها واستبعادها، آناً باستخدم منطقه فى إقناع نفسه بعدم واقعية الفكرة أو جدواها، وآناً آخر باللجوء إلى الآخرين لإقناعه بذلك. فلا غرابة -إذن أن تظهر على المريض الوسواسى أعراض الإرهاق والتعب لكثرة ما يبذل من طاقة فى الوسواس وفى مقاومته.

هذا؛ «ويعرف الدليل التشخيصى والإحصائى الثالث (APA, 1980, DSM III) والثالث المعدل (APA, 1987, DSM III R.) الوساوس كالآتى: أفكار ... أو نزعات أو خيالات، يخبرها الشخص على الأقل على أنها غير مرغوبة وليس لها معنى. ويحاول الشخص أن يتجاهل أو يكبح هذه الأفكار والنزعات أو يحاول تخفيفها بأفعال وأفكار أخرى. ويعرف الشخص أن أفكاره الوسواسية هى نتاج عقله وليست مفروضة عليه من خارجه (P.245)»، (رجز و فوا: ترجمة هبة إبراهيم: ٢٠٠٢، ٤٧٢).

أما الفكرة الوسواسية التى تشغل بال المريض فقد تظل هى هى نفسها دون تغيير، أو قد تختفى لتحل محلها فكرة أخرى لتختفى حتى تعود الفكرة الأولى أو تحل ثالثة محلها، كما قد تجتمع أكثر من فكرة وسواسية فى نفس الوقت. والأفكار الوسواسية كثيرة يصعب حصرها، فهذا مريض تلح عليه فكرة أن كل أفراد الجنس الآخر ينظرون إليه نظرات جنسية، وآخر تلح عليه فكرة أن الآخرين من الجنس الآخر يفسرون نظراته على أنها جنسية صرفة، ويبدو لذلك مرتبكاً فى حضرتهم وخجولاً، وثالث تلح عليه فكرة أنه شخص فاشل لايصلح لشىء...إلخ، وعندما تحدثنا فى هذا الفصل عن مظاهر الأمراض النفسية ذكرنا كمثل على اضطراب التفكير وسواس أم عند خروج ابنها. وبطبيعة الحال، فإن الإقناع المنطقى يفشل فى علاج المريض الوسواسى، طالما أن هذه الأفكار لم تأت نتيجة منطقيتها، بل إنها تُعتنق بالرغم من مخالفتها للمنطق وللواقع معاً.

٥ – الحواز Compulsion:

عبارة عن قيام المريض بأفعال حركية رتيبة جامدة متكررة (على نمط واحد) لا تحقق له فائدة، وليس لها من معنى منطقى لدى الغير، بل وربما لدى المريض نفسه، وإن كان فى بعض الأحيان يلتمس لها المريض أسباباً: مثل المريض الحوازى الذى يكرر غسل يديه مئات المرات بحجة وقاية نفسه من المرض عن طريق إزالة الجراثيم التى تعلق بيديه بغسلها باستمرار. وفى حالات كثيرة، يجاهد المريض الحوازى نفسه ليمنعها من إتمام الفعل الحوازى لاقتناعه بعدم جدواه وبعدم منطقيته، لكنه فى النهاية يفشل فى ذلك ويستسلم للدافع الداخلى الذى يطالبه بإتمام الفعل الحوازى. ومعنى هذا أن الدافع وراء الفعل الحوازى يكون أقوى من الإرادة الشعورية للمريض بحيث يريد المريض على المستوى الشعورى التخلص من القيام بالفعل الحوازى لإدراكه ما فيه من غرابة وسخف وعدم فائدة، لكن المريض يجد نفسه –فى نهاية الأمر– مقهوراً ومستسلماً لأداء هذا الفعل الحوازى، حتى أن بعض العلماء يميلون إلى تسمية الأفعال الحوازية بالأفعال القهرية أو الدفعات القهرية، نسبة إلى أن المريض يكون مقهوراً على تكرار أدائها بالرغم عنه.

والقهر هنا -بطبيعة الحال- هو القهر الذى تقوم به الدوافع اللاشعورية التى لايدرى عنها شيئًا. وعلى هذا النحو يعرف الدليل التشخيصى والإحصائى الثالث (APA, 1980, DSMIII) والثالث المعدل (APA, 1987, DSM III R.) . فالدليل الثالث المعدل يعرف الحواز أو الدفعات القهرية بأنها: سلوكيات متكررة هادفة وعن قصد، تتم كاستجابة وطبقاً لقوانين معينة أو بشكل نمطى. وخُطط هذا السلوك لمنع أو لتقليل عدم الراحة أو بعض الأحداث أو المواقف المخيفة، إلا أنه إما أن يكون النشاط غير مرتبط بطريقة واقعية مع ما خُطط لمنعه، أو أنه مبالغ فيه بشدة. ويدرك الشخص أن سلوكه مبالغ فيه وغير معقول، (P.245).

«وقد لاحظت فوا وكوزاك Foa and Kozak (1991) أن تعريف الدليل التشخيصى والإحصائى الثالث يعكس تأثير ثلاث وجهات نظر تقليدية لاضطراب الوسواس القهرى:

١ - الوساوس أحداث عقلية والدفعات القهرية أحداث سلوكية (حركية).

٢ - قد تحدث الوساوس والدفعات القهرية معاً أو منفصلة عن بعضها البعض.

٣ - يدرك الأفراد دائمًا أن أفكارهم الوسواسية ودفعاتهم القهرية ليس لها معنى». (رجز و فوا: ترجمة هبة إبراهيم: ٢٠٠٢، ٤٧٢-٤٧٣).

أما الأفعال التى يمكن أن تصبح أعراضاً لمرض الحواز، فهى كثيرة لا يمكن حصرها. فهذا مريض يقوم عدة مرات من سريره قبل الاستغراق فى نومه للتأكد من أن باب الشقة مغلق، وهذا آخر يقوم بأفعال محددة وبترتيب جامد قبل أن يخرج من المنزل فيفتش كل حجرات المنزل تفتيشاً دقيقاً، فينظر تحت الأسرة ويفتح الدواليب... ويكرر ذلك عدة مرات حتى يطمئن بنفسه إلى أن كل شىء على ما يرام... وهذا ثالث يعد درجات السلم الذى يصعده، فإن شك فى أنه قد أخطأ العد نزل ثانية لإعادة العد... وهكذا. وإذا حيل بين المريض وبين أن يتم فعله الحوازى أصيب بقلق بالغ وخوف شديد من المجهول، حتى تتاح له فرصة إنجاز فعله الحوازى فيهدأ إلى حين، لكى تعاوده من جديد الرغبة فى تكرار فعله الحوازى... وهكذا، يظل المريض نهباً لدوافع إتيان الفعل الحوازى ولمحاولة تجاهله ثم

استسلامه لإتمامه فى نهاية الأمر. ثم لا يلبث قليلاً حتى تعود هذه الدوافع من جديد ليستسلم لها المريض من جديد، بعد محاولات جاهدة لمقاومة إتمامها. وهكذا، يقضى حياته طالما ظل مريضاً. ولا يخفى مدى تأثير هذا المرض على تبديد طاقة المريض فى أفعال متكررة لا طائل من ورائها، وفى محاولات من جانب المريض لمقاومة هذه الأفعال وعدم إتيانها؛ الأمر الذى يسبب إنهاكاً شديداً للمريض، وضيقاً بالغاً له.

ويتشابه الحواز -فى أصله وطابعه- مع الوسواس، وكثيراً ما يتواجدان سوياً فى المريض الواحد. ولا يكاد يختلف الحواز عن الوسواس إلا فى أن الحواز يتميز أكثر بأنه حركى، بينما الوسواس يتميز أكثر بأنه فكرى. فالحوازى يقوم بأفعال حركية متكررة، بينما الوسواسى تراوده وتعاوده أفكار غريبة. والمريض فى الحالتين يعى تماماً أنه مريض. ويجاهد فى أن يوقف الأفعال الحركية الحوازية لإدراكه لسخفها، وفى أن يدرأ الأفكار الوسواسية لإدراكه لعدم منطقيتها وزيفها، وإن كان يفشل فى الحالتين؛ لأن الدوافع إليهما دوافع لاشعورية لا يدركها؛ وبالتالى لا يملك التحكم فيها ولا يستطيع مواجهتها بشكل ناجح إلا إذا أدرك حقيقتها وأهدافها بعد أن يخضع للتحليل النفسى.

٦ - توهم المرض Hypochondria:

المريض هنا يتوهم إصابته فعلاً بمرض أو أمراض معينة، أو يتوهم استعداده للإصابة السريعة بمرض أو أمراض معينة، لهذا فهو دائم التخوف والاحتياط حتى لا يصاب بالمرض، وهو منشغل إنشغالاً زائداً بصحته وخائف عليها ومهتم اهتماماً مفرطاً بها، وإن أصابته أخف الأمراض وأهونها جزع لذلك أشد الجزع وتوهم أنه أُصيب بأشد الأمراض فتكاً؛ وظل فى قلق بالغ حتى يشفى. ولا يكاد يشفى حتى تعاوده مخاوفه من الإصابة بمرض خطير آخر... وهكذا. وغالبًا ما يفشل الآخرون، بل وربما أطباؤه -أيضًا- فى طمأنته على صحته، وفى إقناعه بخلوه من المرض. ومن هنا، فهو دائم الشكوى من إصابته المتوهمة بأمراض معينة، أو من خوفه من الإصابة بها، حتى أن البعض يميل إلى تسمية هذا المرض بوسواس المرض.

٧ – الوهن العصبى (النيورستانيا) Neursthenia:

يقصد بالنيورستانيا إحساس المريض المستمر بالإرهاق والتعب والضعف ونقص الحيوية. ،ويشمل مفهوم النيورستانيا الأنواع التالية من الظواهر المرضية:

١ – اضطرابات فى الحساسية: صداع متصل أو متقطع وأوجاع متنقلة وحساسية مفرطة وإحساسات متوهمة لا أساس عضوى لها.

٢ – اضطرابات حسية: زيادة فى حساسية الشخص وطنين الأذنين.

٣ – اضطرابات حشوية وظيفية:

خاصة بالهضم: ارتخاء الأمعاء وتقلصات المعدة ومغص معوى واضطراب فى إفرازات المعدة والمعِى والكبد، فضلاً عن الإمساك... إلخ.

خاصة بالأوعية الدموية: هبوط فى ضغط الدم.

ضعف جنسى متفاوت، وافتقاده الحساسية الجنسية.

٤ – اضطرابات التنفس: ضيق فى التنفس والربو الكاذب.

٥ – اضطرابات عصبية نفسية منوعة: أرق ودوار وترنح ورجفة وقلق واكتئاب وتهيج عصبى وخور فى العزيمة واندفاع وسرعة التعب وصعوبة البدء فى عمل ما وتشتت الانتباه وضعف التركيز، (سامى محمود على: ١٩٦٣، ١٩٣).

٨ – القلق العصابى Neurotic Anxiety:

يتعرض الفرد لنوعين متميزين من القلق؛ على نحو ما يرى فرويد والمحللون النفسيون. أحدهما يعرف بالقلق الموضوعى Objective Anxiety، وهو القلق الذى يشعر به الفرد عندما يقابل ما يهدد مصالحه أو يهدد حياته، وهو قلق موضوعى بما أنه قلق من شىء واقعى، خارجى أو داخلى يهدد الفرد، ويعرفه الفرد، ويتعرف عليه، ويشعر به، ويخاف من عواقبه. ولذا، فإن القلق الموضوعى يزول تلقائياً بزوال سببه دون علاج نفسى. أما النوع الثانى من القلق فيأتى الفرد من داخله، ولا يكاد يعرف عنه سببا بعينه، فهو قلق ظاهر له

لكن أسبابه لاشعورية بالنسبة له. لا يعرفها إلا بعد أن يخضع لعملية تحليل نفسى تتكشف فيها دوافعه اللاشعورية فتصبح شعورية. وهذا ما نسميه القلق المرضى؛ لأن النوع الأول نخبره جميعًا؛ ولكونه شعورياً ومعروفاً للفرد ونخبره جميعا؛ فهو قلق غير مرضى. ويأتى القلق المرضى من صراع واندفاع القوى الغريزية التى تبحث عن الإشباع ويعارضها أنا الفرد، ويمثلها الهو Id كجانب من جوانب الشخصية؛ أما المصدر الثانى للقلق المرضى فهو الأنا الأعلى Super Ego كجانب آخر من جوانب الشخصية ينشد الكمال والمثل العليا الحميدة التى يمتصها الفرد من والديه ومن يقوم مقامهما من المجتمع والمدرسة والمحيطين الذين يلقنونه القوانين الأخلاقية والقيم الرشيدة وقواعد السلوك الحميد والأوامر والنواهى والأعراف والتقاليد المثلى، وقوانين السلوك والعلاقات المحمودة (على نحو ما سبق أن ذكرنا عند الحديث عن نظرية فرويد فى الفصل السابق) ... وبالتالى فلا يرضى الأنا الأعلى على الفرد إلا إذا كان ملتزمًا قواعد السلوك التى امتصها الأنا الأعلى بحيث يكون الخروج عليها –أو حتى التفكير فى الخروج عليها– مدانا من جانبه؛ لابد أن يعاقب الفرد عليه؛ أى يُعاقب الأنا هنا –كجانب أو قسم أو جزء أو جهاز من أجهزة الشخصية– ويدخل معه فى صراع وخلاف ينتج عنه إحساس الأنا بالأثم ووخز الضمير. ويتم كل ذلك على مستوى لاشعورى أى من أعماق الشخص لا يستطيع دفعه أو معرفة مصدره حتى يتعامل معه. فإذا بالفرد قلق لكن لا يعرف ما يقلقه ولا ما يخيفه. وهذا ما يسمى بالقلق الأخلاقى Moral Anxiety الذى يتطور بعد إلى مرض نفسى واضح المعالم مثل تلك الأمراض التى عرضناها؛ إلا أنه فى أحيان كثيرة قد يستمر كحالة قلق مرضى على ما هى عليه تحتاج علاج المتخصصين؛ ويطلق عليه عندئذ القلق العصابى. فإذا بالمريض يظل قلقًا خائفًا من كل شيء ومن لا شيء فى نفس الوقت، ويظل يبحث عن شيء يبرر به خوفه أو يربطه به، حتى أنه قد يلتمس لانزعاجه أوهى الأسباب وأقلها مدعاة للخوف والقلق والانشغال، ويكون قلقه وخوفه وتوتره أقوى كثيراً مما يتطلبه الموقف. ويؤدى به ذلك –على سبيل المثال– إلى تقلبه فى فراش النوم دون استغراق فيه طوال ليالى فترة الامتحانات، مع ضيق بالغ لعدم نومه هذا ورغبة شعورية جارفة للنوم لكى يستعيد نشاطه

وقدرته على الاستذكار وأداء الامتحانات؛ ومع ذلك، فإن قلقه وانزعاجه يمنعانه من النوم. ولا تكاد تنقضى فترة الامتحانات حتى يبحث قلقه عن سبب آخر لاستحضاره؛ كانتظار ظهور النتيجة وتوقع الرسوب...إلخ. وهكذا، يظل المريض قلقًا منشغلاً؛ سواء لأسباب واقعية أو لأسباب متوهمة، دون وجود واقع حقيقى يدعو لكل ذلك.

وواضح أن القلق العصابى هو قلق مرضى. وعلى هذا، فهو يختلف -فى نوعه- عن القلق «الذى يخبره الناس فى الأحوال الطبيعية كرد فعل على الضغط النفسى أو الخطر، عندما يستطيع الإنسان أن يميز بوضوح شيئًا يتهدد أمنه أو سلامته: كأن يصوب لص مسدسًا إلى رأسه، أو كأن تفشل كوابح (فرامل) السيارة. فهو عندئذ يشعر بالاضطراب والإرتجاف؛ فيجف ريقه، وتعرق يداه وجبهته، وتزيد نبضات قلبه وتهتاج معدته ويشتد توتره، ويعانى الخوف العقلى والقلق. وأغلب الناس أحسوا بهذه المشاعر فى أوقات الخطر والضغط» (شيهان: ١٩٨٨، ١٧). وهو القلق الموضوعى الذى تحدثنا عنه سابقا.

ولاشك فى صدق ما قاله زكى نجيب محمود، حيث يذكر أن: «العصر كله متميز بموجة غمرته بالقلق، لا يقتصر فيه القلق على ذلك الحد الذى لا حياة لإنسان بدونه، بل جاوزه حتى أصبح علامة لا يخطئها بصر. وليس بأى منا حاجة إلى أن يقرأ عن قلق العصر فى صحيفة أو كتاب، بل تكفيه حياته هو مرجعاً كلما أصبح به صباح أو أمسى مساء؛ لأنه يحس فى كل لحظة وكأنه مقبل على مجهول: ترى ماذا تخبئ له اللحظة الآتية. ويقرأ الصحيفة اليومية أو يستمع إلى مذياع أو تلفاز، ليعرف أخبار الدنيا. وإذا بمعظم أخبارها، فى كل نشرة إخبارية يقرؤها أو يستمع إليها، قتل، وخطف، وتعذيب، وتدمير، وأغرب ما تراه فى هذا كله هو أن أفظع الجرائم تقترف محتمية بأشرف القيم، وأن الكثرة الغالبة من الضحايا هم الأبرياء. الكل فى قلق تتمزق منه الأعصاب، وعلته -فى أغلب الظن- هى أنه عصر جاء ليكون حلقة وصل بين حضارتين: حضارة منهما بلغت ختامها بحربين عالميتين، فى أولاهما (١٩١٤ - ١٩١٨) ارتجت الجدران، وفى ثانيتهما (١٩٣٩ - ١٩٤٥) انهار البنيان» (زكى نجيب محمود:أهرام ١٩٨٩/٣/٧). ولاشك فى أن لهجة زكى نجيب محمود كانت ستشتد، وكان تعبيره عن

الأسى والقلق والمخاوف سيتضاعف لو أنه كتب عباراته تلك بعد غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠، وغزو أمريكا للعراق عام ١٩٩١، واحتلال أمريكا وإنجلترا لأفغانستان ثم للعراق فى بدايات العقد الأول من القرن الواحد والعشرين.

ولقد نتج عن شيوع القلق بين إنسان اليوم أن اتصفت حياته بدرجة عالية من الاغتراب؛ فأصبح مغتربا عن نفسه، وعن جوهر إنسانيته، وعن أسرته، وعن مجتمعه، وإن كان قريبًا منهم بجسمه. وفى دراسة أحمد خيرى حافظ للدكتوراه، تبين أن أكبر معامل ارتباط بين الاغتراب وثمان سمات نفسية مختلفة إنما كان بين الاغتراب والقلق، حيث وصل إلى ٠,٤٩ (أحمد خيرى حافظ: ١٩٨٠، ١٤٣). مما يؤكد خطورة القلق فى إشاعة الاغتراب لدى الإنسان.

هذا، وينبهنا دافيد شيهان D. Sheehan فى كتابه عن القلق إلى وجود نوعين منه: أولهما هو القلق خارجى المنشأ Exogenous ويكون استجابة سوية للضغط من خارج الفرد، أما الثانى فهو القلق داخلى المنشأ Endogenous، (من داخل الفرد) والذى توجد دلائل كثيرة توحى بأنه مرضى، (شيهان: ١٩٨٨، ١٧-١٨). كما يضيف أن هذين النوعين من القلق مختلفان تماماً (المرجع السابق، ١٩). ولهذا، فهو يكرس مرجعه لشرح القلق داخلى المنشأ-أى القلق المرضى.

ويشير أحمد عبد الخالق إلى رأى قريب من الرأى السابق فى التفرقة بين القلق السوى أو الموضوعى وبين القلق العصابى، حيث يضيف: «ومن ناحية أخرى، فإن القلق العصابى خوف مزمن من أشياء، أو أشخاص، أو مواقف لا تبرر الخوف منها بصور طبيعية، أو لسبب واضح، مع توافر أعراض نفسية وجسمية شتى ثابتة ومتكررة إلى حد كبير. ولذا يسمى بالقلق الباثولوچى، أى المرضى، كما يدعى القلق الهائم الطليق Free-Floating Anxiety. ويفضل وولبى أن يسميه القلق الشامل Pervasive؛ أى القلق الذى يتخلل جوانب كثيرة من حياة الفرد. وعلى الرغم من شموله لعديد من المواقف واتخاذه كثيراً من المظاهر السلوكية، فإنه يتركز -أحياناً- حول طائفة معينة من المواقف فى

مجالات محددة؛ كقلق الامتحان، والجنس، والموت، ومواجهة الجمهور وغير ذلك» (أحمد عبد الخالق: ١٩٨٧، ٢٨).

ومن الجدير بالذكر أن القلق العام والاضطرابات السيكوسوماتية تزيد مع العطالة وعدم العمل. ففي دراسة ميدانية لمحمد واليحفوفي تبين لهما أن نسبة القلق العام والاضطرابات الجسدية (السيكوسوماتية) تزداد لدى المسنين المتقاعدين مقارنة بالمسنين الذين يعملون، كما تبين لهما أيضًا وجود ارتباط بين القلق العام من جهة والاضطرابات الجسدية لدى المسنين بوجه عام (نبال الحاج محمد ونجوى اليحفوفي، ٢٠٠٧). وفي دراسة أخرى لليحفوفي ومحمد للتعرف على العلاقة المحتملة –على نحو قولهما– «ما بين القلق العام والاضطرابات الجسدية، وبعض المتغيرات الديمغرافية–الاجتماعية: كالطبقة الاجتماعية، والعمر، وعدد الأصدقاء، وحجم الأسرة تكونت العينة من ٢٠٠ مسن يقطنون مع أسرهم، تراوحت أعمارهم ما بين ٦٠ و٨٥ سنة. أكدت النتائج على ارتفاع مستوى القلق والاضطرابات الجسدية لدى المسنين الذين ينتمون إلى الطبقة الفقيرة والفقيرة الدنيا، مقارنة بالطبقتين الوسطى والعليا. وفيما يتعلق بمتغير العمر، فقد كان المسنون الأكبر سنا أكثر قلقًا من أقرانهم الأقل سنا. لكن لم تسجل فروق جوهرية بينهما بالنسبة للاضطرابات الجسدية. وبالنسبة لمتغير عدد الأصدقاء، فقد تبين أنه كلما ارتفع عدد الأصدقاء انخفضت نسبة القلق والاضطرابات الجسدية. كذلك الأمر فيما خص حجم الأسرة، إذ كشفت النتائج أنه كلما ارتفع عدد أفراد الأسرة كلما تدنى مستوى القلق والاضطرابات الجسدية لدى كبار السن» (نجوى اليحفوفي ونبال الحاج محمد: ٢٠٠٨، ٤٥).

ويلاحظ أن القلق والمخاوف –بصفة عامة– تزيد في الأمراض النفسية عموماً، حتى أنها قد تزيد على ضعف ما هي لدى الأسوياء، على نحو ما اتضح من أحد البحوث الميدانية التي قام بها (أحمد خيري حافظ: ١٩٨٩، ١٠–١٨).

٩ – الاكتئاب العصابي Neurotic Depression:

الاكتئاب العصابي يطلق عليه –أحياناً– الاستجابة الاكتئابية Depressive Reaction، وتسيطر على مريض الاكتئاب العصابي حالة من الهم والحزن والانصراف عن الاستمتاع

بمباهج الدنيا والرغبة فى التخلص من الحياة، مع هبوط النشاط ونقص الحماس للعمل والإنتاج وفتور فى الشهية للطعام والجنس، ويصاحب كل ذلك أرق واضطراب فى نوم المريض.

والاكتئاب العصابى يصيب الفرد بعد فقده لشخص أو شيء عزيز، أو تعرضه لموقف يستدعى الحزن. إلا أن الحزن الناتج لا يزول أو تخف حدته بمرور الوقت كما يحدث للأشخاص الأسوياء. لكن يظل فى شدته مع مرور الزمن، بل قد يتزايد. والاكتئاب العصابى لا تصاحبه هذاءات ولا هلاوس.

١٠ - العصاب الصدمى Traumatic Neurosis:

الإنسان يتعرض لمواقف ومنبهات مختلفة القوة، إلا أنه -عادة- يكون فى مقدوره السيطرة عليها والاستجابة لها استجابة تحقق له الكسب، أو تبعده عن الإضرار البالغ بشخصه. لكن، هناك بعض الأشخاص الذين يتعرضون لمواقف أو منبهات بالغة الشدة أو الخطورة بحيث لا يمكنهم السيطرة عليها، أو يجدون أنفهسم عاجزين عن منع ضررها عليهم، كما يحدث فى مواقف الزلازل وحالات الحروب والانفجارات والحوادث؛ وتسمى مثل هذه المواقف بالصدمات. وينتج عن بعض هذه المواقف أمراض نفسية تسمى بالعصاب الصدمى أو عصاب الصدمة، ومن أمثلتها عصاب الحرب War Neurosis .

ذلك أن «من يفاجأ بحدث داهم خطير يفقد معه السيطرة على الموقف يعدو ضحية لعصاب الصدمة؛ وذلك لأن الصدمة تولد كميات من التوتر تنصرف فى صورة أعراض مرضية أهمها تعطل وظائف الأنا المختلفة أو ضعفها، وأزمات انفعالية قهرية (يغلب عليها القلق والغضب خاصة) وأرق واضطراب فى النوم مصحوب بأحلام يتكرر فيها موقف الصدمة بغية السيطرة على الانفعالات المرتبطة به. وقد يسترجع المريض موقف الصدمة فى حالة اليقظة -أيضاً- فيحياه المرة تلو المرة فى أخيلته وأفكاره ووجدانه» (سامى محمود على: ١٩٦٣، ١٨٥-١٨٦).

١١ - اضطرابات ضغوط ما بعد الصدمة

Post-Traumatic-Stress Disorders (PTSD)

«اضطرابات نفسية تصيب من تعرضوا لأحداث أو ظروف مفاجئة صحبها ضغط نفسى شديد كان فوق احتمالهم مثل ظروف وأحداث الكوارث والحروب والزلازل، والاختطاف والاغتصاب والاعتقال، وحوادث السيارات.

ولهذه الاضطرابات أعراض عدة منها: تذكر الحدث الضاغط باستمرار والعيش مع انفعالاته العنيفة، وظهوره بشكل متكرر فى أحلام الفرد وعلى هيئة كابوس، وفقد الثقة فى النفس وفى الآخرين، والإحساس بتفاهة الحياة والرغبة فى التخلص منها، والتشاؤم من المستقبل وما يخبئه القدر، والخوف الزائد، والقلق الهائم، والعصبية، وعدم انتظام النوم، واضطراب الشهية للطعام والشراب، وصعوبة التركيز والتذكر،وكثير من الأمراض والاضطرابات السيكوسوماتية». (فرج عبد القادر طه ، ٢٠٠٩ ، ١٦٨ - ١٦٩) .

ويمكن اعتبار هذا الاضطراب تسمية جديدة ومستحدثة للعصاب الصدمى السابق ذكره مباشرة؛ لانتشاره الكبير فى وقتنا الحالى بسبب العمليات الإرهابية كثيرة الحدوث فى السنوات الأخيرة، وحروب التدمير والإبادة المنتشرة حاليًا فى العالم والتى تتعرض لها الدولة الضعيفة من جانب الدول والمجتمعات الأقوى؛ كما هو الحال فى فلسطين وأفغانستان والعراق، أو التطهير العرقى المنتشر فى كثير من الدول والمجتمعات الأفريقية. ولرغبة علماء النفس الإكلينيكى وعلماء الطب النفسى إبراز هذا الاضطراب والتركيز عليه بسب ضخامة انتشاره. وبهذا نقلوه من فئة مرضية هامشية، إلى طائفة مرضية هامة وخطيرة.

وحديثًا لفتت اضطرابات ضغوط ما بعد الصدمة انتباه العلماء العرب إليها فى محاولة لدراستها وتشخيصها وعلاجها نظراً للظروف المأساوية التى عاشها الوطن العربى فى الفترة الأخيرة مثل الحرب بين اليمن الشمالى واليمن الجنوبى، وغزو العراق للكويت، وحرب التحالف العالمى الذى قام بإخراج العراق من الكويت، وما تفعله إسرائيل من

اعتداءات مستمرة على الفلسطينيين وعلى جنوب لبنان، وأحداث الإرهاب التى وقعت فى مصر والجزائر، والحرب الأهلية اللبنانية؛ حيث خلق كل ذلك مآس وضغوطًا هائلة على مواطنى العالم العربى، مما استنفز كثيراً من علمائه لدراسة اضطرابات ما بعد الصدمة والتركيز عليها.

هذا؛ ويتحدث عن هذا الاضطراب كوسلين وروزنبرج بشكلَ أكثر توسعًا فيذكران أنه «أعراض سيكولوچية يمكن أن توجد كنتيجة لحدث صادم مثل الحرب، أو الإساءة الجنسية، أو الإرهاب أو الكوارث الطبيعية. فضحايا الاغتصاب على سبيل المثال، قد يصيروا خائفين من أن يتواجدوا منفردين، خاصة إذا كانت حادثة انتهاكهم قريبة العهد. فالنساء اللاتى اغتصبن قد يصبحن خائفات من الرجال أو ساخطات عليهم. وقد يخبرن مشاعر أكثر من السخط يقمن بتعميمها، وأيضاً قلة الحيلة، والإحساس بالذنب، وبالألم والأسى، والتأثر والقلق. وقد تتكون عندهن اضطرابات وصعوبات جنسية؛ لأن الفعل الجنسى أصبح مرتبطاً بهذه الخبرات والمشاعر السلبية. ويمكن أن ينمو لديهن أيضًا أعراض جسمية، مثل أنواع الصداع، ومرض البطن، ومشكلات الظهر، وعدم النوم، وضعف الشهية. وقد يصيبهن الاكتئاب فى فترات متقطعة لمدد طويلة، وتغشاهن حالة من الخوف وفقدان الثقة فى أى فرد بعد اغتصابهن. ويستمر ذلك عندهن لفترة طويلة» (Kosslyn & Rosenberg, 2004, 596).

كما يضيفان أن «تشخيص اضطراب ما بعد الصدمة يتحدد عندما تتوافر شروط ثلاثة مجتمعة: أولاً: أن يخبر الشخص أو يشاهد حادثاً يتضمن تهديداً فعلياً أو إصابة خطيرة أو موتاً. ثانياً: أن يستجيب المصدوم للموقف بالخوف والإحساس بانعدام الحيلة. وثالث هذه الشروط: أن يخبر المصدوم ثلاث مجموعات من الأعراض؛ إحداها هى الاستعادة المتكررة لخبرة (أو ذكرى) الحدث؛ بحيث يتخذ الأمر شكل اقتحام غير مرغوب فيه من جانب الذكرى على الرغم من الفرد (مما يذكرنا بإجبار التكرار بمفهوم التحليل النفسى)، ويكون ذلك ضد إرادته ومصحوبا بذكريات أليمة مع تلك الأحاسيس التى صاحبت الخبرة، أو أحلام أو كوابيس تصور الحادثة، أو تتضمن استعادة صورة الحادثة وذكرياتها؛ والتى قد

تتضمن خداعات وهلاوس وأحاسيس ومظاهر إحياء جديدة للخبرة. والمجموعة الثانية (من الأعراض) هى تحاشى وتجنب -بإصرار- أى شيء مرتبط بالصدمة مع حذر معمم ومنتشر ومملوء بالانفعال. أما المجموعة الثالثة فهى أعراض اليقظة والتنبه، والاستثارة والاستفزاز. والتى تجعل الناس المصابين باضطراب ضغوط ما بعد الصدمة يجفلون ويفزعون بسهولة (Chalev et al., 2000)، أو ينامون بصعوبة، أو يكونون فى حالة غالبة من اليقظة المفرطة Hypervigilance. ولا تظهر هذه الأعراض دائماً بعد حادثة الصدمة مباشرة، ويمكن أن تستمر هذه الأعراض لشهور وربما لسنوات؛ (المرجع السابق، ٥٩٦ – ٥٩٧).

ومما يؤكد ما سبق أن ذكرناه ما ذكره لاهى عن اضطرابات ضغوط ما بعد الصدمة من أن الرجال والنساء الذين خدموا فى الحروب ثم عادوا إلى حياة السلم فى بلادهم بعد انتهائها ظل كثير منهم يعانى من اضطرابات ضغوط ما بعد الصدمة حيث كان يلاحقهم استيقاظ ضميرهم لهول ما ارتكبوا من أحداث وهم يحاربون ويملؤ أحلامهم بالرعب والخوف. كما كانوا غالبا فاقدى الإحساس الانفعالى بالمباهج وغير مستمتعين بالمسرات.

وغالبًا ما يحسون بالذنب لأنهم نجوا من الموت فى الحرب وبقوا على قيد الحياة؛ بينما قتل زملاء لهم كثيرون أو أصيبوا إصابات بالغة فى المعارك؛ الأمر الذى يحسون معه غضبًا شديداً وضيقاً عاماً، ومنتشراً، وعذابا نفسياً مستمراً لسنوات بعد انتهاء المعارك. وكثير ممن مرضوا بضغوط ما بعد الصدمة قد شفوا منها، لكن كثيرين أيضاً أصبحت مزمنة عندهم كما يذكر (Engdahl & Others, 1977). كما يشير لاهى إلى تقديرات تقول إن حرب فيتنام (التى جرت بين أمريكا والثوار الفيتناميين فى منتصف القرن الماضى) قد خلفت على ما يبدو حوالى نصف مليون (500.000) مقاتل يعانون من مشكلات وأعراض ضغوط ما بعد الصدمة وفق ما يذكر (Barrett & Others, 1996; Egendorf & Others, 1981; Southwick & Others, 1995). فى حين نجد أن كثيرين ممن بقوا على قيد الحياة بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) لازالوا يعانون من أعراض

اضطرابات ما بعد الصدمة، وحوالى ثلث المساجين فى حرب اليابان خلال الحرب العالمية الثانية لازالت تتواجد فيهم أعراض اضطرابات ما بعد الصدمة وهم الآن فى السبعينيات من أعمارهم (Engdahl & Others, 1997). كما ينبهنا لاهى إلى أنه ليس كل المحاربين يعانون من اضطرابات ضغوط ما بعد الصدمة، إذ من المفهوم والمعروف والمتوقع أيضاً أن خصائص الفرد الشخصية والموقف الاجتماعى الذى يتواجد فيه سوف يؤثران على احتمالية قابليته واستعداده لاضطرابات ما بعد الصدمة. كما يشير لاهى أيضًا إلى أن الجنود الذين يلقون مساندات اجتماعية أكبر بعد الحرب يكونون أقل معاناة من اضطرابات ضغوط ما بعد الصدمة وفق ما يذكره (King & others, 1998). ويضيف لاهى إلى كل ذلك ما هو معروف من أن وعينا (ومعرفتنا) بضغوط ما بعد الصدمة قد نتج عن الجهود التى بذلت لمساعدة المقاتلين لكى يتخففوا من الآثار الانفعالية التى خلفتها كارثة الحرب. لكن المتخصصين النفسيين سرعان ما تنبهوا إلى أن اضطرابات ضغوط ما بعد الصدمة ليست قاصرة على الأشخاص الذين تعرضوا لويلات الحرب. ففى دراسة قومية موسعة على ٨٠٠٠ من الأفراد الراشدين فى أمريكا وجد أن ٥٪ من كل الذكور، و١٠٪ من كل الإناث قد عانوا Experienced ضغوط ما بعد الصدمة لمدة لا تقل عن شهر خلال حياتهم (Kessler. et als.. 1995) ومن بين ما عدده لاهى من أسباب ذكرها إلى جانب الحرب كان موت شخص محبوب أو عزيز، وأحداث الاغتصاب، وحوادث السيارات، ومشاهدة أحداث عنف، وحدوث الكوارث، وحوادث الاختطاف، والاعتداءات والتحرشات الجنسية (Lahey. 2001. 545). وعلى كل حال؛ فإننا نؤكد أن السبب الأساسى وراء تقديم ونشر مصطلح اضطرابات ما بعد الضغوط الصدمية هى الحروب دون غيرها، وما تخلفه من تدمير فى نفوس البشر الناجين من فقدان حياتهم فيها، أو الذين أصابتهم بتشوهات؛ أصابت نفوسهم، كما أصابت أجسامهم؛ على مستوى واسع فى أنحاء الكرة الأرضية، وفى سرعة خاطفة. «ففى عام (١٩٨٠) تم الاعتراف لأول مرة باضطراب ما بعد الضغوط الصدمية (PTSD)، وذلك فى الصورة الثالثة من المرشد التشخيصى الإحصائى (DSM-III). ويعود السبب الرئيسى فى التعرف على هذا الاضطراب بالوصف الذى عليه الآن إلى الحرب الفيتنامية. فقد لوحظ فى السبعينيات (١٩٧٠–) على الجنود الأمريكيين الذين

شاركوا فى حرب فيتنام أعراض اضطراب ما بعد الضغوط الصدمية، وذلك بعد تسعة أشهر إلى ثلاثين شهرا من تسريحهم من الخدمة العسكرية. وقد أثارت هذه الملاحظة دهشة الباحثين. فالمتوقع هو حصول أعراض هذا الضغط أثناء المعركة أو بعدها بأيام، وليس بعد انتهاء الحرب بسنتين أو ثلاث. بل إن قسما من أولئك الجنود ما يزالون يعانون أعراض هذا الاضطراب رغم مرور أكثر من ربع قرن على تلك الحرب، تقدر (بعض) الدراسات عددهم بنصف مليون من الجنود الذين شاركوا فعلاً فى حرب فيتنام (Weiten، 1998) (قاسم حسين صالح: ٢٠٠٢، ٨٢). الأمر الذى لفت أنظار بعض علماء النفس فى العالم إلى الاهتمام بهذا الاضطراب، وعمل دراسات وإصدارات علمية عنه مثلما فعل محمد أحمد النابلسى المتخصص السيكاترى والنفسى العربى فى لبنان، والمهتم بهذا الاضطراب نظراً للحروب الكارثية التى لا تكاد تنقطع فى عالمنا العربى، مما جعله يخصص لذلك كتابه: الصدمة النفسية: علم نفس الحروب والكوارث: ١٩٩١، كما ينشر فى مجلته الثقافة النفسية المتخصصة التى تصدر فى بيروت، مقالات كثيرة وأعداد شبه كاملة عن ضغوط الحروب وآثارها النفسية. ويمكن أن نشير بهذا الصدد إلى الدراسة الميدانية الحديثة التى قامت بها نجوى اليحفوفى ومحمد سكرية «للتعرف على العلاقة بين الأحداث الصدمية وعلاقتها باضطراب الضغوط التالية للصدمة والاكتئاب لدى عينة من جرحى المقاومة اللبنانية. فقد تكونت العينة من ١٠٠ فرد، ضمت المجموعة الأولى (التجريبية) ٥٠ فرداً من المقاومين الجرحى، والمجموعة الثانية (الضابطة) ٥٠ فرداً من المدنيين غير الجرحى. تراوحت أعمارهم ما بين ٢٠ و٤٥ سنة. استخدم فى الدراسة مقياس الأحداث الصدمية واضطراب الضغوط التالية للصدمة ومقياس بيك للاكتئاب. أكدت النتائج وجود فروق دالة إحصائيًا فى معدلات الاكتئاب واضطراب الضغوط التالية للصدمة بين المجموعتين؛ حيث تبين أن الجرحى كانوا أقل اكتئاباً وحصلوا على درجات أقل فى اضطراب الضغوط التالية للصدمة على الرغم من تعرضهم لنسبة أحداث صدمية أعلى». (نجوى اليحفوفى ومحمد بسام سكرية: ٢٠٠٧، ٦٥٣). مع ملاحظة أن الدراسة الميدانية تمت ابتداء من شهر أبريل وحتى آخر شهر يونيو من عام ٢٠٠٧، أى بعد حوالى سبعة

شهور من انتهاء الحرب (الإسرائيلية) على لبنان. وقد عزا الباحثان الصلابة النفسية للمقاومين الجرحى فى المقارنة بمجموعة المدنيين غير الجرحى إلى توحدهم بشخصية القائد الصلبة والإنتماء لجماعة مرجعية قوية (حزب الله)، وقناعاتهم الدينية المتأصلة.

١٢ – العصاب الخلطى Mixed Neurosis:

مرض يجمع بين أعراض مميزة لأكثر من مرض عصابى فى المريض الواحد، كالهستيريا والوسواس والحواز؛ مثل المريض المصاب بشلل هستيرى فى إحدى ذراعيه وتراوده باستمرار فكرة أن اللصوص سوف يهجمون عليه، ولهذا فهو يقوم عشرات المرات من نومه فى الليلة ليستوثق من غلقه جيداً للأبواب والمنافذ.

ثانيًا: الأمراض (أو الاضطرابات) الذهانية Psychoses

تضم فئة الأمراض الذهانية مجموعة من الأمراض والاضطرابات النفسية الشديدة، والتى تتميز بتأثيرها الخطير على الشخصية، بحيث تقعد الفرد عن التوافق مع من يعيشون معه وعن العمل المنتج، بل غالبًا ما يصل الأمر بالمريض لأن يصبح خطراً على نفسه وعلى الآخرين، بحيث يلزم حجزه فى المستشفى حماية له ودرءاً لخطورته على المجتمع. والمريض هنا يكون إدراكه للواقع مضطرباً، بحيث لا يعود يدرك فى الواقع ما هو موجود به فعلاً، بل ما يدور فى ذهنه هو، حتى ليكاد يختفى الفارق بين الواقع والخيال؛ كالنائم الذى يحلم فى نومه بأحداث وكأنها الواقع، بينما هى لا تعدو أن تكون تخيلات لا مقابل لها فى الواقع الفعلى المحيط به. وهكذا، قد يدرك الذهانى أخاه الحميم على أنه عدو لدود ينبغى أن يبادر بالقضاء عليه قبل أن يسبقه أخوه هذا فيقضى عليه، أو قد يرى الذهانى نفسه على أنه مجرد آثم يستحق الإعدام على ما اقترفه من جرائم (وهمية بطبيعة الحال) فيبادر إلى تنفيذ حكم الإعدام على نفسه فينتحر. وذلك بسبب شيوع أعراض الهلوسة والهذاء فى الأمراض الذهانية. ومن هنا، قولنا إن الذهانى –عادة– خطير على نفسه وعلى الآخرين، ويحتاج إلى احتياطات بالغة لحمايته من نفسه وحماية الآخرين من أضراره...

ولهذا، فإن الجرائم التى يرتكبها الذهانى لا يعد مسئولا عنها جنائيًا فى غالبية الأحوال، بحيث لا يجرم طالما أثبت الفحص أنه مريض ذهانى، بل إن المحاكم تحكم -فى مثل هذه الحالات- بالإيداع بالمستشفى لعلاجه والخروج بعد إتمام العلاج. إلا أن هناك بعض الجرائم التى ارتكبت فى مصر تجعلنا نحتاط كثيراً ونراجع فكرة التبرئة الجنائية للذهانى؛ مثل حادث مدعى النبوة فى الإسكندرية الوارد فيما بعد، ومثل الحادث الإرهابى الذى عرف بحادث ميدان التحرير ووقع عام ١٩٩٧ وفيه قام إرهابى بتفجير أتوبيس كان فيه سواح يزورون المتحف المصرى، فقتل منهم وجرح الكثير. وقد سبق لهذا الإرهابى أن قام بحادث قتل مماثل، وبُرئ عندما استطاع أن يثبت محاموه أنه مصاب بالجنون (الذهان) وأودع عند ذاك مستشفى الأمراض العقلية، إلا أنه هرب وشارك بشكل أساسى فى حادث ميدان التحرير، مما يدلل على أن التبرئة الجنائية للذهانى كثيراً ما تكون هى ثغرة قانونية يلجأ إليها المحامون ويستغلونها عن طريق الخداع والتدليس والرشوة وغيرها للحصول على براءة المجرمين، مما يسمح لهم بعد ذلك ويغريهم بارتكاب أبشع الجرائم تحت ستار أنهم مجانين (حسب الاصطلاح القانونى)، أو ذهانيون (حسب الاصطلاح العلمى)؛ طالما أن البراءة من الجرم مضمونة بعد ارتكاب الجريمة، لهذه العلة المرضية المزعومة فى حالات كثيرة لتبرئة المجرمين. مع ملاحظة أن المتخصصين النفسيين يميلون إلى عدم استخدام لفظ مجانين ويفضلون عليه لفظ ذهانيين لأنه أفضل لياقة وإنسانية؛ ولا يستخدمون لفظ الجنون ومشتقاته إلا عند الضرورة فقط.

إن الذهان يقابل الاصطلاح الدارج الشائع الجنون Insanity. والذهانى -عادة- لايدرك أنه مريض أو شاذ، لذا قلما يجئ الذهانى إلى المعالج طالبًا العلاج، بل إنه يقاوم العلاج عندما يجبره أهله على التماس العلاج. والنكوص فى التنظيم النفسى للمريض الذهانى يكون إلى مراحل الطفولة المبكرة جداً (المرحلة الفمية والمرحلة الشرجية الأولى). وهذا هو السبب فى أن مرض الذهان يكون أشد خطورة وأكثر تأثيراً على زعزعة كيان الشخصية وإفقادها اتزانها وتكاملها؛ كما سبق أن ذكرنا من قبل.

وعادة ما يقسم العلماء الأمراض الذهانية إلى نوعين:

(أ) الأمراض الذهانية الوظيفية Functional Psychoses.

(ب) الأمراض الذهانية العضوية Organic Osychoses.

وذلك حسب السبب الذى نشأ عنه الذهان، فإن كان السبب فى نشأة الذهان إصابة عضوية يمكن كشفها بالوسائل العلمية المعروفة كان هذا ذهاناً عضوياً، أما إن استحال تحديد سبب عضوى للذهان سمى ذهاناً وظيفياً. على أننا ينبغى أن نقرر أن الذهان لا ينشأ -فى الكثير من الحالات- عن سبب وظيفى فقط، أو سبب عضوى فقط، إنما يتكامل السببان -عادة- فى تكوين الذهان مع غلبة السبب العضوى فى الذهان العضوى، وغلبة السبب الوظيفى فى الذهان الوظيفى. ولهذا فليس من المستبعد وجود سبب عضوى وراء الذهان الوظيفى، ولا وجود سبب وظيفى وراء الذهان العضوى. وبهذا الخصوص نشير إلى دراسة عبد العزيز باتع الميدانية (عن دراسة الفروق بين مرضى الاضطراب الذهانى الوظيفى فى الأداء النفسى-حركى بمجلة كلية تربية بنها: اكتوبر ١٩٩٩) التى توصلت إلى (ظهور فروق بين كل من الأسوياء ومرضى الاضطراب الذهانى الوظيفى اكتئاب ذهانى-فصام هيبفرينى-هوس على الأداء النفسى حركى Psy-chomotor Performance) ؛ «وتم إرجاع تلك النتيجة إلى وجود كف وقائى عام فى المخ، إذ أن الخلايا العصبية لدى الفصاميين يمكن أن تكون فى حالة ضعف عام بحيث تؤدى المثيرات العادية إلى استجابات غير عادية، ولذا تستجيب قشرة المخ بحالة كف عام، بالإضافة إلى إمكانية وجود اضطراب أساسى فى الجهاز العصبى المركزى لدى مرضى الذهان الوظيفى». (عبد العزيز باتع محمد: ٢٠٠٥، ١٥٦).

هذا؛ ويعتبر كريبلين Emil Kraepelin (١٨٥٦-١٩٢٦) السيكاترى الألمانى الشهير؛ والذى تعلم المنهج التجريبى من فندت Wundt، وطبقه فى دراساته العلمية المبكرة، من الرواد الأوائل لعلم الأدوية النفسية Psychopharmacology وذلك بسبب دراساته المبكرة عن الآثار النفسية للكحول والمورفين. وفى عام ١٨٨٣ نشر مرجعًا شديد

الأهميـة -لازال يُرجـع إليه حتى الآن- عن الاضطرابات السيكاترية (العقلية) سبق به النظم التصنيفية الحالية، كما قدم فيه مصطلحات تشخيصية وأطلق مسميات مرضية لازالت صالحة حتى الآن؛ مثل البرانويا وذهان الهوس-الاكتئاب. كما قدم مصطلح «العته المبكر Demetia Praecox» والذى تغيرت تسميته الآن إلى الفصام (Viney & King, 2003, 222).

أما أشهر الأمراض أو (الاضطرابات) الذهانية عامة فهى:

١ - جنون الهذاء (البرانويا) Paranoia:

يعتبر جنون الهذاء من بين الذهان الوظيفى ومن حسن الحظ أن من يصاب به من المرضى العقليين يعتبر نسبة قليلة منهم تقدر بحوالى ٢٪ تقريبًا من نزلاء المصحات العقلية. ويتميز بوجود هذاء (أفكار ومعتقدات غير واقعية) منظم وثابت مع احتفاظ الشخصية -عادة- بإمكانياتها العقلية دون تدهور ناتج عن استمرار فترة المرض. فعلى سبيل المثال، يظل ذكاء الفرد وذاكرته ومعلوماته على ما هى عليه؛ دون أن يصيبها الضعف إلا على قلة وندور إن حدث. ويلاحظ أن محور تصرفات المريض يدور حول هذا الهذاء الذى يعتنقه، والذى لا يشك للحظة فى واقعيته وصدقه، ويتخذ المريض من إمكانياته العقلية التى لم تتدهور سنداً لتبرير صدق معتقداته الهذائية والدعوة بين الآخرين لتصديقها. وفى أغلب الحالات، توجد لدى المريض هلاوس (مدركات حسية بدون تنبيه خارجى) سمعية وبصرية.. تؤيد هذاءاته وتساندها.

أما الأفكار الهذائية التى يعتنقها مجنون الهذاء فهى كثيرة لا يشملها حصر، وإن كان يمكن تصنيفها فى فئات شائعة ثلاث، هى:

- هذاء العظمة Delusion of Grandeur.
- هذاء الاضطهاد Delusion of Persecution.
- هذاء الغيرة Delusion of Jealousy.

ففى هذاء العظمة، قد نجد المريض يعتقد أنه شخص عظيم، نبى، رسول، قائد كبير (ملك ملوك العالم)، أغنى الأغنياء بما يملك من جبال من الذهب... إلخ. بينما فى هذاء الاضطهاد، قد نجد المريض يعتقد أنه ملاحق من قبل هيئة أو منظمة أو شخص معين للاعتداء عليه أو قتله حسداً أو غيرة منه أو رغبة فى التخلص من منافسته فى العظمة وعلو الشأن... إلخ. فى حين أن فى هذاء الغيرة قد نجد المريض يغار غيرة جنونية على من يحب دون مبرر منطقى أو واقعى لهذه الغيرة... إلخ. وفى هذه الحالة، قد يصل الأمر إلى حد قتل غريمه أو حبيبه إن سنحت له فرصة لذلك.

وقد يصاب المريض بنوع واحد -فقط- من هذه الهذاءات، بينما قد يجمع مريض آخر بين أكثر من نوع منها. وقد ينجح المريض -أحياناً- فى إقناع البعض بصحة ما يعتقد. ومن ذلك ما نشرته جريدة الرأى العام السودانية فى ١٩٦٧/٣/١٨ عن مد سلطات زامبيا العمل بقوانين الطوارئ ستة شهور أخرى لقمع الاضطرابات التى تثيرها قبيلة لومبا التى منحت ولاءها لنبية زائفة تدعى لنشينا، زعمت أنها ماتت ثم بعثت للحياة، وقادت القبائل فى حركة تمرد دارت فيها معارك مع جيش زامبيا قتل فيها ٧٠٠ من أتباعها، وهرب ١٨ ألفاً منهم إلى الكونغو.

ولعل ما تطالعنا به الصحف بين الحين والآخر من اكتشاف أفراد يدعون النبوة ونجاحهم فى إقناع بعض الأتباع وتقديمهم جميعاً للمحاكمات القضائية أمثلة حية على صحة ما نقول. ولنأخذ مثلاً على ذلك ما نشرته جريدة الأهرام الصادرة فى ٢٠ يناير ١٩٨٦ عن حكم قضائى فى قضية من هذا النوع ذكرت فيها: «الإسكندرية-من حسين ثابت: أصدرت محكمة جنح أمن الدولة طوارئ بالإسكندرية حكمها بالحبس ٥ سنوات مع الشغل على الطبيب (.....) مدعى النبوة، وبالحبس ٣ سنوات لـ٥ متهمين، وبالحبس سنة لـ٤ متهمين، وستة شهور لـ١٠ متهمين، وتغريم ٤ متهمين ألف جنيه، وبراءة ٢. وكانت المحكمة قد عقدت جلستها أمس برئاسة أحمد غازى، ومثل الإدعاء فيها عبد السميع شرف الدين رئيس نيابة أمن الدولة العليا وهشام حمودة وعزمى رمضان وكيلا النيابة وبأمانة سر محمد عيسى وجمال نصير للحكم فى القضية المتهم فيها الطبيب و٢٥ آخرون

من أتباعه... وقبل أن ينطق القاضي بالحكم توجه إلى المتهمين بكلمة قال فيها... وأضاف أن المحكمة وقد اطلعت على كل تفصيلات ودقائق الدعوة لتقر بأمانة رسالة السماء التى تحملها، وأنه قد هالها ما أتاه المتهمون من فكر متطرف اغتصب المتهم الأول بمقتضاه بعضاً من صفات الله عز وجل، فهو يطيل الأعمار لمن يشاء ويرضى. ويميت من يشاء. ودعا الناس أن يحجوا إليه منكراً عليهم حج البيت الحرام بدعوة أن محمد بن عبد الله قد عاد وتجسد فى شخصه. ونسب نفسه وباقى المتهمين إلى آل البيت الأطهار، وحرّم صلاة الجمعة وإخراج الزكاة، وقام بتأويل بعض من آيات القرآن الكريم تأويلاً فاسداً يخدم أغراضه، وجعل منزلة الرؤى التى يراها وأتباعه -وهى ما أطلق عليه اسم التنزلات- فى مرتبة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. وأهان علماء الدين وفقهاءه وأساتذة جامعة الأزهر بنصيب وافر من التحقير والازدراء. وكان ذلك الفكر المتطرف ينطوى -بغير شك- على تحقير الدين الإسلامى وازدرائه. بل إن المحكمة ترى فى إهانة علماء الأزهر إهانة للدين الإسلامى ومعتنقيه عن طريق ازدراء حاملى رسالة البيان وأمانة التوحيد إلى هؤلاء الموحدين بدين الله. ولقد استقرت عقيدة المحكمة وارتاح ضميرها إلى أن المتهمين وغيرهم ممن لم يشملهم قرار الاتهام قد اعتنقوا هذا الفكر المتطرف وعملوا به، وروجه من استطاع منهم وطالت يده بين أهله وعارفيه. وبقى بين أحضان هذا الفكر الشيطانى لسنوات جاوزت -لدى بعضهم- زمناً استغرق عشرين عامًا، وحمل بين جنبيه ما قصد إليه المتهم الأول. ولكن المحكمة -رغم ذلك- تأخذ المتهمين بسماحة الدين الإسلامى وتترفق بالكثير منهم، وذلك برهان على أن الدين الإسلامى قد جاء بالرحمة والسماحة، ويبقى على ذلك المبدأ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها...» (حسين ثابت: أهرام ١٩٨٦/١/٢٠). ومن الجدير بالذكر أن من بين هؤلاء المحكوم عليهم فى هذه القضية أطباء ومهندسين ومحاسبين؛ من ذكور وإناث.

وحديثًا -وبعد أكثر من ثلاثة عشر عامًا على المحاكمة القضائية السابقة لمدعى

النبوة؛ تتحدث الصحف المصرية؛ وتعرض على الهيئات القضائية منذ ديسمبر ١٩٩٨ قضية أخرى لشخص ادعى النبوة والألوهية معًا، كشفته مباحث أمن الدولة بالإسكندرية؛ حيث ألقى عليه القبض ومعه تسعة عشر شخصًا من أتباعه فى الثالث عشر من ديسمبر ١٩٩٨.

وفى عدد مجلة روزاليوسف بتاريخ ١٩٩٩/٥/٢٢ نشر عاطف حلمى تحقيقاً موسعًا عنه تحت عنوان: «نبى مزعوم يظهر فى الإسكندرية»؛ يذكر فيه أن رئيس مجلس إدارة سابق لإحدى شركات الملاحة، وحاصل على ليسانس الآداب فى الفلسفة ادعى «أن روح الذات الإلهية وروح الرسول صلى الله عليه وسلم قد حلا فى شخصه. ومن ثم يتحدث بلسان الله سبحانه وتعالى. وكان يأمر مريديه بوجوب السجود له... وأمام نيابة أمن الدولة العليا قال المتهم إن الله موجود فى كل واحد منا بدليل أنه يعلم ما يفكر فيه الإنسان.. وقد اختاره الله -سبحانه وتعالى- أن ينطق بلسانه.. فإذا نطق كان كلامه هو كلام الله. ومن ثم تكون هناك حالة من التوحد بينه وبين الله... وأصر المتهم على ما يدعيه مؤكدا أنه غير مسئول عما يقوله لأنه يتحدث بلسان الله. ومن فتاوى المتهم مدعى النبوة والألوهية عدم جواز السجود فى اتجاه القبلة، أى الكعبة المشرفة. ويبرر فتواه أنه إذا فرضنا أن الكعبة رفعت من مكانها فهذا يعنى أن الناس يسجدون لبعضهم البعض، وبالتالى يكون السجود له هو فقط إذ يتمثل فى شخصه حضور روح الله... بل إنه يقول أيضاً إن الحج يجوز أن يتم فى منزله هو، وأن تؤدى مناسك الحج فى شقته... رغم أنه سبق وقام بأداء فريضة الحج أكثر من مرة... إلا أنه أعفى أتباعه من أداء هذه الفريضة. كما أفتى بجواز أداء الصلاة بغير وضوء، بل قصرها على ركعتين فقط لكل فرض...

«على جانب آخر فإن (...) وهو طالب بالصف الثالث الثانوى الفنى، أصر أمام النيابة أثناء التحقيقات على إيمانه الراسخ بألوهية المتهم... حتى أنه طلب أن يتم شنقه بدلاً منه. طالبا أن يكون كبش فداء نيابة عن الإله المزعوم؛ إلا أن المحكمة لم تستطع البت فى أمره حتى الآن فى انتظار رد الأزهر حول إمكانية تطبيق الحد على حدث فى مثل

هذه السن، لأنها المرة الأولى التى يتهم فيها حدث فى قضية من هذا النوع...

«وعند تقديم أوراق القضية إلى محكمة جنح العطارين بالإسكندرية قامت المحكمة بتأجيل الجلسة إلى الثالث من مايو (١٩٩٩)، ثم تأجلت مرة ثانية إلى حين سماع رأى مجمع البحوث الإسلامية وشيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية. ومن المتوقع أن يحضر شيخ الأزهر والمفتى لمقابلة المتهمين أو أن يرسلا رأيهما مكتوبا إلى المحكمة». (عاطف حلمى: نبى مزعوم يظهر فى الإسكندرية!: روزاليوسف، ٢٢ مايو ١٩٩٩، ٣٢-٣٤).

وتنشر روز اليوسف بعد هذا التحقيق مباشرة تحقيقاً هاماً لإقبال السباعى يُستطلع فيه رأى أئمة الدين والقانون حول سؤال هل يقام الحد على مجنون؟ بمناسبة هذه القضية (إقبال السباعى: روزاليوسف، ٢٢ مايو ١٩٩٩، ٣٤-٣٥).

وفى ٢٧ يوليو ١٩٩٩ كتبت الأهرام فى صفحة الحوادث تحت عنوان طويل «الحكم فى قضية مدعى الألوهية: الحبس ٥ سنوات للمتهم الأول، و٣ سنوات لـ٧، وسنة واحدة لـ٤، وبراءة ٥ من أتباعه-المتهمون استغلوا الدين فى إثارة الفتنة والترويج لأفكار متطرفة والإضرار بالسلام الاجتماعى ما يلى:

الإسكندرية من ناصر جويدة:

«أسدل الستار أمس على قضية مدعى الألوهية التى تضم ١٧ متهماً.. حيث قضت محكمة جنح دولة طوارئ العطارين بالإسكندرية بمعاقبة المتهم الأول (...) بالحبس لمدة خمس سنوات ومعاقبة ٧ آخرين بالحبس ثلاث سنوات مع الشغل والنفاذ وبالحبس سنة لـ٤ متهمين وبراءة خمسة آخرين. صدر الحكم برئاسة المستشار علاء شعبان رئيس المحكمة، وحضور سامح سيف رئيس نيابة أمن الدولة وعلاء الزهيرى وكيل النيابة وأمانة سر السيد محسن. وكانت النيابة قد وجهت للمتهمين تهمة استغلال الدين الإسلامى فى الترويج والتجهيز لأفكار متطرفة بقصد إثارة الفتنة وتحقير الدين والإضرار بالسلام الاجتماعى.. حيث زعم المتهم الأول حلول ذات الله وروح الرسول صلى الله عليه وسلم

فى المتهم الأول ونطقها بلسانه.. والقول بالسجود له وإسقاط فريضة الحج وإجازة إقامتها فى مسكنه واستحلال الأموال والنساء وقصر الصلاة المفروضة فى كل ميقات على ركعتين.. وطرح فريضة الوضوء والسنن والنوافل وتحليل الربا وشرب الخمر.. وأكد شهود الإثبات أن مدعى الألوهية زعم أن الرسول يتمثل فى شخصه وأنه يتكلم بلسانه وأنه يعلم الغيب، كما أكد شهود الإثبات أنهم يسجدون للمتهم الأول.

«وأكدت التحريات والتسجيلات والمراقبة التى تمت لجميع المتهمين أنه ثبت صحة ما ورد من بعض البلاغات ضد المتهمين... كما أكد بعض الشهود أن المتهم الأول كان يمارس شعائر الحج فى منزله وأنه سوف يغفر الذنوب لأتباعه ويدخلهم الجنة... وأنه طلب من أتباعه إستقطاب أتباع آخرين.

«ومن ناحية أخرى طالب دفاع المتهمين ببراءتهم لأن المتهمين، لا يمارسون سوى طرق صوفية شاذلية، وأن جريمة الترويج غير قائمة فى حق المتهمين. وطالبت النيابة العامة بتوقيع أقصى العقوبة على المتهمين باعتبارهم فتنة على المجتمع. وجاء فى تقرير لجنة الفتوى بالأزهر الشريف بعد الاطلاع على أشرطة الفيديو والكاسيت التى تم تسجيلها للمتهمين بعد استئذان النيابة العامة أن تلك الشرائط لا ترقى إلى الشرائط الدينية، وأن الرأى بحظر تداولها، وأن تفسير القرآن الكريم جاء على وجه غير صحيح، وكذلك هناك أخطاء فى الأحكام الشرعية.. وكذلك ورود أحاديث عن سيدنا عيسى غير مرتكزة على أدلة دينية، وهى أحاديث من وحى الخيال ولا جدوى ولا فائدة منها. وأن الأشرطة والتسجيلات ذكر فيها اسم المتهم الأول على أنه ضمن أكابر العلماء ومن أولياء الله الصالحين.

«وفى نهاية الجلسة قضت المحكمة بمعاقبة المتهم الأول بالسجن لمدة خمس سنوات، ومعاقبة سبعة من أتباعه بالسجن لمدة ثلاث سنوات مع الشغل والنفاذ. وقد قابل أفراد أسر المتهمين الحكم بالبكاء والإغماء، بينما تلقاه المتهمون بالوجوم والذهول وسط إجراءات أمنية مشددة للقاعة السادسة التى امتلأت عن آخرها بالمواطنين.

٢ - الاكتئاب Depression, Melancholia:

يعتبر الاكتئاب -عادة- من الذهان الوظيفى، وهو حالة من الاضطراب النفسى تبدو أكثر ما تكون وضوحاً فى الجانب الانفعالى للشخصية، حيث يتميز بالحزن الشديد واليأس من الحياة ووخز الضمير وتبكيته على شرور لم ترتكبها الشخصية فى الغالب، بل هى متوهمة إلى حد بعيد. ويقوم المبدأ النفسى القائل بأن النية تساوى الفعل بدور كبير فى تغذية الإحساس بوخز الضمير واستثارته ليأخذ بخناق الشخصية يؤنبها بقسوة، ويجعل حياتها جحيماً لا تطاق. وكثيراً ما تصاحب حالات الاكتئاب هذاءات وهلاوس تسندها وتدعمها. ومن هنا، كان احتمال انتحار المريض كبيراً، حتى يتخلص من هذه الحياة المملوءة بالحزن والهم واليأس والقلق والمخاوف التى قد تجعله قليل النوم، بطئ الحركة، رافضاً للطعام، وبالتالى يصاب جسمه بهزال شديد فى العادة. «وللاكتئاب الذهانى عدد من الأعراض الإكلينيكية التى قد تزحف ببطء على المريض، أو تظهر فجأة بعد عوامل مثيرة، مثل الولادة أو عمليات جراحية. وفى عديد من الأحوال يلاحظ تغير فى الشخصية والسلوك، قبل ظهور الأعراض الإكلينيكية المميزة، بل أحياناً يبدأ المرض بأعراض عامة مثل صعوبة التركيز، والتردد، وعدم القدرة على اتخاذ القرارات كسابق عهد المريض، مصحوبة بأمراض جسمية، وتوهم علل بدنية، أو محاولات للانتحار، أو الإدمان» (جمعه سيد يوسف: ١٩٩٤، ٥٨).

ومن الجدير بالذكر أن الأنصارى قام بدراسة ميدانية على ١٧٤٥١ طالبا وطالبة يدرسون بالجامعات فى ٤٣ مجتمعاً إسلامياً، حيث قسم عينة كل مجتمع إلى ذكور وإناث ليقارن بين الجنسين فى الأداء على مقياس الاكتئاب مستخدماً تطبيق قائمة بيك الثانية للاكتئاب. فتبين له وجود فروق دالة بين الإناث والذكور فى ١٨ مجتمعا حيث زاد الاكتئاب عند الإناث عن الذكور فى المتوسط فى كل هذه المجتمعات الـ١٨، كما زاد متوسط الإناث أيضاً فى كل المجتمعات الباقية لكن لم تبلغ الزيادة مستوى الدلالة. وعندما قارن بين عينة الإناث ككل بعينة الذكور ككل (أى فى كل المجتمعات الـ٤٣) تبين له أن متوسط الإناث كان أعلى فى الاكتئاب من الذكور بشكل دال. وعندما قارن

نتائجه بنتائج دراسات أخرى فى نفس المجال تبين أن دراسته تتفق فى نتائجها مع معظمها. مما جعله يستنتج أن «الطالبات أكثر اكتئابا من الطلاب. ومن هنا نستنتج بأن النوع يعتبر محددا هامًا للاكتئاب... وكأن الاكتئاب مظهر من مظاهر الأنوثة، بينما لا يعتبر الاكتئاب من خصائص الذكورة...» (بدر محمد الأنصارى: ٢٠٠٧، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤).

هذا؛ ويشير لورنس شافر إلى أن حالات الاكتئاب لا تصيب الوظائف الذهنية باضطراب خطير، ولا يتخلف عنها تدهور عقلى، كما يذكر أن ٦٥٪ من الحالات تشفى خلال سنة من بداية المرض (شافر: ١٩٥٥، ٤٢٠).

ويؤيد جمال التركى نفس النتيجة عندما يتحدث عن اكتئاب المرأة فيقول: «أجمعت العديد من الدراسات الميدانية على ارتفاع نسبة انتشار الاكتئاب عند المرأة مقارنة بالرجل، حيث لوحظ أن حالات الاكتئاب متساوية عند المرأة مع الرجل فى فترات ما قبل البلوغ وما بعد انقطاع الحيض. ويختل هذا التوازن ما بين هاتين الفترتين، من ذلك أنه بداية من سن البلوغ تبدأ نسبة الاكتئاب ترتفع عند المرأة، الأمر الذى أدى إلى البحث عن العلاقة بين الجهاز الهرمونى، والاكتئاب: ففى حين تؤكد بعض الدراسات أهمية العوامل الإحيائية الهرمونية نجد أخرى تعطى أهمية أكثر للعوامل البيئية الاجتماعية فى تداخلها مع العوامل الإحيائية.. إن أحداث الحياة الشخصية قد تؤثر على الحالة المزاجية وعلى الإفرازات الهرمونية الجنسية..» (جمال التركى: ٢٠٠٠، ٥٣). كما لوحظ أيضًا من الدراسات الميدانية أن ارتفاع مستوى الضغوط على الفرد من شأنه أن يرفع من الأعراض الاكتئابية لديه. (حسين على محمد فايد: ١٩٩٨، ١٥٥-١٩٢، وعماد محمد مخيمر: ١٩٩٧، ١٠٣-١٣٨). ولقد تبين أيضًا لعماد مخيمر من بحثه الميدانى وجود «علاقة حقيقية مباشرة ودالة بين درجات إدراك الحياة الضاغطة وبين درجات أعراض الاكتئاب لدى كل من الذكور والإناث وذلك بعد عزل تأثير تباين درجاتهم فى الصلابة النفسية، «حيث بلغت قيمة الارتباط بين الأحداث الضاغطة والاكتئاب لدى الذكور ٠,٣٩ ولدى الإناث ٠,٤٢ وبعد عزل تأثير الصلابة النفسية تناقصت قيمة الارتباط لدى

الذكور إلى ٠,٢٤ ولدى الإناث إلى ٠,٣٠ ،مما يشير إلى أن الصلابة النفسية تلعب (أيضاً) دوراً هاماً فى العلاقة بين الضغوط والاكتئاب، وأن الصلابة النفسية تقى الذكور أكثر من الإناث من أحداث الحياة الضاغطة، (المرجع السابق لعماد مخيمر، ١٢٥-١٢٧).

٣ – الهوس Mania:

يعتبر الهوس من الذهان الوظيفى، والهوس -شأنه شأن الاكتئاب- حالة مرضية تبدو أوضح ما تكون فى الجانب الانفعالى للشخص. ويحدد بورتنوف وفيدوتوف (Portnov & Fedotov: 1969, 65) أهم أعراض الهوس فى ثلاثة أمور هى:

١ – الشعور بالنشاط والخفة والبهجة والرضا عن النفس.

٢ – السرعة والتعجل فى كل العمليات العقلية، وصرف الانتباه وتحوله بسرعة شديدة، وميل نحو القيام بنشاط ينقصه التحكم والضبط، حتى أن الأمور التى بدأها المريض يتحول عنها بسرعة دون أن يتمها.

٣ – التعرض لأفكار هذائية تبين عن امتياز المريض وعظمته، وإلقاء المريض للنكت، وضحكه الكثير.

وهكذا يتبين لنا بوضوح أن حالة الهوس هى الحالة المناقضة تماماً لحالة الاكتئاب فى أعراضها، حتى أن التحليل النفسى -فى تفسيره لحالة الهوس- يعتبرها رد فعل Reaction لحالة نفسية أعمق؛ هى حالة الاكتئاب.

ويجمع لورنس شافر بين الهوس والاكتئاب فى ملاحظاته -التى سبق ذكرها عند تعرضنا للاكتئاب- من عدم إصابة الوظائف الذهنية، وعدم تخلف تدهور عقلى وشفاء ٦٥٪ من الحالات خلال سنة من بداية المرض (شافر: ١٩٥٥، ٤٢).

٤ – جنون الهوس والاكتئاب Manic-depressive Psychosis:

هذا؛ وكثيراً ما تتعاقب حالات الاكتئاب والهوس على المريض الواحد على هيئة نوبات أو دورات قد تفصل بينها فترات شفاء، وعندئذ يصدق على هذه

الحالة تسميتها بالجنون الدورى Circular Insanity or Circular Psychosis. (English & English: 1970, 87) ويفضل البعض تسمية أحدث لهذا المرض هى: الاضطراب مزدوج القطبين Bipolar Disorder باعتباره مرضًا أو اضطراباً ذا قطبين أقصاه (يمينا) الهوس، وأقصاه (يسارا) الاكتئاب، أما الوسط فهو الشفاء والسواء. ويحتل كل منا نقطة على هذا المتصل Continuum على اعتبار أن الفروق فى خصائص البشر هى فى الواقع مجرد فروق كمية وليست كيفية. وربما يفضل البعض هذه التسمية الحديثة لأنها أكثر لياقة إنسانية، ومراعاة لتحاشى وصم المريض بالجنون أو الذهان.

٥ – الفصام Schizophrenia:

«لحالات الفصام طائفة من الخصائص المميزة المشتركة. والعرض البارز فيها هو البلادة الانفعالية؛ فالمفصوم لا يكترث للحوادث التى تهز مشاعر الإنسان السوى، ولا يهتم بأصدقائه أو أسرته أو عمله، وهو–أيضًا– يهمل نفسه فيبدو متحشفًا قذراً. ويظهر على المفصومين عرض التفكك بدرجة فائقة تستوقف الانتباه. فيضحكون حين لا يوجد باعث على الضحك، كما أنهم لا يبدون أى انفعال حين تدعو الظروف إلى ذلك. فأرجاعهم منفصلة كل الانفصال عن عالم الخبرة الواقعى، وتقع الهذيانات والهلوسات لمعظم الحالات» (شافر ١٩٥٥، ٤٢٦).

ويعرِّف قاموس الطب النفسى لهنزى وشاتزكى (١٩٤٠) Hinisie & Shatzki الفصام، فيشير إلى أنه «اضطراب عقلى... لا يعرف حتى الآن ما إذا كان مصحوباً بخلل تشريحى، إلا أن الأبحاث الحديثة تشير إلى احتمال ارتباط هذا المرض –وأعراضه العقلية– ببعض النقص التكوينى أو الجبلى ذى الطابع الفسيولوچى. وأهم أعراضه عامة، هى: الانسحاب من الواقع، والأوهام والهلاوس والهذاءات الاضطهادية وغيرها. كما توجد لدى المريض اضطرابات فى الإدراك ترتبط بالنرجسية والجنسية المثلية والشبقية الذاتية، ومركب أوديب، ونقص فى الخلق والتوحد مع الكون. ويتكون لدى المريض من كل هذه الأعراض إطار عام خيالى فى تركيبه وتكوينه ولكنه –المريض– يتوافق بسهولة معه. إنه

يبدل بعالمنا عالمًا وهميا له فيه قدرات خارقة، يعلم كل شيء فيه ويتواجد في كل أمكنته وأزمنته، كله عالمٌ من العظمة وسلطان للفكر مطلق. ومعظم مرضى (الفصام) يأتون من الأناس الذين يوصفون -عادة- بالانطواء والحالمين، ومن هؤلاء الذين يفكرون أكثر مما يعملون، من هؤلاء اللاإجتماعيين منذ البداية، وينقسم الفصام إلى أربعة أقسام داخلية أو فرعية، هي:

١ - البسيط Simple ويختص بأعراض البعد والانسحاب من الواقع.

٢ - الكاتاتونى Catatonic وأكثر أعراضه وضوحًا هي التعبيرات العضوية السالبة والموجبة الشاذة.

٣ - الهذائى Paranoid تتضح فيه أعراض الهذاء المختلفة كالشعور بالاضطهاد أو العظمة.

٤ - الطفلى Hebephrenic، وأهم أعراضه التوحد الكونى المُغْرِب» (أحمد فائق: ١٩٦١، ٢٤-٢٥)، (وانظر -أيضًا- الشرح المفصل للفصام الهذائى فى: حسين عبد القادر محمد: ١٩٨٦؛ خاصة الفصل الثانى من الباب الثالث).

ومن الجدير بالذكر أن فريح العنزى وعويد المشعان قد وجدا فى بحثهما عن الشخصية الفصامية (ذات الملامح الفصامية) أنها تتميز بدرجة أعلى من التشاؤم ودرجة أقل من التفاؤل (فريح العنزى وعويد المشعان: ١٩٩٨، ٣٤-٣٥). كما أن شعبان جاب اللّه رضوان قام بدراسة ميدانية لاكتشاف العلاقة بين سمات الشخصية ذات النمط الفصامى وبين مهارات التواصل الانفعالى والاجتماعى لديها؛ على عينة ضخمة من طلبة الجامعة (٢٠٠ طالب و٢٢٠ طالبة). وطبق عليهم ثلاثة مقاييس لقياس النمط الفصامى ومقياسا للمهارات الاجتماعية. (شعبان جاب اللّه رضوان، ٢٠٠٦، ٥-٥٥). «وتشير نتائج الدراسة عموماً إلى وجود عدد من العلاقات السلبية الدالة بين سمات الشخصية ذات النمط الفصامى والمهارات الاجتماعية لدى كل منهما (مجموعة الذكور ومجموعة الإناث)». وفى تعليق شعبان رضوان على بعض ما وصل إليه من نتائج هامة يقول: «تتسق النتيجة

السابقة مع ما توصل إليه وولديك وميللر من أن أداء الأفراد ذوى الشخصية الفصامية كان أسوأ مقارنة بالأسوياء على مقياس المواقف الاجتماعية الشائعة والتفاعل الاجتماعى. وأيضًا مع النتائج التى توصل إليها سكودول وآخرون، حيث تبين أن ذوى اضطراب الشخصية ذات النمط الفصامى كان لديهم قصور فى الوظيفة الاجتماعية بدرجة كبيرة، (المرجع السابق، ٤٢).

وفى الدراسة الميدانية التى قام بها رأفت السيد تبين وجود فروق دالة إحصائياً فى اختبار وكسلر للذاكرة وفى اختبار ويسكونسون للوظائف المعرفية بين الأسوياء والفصاميين لصالح مجموعة الأسوياء (رأفت السيد أحمد السيد: ٢٠١٠، ٧٣).

هذا؛ ويشير عادل خضر إلى أن رسوم الفصاميين الإسقاطية وغيرهم من الذهانيين مضطربى التفكير يتضح منها أنها غير مترابطة وعديمة التناسق. كما أنها مليئة بشتى أنواع التشويه والتمزيق والمتناقضات. ومن دراسته الميدانية التى قارن فيها بين نتائج تطبيقه لاختبار رسم الشخص لكارين ماكوفر على ٣٥ من المرضى بالفصام المزمن كمجموعة تجريبية و٣٥ من الأسوياء كمجموعة ضابطة أن هناك فروقاً دالة إحصائياً بين الفصاميين والأسوياء فيما يتعلق بحذف أعضاء الجسم هى: ١- حذف العين، ٢-حذف الأذن، ٣-حذف الشعر، ٤-حذف الأذرع، ٥-حذف الأيدى، ٦-حذف الأصابع. كما كانت هناك فروق مماثلة فى نفس الاتجاه فيما يتعلق برسم الملابس ومتعلقاتها حيث قلت قطع الملابس ومتعلقاتها بشكل دال فى ٦ عناصر من ٧ اهتمت بهم الدراسة. كما شاع تشويه نسب أعضاء الجسم مثل المبالغة فى كبر حجم الرأس بالنسبة للجسم... (عادل كمال خضر: ٢٠٠٣، ٦-٢٤).

ومن هنا، فإننا نجد علماء، مثل ميليس كولبن Millais Culpin عندما يكتبون عن الفصام يضعون عنواناً له "Schizophrenia or Split Mind" الفصام أو العقل الممزق (Culpin: Unknown, 24-25) إشارة إلى أن هذا المرض... يمزق العقل ويصيب الشخصية بالتصدع، فتفقد بذلك التكامل والتناسق الذى كان يوائم بين جوانبها الفكرية والانفعالية

والحركية والإدراكية، وكأن كل جانب منها أصبح فى واد عن بقية الجوانب، ومن هنا تبدو غرابة الشخصية وشذوذها.

وعلى الرغم من شيوع الاعتقادات بأن الفصام ذهان وظيفى إلا أن كثيراً من الدراسات الحديثة تشير إلى وجود عوامل وراثية وعضوية وراء الإصابة بالفصام. وفى هذا الصدد يذكر جوتزمان وشيلدز Gottesman & Shields أن التحليل الأولى لبحثهما عن الفصام فى التوائم Schizophrenia in Twins يؤيد وجود الاستعداد الوراثى للتعرض لهذا المرض كجينات تهيئ للإصابة به. كما يضيفان «يبدو، من حقيقة أن التوأم المتطابق Identical Twin للفصامى يكون لديه احتمال أن يكون فصامياً يعادل -على أقل تقدير- ٤٢ ضعفاً للشخص من المجتمع العام، ومن حقيقة أن التوأم المتآخى Fraternal Twin من نفس الجنس لديه نفس الاحتمال بما يعادل تسعة أضعاف، أن العوامل الجينية Genetic Factors (الوراثة) هى -إلى حد كبير- مسئولة عن البنية الخاصة لمعظم الفصاميين» (Gottesman & Shields: 1971, 105-106).

٦ - خبل الشيخوخة Senile Dementia:

خبل الشيخوخة،أو جنون الشيخوخة Senile Insanity، أو ذهان الشيخوخة Senile Psychosis، هو اضطراب عقلى يصيب الشخصية نتيجة تقدمها فى السن، ويشير دريك Raleigh Drake إلى أن ظهوره يبدأ -تقريباً- فى سن الستين كنتيجة لتدهور عقلى ناجم عن كبر السن، ومن أعراضه نقص الذاكرة خاصة للأحداث القريبة، والتدهور العقلى وخاصة فى القدرة على التركيز، والأنانية، ونقص الاهتمام بالأحداث الجارية، وسرعة الغضب والتقلب الانفعالى (Drake, R.: 1966, 64).

وعن خبل الشيخوخة: يقول لورنس شافر Shaffer: «كثيراً ما يؤدى سوء تغذية المخ فى الشيخوخة إلى تغيرات فى السلوك، وخاصة إلى تعطيل الوظائف الذهنية وكثير من هذه الحالات يضاعفها تصلب شرايين الدماغ (و) تبدى حالات خبل الشيخوخة غير المختلطة بغيرها صورة تمثل بالضبط ما تتضمنه التسمية: انحلال العقل فى الشيخوخة. وقد تعانى

الحواس والغدد والجلد والشعر لدى عدد من الطاعنين فى السن من التغيرات المميزة للشيخوخة، كما يصاب الدماغ بنوع مماثل من الانحلال -أيضًا- فيقل وزنه وتتكمش التلافيف وتصاب كثيرمن الخلايا العصبية بالانحلال. أما الأعراض الذهنية فإنها تظهر تدريجيًا، والأعراض الأولى تنحصر -عادة- فى ضعف الذاكرة للأمور القريبة، فلا يستطيع العجوز أن يذكر الأشخاص الذين قابلهم قريبًا وإن كان لا يزال قادراً على استحضار ذكريات الطفولة بكثير من التفاصيل. ثم يعقب ذلك طور آخر من الخبل فينسى المريض حتى الأمور التى تعلمها منذ زمن طويل، ويصبح غير قادر على ذكر اسمه أو عمره أو مهنته السابقة. على أن تدهور الذاكرة قد يكون غير منتظم فى بعض الحالات، ومن قبيل المثال، أن أحد المرضى لم يكن واثقًا من اسمه، لكنه كان مستطيعًا أن يذكر اسم اثنين من مدرسيه فى الطفولة. ويموت المرضى بخبل الشيخوخة -عادة- من أمراض مصاحبة كالالتهاب الرئوى، أو يصيرون إلى غيبوبة حتى يموتوا بهدوء من الشيخوخة وحسب. ولكن أحداً منهم لا يشفى. وإذا كان كثير من المرضى بخبل الشيخوخة قانعين ومبتهجين، فإن غيرهم يظهرون من السلوك ما يجعل الحياة معهم متعذرة، وبعضهم يصبح سريع التهيج أنانيًا نزاعًا إلى الشجار، والأرجح أن هذا كله استجابة لعجزهم عن القيام بعمل ما يلزم لأنفسهم. وقد يظهر الهذاء فى أحيان قليلة. فيعتقد المريض أن أسرته تحاول دس السم له أو الغدر به، ولكن الهذاء لا يحدث -عادة- إلا للأشخاص الذين كانوا ينزعون إلى الشك وعدم الثقة بالغير فى سالف أيامهم، فإن انحلال الشيخوخة يطلق عادات التفكير المعوج التى تكون قد تكونت فى حياة بطولها ويضاعف منها. وقلما يظهر خبل الشيخوخة فى أشخاص دون الستين، ومتوسط السن لبدء هذه الحالة كان فى إحدى الدراسات ٧٤ سنة. فإن بعض الناس تدركهم الشيخوخة فى الستين بينما يصل غيرهم إلى التسعين دون أن يتأثر بشىء. وهذا الاختلاف راجع إلى العوامل ذاتها التى تقرر الشيخوخة البدنية؛ كالجبلة والأمراض والغذاء وطبيعة العمل الذى قضى الفرد فيه حياته. وهناك بعض الدلائل على أن إدمان الخمر وبعض الأمراض المعدية المعينة تسرع بالإنسان إلى الشيوخة، (شافر: ١٩٥٥، ٤١٠-٤١٢). وينبغى أن نضيف إلى الجملة الأخيرة -التى

اقتطفناها من شافر- حقيقة أن إدمان الخمر لا يسرع فقط بالإنسان إلى الشيخوخة، بل كثيراً ما يصيبه بالذهان الكحولى Alcoholic Psychosis والذى يشبه فى بعض أعراضه ذهان الشيخوخة، وبالمثل -أيضاً- يمكن أن بعض الأمراض المعدية لا تسرع -فقط- بالإنسان إلى الشيخوخة بل إنها قد تصيبه بالذهان، كذهاب الزهرى Syphilitic Psychosis، أو مايعرف بالشلل الجنونى العام General Paralysis of the Insane، عندما يصل ميكروب الزهرى لدرجة التأثير فى الدماغ. ويمنعنا ضيق المجال من إفراد حديث مفصل عن الذهان الكحولى وذهان الزهرى، مكتفين بالقول بأنهما يشبهان فى بعض أعراضهما بعض أعراض خبل الشيخوخة إلى حد كبير؛ نظراً لأن ثلاثتهم ينجمون عن خلل بنائى تشريحى يصيب خلايا الجهاز العصبى بالضمور والعطب والموت والتدمير. ولهذا، يعد كل من الثلاثة ضمن الذهان العضوى.

٧ - مرض أَلْزَهايمر Alzheimer's Disease:

شكل نادر من خبل ما قبل الشيخوخة Presenile Dementia يحدث فى مرحلة مبكرة نسبياً (عادة فى سن الأربعينيات والخمسينيات، وينسب إلى مكتشفه طبيب الأعصاب الألمانى ألزهايمر (١٨٦٤-١٩١٥) Alois Alzheimer، الذى وصفه لأول مرة عام ١٩٠٧. وتشبه أعراضه -إلى حد كبير- أعراض خبل الشيخوخة، إلا أنه يحدث فى مرحلة مبكرة نسبياً، ويتطور بسرعة. وينتهى فى خلال أربع أو خمس سنوات -عادة- إلى الوفاة (Goldenson: 1984, 35). ويرجع هذا المرض إلى عطب وتدهور يصيب خلايا المخ. ويقول عنه برونو: «ويتميز مرض ألزهايمر ليس فقط بفقدان الذاكرة ولكن بعلامات وأعراض أخرى؛ مثل الذهول والارتباك وفقدان الثقة، والنشاط غير الضرورى والاهتياج. وقد اتضح من فحص المرضى بعد موتهم بالزهايمر موت عديد من الخلايا العصبية فى الجزء الأمامى من المخ، كما أن المحاور العصبية الخارجة من الخلايا العصبية تكون معقدة ومتشابكة؛ مثل خيوط كرة الصوف...» (برونو: ١٩٩٣، ٢٦١).

وهناك تفصيلات أخرى أضافها بورتنوف وفيدوتوف: مثل كونه يتميز بتدهور نفسى واضح؛ مثل الاضطراب الشديد فى الذاكرة والتفكير والتوجه والأداء الحركى المتناسق. فيبدو الفرد غير قادر على معرفة ما يدور حوله، ولا يفهم ما يقال له، ويعجز عن النشاط الحركى الصائب. ويضطرب نطقه وكلامه، ويكرر نطق مقاطع لا معنى لها بدلاً من نطق كلمات كاملة ذات معنى. وقد ينتهى به الأمر إلى فقدان تام للقدرة على التعبير بالكلام، ويستمر المريض فى التدهور لبضع سنوات تنتهى بالوفاة (Portnov & Fedotov: 1969, 160).

٨ – الصرع Epilepsy:

يعرّف إنجلش وإنجلش (English & English: 1971, 18) الصرع بأنه اسم يطلق على نوع من الأمراض العصبية Nervous Diseases مظهرها الأساسى هو التشنج Convulsion. ويضيف أن نوبات الصرع مختلفة الشدة وأيضًا مختلفة التكرار. كما أن جيمس دريفر (Drever: 1974, 85) يعرفه بأنه مرض السقوط وأنه اضطراب فى الجهاز العصبى Nervous System يتضح فى نوبات تقع للمريض على فترات غير منتظمة، حيث يقع فيها المريض على الأرض مصاباً بتقلصات عضلية، وفاقداً وعيه، مع زبد (رغوة) على فمه.

ويذكر شافر «ليس الصرع بالذهان تمامًا ولكنه اضطراب خطير له فى الأرجح أساس عضوى، والعلامة النموذجية للصرع نوبة تشنجية وهى حالة على قدر كبير من التناسق والاطراد من مريض لآخر. وقبل حدوث النوبة يصاب المصروع بعلامات تمهيدية تتكون من ومضات من الضوء أو أصوات ذاتية أو لحظات من الغثيان، أما النوبة الحقة فإنها تبدأ حين يصبح المريض متصلباً ويقع فاقد الشعور، وبعد بضع ثوان تبدأ التشنجات فى صورة انقبضات وارتخاءات إيقاعية للعضلات كما يظهر زبد اللعاب من حركة الفم، وقد يعض اللسان نتيجة تحركات الفك التشنجية. والنوبة النموذجية تستغرق دقائق قليلة يظل المريض فاقداً لشعوره بعدها فترة من الزمن بينما بدنه فى حالة استرخاء. والعادة أن يكون الفرد

عقب النوبة متعبًا منهبطاً... وقد أمكن إيضاح الأساس العضوى للصرع فى السنوات الأخيرة بوساطة الرسم الكهربائى للدماغ (ردك) الذى يسجل التغيرات التى تحدث فى النشاط الكهربائى للدماغ، وهى تسمى بـ(الموجات الدماغية). ويختلف الرسم الكهربائى للدماغ لدى المصروعين عن رسم الأسوياء من الناس. وهو يساعد فى تشخيص طراز الصرع، وشدة الحالة المرضية، وفى بعض الحالات تحديد الموضع الذى يبدأ منه الاضطراب فى الدماغ. أما أسباب هذا النشاط الكهربائى غير السوى فليست معروفه على وجه يقينى وإن كانت مثل عوامل الوراثة وإصابات الدماغ عند الولادة وغيرها من حالات التلف وأورام الدماغ قد ذكرت فى تعليلها. والأرجح أنه ليس للصرع سبب واحد ولكن عدة أسباب تؤدى كلها إلى النتيجة النهائية نفسها تقريباً. كما أنه لا يوجد علاج شاف وحيد للصرع، ولكن بعض الحالات المنتقاة أمكن مساعدتها بجراحات المخ وأخرى بالعقاقير أو بتنظيم الغذاء» (شافر: ١٩٥٥، ٤١٨-٤١٩).

ونظراً لأن نوبة الصرع قد تفاجئ المريض فى أى وقت دون سابق توقع، فإن المصروع يُنصَح دائمًا بأن يرافقه باستمرار أحد الناس حيثما يذهب خارج بيته حتى لا يصيبه حادث يضره، فقد تصيبه النوبة وهو يقطع طريقاً فتدهمه سيارة، أو وهو يسبح فى الماء فيغرق.. لذا حيثما كان احتمال ضرره من نوبة الصرع فلابد أن يصحبه مرافق.

وينبغى أن نفرق هنا بين حالة الصرع وحالة الإغماء الهستيرى أو التشنج الهستيرى التى تشبه إلى حد كبير حالة الصرع باستثناء أن نوبة الهستيريا لا تصيب المريض إلا فى المواقف التى تحقق له فيها كسباً وفائدة شخصية. فالنوبات الهستيرية تصيب المريض فى موقف يأمن فيه على نفسه، ويكون عادة بين أفراد يهبُّون لمساعدته، ويؤنبهم ضميرهم إن كانوا أساءوا إليه فلا يعودون لمثل هذه الإساءة، خاصة إن كانت النوبة متسببة عن هذه الإساءة وعقبها مباشرة. وهنا يبدو بوضوح أن المريض بالنوبات الهستيرية يستدعيها بإرادة لا شعورية عمدية تحقيقاً لفوائد مقصودة وهروباً من وطأة مواقف ضاغطة انفعالياً إلى حالة من اللاوعى بها وبما يتعلق بها، فيهرب عن طريقها من هذا الضغط، ويتخفف منه.

ثالثا: السيكوباتية Psychopathy

السيكوباتية تمثل السلوك الذى يعد مضاداً للمجتمع وخارجًا عن قيمه ومعاييره، وقواعده وقوانينه. ولهذا، فإن السيكوباتية تشمل انحرافات السلوك والخلق، ويطلق عليها فى كثير من الأحيان الانحراف السيكوباتى.

ويعرض صبرى جرجس بعض التصنيفات والنماذج الخاصة بالشخصية السيكوباتية، كما يراها بعض العلماء الذين تصدوا لتصنيفات الأمراض النفسية، مثل ستريكر Strecher، حيث يقول عنه: «وجاء تصنيف ستريكر للسيكوباتية متضمنًا النماذج الآتية:

١ – المجرمون. ٢ – المتقلبون انفعالياً.
٣ – غير الأكفاء. ٤ – أشباه البارانويين.
٥ – مدمنو المخدرات والخمر. ٦ – الأفاكون.
٧ – النصابون. ٨ – المصابون بجنون السرقة.
٩ – المصابون بجنون إشعال النار. ١٠ – المنحلون خلقياً.
١١ – المنحرفون جنسياً. ١٢ – أشباه المتذمرين.
١٣ – مدعو المرض» (صبرى جرجس: ١٩٥٧، ٣٠٣–٣٠٤).

هذا؛ وقد عرض محمد عبد الحكيم فى مقاله عن التشخيص المقارن للحالات السيكوباتية (محمد عبد الحكيم: ١٩٤٩، ٣٢١–٣٢٨) وجهة نظره فى الحالات السيكوباتية، والتى يرى أن «أهم سماتها ما يلى:

١ – يجب أن تظهر نزعاتهم منذ سن مبكرة فى صورة أعمال مضادة للخلق، أو فى صورة تكبر ظاهر وعناد لسلطة الكبار. على أن هذه الصفات قد لا ترى فى أحيان نادرة إلا فى العقد الثانى من العمر.

٢ – السيكوباتيون غير قابلين للشفاء، وهم يقومون بأعمالهم المضادة للمجتمع بإلحاح، فهم لا يستجيبون للعقاب أو التعلم أو العلاج، على أن بعض الثقات يقولون إن بعضهم يتحسن أو يشفى بتقدم العمر؛ أى حين يصل إلى متوسط العمر مثلاً. وينبغى بحث نقطة العقاب دون جدوى بعناية، فكثيراً ما يذكر الآباء أنهم كانوا يعاقبون أبناءهم على سوء خلقهم دون نتيجة...

٣ – يرتكب السيكوباتيون أعمالهم دون خجل. وفى بعض الأحيان علانية، بل لقد يفاخرون بها. وليس فى مقدورهم أن يحتفظوا بسرية أعمالهم. وقد يدركون باللفظ خطأ هذه الأعمال ولكن ينقصهم نمو العواطف. وهم يستخفون بالأمور ولا يتحمسون لشىء، كما أنهم على كثير من فجاجة الانفعال. ولكنهم –من ناحية أخرى– يعجزون عن أى تدبير معقد. وقصاراهم أن يقوموا ببعض الحيل الصغيرة التى يسهل كشفها. ويعوزهم بعد النظر، فإذا استطاعوا القيام بخطط معقدة أو الاحتفاظ بسرية أعمالهم فهم مجرمون وليسوا سيكوباتيين.

٤ – وهم لا ينتفعون من التجربة السابقة برغم ما يبدو عليهم فى الظاهر من سواء أو تفوق ذهنى، كما أنهم يعيشون فى ملذات الحاضر، وتجرفهم أهواء اللحظة الراهنة. وهم لا يعبأون بالنتائج التى يتعرضون لها من أعمالهم، أو التى يتعرض لها أقاربهم أو المجتمع. وإن نقص قوى الضبط والكف عندهم ليجعل منهم لعنة المجتمع.

٥ – والسيكوباتيون يرتكبون جميع أنواع الجرائم؛ أى أنهم لا يتحصنون فى جريمة بعينها، فهم يسرقون ويكذبون وينصبون، وغير ذلك من أنواع الجرائم الصغيرة، ولكنهم قد يرتكبون الجرائم الخطيرة التى تصل إلى حد القتل، وإن كان الأغلب أن جرائمهم يقل فيها العنف ولا تتجاوز الجرائم التافهة. أما المجرمون المحترفون فإنهم غالبًا يتخصصون فى الجريمة التى يرتكبونها.

٦ – وجرائم السيكوباتية لا معنى لها، فهم يسرقون أشياء لا نفع لهم منها، وهم يكذبون حين ينجيهم الصدق، وفى حالات الكذب المرضى لا يبدو أن هناك سببًا على الإطلاق لأكاذيبهم. والواقع، أنهم يكذبون للكذب كهدف فى حد ذاته، وهذا هو الأمر

كذلك فى السرقة والنصب وكل ما يرتكبون من جرائم. وهم لا ينتفعون من أعمالهم الشريرة. فإذا انتفعوا مادياً منها فهم ليسوا سيكوباتيين بل مجرمين.

٧ – وعلى الرغم من استمرار سلوكهم المضاد للمجتمع فإنهم يبدون أمام الغرباء كقوم ظرفاء. والواقع، أن عدم الاستقرار على حالة واحدة سمة ظاهرة فيهم.

٨ – وسوء السلوك عند السيكوباتيين له صفة الإدمان بعكس المجرمين الذين يظهر سلوكهم السيئ فى نوبات متقطعة؛ لأنهم ينتظرون خير فرصة لارتكاب جرائمهم دون افتضاح. (المرجع السابق، ٣٢٣-٣٢٥).

ثم يمضى محمد عبد الحكيم فيعقد مقارنة على جانب كبير من الأهمية بين السيكوباتية «والجناح العادى» فيقول: «الجانحون العاديون يقومون بأعمالهم عن تعمد وقصد وينتفعون منها، ويستطيعون وضع خطة معقدة لخدمة أهدافهم حين تكون فرصة الافتضاح واهية، وسلوكهم دورياً وليس مستمراً. وهم على مهارة فى إخفاء أخطائهم، فإذا عوقبوا فإن عندهم من (الفهم الطبيعى) ما يكفى للانتفاع من العقوبة فيبدون الحذر عند ارتكابها مرة أخرى. كما أن عندهم شيئاً من بعد النظر. أما السيكوباتيون فإنهم على ذكاء وحدة، وهم كثيراً ما ينحدرون من أسر لها مكانتها الاجتماعية الطيبة أو المثالية، كما أنهم على كثير من الظرف والجاذبية،ولكن حالتهم غير قابلة للشفاء. وهم الرابطة بين الذهانيين والعصابيين من ناحية وبين المجرمين العاديين من ناحية أخرى، والتمييز بينهم وبين المجرمين قد يكون عسيراً جداً في بعض الأحيان، ولا يستطيعه إلا ذوو الخبرة بعد فحص شامل مدقق –غير متحيز– لجميع الاعتبارات، وبعد تقديم كل البيانات عن الحالة...» (المرجع السابق، ٣٢٦).

هذا؛ وتولع الصحف –سواء المحلية منها أو العالمية– بعرض أحداث طريفة بين الحين والآخر؛ مما يعتبر أمثلة حية وواقعية عما ذكرناه عن السيكوباتية. فهذه –على سبيل المثال– جريدة الأهرام تضع عنواناً رئيسياً لبابها من غير عنوان فى عددها الصادر فى ١٩٩٩/٥/١٧ يقول «القبض على زوجة عمدة كبرى المدن الكندية بتهمة السرقة. وتقول تحت هذا العنوان: مونتريال –مكتب الأهرام: قرر الاتحاد العام للمعلمين فى كيبيك– ويعد

أكبـر اتحـاد للمعلمـين فى الإقليم الفرنسى بكندا ويبلغ عـدد أعضـائه أكثـر من ٢٠٠ ألف مـدرس فصـل (...) رئيسـة الاتحـاد مـن منصبها وسحب العضوية منها، بعد أن اعترفت بسرقـة قفاز من الجلـد من أكبر محـال المـلابس فى مونتريال، وألقى القبض عليها متلبسة بالسرقة. وألقت الشرطة القبض على (...) زوجة عمدة تورنتو -كبرى مدن كندا- وفى حـوزتهـا بنطلونان من الحـرير من فـرع نفس مـحل الملابس فى تورنتـو، وعندمـا نشـرت الفضيحة فى التليفزيون الكندى، هدد العمدة الصحفى الذى أذاع الخبر بالقتل....»

ويكاد كليكلى -فى الفصل الذى كـتبـه عن السيكوباتيـة فى كـتـاب علم نفس الشـواذ المعـاصـر- (Cleckely: 1973, 199-233) يتـفق بصـفـة عـامـة مـع غـالبـيـة مـا تقـدم من خصـائص الشخـصيـة السيكوباتيـة، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يذكر أن السيكوباتى الحـاد أقرب إلى الذهانى منه إلى العصابى، وذلك استناداً إلى عدم إحساسه بشذوذ سلوكه وعدم سعيه لعلاج انحرافاته، وعدم شعوره بالقلق إزاءها (المرجع السابق، ٢٠٧-٢٠٨).

ولعل ممـا تقـدم يتـضح السـبب الرئيـسى الذى يـجـعل بورتنوف وفـيـدوتوف يسـتـهـلان الفصل الذى كتباه عن السيكوباتية بعبارة: «السيكوباتية هى أعقد ميدان فى الطب النفسى» (Portnov & Fedotov: 1969, 304). ويشاركـهمـا صبرى جرجس نفس الرأى حيث يستهل -أيضاً- كتابه: «مشكلة السلوك السيكوباتى» بـ « لم يمتحن علم الصحـة العقليـة الاجتماعية بمشكلة أكثر تشعبًا ولا أشد تعقيداً، ولا كـانت ومـا تزال، موضعًا لاختـلاف الرأى وتبـاين وجـهـات النظر فـيمـا يتـصل بأسبـاب نشـوئهـا وعـوامل تكوينها وتعدد مظاهرها وأعراضـهـا وطرائق مـداواتهـا ومـلافـاتهـا من مـشكلة (الشـخـصيـة السيكوباتيـة)، التى تأتلـف أشـتـاتـاً من الناس الخارجين على المألوف، غير الأسوياء، الذين على الرغم من شذوذهم وعدم سوائهم لا يمكن أن ينتظموا فـى أى من النمـاذج المعروفـة المتـفق عليـهـا للمرض العقلى» (صـبـرى جرجس: ١٩٥٧، ١).

ويشير بورتنـوف وفيدوتـوف إلـى مـا يـراه بعـض العلمـاء السوفييت، مثـل كـيـربيكوف Kerbikov وزملائه من أن السيكوباتيـة ترجـع إلى شذوذ وراثى وعـوامل بيئية غير مناسبة تمثلت أساساً فى أخطاء فى عمليـة التربيـة والتنشئة (Portnov & Fedotov: 1969, 305).

ويعرض دانيل لاجاش رأى التحليل النفسى فى أن المجرمين فئة من السيكوباتيين، ويقول عنهم: «... فالمجرم يتصرف وفقًا لنظام من القيم الفردية، أو لنظام من القيم فى جماعة بعينها تكون -عادة- مجتمعًا خاصًا محدداً بالقياس إلى المجتمع العام الشامل. ولا ريب فى أن الانتماء إلى جماعة يعتمد بصفة أساسية على التقمص (التوحد) ويتم طبع الشخصية بطابع اجتماعى، بنموها وفقًا لمعاييرها الاجتماعية، وذلك بواسطة تقمصها. ويرجع الاستعداد للسلوك الإجرامى إلى شذوذ فى عملية التطبيع الاجتماعى، وفى عمليات التقمص وفى تكوين الأنا الأعلى. وهنا -أيضًا- نجد أن تفاضل الاستعدادات التكوينية، أياً كان دور الوراثة، لا يتم إلا بعملية تعلم. ويتم ذلك على نحو من الأنحاء الآتية: ففى بعض الحالات، يتم التقمص (التوحد) بالنسبة إلى شخصية أو جماعة تملك نظاماً من القيم يختلف عن نظام المجتمع الأوسع؛ ومثال ذلك: الطفل الذى يربيه والدان من اللصوص، أو يتم التقمص باقتباس الجوانب السيئة لأحد أفراد البيئة، أو بالنسبة إلى شخصية مريضة...» (لاجاش: ١٩٥٧، ١٣٦-١٣٧). هذا، وتؤيد دراسة كل من أوجست أيكهورن عن الشباب الجامح (أيكهورن: ١٩٥٤) وجون بولبى عن «رعاية الطفل وتطور الحب» (بولبى: ١٩٥٩) وجهة نظر التحليل النفسى فى السلوك المنحرف، وأهمية عوامل التربية والتنشئة والتقمص (التوحد) فى إكساب الشخصية خصائص معينة.

ولسوء الحظ، فإن استجابة السيكوباتى للعلاج هى استجابة ضعيفة، كما أن «السيكوباتى فى إجماع الرأى، وبحكم علته، لا يتأثر من العقاب، ولاينال منه جانب الردع. فإن العقوبة من وجهتها النفسية (السيكولوچية) على الأقل ليست إلا لوناً من العدوان يسقطه المجتمع على الفرد، وإذا كان السلوك المضاد للمجتمع عند السيكوباتى صادراً عن نزعة عدوانية قوية، فإن العقوبة بالنسبة إليه إنما هى بمثابة وضع الوقود على النار المشتعلة فلن يزيدها إلا اشتعالاً، ومن ثم ما نرى من متابعة السيكوباتى لنشاطه الهدمى، لا يعوقه خوف العقاب، ولا وقوعه، ولا يردعه ما يلقى على سلوكه من جزاء وقصاص» (صبرى جرجس: ١٩٥٧، ٣٣٤-٣٣٥).

رابعاً: الانحرافات النفسية Psychical Perversions

يقصد بالانحراف Perversion الضلال والفساد والمروق والبعد عن جادة الصواب. على ذلك، يمكننا وصف أى سلوك تنطبق عليه هذه الأوصاف بأنه منحرف. وهكذا، ينظر إلى المجرمين والمرتشين والمختلسين والنصابين والمهربين وتجار المخدرات ومتعاطيه والشواذ جنسياً... على أنهم جميعاً منحرفون نفسياً.

ويلاحظ أن الانحراف النفسي -بالمعنى الذى حددناه الآن- قد يختلط مع السيكوباتية التى تحدثنا عنها فى البند السابق مباشرة؛ حيث يكون الاضطراب النفسى متعلقاً بالجوانب الأخلاقية ومضاداً لقيم المجتمع وقوانينه فى كل منهما، إلا أن السيكوباتية أقل فى تكرارها وأشكالها، ولا يكاد يحقق السيكوباتى من سلوكه فائدة لها قيمة، وكأنه ينفذ سلوكه لا لشيء إلا للسلوك فى حد ذاته. كما أنه لا يخطط لسلوكه ولا يتكتمه عادة، ولا يخجل إن ضبط متلبساً بالسلوك السيكوباتى... وما إلى ذلك من خصائص -سبق أن ذكرناها فى حديثنا السابق عن- السيكوباتية وما يميز السيكوباتيين.

ونتحدث فيما يلى -بإيجاز- عن أمثلة لهذه الانحرافات النفسية الأكثر خطورة وانتشاراً.

١ - الانحرافات الجنسية Sexual Perversions

لعل الانحرافات الجنسية هى أبرز الانحرافات النفسية شهرة وذيوعًا وقصداً، حتى أنها أول ما يقفز إلى الذهن لدى كثير من العامة والمثقفين، بل والمتخصصين أيضًا، عندما تذكر كلمة منحرف.

والانحراف الجنسى هو أى شكل من أشكال الممارسات الجنسية التى لا تستهدف الإشباع الجنسى السوى عن طريق الاتصال الطبيعى والمشروع اجتماعيًا بين الذكر والأنثى. وأبرز الانحرافات الجنسية وأشهرها ذيوعاً ما يلى:

(أ) الجنسية المثلية Homosexuality:

وفيها يجد الفرد لذته الجنسية الأساسية عن طريق العلاقة الجنسية بفرد من نفس جنسه. وهكذا، يجد الذكر لذته الجنسية بشكل أساسى عن طريق اتصاله بذكر آخر سواء أكان يقوم بالدور الإيجابى أم يقوم بالدور السلبى فى هذا الاتصال، أما اتصاله الجنسى بأنثى فلا يجلب له إلا قدراً ضئيلاً أو ثانوياً من اللذة، وقد لا يجلب لذة على الإطلاق، بل يمارسه بتقزز ونفور. وعلى الجانب المقابل، فإن الأنثى المصابة بالجنسية المثلية تجد لذتها الجنسية الأساسية فى الاتصال بالأنثى، سواء قامت هى بالدور الإيجابى أو بالدور السلبى فى هذا الاتصال. أما إن اتصلت جنسياً بذكر، فهى لا تجد فيه إلا لذة طفيفة، أو لا تجد على الإطلاق أية لذة، وربما تحس تقززاً ونفوراً.

وفى بحثه عن العوامل الوراثية فى انحرافات السلوك يذكر محمد حجار: «وتطالعنا الأبحاث والدراسات الحديثة جدا عن دور العوامل الإرثية (الوراثية) فى تشكيل السلوك وتوجيهاته... كما وأن انحرافات السلوك الجنسى أضحت مسألة بيولوجية بحتة فى نظر العلماء... إن التوجه الجنسى الشاذ أو السوى يتحدد فى المخلوق الإنسانى عندما يكون جنينا فى بطن أمه. وعللوا التوجه الجنسى نحو الجنس نفسه (اللواطية أو السماقية) أو الجنس المغاير بتأثير الهرمونات الجنسية على دماغ الجنين. وهكذا نرى أن الانحرافات الجنسية قد سقطت من تصانيف انحرافات السلوك الجنسى فى كتاب (DSM III-R) الذى تصدره جمعية الطب النفسى الأمريكى، الذى يُعد مرجعًا فى تصنيف الأمراض السيكاترية ووصف أعراضها. وهكذا أضحت ما نسميه فى عالمنا العربى والإسلامى بالانحرافات الجنسية، توجهات وتعبيرات جنسية بيولوجية لا دخل للفرد فيها؛ وهى تقرر توجهاته الجنسية وعلى المجتمع أن يتعامل مع هؤلاء تعامل الأسوياء لا الشاذين المنبوذين. أى أن هناك حتمية بيولوجية تقرر التوجه الجنسى Sexual Orientation لا تستطيع التربية ولا العلاج تبديل هذا التوجه» (محمد حجار: ١٩٩٩، ٣١-٣٢).

ومن الجدير بالذكر أن نزعة التحرر الجامحة التى تجتاح العالم هذه الأيام قد أدت إلى

تسامح فى كثير من المجتمعات، خاصة الغربية منها مع هؤلاء الجنسيين المثليين، حتى أن بعضها قد صرح أخيرا لهم بالزواج الرسمى (المشروع) بينهم. ففى جريدة القاهرة الصادرة فى ١٧ أبريل ٢٠٠٩ نقرأ هذا الخبر:

«البرلمان السويدى يبيح زواج المثليين

«صوت البرلمان السويدى بالموافقة على زواج المثليين، حيث وافق ٢٦١ عضوا، بينما صوت ٢٢ عضوا بالرفض، وفضل ١٦ البقاء على الحياد. كان فى السابق بإمكان أى شخصين من نفس الجنس تسجيل ارتباطهما وليس زواجهما، أما بعد صدور هذا القرار، فبإمكانهما تسجيل الزواج فى دائرة الأحوال الشخصية، وذلك بدءا من مايو المقبل. يعتبر الحزب الديموقراطى المسيحى أبرز المعارضين وعلق أحد أعضائه قائلاً: للأسف، فصدور هذا القانون ليس كذبة أبريل. وصرح المتحدث باسم الحزب أنه سيطالب بتغيير مصطلح «زواج» إلى رباط قانونى بين شخصين، وبالتالى تمييزه عن المراسم التى تقوم بها الكنيسة عند زواج أى شخصين».

(ب) السادية Sadism :

«تدل السادية على انحراف ينحصر عامة فى استمداد (اشتقاق) اللذة الجنسية مما يلحق الغير من ألم بدنى ونفسى. والشخص الذى يقع عليه هذا الألم قد يكون من نفس الجنس الذى ينتمى إليه السادى، أو قد يكون طفلاً أو حيواناً، وفقًا لارتباط الانحراف بالجنسية المثلية أو عشق الأطفال أو الحيوانية» (سامى محمود على: ١٩٦٣، ١٨٣) . كما أن الشخص الذى يقع عليه هذا الألم قد يكون -أيضاً- الزوجة أو الزوج أو المحبوب من الجنس الآخر. وقد يكون الألم الذى ينزل بالضحية ألمًا مادياً (من ضرب ووخز وعض وتشويه قد يصل إلى حد القتل) أو نفسيًا (فى صورة التجريح والإذلال) . وقد لا يعدو أن يكون الألم فى بعض الأحايين مجرد افتعال (وهو ما يسميه كرافت -إبنج Kraft -Ebing بالسادية الرمزية) . «وقد يكتفى السادى بمشاهدة الألم، لكنه عادة ما يتسبب فيه ذاته. وكذلك، فقد يكون الإشباع مقصوراً على المجال النفسى، ولو أن الغالب أن يكون مصحوباً بإحساس جنسى ينتهى بالتفريغ الجنسى تلقائياً أو عن طريق الجماع أو الاستمناء» (المرجع السابق بنفس الصفحة) .

«وتنسب السادية إلى الماركيز دى ساد Marquis de Sade من كبار الكتّاب الفرنسيين فى القرن الثامن عشر (١٧٤٠-١٨١٤)، عاصر الملكية والثورة الفرنسية وما بعدهما، وأمضى الجانب الأكبر من حياته (٢٧ سنة) سجيناً متنقلاً بين سجون فرنسا المختلفة إيفاءً لأحكام صدرت ضده، دوافعها سياسية (فقد اتهم مثلاً بالاعتدال إبان الثورة الفرنسية التى ناصرها)، أو أخلاقية إثر ما ارتكب من أفعال جنسية فاضحة يغلب عليها طابع القسوة والتجريح وإنزال الألم بالغير» (المرجع السابق، ١٩٢).

ومن الجدير بالذكر أن السادية قد اتسع مدلولها ومعناها ليشمل -أيضًا- ما هو غير جنسى، كاشتقاق اللذة عن طريق القيام بتعذيب الآخرين، أياً كان هؤلاء الآخرون، سواء بتوجيه عدوان مادى إليهم؛ كالضرب والإيذاء البدنى أو توجيه عدوان معنوى، كالتقليل من شأنهم أو عدم مراعاة مشاعرهم أو امتهان كرامتهم أو ضرب مصالحهم أياً كانت..

(جـ) المازوخية Masochism :

فى معناها الواسع والشامل هى اشتقاق الفرد للذة من قيام الآخرين بتعذيبه وتوجيه العدوان إليه، سواء أكان عدواناً مادياً؛ كالضرب والإيذاء البدنى، أم كان عدواناً معنوياً؛ كتحقير الفرد وإهانته وجرح كرامته والسخرية منه وإظهار هوان شأنه ودنو منزلته وعدم اعتبار مشاعره، وعرقلة مصالحه والوقوف ضدها.

أما المازوخية فى معناها الضيق فهى نوع من الشذوذ أو الانحراف الجنسى، سواء لدى الذكر أو لدى الأنثى، عندما لا يجد الفرد لذته الجنسية أساساً إلا إذا كانت مصحوبة بالأذى يوقعه عليه الطرف الذى يمارس معه الجنس، سواء أكان هذا الأذى مادياً أم معنوياً، وسواء -أيضاً- أكان قبل الفعل الجنسى أم أثناءه.

ومن الجدير بالذكر أن مصطلح المازوخية قد اشتق نسبة إلى «الكاتب النمساوى ساخر مازوخ Sacher Masoch (١٨٣٦-١٨٩٥) الذى تفنن فى وصف المواقف التى تتجلى فيها سطوة المرأة وقسوتها فى الحب واستخدامها السوط فى تعذيب من تحب، واستعبادها الحبيب استعباداً مطلقًا. ويصحب هذا الألم الجسمى عذاب نفسى مصدره خيانة المرأة خيانة

يتعمدها الحبيب ويسعى إليها سعياً مقصوداً. والمحب فى ذلك كله يحس لذة جنسية تشتد كلما اشتد الألم (الذى يقع عليه) وتتنوع بتنوعه. ويغدو البحث عن اللذة طقساً من الطقوس التى تتطلب إعداداً خاصاً يختلط فيه الواقع بالخيال ويقوم فيه كل من الرجل والمرأة بدور محدد له سلفًا. وعادة ما تتقمص المرأة شخصية يتوافر لها بالضرورة صفات معينة، كأن تكون قوية البنية ترتدى ثوباً من الفراء وفى يدها سوط... وتعتبر قصص مازوخ تصويراً لواقع حياته الخاصة، وأهم هذه القصص فينوس ذات الفراء "La Vénus aux Fourrures" ، (سامى محمود على: ١٩٦٣، ١٩١).

وهكذا، نلاحظ أن المازوخية عكس السادية تماماً. وينبغى هنا أن نورد ملاحظة سامى محمود على التى يقول فيها خاتماً شرحه لمصطلح المازوخية: «ولابد من الالتفات إلى أن المازوخية لا تنفصل عن السادية، وأن القسوة على الذات مشوبة بالقسوة على الغير، فنحن فى الواقع حيال حدين متضايفين». (المرجع السابق، ١٩٢).

وإذا كانت السادية تعبر عن غريزة التدمير أو العدوان المتجه إلى الآخر، فإن المازوخية تعبر عن غريزة التدمير أو العدوان الموجه إلى الذات. بل إن كثيراً من المحللين النفسيين يضيفون إلى ذلك أن الأنا الأعلى يستخدم الألم والإيذاء فى المازوخية لمعاقبة الذات حتى يمكن تحييد عقدة الشعور بالذنب جزئياً والتكفير عنه (ساشاناخت: ١٩٨٣، ٧). ويبدو هذا منطقياً إلى حد كبير، خاصة فى ضوء النظرة التحليلية النفسية، وفى ضوء دراسات علم النفس الجنائى وبحوثه.

ومن الجدير بالذكر أن الصحافة والأدب والسينما... كثيراً ما تهتم بنشر أحداث تصور فيها حالات السادية والمازوخية وتبرزها، سواء أكان ذلك لإشباع فضول القراء أو المشاهدين، أم كان للتوعية المتوخاة. ونضرب لذلك المثل التالى الذى ننقله عن محمود صلاح فى العدد الصادر من جريدة أخبار اليوم فى ١٩٨٨/٣/١٩ باب الحوادث والقضايا فى الصفحة الثانية عشرة بعنوان؛ «حب.. أفضى إلى الموت!».

«لست سفاحاً.. ولكنى عاشق!

صدقنى يا سيادة القاضى... انظر فى وجهى وتأمله... هل هذه ملامح قاتل... انظر فى عينى تجد حزناً عميقاً لن تمحوه الأيام على حبيبتى! زوجتى التى رحلت وتركتنى وحيداً ألعق أحزانى، كما يلعق كلب الحشرات الملتصقة بجسده!.

لقد أحببتها كما لم يحب إنسان إنساناً آخر. وتزوجتها لأنعم بحبى لها لكنها لم تتحمل هذا الحب. ورحلت عن الدنيا وتركتنى أواجه تهمة قتلها. وأنا برئ.. لم أقتلها لكنى أحببتها على.. طريقتى الخاصة.. فماتت!.

مازلت أذكر ليلة زفافنا... الليلة الموعودة التى طالما انتظرتها... كنت جالساً إلى جوارها فى (كوشة) الفرح... ينبض قلبى بالفرحة كلما نظرت إلى وجهها الذى يشبه القمر فى استدارته وضيائه.

أتعجل أن ينتهى المطرب والراقصة وأن ينصرف المدعوون لأختلى بعروستى أخيراً... لقد عشت حياة جافة قاسية امتدت إلى ٣٦ سنة... وعندما رأيتها... بنت السادسة عشرة العذراء عرفت أنها المخلوقة التى طالما حلمت بها... أحببتها بعنف وتقدمت أطلب يدها فوافقت أسرتها رغم فارق السن... وها نحن فى نهاية حفل الزفاف.

انفض الحفل وانصرف المدعوون... أغلقت الباب خلفى ونظرت إليها وهى ترتدى فستان الفرح... أطرقت إلى الأرض برأسها خجلاً وأنا أقترب منها... لست أنسى أبداً مشهد عينيها وهى تتحول فجأة من الرومانسية إلى الرعب والفزع... ولا أعرف لماذا تغيرت عروستى فجأة... هل لأننى بدلاً من أن أقبلها... رفعت يدى فى الهواء... وهى تحمل (الكرباج) الذى أعددته خصيصاً لهذه الليلة... وانهلت عليها أمزق جسدها بعنف؟!.

ظلت طوال هذه الليلة تصرخ من الألم.. وكلما تفجرت دموعها كلما انتابتنى سعادة غريبة...

وكلما سالت دماؤها كلما شعرت بنشوة عجيبة.. ظللت أضربها (بالكرباج) حتى تعبت يداى. وأغمى عليها. وشعرت بأن سعادتى اكتملت!.

لا تسألنى يا سيادة القاضى لماذا؟

إن المحبوب يجب أن يفنى فى جسد وكيان من يحبه. وهى اعترفت لى قبل الزواج أنها تحبنى فلماذا تصرخ إذا ضربتها؟ ولماذا تتألم إذا عذبتها؟ وما سر هذا الشعور الغامض بالارتياح الذى يجتاحنى كلما رأيتها تتألم.

ومضى شهر العسل أجمل من ليلة الزفاف!

لم يكن (الكرباج) وحده.. بل كنت قد أعددت بقية (العدة) مع أثاث المنزل.. مجموعة من السلاسل الحديدية والعصى الغليظة والرفيعة.. كنت أحبسها فى الصباح حتى لا تفكر فى مغادرة المنزل.. وأعود من عملى فى المساء لنبدأ السهرة... أقوم بتقييد يديها وقدميها بالحبال... ثم أرفعها بالسلاسل الحديدية إلى الحائط مثل الذبيحة... وأظل أضربها... وكلما قالت: (آه)... أستمر فى الضرب... كأننى مطرب والجمهور سعيد بغنائه وهو سعيد بآهات جمهوره!.

وامتلأ جسد زوجتى المحبوبة بالجراح... عشرون جرحًا... ثلاثون جرحًا وإصابة... بل أكثر.. وكان كل جرح على جسدها كأنه (وسام الحب) وضعته بيدى عليها... لكنها لم تفهم يا سيدى القاضى... لم تدرك لماذا أفعل ذلك؟ أضربها وأنا أحبها؟

وذات ليلة وأنا أضربها توقفت عن الصراخ.. توقفت الآن فجأة! واقتربت منها لأكتشف أنها خدعتنى وماتت دون أن تخبرنى!

قضت محكمة جنايات (...) برئاسة فؤاد الفقى وعضوية المستشارين حسين حلمى وصلاح الدين عبد الغفار بمعاقبة العريس الذى ضرب عروسته حتى الموت بالأشغال الشاقة ٧ سنوات.

لأن النيابة وجهت له تهمة الضرب المفضى إلى الموت... ولو كان متهمًا بالقتل... لحكمت بإعدامه!، (محمود صلاح: صفحة الحوادث بأخبار اليوم فى ١٩٨٨/٣/١٩).

(د) البغاء Prostitution:

حاول كثير من الباحثين، سواء أكانوا من علماء الاجتماع أم النفس أم القانون، وضع تعريفات تعكس مفهومهم عن البغاء. وبغض النظر عن بعض الاختلافات بينهم، فإنهم يميلون غالبا إلى تعريفه بأنه تسليم شخص جسمه إلى آخر يستخدمه للإشباع الجنسى، وذلك لقاء مقابل مادى، دون اكتراث عاطفى أو تمييز بين فرد وآخر (نجية إسحق عبد الله: ١٩٨٤، ٢٠-٢٧). فالأنثى البغى تسلم جسدها دون أى تمييز بين الذكور. ويعتبر البغاء مهنة أساسية لكثير من البغايا تتعيش منها رغم ملاحقة الشرطة والقانون لهن فى البلاد التى تجرم البغاء، حيث تختلف الدول فى هذا الشأن.

هذا؛ ويشير أحمد فائق إلى أن «البغى حريصة على تعطيل وكف أى نشاط وجدانى فى علاقة العميل بها وعلاقتها به؛ بحيث يبقى محور العلاقة البغائية الشق الشهوى من الرغبة الجنسية للعميل وحده» (أحمد فائق: ٢٠٠١، ٣٩٠). كما يرى أن «نجاح البغى فى مهنتها لا يكتمل إن لم تسقط رغبتها الشهوية على العملاء بحيث يصبح عليها واجب الإشباع ولهم حق المتعة. فتوقع البغى متعة من عملائها يحول دون شرط مهم فى البغاء هو مقايضة الجنس بالمال، لأن حصولها على المتعة لا يعطيها حقا ماليا تجاه العميل. لذلك تعيش علاقة إسقاطية مع العميل فيما يخص الشق الشهوى من الجنس، وتقوم بعملية كبت لوجداناتها تجاهه فيما يخص الشق الثانى من الغريزة». (المرجع السابق: ٣٩١).

ومن الشائع أن البغاء يرتبط بالإناث دون الذكور، إلا أن الحقيقة غير هذا، إذ يوجد بعض الذكور الذين يمارسون البغاء ويتكسبون منه، وربما كانت مهنتهم الوحيدة، بل إن بغاء الذكور قد عرف منذ مدة طويلة. وفى هذا يذكر محمد نيازى حتاته عن البغاء فى المجتمع الدانمركى: «انتشر محترفو اللواطة فى المدن، حتى أنه قد اكتشفت منازل كثيرة لبغاء الذكور فى كوبنهاجن عام ١٩٥٠، الأمر الذى ترتب عليه إنشاء مكتب مستقل لمكافحة هذا النوع من الجرائم. وأصبح قسم مكافحة البغاء يتكون من مكتبين منفصلين، أحدهما لبغاء الإناث والآخر لبغاء الذكور. وأصبح أرشيف هذا المكتب الأخير يحتوى حتى عام ١٩٥٨ على بطاقات لثمانمائة شخص من محترفى اللواطة فى كوبنهاجن التى يبلغ سكانها ثمانمائة ألف. واضطر قانون العقوبات الدانمركى فى النهاية

إلى أن يعاقب محترفى الجنسية المثلية (أى محترفى اللواطة أو السحاق) طبقاً للمادة ٢٣٠ عقوبات. مع أنه لا يعاقب على احتراف البغاء إذا كان طرفاه رجلاً وامرأة ولا يعاقب على الزنا. بل تضمن مادة... للعقاب على اللواطة أو السحاق الذى يقع من شخص على آخر لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره. وانتشرت طبقة الرجال الذين يتزيون بزى النساء علناً. الأمر الذى اقتضى فى النهاية أن يعتبر مثل هذا السلوك جريمة تطبيقاً للمادة«٩، قسم ٣، من لوائح البوليس الدانمركى» (محمد نيازى حتاته: ١٩٦١، ٣٥-٣٦).

ومن الجدير بالذكر أن البغاء لاينبغى النظر إليه على أنه انحراف أو شذوذ نفسى فحسب -كما يُنظر إلى الانحرافات الجنسية الثلاثة التى تحدثنا سابقاً عنها: الجنسية المثلية والسادية والمازوخية- فالبغاء فى كثير من الحالات يكون ناتجاً عن ظروف اقتصادية واجتماعية بالدرجة الأولى، تلجأ إليه البغى مضطرة غير مرحبة ولا سعيدة به عندما تجد فيه الوسيلة السهلة للتكسب وإشباع طموحاتها المادية التى تلهث وراءها، فيستغلها الآخرون من نقطة الضعف هذه. على أن هذا لا يتعارض مع وجود بعض العوامل والدوافع النفسية الشعورية واللاشعورية المؤدية إلى هذا النوع من الانحراف، مثل الاستمتاع الجنسى، وإشباع الدوافع السادية والمازوخية، وضحالة الروابط الانفعالية بالآخرين وسطحية العلاقة معهم، وزيادة القابلية للاستهواء، وسيادة الجوانب السيكوباتية، والعجز عن حل الصراعات النفسية حلاً إيجابيًا بناءً (أحمد فائق: ١٩٨٢، الفصل الحادى عشر، ونجية إسحق عبد الله: ١٩٨٤، الفصلان الثانى والرابع).

٢ - إدمان المخدرات Drug Addiction

«عرّفت هيئة الصحة العالمية الإدمان (أو الاعتماد) بأنه حالة نفسية وعضوية تنتج من تفاعل الفرد مع العقار (أو المخدر) ومن نتائجها ظهور خصائص تتسم بأنماط سلوكية مختلفة تشمل دائماً الرغبة الملحة فى تعاطى العقار بصورة مستمرة أو دورية للشعور بآثاره النفسية والعضوية ولتجنب الآثار المهددة والمؤلمة التى تنتج عن عدم توافره، وقد يدمن المتعاطى على أكثر من مادة واحدة.

«والأنواع التى تحدث إدماناً هى الكحوليات والمخدرات، مثل الأفيون ومشتقاته والكوكايين والحشيش والعقاقير المختلفة المنشطة والمطمئنة والمنومة.

«وخصائص الإدمان هى الرغبة الملحة فى الاستمرار على التعاطى والحصول (على العقار أو المادة المدمن عليها) بأية وسيلة، وزيادة الجرعة بصورة متزايدة لتعود الجسم على العقار والاعتماد النفسى والعضوى عليه. والتعود على العقار يزيد الرغبة فى الاستمرار على تعاطيه لما يسببه من شعور بالراحة ولتحقيق اللذة وتجنب الشعور بالقلق والألم. ويحدث تعود للجسم بحيث تظهر على (المدمن) اضطرابات عضوية ونفسية شديدة عند امتناعه عن تناول العقار فجأة» (مصطفى كامل: ٢٠٠٩، ١١٧-١١٨).

هذا، وتشير وثائق هيئة الرقابة الدولية على المخدرات إلى أن مستوى تعاطى الحشيش والكوكايين والأفيون والهيروين والأمفيتامينات والباربيتيورات مازال مرتفعًا فى معظم أنحاء العالم، وأن عدد البلدان التى لا تعانى من مشكلة المخدرات محدود جداً. وقد تزايدت المساحات المنزرعة بالنباتات المخدرة فى كثير من دول العالم، كما تزايدت مناطق إنتاج وتصنيع المخدرات. وتقوم بتمويل هذه الأنشطة غير المشروعة عصابات دولية على جانب كبير من التنظيم والخطورة، وتربط هذه العصابات علاقات وثيقة بمجموعات الإرهابيين وتجار الأسلحة...؟» (محمد فتحى عيد: ١٩٨٦، ٣٧).

ومن الجدير بالذكر أن تعاطى العقاقير Drug Use يشير إلى استخدام العقاقير (أو المخدرات) إما لأغراض ترويحية، أو علاجية. وقد يكون هذا التعاطى محدوداً أو معتدلاً حتى فى حالة العقاقير التى تكون لها خاصية إدمانية. أما الإفراط فى التعاطى Drug Abuse فيشير إلى تعاطى العقار بأسلوب يجعله يعوق النشاط اليومى ويصبح فريضة على جسم الإنسان وحياته... وفى الغالب، يستخدم اصطلاح الإدمان فيما يتعلق بالإفراط فى تعاطى العقاقير... ويوجد الإدمان Addiction إذا كان الفرد:

١ - يفرط فى تعاطى عقار معين.

٢ - إذا كان الفرد معتمداً على ذلك العقار فسيولوچياً أو نفسيًا، وفى حالة الاعتماد الفسيولوچى يؤدى الانسحاب من العقار إلى أعراض عضوية مؤلمة. وفى حالة الاعتماد النفسى يؤدى الانسحاب من العقار إلى استجابات وجدانية مؤلمة أيضًا مثل البكاء، والغضب، والقلق، والاكتئاب. وفى عديد من الحالات يتضمن الإدمان كلاً من الاعتماد الفسيولوچى والنفسى. وينبغى أن نقرر أن الكحول عقار (مخدر)، وكثيراً ما يفرط الفرد فى تعاطيه...

«وهناك علامات وأعراض أخرى ترتبط غالباً بالإفراط فى تعاطى العقاقير، وهى:

١ - تغير القياسات الفسيولوچية؛ مثل ضغط الدم والنبض وحرارة الجسم.

٢ - تغير حجم إنسان العين.

٣ - تغير ردود الأفعال المنعكسة.

٤ - الحركات الهوجاء الخرقاء.

٥ - الهلاوس والهذاءات.

٦ - تباين استثارة الجهاز العصبى المركزى، والتى تتراوح بين الاستثارة الشديدة والذهول.

٧ - الزيادة المصطنعة فى الثقة بالنفس والقدرة على التفاعل الاجتماعى.

٨ - انعدام التوجيه وظهور الاضطراب العقلى.

٩ - السلوك الاندفاعى.

١٠ - انحدار الصحة الجسمية».

(Bruno: 1993 - ترجمة بدون تاريخ، ١٢٧-١٢٩).

ويعتبر إدمان المخدرات من أخطر المشكلات التى تواجه مجتمعات العالم فى عصرنا الحالى؛ لما لها من أبعاد مختلفة شديدة الخطورة والتدمير، حتى أن دول العالم -بمختلف اتجاهاتها السياسية ونظمها الاقتصادية والاجتماعية- تتعاون معًا لمحاربة هذه الظاهرة وحصارها. وقد بلغ من إحساسنا بخطورة هذه المشكلة أن الرئيس المصرى فى خطابه الذى ألقاه يوم ٥ مارس ١٩٨٩ فى احتفال وزارة الأوقاف بيوم الدعاة (ونقلته جريدة الأهرام

بعددها الصادر فى ١٩٨٩/٣/٦) أعلن أن التطرف والمخدرات والانفجار السكانى ثلاثة أخطار تهدد المجتمع. وهكذا، وضعها ضمن أكبر ما يهدد المجتمع من أخطار ينبغى محاربتها وحصارها. وعندما تعرض فى خطابه لمشكلة المخدرات قال: «وأما التعاطى (الإدمان) فتعلمون أنه الوباء الذى يقضى على الصحة ويغيب العقول ويدمر الأخلاق ويدفع إلى أحط الجرائم، بالإضافة إلى تبديد الأموال وتخريب الاقتصاد القومى آخر الأمر. وتعلمون أن البعض يظن أن المحرم فقط هو شرب الخمر وأن المخدرات غير الخمر؛ لم يرد بتحريمها النص القرآنى. ولذا، كان من أولويات مجال دعوتكم أن تبصروا الناس بحرمة المخدرات التى ينطبق عليها حكم الخمر؛ لأن العبرة ليست باسم ما يتعاطى أو يشرب وإنما بما يترتب على شربه أو تعاطيه (إدمانه) من آثار. وقد أجمع الأطباء وأهل الذكر على أن المخدرات أفدح خطراً وأشد فتكاً من الخمر حتى ليصل الأمر بتعاطيها (إدمانها) إلى أن يكون انتحاراً وقتلاً للنفس. أجل... أيها الدعاة؛ إن من أولويات مجالات دعوتكم أن تكثفوا جهودكم لتوضحوا للمواطنين أن تعاطى تلك السموم المخدرة أشد حرمة من الخمر؛ لأن هذه البلايا تهدد نعمة العقل، وتحجب نور الضمير، وتدمر مصدر القوة، وتبدد عزيز المال، وتدفع إلى العدوان على الغير؛ بل إلى الإساءة إلى الأهل وخيانة الوطن، علاوة على قتل النفس. إن واجبكم فى هذا المجال يأتى تحصيناً لمن لا يتعاطون حتى يصونوا أنفسهم قبل أن يصل الخطر إليهم. كما يأتى واجبكم فى هذا المجال -أيضًا- علاجًا للمتورطين (المدمنين) حتى يثوبوا إلى رشدهم وينجوا ببقية عقولهم وضمائرهم. كذلك، يأتى واجبكم هنا ترشيداً للآباء حتى يحسنوا رعاية أبنائهم، ورقابة فلذات أكبادهم فيحجبوهم من رفاق السوء وناقلى عدوى التعاطى (الإدمان) إليهم».

ولاشك فى أن الرئيس المصرى كان واضحًا وصريحًا وقاصداً إلى الحقيقة الموضوعية فيما ذكره فى خطابه عن مشكلة المخدرات وخطورتها. فعن البعد الاقتصادى نذكر -على سبيل المثال فقط- أن تقديرات ما يهرب من مصر لجلب المخدرات إليها يقدر سنوياً بحوالى مليارين من الدولارات أو ثلاثة. وأغلب الظن أن الواقع الحقيقى أكثر من هذا التقدير بكثير؛ مع ملاحظة أن هذا التقدير كان فى أواخر القرن الماضى، وأغلب الظن أنه تضاعف الآن عدة مرات. هذا على مستوى الاقتصاد القومى. أما على مستوى اقتصاد

تنقل للتالية الأسر والأفراد وممتلكاتهم، فإن الصحف وبرامج التليفزيون والإذاعة ووسائل الإعلام المختلفة تطالعنا كل يوم بأخبار الدمار الاقتصادى والإفلاس المالى للمدمنين وأسرهم. وعن البعد الإنتاجى نشير إلى أن إنتاجية المدمن تهبط إلى الحضيض، إذ يصعب أن نتصور إنتاجية عالية لشخص يدمن المخدرات. فعلى سبيل المثال، نذكر أنه «بفحص مجموعة من السائقين تسببوا فى حوادث مميته تبين أن ٤٠٪ يدمنون الخمور و١٠٪ يتعاطونها بإسراف. وترتفع نسبة الحوادث -أيضاً- بين المشاة المخمورين عن غيرهم، وقد كشفت إحدى الدراسات الأمريكية أن ٧٤٪ من المشاة الذين أصيبوا بإصابات خطيرة كانوا يشربون الخمر. ولا تسبب الخمر حوادث السير فقط بل تؤدى -أيضاً- إلى زيادة عدد إصابات العمل والسقوط على السلالم ومن الأماكن المرتفعة والحروق والتسمم بغاز الفحم نتيجة لعدم الانتباه» (عادل الدمرداش: ١٩٨٢، ٩١). هذا؛ إلى جانب حالات الوفاة المفاجئة الكثيرة نتيجة تناول جرعات المخدر إذا حدث أن تعاطى المدمن جرعة تفوق احتماله ولم يتم إسعافه سريعاً. وهو أمر كثير الحدوث ويشاع عن تفسير أسباب الوفاة المفاجئة لبعض المعروفين.

وقد «أصيب الرسام الهولندى رامبرانت (١٦٠٦-١٦٦٩) بالإدمان على الخمر بعد وفاة زوجته عندما كان فى سن السادسة والثلاثين، الأمر الذى أدى إلى انهيار قدرته على الرسم والإنتاج لإصابته بضعف النظر ورعشة اليدين، وكان فان جوخ الرسام الهولندى -أيضاً- مصاباً بالمرض العقلى ومدمناً على الخمر ومات منتحراً. أما الإسكندر الأكبر فقد توفى وعمره ٣٣ سنة فى بابل. وتختلف الروايات عن سبب الوفاة والأرجح أنه أصيب بالتيفويد. كان الإسكندر يسرف فى شرب الخمر ويصاب بنوبات من الغضب الشديد والعنف، ويقال إنه قتل أحد قواده أثناء نوبة هياج شديد لعلها بسبب الخمر، ويحتمل أن إسراف الإسكندر فى شرب الخمر أضعف مناعته ضد الأمراض وعجل بوفاة القائد العبقرى الكبير» (المرجع السابق، ١٠٤). وينبغى هنا أن نشير إلى مرض ذهانى خاص ينجم أساساً عن تلف خطير تتعرض له الأنسجة العصبية للفرد فى بعض حالات إدمان الكحوليات هو الذهان الكحولى Alcoholic Psychosis، حيث تكون من بعض أعراضه «هلوسات سمعية وبصرية مخيفة ومفزعة فى محتواها، وخلط فى الزمان والمكان، وقلق،

وضجر، وعدم القدرة على النوم أو الأكل، والرعشة، وعدم التآزر بصفة عامة، وتشنجات شديدة فى بعض الأحيان» (كوفيل وزملاؤه: ١٩٦٧، ٢٩٥). وهذا إضافة إلى ما يحدث غالباً من تدهور مستمر فى قدرات المدمن الجسمية والعقلية، وانهيار فى مستواه الخلقى والاجتماعى، وتدنى قيمه، وسوء سلوكه وتصرفاته.

وإذا كانت الخمر والكحوليات من المهدئات، فإن الأمفيتامينات Amphetamines تعتبر من المنبهات والمنشطات؛ حيث تقلل الإحساس بالتعب وتزيد النشاط الجسمى والعقلى، ويشترك معها الكافيين Caffeine فى هذه الخاصية (Claridge: 1972. 20). وتسمى الأفيتامينات بالمنشطات النفسية Psychtonics وتؤخذ على هيئة حبوب أو حقن. وتمتاز بتأثيرها «على نصفى الكرة الدماغية، بحيث يتجلى -من الناحية العضوية- بزيادة الفعالية العصبية العضلية مع ارتفاع فى الضغط الشريانى والسعة التنفسية وتوقف النوم. ومن الناحية النفسية، يتجلى بزيادة النشاط الفكرى وارتفاع التنبيه دون التأثر بحالة التعب التى قد لا يحس بها المرء؛ مع زيادة فى القدرة على العمل والاستمرار به لمدة أطول. ولهذا، ازداد الطلب على مثل هذه المركبات من قبل رجال الأعمال والسياسيين المنهكين، والطلاب خاصة فى فترات الامتحانات، وبعض الرياضيين قبل دخولهم فى المباريات». (محمد محمد الهوارى: ١٩٨٧، ١٠٦-١٠٧). إلا أن هذا الكسب المؤقت من تعاطى الأمفيتامينات لا يلبث أن ينحسر سريعًا مخلفًا وراءه لعنة الإدمان، حيث «تبدأ أعراض الإذعان الخطير... من الشعور بالتعب الشديد إلى الحاجة الملحة للنوم العميق، ويبدو المريض وقد استنفد من الناحية النفسية استنفاداً كاملاً؛ تخيم عليه الكآبة والقلق... (مع) شعور المصاب بانفصام الشخصية، فيحس بنفسه أنه مراقب ومنتقد، ومستهتر به، وتحاك حوله المؤامرات... فيسبب هذا لديه (ضيقًا نفسياً بالغًا) قد يؤدى به إلى الانتحار» (المرجع السابق، ١٠٨).

«والذى يجعل المتعاطى يداوم، بقوة، ورغماً عنه، على التعاطى: هو حدوث أعراض جسمية ونفسية عند التوقف المفاجئ، ويتم ذلك نتيجة حدوث بعض التغيرات فى مخ المتعاطى بسبب استعماله للمخدر من أخطرها: توقف المخ عن إنتاج مضادات الآلام الطبيعية، وهى عبارة عن مواد مسكنة ومطمئنة، يقوم المخ بتصنيعها بقدرة الله تعالى، فى

الشخص الطبيعى، الذى لم يعتمد على المخدر الخارجى، وتسمى هذه المواد أفيونات المخ. والذى يحدث فى حالة الشخص المدمن هو توقف مخه عن إنتاج أفيوناته الطبيعية، وعلى ذلك تظل الحاجة ملحة للإمداد دائماً بالأفيون أو المخدر الخارجى. فإذا ما توقف المدمن عن تناوله، يصبح الجسم بلا مناعة ضد الآلام، مما يجعل الشخص يعمل بكل وسيلة، حتى لو كانت غير مشروعة -وهى غالبًا كذلك- للحصول على المادة المخدرة، وبذلك يقع أسيراً لها على الدوام» (محمد فتحى فرج: ٢٠٠٩، ٢٣).

هذا؛ وتختلف المدة اللازمة لتسبيب الإدمان ،كما تختلف المدة نتيجة الفروق الفردية بين الأشخاص. وعلى العموم فإن الإدمان على الخمر يستلزم تناولها لعدة سنوات. أما الأقراص المنومة فتسبب الإدمان عليها خلال شهر واحد من استعمالها. بينما يؤدى استعمال الهيروين بانتظام لأقل من أسبوع إلى إدمانه... ويزداد انتشار تلك العقاقير بين المراهقين فى المجتمعات الغربية (والشرقية أيضًا)، وبعض هذه المواد قديم جداً كالأفيون والكوكايين والحشيش، بينما لم يظهر بعضها الآخر إلا حديثًا، كأقراص الهلوسة (إل. إس.دى) وكذلك بعض مركبات الباربيتيورات». (المرجع السابق بنفس الصفحة).

ومما يؤسف له أن بعض شعوب العالم قد اعتادت على إدمان أنواع معينة من المخدرات، بحيث أصبحت شيئاً عادياً فيها يقدمونه حتى على حاجاتهم الأساسية؛ كالغذاء والدواء والكساء؛ مما أخر التنمية فيها وأضعف الإنتاج ،ولقد أورد المكتب العربى لشئون المخدرات -فى أحد تقاريره- أن الجمهورية العربية اليمنية تخسر سنوياً ما يزيد عن ثلاثة آلاف وخمسمائة مليون ساعة عمل؛ هو الوقت الهائل الذى يضيع على أبناء اليمن بسبب مضغ أوراق القات وتخزينه، وهو وقت تتبين قيمته فى التنمية المطلوبة لهذا البلد الإسلامى، فيصيب اقتصادها بخسائر فادحة، فضلاً عن ألف مليون ريال ثمناً للقات الذى يستهلكه المواطنون» (المرجع السابق، ١٦).

هذا؛ وقد كتب أحمد بهجت فى جريدة الأهرام الصادرة فى أول مارس ١٩٩٩ فى باب «صندوق الدنيا» يقول: «نشرت الصحف الأوروبية خبراً يقول إن مجموعة الدول السبع الصناعية الكبرى كشفت عن تقديرات مفزعة فى حجم تجارة المخدرات فى دول العالم، وهى تقديرات تحذر من أن تجارة المخدرات قد صارت هى التجارة رقم ٣ فى العالم.

المفروض أن التجارة الأولى هى تجارة الأغذية، أما التجارة الثانية فهى تجارة السلاح، وأخيراً تأتى التجارة الثالثة وهى المخدرات، وتعنى هذه الأرقام أن النوع الإنسانى يبحث عن الطعام أولاً، فإذا ملأ بطنه بحث عن السلاح، فإذا توافر السلاح، انصرف الإنسان إلى محاولة إرضاء مزاجه. وقد أعلن فريق العمل الدولى التابع للمجموعة (مجموعة الدول السبع الصناعية الكبرى) فى أحدث تقرير له أنه يجرى غسل ١٢٠ مليار دولار سنوياً من تجارة المخدرات فى شبكة القطاع المالى الدولى. ما هو حجم تجارة المخدرات نفسها؟ وإن تقديرات فريق العمل تقول إن حجم التجارة نفسها يبلغ خمسة آلاف مليار دولار. أى خمسة وأمامها ١٢ صفراً، وهذا رقم مخيف، وهو يكفى لو انفق على الخدمات أن يحيل الكوكب الذى نعيش فوقه إلى جنة لايشكو فيها أحد من بنى الإنسان». وما كتبه أحمد بهجت فيما سبق ليس فى حاجة إلى تعليق.

وكما تحدثنا -فيما سبق- عن البعد الاقتصادى والإنتاجى والصحى للإدمان، ينبغى أن نشير -أيضاً- إلى البعد النفسى والاجتماعى. وهى كلها أبعاد متصلة ومترابطة، ويمكن تصورها دون الخوض فيها. ومع ذلك، فإننا نورد نموذجاً لما تنشره الصحف من حوادث نجمت عن التعاطى والإدمان تصور به بشاعة الأثر النفسى والاجتماعى لهما، ومرجعنا فى ذلك نفس صفحة أخبار اليوم -السابق الرجوع إليها فى نهاية حديثنا عن السادية والمازوخية- حيث نقرأ فيها تحت عنوان: «يتعاطون الماريجوانا ويضربون المارة... بالكرباج!».

«بينما كان المقدم فريد شرف رئيس (مباحث) قسم شرطة (...) عائداً إلى منزله فى ساعة متأخرة من الليل... شاهد ٤ من الشباب يقودون سيارة بسرعة... وما أن أقتربوا من أحد المارة حتى ضربه أحدهم من نافذة السيارة بواسطة كرباج... انطلق رئيس المباحث خلف سيارة الشباب بعد أن كرروا فعلتهم مع ٣ من المارة وتمكن بمساعدة المقدم على عبد الرحيم والنقيبين علاء الشيمى ومحمد كمال من القبض عليهم. وتبين أنهم طلبة... وأنهم فى غير وعيهم لتناولهم كمية من الماريجوانا، التى عثر على بعضها فى سيارتهم وأحيلوا إلى النيابة فأمرت بحبسهم» (محمود صلاح: ١٩٨٨/٣/١٩).

وليس هذا بمستغرب على المدمنين والمتعاطين، ففى البحث الذى يلخصه عادل الدمرداش اتضح لشيبارد Sheppard وزملائه، عندما قاموا بدراسة على ٣٣٦ من مدمنى المخدرات الذكور استخدموا فيها الاختبارات النفسية، أن ٣٠٪ منهم تظهر فيهم سمات المرض العقلى(*)، و١٦٪ تظهر فيهم سمات المرض النفسى، و٢٪ تظهر فيهم اضطرابات المخ العضوية. كما أشارت الاختبارات النفسية -أيضًا- إلى أن من يتعاطون أكثر من مادة مخدرة تبرز فى شخصياتهم سمة الفصام. وهكذا، توضح هذه الاختبارات أن سمات القلق والانحراف السيكوباتى والاتكالية والاكتئاب تشيع فى شخصيات معظم المدمنين. (عادل الدمرداش: ١٩٨٢، ٤٥). وفى البحث الميدانى الذى قامت به الأمم المتحدة فى مصر، تحت إشراف حمد عبد الكريم المرزوقى، وفرج عبد القادر طه، وغيرهما عن «التورط فى المخدرات: دراسة نفسية اجتماعية فى مصر» اتضحت جوانب كثيرة من الاضطرابات الشخصية والنفسية بين مدمنى المخدرات والمتورطين فى جرائمها؛ كضعف الاتزان الانفعالى وتشوه صورة الذات، واضطراب العلاقات الاجتماعية، والضعف الخلقى والاستهتار بالمسئولية... (حمد عبد الكريم المرزوقى وفرج عبد القادر طه وآخرون: ١٩٩٠). كما أن هبة القشيشى قد وجدت ارتباطاً موجبًا بين تعاطى المخدرات والقلق والشكوى الجسمية، والاكتئاب، والسمات الجسدية، والسلوك المضاد للمجتمع، والعدوان والسيطرة.. (و) وجود فروق جوهرية بين المتعاطين وغير المتعاطين على المقاييس الاتية: القلق، الشكاوى الجسمية، الاضطرابات المرتبطة بالقلق، السمات الجسدية، العدوان، الأفكار الانتحارية، الانعصاب، وفقدان التدعيم فى اتجاه ارتفاع متوسط درجات المتعاطين، ووجود فروق جوهرية على مقاييس السيطرة والدفء (الانفعالى) فى اتجاه ارتفاع متوسط درجات غير المتعاطين (El-Kshishy, 1996, 558). ولعل حديثنا هذا عن إدمان المخدرات يبرر وصف فرانك برونو له بتدمير الذات الترويحى Recreational Self Destruction فى الفصل الذى كتبه عنه فى كتابه «الأعراض النفسية» (فرانك برونو: ١٩٩٣).

(*) يميل البعض إلى تسمية الأمراض الذهانية بالأمراض العقلية.

فإذا ما انتقلنا إلى الحديث المركز على ظاهرة الإدمان من المنظور الجنائى والقانونى نجد الارتباط الوثيق بين الإدمان والتعاطى من جانب، وبين الجرائم بمختلف أنواعها من جانب آخر. حتى يكاد يكون الإدمان والتعاطى السبب الرئيسى وراءها فى حالات كثيرة. ولنأخذ نموذجًا لذلك ما نشرته جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ٣١ يناير ١٩٨٩. وفى صفحتها الأولى، ثم تابعت التفاصيل فى صفحة الحوادث بداخلها، وذلك تحت عنوان «القبض على ١١ طالباً ارتكبوا ٢٦ حادث سرقة لشراء الهيروين والمخدرات» حيث قالت: «تمكنت مباحث الجيزة من إزاحة الغموض عن عدة حوادث لسرقات مساكن بعض الشخصيات العامة بأسلوب مبتكر حيث تبين أن وراءها عصابة من ١١ طالبًا جامعيًا بمختلف الكليات، ارتكبوا ٢٦ حادث سرقة للإنفاق على إدمانهم شم الهيروين وتعاطى المخدرات، بعد أن جمعتهم موائد السموم (المخدرات) فى أحد الأندية الكبرى بالجيزة منذ ٣ سنوات. وكانت البلاغات قد تعددت أمام العميد ممدوح الجوهرى -رئيس مباحث الجيزة- عن عصابة مجهولة تخصصت فى سرقة مساكن الشخصيات العامة والاستيلاء على النقود والمجوهرات والأجهزة الثمينة أثناء الليل بأسلوب مبتكر. فطلب رئيس المباحث تشكيل فريق للبحث، قاده العقيد سامح أبو الليل -وكيل المباحث- والعقيد عبد الوهاب خليل- مفتش المباحث- حيث أكدت تحرياتهم أن أفراد العصابة من الطبقات الثرية الذين يقيمون بأرقى أحياء الجيزة، ويمتلكون سيارات خاصة يستخدمونها فى ارتكاب جرائمهم حيث جمعتهم هواية تعاطى المواد المخدرة بأحد النوادى الكبرى بالجيزة، ثم انزلقوا لهاوية الإدمان وشم الهيروين وحقن الماكستون فورت. ولمواجهة نفقات إدمانهم، بدأوا فى سرقة النقود والمجوهرات من أسرهم -فى غفلة منهم- للإنفاق على موائد السموم ثم تحولوا منذ ٣ سنوات لعالم الجريمة باستخدام سياراتهم الخاصة ليلا فى خطف حقائب وسلاسل السيدات بالطريق العام، ثم طوروا نشاطهم للسطو على مساكن الأثرياء وبعض الشخصيات العامة بعد رصد تحركاتهم جيداً... ومن بين المساكن التى سرقوها مسكن وكيل وزارة المالية بالمعادى، مشغولات ذهبية ومبالغ نقدية من مسكن وكيل وزارة الصحة، ومجوهرات ونقود من مسكن مدير عام محلات جاتينيو ومسكن مدير عام المجموعة السياحية لفنادق مصر. وقد توصلت تحريات المقدم فريد شريف والرائد محمد

كمال عن تحديد شخصية المتهمين وهم نجلى عميد إحدى الكليات... أحدهما طالب بالسياحة والفنادق، والآخر بكلية التجارة، وسبق اتهامهما فى ١٢ قضية سرقة وآخر ابن لواء متقاعد بالقوات المسلحة وسبق اتهامه فى ٨ قضايا سرقة، وطالب بالسياحة والفنادق وسبق اتهامه فى ١٠ قضايا سرقة وهو نجل مستشار بإحدى الوزارات... وطالب بكلية التجارة نجل عميد متقاعد، وطالب بكلية التجارة نجل مدير أحد المعاهد الطبية الكبرى، وطالب ثانوى نجل جراح مشهور، وطالب ثانوى نجل مهندس ويعمل بالخارج، وطالب حقوق نجل أستاذ جامعى. وقد تم القبض عليهم فى عدة أكمنة مختلفة بعد إخطار اللواء منصور عيسوى مساعد الوزير لأمن الجيزة. وبمواجهتهم اعترفوا بارتكاب جرائمهم التى بلغت حصيلتها ٢٥٠ ألف جنيه (ربع مليون جنيه) للإنفاق على إدمانهم للمخدرات. وقد تولى سعد زينهم، مدير نيابة الدقى، التحقيق، (فريد صبحى: أهرام ١٩٨٩/١/٣١).

ولقد آثرنا أن نورد هذه التفاصيل الكثيرة عن هذا الحدث حتى ننجح فى تجسيمه وتصوير مدى خطورة الإدمان ودفعه إلى ارتكاب الجرائم الخطيرة، فلا ينجو من الإنزلاق إلى هاوية الجريمة الناتجة عن الإدمان حتى أبناء الطبقة العليا اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، ولا ينجو من ضحايا جرائمهم سيدات المجتمع ولا كبار شخصياته.. ليس هذا بمستغرب نظراً لسببين رئيسيين:

أولهما: أن الإدمان والتعاطى باهظا التكاليف؛ نظراً للغلاء الشديد للمخدرات، مما يفقر الفرد ويلجئه -مكرهاً- إلى السرقة وارتكاب الجرائم للحصول على المال بأية وسيلة، لشراء ما يحتاجه من مخدر.

ثانيهما: أن الإدمان والتعاطى يفسدان العقل ويذهبان بالحكمة والتبصر، (ومن هنا جاء تحريمهما فى الإسلام). ومن ثم، يفقد المدمن أو المتعاطى قدرته على التبصر السليم فى عواقب سلوكه، كما يفقد قدرته على التوجيه السليم لتصرفاته، فيسهل عليه الوقوع فى الجرائم بأنواعها المختلفة دون وعى كاف بما يقوم به من جرائم، أو ما تترك من آثار مدمرة عليه أو على غيره مما يوقعه تحت طائلة القانون، أو يخرج به عن التزام الأعراف الاجتماعية والقيم الأخلاقية المحبَّذة لسير المجتمع وانتظامه.

ففى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٩/٥/٢٩ كتب محمد شومان فى صفحة الحوادث خبرا يقول: «سائق يحاول قتل والدته لرفضها إقراضه مبلغاً لشراء مخدرات. ثم أضاف تحت هذا العنوان: بسبب إدمان المخدرات قام سائق بمحاولة قتل والدته لعدم إعطائه مبلغ ١٠٠ جنيه للإنفاق منها على إدمان المخدرات وشراء البانجو وطعنها بسكين واعتدى عليها بالضرب. وعندما فوجئ به شقيقه الأكبر، اعتدى عليه بالضرب وطعنه بسكين وفر هارباً. وتم ضبط المتهم والسلاح المستخدم فى الحادث... وكان مفتش مباحث غرب الجيزة قد تلقى بلاغا من مستشفى بولاق الدكرور العام بوصول سيدة...(٦٠ سنة). مصابة بعدة طعنات فى الصدر... وأكدت التحريات التى أشرف عليها مدير مباحث الجيزة أن مشاجرة نشبت بين الأم المجنى عليها ونجلها وذلك لعدم إعطائه مبلغ ١٠٠ جنيه لشراء البانجو (وهو مخدر بدأ ينتشر فى مصر أخيرا بشكل وبائى سريع). عند ذلك قام الابن بضرب والدته وطعنها بسكين، وعندما فوجئ شقيقه الأكبر الذى كان خارج المنزل بالمتهم يعتدى على والدته صعنه بسكين ولاذ بالفرار حيث تمكن رئيس مباحث بولاق الدكرور ومعاونو المباحث من القبض على المتهم واعترف بارتكاب الحادث».

وفى تحقيق شامل لجريدة الأهرام، نشرته بصفحة الحوادث والقضايا التى يشرف على تحريرها حسن الشرقاوى بعددها الصادر يوم ١٨ فبراير ١٩٨٩، نقرأ العناوين والحوادث التالية: «القتل من أجل السرقة والسرقة من أجل الشم: ثلاثة أشقاء... طبيب... ومحام... وطيار... سرقوا شقة والدهم للإنفاق على شم الهيروين!! نماذج مثيرة من جرائم الإدمان!؟، سائق قتل زوجته، عامل قتل ابنه الوحيد، شاب قتل تاجر مخدرات، زوجة قتلها زوجها، شاب ذبح والده العجوز، نجار قتل صديقه -طلاب الإعدادى يتعاملون مع المخدرات- ٣٣٪ من مدمنى الهيروين يموتون! ومثلهم يعيشون فى آثار نفسية مزمنة. ويقدم المحرر تحقيقه هذا فيقول: على هذه الصفحة سيجد القارئ نماذج غريبة ومثيرة لقتلة كان الدافع وراء ارتكاب جريمتهم السرقة... والسرقة كانت من أجل الشم... شم الهيروين أو تعاطى المخدرات من أى نوع!! والغريب فى كل هذه النماذج أنها لا تعد قاصرة على فئة معينة من المواطنين، بل نجد فيها كل الطبقات والأعمار... شباب...

طلاب جامعات... مهنيون... عمال... أبناء طبقات راقية وفقيرة...!! هؤلاء وغيرهم ضحايا عوامل كثيرة فى المجتمع الذى تنظر أجهزته أحياناً إلى كل جريمة على حدة دون النظر إلى الجرائم المركبة، مثل تلك التى نعطى نموذجًا لها اليوم، وهى القتل من أجل السرقة... والسرقة من أجل الشم...!! فالمشكلة أصبحت ذات أبعاد خطيرة!!... وقسم القضايا والحوادث فى التحقيق المنشور اليوم على هذه الصفحة يحاول أن يدق الأجراس فى محاولة منه للتنبيه قبل فوات الأوان...!!

«تحقق نيابة المخدرات مع ٣ أشقاء؛ أحدهم طيار والثانى محام والأخير طبيب، سرقوا شقة والدهم للإنفاق على شم الهيروين... والطريف أن الأب –وهو موظف كبير– كان قد أبلغ مباحث القاهرة بسرقة شقته، وعندما توجهت قوة من المباحث إلى الشقة بمدينة نصر، فوجئت بسيارة ملاكى تقف فى شارع جانبى، بداخلها الأبناء الثلاثة يشمون الهيروين وفى حالة فقدان للوعى. وبمجرد القبض عليهم انهاروا واعترفوا بالسرقة! وأيضًا... فى القاهرة طعن شاب صديقه بمطواة فأرداه قتيلاً عندما اختلفا على تقسيم مبلغ من المال من أجل شراء شمتى هيروين. وفى الأسبوع الماضى، قضت محكمة جنح الدقى بحبس ٦ طلاب جامعيين –من أبناء الطبقة الراقية– ٦ أشهر مع الشغل لاشتراكهم ضمن عصابة تضم ١١ طالبًا جامعيًا، ارتكبوا ٢٦ حادث سرقة، حصيلتها ربع مليون جنيه، ليتمكنوا من شراء الهيروين. وهذه مجرد نماذج قليلة لجرائم متعددة، المجرم الحقيقى فيها دائمًا هو الهيروين (وغيره من المخدرات)، والذى يقف بظله المرعب خلف جرائم الاغتصاب والاختطاف والسرقات بأنواعها... وغيرها من الجرائم... والمفزع فى الهيروين أنه بدأ يقود مدمنيه إلى أبشع جريمة وهى القتل من أجل الحصول على شمة... ولم تقتصر ظاهرة الإدمان على الحرفيين والعاطلين فقط بل غزت الجامعات والنوادى والطبقات الراقية» (حسن الشرقاوى: أهرام ١٨/٢/١٩٨٩).

وينقل هذا التحقيق بداخله رأياً لسيد عويس (أستاذ علم الاجتماع) يقول فيه: المدمن مريض يستحق أن نهتم به ونعالجه. ويجب أن تتدخل المراكز البحثية العلمية عند وقوع

جريمة (مرتكبها) مدمن لتبحث وتحلل. للوقوف على الدوافع التى أدت به إلى الإدمان وارتكاب الجريمة، حتى يمكن إنقاذ غيره من المرضى وإنقاذ المجتمع من التدمير. أما من يستحق العقاب فهم المهرب والتاجر والموزع والزارع، هؤلاء يجب إعدامهم. كما أن بهذا التحقيق تقديراً لعدد المدمنين على مختلف أنواع المخدرات فى مصر بحوالى مليون ونصف مدمن.

ولعل هذا الخطر الداهم على المجتمعات من تفشى ظواهر الإدمان والتعاطى فيها جعلها تتشدد فى عقاب المسئولين عن ترويج المخدرات وجلبها والاتجار فيها حتى تنجح فى حصارها ومقاومتها، فتصل القوانين فى بعض المجتمعات إلى حد إعدام تجار المخدرات وجالبيها ومروجيها، حماية للمجتمع من شرورهم ومفاسدهم. ومن أبرز المجتمعات التى تؤمن بضرورة ذلك المجتمع الإيرانى؛ إذ نقرأ الجزء التالى منشوراً بالصفحة الأولى من جريدة الأهرام الصادرة فى ٣٠ يناير ١٩٨٩ تحت عنوان: «سلطات إيران تعدم ٢٢ من تجار المخدرات»: «نيقوسيا –وكالات الأنباء– أعدمت السلطات الإيرانية علناً ٢٢ من مهربى المخدرات فى مختلف المدن الإيرانية، خلال الأيام الثلاثة الأخيرة ليصل بذلك عدد الذين أعدموا فى إطار الحملة التى تشنها الحكومة الإيرانية ضد تجار المخدرات إلى أكثر من ١١٣ شخصاً. وذكر راديو طهران أنه تم اعتقال حوالى ١٥٠٠ شخص خلال هذه الحملة وأن السلطات تعتقد أن مليون إيرانى متورطون فى تهريب المخدرات. وأضاف الراديو: أن إعدام مهربى المخدرات فى إيران يتم بموجب قانون جديد بدأ العمل به فى البلاد منذ الأسبوع الماضى».

هذا، وتدل تجربة كل من الصين الشعبية واليمن الجنوبية، على أن المجتمعات لا تنجح فى الشفاء من داء المخدرات وفى مقاومة انتشاره إلا باستخدام العقوبات الشديدة والتخويف الرادع الذى يصل إلى حد التنفيذ العلنى للإعدام على نحو ما تفعل إيران الآن، إذا كانت المجتمعات جادة فى حربها ومقاومتها للمخدرات. ولنا خير أسوة لذلك فى إقامة الحدود فى الشريعة الإسلامية على المستوى العلنى؛ بحيث يتم الإعدام أو قطع اليد أو الرجم... أمام

المساجد وفى الساحات العامة، كما يحدث بالمملكة العربية السعودية، حتى يكون فى ذلك عبرة لمن تسول له نفسه أن يخرج على القانون، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة المائدة : ٣٣].

ويركز كثير من المفكرين، ومن تؤرقهم أحوال البلاد ويستهدفون مصلحتها العامة، على ضرورة تنفيذ الإعدام على مهربى المخدرات وتجارها ومروجيها (بل يفضل كثير منهم أن يتم ذلك فى الميادين العامة، وأن ينقل على كافة أجهزة الإعلام). وبهذا الخصوص، نقرأ للصحفى صلاح منتصر فى عموده اليومى «مجرد رأى» الذى نشره بجريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ٢٥ يونيو ١٩٨٨ مما كتبه تحت عنوان «سلاح الإعدام»: «لم تشهد مصر حتى اليوم إعدام مهرب مخدرات، مع أن القانون المعمول به يقضى بهذا الإعدام، ومع أن هناك عدداً من المهربين الذين تم الإمساك بهم فى حالة تلبس، وصدرت بالفعل ضدهم أحكام إعدام منذ عدة سنوات، ولكن حكماً واحداً لم ينفذ. وهذا أمر يثير الحيرة... ولست من الذين يهوون تبسيط الأمور أو تعقيدها بإعلان أن شبابنا بالذات مستهدف فى عملية قتله بالمخدرات خصوصاً السموم البيضاء... ذلك أننى أرى كل شباب العالم مستهدفاً... فى مصر كما فى أمريكا وفى أوربا كما فى كل دول آسيا وكثير من البلاد العربية... إن (غداً) ٢٦ يونيو هو اليوم الذى اعتبرته الأمم المتحدة يوماً عالمياً لمكافحة المخدرات... ولن تنجح دولة فى حرب المخدرات دون أن تستخدم سلاح الإعدام وتنفذه بكل قسوة» (صلاح منتصر: أهرام ٢٥/٦/١٩٨٨).

وفى كتابه عن «المخدرات من القلق إلى الاستعباد» يقول محمد محمود الهوارى: إن نظرة سريعة إلى الجداول الإحصائية، التى تنشرها المكاتب المتخصصة فى العالم، تبين- بشكل لا يقبل الجدل- خطر هذه المأساة التى لم ينج منها عالمنا الإسلامى والعربى مع الأسف الشديد. وبدأت آثارها تنعكس على تطور الجريمة، وتفكك العائلة، والانحطاط

الخلقى، والتخلف الصحى والعقلى، والولادات المشوهة... وما إلى ذلك من آثار بدأت تتكشف لنا يوماً بعد يوم... وما انتشار مرض العصر (الإيدز) إلا إحدى نتائج تعاطى هذه الموبقات. ولقد نبه هذا السلطات المسئولة فى العالم لتجمع جهودها وتقف أمام هذا الخطر الداهم، واعتبرت دول السوق الأوروبية المشتركة عام ١٩٨٧ عام مكافحة المخدرات، (محمد محمد الهوارى: ١٩٨٧، ١٦-١٧). ومن الجدير بالذكر، أن عدداً من الهيئات والجمعيات العلمية كان من بينها الجمعية المصرية للدراسات النفسية، قد أقامت مؤتمراً علمياً عربياً بالقاهرة فى المدة ما بين ١٣ و١٥ سبتمبر عام ١٩٨٨، بمبنى جامعة الدول العربية تحت اسم «المؤتمر العربى الأول لمواجهة مشكلات الإدمان» حيث اشترك فيه متخصصون فى الطب النفسى وعلم النفس وعلم الاجتماع والقانون والشرطة من البلاد العربية فى عرض بحوث علمية عن الإدمان وناقشوه من جوانبه المختلفة؛ مما يشير إلى الوعى العربى المتزايد بخطورة مشكلة الإدمان وضرورة التصدى لها فى مجتمعات العالم عامة، ومجتمعنا العربى خاصة.

وفى ختام حديثنا -الذى طال- عن أضرار الإدمان على المخدرات وتعاطيها؛ لشدة خطورتها، وضخامة أضرارها وتدميرها للأفراد والأسر والمجتمعات جميعاً، نقول فى ختام حديثنا هذا، إنه يجب علينا الإشارة إلى أننا قد ركزنا حديثنا السابق على سوء استخدام تعاطى المخدرات، وما يؤدى إليه من إدمان وتدمير وسوءات، إلا أن هذا لا يجوز أن ينسينا الوجه الآخر المفيد والإيجابى لحسن استخدام المخدرات وتعاطيها، فالأصل فى استخدام المخدرات هو إفادة البشرية من خواصها وآثارها. ونجد هذا واضحاً فى حالة ممارسة الأطباء والمعالجين لواجباتهم إزاء مرضاهم، كما يحدث فى حالة إعطاء جرعات مخدرة للمرضى قبل إجراء الجراحات لهم حتى لا يحسوا بالألم، وكما يحدث عندما يلجأ الطبيب المعالج إلى العقاقير المخدرة للتخفيف عن المرضى من شدة آلامهم... وكما يحدث -أيضاً- فى علاج بعض الأمراض النفسية والعقلية التى يصحبها هياج للمريض أو هبوط فى نشاطه أو اكتئاب أو انسحاب... لكن مثل هذه الحالات جميعاً تشترط أن ينصح الطبيبُ المعالج بتعاطى العقار المخدر. وأن يحدد نوع المخدر المناسب ومقدار الجرعة وتوقيتها

وطريقة تناولها، بحيث يكون تعاطى المخدر دائماً تحت إشراف الطبيب حتى يمكنه التحكم فى منع إدمان المريض له، وفى سرعة علاجه من الإدمان إذا تعرض المريض له قبل أن يتمكن من المريض ويستفحل، خاصة وأن بعض العقاقير المخدرة قد تسبب إدماناً إذا تكرر تعاطيها مرات قليلة ربما لا تزيد عن الثلاث أو الأربع كالهيروين.

٣ - إدمان الإنترنت Internett Addiction

و لايفوتنا بعد حديثنا السابق عن إدمان المخدرات أن نشير إلى نوع مختلف من الإدمان بدأ ينتشر حديثاً بين فئات السن المختلفة، خاصة الشباب، وهو ليس إدمان عقار، ولكنه إدمان لسلوك، يتعلق بارتباط شديد بين الفرد واستخدام كثيف لجهاز الكمبيوتر، قاضياً وقتاً طويلاً للغاية مع متابعة تشغيل جهاز الكمبيوتر دون إحساس بتعب أو ملل، ويعطله هذا كثيراً عن أداء أعمال جادة مثل مذاكرة دروسه أو استكمال المطلوب منه من أعمال أو نشاط مثمر فى أوجه الحياة المعاشة والعلاقات الاجتماعية؛ مما يمثل خسارة كبيرة له. ويشترك مع إدمان المخدرات فى تلهف مدمن الكمبيوتر على تشغيله واستخدامه، وضعف مقاومته إزاء ذلك، وصعوبة حرمانه من مداومة تشغيل الكمبيوتر والجلوس عليه، أو انتزاعه منه، أو منعه من الإفراط فى استخدامه. «وإدمان الإنترنت Internett Addiction شأنه شأن أى نوع آخر من الإدمان من شتى الجوانب السلوكية والآثار المترتبة عليه، والفرق فقط يكون فى نوعية المادة التى يعتمد عليها الفرد، أو طبيعة تلك المادة التى تسبب الإدمان وطريقة التعامل معها وتداولها» (عصام محمد زيدان: ٢٠٠٨، ٣٧٣).

ومع تسعينيات القرن الماضى، التى كانت مصحوبة ببداية الانتشار الضخم والرواج الهائل لاستخدام الكمبيوتر بين عامة الناس بدأ العلماء يتنبهون إلى وجود هذا النوع الجديد من الإدمان ويتحدثون عنه ويقومون بدراسات عن سيكولوچيته، وعلاقاته بجوانب الشخصية المختلفة وكيفيات علاجه. ولعل علاجه أسهل كثيراً وسلبياته وأضراره على

المجتمع أخف كثيراً؛ في المقارنة بإدمان المواد المخدرة.

٤ - النصب أو الاحتيال Posture, Swindling

النصب أو الاحتيال هو السلب أو الاستيلاء على ثروات وممتلكات الغير بالخداع والغش والإيهام والتدليس، ويعتبر جريمة يعاقب عليها القانون المصرى الخاص بالعقوبات.

ويلاحظ أن أهم ما يميز جريمة النصب عن جرائم الاعتداء الأخرى على الأموال؛ كالسرقة وخيانة الأمانة أن النصاب يستعمل حيلاً ووسائل ويستعين بإيحاءات تجعل المالك يسلم ما يملك إليه طواعية واختياراً، مع اطمئنان من جانب المنصوب عليه أنه يحقق من وراء ذلك مكاسب كبيرة، مما يجعل الطمع -كدافع نفسى لدى المنصوب عليه- ييسر له الوقوع في الشرك الذى ينصبه له النصاب، فيصبح من ضحاياه، ويقوم بالنصب أفراد منفردون أو مجموعات متعاونة.

ولعل أكبر عملية نصب حدثت في مصر في القرن العشرين هي العملية التى أثيرت على مختلف الأصعدة الرسمية والشعبية، وتسببت في أزمة اقتصادية ضخمة ألحقت بالاقتصاد القومى أضراراً كبيرة، وبكثير من الأسر والأفراد خسائر مالية جسمية، حيث وقعوا ضحايا ما عرف بشركات توظيف الأموال. ولقد بلغت ضخامة عملية النصب هذه حداً جعل رئيس الجمهورية في خطابه بافتتاح الدورة البرلمانية الجديدة لمجلس الشعب يوم ١٠ نوفمبر من عام ١٩٨٨ يشير إلى أن «الدولة تبذل كل جهدها حتى لا تضيع حقوق المودعين وأموالهم فى الداخل والخارج -الأجهزة المختصة تدقق فى أوضاع الشركات (شركات توظيف الأموال التى قامت بالنصب على المواطنين)، ولن يتمكن أحد من القائمين عليها، أو ممن حصلوا على مميزات لا يبررها القانون من خداع الدولة أو التغرير بالمواطنين» ؛ على نحو ما نشرت جريدة الأهرام فى ١٩٨٨/١١/١١.

وتتلخص هذه العملية في قيام مجموعات من الأفراد بتكوين شركات أعلنوا أنها متخصصة في جمع فوائض ومدخرات أموال من يرغب من المواطنين، حيث يقومون

باستثمارها نيابة عنهم استثماراً يحقق عائداً مجزياً وفق الشريعة الإسلامية، وبالتالى -حسب زعمهم- يخلو من شبهة الربا، والفوائد المحرمة التى تدفعها البنوك الرسمية. واستطاعوا بهذا أن يلعبوا على وتر الدين ويستغلوا البسطاء والسذج وما أكثرهم، حتى جمعت هذه الشركات آلافًا كثيرة من ملايين الجنيهات المصرية والدولارات الأمريكية، وغيرها من العملات الأجنبية؛ قامت بتهريبها إلى الخارج، فحرمت الاقتصاد القومى من استثمارها لصالح المجتمع عن طريق بنوكه المعتمدة الجادة، كما عرّضت الضحايا لتبديد أموالهم وثرواتهم الخاصة، وعرضتهم بذلك لأزمات مالية بالغة، ألحقت بهم أضراراً شاملة. ولقد استعان أصحاب هذه الشركات ببعض رجال الدين وببعض كبار المسئولين فى الدولة وجهازها الحكومى -الحاليين والسابقين- واستغلوا نفوذهم (وثقة المواطنين السذج فيهم) فى تيسيرهم لعمليات نهب أموال المواطنين وتهريبها للخارج. فعينت بعضهم موظفين عندها أو مستشارين لها بمكافآت شديدة الارتفاع، وأجرت على بعضهم -حسب ما تناقلته وسائل الإعلام- رواتب ومكافآت ضخمة، بحجة أنهم أناس مبروكون إذا ما تعاملت معهم شركات أو أفراد يبارك اللّه لهذه الشركات وهؤلاء الأفراد بالربح الوفير. ولقد تناولت الصحف ووسائل الإعلام المختلفة جوانب هذه الأزمة بالوصف والتحليل والتشخيص. ومن بين من اهتموا بالكتابة عنها -بل من أبرزهم- الكاتب الصحفى أحمد بهاء الدين، الذى خصص سلسلة من مقالاته اليومية التى كان ينشرها بجريدة الأهرام فى باب «يوميات» ناعتًا هذه الظاهرة بالملحمة. ولقد جاء فى المقالة السادسة، والتى نشرها يوم ٢١ نوفمبر ١٩٨٨، قوله: ... يأتى هذا التوسع فى استغلال الدين فى كل المجالات لأسباب لا علاقة لها بالدين الصحيح. لقد تعلمنا منذ الطفولة أن الدين النصيحة -الدين المعاملة- أن النبى الكريم بعث بهذا الدين (ليتمم مكارم الأخلاق). وهجم علينا جو غريب سول للبعض أن يتخذ الدين ذريعة للاغتيال والإرهاب المادى والفكرى، وسول لآخرين أن يتخذوا الدين ذريعة للنصب والاحتيال. حملت شركات توظيف الأموال -مع الأسف- اسم (شركات توظيف الأموال الإسلامية)، واحتشدت إعلاناتها بالآيات القرآنية الكريمة. وجاءت بالفقهاء الذين يؤثمون كل إدخار آخر بأنه ربا

محرم، حتى شهادات الاستثمار، التى تشجع الإدخار وتعين الدولة على رعاية المجتمع، وصفوها -باطلاً وضلالاً- بأنها ربا... وارتكبوا (أى أصحاب هذه الشركات ومديروها) ما هو أشد من الربا، وابتعدوا أشد الابتعاد عن (مكارم الأخلاق). من يتعاطى المخدرات، ومن يسجن لجرائم ضد التسعيرة لأقوات الناس، ومن يتزوج ثمانى زيجات فى شهور. وتقرأ التفاصيل فنجد أن فى سيارته (مأذوناً) موظفاً عنده وشاهد العقد هو سائق سيارته! فهو نوع من شراء الجوارى بالأموال والقصور، مع ورقة اسمها عقد زواج! واستخدموا أطهر الأسماء لأسوأ الذنوب وهى الرشوة، سموها كشوف (البركة). وفى قاموسنا الشائع أن (البركة) من عند الله لا من عند البشر. ويظهرون الاهتمام بنشر (كتب التراث) ليستولوا على المطابع وليستكملوا (رتوش) صورتهم الدينية المزيفة أمام الناس. والهرب بالمال إلى الخارج، أليس سرقة يقام عليها الحد، ويطل علينا صاحب شركة.. فى حديث مع مجلة روزاليوسف، وقد أطلق لحية أنيقة يتحدث فى أمريكا عن الملايين التى هرب بها، ويتفضل بوعدنا بأنه عائد بإذن الله!! بمئات الملايين!...» (أحمد بهاء الدين: جريدة الأهرام عدد ١٩٨٨/١١/٢١).

وينشر أحمد بهاء الدين بجريدة الأهرام الصادرة فى ١٩٨٩/٢/١٥ فى نفس باب «يوميات» رسالة موجهة له من محمد تيمور يقول لأحمد بهاء الدين فيها: «اسمحوا لى أن أهنئكم على مجموعة مقالاتكم التى اتسمت بالشجاعة والصراحة -عن شركات توظيف الأموال- ووضعت النقط فوق الحروف دون محاولة لمجاملة الحكومة أو الجمهور، الأمر الذى نفتقده فى أكثر ما نقرأه هذه الأيام. ويهمنى هنا أن أشير إلى نقطة سبق لى أن أوضحتها فى مقال نشر فى الأهرام فى أوائل عام ١٩٨٥. وهى تتعلق بتأثير شركات توظيف الأموال على سوق المال فى مصر، وبالذات على بورصة الأسهم والسندات والتى تعتبر الوعاء الشرعى المنظم الوحيد لاستيعاب المدخرات. إن المتابع لأسعار الأسهم فى البورصة خلال السنوات الثلاث الأخيرة يلاحظ أنها انخفضت انخفاضاً شديداً، ليس له ما يبرره من حيث الوضع المالى لهذه الشركات. وقد كان ذلك نتيجة لإقبال المستثمرين على بيع أسهمهم بأى سعر وتحويل مدخراتهم إلى شركات التوظيف جرياً وراء العائد المرتفع؛

أى أن التأثير السلبى لهذه الشركات قد تعدى ضياع أموال المودعين إلى تخريب القنوات الشرعية التى كان يجب أن توفر لها الدولة مقومات النجاح. إن المراقب للتطور العالمى لأسواق المال سوف يكتشف بسرعة أن الدول التى نجحت فى استيعاب مدخرات مواطنيها فعلت ذلك عن طريق تنشيطها وحمايتها لأسواق الأوراق المالية وفتحها للمستثمرين الخارجيين. ويكفى أن نشير إلى بورصات كوريا الجنوبية وسنغافورة، بل وماليزيا وتايلاند، لكى نبرهن على أن الوسيلة المثلى، وقد تكون الوحيدة، لاستيعاب فائض المدخرات، سواء على مستوى الأفراد أو المؤسسات، هى وجود بورصة أسهم وسندات نشيطة ومفتوحة تحميها قوانين رادعة لمنع التلاعب» (محمد تيمور: جريدة الأهرام عدد ١٩٨٩/٢/١٥).

ولذا، فإن الحكومة المصرية عندما تنبهت مؤخراً إلى توافر نية النصب والاحتيال عند شركات توظيف الأموال هذه، وإلى مدى انتشارها وتضخم نشاطها وخطورته على الاقتصاد القومى من جانب، وعلى ضحايا هذه الشركات من المواطنين من جانب آخر، قامت بوضع هذه الشركات وأصحابها وكبار المسئولين فيها تحت الحراسة، ومنعتهم من حرية التصرف، وحبست الكثير منهم رهن التحقيق، حتى أن جريدة الأهرام تطالعنا فى عددها الصادر يوم ٥ فبراير ١٩٨٩، وفى صفحته الأولى (لتستكمله بعد ذلك فى الصفحة العاشرة، خبراً تقول فيه عن أحد أصحاب هذه الشركات: «تجديد حبس (...) ٤٥ يوماً أخرى. قررت أمس محكمة جنوب القاهرة المنعقدة فى غرفة مشورة استمرار حبس (...) ٤٥ يوماً أخرى على ذمة قضية (...) وفى بداية الجلسة، ترافع أحمد إدريس –رئيس نيابة الشئون المالية والتجارية– أمام المحكمة برئاسة حمدى أبو الخير وعضوية القاضيين: ربيع لبنة وأحمد الشناوى، فطالب باستمرار حبس (...) احتياطيًا للمصلحة العامة؛ لأن التحقيقات لم تنته بعد، كما أن الإفراج عنه يهدد سلامته من آلاف المودعين (أى الضحايا) الذين لديهم مبرر الانتقام منه...» وبعد حوالى شهر من هذا التاريخ، يصدر القاضى أحكامه التى مجموعها ٢٣ سنة حبس مع الشغل على هذا الشخص فى ٨ قضايا أقامها ٨ –فقط– من ضحاياه المودعين. ونقرأ للكاتب الصحفى صلاح منتصر فى عموده

اليومى «مجرد رأى» الذى كتبه بجريدة الأهرام فى عددها الصادر يوم ١٣ مارس ١٩٨٩ معلقًا على هذا الحكم تحت عنوان ٢٣ سنة حبس ما يلى: «العودة للحديث... سببه الحكم الذى أصدره القاضى شوقى فايد رئيس محكمة جنح بولاق الدكرور بحبس (...) ٢٣ سنة مع الشغل وكفالة ٢٨ ألف جنيه. سنوات الحبس الـ٢٣ هى مجموع السنوات التى أصدرها القاضى أحكامًا فى ٨ قضايا أقامها ٨ من ضحايا (...) من المودعين... لم ينتظروا إجراءات الدولة فى حصر التركة ثم إعادة توزيعها... ولو اتجه كل مودع إلى القضاء لصدرت أحكام بحبس (...) آلاف السنوات وهو أمر خيالى طبعًا... تقول حيثيات الأحكام التى أصدرها شوقى فايد لقد استقر فى يقين المحكمة أن المتهم توصل بطرق احتيالية أضحت نموذجًا صارخًا للركن المادى فى جريمة النصب، ووقع فى حبائله ليس المودعون وحدهم بل -أيضاً وبكل الألم والحسرة- وسائل الإعلام المختلفة التى ظنت أنه حق فصفقت له تصفيقًا عالياً بلغ كل مسمع وشاهدته كل عين. وقد أكدت المحكمة على (...) ارتكابه جريمتى النصب وخيانة الأمانة. وقالت فى ختام حيثياتها (ولا يفوت المحكمة أن تسجل أنه وإن كانت جرائم المتهم بمثابة كارثة حلت بالبلاد على أيدى ذلك المتهم ومعاونيه، وأنه وإن كانت أجهزة الدولة كافة قد واجهت الكارثة بكل الإيجابية والحزم إلا أنه لا يسع المحكمة بعد قضائها بأقصى عقوبة تضمنتها مواد الاتهام أن تذكر أنه لا الدولة بكامل مؤسساتها، ولا القانون بأغلظ عقوباته كافيان لإصلاح نفس خربت أو لإيقاظ ضمير راح فى سبات؛ اللهم إلا إذا شاءت إرادة عزيز مقتدر، فإنه نعم المنتقم الجبار)» (صلاح منتصر: جريدة الأهرام فى ١٣/٣/١٩٨٩).

وبعد حوالى عقدين من الزمان تبدأ ظاهرة النصب بحجة توظيف الأموال تطل علينا من جديد. ليقع فى حبائلها عدد كبير من المصريين مرة أخرى دون أن يتعلموا من الدرس السابق، والتجربة التى مرت بهم فى ثمانينيات القرن الماضى. وقد وصل الأمر إلى أن تنشر جريدة أخبار اليوم فى عددها الصادر فى ١٤ نوفمبر ٢٠٠٧ خبراً تحت عنوان: «قصة الساعات الأخيرة.. قبل القبض على نصاب توظيف الأموال» كتبه ياسر محمد؛ يقول فيه: «نجح رجال مباحث القاهرة والجيزة فى تحقيق ضربة معلم.. وفى خلال ساعات قليلة تم

القبض على المتهم (...) نصاب الجيزة الذى تمكن من جمع ٢٠٠ مليون جنيه بتلقى وتوظيف الأموال بطرق غير مشروعة وقبل الهرب إلى الخارج بحصيلة ضحاياه بدقائق قليلة..». كما تابعت جريدة الأهرام فى عددها بتاريخ ١٦ مايو ٢٠٠٨ الموضوع ذاته، حيث كتبت سميرة على عياد تقول: «أصدرت محكمة جنح الجيزة عدة أحكام ضد ريان الجيزة (...) فى ٤٨٠ دعوى قضائية وصل إجماليها إلى الحبس لما يقرب من ١٠٠٠ عام لاتهامه بالاستيلاء على أموال المواطنين بزعم توظيفها واستثمارها لهم فى مجال التجارة.

وكان ٤٨٠ مواطنا من ضحايا المتهم قد أقاموا دعاواهم ضد المتهم بعد أن امتنع عن رد أموالهم لهم، فأصدرت المحكمة أحكامها المتقدمة، وقد مثل المتهم أمس أمام محمد عبد الظاهر رئيس نيابة قسم الجيزة وأجرى معارضة فى جميع الأحكام عدا حكم صادر بالحبس ٨ سنوات لعدم استطاعته دفع الكفالة.

جدير بالذكر أنه يتم محاكمة المتهم أمام محكمة جنايات الجيزة بتهمة توظيف الأموال والتى تم تأجيل جلستها إلى شهر يونيو المقبل» (سميرة على عياد: أهرام ٢٠٠٨/٥/١٦).

ولعل ما سبق أن عرضناه يشير إلى أن النصاب يتصف بسمات وخصائص ومهارات شخصية، ودوافع ومكونات نفسية دينامية خاصة؛ تدفعه إلى سلوك النصب وتفضيله؛ تمكنه منه وتجعله يفضله ويتمسك به ويستمر فيه على الرغم مما يواجهه فيه من أخطار وإدانة. كما يشير فى الوقت ذاته إلى أوجه من الضعف فى شخصية المنصوب عليه تُهيّؤه للوقوع فى شباك النصابين، وتقف حائلا بينه وبين التعلم من خبرات السابقين. ونصح الناصحين.

هذا، وترجح الدراسات النفسية النظرية والميدانية التى أجريت على شخصية النصاب «اتصافه بضعف الأنا وعجزه عن مواجهة صراعاته وحل مشكلاته نتيجة تثبيتاته الطفلية، مما يجعله يخضع لمبدأ اللذة وينساق وراء الهوى ولا يتحمل الإحباط ولا الإغراء ولا يستطيع تأجيل الإشباع.. (كما) يبدو الأنا الأعلى كثير الثغرات متساهلاً أمام انسياق الأنا

وراء رغبات الهو، وإن كان يبدو -أحياناً- فجاً عدوانياً مدمراً. وفي أحيان أخرى، تبدو الحاجة إلى أنا أعلى خارجي يقف أمام إشباع رغبات الأنا...» (رزق سند إبراهيم ليلة: ١٩٨٧، ٢٨٣-٢٨٤). مما يؤيد أن النصب أو الاحتيال، كما أنه انحراف قانوني جنائي اجتماعي، فإنه يعكس انحرافاً أو اضطراباً نفسياً يشيع في شخصية النصاب أو المحتال، ويجعله يفضل التكسب عن طريق النصب أو الاحتيال على التكسب بالطرق الشريفة المحبذة اجتماعياً وخلقياً.

٥ - تلَيُّف الضمير Conscience Cirrhosis

في بحث نشرتُه عام ١٩٩٤ عن سلبيات الشخصية المصرية (فرج عبد القادر طه: ١٩٩٤(أ))، صادفني انحراف شديد الوضوح رأيت أن الانحرافات التقليدية لا تغطيه كما يجب، ولاتدل عليه كما ينبغي؛ مما جعلني أجتهد في صك مصطلح خاص به هو تلَيُّف الضمير.

فنحن كثيراً ما نلتقي هذه الأيام أو نسمع أو نقرأ عن أحداث أو وقائع لا يكفي وصفها بالجريمة ولا حتى بالسيكوباتية، حيث يصبح أي من المصطلحين قاصراً عن إعطائنا الإيحاءات والأوصاف التي تنطبق عليها أو تميزها، أو تشير إليها وتحددها. وما ذلك إلا لأنها بلغت حداً من الإنحراف يكاد يستحيل فهمه أو تبريره، إلا أن نصف مَن ارتكبها بأن ضميره قد أصابه التليف، كما يصيب الكبدَ التليفُ، فإذا به ينهار ويعجز عن أداء وظائفه فيموت الإنسان. والضمير -كما نعلم، وكما سبق أن تحدثنا في الفصل السابق- جزء من الأنا الأعلى، الذي هو بدوره جهاز من أجهزة الشخصية الثلاثة (الهو- الأنا- الأنا الأعلى)، حيث تكون وظائف الضمير الأساسية في الشخصية هي حثها وتوجيهها نحو السلوك الخلقي الفاضل، وتحذيرها من ارتكاب الأفعال المحرمة والمدانة، وعقابها بعذاب الضمير إن هي حادت عن المثل الفاضلة أو السلوك القويم. ومن هنا كانت استعارة كلمة تلَيُّف -باعتباره أخطر ما يصيب الكبد من إصابة مرضية- لكلمة ضمير باعتباره أهم ما

فى الإنسان مميزاً له عن الحيوان، وصك مصطلح منهما هو تلّيُّف الضمير.

فإذا ما تليف ضمير الفرد عن أداء وظائفه وتشوّه، فلا يعود يشير عليه بالصواب أو يوجهه نحوالأعمال الفاضلة، ولا يمنعه من ممارسة شتى صنوف الانحراف والجرائم، ولا يعاقبه أو يؤنبه إن ارتكب شيئاً منها مهما عظُم. الضمير المتليف إذن يسمح للشخصية بعمل أى شىء ويُمَرِّره كالليفة المملؤة بالثقوب الواسعة يمر منها السائل بكل شوائبه، ولا تفلح الليفة مملوءة الثقوب الواسعة فى تنقيته.

وفى ضوء هذا علينا أن نقرأ الخبر التالى الذى نشرته جريدة الأهرام فى ١٩٨٨/٧/٢:

«رفضت محكمة استئناف طنطا دعوى تعويض أقامها مدير مدرسة... ضد مؤسسة صحفية، يطالبها فيه بمبلغ خمسين ألف جنيه لنشرها صوراً لطلبة مدرسته أثناء استخدامه لهم فى بناء عمارة يملكها... وقال إن ما نشرته الصحيفة قد أضر بسمعته... ورفضت محكمة أول درجة، فاستأنف مدير المدرسة أمام محكمة استئناف طنطا... وترى المحكمة... أن المستأنف على قمة إحدى دور التعليم المسئولة عن شباب وأجيال المستقبل وأن جميع تصرفاته وأعماله يجب أن تكون مثالا يُقتدى...» (الأهرام: ١٩٨٨/٧/٢).

وبالمثل أيضًا علينا أن نقرأ هذا الخبر الذى نشرته جريدة الأهرام -أيضًا- فى ١٨ مايو١٩٩٩، تحت عنوان «فرض الحراسة على ثروة رجل أعمال قيمتها ٢٥ مليون جنيه لاستيلائه على مليون جنيه بشيكات بدون رصيد من أحد البنوك».

«كتب محمد شعير: فى إطار مواجهة الاستيلاء على أموال البنوك... قضت محكمة القيم بفرض الحراسة على ثروة رجل أعمال قدرت بحوالى ٢٥ مليون جنيه لاستيلائه على تسهيلات إئتمانية من بنك مصر العربى الأفريقى الدولى قيمتها مليون و٢٠٠ ألف جنيه -صدر الحكم برئاسة المستشار نصار وعضوية المستشارين خيرى أبو الليل وطه قاسم وفتحى حجاب و٣ من الشخصيات العامة وأمانة سر أشرف محمود ومحمد عبد الفتاح وحنا

جرجس. وكانت تحقيقات جهاز المدعى العام الاشتراكى مع رجل الأعمال (...) قد كشفت حصوله على التسهيلات الأئتمانية من البنك مقابل شيكات تبين أنها بدون رصيد وقت إستحقاقها. وقد عرض رجل الأعمال فى التحقيقات التى جرت بإشراف المستشار سعيد جمال البكرى مدير إدارة التحقيق والادعاء سداد مبلغ المديونية على ٣ أقساط وحرر ثلاثة شيكات كل منها بمبلغ ٤٠٠ ألف جنيه إلا أنه تبين أنها بدون رصيد أيضا. فأصدر المستشار جابر ريحان المدعى العام الاشتراكى قراره فى شهر يوليو الماضى بالتحفظ على أمواله وممتلكاته والتى تمثلت فى شركة للمستحضرات الطبية وبعض العقارات والأراضى. وقدر خبراء الجهاز إجمالى قيمتها بمبلغ ٢٥ مليون جنيه، وتم تقديمها إلى محكمة القيم لطلب فرض الحراسة عليها بعد أن نسب إلى رجل الأعمال ارتكاب أفعال من شأنها الإضرار بالمصالح الاقتصادية للمجتمع وتضخم ثروته» (محمد شعير: الأهرام فى ١٩٩٩/٥/١٨).

كما أنفا علينا أن نقرأ خبراً ثالثاً يقول :

(كتب : بهاء مباشر:

«أصدرت محكمة جنايات القاهرة حكمها فى أكبر قضية رشوة شهدتها محكمة جنح مستأنف الجمرك واللبان بالإسكندرية والمتهم فيها رئيس المحكمة و١٢ متهمًا آخرون، وقضت المحكمة بمعاقبة (...) مستشار بمحكمة استئناف المنصورة بالسجن المؤبد وغرامة مائة ألف جنيه، ومصادرة الفيلا والأجهزة الكهربائية والمشغولات الذهبية موضوع جريمة الرشوة، وبالسجن ١٥ عاماً وغرامة ألفى جنيه غيابيًا لستة متهمين لم يحضروا جلسات المحاكمة، بينما أعفت المتهمين الستة الآخرين من العقوبة لاعترافهم بجريمة الرشوة. صدر الحكم برئاسة المستشار أحمد رفعت وعضوية المستشارين يحيى رمضان ومحمد عاصم بسيونى، وبحضور طاهر الخولى رئيس نيابة أمن الدولة وأمانة سر ماهر حسانين وعماد عفيفى. وأكدت المحكمة فى حيثيات حكمها التى أودعتها أمس –بعد نطقها بالحكم– أن القضاء رسالة سامية تصل بين القاضى وخالقه؛

فلا يراعى من قضائه سوى إنصاف المظلوم والأخذ بيد الضعيف، فهو صمام الأمان والطمأنينة لإرساء العدل بين الناس... أما المتهم الأول (...) مستشار بمحكمة استئناف المنصورة، والقابع فى قفص الاتهام فلقد علت شهواته على أمانة القضاء التى أدى يمينها فلم يحافظ على اليمين، وخان الأمانة ولم يحافظ على شرف مهنة القضاء، وأضاع نفسه، وضيع أمانته، فحق عليه العقاب. وأكدت المحكمة فى عرض حيثياتها أنها اعتمدت فى حكمها على أقوال الشاهد الأول عضو هيئة الرقابة الإدارية وشهادة موظفى شركة المتهم الثانى وتجار الأجهزة الكهربائية والأثاث واعترافات المتهمين الكاملة بجرائم الرشوة التى تقاضاها المتهم الأول مستغلاً نفوذه. واطمأنت المحكمة إليها، وتناولت المحكمة من حيثيات حكمها التى جاءت فى (٥٩٠) صفحة الرد على الدفوع المقدمة من المتهمين. وقالت إن تسجيل المحادثات الهاتفية للمتهم الأول جاءت بناء على إذن من المجلس الأعلى للقضاء ونيابة أمن الدولة.. وأضافت المحكمة أنها عكفت على الاطلاع على صور القضايا التى أصدر فيها المتهم الأول أحكامه لصالح باقى المتهمين وذويهم مقابل مبالغ الرشوة. وانتهت المحكمة بأنه ثبت لها استجابة المتهم الأول لطلبات المتهمين وإصداره أحكاماً لصالحهم...» (بهاء مباشر : الأهرام ٢٠٠٥/٤/٣)

ولاشك فى أن الوقائع التى ذكرناها الآن -وغيرها كثير مما نقرؤه أو نسمعه- لا تحتاج إلى تعليق.

خلاصة القول -إذن- إن مصطلح تلَيُّف الضمير أطرحه كانحراف نفسى لأعبر به عن اضطراب يصيب الشخصية، ويقابل العرض أو المرض الذى يصيب الكبد، ويطلق عليه الأطباء تلَيُّف الكبد؛ فهذا التليف الكبدى يدمر خلايا الكبد ويعطبها، بحيث تفسد وتتدرن، وتفقد قدرتها على أداء وظائفها الحيوية للفرد. وبالمثل فإننى أرى أن ضمير الإنسان عندما يفسد فإنه يعطب ويتحلل، ويصبح -عند ذاك- كالكبد المتليف فاقدا الوظيفة، أو كالليفة المملوءة بالثقوب الواسعة يمر منه كل سلوك أو تصرف تهوى نفس الفرد الخبيثة أن تأتيه، وأن تُمَرِّرَه؛. فيتم كل ذلك دون رقيب من شخصية الفرد يقاومه ويمنعه، ويرشده إلى ما ينبغى من مكارم وفضائل، وما لا يجوز من مفاسد ورذائل.

ومن الجدير بالذكر، أن هناك كثيراً من الظواهر الانحرافية الأخرى التى تتناولها الدراسات النفسية كأعراض للاضطرابات والانحرافات النفسية؛ كالسرقة والاختلاس والرشوة وإساءة استغلال النفوذ وجرائم الإرهاب والبلطجة والقتل... وغير ذلك من ألوان الفساد والجرائم التى تمثل ظواهر مرضية اجتماعية تعود بآثارها السلبية التدميرية على المجتمع. لكن المقام لا يتسع هنا للحديث المفصل عن كل منها، حيث يكون مجال ذلك الكتب المؤلفة خصيصاً للانحرافات والاضطرابات النفسية؛ إنما كان علينا أن نعرض فى هذا الكتاب نماذج -فقط- للانحرافات النفسية، على نحو ما ذكرنا فى بداية حديثنا عنها.

خامساً: الأمراض (أو الاضطرابات) السيكوسوماتية Psychosomatics

«اعترى أوساط الأطباء شبه هزة من الدهشة يوم(*) فاجأها رجلان من كبار جراحى العالم، هما Havery Cushing مؤسس جراحة المخ، و Charles Mayo مؤسس المستشفى الجراحى المشهور باسمه فى أمريكا، فأعلنا فى حفل طبى كبير، أنهما يريان أن قرحة المعدة تنشأ من التوترات الانفعالية؛ أى من أسباب نفسية. ولم تكن الدهشة لطرافة الفكرة أو لخروجها عن المألوف فحسب، بل لمجيئها على لسان رجلين أنفقا حياتهما فى دراسة ميكانيكية الجسم وجراحته، فلم تكن آثار العوامل النفسية فى صحة الجسم مما يعنيان به. ولسنا فى حاجة أن نذكر أنهما لم يعلنا عقيدتهما دون أن يقدما الدليل التجريبى على صحة رأيهما..» (مصطفى زيور: ١٩٤٥، ١٣).

«لقد كان الرأى الطبى يجمع على أن قرحة المعدة تنشأ من اختلال فحواه أن غشاء المعدة يتآكل بفعل عصيرها الحامض، مثله فى ذلك مثل الطعام. ولكن الأسباب المؤدية إلى هذا الاختلال الوظيفى بقيت غامضة. حتى تلاحقت الأدلة فى السنوات (الأخيرة) تثبت تأثير الانفعالات النفسية فى وظائف المعدة، وما تحدثه من اضطراب خطير قد يؤدى -فى النهاية- إلى آفة القرحة» (مصطفى زيور: بدون تاريخ، ١٣٥). «ويجدر بنا أن

(*) كان هذا مع أواخر ثلاثينيات القرن العشرين وأوائل أربعينياته تقريبًا.

نذكر للتو مشاهدات ولف Wolf وزميله لحالة فريدة لاشك أنها وثيقة ناطقة فى هذا الصدد. فقد أتيح لهما أن يشاهدا مريضًا أجريت له عملية جراحية (من أكثر من قرن مضى على وجه التقريب)(*) هيأ له الجراح بها فتحة خارجية فى المعدة أشبه شيء بفم معدى، فكان يمضغ طعامه ويصبه فى أنبوبة تدخل إلى المعدة عن طريق هذه الفتحة. وقد استطاع ولف وزميله أن يراقبا خلال هذه الفتحة تأثير المنبهات المختلفة فى غشاء المعدة المخاطى، وفى حركة جدرانها. فتبين أن كثيراً من الانفعالات؛ مثل القلق النفسى والغضب بنوع خاص؛ يستثير حركة بالغة وإفرازاً حامضياً عظيمًا. وإذا دامت هذه التغيرات زمناً طويلاً واشتد فعلها، ظهرت فى غشاء المعدة بقع من النزيف ومظاهر تقرح، لا تلبث -إذا طال الأمد- أن تتحول إلى قرحات حقة. حتى إذا هدأ الإفراز، وهبط الاحتقان، وقلت الحركة، فإن هذه القرحات لا تلبث أن تندمل. وقد سبق للجراح الأمريكى الكبير كوشنج Cushing أن شاهد ظهور قرحات فى المعدة لدى بعض المرضى، على عقب تهيج الجهاز الباراسمبتاوى عند إجراء عمليات فى المخ المتوسط. ومن الحقائق السيكوفسيولوچية المعروفة أن هذه المنطقة من المخ المسماة بالهيبوثلاموس وثيقة الصلة بالمظاهر الانفعالية، وقد استطاع هوف وشيهان Hoff and Sheehan أن يحدثا نزيفًا وتقرحاً (تجريبيًا) فى غشاء المعدة لدى القردة، وذلك بتهييج الهيبوثلاموس، (مصطفى زيور: ١٩٤٧، ١١-١٢).

اتضح -إذن- أن الإفراز المستمر فى المعدة ومنها لأحماضها يسبب، إن أزمن، قرحة المعدة، وأن هذا الاستمرار رهن بانفعالات واستثارات نفسية. «بقى أن نعرف ما طبيعة هذه الانفعالات وما مصدرها وكيف تؤدى إلى هذه النتائج الخطيرة. ولابد لنا من اصطناع منهج التحليل النفسى لبلوغ ما نريد. تدلنا الملاحظة على انتشار قرحة المعدة لدى الطموحين من رجال الأعمال، ويدل سلوك المرضى بآفة القرحة على أنهم ينزعون فى غير هوادة إلى مواجهة العقبات ومغالبتها، فنرى المريض وكأنه يوعز: (إننى رجل القدرة

(*) هذا التاريخ معدَّل ليناسب الطبعة الحالية من هذا الكتاب..

والنشاط والإنتاج، وإننى أهل للمنح وتقديم العون للناس وتحمل التبعات، أحرص على أن يتوكل علىّ الناس وأن أكون الزعيم المقتدر، لا يعوزنى شيء ولا أسأل أحداً) . ولكن التحليل النفسى يكشف عما يخفيه هذا السلوك الظاهر من ميول دفينة هى نقيض هذا السلوك، ميول قوية إلى أن يكونوا موضع الحب والعطف، ورغبة ملحة فى تلقى العون والاتكال على الغير. كما يدل التحليل على أن هؤلاء المرضى ينكرون على أنفسهم هذه الميول الدفينة فيكتمونها فى أعماقهم ويقوم فى أنفسهم بشأنها صراع خفى عنيف. يبدو -إذن- إن ما يميز سلوك هؤلاء المرضى هو التنكر لما يراودهم من حاجة إلى التماس الحب والركون إلى الغير، فعوضاً عن أن يتلقوا من الغير نراهم يبذلون العطاء، وعوضاً عن الاعتماد على الآخرين نراهم يجهدون فى سبيل الاستقلال والاكتفاء الذاتى. ولكن هذا التنكر لميولهم الدفينة وهذا السلوك المضاد لما يتلهفون عليه فى قرارة أنفسهم يضاعف من إلحاح هذه الميول ومن ظمئهم إلى أن يكونوا موضع العناية والحب. أما الدافع إلى تنكر هؤلاء المرضى لميولهم فهو ما يشعرون بما تنطوى عليه من عودة إلى الطفولة، حين كان الطفل حضيناً معتمداً على أبويه، لا يقوى إلا على تلقى الحب والعون منهما. وغنى عن البيان أن هذه صفات لا تلائم الشخصية الناضجة، فلابد لهم من نبذها. وليس من العسير أن نتبين العلاقة بين ما يدور من صراع فى نفوس هؤلاء المرضى وبين اختلال وظائف المعدة لديهم. ذلك أن الميل إلى تلقى الحب والعون يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعمليات التغذية منذ الطفولة الأولى حين كان الطفل يتلقى الحب والغذاء معاً من يد واحدة. فالأم حين تحضن طفلها لترضعه ثديها إنما تهبه فوق ذلك حرارة صدرها وحنان قبلاتها. يقترن -إذن- تناول الطعام بتلقى الحب منذ فجر الحياة، بحيث يصبح استقبال الطعام رمزاً وبشيراً بقدوم الحب. ويصبح الجوع دعاءً للطعام والحب معاً. وعندما توصد سبل التنفيس دون التماس الحب، فإن الحرمان الذى يفرضه هؤلاء المرضى على أنفسهم لا يلبث أن يستثير وظائف التغذية، فتنشط المعدة إلى الحركة وإلى إفراز عصيرها كأنها تتأهب لاستقبال الطعام. وكلما كان التنكر لهذه الميول عظيماً كان إلحاحها شديداً، وكان بديلها الفسيولوچى؛ أعنى نشاط المعدة إلى الإفراز كبيراً. ولكن إفراز المعدة فى هذه الظروف ليس طبيعياً؛ لأنه غير مقترن

بتناول الطعام، بحيث إن تدفق العصير المعدى الحامضى مع خلوها من الطعام لابد أن (يؤدى) إلى اضطراب مزمن قد ينتهى إلى تآكل غشاء المعدة وتكوين القرحة. ونعرف اليوم أن كثيراً من الناس يجدون فى إقبالهم الشديد على الأكل بديلاً عن التماس الحب فيصابون بالسمنة. ويظهر ذلك واضحًا فى إقبال الكثير من النساء على أكل الحلوى» (مصطفى زيور: بدون تاريخ، ٣٦-٣٨).

لقد أوردنا هذا الشرح المفصل لمرض قرحة المعدة ليكون نموذجًا للأمراض السيكوسوماتية، والتى تعنى -كما سبق أن ذكرنا فى البند السادس من أعراض الأمراض والاضطرابات النفسية -الأمراض الجسمية الناشئة عن عوامل نفسية. كما نرجو أن يكون هذا الشرح المفصل لقرحة المعدة قد أقنعنا بوحدة الإنسان نفسًا وجسمًا، وتبادلهما التأثير والتأثر فى كل دينامى متكامل يعيش فى وسط اجتماعى يتأثر به كما يؤثر فيه.

وفى مقاله «أمراض القلب النفسية» يتوسع النابلسى فى شرح علاقة القلب وتأثره بالتوترات والتقلبات والحالات النفسية التى تطرأ على الإنسان أو تزمن معه؛ وفيه يقول: «وقد اتفق العلماء المجتمعون فى المؤتمر العالمى لأمراض القلب.... العام ١٩٨٠ على النقاط التالية:

١ - يؤدى الإرهاق النفسى إلى إفرازات عصبية هرمونية، من شأنها أن تحدث اضطرابات وظيفية على صعيد القلب، إلا أن هذه الإفرازات، يمكن أن تؤدى، وفى ظروف معينة، إلى إصابات عضوية، أو اضطرابات وظيفية، تظهر آثارها على موجات تخطيط القلب الكهربائى.

٢ - إن الإثارة المزمنة للجهاز العصبى، نتيجة للإرهاق النفسى المزمن، تؤدى إلى استهلاك الجسم للهرمون المسمى بـ A.C.T.H؛ ونقص هذا الهرمون يساعد على زيادة نسبة الكوليسترول والدهون الغذائية فى الدم.

٣ - إن العوامل النفسية، على أنواعها، تؤدى إلى إفراز الأدرينالين أو/والنور-أدرينالين. وهذه المواد هى كناية عن ناقلات عصبية، من شأنها أن تؤدى إلى حدوث

اضطرابات وظيفية متنوعة من تقلص الشرايين إلى ارتفاع ضغط الدم، إلى اتساع نبض القلب...إلخ.

٤ – باستطاعة العلاج النفسى الحديث أن يعالج مظاهر الإرهاق النفسى، ومنها إفراز الأدرينالين؛ بحيث يؤدى إلى خفض نسبة الكوليسترول والدهون الغذائية فى الدم، وذلك دون أية مساعدة دوائية.

٥ – تستطيع العقاقير المسماة (صادات بيتا) كالبروبرانولول مثلاً، أن تلعب دوراً رئيسياً مساعداً للعلاج النفسى لأمراض القلب العضوية-النفسية، (محمد أحمد النابلسى: ٢٠٠٦، ٩١-٩٢).

وعلى هذا؛ فإن الفهم الأدق لشخصية الإنسان فى سوائها واضطرابها؛ فى سعادتها وشقائها، لابد وأن ينطلق من هذه النظرة العلمية والموضوعية فى نفس الوقت، والقائلة بوحدة الإنسان نفساً وجسماً، وتبادل كلا الجانبين التأثير والتأثر المستمرين.

«وفى عودة إلى البدايات نجد أن انتشار السيكوسوماتيك يعود إلى ترسيخ العالم (المجرى) سيلى H. Selye لمفهوم الشدة (الضغوط Stress) . وهو مفهوم جلب اعتراف كافة الأطباء الذين أقروا بالأثر الذى تمارسه الشدة النفسية على الحالات المرضية. سواء لجهة إحداث أو تطور وتعقيد هذه الحالات. وهذا الاعتراف يوازى تأكيد الأطباء على دور العامل النفسى فى الأمراض الجسدية Pathology. فمن أمراض القلب العضوية والوظيفية إلى الأمراض الانسدادية. ومنها إلى أمراض الأجهزة التنفسية والهضمية والبولية والتناسلية وأمراض الأحشاء والالتهابات نجد أن هناك اعترافًا طبياً بدور الشدة (الضغوط) النفسية فى هذه الإمراضيات. إلا أن الخلاف يقوم على الاختلاف حول أسلوب أو أساليب التصدى لهذا العامل وكيفية علاجه للخلاص من تأثيره ونتائجه السلبية على الصحة الجسدية... وهنا لا يسعنا إهمال الأدوار الرائدة التى لعبتها مقالات ومؤلفات أساتذة عرب من أمثال مصطفى زيور وسامى على. وأعمالهما تشكل إرهاصات أساسية، على الصعيد العالمى، فى ميدان الطب النفسى-الجسدى (السيكوسوماتيك)». محمد أحمد النابلسى: ٢٠٠١، ٦٤-٦٥).

ومن الجدير بالذكر أن مجلة الثقافة النفسية المتخصصة كتبت مقالاً عن السيكوسوماتيك؛ وفي عنوان فرعي شارح: «الحياة النفسية والعضوية... العبور المتبادل». ومما كتبته تحته: إن تطور الدراسات الطبية، والفيزيولوجية، والكيميائية، والنفسية، دعا الأطباء وعلماء النفس في الآونة الأخيرة إلى الاهتمام (بالاستعدادات) النفسية الكامنة لدى الإنسان، وبإمكانية هذه (الاستعدادات) على إحداث الأمراض النفسية؛ وبالتالي التسبب في الاضطرابات العضوية، والتي تعود إلى عوامل نفسية بارزة تسمى بالاضطرابات السيكوسوماتية، أو النفسية-الجسمية. وتعتبر أكثر خطورة وانتشاراً في وقتنا الحاضر بالمقارنة بباقي الأمراض الجسمية المعروفة. فبالرغم من الترف المادي، والتقدم الطبي في النواحي العلاجية، إلا أن هذا النوع من الأمراض في تزايد مستمر. ولعل السبب المباشر في ذلك الظروف البيئية القاسية المحيطة بالفرد، وتفاقم صعوبات الحياة وتعقدها، وزيادة الأعباء، وكثرة المشاكل، ومعاناة الإنسان للصراع والقهر، والاحباط، والقلق، والتوترات، والحرمان... وهذه الظروف الحياتية الصعبة يترتب عنها ضغوط انفعالية شديدة قد لا يقوى الفرد على تحملها، مما يؤثر تأثيراً سلبياً على وظائف الجهاز العصبي الذي يشرف بدوره على وظائف أعضاء الجسم. وفي الحالات العادية، يتلقى الجهاز العصبي هذه الضغوط على شكل أحاسيس ومشاعر، وتتحول إلى فكار تهدف إلى تخفيف هذه اضغوط، وإخراج هذه الإنفعالات في صورة حركية أو لفظية، مما يساعد على تحقيق التوافق والتوازن العضوي والنفسي. أما في الحالات الانفعالية الشديدة والمتكررة، كما في حالات القهر، والقلق، والإحباط، وكبح الانفعالات، وعدم التعبير عنها؛ يفقد (الفرد) توازنه النفسي والفكري، فيؤثر ذلك على تلك الوظائف العضوية التي يتعطل أداؤها.

«ولهذا فإن التقدم الطبي وجد أن الضغوط النفسية المتراكمة، والتوترات، وحالات القلق، والخوف تلعب دور المناشير، أو المقصات، في أعصابنا، وفي جهزتنا العضوية. فقد ثبت علمياً أن هذه الإنفعالات تؤدي، وبكل سهولة، إلى اضطرابات وظيفية عضوية، مثل ضغط الدم الجوهري، وقرح المعدة، والربو، والصداع النصفي، والبول السكري، والطفح الجلدي، والعقم... إلى غير ذلك، حتى إن الدراسات المتقدمة حول السرطان تشير إلى دور العامل

النفسى فى تقدم المرض.

«العلاقة المتبادلة بين النفس والجسد كانت دائماً محط أفكار الفلاسفة والأطباء، فالعالم أبو على بن سينا يعتبر بعد (أرسطو) أول من نقل وحدة النفس والجسد إلى الميدان العملى، أو التطبيقى.

«وهناك كثير من العلماء والأطباء الذين ساهموا فى إثبات هذه العلاقة ودرجة تأثير مشاكل النفس فى الجسد وتحولها إلى مراض جسدية. يقول هنرى مودزلى إن النفس أو العقل لا تؤثر فى الجسم فحسب، وإنما تتدخل فى تكوينه البنيوى. ويؤكد أيوجين بلولير، الطبيب النفسى السويسرى، على أنه كثيراً ما نتكلم عما هو جسدى، أو ما هو نفسى، ولكن الأحرى أن نتحرى ما هو نفسى فى ذلك الجانب الجسدى.. كما علينا أن نتحرى عما هو جسدى فى ذلك الجانب النفسى» (محرر مجلة دراسات نفسية، يناير ٢٠١٠، ٤٣-٤٤).

هذا؛ وقد أثبتت البحوث الحديثة ارتفاع معدلات انتشار الأمراض السيكوسوماتية وتزايدها؛ وارتفاع معدلاتها فى الإناث أكثر منها فى الذكور. فعلى سبيل المثال قام أحمد عبد الخالق ببحث ميدانى على عينة من الكويتيين بلغت ١٨٨٩ مواطناً، طبق عليهم استبياناً مقنناً لانتشار الأعراض السيكوسوماتية بينهم؛ اتضح منه أن قرابة ثلث أفراد العينة (من ٣٨,٨٪ إلى ٣١,١٪) قد اشتكى من «سبعة أعراض» هى بالترتيب: سرعة التعب والإرهاق، والصداع، والتوتر، والأرق أو قلة النوم، وتساقط الشعر، وآلام أسفل الظهر، وصعوبة الاستغراق فى النوم. وقد ارتفع معدل الانتشار لدى الإناث مقارنة بالذكور؛ الأمر الذى يشير إلى أهمية الفروق بين الجنسين فى مجال الأعراض. كما يتضح من الجدول الذى يعرض معدلات انتشار الأعراض لدى الجنسين فى مقارنة بينهما (حيث كان عدد الذكور: ٩٣٨، والإناث ٩٥١)؛ أن الفروق الدالة إحصائياً بين الجنسين كانت توجد فى ٣٠ من ٦٠ بنداً من بنود القائمة (وتتكون من ٦٠)، وأن متوسط الإناث أعلى من الذكور فى ٢٩ بنداً من ٣٠. الأمر الذى يشير إلى ضخامة الفروق الجوهرية فى مدى انتشار الأعراض السيكوسوماتية عند الإناث مقارنة بالذكور» (أحمد محمد عبد الخالق: ٢٠٠٩، ٦٧٣-٦٨٩).

هذا؛ ومن استعراض سلمى دملج لإسهامات مركز الدراسات النفسية بلبنان فى مجال السيكوسوماتيك تذكر: «يطلق على الأمراض السيكوسوماتية تسمية أمراض العصر. وذلك لارتباطها بالشدة النفسية (الضغوط النفسية الشديدة) المتنامية مع زيادة متطلبات الحياة وضغوطها. إلا أن مركز الدراسات النفسية إذ يركز على هذا الموضوع (إنما) بسبب استشعاره لوقوع المجتمعات العربية تحت ضغط شدائد من نوع خاص. فبالإضافة إلى القهر المعنوى المصاحب والناجم عن وضعيات اضطهادية متنوعة هنالك الحروب التى تهدد العديد من البلدان العربية واضعة سكانها تحت ضغوط الشدة الصدمية. بما يهدد مستوى اللياقة النفسية-الجسدية فى تلك البلاد. وبغض النظر عن التعريف المعتمد للاضطراب السيكوسوماتى فإن البلدان المتعرضة للشدائد تسجل ارتفاعات ملحوظة فى نسب الإصابة بالاضطرابات السيكوسوماتية. ويعتبر لبنان فى طليعة هذه البلدان ونموذجاً لها. بحيث يمكن القول بأن العيادة اللبنانية تقدم أحد أهم ميادين الدراسات السيكوسوماتية. ولقد استشعر المركز هذه الواقعة والحاجة إلى هذه الدراسات فعمل على تقديم إسهامات فى مجالها» (سلمى المصرى دملج: ٢٠٠١، ١٥٢). ومن استعراض قائمة الدراسات والبحوث والكتب التى نشرها المركز يتضح كيف أنه يقوم بحملة توعية وتثقيف هامة فى العالم العربى اليوم، تذكّر بما كان يقوم به مصطفى زيور فى منتصف القرن الماضى؛ فاتحاً به مجال التوعية العلمية بالوطن العربى فى ميدان الاضطرابات السيكوسوماتية.

ومن الجدير بالذكر أن مرضا كالسرطان، الذى يعتبر من أشد أمراض العصر خطورة على حياة الإنسان؛ وتصاب به كل فئات السن حتى صغار الأطفال، قد أثبتت البحوث الحديثة فيه أن السبب النفسى يعتبر من أهم عوامل الإصابة به؛ بحيث أصبح يُعد ضمن الأمراض السيكوسوماتية ويدخل فى زمرتها، وينشر عنه الكثير من الباحثين النفسيين كثيراً من الدراسات الميدانية عن الإصابة به. من ذلك ما نشره جاسم محمد الخواجة من نتائج دراسته الميدانية على عينة من ١٩٥ مريضاً ومريضة من مرضى السرطان،انتهى فيها إلى أن نمط الشخصية (أ) هو الذى ارتبط إيجابيًا بالسرطان (جاسم الخواجة: ٢٠٠٠، ٢١٥-٢٤٤). ويتصف هذا النمط (أ) «بأنماط سلوكية معينة مثل: القيام بمجموعة من

الأعمال فى نفس الوقت، وعدم تحمل الانتظار، والإندفاع فى جميع الأعمال، والتسرع فى القيام بأى عمل، وعدم الاستمتاع بوقت الفراغ. وهناك دراسات عديدة عرضها (ريس Rice: 1992) حاولت أن تلقى الضوء على طبيعة نمط (أ) وعلاقته بالضغوط النفسية ودرجة القلق والاكتئاب والحالة الصحية. فكلما ارتفعت الدرجة على مقياس السلوك (أ) ارتفعت درجة الاضطرابات النفسية والفسيولوچية، (المرجع السابق لجاسم الخواجة، ٢١٨). وفى نفس السياق كتب أيزنك H. Eysenck: 1996 فصلاً من أهم ما كتب فى الموضوع، حسب ما يراه الخواجة بعنوان الشخصية والسرطان Personality and Cancer (فى كتاب أشرف عليه كوبر C.L.Cooper عام 1996 بعنوان: Handbook of Stress)؛ والذى راجع فيه (أيزنك) مجموعة كبيرة من الدراسات. وتوصل أيزنك إلى أن هناك ارتباطاً قوياً بين السمات الشخصية والإصابة بالسرطان، وناقش إمكانية احتمال أن تكون العلاقة سببية Causal أو ارتباطية Correlational، وأكد أن نتائج هذه الدراسات تشير إلى علاقة ارتباط بين سمات الشخصية والسرطان، ولخص أيزنك نتائج الدراسات التى قام بتحليلها موضحاً مجموعة من النقاط (ومنها)... تؤثر الانفعالات الشديدة والضغوط على جهاز المناعة مما يزيد من احتمال الإصابة بالأمراض الفسيولوجية... ترتبط كل من الاضطرابات الانفعالية الشديدة والاضطرابات العقلية إيجابيًا باضطرابات جهاز المناعة... ترتبط الخبرات السلوكية التى تشمل الضغوط باحتمال إصابة الفرد باضطراب فى جهاز المناعة... تؤثر الخبرات التى تشتمل على الأحداث الضاغطة على الجهاز العصبى المركزى، وهى تؤثر – بالتالى– فى جهاز المناعة عند الإنسان... تتأثر الهرمونات بالتغيرات التى تحدث فى الجهاز العصبى المركزى، مما يؤثر على جهاز المناعة... تؤثر التغيرات الكيميائية الحيوية التى تتوسط الأحداث والتغيرات فى الجهاز العصبى المركزى على جهاز المناعة... يزيد العلاج النفسى والاسترخاء والتنويم المغناطيسى من قدرة جهاز المناعة.. ،(المرجع السابق لجاسم الخواجة،٢٢٠). ولعل هذا الذى ذكرناه وما شابهه؛ ما جعل بعض المسئولين عن التعليم فى إنجلترا يصدرون قراراً بإدخال حصة أسبوعية من حصص الدراسة يقضيها الطلاب فى الاسترخاء والتأمل، وينفذ البرنامج ويشرف عليه

ويوجهه متخصصون نفسيون؛ حسب ما أذاعت الإذاعة البريطانية (الـ BBC) من لندن بنشراتها في شهر يناير ٢٠١٠؛ وذلك كمحاولة لزيادة لياقتهم النفسية؛ وبهذا تسبق بريطانيا كل دول العالم ببدء هذا التقليد إن نفذته.

ولعل مما ينبغي أن نشير إليه هنا هو أن بحثًا ميدانيًا حديثًا عن علاقة الأعراض المرضية الجسمية بالتحصيل الدراسي لدى طلبة وطالبات الهيئة العامة للتعليم التطبيقي بالكويت اتضح منه أن «معاملات الارتباط بين الأعراض الجسمية والتحصيل الدراسي كانت سلبية على مستوى العينة الكلية، وكذلك على مستوى الذكور والإناث على الرغم من عدم بلوغها مستوى الدلالة الإحصائية» (العنزي والماجد وأحمد: ٢٠٠٧، ٩٧٧).

عن المعنى النفسي وراء المرض والاضطراب في الشخصية

هذا؛ وتفيض كتب التحليل النفسي ومراجعه ببيان معنى أعراض الأمراض والاضطرابات النفسية ووظيفتها؛ الأمر الذي لا يتسع المقام في كتابنا هذا لشرحه؛ إذ يخرج عن مجاله وبيانه، علاوة على حاجته إلى شرح واف لا يكفيه كتاب واحد متخصص فيه، بل يحتاج إلى دراسات نظرية مستفيضة متخصصة فيه، وتدريبات شاملة عليه؛ مجالها معاهد التحليل النفسي؛ التي لا يوجد منها واحد في مصر أو أي بلد عربي حتى الآن. ويجب ألا تفوتنا -في هذا السياق- الإشارة إلى أن التحليل النفسي للحالات المرضية قد أثبت أن أعراض الأمراض النفسية وانحرافات الشخصية لها معنى يمكن معرفته من تحليل المرضى والمنحرفين (تمامًا كما أن للأحلام معنى)؛ كما أن لها وظيفة تؤديها للشخصية، ومن هنا كان تمسك الشخصية بها وتشبثها ببقاء المرض أو الانحراف؛ نظراً للكسب الذي يعود على الشخصية منها. كما أثبت التحليل النفسي -أيضًا- أن لهذه الأعراض المرضية منطقًا تخضع له يكشفه التحليل، فكأن الأعراض المرضية عندئذ مقصودة وهادفة، لكن كل ما هنالك أنه قصد لا شعوري وهدف مُمَوَّه مَمْسوخ حتى يتفادى قوى الكبت والمقاومة ويفلت منها؛ كما يفهم في أحيان كثيرة من سياق كتابنا هذا. ومن هنا، تبدو أعراض

الأمراض النفسية غير مفهومة، صعبة التفسير، ويلزم لحل ألغازها وعلاجها أن يخضع المريض لعملية تحليل نفسي، ذلك لأنه لا يعي عنها شيئاً باعتبارها لا شعورية برمتها. كما ينبغي أن نشير-أيضاً- إلى أن قابلية كل مرض للعلاج والشفاء تختلف عن غيره، بل إن قابلية كل مريض بنفس المرض سوف تختلف -من حيث الشفاء- عن غيره، تماماً كما هو الحادث بالنسبة للأمراض الجسمية.

الصحة النفسية للفرد وتأثرها بظروف المجتمع الاقتصادية وأحواله الاجتماعية، وتأثيرها في المجتمع

لاشك أن المجتمعات شأنها شأن الأفراد تصاب -أيضًا- بالأمراض والاضطرابات النفسية، فهذا مجتمع يتفشى فيه الفساد، وآخر يتفشى فيه نوع معين من الجرائم، وغيرها تنتشر فيه الرشوة، وثالث يسوده الفقر وتقع غالبية أفراده دون خط الفقر، وآخر يسوده الكسل والتهرب من مسئوليات العمل والإنتاج، وغيرها تنزع إلى نوع معين من الجرائم والسلوك المنحرف كالثأر أو الإدمان أو...إلخ وكثير منها يجمع بين أكثر من نوع من الاضطرابات والأمراض الاجتماعية مما ذكرناه أو لم نذكره. وبعضها تشتد فيه مظاهر انتشار الاضطراب أو المرض حتى درجة الوباء، بينما يقلان فى آخر، وهكذا...

وإذا كان المجتمع -شأن عناصر البيئة الأخرى- يؤثر فى تكوين الفرد وخصائصه؛ فإن فساد المجتمع واضطرابه ينعكس فساداً واضطراباً على كثيرمن أفراده، خاصة أولئك الذين ولدوا باستعدادات نفسية معينة أو اكتسبوها خلال نشأتهم، وتجاربهم، وما مروا به من خبرات وظروف. وهكذا، فإن الأمراض والاضطرابات الاجتماعية تزيد أو تهيئ للكثيرين فرص الأمراض النفسية والاضطرابات السيكوسوماتية المختلفة؛ وتنعكس سلبياً على نفوسهم قلقاً وتوتراً واكتئاباً وعجزاً عن الإنتاج الجاد، وفقداناً للثقة فى الآخرين، وتذمراً وضيقًا بالحياة، وارتفاعاً فى معدلات الطلاق، والفشل، والانتحار وضعفا فى الولاء الوطنى...؛ الأمر الذى ينعكس تأثيراً وتأثراً -سلبيًا- ديناميًا متبادلا بين الفرد ومجتمعه، من مختلف الوجوه.

وبنفس الكيفية يكون التأثير السلبى لأعضاء المجتمع المرضى والمضطربين تدميراً واضحاً وإضعافاً وتأخيراً له، وحرماناً من النمو المنشود. فالشخص المصاب بجنون العظمة -على سبيل المثال- أو الاضطهاد، أو الفصام، أو النصب، أو تليف الضمير سيضعف إنتاجه، ويعجز عن الجد فى الدراسة إن كان طالباً، وبالتالى سيضعف إسهامه فى تنمية مجتمعه؛ وإن كان يعمل مع زملاء فى أى عمل فإنه سيربك عملهم ويضر بإنتاجهم لكثرة ما يؤدى إليه هذاؤه وهلاوسه وأوهامه واعوجاج سلوكه وشذوذه وانحرافه من اضطراب فى علاقاتهم، ومعوقات وإفساد لعملهم وإنتاجهم ولمؤسسة العمل نفسها؛ مما لا يخفى على أهل المريض وزملائه، ومما يخبره الأخصائيون النفسيون والاجتماعيون والمديرون والمسئولون عن العمل والمؤسسة. وكأن أمراض المجتمع كما تنعكس سلبيًا على شخصيات أفراده، فإن شيوع الشخصيات المريضة والمضطربة والمنحرفة نفسيًا فيه تنعكس بالمثل سلبيًا على المجتمع: تدميراً فيه، وانهيارا له؛ فى شكل متبادل. فعلى سبيل المثال فقط، نشير إلى ما ذكره فاروق جويدة فى مقاله بجريدة الأهرام بتاريخ ٩ أبريل ٢٠١٠ حيث قال: «نأتى بعد ذلك إلى أم الكوارث وهى ٢٢ مليار جنيه سنوياً يستهلكها المصريون فى المخدرات وهى تعادل ٨٠٪ من دخل قناة السويس كما جاء فى تقرير الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء» (فاروق جويدة فى مقاله: هواء فاسد بين الشعب والحكومة). ومن الجدير بالذكر أن الإذاعة البريطانية (الـ BBC) رفعت فى نشرتها الإخبارية (يوم ١٩/٤/٢٠١٠) هذا التقدير إلى ٢٧ مليارا سنويا. ولنا أن نتصور هذا المبلغ الذى يضيع على المجتمع من نوع واحد فقط من الإنحرافات النفسية (الإدمان) وقد وجه إلى تنمية المجتمع المصرى ودعم قدراته.

حول انتشار الأمراض والاضطرابات النفسية

يشير مرجع الكسندر وسيلزنك عن تاريخ الطب النفسى (Alexander & Selesnick: 1966, 24) إلى أن الجمهور والحكومة والمهتمين بالصحة أصبحوا يعون أن الأمراض النفسية تمثل خطراً على البشرية لا يقل عن أشد الأمراض الجسمية خطورة، وأنه يقدر وجود واحد من كل عشرة أشخاص فى الولايات المتحدة الأمريكية يعانى نوعاً من المرض النفسى، وأن ثلاثة عشر بالمائة من الشباب الذين يفحصهم الجيش الأمريكى يتبين أنهم

غير مناسبين للخدمة العسكرية بسبب اضطرابات نفسية، وأن بليوناً ونصفاً من الدولارات يضيع سنوياً فى أمريكا بسبب تغيب الناس عن أعمالهم نتيجة اضطراباتهم النفسية، وأننا بدأنا ندرك أخيراً هذه الضريبة الفادحة التى تأخذها الأمراض النفسية من طاقات البشر وإنتاجيتهم. ويؤيد جيلمر (Gilmer: 1971, 244) نفس الرأى فى مدى انتشار الأمراض النفسية وخطورتها على المجتمع والإنتاج، عند إشارته إلى قضاء واحد من كل ثلاثة عشر فرداً جزءاً من حياته فى مستشفى عقلى، وإلى أن واحدة من كل ثلاث عائلات فيها – على الأقل– واحد من أفرادها يعانى مشكلة انفعالية خطيرة، وأن نصف أسرة المستشفيات فى الولايات المتحدة الأمريكية يشغلها مرضى عصبيون ونفسيون. كما يضيف جيلمر أن هناك من البيانات ما يشير إلى أن مشكلة الأمراض والاضطرابات النفسية فى أوربا لها نفس الخطورة والحدة. وعلى الرغم من عدم توافر بيانات مماثلة عن الواقع المصرى والعربى إلا أننا نتوقع من –استقرائنا لظروفنا– تزايد انتشار هذه الأمراض والاضطرابات النفسية وخطورتها، وإن كانت تقل عنها فى المجتمعات التى سبقتنا فى التقدم والمدنية.

هذا عن مدى انتشار الأمراض والاضطرابات النفسية عموماً، أما عن اختلاف نسب ذيوع وانتشار كل منها بالنسبة لمجموعها، فنورد البيان التقريبى الوارد فى الجدول رقم (١)، للدخول أول مرة فى المستشفيات العقلية بأمريكا عام ١٩٤٥ على نحو ما يورده شافر (شافر: ١٩٥٥، ٤١٠)؛ وذلك لرسم صورة تقريبية عن القدر النسبى لكلٍ من هذه الحالات فى مقارنته بمجموع حالات الاضطراب عموماً.

جدول رقم (١)

القدر النسبى لمختلف الحالات المرضية

التى دخلت المستشفيات العقلية لأول مرة بأمريكا عام ١٩٤٥

نــوع المرض	نسبة حالاته
الفريق العضوى (العدد الكلى)	٤٠٪
الشيخوخة وتصلب الشرايين	٢١٪
الشلل الجنونى العام	٥٪
التسمم الكحولى	٤٪
الحالات العضوية الأخرى	١٠٪
الفريق الوظيفى (العدد الكلى)	٤٦٪
الفصام	٢٢٪
الهوس والهبوط (الاكتئاب)	٩٪
جنون الهذاء	٢٪
الحالات الوظيفية الأخرى (حالات العصاب الشديدة خاصة)	١٣٪
دون ذهان (مدمنو الخمر والمخدرات)	١٤٪
المجموع	١٠٠٪

وتتأيد اتجاهات قريبة من هذا فى دراسات أحدث لأحمد عكاشة وآخرين، (على عينات من المجتمع العربى) يعرضها لويس كامل مليكة، وإن كانت أكثر تفصيلاً وتجزيئًا، كما يتبين من الجدول رقم (٢)، والذى يوضح النسب المئوية للفئات المرضية فى عينتين خضعتا للدراسة؛ إحداهما مصرية والأخرى ليبية، حيث كانت العينة المصرية ألف مريض، بينما بلغت العينة الليبية ٤٥٧٢ مريضًا، مع ملاحظة أن بيانات هذا الجدول مجمعة من أعوام من الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى (لويس كامل مليكة: ١٩٧٩، ٣٧٥-٣٧٦).

جدول رقم (٢)

التوزيع النسبى للفئات التشخيصية لعينتين من المرضى إحداهما مصرية والأخرى ليبية

الفئة التشخيصية	النسبة المئوية فى العينة	
	المصرية	الليبية
القلق	٢٢,٦٠	١٨,٦٠
الهستيريا	١١,٢٠	٥,٤٠
عصاب الوسواس القهرى	٢,٦٠	١,٢٠
الاكتئاب التفاعلى	١٠,٧٠	٣,٨٠
ذهان الهوس - الاكتئاب	٨,٦٠	٤,٠٣
السواد الارتدادى	٥,٢٠	٣,٣٤
الفصام	١٥,٣٠	١٧,٦٠
اضطراب الفصام الوجدانى	٢,٦٠	١,٤٣
توهم المرض	٤,٥٠	٣,٢٤
اضطراب الشخصية والإدمان	٣,٠٠	٢,٢٣
أزمة المراهق	٠٠,٥٠	٠٠,٤٩
فقد الشهية العصبى	٠٠,١٠	٠٠,٠٥
اضطرابات السلوك	٢,٤٠	١,٥٤
التلعثم	٠,٥٠	٠٠,٩٩
البول الليلى	١,٩٠	٥,٣٧
القصور العقلى	٢,٥٠	١٠,٠٨
الصرع	٤,٠٠	١٢,٣٤
العته	١,٢٠	٠,٨٦
الاستجابة العضوية	٠,٦٠	٠,٦٠
الصداع النفسى الأصل		٢,٣٠
العنة النفسية الأصل		٢,٤٠
عصاب القلب		٢,١١

ومما يستثير التساؤل فى جدول (٢) غياب فئات تشخيصية (مرضية) هامة كجنون الهذاء -على سبيل المثال-. وعلى الرغم من هذا، فإن المقارنة بين نسب تواجد الفئات المرضية الواردة تبين عن ثبات نسبى عالٍ فى ترتيب وزنها بين العينتين، حيث نجد أن أكثر الأمراض انتشاراً هى نفسها تقريباً فى العينتين. وبالمثل -أيضاً- نجد أقل الأمراض انتشاراً وأوسطها انتشاراً، علاوة على الاتفاق التقريبى مع نسب الانتشار فى المجتمع الأمريكى؛ كما يمثلها الجدول رقم(١).

كلمة عن الشخصية والعلاج النفسي

فى ختام حديثنا عن الشخصية وصحتها النفسية يحسن أن نشير -إشارة موجزة- إلى العلاج النفسى. ففى حديثنا عن الشخصية أوضحنا أنها وحدة جسمية نفسية متكاملة. هذه الوحدة قد تكون قوية البناء والقواعد من الناحية النفسية لا تكاد تزعزع بنيانها ظروف الحياة التى تمر بها، حتى لو كانت تقترب فى خطورتها مما نصفه بالصدمات، كما أنها قد تكون هشة ضعيفة تقع فريسة المرض النفسى والاضطراب أو الانحراف تحت أى حدث أو ظرف ضعيف الوطأة إلا عليها بالذات؛ لأنها هشة وضعيفة أصلاً، تماماً كما يؤدى الزلزال البسيط إلى انهيار المبانى الهشة والضعيفة الأساس، بينما لا يكاد يترك أثراً فى تلك القوية البنيان، المتينة الأساس.

لقد كان الإنسان القديم -ولازال بعض الناس حتى الآن- يعزون الظواهر الغريبة التى يحارون فى تفسيرها إلى السحر والخرافات؛ كالجن الذين يدعون تلبسه للإنسان والإضرار به. ولما كانت الإصابة بالمرض النفسى والخلل العقلى من تلك الظواهر الغريبة، عزا أسبابها الكثيرون إلى السحر والخرافات، ولجأ كثير منهم لعلاجها إلى السحرة والدجالين والمشعوذين وكهنة العصور الأولى والوسيطة لالتماس العلاج عندهم. وفى هذا يقول دويدار فى مقاله عن علاقة السحر بالاضطرابات النفسية: «عزا الإنسان إصابته بالمرض منذ بدء الخليقة إلى مفعول السحر، وأنه أصل كل العلل، وأن بيد الساحر أن يبرئه من علته، ويعيد

إليه نشاطه وحيوته. وهكذا تربع السحرة على عرش الطب والعلاج ردحًا طويلاً من الزمن، دانت لهم فيه الملوك الجبابرة، يأتمرون بأمرهم ويمتثلون لإرشاداتهم... إلا أنه بتوالى الزمن بدأ التحمس إلى استعماله (السحر) يفتر، وظهر أن كثيراً من الحالات المرضية لم تخلصها طرقه مما أصابها فبدأ الناس يتحولون عنه. فطن لذلك السحرة، ومن كان يقوم به من الكهنة، فانتحوا به ناحية أخرى، إذ زعموا أن كثيراً من الأمراض سببها تسلط نفر من الجن، أو ما سموه العفاريت، على جسم الإنسان، أى على حد قولهم التلبس به... كان من الطبيعي بعد أن تحولوا إلى هذه الناحية أن يزعموا أنهم بطرق خاصة يعرفونها، يستطيعون أن يصلوا إلى هذا الجن أو العفريت ويستحضروه، فيطلبوا منه الصفح أو يزيلوا غضبه، أو يهددوه إذا لم يطع ما يأمرونه به، وإمعاناً فى الإيهام أودعوا طرقهم هذه الكثير من التجهيزات الغريبة، والأوضاع غير المألوفة، كما أرفقوها بكثير من الترتيلات والترنيمات المختلفة، سواء أكانت بالإنشاد، أم بعزف الطبول والدفوف، وما شابه ذلك. ومن هنا نرى كيف نشأت فكرة «الزار» الذى لايزال -مع الأسف الشديد- يرى أحياناً بين ظهرانينا. (عبد الفتاح دويدار: ٢٠٠٦، ٥٣-٥٤). ولاشك أن كل هذه الأمور والظواهر العلاجية القديمة لازالت موجودة حتى الآن، ولازال البعض يعتقد فى أهميتها وفائدتها. وقد يكون مرجع ذلك إلى عامل الإيحاء Suggestion الذى يوهم الكثيرين بالشفاء فيشفوا، أو إلى عامل الشفاء التلقائى ومقاومة الجسم بطبيعته لما يصيبه من خلل أو مرض، دون حاجة إلى علاج يلتمسه المريض؛ كما يحدث عند إصابة الكثيرين بالرشح والزكام والجروح البسيطة، وكما يحدث في بعض حالات الاضطرابات والأمراض النفسية التى تشفى تلقائياً.

لكن العلم الحديث لا يؤمن بهذا السحر والشعوذة، ويعتبره نوعًا من الدجل؛ وفى حالة شفاء المريض الذى يلجأ إليه، يقول إنه مجرد مصادفة كنتيجة للإيحاء أو الشفاء التلقائى كما ذكرنا. ويضع العلم الحديث تنظيمات للعلاج النفسى يوصى بها؛ ويحبذها ويعترف بها؛ على نحو إجابتنا فيما يلى للسؤال الذى نطرحه هنا.

ماذا يحدث إذا اختل الاتزان داخل هذه الوحدة الجسمية النفسية المعينة لـ س من الناس، والتى نطلق عليها الشخصية، فاضطرب تكاملها لديه؟ عند ذلك يحدث ما نسميه بالاضطراب أو المرض أو الانحراف أو الخلل النفسى. وعند ذلك -أيضاً- لا مناص لنا من أن نلتمس العلاج النفسى لهذا الفرد عند خبراء العلاج النفسى، سواء أكانوا محللين نفسيين Psychoanalysts (وهم من أهلوا فى معاهد التحليل النفسى المعترف بها، على أسلوب العلاج النفسى وطرقه وفق مدرسة التحليل النفسى وفنياته، سواء أكانوا فى الأصل من خريجى كليات الطب، أم من خريجى أقسام علم النفس أو الفلسفة أو الاجتماع بالجامعات)، أم كانوا أطباء نفسيين Psychiatrists (وهم من حصل من الأطباء على دبلومات ومؤهلات عليا فى العلاج النفسى والعقلى)، أم كانوا معالجين نفسيين Psycho-therapists (وهم الحاصلون على مؤهلات عليا فى علم النفس، وتدربوا على أساليب العلاج النفسى، وحصلوا على التراخيص الرسمية التى تسمح لهم بمزاولة العلاج النفسى).

وتتحدث ويد و تافرس فى مرجعهما عن دعوة إلى علم النفس Invitation to Psychol-ogy, 2008 عن العلاج النفسى Psychotherapy بتقسيم قريب جدا فى معناه ومضمونه لما ذكرنا مع إضافة فئة أخرى من المعالجين النفسيين هى فئة أخصائيى الخدمة الاجتماعية الإكلينيكية المرخص لهم بالعلاج؛ وهم عادة يعالجون المشكلات العادية (غير المرضية) عند الأفراد والعائلات؛ كما يعالجون أيضًا المشكلات الخطيرة مثل الإدمان واستخدام المواد المخدرة، وعادة ما تختلف متطلبات الرخصة التى تسمح لهم بالعلاج، لكنها تحتاج على الأقل إلى درجة علمية فى علم النفس أو الخدمة الاجتماعية تعادل الماچستير. وتوسع ويد و تافرس من مفهوم المعالج النفسى حتى يضم من يقوم بالعلاج النفسى ممن لا يحمل أى درجة علمية إلى من يكون لديه درجة علمية رفيعة؛ فليس هناك تنظيم قانونى ولا تحديد ملزم لهذا المفهوم (Wade & Tavris: 2008, 13).

وتقصدان -بطبيعة الحال- معظم بلاد العالم، ومنها أمريكا. إلا أن بعض بلاد العالم مثل مصر تنظم رخص العلاج النفسى وتقننها، وتشترط التخصص العلمى مع التدريب على العلاج النفسى فى معاهد أو أماكن تعترف بها؛ بل والمثول أحياناً أمام لجان علمية تمتحنهم

لإعطاء الرخصة، وقد يكون طالبو الرخص من الحاصلين على درجات الدكتوراة، على نحو ما يحدث فى مصر.

وهؤلاء المتخصصون فى العلاج النفسى (سواء أكانوا محللين نفسيين، أم كانوا أطباء نفسيين، أم كانوا معالجين نفسيين) يمارسون واجباتهم داخل عياداتهم الخاصة، أو فى مستشفيات أو مصحات خاصة أو حكومية، أو فى المؤسسات المهنية أو الإنتاجية أو التربوية أو الاجتماعية... المختلفة.

وينبغى أن نشير هنا إلى أن لكل فئة من هذه الفئات المتخصصة فى العلاج النفسى أنواعًا معينة من الأمراض والاضطرابات والانحرافات النفسية تحقق فى علاجها نجاحًا أكبر. فالمحللون النفسيون -على سبيل المثال- ينجحون أكثر فى علاج الأمراض والاضطرابات والانحرافات العصابية والسيكوسوماتية والخلقية، بينما ينجح الأطباء النفسيون أكثر فى علاج الأمراض والاضطرابات الذهانية. بل يمكننا أن نذهب إلى أكثر من هذا فنذكر أن لكل معالج معين أنواعاً خاصة من الأمراض أو الاضطرابات أو الانحرافات النفسية ينجح فيها أكثر من زميله فى نفس نوع العلاج النفسى، حسب طبيعة شخصية المعالج أساساً، وإعداده وخبراته، تماماً كما هوعليه الحال بالنسبة لأطباء الأمراض الجسمية.

هذا، وقد تتنوع أساليب العلاج من متخصص إلى آخر؛ بل ومن مريض إلى آخر -يقوم بعلاجه نفس المعالج- لكن تظل أبداً أهداف العلاج النفسى واحدة؛ وهى إعادة المريض إلى حالة الاتزان النفسى المنشود، وعلاج الخلل الذى أصاب شخصيته فاهتز له تكاملها، وتحقيق معايير الشخصية السوية (فرج عبد القادر طه: ١٩٩٥) وخصائصها التى تؤدى بدورها إلى أن يحقق الفرد ذاته، وأن يتوافق مع نفسه ومع مجتمعه ومع مختلف عناصر بيئته توافقاً ناجحاً بناءً. وعند ذاك يستشعر متعة الصحة النفسية، كما تنعكس على الآخرين من حوله سعادةً به، واطمئنانًا معه، كما - أيضاً - تنعكس على مجتمعه: بناءً فيه، وإفادة له.

الباب الرابع

خلاصة فى ختام

الفصل الأخير: الفروق الفردية بين الوراثة والبيئة

مقدمة الباب الرابع

بعد أن قدمنا فى الباب الأول -من كتابنا هذا- تمهيداً لدراسة علم النفس بوصفه علماً وبحثاً فى النفس وما يصدر عنها من سلوك، فشرحنا مفهوم علم النفس وفروعه ومدارسه ولمحة عن تاريخه ومنهج بحثه العلمى، انتقلنا فى الباب الثانى إلى الحديث عن أهم عوامل السلوك الإنسانى ومحدداته من جهاز عصبى ودوافع وحيل نفسية، وقدرات عقلية وحسية وحركية، وعمليات ذهنية وفكرية؛ كل ذلك على اعتبار أن السلوك -بمعناه الواسع الشامل- هو الظاهرة النفسية التى يتخصص علم النفس فى دراستها وبحثها. ثم أتبعنا ذلك بالباب الثالث؛ والذى خصصناه لموضوع الشخصية الإنسانية، وماهيتها، وأمراضها النفسية واضطراباتها وانحرافاتها، مما يقع فى نطاق توافقها وصحتها النفسية، باعتبار أن السلوك صادر عنها ومتأثر بخصائصها وما يعتمل بداخلها.

ونرى من المنطقى ألا نفرغ من كتابنا هذا قبل أن ننهيه بهذا الباب الختامى، الذى نكتب فيه فصلاً نجيب به عن تساؤل يعن لنا فى كثير من الأحيان -ونحن نقرأ أو ندرس أو نبحث فى مجال علم النفس- عن العوامل التى تجعل إنساناً ما يتصف بقدرة أو خاصية معينة أكثر من غيره أو أقل، أو يبدو فيه مرض نفسى معين بينما يختفى فى زميله.. يقودنا هذا التساؤل -إذن- إلى البحث عن علة الفروق الفردية بين الناس، مع تركيزنا -بحكم التخصص- على الجانب النفسى منها.

ويحسن بنا قبل المضى فى حديثنا أن نقدم له برأى لاهى -والذى نتفق معه فيه تماماً- حيث يقول عن التنوع البشرى فى مرجعه المعنون: (علم النفس: مدخل؛ Lahey, Psy-chology: an introduction, 2001,17): «يمكن القول إن موضوع هذا الكتاب وجوهره يتضمن مفهومين متناقضين. فالناس -جميعهم كما نقول كثيراً ونكرر مراراً فى هذا الكتاب- متماثلون فى بعض النواحى الأساسية الهامة ومع ذلك فهم أيضاً مختلفون فى

غيرها من النواحى التى تساويها فى الأهمية أيضاً: فنحن متماثلون؛ بمعنى أن مبادئ علم النفس تنطبق علينا جميعاً بشكل متساو. فمخك به ذات الأجزاء العاملة (التى تقوم بوظائف محددة متماثلة عند كل الناس)؛ سواء أكنت من أصول صينية ونشأت فى هولندا، أم من أصول سويدية ونشأت فى ميناوبوليس. وبنفس المعنى فإن مبادئ الإدراك، والدوافع والتعلم والشخصية تنطبق أيضًا على كل البشر. لكن الناس أيضًا يختلف الفرد منهم عن الآخر. (ذكراً أم أنثى)، وميراثهم الثقافى، وسنهم، وتوجهاتهم الجنسية، وتجاربهم وخبراتهم المتفردة، كلها تسهم فى إحداث وتكوين هذه الفروق. فما هو سنك، وجنسك (ذكر – أنثى)، وموروثك العرفى؟؛ ما مقدار رقى التعلم فى أفراد عائلتك؟؛ ما هى فلسفتك السياسية؟؛ وما هى توجهاتك الجنسية؟ فإذا كانت كل هذه الأشياء عندك مختلفة؛ فإنك تصير شخصًا مختلفًا بصورة أو أخرى، فى أى نواحٍ هامة،. ثم ما هى نوع الجينات الوراثية التى انتقلت إليك من الأبوين، وكيفية اختلافها عن الآخرين... الخ .

الفصل الأخير:

الفروق الفردية بين الوراثة والبيئة

الفروق الفردية والفروق الجماعية:

يقصد بالفروق الفردية Individual Differences تلك الفروق الموجودة فى الخصائص الجسمية والعقلية والنفسية المختلفة التى تميز فرداً عن غيره. فهذا الفرد -على سبيل المثال- أطول من ذاك، أو أذكى، أو ذاكرته أقوى، أو أكثر اتزاناً نفسياً... أو أقل. ولاشك أنه يلزمنا معرفة الفرق بين هذا وذاك، حتى نتعامل مع كل منهما بالطريقة التى تناسبه. فأسلوبنا فى التعامل مع المريض النفسى ينبغى أن يختلف عن أسلوبنا فى التعامل مع السوى نفسياً، كما أن أسلوبنا فى التعامل مع المصاب بمرض نفسى معين ينبغى أن يختلف عن أسلوبنا فى التعامل مع مصاب بمرض نفسى مغاير. وأسلوبنا فى التعامل مع ضعيف العقل ينبغى أن يختلف عن أسلوبنا فى التعامل مع الشخص الذكى... وهكذا...

والأفراد تختلف فيما بينها من حيث خصائصها، مما يجعل كل فرد شخصية منفردة ومتفردة عن غيرها، ومما يعطى أهمية أكبر لدراسة الفروق الفردية والاستفادة التطبيقية منها، خاصة إذا كانت هذه الدراسات دراسات علمية مستهدفة تنظيم العلاقات الاجتماعية والمهنية والإدارية، وتوزيع الأدوار والواجبات والمسئوليات بين أعضاء المجتمع. ولولا وجود الفروق الفردية كحقيقة واقعة ما كان هناك -أصلاً- حاجة إلى الاختبارات والمقاييس النفسية والعقلية والجسمية.

أما الفروق الجماعية Group Differences فهى الفروق الجسمية والعقلية والنفسية بين جماعة وأخرى، أو بين مجتمع وآخر، أو بين جنس وآخر؛ كالفروق بين المصريين والإنجليز، أو بين سكان الوجه القبلى وسكان الوجه البحرى، أو بين قبيلة معينة وقبيلة

أخرى، أو الفروق بين الذكور والإناث فى الطول أو الذكاء أو القدرة اللغوية... إلخ

وهناك دراسات كثيرة تهتم بتحديد هذه الفروق وبحثها، خاصة فى فروع علم النفس الفارقى وعلم النفس الاجتماعى وعلم النفس عبر الثقافى. حيث تفيد هذه الدراسات فى فهم أعمق وأدق لهذه الجماعات، وبالتالى فى تحديد الأسلوب الأمثل للتعامل معها، وإنشاء علاقات طيبة متبادلة ومفيدة مع أفرادها.

التباين داخل الفرد الواحد Intrapersonal Variance:

نعنى بالتباين داخل الفرد أن قدرات الفرد المعين وإمكانياته المختلفة لا تكون على مستوى واحد؛ فالفرد المتوسط فى قدرة أو استعداد ليس بالضرورة متوسطاً فى القدرات والاستعدادات والإمكانيات الأخرى، فقد يكون ممتازاً فى ذاكرته أو متوسطاً أو ضعيفاً، كما أنه قد يكون ممتازاً فى قدرته اللغوية أو متوسطاً أو ضعيفاً، كما قد يكون -أيضاً- ممتازاً فى قدرة فنية معينة أو متوسطاً أو ضعيفاً، وهكذا... بل إن الممتاز فى قدرة فنية معينة قد يكون متوسطاً فى غيرها وضعيفاً فى ثالثة.. كما أن الفرد الطويل قد يكون متوسطاً فى ذكائه أو ضعيفاً. وبالمثل، نجد الفرد القصير أو خفيف الوزن أو قوى الإبصار أو ضعيفه.. وهكذا، تختلف إمكانيات الفرد الواحد وتتباين خصائصه، وهذا مبدأ تؤيده الملاحظة، كما يؤيده العلم وبحوثه، سواء أكان ذلك فى النطاق النفسى أم النطاق الجسمى.

الوراثة Heredity:

فى شرح مصطفى كامل لمفهوم الوراثة يذكر: «يقصد بالوراثة كل ما يأخذه الفرد من والديه عن طريق الكروموزومات والجينات، سواء من خصائص جسمية أو عقلية. وعلم الوراثة ولد فى بداية القرن العشرين نتيجة الحاجة إلى توفير أنواع جديدة ومحسنة من النبات والحيوان، والذى نما -تدريجياً- ليصبح فى طليعة العلوم التجريبية. والوراثة علم البيولوجيين، الذى ينمو أكاديمياً وتطبيقياً ليحقق أحلام البشرية. ولقد منحنا علم الوراثة نظرة جديدة لتاريخ الحياة والإنسان.

ويدرس علم الوراثة الإنسانية تركيب ووظيفة المادة الوراثية وطريقة عملها وانتقالها، كما يدرس طبيعة وانتقال الصفات والأمراض والعاهات من جيل إلى جيل آخر، لوضع حلول مناسبة لها فى ضوء عنصر الوراثة.

والوراثة تنتقل من خلال الكروموزومات؛ فخلية الفرد تحتوى على ٤٦ من الكروموزومات نصفها مأخوذ من الأب والنصف الآخر من الأم. وتنتظم فى ٢٣ زوجاً كل زوج له نفس الشكل والوظيفة، وبذا يشترك الوالدان مناصفة فى نقل الصفات الوراثية. وتتوقف العوامل الوراثية على هذه الكروموزومات؛ لأنها تنقل العوامل الوراثية عن طريق الجينات (المحملة عليها)؛ وهى التى تحمل الصفات الموروثة من الوالدين إلى الجنين. وقد تكون هذه الصفات سائدة أو متنحية؛ أى قد تظهر فى جيل الطفل أو فى أجيال تالية له» (مصطفى كامل: ١٩٩٣، ٨٤٣).

البيئة Environment:

فى بيان المقصود بالبيئة يذكر حسن سعفان: «تعرف البيئة بأنها العوامل الخارجية التى يستجيب لها الفرد أو المجتمع بأسره، استجابة فعلية أو استجابة احتمالية، وذلك كالعوامل الجغرافية والمناخية من سطح ونباتات وموجودات وحرارة ورطوبة... والعوامل الثقافية التى تسود المجتمع وتؤثر فى حياة الفرد والمجتمع، وتشكلها وتطبعها بطابع معين. ويقسم العلماء البيئة إلى ثلاثة أنواع: بيئة فيزيقية أو جغرافية، وبيئة ثقافية تتعلق بالظروف الثقافية التى تكتنف المجتمع؛ كالمنطقة الثقافية التى يقع فى دائرتها المجتمع والتيارات الثقافية السائدة بها، وبيئة اجتماعية تتمثل فى المجتمع وما يسوده من عادات وتقاليد ونظم. ولكن الفوارق بين هذه الأنواع الثلاثة تتوقف على نظرة الباحث وتعريفه للثقافة والبيئة والمجتمع» (حسن سعفان: ١٩٧٥، ١٠٣). وإلى جانب ذلك، يركز شاكر قنديل فى شرحه لمفهوم البيئة على الجانب النفسى الفردى، فيذكر عنها أنها تمثل «مجموع الظروف الخارجية، والمتغيرات البيئية المحيطة بالفرد فى لحظة ما، والتى تؤثر على سلوكه فى تلك اللحظة تأثيراً يمكن قياسه وتقدير آثاره، ولا تمثل البيئة إلا ما يكون له تأثير على سلوك

الكائن الحى فقط؛ أى أنها لا تساوى مجموع المثيرات التى تحيط بالفرد لمجرد أنها كذلك لأن هناك مثيرات كثيرة تقع فى حدود البيئة ولا يشعر بها، بل وحتى لا ينتبه إليها. ولذلك، قيل إن هناك بيئة سيكولوچية، وبيئة فيزيقية للفرد؛ والأولى هى التى تحتل بؤرة اهتمام الفرد ومن ثم تؤثر عليه، أما الثانية فهى لا تهم الدارسين فى مجال علم النفس كثيراً. ومن المسميات التى ترادف مفهوم البيئة السيكولوچية مفهوم المجال Milieu، فهو مفهوم يشير إلى الفرد فى علاقته بالبيئة المباشرة، أى المتغيرات والعوامل التى تؤثر على سلوك الفرد، دون غيرها من متغيرات بيئية أخرى يقال عنها بأنها متغيرات قائمة ولكنها ليست فاعلة، (شاكر قنديل: ١٩٩٣، ١٤٧).

هذا، وإضافة إلى كل ما ذكرناه حتى الآن عن مفهوم البيئة وشرحاً له ينبغى أن نؤكد على أن البيئة إنما تشمل كل ما يؤثر على سلوك الفرد، أو يطبع شخصيته واستعداداته وإمكانياته وخصائصه (الجسمية والعقلية والنفسية) بطابع معين أو بصفات معينة، على أن يكون ذلك خارج تأثير العوامل الوراثية (أى الجينات المحملة على الكروموزومات) وليس بسببها. فعلى سبيل المثال، إذا نتج صرع أو شلل أو تشويه عند أحد الأطفال بسبب أن أمه أثناء الحمل قد تناولت عقاقير معينة أضرت به جنيناً، قلنا إن إصابته تلك ترجع إلى عامل بيئى وليست بسبب عامل وراثى؛ لأن الظروف البيئية والخبرات والقيم السائدة بالبيئة هى التى هيأت للأم تناول هذا العقار. كما أن هذا العقار يعتبر أيضاً -ومن جانب آخر- جزءاً من بيئة الأم الحامل، وعندما تناولته أصبح بالتالى جزءاً لا يتجزأ من بيئة الجنين التى ينمو ويتحرك داخلها متأثراً بها بشكل أو بآخر: فكان الصرع أو الشلل أو التشوه فى هذا المثل أبرز أشكال هذا التأثر بتلك البيئة وأخطرها.

الوراثة والبيئة والفروق الفردية:

تقول أنستازى Anastasi فى موسوعة علم النفس، التى أشرف عليها رايموند كورزينى Raymond Corsini، إن أصول الفروق الفردية فى الخصائص السلوكية إنما توجد فى العدد اللانهائى من التفاعلات بين الوراثة والبيئة، والتى تحدث على امتداد حياة الفرد. وتتكون

وراثة الفرد من الجينات Genes التى يتلقاها من كل والد عند الحمل. والجينات هى وحدات من مواد كيماوية معقدة تنقل على كروموزومات Chromosomes البويضة والحيوان المنوى اللذين يتحدان مكونين الكائن الحى الجديد (عند الحمل). فإذا كان هناك عيب كيميائى أو عدم اتزان فى أحد هذه الجينات، نتج فرد لديه عيب خطير، به مرض جسمى(*) وتخلف عقلى شديد... بينما تتكون بيئة الفرد من بقية المثيرات Stimuli التى يستجيب لها منذ بداية حمله حتى وفاته، فهى تغطى عدداً هائلاً من المؤثرات، يبدأ من الهواء والغذاء إلى المناخ الفكرى والعاطفى فى البيت والجماعة (التى ينتمى إليها الفرد أو يتفاعل معها ويحتك بها) وحتى معتقدات واتجاهات زملاء الفرد ورفاقه. وتبدأ التأثيرات البيئية على الفرد قبل ولادته. فظروف سوء التغذية والتسممات وغيرها من ظروف البيئة الكيميائية أو الطبيعية التى يعيش فيها جنيناً قبل الولادة تكون لها آثار عميقة ومستمرة على كل من النمو الجسمى والعقلى للفرد. فكثير من أشكال التخلف العقلى -على سبيل المثال- تنتج من جوانب شذوذ لحقت ببيئة الحمل» (Anastasi: 1984, 375).

ويمكننا -باطمئنان كبير- أن نضيف إلى ما قالته أنستازى سابقًا قولنا إن الفروق الجسمية -أيضاً- ينطبق عليها من حيث منشئها وأصولها وجذورها، نفس ما ينطبق على الفروق فى الخصائص العقلية والسلوكية، وبنفس كيفية التفاعل، الذى أشارت إليه أنستازى فيما نقلناه عنها سابقاً. ويندر أن نجد خاصية شخصية، جسمية كانت أو عقلية أو نفسية تتحدد بالوراثة وحدها دون البيئة، أو بالبيئة وحدها دون الوراثة. إلا أننا نجد خاصية معينة يغلب عليها -بصفة عامة- التأثير الوراثى، بينما نجد أخرى يغلب عليها -بصفة عامة- التأثير البيئى، بينما نجد ثالثة يكاد يتعادل فيها تأثير كل من العاملين. ومع صدق هذه القضية فى عمومها، فإننا فى بحثنا بحثاً دقيقًا عن اتصاف شخص معين بخاصية معينة وبدرجة محددة، ينبغى أن ندرس الأثر النسبى لكل من عامل الوراثة وعامل البيئة المتعلقين بهذا الفرد بالذات على خاصيته تلك، فقد تشذ عن كل ما هو شائع من تأثر تلك

(*) كان من الأصح لو استخدمت الكاتبة "أو" بدلاً من "و" لكنا آثرنا تطابق الترجمة.

الخاصية فى عامة الناس أكثر بالبيئة أو بالوراثة. وعلى سبيل المثال، من المعروف أن قوة الإبصار أكثر تأثراً بالوراثة بصفة عامة، لكنها فى «س» من الناس -على وجه خاص- قد تكون متأثرة أكثر بالبيئة؛ كأن يكون أصيب فى صغره بميكروب أتاه من بيئته، أو بحادث أثر على عينيه فأضعف إبصاره...إلخ. وبالمثل، فإنه من المعروف أن طول الفرد يكون -فى العادة- أكثر تأثراً بالعامل الوراثى؛ فالآباء الطوال -عادة- ينجبون أبناءً طوالاً، والآباء القصار ينجبون -عادة- أبناءً قصاراً، إلا أن طول ص من الناس قد يكون متأثراً أكثر بعامل بيئى كسوء التغذية مثلاً إضافة إلى تحمله أعباء عمل مرهق منذ طفولته المبكرة.. وهكذا؛ فهو قصير رغم أن والديه قد يكونان طويلين.

ويحسن بنا الآن أن ننتقل إلى إيراد بعض الشواهد والدراسات التى تثبت أثر الوراثة على خصائص الفرد وسماته الشخصية فتجعله مختلفًا عن زميله، فإذا فرغنا من ذلك انتقلنا إلى الحديث عن العامل المقابل وهو البيئة، فنورد أيضًا -بعض الشواهد والدراسات التى توضح تأثيرها. لكى نثبت بذلك أن خصائص الشخصية وسماتها تتأثر بالوراثة، كما تتأثر فى الآن نفسه بالبيئة، وأن الفرد إنما يكون ما هو عليه من خصائص وسمات شخصية؛ كنتاج نهائى لتفاعل عاملى الوراثة والبيئة معاً.

أولاً : الوراثة والفروق الفردية

(أ) الوراثة والذكاء:

أراد تريون Tryon (١٩٤٠)، كما سبق أن ذكرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب، أن يدرس أثر الوراثة على القدرة على التعلم مستخدماً فى ذلك طريقة التلقيح الانتقائى Se-lective Breeding، فاستخدم مقياسًا لقياس هذه القدرة انتقى على أساسه أفضل الفئران البيضاء -ذكوراً وإناثاً- فى هذه القدرة، وجعلها تعيش معاً وتتزاوج فى بيئة تحكم فيها من حيث تكافئها فى مختلف ظروفها مع تلك التى وضع فيها أقل هذه الفئران قدرة على التعلم، لكى تعيش معًا وتتزاوج. ثم انتقى من أبناء مجموعة الممتازين فى القدرة على التعلم -وفق نفس المقياس- أكثرهم قدرة على التعلم وجعلهم يعيشون معاً ويتزاوجون. كما

انتقى أضعف أبناء المجموعة المنخفضة فى قدرتها على التعلم -بنفس الطريقة- وجعلها تعيش وتتزاوج معًا، مع توحيد كافة ظروف هذه المجموعات البيئية. واستمر هكذا لعدة أجيال (ثمانية عشر جيلاً). وفى كل جيل، كان يقيس قدرة مجموع أبناء المجموعات الممتازة وقدرة مجموع أبناء المجموعات الضعيفة. وكانت نتيجة تجربته أن متوسط قدرة مجموعة أبناء المجموعة الممتازة كان أعلى بشكل واضح عن متوسط قدرة مجموعة أبناء المجموعة الضعيفة. وأن هذا الفارق بين المتوسطين كان يتسع مع كل جيل جديد. مما يؤكد تأثير عامل الوراثة على وجود الفروق الفردية فى القدرة على التعلم عند الفئران البيضاء (Anastasi & Foley: 1954, 137-139).

وواضح أن القدرة على التعلم فى الحيوانات تقابل الذكاء عند الإنسان. ولعله من الواضح أن تريون لم يكن يستطيع أن يقوم بتجربة من هذا النوع على الإنسان؛ لأن بيئة الإنسان شديدة التعقيد مما يستحيل معه ضبطها، كما أن كرامة الإنسان تمنع المجرب من التدخل فى حريته إلى هذا الحد الذى ظهر فى التجربة، علاوة على أن دورة حياة الإنسان طويلة، مما لا يتمكن معها المجرب من تعقب عدد كبير من الأجيال كما فعل تريون؛ على نحو ما أشرنا فى الفصل الأول.

ويحاول علماء النفس دراسة تأثير الوراثة على الذكاء فى الإنسان، فيتحايلون على هذا باستخدام معامل الارتباط بين ذكاء الأفراد من درجات قرابة مختلفة، أو باستخدام متوسط فروق الذكاء بين القرابات المختلفة. وبهذا الصدد، فإن راسل ليفانواى يرى أن اختلاف معامل الارتباط فى الذكاء باختلاف درجة القرابة الدموية يعتبر وسيلة مهمة لإثبات أهمية تأثير الوراثة على ذكاء الفرد. وننقل عنه فى الجدول رقم (٣) معاملات الارتباط التى أوردها بهذا الخصوص (Levanway: 1972, 200-201).

جدول رقم (٣)
يوضح معاملات الارتباط فى
الذكاء بين درجات قرابة مختلفة

بيـــن	معامل الارتباط
التوائم المتطابقة Identical Twins(*)	٠,٩٠
التوائم المتآخية Fraternal Twins(**)	٠,٦٠ إلى ٠,٦٥
الإخوة العاديون	٠,٥٠
أبناء العم أو الخال (أو العمة أو الخالة)	٠,٢٥
الأبناء الذين لا توجد بينهم أية قرابة	٠,٠٠

ويعرض لنا جيلفورد درجات التشابه فى نسب الذكاء؛ جمعها وأعدها إير-كملنج وجارفيك إيرلين Eeyer Kimling & Jarvik - Erlen, عام ١٩٦٣ عن دراسات عدة تناولت درجات التشابه فى نسب الذكاء بين أزواج Pairs من الأفراد مختلفين فى درجات القرابة وتشابه البيئة المنزلية. وننقل هذه البيانات فى الجدول رقم (٤). (Guilford: 1984, 152-153).

(*) التوءم المتطابق هو الذى انقسمت فيه بويضة واحدة مخصبة إلى جنينين؛ وبالتالى فهما متماثلان من حيث الوراثة.

(**) التوءم المتآخى هو الناتج عن بويضتين مخصبتين مستقلتين؛ وبالتالى لا يزيد التشابه الوراثى بينهما عن الإخوة العاديين.

جدول رقم (٤)

يوضح النسب التقديرية لمدى تشابه

نسب الذكاء بين أزواج من الأفراد مختلفين فى درجات تشابه الوراثة والبيئة

نوع الأزواج Kind of Pairs	نسبة تشابه(*) نسب الذكاء
توءم متطابق نشآ معًا	٧٧٪
توءم متطابق نشآ منفصلين	٥٦٪
توءم متآخى نشآ معًا	٢٨٪
إخوة عاديون نشأوا معًا	٢٤٪
إخوة عاديون نشأوا منفصلين	٢١٪
الأب (أو الأم) والطفل معًا	٢٧٪
أب بالتبنى (أو أم) والطفل المتبنى	٤٪
أطفال لا قرابة بينهم نشأوا معًا	٣٪

ويتضح من الجدول رقم (٤) مدى أهمية التشابه الوراثى فى تسبيب التشابه فى نسب الذكاء. فالتوائم المتطابقة والتى نشأ كل فرد منها فى بيئة مختلفة عن الآخر بينهما نسبة تشابه كبيرة جداً ٥٦٪ انتقلت إليهما عن طريق التشابه فى الوراثة الذى يميز التوائم المتطابقة، فهى قد تشابهت فى الذكاء على الرغم من اختلاف البيئة، وليس لذلك من سبب إلا أن يكون تشابه العوامل الوراثية (الجينية) هو الذى أنشأ هذا التشابه الكبير بينهما طالما أنهما نشآ فى بيئتين منفصلتين (مختلفتين). لكننا -من جانب آخر- نقول إن تأثير الوراثة لا ينفى تأثير البيئة بدليل أن نسبة تشابه التوائم المتطابقة -التى نشأت معًا- قد ارتفعت كثيراً عن نسبة التشابه فى التوائم المتطابقة والتى نشأت منفصلة؛ حيث بلغت نسبة التشابه فيمن نشأت معًا ٧٧٪ فى مقابل ٥٦٪ فقط للمنفصلة. ونفس النتائج تتضح من

(*) حسبت نسبة التشابه إحصائيًا على أنها مربع معامل الارتباط.

المقارنة بين نسبة تشابه التوائم المتآخية التى نشأت معًا، ونسبة التشابه بين التوائم المتطابقة التى نشأت معاً أيضاً؛ حيث نجد التشابه الكبير جداً بين التوائم المتطابقة، حتى أن نسبته تصل إلى ٧٧ ٪ بينما يقل هذا التشابه بين التوائم المتآخية ليصل إلى ٢٨ ٪ فقط. ولما كانت نشأة التوائم معاً (سواء أكانت متطابقة أم كانت غير مطابقة تشير إلى تشابه بيئى كبير بينهما، فإن الفارق الكبير بين نسبتى التشابه ٧٧ ٪ و٢٨ ٪ لن يرجع إلا إلى تشابه العامل الوراثى فى التوائم المتطابقة واختلافه نوعًا فى التوائم المتآخية. وهكذا، يتسبب تشابه العامل الوراثى فى رفع نسبة تشابه الذكاء، بينما يقلل الاختلاف الوراثى نسبة التشابه فى الذكاء. ونفس الاتجاه يتأيد من وجود نسبة تشابه عالية نوعًا ٢٧ ٪ بين الآباء والأبناء فى الذكاء عن نسبة التشابه بين الأطفال والآباء بالتبنى، والتى تبلغ فقط ٤ ٪.

هذا، ويورد لنا وودورث وماركيز (Woodworth & Marquis: 1968, 171) ما يؤيد نفس الاتجاهات التى نستنتجها من جدولى معاملات الارتباط ونسب التشابه فى الذكاء السابق ذكرهما فيما يتعلق بالذكاء والوراثة، فيذكران أن البيانات الواردة فى الجدول رقم(٥) تعطى خلاصة ونتائج بحوث عدة قورن فيها بين أزواج Pairs من الأفراد من نفس الجنس فى كل حالة بخصوص نسبة الذكاء:

جدول رقم (٥)

يوضح متوسط الفروق بين نسب الذكاء

بين	متوسط الفروق بالنقط
التوائم المتطابقة	٥
التوائم المتآخية	٩
الإخوة أو الأخوات العاديون	١١
أفراد لا توجد بينهم رابطة	١٥

ومن بيانات الجدول رقم(٥) يتضح لنا أن الفروق بين نسب الذكاء تقل بين الأفراد كلما زادت درجة قرابتهم الدموية ودرجة تشابههم الوراثى، حتى تصل إلى أقلها بين التوائم المتطابقة، حتى أن الفرق بين التوءم المتطابق وزميله لا يكاد يزيد عن الفرق بين تطبيق اختبار ذكاء على فرد ما وإعادة تطبيقه على نفس الفرد. مما يشير إلى أن تماثل الخصائص الوراثية بين التوائم المتطابقة يؤدى إلى التشابه الكبير فى الذكاء عندهما (حيث لم يزد متوسط الاختلاف بين التوائم المتطابقة عن خمس نقاط، بينما ارتفع بين التوائم غير المتطابقة إلى تسع نقاط)، دون أن يعنى ذلك نفى إسهام آخر فى إحداث هذا التشابه هو التماثل الأكبر الذى يسود بيئة التوائم عموماً (حيث ينشأون -عادة- فى نفس الظروف العائلية والاجتماعية والثقافية والطبيعية... كما أن الآباء يساوون -عادة- بينهم فى المعاملة).

ويقول جيلفورد J.P. Guilford (والذى يعتبر من أكبر علماء النفس الذين اهتموا بدراسة الذكاء والقدرات العقلية والبحث فى عواملهما ومكوناتهما) فى كتابة حديثة له عن العوامل المؤثرة فى تحديد مستوى الذكاء: بعد دراسة وافية لكل الحقائق المعروفة، انتهى فرنون Vernon (١٩٧٩) إلى أنه يمكننا أن نعزو ٦٠٪ إلى الوراثة فى تحديد الذكاء، و٣٠٪ إلى البيئة، و١٠٪ إلى عوامل متشابكة منهما معاً، (Guilford: 1984, 153). ولا ننس أن المقصود بهذه النسب هو انطباقها التقريبى فى الأحوال العادية طبعاً.

(ب) الوراثة وسمات الشخصية واضطراباتها وأمراضها :

فإذا ما انتقلنا إلى دراسة تأثير الوراثة على سمات الشخصية واضطراباتها، وجدنا -أيضًا- تأثير الوراثة واضحًا (دون أن يعنى هذا -كما سبق أن ذكرنا- نفيًا لتأثير البيئة). وبهذا الصدد، فإن رايت وزملاءه يوردون لنا نتائج دراستين، قام بإحداهما أيزنك Eysenck، وكانت عن وراثة سمة الانبساط-الانطواء (ونشرها عام ١٩٥٦)، وقام بالأخرى أيزنك بالاشتراك مع بريل Brell، وكانت عن وراثة سمة العصابية (ونشرها عام ١٩٥١). ومن تلك الدراستين يتضح أن معامل الارتباط بين التوائم المتطابقة التى نشأت معًا كان ٠,٨٥ فى سمة العصابية و٠,٥٠ فى سمة الانبساطية-الانطوائية، فى حين كان المعاملان

المقابلان للتوائم المتآخية ٠,٢٢ لسمة العصابية و٠,٣٣ ولسمة الانبساطية-الانطوائية (Right, et al.: 1970, 62).

وتؤيد ريتا أتكنسون وزملاؤها نفس الاتجاه عن تأثير الوراثة على اضطرابات الشخصية، فيذكرون أنه يبدو وجود ميل وراثى للإصابة بالاضطرابات الانفعالية، خاصة اضطرابات الهوس-الاكتئاب. وأن الشواهد المستنتجة من دراسات التوائم المتطابقة تشير إلى أن أحدهما إذا كان مصاباً باضطراب الهوس-الاكتئاب فإن فرصة زميله للإصابة بنفس الاضطراب تصل إلى حوالى ٧٢٪، بينما هذه الفرصة لا تزيد عن ١٤٪ فى حالة التوائم المتآخية. ونفس الاتجاه يظهر فى حالة ما إذا كانت الإصابة باضطراب الاكتئاب (فقط)، حيث تكون الفرصة فى زميل المصاب فى حالة التوائم المتطابقة ٤٠٪، بينما تهبط إلى ١١٪ فقط فى حالة التوائم المتآخية (على نحو ما أشارت دراسة ألن Allen المنشورة عام ١٩٧٦). وتؤيد تلك المقارنات أن الاضطرابات الانفعالية ترتبط بعوامل وراثية جينية، وإن كان ارتباطها أوثق فى حالة اضطرابات الهوس-الاكتئاب عنه فى حالة اضطرابات الاكتئاب وحده (Atkinson, et al.: 1987, 509).

وما يصدق على تأثر الاضطرابات الانفعالية بالوراثة يصدق -بالمثل- على تأثر الاضطرابات أو الأمراض الفصامية. وبهذا الصدد يشير جيمس كالات J. Kalat إلى دراسات هستون Heston فى عام ١٩٦٦ ووكسلر Wechsler فى عام ١٩٨٠ وغيرهما، التى أوضحت أن الطفل المتبنى، إذا أصبح فصامياً عندما يكبر فإن البحث عن أقاربه البيولوجيين يؤيد -بصفة عامة- أن بينهم فصاميين أكثر مما يوجد بين قرابات التبنى. كما يشير -أيضاً- إلى دراسة أخرى لوندر Wender وزملائه فى عام ١٩٧٤ توضح -من جانب آخر- أن الطفل الذى جاء من أب أو أم فصامية وتبناه أب وأم سويان يرجح أكثر أن يصبح فصامياً إذا ما قورن بطفل جاء من أبوين سويين، تبناه زوجان أحدهما فصامى. مما يشير إلى أن العوامل الوراثية أكثر تأثيراً على تكوين الفصام من العوامل البيئية (Kalat: 1984, 428-429). ويؤيد راسل ليفانواى نفس الرأى، حيث يشير إلى دراسة كالمان Kall-man فى عام ١٩٣٨ التى وجد فيها نسبة اتفاق قدرها ٠,٨٦ فى إصابات الفصام بين

التوائم المتطابقة، مما جعله يعلق على ذلك باحتمال أن يكون الاضطراب النفسى الخطير (المتمثل فى الذهان) أكثر تأثراً بالعوامل الوراثية من الخصائص الشخصية المعتدلة (Le-vanway: 1972, 201).

ثانياً: البيئة والفروق الفردية

ركزنا حديثنا السابق لبيان تأثير الوراثة على خصائص الفرد وشخصيته بحيث تؤثر فى جعلها تنشأ بمواصفات معينة تختلف عن غيره ممن كانت له أصول وراثية مغايرة. والآن، نأتى لاستكمال الجانب الآخر مما تتأثر به شخصية الفرد وهو البيئة التى تنشأ فيها، وتعيش فى محيطها، وتتفاعل معها، وتختلف بالنسبة لشخص عن غيره. وبهذا الصدد، نبادر إلى تأكيد أن البيئة الخاصة بكل فرد تؤثر فى تكوين خصائص شخصيته بدرجة تقترب فى وزنها من تأثير الوراثة الذى سبق أن أوضحناه. وإن اختلف الأمر بعض الشىء من خاصية إلى أخرى، أو من فرد إلى آخر.

(أ) الأطفال المتوحشون والبيئة الحيوانية:

إن الخصائص البشرية، والتى نظن أنها وراثية إلى أبعد حد ممكن؛ كانتصاب القامة، والمشى على ساقين، والقدرة على الكلام، لا يمكن أن تبرز وتنضج إلا بنشأة الفرد فى بيئة إنسانية. ففى سبتمبر من عام ١٧٩٩، عثرثلاثة رياضيين على طفل بين الحادية عشرة والثانية عشرة من العمر فى غابة فرنسية. وكان الطفل عارياً تماماً، قذراً، مغطى بالندب والجروح، عاجزاً عن الكلام، يمشى على أربع، وكأنه على شاكلة الحيوان. وقد قبض عليه هؤلاء الثلاثة عندما كان يحاول تسلق شجرة ليهرب من تعقبهم ومطاردتهم له. ووقت العثور عليه كان الطفل متخلفاً إلى أبعد حد فى نموه العقلى، والاجتماعى، والسلوكى، والحسى، والحركى، والانفعالى على نحو ما جاء فى تقرير الطبيب الفرنسى إيتارد Itard؛ الذى تولاه بالدراسة وأشرف على رعايته عقب صيده. لقد اكتسب الطفل نتيجة نشأته فى

بيئة حيوانية (الغابة) خصائص أقرب إلى الحيوان منها إلى الإنسان (Anastasi & Foley: 1954, 185-186) . «وبعد خمس سنوات من الجهود المضنية فى التعليم والتدريب بمختلف الطرق، اعترف إيتارد بعجزه عن تنشئة الصبى ليصبح طبيعياً. وقد علق الكثيرون على ذلك بأن الصبى لابد أنه كان أبله منذ ولادته، وأن أبويه تخليا عنه بسبب ضعف عقله هذا. ولكن هذا الرأى لا يأخذ فى الاعتبار كثيراً من النقط الهامة؛ أولاً، أمكن أن يفيد التدريب بالرغم من عدم الوصول إلى المستوى العادى؛ فمثلاً، بالرغم من أن الصبى لم يستطع أن يحدث أصواتاً مميزة إلا أنه نجح فى تعلم لغة مكتوبة بسيطة، وأصبح قادراً على إعادة كتابة كلمات من الذاكرة وأن يستعملها للتعبير عن رغباته، كما يفهم استعمال الآخرين لها. وثانياً، لو كان الولد ضعيف العقل نتيجة لنقص أساسى فى تكوينه، لكان من العسير عليه أن يحيا فى تلك الظروف البيئية البدائية القاسية. وأخيراً، فمن الممكن أن يعزى عدم النجاح فى التدريب إلى بدئه فى سن متأخرة. فمجهودات التربية والتدريب لم تكن لتثمر بعد تلك الآثار التى خلفتها البيئة القاسية التى ظلت تؤثر أزماناً طويلة» (أنستازى: ١٩٥٦، ٥٣٤-٥٣٥).

ومن الجدير بالذكر أن هذا الصبى سمى بفيكتور Victor ، وعرف فى الكتابات بطفل أفيرون المتوحش The Wild Boy of Aveyron.

وشبيه بحالة فيكتور هذا حالات أخرى لعل من أحدثها وأشهرها حالة «طفلتى الذئاب Wolf Children، اللتين عثر عليهما بميدنابور Midnapore بالهند عام ١٩٢١، حيث كانتا تعيشان فى كهف مع الذئاب بإحدى المناطق المعزولة، وكانت سن إحداهما بين الثانية والرابعة، بينما كانت سن الثانية بين التاسعة والعاشرة. ولقد جرت محاولات لتدريب البنتين وتعويدهما على الحياة البشرية تحت إشراف مختصين فى علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والطب والوراثة. ولقد فشلت جهود كل هؤلاء حتى أن الصغرى -وقد سميت أمالا Amala- قد ماتت خلال عام واحد، أما الكبرى -وقد سميت كامالا Ka-mala- فقد عاشت حوالى ثمان سنوات بعد اكتشافها. ولذا فإن معظم المذكرات التى كتبت عن حالة هاتين الطفلتين كانت خاصة بكامالا. ومن المعلومات والمذكرات التى دونت

عنهما تفضيلهما الشديد للحوم النيئة، وهجومهما على أى حيوان مقتول حديثًا، وتمتعهما بحاسة شم قوية جداً حتى أنهما يشمان رائحة اللحم من مسافات بعيدة. وكان السمع – أيضًا– حاداً. وكانت عيونهما تلمع فى الظلام كعيون القطط والكلاب. وكان من الواضح أن كامالا كانت ترى بالليل أقوى مما ترى فى ضوء النهار. وكانت نادراً ما تنام بعد منتصف الليل. وكانت تمشى على يديها وركبتيها، أما عند الجرى فكانت تجرى على يديها وقدميها على نحو ما تفعل الحيوانات. وكان بإمكانها أن تجرى بسرعة كبيرة بهذه الطريقة التى لم تستطع أن تتغلب عليها. وصاحب ذلك تحشف وصلابة فى الكوع والركبة وراحة اليد، كنتيجة طبيعية لتركيز الاعتماد على هذه المناطق من الجسم فى التحرك والمشى والجرى... ولم يمكن قبل مضى ست سنوات على اكتشافها أن تتكيف للمشى على الطريقة البشرية التى تتميز بانتصاب القامة، وإن كانت كثيراً ما تنكص عند الجرى خاصة فتمارسه على أربع. وكان صوتها فى بداية اكتشافها لايخرج إلا على هيئة صياح أو عواء، كما تفعل الذئاب، لكنه بعد تدريب طويل وشاق أصبحت قادرة على نطق حوالى خمس وأربعين كلمة، وتكوين جمل بسيطة من كلمتين أو ثلاث (Anastasi & Foley: 1954, 186-187). ومن الواضح أن أطفالنا الصغار (فى سن الثلاث سنوات أو الأربع) يتعدى محصولهم اللغوى ومهارتهم فى تكوين الجمل دون تدريب أضعاف هذا الذى قلناه عن كامالا على الرغم من كبر سنها مع بداية تدريبها. وما ذلك –فى الغالب– إلا لأن البيئة الحيوانية التى عاشت فيها قد أثرت تأثيرات سلبية حاسمة كان من الصعب التغلب عليها، فطبعتها بالطابع الذى تغلب عليه صفات الحيوان وخصائصه، أكثر مما تغلب عليه صفات الإنسان وميزاته.

وفى تعليق آن أنستازى على حالة الأطفال الذين نشأوا منعزلين عن المجتمع البشرى اقتطفت من ستراتون Stratton قوله «يرجح أن عدم اتصال الأطفال بالكبار فى بعض المراحل الأولى الهامة فى طفولتهم يسبب عند بعض العاديين منهم أو عندهم جميعاً بعض المظاهر التى تشبه نواحى النقص الموروثة، وإن جميع الشواهد تبدو مضادة للنظرية الرومانتيكية التى تدعى أن المجتمع المتمدن يعتبر عقبة فى سبيل نمو الشخصية. والواقع

هو العكس تماماً، فإن أرقى نواحى الشخصية لا تجد لها مجالاً إلا فى مثل هذا المجتمع المتمدن، وإن الإمكانيات البيولوجية وحدها للشخص، أو هذه الإمكانيات بعد نضجها ونموها عن طريق التعلم فى بيئة شاذة، لا تجعل من الشخص سوى إنسان متوحش. ولا يمكن الوصول إلى مرتبة الإنسان إلا بالتعامل فى مجتمع راق، وصل أفراده فعلاً إلى تلك المرتبة» (أنستازى: ١٩٥٦، ٥٣٦).

(ب) البيئة والذكاء :

فى حديث سيد أحمد عثمان عن أستاذه جاك ماكفيكر هنت Hunt ذكر أنه ألف كتاباً يعتبر بحق من معالم الفكر النفسى المعاصر هو كتاب الذكاء والخبرة (١٩٦١)، وفيه أبرز وأكد ودافع عن مجال اهتمامه. ويتابع سيد عثمان كلامه عن أستاذه فيقول: «بدأ يحدثنى عن مجال اهتمامه ذاك، ومحوره أن الخبرات الأولى، أو الاستثارة الباكرة للكائن الحى، والطفل الإنسانى على وجه الخصوص، لها آثارها المؤكدة، فيما يرى، على السلوك، والتعلم، والجوانب العقلية، بل والحياة النفسية بصفة عامة، فى مراحل النمو التالية، وخاصة فى سن الرشد» (سيد أحمد عثمان: ١٩٨٦، ج–ح).

هذا، ويشير مورجان وزملاؤه –تأييداً لهذا الاتجاه– إلى دراسة برادلى وكالدويل Bradley & Caldwell فى عام ١٩٧٦ التى تثبت تأثير البيئة المنزلية على ذكاء الأبناء وقدراتهم العقلية، حيث أجريا دراسة ميدانية تتبعية على ٧٧ طفلاً سوياً عندما كانوا فى سن الستة أشهر، ثم عندما وصلوا سن الثلاث سنوات، فتبين لهما أن الأطفال الأذكى كانت أمهاتهم أكثر اهتماماً بهم وإمداداً لهم بمواد متنوعة للعب بها، عن الأطفال الأقل ذكاء (Morgan, et al.: 1986, 542).

وما سبق أن ذكرناه عن الأطفال المتوحشين ومدى تأثير البيئة الحيوانية التى نشأوا فيها على شخصياتهم وكيفيات سلوكهم يؤيد مدى تأثر الذكاء والقدرات العقلية عامة بالبيئة. بل إن معظم المعلومات والدراسات والبيانات –التى أوردناها سابقاً– عن الوراثة والذكاء كانت توحى أو تشير إلى أن الوراثة لاتنفرد بالتأثير على مستويات الذكاء، بل تشترك معها فى

ذلك تأثيرات البيئة المختلفة، على نحو ما سبق أن ذكرنا من تعليقات عليها.

(جـ) البيئة وسمات الشخصية واضطراباتها وأمراضها :

إن حديثنا السابق عن تأثر سمات الشخصية واضطراباتها بالعامل الوراثى، وما أوردناه من بيانات ومعلومات ودراسات عن ذلك يوحى ويشير -فى نفس الوقت- إلى مدى تأثير البيئة- بعواملها وظروفها المختلفة- على سمات الشخصية واضطراباتها. فالمقارنات الواردة عن دراسة آلن -على سبيل المثال- عندما توضح أن فرصة زميل التوءم المتطابق المصاب باضطراب الاكتئاب لأن يصاب به أيضًا هى ٤٠ ٪، إنما تشير فى نفس الوقت وتوحى أن انخفاضها عن ١٠٠ ٪ إنما يرجع إلى عوامل خاصة ببيئة كل منهما-طالما هما متطابقان (أى متحدان) فى الخصائص الوراثية.

هذا؛ ويرى كاتل أن تلخيص البحوث المختلفة حول الوراثة والبيئة يؤدى بنا إلى القول بأن الذكاء، وراثى إلى حد كبير، وأن الخصائص المزاجية Temperament متأثرة (نصف نصف) بالوراثة، وأن الصفات الخلقية Character هى -إلى حد كبير- نتاج للبيئة (Cattel: 1947, 327).

ويذكرنا هذا بما سبق أن نبه إليه فرويد فى محاضراته التمهيدية (بين عامى ١٩١٥ و١٩١٧) فيما عرف بسلاسل التَّتام، حيث يشير إلى أن الخواص النفسية تنتج عن تتام (أو تكامل) عوامل وراثية وخبرات وظروف بيئية يمر بها الفرد، بحيث إن الزيادة فى إحداها يعوض الضعف النسبى للأخرى؛ بمعنى أن النقص فى إحداها (الوراثة أو البيئة) تعوضه الزيادة فى الأخرى (فرويد: ٢٠٠٨، المحاضرة الثالثة والعشرون). ويضيف فرويد: «فأما مظاهر الاستعدادات الموروثة فليست على التحقيق مما يثير جدلاً أو اعتراضاً... فلا مراء فى أن الاستعدادات الجبلية الموروثة بقايا وآثار خلفها لنا أجدادنا الأقدمون، وقد كانت هذه الاستعدادات بدورها صفات اكتسبها الإنسان فى عصر ما... لقد غض الناس كثيراً من شأن خبرات الطفولة وخطرها، وانحازوا إلى جنب تجارب الأجداد، أو الأحداث التى يخبرها الفرد فى مرحلة النضج والكبر. وهذا ما لا ينبغى أن يكون، فالخبرات التى يزخر بها عهد الطفولة جديرة، على العكس، باعتبار خاص وذلك لما تتمخض عنه من عواقب

ونتائج خطيرة، فهى تقع فى عهد لا يكون النمو فيه قد تم واكتمل، ولهذا السبب بعينه بات من المرجح أن يكون لها تأثير الصدمات. وقد دلت بحوث رو Roux وغيره فى كيفية حدوث النمو على أن الندبة الطفيفة، كوخزة الإبرة مثلاً؛ إذ تصيب الجنين أثناء انقسام الخلايا، قد تؤدى إلى اضطرابات خطيرة فى النمو، بيد أن هذه الندبة نفسها إن أصابت اليرقة أو الحيوان المكتمل النضج، لا يكون لها أى أثر ضار... وعلى هذا، فتثبيت الليبدو لدى الراشد الكبير -وقد أشرنا إلى أنه يمثل العامل الجبلِّى فى نشأة الأمراض النفسية- يمكن أن نرده الآن إلى عاملين آخرين: الاستعداد الموروث من جهة، والاستعداد المكتسب فى الطفولة المبكرة من جهة أخرى» (فرويد: ٢٠٠٨، ٣٣٤).

هذا، ويتأيد رأى فرويد فى أهمية خبرات الطفولة الأولى وخطورتها على بناء الشخصية وإكسابها خصائص معينة -مرغوبة كانت أم ممجوجة- فيما بدأنا به حديثنا هذا عن البيئة والذكاء، وفيما أضافه سيد عثمان مما قاله له هنت «إنه على يقين من أننا لو أنشأنا فى مصر، كما أنشأت بلاد أخرى، من بينها إسرائيل، برامج تعنى عناية علمية بتوجيه الخبرات الأولى للطفل، فأننا سوف نحقق تفوقًا فى البشر، فى اعتقاده، بعد عقدين من الزمان..» (سيد أحمد عثمان: ١٩٨٦، ج).

كما أن الدراسة الميدانية -التى سبق ذكرها- لبرادلى وكالدويل تؤيد نفس الاتجاه وتدعمه، وغيرها كثير. ومن هنا، فإن وودورث وماركيز ينصحان -مع كثير غيرهما- بضرورة تعويض الضعف الوراثى فى استعدادات الفرد وخصائصه بإعطائه فرصًا أكبر للتدريب، وتهيئة ظروف بيئية أفضل لتنمية هذه الاستعدادات وتقويتها بالاستثارات المناسبة. ويطلقون على هذه العملية اصطلاح الجهد البيئى Environmental Pressure، الذى يعمل -إلى حد ما- على تعويض الضعف الوراثى (Woodworth & Marquis: 1968, 159). ويقابل هذا توجيه انتباه الطالب إلى ضرورة بذل المزيد من الجهد فى المواد التحصيلية الضعيف فيها، حتى يستطيع تعويض هذا الضعف وتحقيق النجاح فيها، على نحو ما هو ناجح فى المواد الأخرى.

ماذا بعد؟؟!!
[خاتمة عن استثمار البيئة]

من واجبنا -بعد أن فرغنا من الفصل السابق- أن نذكر كلمة نختم بها كتابنا ككل، وقد وصلنا إلى نهايته، وهى عن: ماذا بعد؟!! خاصة ونحن مجتمع نام-سواء فى ذلك المجتمع المصرى كجزء، أو المجتمع العربى ككل.

لقد كرس سيد أحمد عثمان كتابه الإثراء النفسى. الذى نشره عام ١٩٨٦ لبيان أهمية تهيئة بيئة ثرية أو وسط ثرى يتيح للطفل أن تتفتح إمكانياته و«يعمل عملاً إثرائياً نفسياً للطفل النامى فى كافة جوانبه، وتكويناته، وأنشطته النفسية، حسية كانت أو إدراكية، معرفية أو عقلية، وجدانية أو انفعالية، ذوقية أو جمالية، اجتماعية أو أخلاقية، قيمية أو دينية، وإنه بقدر ثراء هذا الوسط النمائى، الوسط الحيوى النفسى الذى يتفتح فيه الطفل؛ أى بقدر كفاءته، وكفايته فى وظيفتى التنبيه والاستجابة، بقدر هذا يتحقق نمو الطفل، لا أقول نمواً عادياً، وسوياً، بل نمواً مجازاً لحدود العادية، مرتفعًا على معدلات السواء؛ لأنه نمو فائق، أو نمو متزن» (سيد أحمد عثمان: ١٩٨٦، ٤).

ويناقش سيد عثمان العلاقة بين الثراء المادى والثراء النفسى فيقول: «إذا أوتى الوالدان مع ثراء المادة حكمة التوجيه، وفطنة الرعاية، وحسن إدراك حاجات الطفل، بل حاجاته النفسية، إذا هما فعلا ذلك فإنهما يبعثان فى ذلك الثراء المادى حياة فتصبح الأشياء، من حيث إدراك الطفل لها وقيمتها عنده، لا بكثرتها، ولكن بما فيها من حياة، وبما تبعث فى الطفل من حياة بالتنبيه والاستجابة. وعندما يتواكب الثراء المادى ويتصاحب مع الثراء النفسى، يتحقق للطفل خير كثير فى حاضر طفولته ومستقبل رشده. وكذلك، فى جانب الفقر المادى؛ ليس من اللازم أن يصاحب الفقر النفسى الفقر المادى، فقد يكون مال الأسرة قليلاً، ومتاعها خفيفًا، وأشياؤها محدودة، وزينتها كابية، ولكنها تحرك هذا كله حركة نفسية ذكية، كما يفعل القائد الذى قدر له جند قليل، وعتاد ضئيل، ولكنه عوّض هذا بحصافة التخطيط، وحنكة التوجيه، فحقق بالقليل الكثير، وأنجز بالضئيل الجليل.

كذلك حال الأسرة الفقيرة مادياً التى تنجح فى أن تحيل جدبها خصوبة، وعدمها ثراء، وما بها من جوانب التعطيل تصوغه قوى إيجابية فعالة ومؤثرة، (المرجع السابق: ٥-٦). وينتهى سيد عثمان من هذه المناقشة المنطقية إلى ما نؤيده فيه -إلى أبعد حد- فيقول: «وخلاصة ما يقال فى العلاقة بين الثراء المادى والثراء النفسى: أنهما غير متلازمين؛ وأنهما عندما يتواكبان فى جانب الوفرة يتحقق منهما خير للطفل كبير، وعندما يتواكبان فى جانب الجدب والسلب؛ أى عندما يتصاحب الفقران: المادى والنفسى، فلا ينتج عنهما إلا طفل ضئيل فى طفولته، وراشد هزيل فى أخلاقياته، ضامر فى إنسانيته. وأن الكم المادى الذى يحيط بالطفل فى وسطه النفسى الأول ليس هو الأمر الهام، بل الأهم هو قدر التنبيه النفسى الذى يوفره هذا الوسط. وأن العامل المحدد لما ينمو إليه الطفل ويتحول ليس هو المستوى الاقتصادى الاجتماعى لأسرته، بل مستوى الاستجابة النفسية الذى تتعامل به الأسرة مع أماناتها من أبنائها وأبناء المجتمع» (نفس المرجع، ٦). وما سبق أن ذكرناه فى الفصل التاسع من كتابنا هذا عن اضطرابات الشخصية وانحرافاتها، خاصة ما تعلق بالإدمان وبالنصب وبتليف الضمير خير شاهد على صدق هذه الوجهة من النظر، حيث لم يمنع الثراء المادى ولا المستوى الثقافى المرتفعان من انزلاق الأفراد إلى هاوية تلك الانحرافات الخطيرة؛ حتى ما كان منها ماليا.

إن المجتمع فى أمس الحاجة إلى أن يصل مواطنوه إلى مستوى عالٍ من النضج الجسمى والعقلى والنفسى، وإلى درجة من السواء والصحة فى هذه الجوانب الثلاثة ترتفع إلى الحد الذى يجعلهم عوامل بناء وتقدم لمجتمعهم فى كافة مجالاته وليسوا عوامل تدمير وتأخير له؛ عوامل دفع له إلى أمام، وليست عوامل جذب له إلى تخلف وتقهقر. ولن نستطيع ذلك إلا إذا نجحنا فى إمداد المجتمع براشدين خططنا لتنمية استعداداتهم وقدراتهم المختلفة (فرج عبد القادر طه: ١٩٨٨، ٥٩-٧٩)، ووفرنا لهم منذ طفولتهم الأولى ما يعمل على إثرائهم النفسى والعقلى بكل ما نستطيع من جهد وحصافة.

أما ما سوف تأتى لنا به الأيام من تطور فى علم الهندسة الوراثية Genetic Engineering، وازدياد تدخل العلم ونجاحه فى غرس خصائص وراثية واستبعاد أخرى، لينشأ الوليد البشرى مستمتعاً بخصائص مرغوبة، مستبعدة عنه الخصائص الممجوجة؛ فهذا أمر فى علم الغيب، والله المستعان فى كل الأحوال.

الملحق الأول

الميثاق الأخلاقى
للمشتغلين بعلم النفس فى مصر
(مايو ١٩٩٥)

الجمعية المصرية للدراسات النفسية

و رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية

وقد نشر نصه مع الكلمة التمهيدية له في كل من:

١ – مجلة «دراسات نفسية»، القاهرة، مجلد:٥، عدد٢، أبريل ١٩٩٥.

٢ – «المجلة المصرية للدراسات النفسية»، القاهرة، عدد: ١٢، مايو ١٩٩٥.

٣ – مجلة «الثقافة النفسية»، بيروت، مجلد:٦، عدد:٢٤، أكتوبر ١٩٩٥ (عدا الكلمة التمهيدية؛ حيث مهدت له مجلة الثقافة النفسية بكلمة في تحية وتهنئة من جانبها).

كلمة تمهيدية

"الميثاق الأخلاقي للمشتغلين بعلم النفس في مصر"

د. فرج عبد القادر طه

رئيس لجنة إعداد الميثاق الأخلاقي

إن الالتزام العلمى الجاد، والعرف الحضارى السائد يحتمان على المشتغلين بالمهن على اختلافها أن يكون لكل منها ميثاق أخلاقى معروف، يُلجأ إليه لتوجيه الممارسين لها نحو ما ينبغى عليهم، وما يجب من كيفية ممارسة نشاطهم، وضبط سلوكهم، ومحاسبتهم عند الخروج عن مقتضيات الواجب وأخلاقيات المهنة.

ولذلك، فقد كان أملاً كبيراً راو الجمعية المصرية للدراسات النفسية، ورابطة الأخصائيين النفسيين المصرية، والمشتغلين بعلم النفس فى مصر عامة، أن يوضع ميثاق يحدد أصول مزاولة المهنة النفسية، ويلزم المشتغلين فيها بمبادئ أخلاقية ترفع من شأنها، وتعلى من قدرها فى إفادة المجتمع ورفاهية أفراده، مع حفظ كرامتهم والسعى-ما وسع الجهد- لصالحهم.

وفى هذا الإطار، كونت الجمعية المصرية للدراسات النفسية لجنة من المتخصصين لوضع الميثاق الأخلاقى، تنفيذاً للتوصية الثانية من توصيات مؤتمرها الرابع لعلم النفس فى مصر، والذى عقد فى كلية الاداب بجامعة عين شمس فى يناير من عام ١٩٨٨، إلا أن هذه اللجنة لا يكتب لها الاستمرار. كما دعت رابطة الأخصائيين النفسيين لندوة أسهمت فيها الجمعية المصرية للدراسات النفسية مشاركة مع كلية تربية دمنهور (جامعة الإسكندرية)، حول المعايير الأخلاقية للمارسة النفسية فى مصر. ولقد انعقدت هذه الندوة

لمدة يوم واحد بالقاهرة (الاثنين ١٩٩٤/٣/٢٨). وقد عرضت فيها الأوراق التالية:

١ - المعايير الأخلاقية فى مجال علم النفس الإدارى للأستاذ الدكتور نجيب اسكندر.

٢ - أخلاقيات البحث فى مجال علم النفس التجريبى للأستاذ الدكتور فؤاد أبو حطب.

٣ - المعايير الأخلاقية فى مجال النشر العلمى للأستاذ الدكتور صفوت فرج.

٤ - المعايير الأخلاقية فى مجال القياس النفسى للأستاذ الدكتور محمود عبد الحليم منسى.

٥ - أخلاقيات الممارسة الإكلينيكية للأستاذ الدكتور فرج عبد القادر طه.

وقد تمت مناقشات هامة من جانب السادة الأعضاء الذين حضروا الندوة. وانتهت الندوة إلى صياغة توصيات كان من بينها تكوين لجنة لإعداد الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر، وأختير الأستاذ الدكتور فرج عبد القادر طه رئيساً لها، وكلفت بتكثيف نشاطها لسرعة إنجاز الواجب الذى كلفت به؛ نظراً لمسيس الحاجة إليه فى مصر.

ولهذا، فقد تمت استعانتنا لتحقيق ذلك بأوراق الندوة سابقة الذكر، وما جاء فى الندوة نفسها من مناقشات وما طرح من آراء، وبغير ذلك أيضاً؛ على نحو استفادتنا من الترجمة التى قام بها ونشرها أ.د. صفوت فرج، ود. عبد الحميد صفوت إبراهيم، ود. محمود عبد الرحيم غلاب للمبادئ الأخلاقية للأخصائيين النفسيين ودستور السلوك لجمعية علم النفس الأمريكية، فى عدد أكتبور ١٩٩٢ من مجلة دراسات نفسية. باعتبارها أحدث صورة للدستور الأخلاقى لجمعية علم النفس الأمريكية.

ولقد نوقش مشروع هذا الميثاق -قبل إقراره على هذها لصورة- فى عدة مناسبات، وعلى عدة مستويات، نذكر منها:

١ - إرسال مئات الصور من مشروع الميثاق إلى المشتغلين بعلم النفس فى مصر، سواء عن طريق البريد (الذى قامت به رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية عن طريق نشرتها الداخلية عدد يوليو-أغسطس ١٩٩٤)، أو عن طريق الاتصال المباشر، طالبين إبداء الرأى حول مواد المشروع وما جاء فيه.

٢ - قامت الجمعية المصرية للدراسات النفسية بتكرار ما قامت به الرابطة فى البند السابق؛ حيث وزع الكثير من صور المشروع على أعضاء المؤتمر الحادى عشر لعلم النفس فى

مصـر، والذى عقد فـى شهـر ينايـر ١٩٩٥ بجـامعـة المنيا. كما قامت الجمعية – أيضاً– بطباعته وتوزيعه على أعضائها، لنفس غرض إبداء الرأى عليه (بنشرة أخبار علم النفس فبراير ١٩٩٥، التى تصدرها الجمعية).

٣ – ناقش مجلس إدارة رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية مشروع الميثاق مناقشة تفصيلية فى جلسة خاصة عقدت لذلك، دعانى إليها مشكوراً؛ وذلك فى يوم ١٩٩٥/١/٤، حيث اعتمد الميثاق فيها.

٤ – خصص المؤتمر السنوى الحادى عشر لعلم النفس فى مصر والذى عقد بجامعة المنيا فى يناير ١٩٩٥ (بمدينة المنيا) جلسته الثانية يوم ١٧ يناير لمناقشة مشروع الميثاق.

٥ – فى ١٦ مارس ١٩٩٥، ناقشت الجمعية المصرية للدراسا النفسية، فى جمعيتها العمومية، مشروع الميثاق وأقرته.

وبهذه المناسبة، ينبغى علينا أن ننوه بالجهد المخلص والضخم الذى بذله الزميل الدكتور عبد الحميد صفوت إبراهيم كعضو لجنة إعداد الميثاق. كما نشير إلى ن ظهور هذا الميثاق، بالصورة التى هى عليه، ما كان يمكن أن يتم لولا الحماس والجهد الذى بذله كل من الأستاذ الدكتور فؤاد أبو حطب، بصفته رئيساً للجمعية المصرية للدراسات النفسية، والأستاذ الدكتور صفوت فرج، بصفته رئيساً لرابطة الأخصائيين النفسيين المصرية، وبصفتها –أيضاً– من أعضاد لجنة إعداد الميثاق.

ونحن، إذ نقدم اليوم هذا الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر فإننا نهنئهم –جميعاً– على ظهوره لأول مرة بمصر، بل والعالم العربى، ونهيب بجميع المشتغلين بعلم النفس وأساتذته وطلابه الجامعيين أن يدارسوه ويلتزموا بما جاء فيه، حتى يتحقق القصد منه. والله نسأل أن يجعل علمنا هذا خالصاً لوجهه، ولصالح الوطن، والمشتغلين بعلم النفس، والمتخصصين فيه.

د.فرج عبد القادر طه

ملحوظة وتعليق:

بعد صدور الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر بما يزيد عن اثنتى عشرة سنة، نشرت جريدة الأهرام فى ٧ فبراير ٢٠٠٨ مقالا هامًا لأحمد يوسف القرعي تحت عنوان : ميثاق الشرف.. التزام دستورى لم يتحقق!وقد جاء فى بدايته:

ثمة نص دستورى أوردته المادة (٥٦) من دستور مصر الدائم (١٩٧١) يلزم النقابات والاتحادات بمساءلة أعضائها عن سلوكهم فى ممارسة نشاطهم وفق مواثيق شرف أخلاقية، وبينما بادر عدد من النقابات والاتحادات والجمعيات المهنية والعمالية والتعاونية بصياغة مواثيق شرف التزاما بهذا النص الدستورى مثل الاتحاد العام لنقابات عمال مصر (١٩٧١) والعاملين باتحاد الإذاعة والتليفزيون (١٩٧٤) ونقابة الصحفيين (١٩٧٥) والجمعية المصرية للعاملين فى الأوراق المالية (١٩٩٧) ...إلخ... فإن عددا غير قليل من المهن الأخرى يتردد فى اتخاذ تلك الخطوة رغم مرور ٣٨ عاما على صدور الدستور.

وما أحوجنا حاليا وأكثر من أى وقت مضى إلى استكمال صدور مواثيق الشرف لكل الاتحادات والنقابات والجمعيات التزاما وتأكيدا لأخلاقيات العمل العام والخاص ورقيبا على أعمال وسلوكيات كل إنسان عامل فى خدمة الجماعة أيا كان موقعه الوظيفى، ولمواجهة ظواهر عامة الخوف كل الخوف أن تتفشى فى دوائر أوسع على مستوى المهن والوظائف والأعمال والمسئوليات...إلخ ومنها ظواهر التجاوزات الإدارية والمالية، والانحرافات، والكسب السريع بالاختلاسات، وتفشى الجشع، والغش أو الذمم الخربة، والتزويغ من العمل، وأجازات التمارض، والترويج للشهرة الكاذبة، والتجارة فى الأعضاء البشرية...إلخ.

نص الميثاق الأخلاقي

تمهيد

لكل مهنة -من المهن الهامة فى المجتمع- أخلاقيات ومواثيق وأسس ومبادئ تحكم قواعد العمل والسلوك فيها، وشروطه، وما ينبغى التزامه من جانب المتخصصين فيها، والممارسين لنشاطها. وهذا الميثاق الأخلاقى يعتبر دستوراً تعاهدياً بين المتخصصين، يلتزمون وفقًا له بالسلوك الهادف إلى أداء مهنى عال، يترفع عن الأخطاء، والتجاوزات الضارة بالمهنة، أو بمشتغليها، أو بالإنسان الذى تستهدفه هذه الخدمة النفسية.

ويكتسب هذا الدستور قوته واحترامه من قوة الالتزام الأدبى والإجماع الصادق على أهمية تنظيم هذه المهنة من جانب العاملين فيها.

ونقصد بالعاملين فى الخدمة النفسية، والذين سوف يشار إليهم فى هذا الميثاق بـ «الأخصائى النفسى»، مايلى: الحاصلين على الليسانس، أو البكالوريوس، أو الدبلوم، أو الماچستير، أو الدكتوراة فى علم النفس، ويعملون فى تخصصهم، وعلى جميع .من ينطبق عليهم هذا الاصطلاح التمسك بهذا الميثاق، وتوعية الآخرين به.

وتتضمن عضوية الجمعية المصرية للدراسات النفسية، ورابطة الأخصائيين النفسيين المصرية، واللتان اشتركتا فى وضع هذا الميثاق، التسليم بالولاء لهذا الميثاق والالتزام بالمحاسبة الأخلاقية من جانب الجمعية، أو الرابطة، أو من خلال لجنة مشتركة ومستقلة تشكل بقرار منهما معاً فى حالة مخالفته. كذلك، يسلم بما سبق كل من تنطبق عليه لفظة أخصائى نفسى، الواردة فى هذا الميثاق.

ونظراً لأن عمل الأخصائى النفسى متشعب ومتنوع، فيجب أخذ ما ورد فى الميثاق كوحدة متكاملة يضاف بعضها إلى بعض، كما أن تخصيص مجالات معينة فى هذا

الميثاق، يعنى الالتزام بها من جانب الأخصائى حين يمارس نشاطاً، يندرج تحت هذه المجالات.

وتوصى الجمعية والرابطة بضرورة توعية طالب علم النفس، قبل التخرج من الجامعة، بهذا الميثاق ومبادئه.

كما نوصى أصحاب المهن والهيئات، التى تقدم خدمات معاونة للخدمة النفسية؛ كالأطباء النفسيين، باحترام مبادئ هذا الميثاق وروحه كأساس لاستمرار التعاون بينهم وبين الأخصائيين النفسيين.

١ - مبادئ عامة

١/١ الأخصائى النفسى يكون مظهره العام معتدلاً، بعيداً عن المظهرية والإبهار، محترماً فى مظهره، ملتزماً بحميد السلوك والآداب.

٢/١ يلتزم الأخصائى النفسى بصالح العميل(*) ورفاهيته، ويتحاشى كل ما يتسبب، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فى الإضرار به.

٣/١ يسعى الأخصائى النفسى إلى إفادة المجتمع، ومراعاة الصالح العام، والشرائع السماوية، والدستور، والقانون.

٤/١ على الأخصائى النفسى أن يكون متحرراً من كل أشكال وأنواع التعصب الدينى أو الطائفى، وأشكال التعصب الأخرى؛ سواء للجنس، أو السن، أو العرق، أو اللون...

٥/١ يحترم الأخصائى النفسى فى عمله حقوق الآخرين فى اعتناق القيم والاتجاهات والآراء التى تختلف عما يعتنقه، ولايتورط فى أية تفرقة على أساسها.

٦/١ يقيم الأخصائى النفسى علاقة موضوعية متوازنة مع العميل، أساسها الصدق وعدم

(*) يقصد بالعميل فى هذا الميثاق كل المستهدفين بعمل الأخصائى النفسى؛ مثل المرضى النفسيين، وطالبى الاستشارات النفسية، والطلاب، والمبحوثين والمفحوصين فى الدراسات والبحوث العلمية، والمرؤسين أو الأشخاص الخاضعين للتدريب أو الإشراف أو التقييم من جانب الأخصائى النفسى.

الخداع، ولايسعى للكسب، أو الاستفادة من العميل بصورة مادية أو معنوية إلا فى حدود الأجر المتفق عليه، على أن يكون هذا الأجر معقولاً ومتفقًا مع القانون والأعراف السائدة، متجنبًا شبهة الاستغلال أو الابتزاز.

١/٧ لايقيم الأخصائى النفسى علاقات شخصية -خاصة مع العميل- يشوبها الاستغلال الجنسى، أو المادى، أو النفعى، أو الأنانى.

١/٨ على الأخصائى النفسى مصارحة العميل بحدود وإمكانيات النشاط المهنى معه دون مبالغة أو خداع.

١/٩ لايستخدم الأخصائى النفسى أدوات فنية، أو طرقًا وأساليب مهنية لايجيدها، أو لايطمئن إلى صلاحيتها للاستخدام.

١/١٠ لايستخدم الأخصائى النفسى أدوات أو أجهزة تسجيل إلا بعد استئذان العميل وبموافقته(*).

١/١١ الأخصائى النفسى مؤتمن على ما يقدم له من أسرار خاصة وبيانات شخصية، وهو مسئول عن تأمينها ضد اطلاع الغير، فيما عدا ما يقتضيه الموقف ولصالح العميل (كما هو الحال فى إرشاد الآباء، وعلاج الأطفال، ومناقشة الحالات مع الفريق الكلينيكى أو مع رؤسائه المتخصصين).

١/١٢ عند قيام الأخصائى النفسى بتكليف أحد مساعديه أو مرءوسيه بالتعامل مع العميل نيابة عنه، يتحمل هذا الأخصائى المسئولية كاملة عن عمل هؤلاء المساعدين.

١/١٣ يوثق الأخصائى النفسى عمله المهنى بأقصى قدر من الدقة، وبشكل يكفل لأى أخصائى آخر استكماله فى حالة العجز عن الاستمرار فى المهمة لأى سبب من الأسباب.

١/١٤ لايجوز نشر الحالات التى يدرسها الأخصائى النفسى، أو يبحثها أويعالجها، أو يوجهها مقرونة بما يمكّن الآخرين من كشف أصحابها (كأسمائهم و/أو أوصافهم) منعاً للتسبب فى أى حرج لهم، أو استغلال البيانات المنشورة ضدهم.

١٥/١ عندما يعجز العميل عن الوفاء بالتزاماته، فعلى الأخصائى النفسى اتباع الطرق الإنسانية فى المطالبة بهذه الالتزامات، وتوجيه العميل إلى جهات قد تقدم الخدمة فى الحدود التى تسمح بها ظروف العميل وإمكانياته.

١٦/١ يقوم الأخصائى النفسى بعمليات التقويم، أو التشخيص، أو التدخل العلاجى فى إطار العلاقة المهنية فقط، وتعتمد تقاريره على أدلة تدعم صحتها؛ كالمقاييس والمقابلات، على ألا يقدم هذه التقارير إلا للجهات المعنية فقط، وعدا ذلك لابد أن يكون بأمر قضائى صريح.

١٧/١ يسعى الأخصائى النفسى لأن تكون تصرفاته وأقواله فى اتجاه مايرفع من قيمة المهنة النفسية فى نظر الآخرين، ويكسبها احترام المجتمع وتقديره، وينأى بها عن الابتذال والتجريح.

٢ - القياس النفسي

١/٢ يقتصر إعداد وتأليف الاختبارات النفسية، أو استخدامها، على الأخصائى النفسى فقط. وعلى الأخصائى النفسى أن يسعى لحظر تداولها، أو بيعها لغير الأخصائيين، أو لغير الجهات المعنية باستخدامها بواسطة إخصائيين نفسيين مؤهلين.

٢/٢ يقتصر إعداد وتأليف الاختبارات النفسية على الحاصلين على درجة الماچستير على الأقل، أو من لهم خبرة عشر سنوات -على الأقل- فى ميدان القياس النفسى، واستثناءً من ذلك، يمكن إعداد المقاييس تحت إشراف أحد المتخصصين.

٣/٢ لاينشر الأخصائى النفسى المؤهل مقياسًا بغرض استخدام الآخرين له إلا مصحوباً بكراسة التعليمات، التى تتضمن الدراسات والبحوث التى أجريت عليه، ونتائج هذه الدراسات. كذلك، ينص على المواقف والأشخاص الذين لايصلح معهم تطبيق هذا المقياس، ويلتزم الأخصائى بعدم إسناد أى أوصاف مبالغ فيها

إلى المقياس بهدف زيادة توزيعه.

٤/٢ فى حالة الضرورة القصوى، يمكن نشر مقاييس لم تجر عليها الدراسات النفسية الكافية، مع ذكر هذه المعلومة فى مكان بارز.

٥/٢ يحظر نشر أسماء المفحوصين، أو عرض نتائج استجابتهم على المقياس بصورة قد تشير إليهم كأفراد أو فئات أو جماعات.

٦/٢ يحرص الأخصائى النفسى، فى نشر المقياس، على جودة الطباعة والوضوح التام فى الكتابة. ومن جهة أخرى، يحرص الأخصائى، المستخدم لمقياس منشور على الاعتماد على الصورة الأصلية المنشورة، وليس نسخاً له منتجة بطريقة التصوير أو غيرها.

٧/٢ يحظر نشر أية فقرات أو أجزاء من الاختبارات والمقاييس النفسية، أو إذاعتها بأية صورة علنية، سواء كأمثلة للإيضاح أو الشرح، باستثناء المواقف الأكاديمية والتدريبية المتخصصة.

٨/٢ عند استخدام المقياس، يحرص الأخصائى النفسى على مراجعته والتدريب عليه، وتجربته بطريقة استطلاعية، قبل الشروع فى تطبيقه لهدف علمى أو عملى، كما أن من مسئولياته أن يتأكد من انطباق كافة الشروط السيكومترية عليه.

٩/٢ يجب الحصول على موافقة العميل أو ولى أمره (فى حالة عدم الأهلية) على تطبيق الاختبار، بغير إجبار أو ضغوط لبدء الاستجابة، أو الاستمرار فيها إلى النهاية.

١٠/٢ يتحمل الأخصائى النفسى المسئولية الأولى عن حسن التطبيق والتفسير والاستخدام لأدوات القياس، ويلتزم بالتحقق من دلائل صدق برامج الكمبيوتر، إذا كانت مستخدمة فى إحدى مراحل التطبيق أو التصحيح، ويتحمل مسئولية ما جاء بتقريره سواءً كان القائم بإعداده مساعدوه، أو كانت برامج جاهزة.

١١/٢ يصدر الأخصائى النفسى تقريره أو أحكامه على نتائج المقياس فى حدود

خصائصه، من حيث الصدق والثبات وعينة التقنين، وفى حدود الفروق بين المستجيبين وبين عينة التقنين.

١٢/٢ يتحمل الأخصائى النفسى أمانة إبلاغ العميل -عند طلبه- بنتائج ما طبق عليه من مقاييس لأى غرض من الأغراض، وذلك فى حدود عدم الإضرار بصحته النفسية أو تقديره لذاته، كما يتحمل مسئولية علاج أى أضرار قد تقع على العميل، نتيجة تطبيق المقياس عليه.

١٣/٢ لايجوز أن يطبق الاختبارات والمقاييس النفسية أو يصححها إلا المتخصص النفسى، والذى حصل على التدريب الكافى عليها.

٣ - أخلاقيات البحوث والتجارب

١/٣ يبتعد الأخصائى النفسى عن توجيه أهداف البحث لأغراض المجاملة، أو لخدمة أهداف خاصة، أو للدعاية.

٢/٣ فى حالة غموض بعض إجراءات خطة الدراسة، من حيث مدى أخلاقياتها، على الأخصائى عرض هذه الخطة على زملائه وأساتذته، للتأكد من أن النتائج المتوقعة تستحق الاستمرار فيها، وفى هذه الحالة يجب الاحتياط بما يحقق أدنى ضرر للمبحوثين، مع التخطيط لعلاج آثاره فور انتهاء الدراسة.

٣/٣ إذا ظهر احتمال وقوع أضرار نفسية، أو اجتماعية، أو جسمية، بسبب الدراسة (رغم التحوط الشديد)، فعلى الأخصائى النفسى أن يتوقف عن العمل لحين مراجعة خطته وإجراءاته، للتأكد من أن النتائج المتوقعة تستحق الاستمرار فيها، وفى هذه الحالة يجب الاحتياط بما يحقق أدنى ضرر للمبحوثين، مع التخطيط لعلاج آثاره فور انتهاء الدراسة.

٤/٣ يجب الحصول على موافقة صريحة من المبحوثين، أو أولياء أمورهم فى حالة العجز أو عدم المسئولية.

٥/٣ يتحمل الأخصائى النفسى مسئولية حسن اختيار المساعدين، ويكون مسئولاً عن سلوكياته وسلوكياتهم، خصوصاً من حيث الالتزام بمواعيد المقابلات، أوالوفاء بالوعود التى قد يقطعها على نفسه بإبلاغهم بنتائج الدراسة.

٦/٣ يحرص الأخصائى النفسى على عدم استخدام سلطاته الإدارية، أو نفوذه الأدبى، أو أساليب الإحراج، أو الضغط على من يرأسهم، أو على من تكون لديه سلطة أكاديمية عليهم؛ كالطلاب، أو المعيدين، أو المترددين للإرشاد أو العلاج، وذلك لدفعهم للمشاركة فى الدراسة، أو للضغط عليهم للاستمرار فيها، إذا رغبوا فى التوقف.

٧/٣ إذا كانت مشاركة الطالب فى البحث من متطلبات الدراسة، فلابد من إتاحة بديل آخر، إذا رغب الطالب فى عدم المشاركة فى البحث.

٨/٣ لايلجأ الأخصائى إلى دراسة مبنية على خداع المبحوثين إلا إذا كان لذلك فائدة علمية، أو تطبيقية، أو تربوية، لاتتحقق بخلاف هذا الخداع، وفى هذه الحالة يجب الحصول على موافقة المبحوثين بصورة عامة، على أن يتولى الشرح الكامل للإجراءات، بعد انتهاء الغرض من الخداع.

٩/٣ يحرص الأخصائى النفسى عند التجريب على الحيوان على تقليل الألم أو العذاب، الذى قد يتعرض له الحيوان إلى أقل درجة ممكنة.

١٠/٣ يتخذ الأخصائى النفسى خطوات مناسبة لتكريم المبحوثين فى الدراسة، كأن يوجه لهم الشكر فى أحد هوامش تقريره النهائى.

١١/٣ يجب الحرص على توثيق المعلومات فى تقرير الدراسة وغيرها من المؤلفات السيكولوچية، مع بيان مرجعها الدقيق، ولايجوز أن يقدم الباحث باسمه مادة علمية لباحث آخر أو مؤلف، دون إشارة واضحة لكل ما نقله عنه.

١٢/٣ لايجوز أن تؤثر المكانة، سواء الوظيفية أو الأكاديمية، للمشاركين في إجراء الدراسة على ترتيب أسمائهم كفريق للبحث، بل يجب أن يعكس هذا الترتيب حجم المشاركة والجهد الفعلي في الدراسة، ويحسن -في كل الأحوال- ذكر تفاصيل إسهام كل منهم.

١٣/٣ حينما كان البحث مستخلصاً من رسالة علمية لأحد الطلاب يدرج اسمه بوصفه المؤلف الأول بين أى عدد من المؤلفين.

١٤/٣ لايحجب الأخصائى النفسى البيانات الأصلية لدراسته عن أى باحث يطلبها لإعادة تحليلها بهدف التأكد من صدقها، أو إجراء تحليل تال عليها، هذا مع عدم الإفصاح عن هويات المبحوثين المشاركين فى الدراسة، وحجب أية إشارة تدل عليهم.

٤ - أخلاقيات التشخيص والعلاج

١/٤ يتقبل الأخصائى النفسى الإكلينيكى العميل كما هو دون إبداء نقد، أو تعنيف، أو انفعال، أو انزعاج، أو استنكار لما يعبر عنه أو يصدر منه.

٢/٤ قبل العلاج، يقوم الأخصائى النفسى بمناقشة العميل فى طبيعة البرنامج العلاجى، والأجر، وطريقة الدفع، مع مصارحة العميل بحدود إمكانيات العمل الإكلينيكى الذى يمارسه معه من تشخيص، أو إرشاد، أو علاج دون مبالغة.

٣/٤ يجب الالتزام التام من جانب الأخصائى النفسى بجدول المواعيد الخاصة بالعميل.

٤/٤ إذا كان الأخصائى النفسى المشارك فى العلاج متدرباً، أو مساعداً تحت إشراف أستاذ، أو كان المعالج أستاذاً يعاونه طلاب، فيجب إخطار المريض بهذه الحقائق.

٥/٤ يحصل الأخصائى النفسى على إخطار كتابى بموافقة العميل على كافة الإجراءات العلاجية والمقابل المادى، على أن تستخدم فى هذه الموافقة لغة مفهومة، وأن يعلن العميل فيها أنه أحيط علماً بالمعلومات الجوهرية الخاصة بعلاجه.

٦/٤ يجب على الأخصائى النفسى التأكد من خلو العميل من أى مرض جسمى، أو ذهان عضوى قبل قبوله العلاج، وفى حالة الشك فى ذلك يجب عليه تحويله إلى

الأطباء المتخصصين، أو الاستعانة بهم فى العلاج.

٧/٤ فى حالة العلاج الأسرى الجماعى، على الإخصائى النفسى أن يحدد أياً منهم المريض وأيهم المعاون فى العلاج، ويحاول التوفيق بين العلاقات الأسرية بما يعيدها إلى طبيعتها أولاً، ولايدعو إلى الانفصال إلا فى حالة الضرورة القصوى.

٨/٤ يجب على الأخصائى العمل على إنهاء العلاقة المهنية أو العلاجية مع العميل إذا تبين أنها حققت أهدافها بالشفاء، أو أن استمرارها معه لن يفيد العميل، وفى هذه الحالة على الأخصائى أن ينصح العميل بطلب العلاج من جهة أخرى، ويتحمل المسئولية كاملة فى تقديم كافة التسهيلات للجهة البديلة.

٩/٤ على الأخصائى النفسى الإكلينيكى أن يتعاون -بأقصى مايستطيع- مع زملائه من التخصصات المختلفة فى فريق العلاج، لتحقيق أفضل ما يمكن تقديمه من خدمة للعميل.

١٠/٤ يقتصر تسجيل المعلومات عن المريض على الهدف العلاجى وفى حدوده فقط، ولايتجاوز ذلك إلى معلومات لاتفيد عملية العلاج، وذلك للتقليل من انتهاك الخصوصية.

٥ - أخلاقيات التدريس والتدريب

١/٥ يبذل الأخصائى النفسى كل ما يستطيع لإعداد وتدريب المتخصصين الجدد فى علم النفس، مع إسداء النصح والتوجيه المخلص لهم.

٢/٥ يحرص الأخصائى النفسى على تحديث مادته التدريسية وفق أحدث النظريات والأساليب العلمية، وأن تكون المادة المقدمة متكاملة ومترابطة وتفى بأهداف المقرر.

٣/٥ يسعى الأخصائى النفسى إلى التأكد من صحة البيانات التى تتعلق بالمادة الدراسية، وكذلك إلى التأكد من مصداقية أساليب التقييم فى الكشف عن طبيعة الخبرة التى يوفرها البرنامج.

٤/٥ يقدر الأخصائى النفسى الذى يعمل بالتدريس أو التدريب السلطة التى لديه على المتدربين أو الطلاب، وعليه القيام بجهد متزن لتجنب ممارسة سلوك ينتج عنه إهانة الطلاب أو الحط من قدرهم.

٥/٥ لايجوز تدريب أشخاص على استخدام أساليب أو إجراءات تحتاج إلى تدريب تخصصى أو ترخيص؛ كالتنويم المغناطيسى، الطرق الإسقاطية، الطرق السيكوفسيولوچية، ما لم يكن لدى المتدربين الإعداد والتأهيل الخاص بذلك.

٦/٥ يجب أن يترفع الأخصائى النفسى المشتغل بالتدريس عن التصرفات التى تسىء إليه أخلاقيًا؛ مثل إجبار الطلاب على القيام بأعمال المنفعة الخاصة، أو التغيب، أو الاعتذار المتكرر عن الدروس، أو التدخين، أو تناول المشروبات أثناء التدريس، كما يجب عليه احترام جدية المحاضرة وخصوصيتها.

٧/٥ يترفع الأخصائى النفسى المشتغل بتدريس علم النفس عن قبول أى مقابل مادى أو معنوى لما يقدمه للطلاب من محاضرات، أو تدريبات، أو إشراف، بخلاف المرتب أو المكافأة التى تقدمها له جهة العمل.

٨/٥ يلتزم الأخصائى النفسى المشتغل بالتدريس فى علم النفس بالإجابة عن أسئلة طلابه، وبالترحيب بمناقشاتهم واستفساراتهم داخل أو خارج المحاضرة وإزالة أوجه الغموض فى مادته.

٩/٥ يحرص الأخصائى النفسى المشتغل بتدريس علم النفس على مصلحة القسم الذى ينتمى إليه، وذلك بالاهتمام بضم أفضل العناصر على أسس موضوعية، ودون مراعاة لاعتبارات المنافسة على المناصب الإدارية، والتى قد تنتج عن هذا الاختيار.

١٠/٥ يحرص الأخصائى النفسى المشتغل بتدريس علم النفس على عدم التعصب لكلية دون أخرى، أو لنوع من التعليم النفسى (تربوى-أكاديمى-إكلينكى..) دون آخر.

١١/٥ يحرص الأخصائى النفسى المشتغل بتدريس علم النفس على إيجاد التكامل فى القسم الذى ينتمى إليه بين التخصصات الأكاديمية والتطبيقية، وعلى أن يرحب بأعضاء هيئة التدريس الجدد من تخصصات وخبرات مختلفة.

١٢/٥ يحرص القائم على تدريس علم النفس على التنافس العلمى الشريف، وعلى تطوير المعلومات النفسية من خلال الأبحاث والدراسات.

١٣/٥ عند تحمل الأخصائى النفسى المشتغل بتدريس علم النفس لمسئولية تحكيم البحوث، عليه ألا يتأثر فى أحكامه إلا بالمعايير العلمية الموضوعية، ولاتتدخل اعتبارات المجاملة، أو الوساطة، أو الانتقام لنفسه أو لزميل له فى أحكامه على الإنتاج العلمى المقدم للتحكيم.

١٤/٥ أستاذ علم النفس، الذى يقوم بتحكيم بحث أو خطة لتقدير صلاحيتها للنشر أو للتنفيذ، عليه المحافظة على حقوق الملكية، وعليه احترام السرية الخاصة بالبحث.

٦ - العمل في المؤسسات الإنتاجية والمهنية

١/٦ يعمل الأخصائى النفسى فى المؤسسات الإنتاجية والمهنية، بالأسلوب العلمى، على وضع كل شخص فى المكان المناسب من حيث إمكانياته، واستعداداته ومؤهلاته، وخبراته، وسماته الشخصية، وأن يقنع المسئولين فيها بأهمية ذلك مستعيناً بأساليب الاختيار والتوجيه، والتأهيل، والتدريب المهنى.. كما يجب عليه -أيضاً- أن يعمل على إقناع المسئولين بأهمية التقييم العلمى لعمل العامل ولنشاطه.

٢/٦ على الأخصائى النفسى، الذى يمارس نشاطه مع الجماعات أو المؤسسات، أن

يعمل بكل جهده على تدعيم إيجابياتها، والسعى لتحقيق صالحها، والحفاظ على أسرارها، باعتبارها عميلاً أو مفحوصاً،

٧ - الإعلام والإعلان والشهادة

١/٧ يجب على الأخصائى النفسى أن يتجنب الوقوع أداة فى يد الغير لتبرئة المدان، أو لإدانة البرىء، أو للحجر على السوى، أو للإيداع فى مصحات نفسية، عندما يطلب رأيه فى ذلك، سواء من السلطة أو من القضاء.

٢/٧ يتحمل الأخصائى النفسى مسئوليته المهنية والأخلاقية، فيما يتعلق بالبرامج الدعائية أو الإعلانية التى يقوم بها الآخرون عنه أو بمعاونته.

٣/٧ يقاوم الأخصائى النفسى ماينشر أو يذاع من بيانات أو أفكار سيكولوچية غير دقيقة، وعليه فى ذلك استشارة زملائه والتعاون معهم فى تدعيم هذه المقاومة، ومحاولة تصحيح هذه الأخطاء.

٤/٧ يبتعد الأخصائى النفسى عن كل مايثير الشبهات الخاصة بوسائل الدعاية والإعلام، فيما يتعلق بشخصه أو ممارساته.

٥/٧ أى إعلان مدفوع يتعلق بأحد أنشطة الأخصائى النفسى يتعين أن يوضح به أنه إعلان مدفوع، ما لم يكن ذلك واضحاً من خلال السياق.

٦/٧ لايشارك الأخصائى النفسى -بصفته هذه- فى أحاديث أو مناقشات عامة، إلا فى حدود تخصصه وأبحاثه واهتماماته.

٨ - حول تطبيق هذا الميثاق

١/٨ يجب على الأخصائى النفسى أن يكون ملمّا بهذا الميثاق الأخلاقى، وأن ينشر الوعى به بين الأخصائيين النفسيين الجدد، وبين كافة المتعاملين بالخدمة النفسية من التخصصات الأخرى، ولايعتبر الجهل بمواد هذا الميثاق مبرراً لانتهاك مواده.

٨/٢ إذا حدث تناقض بين مواد هذا الميثاق وبين تعليمات المؤسسة التى ينتمى إليها الأخصائى النفسى، فالواجب عليه أن يوضح لإدارة المؤسسة، أو للمسئولين الرسميين طبيعة هذا التناقض، وأن ينحاز إلى جانب هذا الميثاق الأخلاقى.

٨/٣ فى حالة انتهاك الأخصائى النفسى واحداً أو أكثر من بنود هذا الميثاق، فعلى الآخرين السعى للفت نظره بشكل ودى، وبصورة تضمن حثه على علاج الآثار السلبية لهذا الانتهاك الأخلاقى وعلى عدم تكراره.

٨/٤ فى حالة استمرار الأخصائى النفسى فى انتهاكاته الأخلاقية، أو ارتكابه لفعل أخلاقى لايمكن السكوت عليه، فعلى الآخرين إبلاغ لجنة المراقبة الأخلاقية فى الجمعية والرابطة للتحقيق، وذلك للتوصية باتخاذ الإجراءات المناسبة، وتقدير مدى الضرر الناجم، وتوقيع ما تراه مناسباً من عقوبات معنوية، قد يصل بعضها إلى حد الفصل من عضوية الجمعية والرابطة، أو الحرمان المؤقت منها، مع إبلاغ جهة عمله بنتائج هذا التحقيق.

٨/٥ ينشر هذا الميثاق فى أول عدد من مجلة الجمعية المصرية للدراسات النفسية، ومجلة دراسات نفسية، ويعمل به من الشهر التالى لآخر صدور له.

٨/٦ تتم مراجعة بنود هذا الميثاق كلما دعت الضرورة لذلك، على ضوء ما يستجد من ظروف وممارسات تستوجب تعديل بنوده، ويتم إقراره من مجلس الإدارة، والجمعية العمومية لكل من الجمعية والرابطة.

الملحق الثانى

الألفية الجديدة:
التحديات والآمال
لعلم النفس فى الوطن العربى

الألفية الجديدة: التحديات والآمال

[العلم النفس في الوطن العربي]

استحدثت مجلة العلوم الاجتماعية (بالكويت) باب الألفية الجديدة: التحديات والآمال بهدف استطلاع آراء الباحثين والمفكرين، كل فى ميدانه، حول ما يعتقدونه أبرز التحديات التى تواجه الإنسانية، فضلاً عن الآمال التى يرنون إليها ويتطلعون إلى تحقيقها مع قدوم الألفية الجديدة.

وقد قامت المجلة بنشر تلك الآراء تباعًا بدءاً من العدد(١) ربيع ٢٠٠٠ وتواصل المجلة فى هذا العدد (مجلد: ٣٠، عدد:١، ٢٠٠٢) استكتاب طائفة بارزة من أهل العلم والفكر والثقافة (محرر المجلة).

فرج عبد القادر طه (*)

مع قدوم الألفية الثالثة أخذ الناس يفكرون، ويتأملون، ويأملون؛ كل فى مجال اهتمامه وشواغله. ويمكن أن ألخص آمالى بالنسبة لما يشغلنى ويهمنى؛ لميدان علم النفس فى جميع أقطار وطننا العربى -على اتساع رقعته- فيما يلى:

١ - انتشار وظيفة الاختصاصى النفسى فى كل مؤسسات المجتمع المهمة؛ سواء أكانت خدمية أم إنتاجية (مثل المدارس والمؤسسات التعليمية، والمستشفيات والمصحات العلاجية، والوزارات والمصالح الحكومية، والمصانع والمنشآت الإنتاجية...إلخ)، حيث يشترك الاختصاصى النفسى ويسهم مع زملائه من متخصصى العلوم الأخرى فى رفع مستوى الخدمة أو الإنتاج، وتحقيق المأمول منهما.

(*) أستاذ علم النفس (كلية الآداب، جامعة عين شمس)، عضو المجمع العلمى المصرى، خبير علم النفس بمجمع اللغة العربية، عضو مجلس إدارة الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقى (١٩٨٤-١٩٩٤).

٢ – إقامة جمعيات نفسية فى كل قطر من أقطار وطننا العربى الذى لم تنشأ فيه جمعيات نفسية حتى الآن؛ واشتراك هذه الجمعيات فى الاتحاد الدولى لعلم النفس (I.U.Psy.S.)؛ حتى يُمثَّل كل قطر من البلاد العربية فى هذا الاتحاد؛ أسوة بما هو قائم بالنسبة لمصر.

٣ – استكمال الإجراءات الرسمية لقيام الاتحاد العربى لعلم النفس؛ إذ لا يزال حتى الآن ومنذ جلسته التأسيسية فى عام ١٩٩٠ تحت الإنشاء، حيث تديره أمانة مؤقتة. على أن يصحب ذلك وضع آلية واضحة ومتكاملة لزيادة فاعلية الاتحاد ودوره على المستويين الإقليمى والعالمى.

٤ – نجاح إحدى جمعيات علم النفس العربية فى استقطاب الاتحاد الدولى لعلم النفس لإقامة أحد مؤتمراته الدولية (ويعقدها كل أربع سنوات فى بلد مشترك فى الاتحاد) فى أحد الأقطار العربية. وقد أخفقت مصر عند قيامها بأول محاولة لذلك فى عام ١٩٩٨ ليعقد مؤتمر عام ٢٠٠٤ بها؛ حيث فازت عليها الصين؛ إلا أننا نرجو تكرار المحاولة ونجاحها مستقبلاً؛ سواء من جانب مصر أو غيرها من بلاد الوطن العربى، ففى هذا دعم كبير لعلم النفس وسمعته فى وطننا العربى.

٥ – إذابة الفروق والتقسيمات والتعصبات الشديدة (وإدانتها) والتى تؤدى إلى صراعات جانبية تضر بعلم النفس، وتبدد طاقات علمائه فيما لا طائل من ورائه؛ مثل تقسيم علم النفس إلى علم نفس بحت وعلم نفس تربوى–لكل منهما علماؤه؛ علمًا بأن علم النفس التربوى ليس أكثر من فرع من فروع علم النفس، شأنه فى ذلك شأن علم النفس الصناعى، أو علم النفس الإكلينيكى، أو التحليل النفسى...؛ فالأمر هنا ليس أكثر من تعدد تحت مظلة الوحدة.

٦ – زيادة وعى الناس فى المجتمع العربى –على امتداده– بالتخصص النفسى، وبالفرق بينه وبين تخصصات قريبة منه مثل الطب النفسى، والخدمة الاجتماعية؛ فيعرفون الفروق بين كل منها وبين مجالاتها، وما يمكن أن يقدمه كل تخصص من خدمات،

ويسهم به من فهم لظواهر بذاتها، وعلاج لمشكلات بعينها؛ هذا إضافة إلى إمكانية تآزرها وتكاملها فيما بينها لفهم كثير من القضايا والمشكلات وعلاجها بشكل متكامل. ويمكن أن يقوم بالدور الأكبر فى نشر هذا الوعى وتحقيق هذا الأمل إعلام واع وجاد من جانب الصحافة والإذاعة والتلفاز والمؤتمرات والندوات...

٧ - انتشار الوعى بين كبار المسؤولين فى كل قطر عربى بأهمية علم النفس، وبما يمكن أن يقدمه باحثوه ومتخصصوه من إسهام مهم فى تنمية المجتمع وعلاج مشكلاته؛ إلى جانب زملائهم فى التخصصات العلمية المختلفة (مثل الطب والهندسة والعلوم والاقتصاد...)، دون إعلاء لشأن تخصص على حساب آخر؛ فالكل يقدم ما يستطيع لخدمة مجتمعه، والإسهام فى تقدمه فى حدود تخصصه.

٨ - إنشاء معهد علمى خاص بالتحليل النفسى، يتخرج فيه المحللون النفسيون، إذ من المؤسف حقاً ألا ينشأ حتى الآن معهد واحد فى أى قطر من أقطار العالم العربى.

٩ - الاهتمام بحركة البعثات العلمية للخارج للحصول على الدرجات العلمية العليا فى علم النفس، وكذا المهمات العلمية، ومنح التفرغ لقضائها فى الجامعات الأجنبية بشكل دورى لعلماء النفس وباحثيه؛ مع تيسير اشتراكهم ومشاركاتهم وتشجيعها فى المؤتمرات العلمية الدولية؛ للوقوف على أحدث مستجدات العلم وتطبيقاته، حتى لا نتخلف فى الوطن العربى عن زملاء التخصص فى العالم الخارجى.

١٠ - زيادة موازنات البحوث العلمية عامة، والبحوث النفسية خاصة (والجدية فى تطبيق نتائجها)؛ لأن تقدم أى مجتمع رهن بتقدم البحث العلمى فيه، وإخلاص المسؤولين عنه وجدِّيتهم (فى دعمه وتطبيق نتائجه).

هذه بعض التحديات والآمال التى أنشغل بها؛ وأرجو أن ينجح مجتمعنا العربى فى تحقيقها؛ والله الموفق.

قالوا عن الكتاب

• أصول علم النفس الحديث:

«أصول علم النفس الحديث عنوان الكتاب الصادر (لمؤلفه) د. فرج عبد القادر طه... والكتاب موضوع حديثنا هو بمنزلة مدخل إلى علم النفس المعاصر بمدارسه وتياراته المختلفة، لكن هذه المحاولة تختلف عن باقى المحاولات من خلال العرض البانورامى- الموسوعى للمؤلف.

فالقارئ لا يتيه مع المؤلف فى تناقضات المدارس والتيارات والمناهج والتطبيقات. بل هو يقع على تعريف دقيق ومحدد لهذه المواضيع.

بل هو يتعمق فى كل منها عبر جولته مع موضوعية المؤلف فى إبراز محاسن كل اتجاه وإيراد الانتقادات الموجهة له ومساوئه المفترضة.

الكتاب إذاً يتوجه إلى المبتدئ فى دراسة علم النفس وإلى المثقف غير المتخصص الراغب فى الاطلاع على الواقع الراهن لهذا العلم (ونفضل مصطلح العلوم النفسية لأن ميادين تطبيقها تفرعها إلى علوم موازية لبعضها البعض).

ومثل هذا التوجه يدعم هدف نشر الثقافة النفسية والوعى الصحيح-النفسى الذى نفتقده فى مجتمعنا العربى. وهو هدف سبق وأن عمل له عدد من كبار الأساتذة العرب والرواد الأوائل مثل مصطفى زيور الذى كان يقدم أحاديث إذاعية لجمهور الإذاعة.. وأيضًا المرحوم أحمد عزت راجح الذى قدم فى هذا التوجه إسهامات جعلت بعض مؤلفاته المبسطة- التعليمية معتمدة فى التدريس الجامعى حتى يومنا هذا.

ولا يفوت المؤلف أن يذكر هذين العلمين بالخير فى مقدمته للكتاب وأن يذكر تتلمذه على أيديهما. ليتابع أن خطته فى الكتاب تبلورت حول النظر إلى علم النفس على أنه علم يختص بالسلوك فى أوسع معنى له وعلم بالشخصية التى يصدر عنها السلوك فى

خصوصياتها ومحركاتها. وعلى هذا الأساس وزع المؤلف محتويات كتابه».

د. محمد أحمد النابلسي

جريدة الأنوار اللبنانية في ١٨ / ١١ / ١٩٩٨

• أصول علم النفس الحديث:

«أصول علم النفس الحديث: مؤلف الكتاب... فرج عبد القادر طه.. بالإضافة إلى إطلالاته العلمية ومن بينها عضويته لمجلس إدارة الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقي وللتذكير نخص بالذكر إنجازه لموسوعة علم النفس والتحليل النفسي التي صدرت بالعربية عن دار سعاد الصباح... يقع هذا الكتاب في أربعمائة صفحة من الحجم الكبير مع ثبت بالمراجع، وتتوزع محتوياته على أربعة أبواب بحيث يعرض بدون إنحياز لكافة الآراء والنظريات مبيناً الحسنات والمساوئ ومتمسكاً برؤيته الشمولية المؤكدة على الإمكانية الواقعية لبلوغ الحقيقة عبر مسالك متعددة، وبعيداً عن أثر العلاقة الشخصية.. أقرر أن هذا الكتاب هو من أفضل المداخل إلى ميدان علم النفس؛ بل إن راهنيته تجعله أفضل ما اطلعت عليه من هذه المداخل حتى اليوم».

محرر باب: مكتبة الثقافة النفسية، مجلة الثقافة النفسية المتخصصة

بيروت–العدد الثامن والثلاثون، المجلد العاشر شباط (فبراير)

١٩٩٩

• أصول علم النفس الحديث:

«علم النفس من العلوم التي تجعل الفرد قادراً على فهم ذاته، وإدراك الخبايا النفسية للآخرين بشكل يجعله أكثر تواصلاً معهم.

هكذا يقول الناشر عن الكتاب الذي أصدره بعنوان «أصول علم النفس الحديث» للدكتور فرج عبد القادر طه والذي يقدم الكتاب بقوله: يعرض الأصول العامة والمبادئ الأساسية

لعلم النفس فى صورته الحديثة، مع الإشارة إلى إسهامات علماء النفس العرب ومتخصصيه.

ولما كان الهدف الأساسى من هذا الكتاب هو تقديم علم النفس للمتخصص المبتدئ فى دراسته، وللمثقف العام معاً فقد روعى عرض مادته العلمية عرضًا مبسطاً يسهل فهمها، ويعرض للشخصية التى يصدر عنها السلوك، مع النظريات النفسية، والمدارس العلمية الأساسية، ومع بيان دور كل من الوراثة والبيئة وما بينهما من تفاعل».

جريدة أخبار الأدب

في ١٢ / ١٢ / ١٩٩٩

• أصول علم النفس الحديث:

«أصول علم النفس الحديث: عنوان لكتاب جديد صدر أخيراً عن دار قباء بالقاهرة للدكتور فرج عبد القادر طه. يعرض فيه المؤلف للأصول العامة والمبادئ الأساسية لعلم النفس فى صورته الحديثة دونما اغفال لاسهامات علماء النفس العرب فى هذا المجال. الكتاب يتضمن أربعة أبواب، الأول منها بمثابة مدخل تمهيدى لعلم النفس بوصفه علماً له تعريفه المحدد، وأهدافه مثل الفهم والتفسير، والضبط والتحكم، التنبؤ بالظاهرة (النفسية). كما تناول فيه المؤلف الفروع النظرية والعملية ومدارس علم النفس ومناهج البحث فيه.

أما الباب الثانى فقد تعرض لأهم ما يؤثر فى السلوك من عوامل ويكمن وراءها من علل، وفى الباب الثالث تابع نفس الحديث مع التركيز على شخصية الفرد وما يتهددها من أمراض نفسية أو اضطرابات أو انحرافات.

وفى الباب الرابع الذى جاء بمثابة خاتمة للكتاب أوضح المؤلف دور كل من الوراثة والبيئة فى طبع شخصية الفرد بطابع خاص يميزه عن غيره من الناس، وكيف يمكن لنا التأثير فيها».

جريدة الأهرام

في ٢٥ / ٢ / ٢٠٠٠

المراجع

١ – إبراهيم مدكور: فى الفكر الإسلامى، سميركو للطباعة والنشر، ١٩٨٤.

٢ – إبراهيم مدكور: تصدير كتاب النفس لابن سينا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

٣ – ابن سينا: النفس (من كتاب الشفاء)، تصدير ومراجعة إبراهيم مدكور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

٤ – ابن منظور: لسان العرب، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ج٨، (بدون تاريخ).

٥ – أحمد بهاء الدين: جريدة الأهرام القاهرية، باب يوميات، بتاريخ ١٩٨٨/١١/٢١.

٦ – أحمد بهاء الدين: جريدة الأهرام القاهرية، باب يوميات، بتاريخ ١٩٨٩/١/٢٥.

٧ – أحمد بهجت: جريدة الأهرام القاهرية، باب صندوق الدنيا، بتاريخ ١٩٩٩/٣/١.

٨ – أحمد خيرى حافظ: سيكولوجية الاغتراب لدى طلاب الجامعة، رسالة دكتوراة (غير منشورة) بإشراف فرج عبد القادر طه، القاهرة، قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ١٩٨٠.

٩ – أحمد خيرى حافظ: المخاوف الشائعة لدى عينات من طلاب المملكة العربية السعودية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مجلة علم النفس، عدد:٩، ١٩٨٩.

١٠ – أحمد طه محمد: أثر المهام المشتتة على الفهم ودور الذاكرة قصيرة المدى فى ذلك، مجلة علوم وفنون (التى تصدرها جامعة حلوان)، مجلد:٦، عدد:١، يناير ١٩٩٤.

١١ – أحمد محمد عبد الخالق: قلق الموت، الكويت، عالم المعرفة، عدد:١١١، ١٩٨٧.

١٢ – أحمد محمد عبد الخالق: معدلات انتشار الأعراض الجسمية لدى عينة كويتية من الجنسين، دراسات نفسية، م:١٩، ع:٤، أكتوبر ٢٠٠٩.

١٣ – أحمد عزت راجح: علم النفس الصناعى، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥.

١٤ – أحمد عزت راجح: أصول علم النفس، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩.

١٥ – أحمد عكاشة: علم النفس الفسيولوچى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧.

١٦ – أحمد عكاشة وطارق عكاشة: علم النفس الفسيولوچى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٩.

١٧ – أحمد فائق: جنون الفصام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦١.

١٨ – أحمد فائق: التفكير عند الإنسان، القاهرة، المكتبة الثقافية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥.

١٩ – أحمد فائق ومحمود عبد القادر: مدخل إلى علم النفس، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٢.

٢٠ – أحمد فائق: الأمراض النفسية الاجتماعية، القاهرة، النسر الذهبى، ١٩٨٢.

٢١ – أحمد فائق: الأمراض النفسية الاجتماعية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠١.

٢٢ – أحمد فائق: مدخل عام لعلم النفس، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٣.

٢٣ – أحمد يوسف القرعى: ميثاق الشرف.. إلتزام دستورى لم يتحقق، الأهرام٧/٢/٢٠٠٨.

٢٤ – الإذاعة البريطانية (الـ B.B.C.) نشرات إخبارية، يناير ٢٠١٠.

٢٥ – الإذاعة البريطانية (الـ B.B.C.) نشرات إخبارية، ١٩/٤/٢٠١٠.

٢٦ – أنستازى، آن: طبيعة الفروق الفردية، فى: ميادين علم النفس، المجلد الثانى، ألف بإشراف جيلفورد، وترجم بإشراف يوسف مراد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٦.

٢٧ – أنور محمد الشرقاوى: التعلم (نظريات وتطبيقات)، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٨.

٢٨ – الأهرام القاهرية: بتاريخ ٢٦ / ٤ / ١٩٩٨.

٢٩ – الأهرام القاهرية: من غير عنوان، بتاريخ ١٧/٥/١٩٩٩.

٣٠ – الأهرام القاهرية: صفحة الحوادث، بتاريخ ١٣/٤/٢٠٠٥.

٣١ – الأهرام القاهرية: بتاريخ ٧/٤/٢٠٠٩.

٣٢ – أيزنك، هـ.ج.: الحقيقة والوهم، ترجمة قدرى حفنى ورؤف نظمى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩.

٣٣ – أيكهورن، أوجست: الشباب الجامح، ترجمة سيد محمد غنيم، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٤.

٣٤ – بتروفسكى أ.ف. وياروشفيسكى م.ج: معجم علم النفس المعاصر، ترجمة حمدى عبد الجواد وعبد السلام رضوان، مراجعة عاطف أحمد، القاهرة، دار العالم الجديد، ١٩٩٦.

٣٥– بدر محمد الأنصارى: الفروق فى الاكتئاب بين طلاب وطالبات الجامعة، دراسات عربية فى علم النفس، م:٦، ع:١، يناير ٢٠٠٧.

٣٦ – برونو فرانك: الأعراض النفسية، ترجمة رزق سند إبراهيم ليلة، القاهرة، دار الحكيم لطباعة الأوفست، بدون تاريخ، الأصل عام ١٩٩٣.

٣٧ – بطرس البستانى: محيط المحيط، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٧.

٣٨ – بولبى، جون: رعاية الطفل وتطور الحب، ترجمة السيد محمد خيرى وآخرين، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩ .

٣٩ – بياچيه چان: اللغة والفكر عند الطفل، ترجمة أحمد عزت راجح، مراجعة أمين مرسى قنديل، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٤ .

٤٠ – توفيق الطويل: أسس الفلسفة، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٩ .

٤١ – جاسم محمد الخواجة: علاقة الضغوط النفسية بالإصابة بالسرطان، دراسات نفسية، م:١٠، ع:٢، أبريل ٢٠٠٠ .

٤٢ – جمال التركى: اكتئاب المرأة، الثقافة النفسية المتخصصة، أبريل–يوليو ٢٠٠٠ .

٤٣ – جمعة سيد يوسف: اكتئاب، فى: أحمد محمد خليفة (إشراف)، المعجم العربى للعلوم الاجتماعية، القاهرة ،منظمة الأمم المتحدة (يونسكو)، ١٩٩٤ (طبعة أولية) .

٤٤ – جولمان، دانييل: الذكاء العاطفى، ترجمة ليلى الجبالى، مراجعة محمد يونس، الكويت، عالم المعرفة، أكتوبر ٢٠٠٠ .

٤٥ – چيوم، بول: علم نفس الجشتلط، ترجمة صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق، مراجعة يوسف مراد، القاهرة، سجل العرب، ١٩٦٣ .

٤٦ – حاتم الطائى: شرح ديوان حاتم الطائى لـ: إبراهيم الجزينى، بيروت، دار الكاتب العربى، ١٩٦٨ .

٤٧ – حامد عبد السلام زهران: علم النفس الاجتماعى، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٤ .

٤٨ – حسن سعفان: بيئة، فى: معجم العلوم الاجتماعية، إشراف إبراهيم مدكور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥ .

٤٩ – حسن الشرقاوى (إشراف): تحقيق عن القتل من أجل السرقة، جريدة الأهرام القاهرية، بتاريخ ١٩٨٩/٢/١٨ .

٥٠ – حسن صديق: الإصدارات النفسية العربية، الثقافة النفسية المتخصصة، ع:٢٢، أبريل ١٩٩٥ .

٥١ – حسين ثابت: مراسلة عن جريمة إدعاء نبوة، جريدة الأهرام القاهرية، بتاريخ ١٩٨٦/١/٢٠ .

٥٢ – حسين عبد القادر: العلاج الجماعى والسيكودراما: دراسة فى الجماعات العلاجية لمرضى فصام البرانويا، رسالة دكتوراة (غير منشورة) بإشراف مصطفى زيور، القاهرة، قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ١٩٨٦ .

٥٣ – حسين عبد القادر: التحليل النفسى: أمسه وغده فى: حسين عبد القادر ومحمد أحمد النابلسى: التحليل النفسى–ماضيه ومستقبله، دمشق–بيروت، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٢ .

٥٤ – حسين عبد القادر: بوش الصغير فى ضوء التحليل النفسى، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٥.

٥٥ – حسين عبد القادر: مراحل النمو: فى: فرج عبد القادر طه (إشراف): موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٩.

٥٦ – حسين على محمد فايد: الدور الدينامى للمساندة الاجتماعية فى العلاقة بين ضغوط الحياة المرتفعة والأعراض الاكتئابية، دراسات نفسية، م:٨، ع:٢، أبريل ١٩٩٨.

٥٧ – حمد عبد الكريم المرزوقى وفرج عبد القادر طه وآخرون (إشراف): التورط فى المخدرات– دراسة نفسية اجتماعية فى مصر، الرياض–مكتب الأمم المتحدة فى فيينا، ١٩٩٠.

٥٨ – خالد محمد عبد الغنى: الفائدة الإكلينيكية لاختبار تفهم الموضوع فى الكشف عن الضغوط والشكاوى النفسجسمية وأساليب مواجهتها: دراسة حالة أم طفل يعانى من اضطراب الانتباه وفرط الحركة، دراسات نفسية، القاهرة، عدد:١، يناير ٢٠١٠.

٥٩ – رأفت السيد أحمد السيد: الخلل المعرفى لدى مرضى الفصام المبكر والفصام المزمن والأسوياء لدى عينة من المصريين والكويتيين، المؤتمر السنوى السادس والعشرون لعلم النفس فى مصر، ملخصات البحوث، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١٠.

٦٠ – رجز، ديفيد و فوا، إدنا: اضطراب الوسواس القهرى، ترجمة هبة إبراهيم فى: مرجع إكلينيكى. أشرف على الترجمة صفوت فرج، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٢.

٦١ – رزق سند إبراهيم ليلة: سيكولوچية النصاب، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٧.

٦٢ – زكى نجيب محمود: حياة قلقة، مقال بجريدة الأهرام القاهرية، بتاريخ ١٩٨٩/٣/٧.

٦٣ – روزمارى شاهين: لمحة عن علم النفس السياسى فى العالم العربى، الثقافة النفسية المتخصصة، م:١٧، ع:٦٥، يناير ٢٠٠٦.

٦٤ – ساشاناخت: المازوخية، ترجمة چورچ حرابيش، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٣.

٦٥ – سامى عبد القوى على: علم النفس الفسيولوچى، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٥.

٦٦ – سامى محمود على: نورستانيا، فى ثبت المصطلحات الواردة بكتاب: ثلاث مقالات فى نظرية الجنسية، تأليف فرويد، وترجمة سامى محمود على، ومراجعة مصطفى زيور، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣.

٦٧ – سامى محمود على: سادية، بالمرجع السابق.

٦٨ – سامى محمود على: عصاب الصدمة، بالمرجع السابق.

٦٩ – سامى محمود على: مازوخية، بالمرجع السابق.

٧٠ – سامية القطان: كيف تقوم بالدراسة الكلينيكية، تقديم ومراجعة صلاح مخيمر، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠.

٧١ – سلمى المصرى دملج: إسهامات مركز الدراسات النفسية فى ميدان السيكوسوماتيك، الثقافة المتخصصة، م:١٢، ع:٤٦، أبريل ٢٠٠١.

٧٢ – سليمان الخضرى الشيخ: الفروق الفردية فى الذكاء، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٨.

٧٣ – سميرة على عياد: الحبس ١٠٠٠ عام لـ ريان الجيزة بتهمة توظيف الأموال، الأهرام: بتاريخ ٢٠٠٨/٥/١٦.

٧٤ – سنية جمال عبد الحميد: ثبات كمية المادة والوزن والحجم: دراسة ميدانية مقارنة بين الطفل المصرى الريفى والحضرى، رسالة دكتوراة (غير منشورة) بإشراف فرج عبد القادر طه، القاهرة، قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ١٩٨٨.

٧٥ – سيد أحمد عثمان: الإثراء النفسى: دراسة فى: الطفولة ونمو الإنسان، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦.

٧٦ – السيد محمد خيرى: الإحصاء فى البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٥٦.

٧٧ – السيد محمد خيرى: الصحة النفسية والصناعة، القاهرة، مجلة الصحة النفسية، م:١، عدد:١، ١٩٥٨.

٧٨ – السيد محمد خيرى (إشراف)، الاختيار السيكولوچى لتلاميذ مراكز التدريب المهنى، القاهرة، مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى بوزارة الصناعة، طبعة ثانية، ١٩٧٦.

٧٩ – السيد محمد خيرى (إشراف): الاختيار السيكولوچى لتلاميذ مراكز التدريب المهنى، القاهرة، مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى بوزارة الصناعة، بدون تاريخ.

٨٠ – السيد محمد خيرى: اختبار الذكاء الإعدادى، القاهرة، دار النهضة العربية، بدون تاريخ.

٨١ – السيد محمد خيرى: اختبار الذكاء العالى، القاهرة، دار النهضة العربية، بدون تاريخ.

٨٢ – السيد مصطفى راغب: سيكولوچية الاحتراق النفسى فى العمل، رسالة دكتوراة، غير منشورة، كلية الآداب–جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٨.

٨٣ – شافر، لورنس: علم النفس المرضى، فى ميادين علم النفس، المجلد الأول، أشرف على تأليفه جيلفورد، وأشرف على ترجمته يوسف مراد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥.

٨٤ – الشافعى: ديوان الإمام الشافعى، جمع؛ محمد عفيفى الزغبى، جدة، دار العلم للطباعة والنشر،

١٩٧٤ .

٨٥ – شاكر قنديل: إدراك حسى، فى: موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، أشرف على تأليفها فرج عبد القادر طه، الكويت–القاهرة، دار سعاد الصباح، ١٩٩٣ .

٨٦ – شاكر قنديل: فهم، فى المرجع السابق.

٨٧ – شاكر قنديل: تفكير، فى المرجع السابق.

٨٨ – شاكر قنديل: توجه، فى المرجع السابق.

٨٩ – شاكر قنديل: بيئة؛ فى المرجع السابق.

٩٠ – شعبان جاب الله رضوان: بعض سمات الشخصية ذات النمط الفصامى وعلاقتها بمهارات التواصل الانفعالى والاجتماعى، دراسات نفسية، م:١٦، ع:١، يناير ٢٠٠٦ .

٩١ – شيهان، دافيد: مرض القلق، ترجمة عزت شعلان بمراجعة أحمد عبد العزيز سلامة، الكويت، عالم المعرفة، عدد:١٢٤، ١٩٨٨ .

٩٢ – صبرى جرجس: مشكلة السلوك السيكوباتى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٧ .

٩٣ – صفوت فرج: علم النفس الإكلينيكى، القاهرة–مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٨ .

٩٤ – صلاح مخيمر: فى علم النفس العام، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت (بدون تاريخ) .

٩٥ – صلاح منتصر: جريدة الأهرام القاهرية، باب مجرد رأى، بتاريخ ١٩٨٨/٦/٢٥ .

٩٦ – صلاح منتصر: جريدة الأهرام القاهرية: باب مجرد رأى، بتاريخ ١٩٨٩/٣/١٣.

٩٧ – عادل الدمرداش: الإدمان، مظاهره وعلاجه، الكويت، عالم المعرفة، عدد:٥٦، ١٩٨٢ .

٩٨ – عادل كمال خضر: تشخيص الفصام باستخدام اختبار رسم الشخص، مجلة علم النفس، ٦٥ و٦٦– يونيو ٢٠٠٣ .

٩٩ – عادل محمد هريدى: الفروق الفردية فى الذكاء الوجدانى، دراسات عربية فى علم النفس،م:٢، عدد:٢، أبريل ٢٠٠٢ .

١٠٠ – عاطف حلمى: نبى مزعوم يظهر فى الإسكندرية، روز اليوسف، بتاريخ ١٩٩٩/٥/٢٢ .

١٠١ – عبد الحميد صفوت: علم النفس العربى وتحديات القرن الحادى والعشرين؛ دراسات نفسية، عدد:١، مجلد:٦، يناير ١٩٩٦ .

١٠٢ – عبد الحميد صفوت: ما هو علم النفس الاجتماعى، مدخل ترجمته لجون دكت: علم النفس الاجتماعى والتعصب، القاهرة، دار الفكر العربى، ٢٠٠٠ .

١٠٣ – عبد الحميد صفوت ومحمد الدسوقى: إسهامات البحوث المصرية فى دراسة التعصب، القاهرة،

مجلة دراسات نفسية، عدد:١٢، أكتوبر ١٩٩٣ .

١٠٤ – عبد الرحمن بدوى: مناهج البحث العلمى، الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٧ .

١٠٥ – عبد العزيز باتع محمد: الخدمة النفسية فى مجال علم النفس العصبى متطلب حضارى، مجلة الخدمة النفسية، جامعة عين شمس، أبريل ٢٠٠٥ .

١٠٦ – عبد الفتاح دويدار: علاقة السحر بالاضطرابات النفسية، الثقافة النفسية المتخصصة، م:١٧، ع:٦٧، يوليو ٢٠٠٦ .

١٠٧ – عبد اللطيف محمد خليفة وأسامة سعيد أبو سريع: إدراك اجتماعى فى، أحمد خليفة (إشراف): المعجم العربى للعلوم الاجتماعية: القاهرة، منظمة الأمم المتحدة للتعليم والعلوم والثقافة(يونسكو)، القاهرة، ١٩٩٤ (طبعة أولية) .

١٠٨ – عثمان حمود الخضر: التدين والشخصية أحادية العقلية فى بعض شرائح المجتمع الكويتى: دراسات نفسية، م:١٠، ع:١، يناير ٢٠٠٠ .

١٠٩ – عثمان حمود الخضر: الذكاء الوجدانى.. هل هو مفهوم جديد؟، مجلة دراسات نفسية، م:١٢، عدد:١، يناير، ٢٠٠٢ .

١١٠ – عثمان حمود الخضر: تصميم مقياس عربى للذكاء الوجدانى...، مجلة دراسات نفسية، م:١٦، ع:٢، أبريل، ٢٠٠٦ .

١١١ – عصام محمد زيدان: إدمان الانترنت والقلق والاكتئاب والوحدة النفسية، مجلة دراسات عربية فى علم النفس، م:٧، ع:٢، أبريل ٢٠٠٨ .

١١٢ – عطية محمود هنا ومحمد عماد الدين إسماعيل ولويس كامل مليكة: اختبار الشخصية المتعدد الأوجه (اقتباس وإعداد، عن هاثاواى وماكنلى)، القاهرة، مطبعة النصر، ١٩٧٣ .

١١٣ – على زيعور: الملامح المميزة للمدرسة النفسية العربية، الثقافة النفسية المتخصصة، ع:٢٦، أبريل ١٩٩٦ .

١١٤ – على مهدى كاظم: نموذج العوامل الخمسة الكبرى فى الشخصية، المجلة المصرية للدراسات النفسية، ع:٣٠، أبريل ٢٠٠١ .

١١٥ – عماد أحمد حسن: مبادئ أساسية فى الفروق الفردية والقياس النفسى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١٠ .

١١٦ – عماد محمد مخيمر: الصلابة النفسية والمساندة الاجتماعية، المجلة المصرية للدراسات النفسية، أغسطس ١٩٩٧ .

١١٧ – فاروق جويدة : هواء فاسد بين الشعب والحكومة، أهرام ٩/٤/٢٠١٠.

١١٨ – فريتمر، مايكل: نظرية التعلم الجشتلطية، في نظريات التعلم، جـ١، ترجمة على حسين حجاج، مراجعة عطية محمود هنا، الكويت، عالم المعرفة، عدد:٧٠، ١٩٨٣.

١١٩ – فرج عبد القادر طه: بطارية اختبارات الاستعدادات الحسية الحركية للمكفوفين، القاهرة، مكتبة دار التأليف، ١٩٧٤.

١٢٠ – فرج عبد القادر طه: سيكولوجية الحوادث وإصابات العمل، في مجموعة علم النفس الإنساني، تقديم مصطفى زيور، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٩.

١٢١ – فرج عبد القادر طه: علم النفس وقضايا العصر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٨.

١٢٢ – فرج عبد القادر طه: علم النفس الصناعي والتنظيمي، القاهرة، دار قباء، ٢٠٠١.

١٢٣ – فرج عبد القادر طه: علم النفس الصناعي والإداري، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٨.

١٢٤ – فرج عبد القادر طه (إشراف): بطارية اختبارات التوجيه المهني للصبية، القاهرة، وزارة القوى العاملة، ١٩٨٦.

١٢٥ – فرج عبد القادر طه (إشراف): موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، القاهرة–الكويت، دار سعاد الصباح، ١٩٩٣.

١٢٦ – فرج عبد القادر طه (إشراف): موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٩.

١٢٧ – فرج عبد القادر طه (إشراف): التحصيل الدراسي والذكاء والشخصية، في قراءات في علم النفس الصناعي والإداري (إشراف) فرج عبد القادر طه، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١٠.

١٢٨ – فرج عبد القادر طه: علم النفس بين خدمة العامل وخدمة الإنتاج، الفكر المعاصر، القاهرة، عدد ٦١، مارس ١٩٧٠.

١٢٩ – فرج عبد القادر طه: تأملات فيما طرأ على الشخصية المصرية من سلبيات، مجلة دراسات نفسية، أبريل ١٩٩٤(أ).

١٣٠ – فرج عبد القادر طه: إطار معياري للشخصية السوية، دراسات نفسية، أكتوبر ١٩٩٥.

١٣١ – فرج عبد القادر طه: الألفية الجديدة: التحديات والآمال: مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت، مجلد ٣٠، عدد:١، ٢٠٠٢.

١٣٢ – فرج عبد القادر طه: علم النفس الإيجابي وسعادة الإنسان، الثقافة النفسية المتخصصة، طرابلس- لبنان مركز الدراسات النفسية بلبنان، عدد:٥٨، أبريل ٢٠٠٤.

١٣٣ – فرج عبد القادر طه: طموح: في: المعجم العربي للعلوم الاجتماعية، بإشراف أحمد خليفة، منظمة الأمم المتحدة (اليونسكو)، القاهرة، طبعة أولية، ١٩٩٤(ب).

١٣٤ – فرج عبد القادر طه وصلاح أحمد مرحاب: الصورة المغربية لمقياس وكسلر-بلفيو لذكاء الراشدين والمراهقين، الرباط، مطبعة كوثر، ١٩٧٧.

١٣٥ – فرويد،سيجموند: الموجز في التحليل النفسي، ترجمة سامي محمود علي وعبد السلام القفاش، بمراجعة مصطفى زيور، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢.

١٣٦ – فرويد، سيجموند: محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، ترجمة أحمد عزت راجح، بمراجعة محمد فتحي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٨.

١٣٧ – فرويد، سيجموند: محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي، ترجمة أحمد عزت راجح، بمراجعة محمد فتحي، مكتبة مصر (بدون تاريخ).

١٣٨ – فريح عويد العنزي وعويد المشعان: الشخصية الفصامية وعلاقتها بالتفاؤل والتشاؤم: ملخصات أبحاث المؤتمر الرابع عشر لعلم النفس في مصر، الجمعية المصرية للدراسات النفسية، القاهرة، فبراير ١٩٩٨.

١٣٩ – فريح عويد العنزي وهناء ثنيان الماجد وصوغية كاظم أحمد: قائمة الأعراض الجسمية وعلاقتها بالتحصيل الدراسي لدى عينة من طلبة وطالبات الهيئة العامة للتعليم التطبيقي بدولة الكويت، مجلد أعمال المؤتمر الإقليمي لعلم النفس، رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية، القاهرة، ٢٠٠٧.

١٤٠ – فلوجل،ج: علم النفس في مائة عام، ترجمة لطفي فطيم، بمراجعة السيد محمد خيري، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٣.

١٤١ – فؤاد أبو حطب: كتاب تذكاري عن الجمعية المصرية للدراسات النفسية بمناسبة يوبيلها الذهبي، الجمعية المصرية للدراسات النفسية، القاهرة، ١٩٩٨.

١٤٢ – فؤاد البهي السيد: الذكاء، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٦.

١٤٣ – فؤاد زكريا: التفكير العلمي، الكويت، عالم المعرفة، عدد:٣، ١٩٨٨.

١٤٤ – فورمان، چورچ: النظرية البنائية لبياچيه، في نظريات التعلم، ج١، ترجمة علي حسين حجاج، بمراجعة عطية محمود هنا، الكويت، عالم المعرفة، عدد:٧٠، ١٩٨٣.

١٤٥ – فيصل عبد القادر يونس وإلهام عبد الرحمن خليل: نموذج العوامل الخمسة للشخصية، دراسات نفسية، يوليو ٢٠٠٧.

١٤٦ – قاسم حسين صالح : اضطرابات ما بعد الضغوط الصدمية، الثقافة النفسية المتخصصة (بيروت)، م:١٣، ع:٤٩، يناير ٢٠٠٢.

١٤٧ – قدرى حفنى: المقالات الدورية التى ينشرها أيام الخميس بجريدة الأهرام من بضع سنوات حتى الآن (٢٠١٠).

١٤٨ – كاتانا، شارلز: النظرية الإجرائية لسكنر: فى المرجع السابق من عالم المعرفة.

١٤٩ – كوفيل وزملاؤه: علم نفس الشواذ، ترجمة محمود الزيادى، بمراجعة السيد محمد خيرى، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٧.

١٥٠ – لاجاش، دانييل: المجمل فى التحليل النفسى، ترجمة مصطفى زيور وعبد السلام القفاش، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.

١٥١ – لويس كامل مليكة: علم النفس الإكلينيكى:ج١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧.

١٥٢ – لويس كامل مليكة (إعداد وتقديم): قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى الوطن العربى، المجلد الثالث، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩.

١٥٣ – لويس كامل مليكة: علم النفس الإكلينيكى:ج٢، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٧.

١٥٤ – لويس كامل مليكة ومحمد عماد الدين إسماعيل وعطية محمود هنا: الشخصية وقياسها، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩.

١٥٥ – لويس كامل مليكة ومحمد عماد الدين إسماعيل وعطية محمود هنا: مقياس وكسلر–بلفيو لذكاء الراشدين والمراهقين (إعداد واقتباس عن دافيد وكسلر)، القاهرة، مطبعة دار التأليف (بدون تاريخ).

١٥٦ – ليلى أحمد كرم الدين: تطور فكرة العلية عند الطفل، رسالة ماچستير (غير منشورة) بإشراف سيد محمد غنيم، القاهرة، قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ١٩٧٦.

١٥٧ – المتنبى: ديوان المتنبى، تحقيق وتعليق عبد الوهاب عزام، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة (الذخائر)، ١٩٩٥.

١٥٨ – مجدة أحمد محمود: وجهة الضبط والاضطراب النفسى، مجلة الخدمة النفسية، جامعة عين شمس، أبريل ٢٠٠٥.

١٥٩ – مجلة الثقافة النفسية المتخصصة (التحرير): بيروت، يناير ٢٠١٠.

١٦٠ – محمد أحمد النابلسى: الصدمة النفسية–علم نفس الحروب والكوارث، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩١.

١٦١ – محمد أحمد النابلسى: سيكولوچية السياسة العربية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٩.

١٦٢ – محمد أحمد النابلسي: جولة في آفاق السيكوسوماتيك، مجلة الثقافة النفسية المتخصصة، بيروت، أبريل ٢٠٠١.

١٦٣ – محمد أحمد النابلسي: مجلة الثقافة النفسية المتخصصة؛ عدد ٤٩ و٥٠، بيروت، يناير ٢٠٠٢ وأبريل ٢٠٠٢.

١٦٤ – محمد أحمد النابلسي: أمراض القلب النفسية، مجلة الثقافة النفسية المتخصصة، بيروت، عدد:٦٥، يناير ٢٠٠٦.

١٦٥ – محمد تيمور: رسالة إلى محرر باب يوميات بجريدة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٩٨٩/٢/١٥.

١٦٦ – محمد حمدى الحجار: العلاج السيكوسوماتى المعرفى، مركز الدراسات النفسية، طرابلس(لبنان)، ٢٠٠٤.

١٦٧ – محمد حمدى الحجار: أثر العوامل الإرثية فى انحرافات السلوك عند الأولاد، الثقافة النفسية المتخصصة، يوليو ١٩٩٩.

١٦٨ – محمد خضر عبد المختار: العنف المدرسى، مجلة علم النفس، القاهرة، عدد:٧٥، سبتمبر ٢٠٠٧.

١٦٩ – محمد سمير فرج: الولاء وسيكولوجية الشخصية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، بإشراف فرج عبد القادر طه، القاهرة، قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ١٩٨٢.

١٧٠ – محمد سمير فرج: سيكولوجية الشخصية المصرية المعاصرة، رسالة دكتوراة (غير منشورة) بإشراف فرج عبد القادر طه، القاهرة، قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ١٩٨٨.

١٧١ – محمد سيد خليل: الفلاح المصرى-دراسة فى شخصية الجماعة، رسالة ماجستير (غير منشورة)، بإشراف فرج عبد القادر طه وقدرى محمود حفنى، القاهرة، قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ١٩٧٩.

١٧٢ – محمد سيد خليل ومجدة أحمد محمود وطه أحمد المستكاوى ومنى حسين أبو طيرة: صورة الذات والآخر، الجزء الأول: الصراع العربى الإسرائيلى، دار الحريرى، القاهرة، ٢٠٠٤.

١٧٣ – محمد سيد طنطاوى: نساء تحدث عنهن القرآن، سلسلة البحوث الإسلامية، الأزهر الشريف، القاهرة، ٢٠٠٥.

١٧٤ – محمد شعير: فرض الحراسة على ثروة رجل أعمال، جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٩/٥/١٨.

١٧٥ – محمد طه: الذكاء الإنسانى، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ٢٠٠٦.

١٧٦ – محمد عابد الجابرى: تطور الفكر الرياضى والعقلانية المعاصرة، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ١٩٧٦.

١٧٧ – محمد عاطف غيث (تحرير ومراجعة): قاموس علم الاجتماع، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩.

١٧٨ – محمد عبد الحكيم: التشخيص المقارن للحالات السيكوباتية، القاهرة، دار المعارف، مجلة علم النفس، مجلد:٤، عدد:٣، ١٩٤٩.

١٧٩ – محمد عماد فضلي: أسرار الطب النفسي، القاهرة، كتاب اليوم الطبي، مؤسسة أخبار اليوم، عدد:٧٩، ١٩٨٨.

١٨٠ – محمد فتحي عيد: الأمان في مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر الحضارة، عدد:٢، ١٩٨٦.

١٨١ – محمد فتحي فرج: التأثيرات الضارة للمسكرات والمخدرات، العلميون، نقابة المهن العلمية، القاهرة، يونيو ٢٠٠٩.

١٨٢ – محمد محمود الهواري: المخدرات؛ من القلق إلى الاستبعاد، قطر، كتاب الأمة، عدد:١٥، ١٩٨٧.

١٨٣ – محمد نبيل عبد الحميد: العلاقات الأسرية للمسنين وتوافقهم النفسي، القاهرة، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧.

١٨٤ – محمد نيازي حتاتة: مشكلة البغاء في الواقع وفي نظر القانون، في أعمال الحلقة الأولى لمكافحة الجريمة، القاهرة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٦١.

١٨٥ – محمود صلاح: صفحة الحوادث بجريدة أخبار اليوم القاهرية، بتاريخ ١٩٨٨/٣/١٩.

١٨٦ – محمود عبد الرحيم غلاب: العلاقة بين ضغوط العمل وكل من الرضا الزواجي والقلق والاكتئاب لدى عينة من الأزواج والزوجات، المجلة المصرية للدراسات النفسية، ع:٣٧، أكتوبر ٢٠٠٢.

١٨٧ – محمود عبد القادر محمد علي: دراسة تجريبية للعوامل التي تتضمنها القدرة الميكانيكية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، بإشراف مصطفى زيور والسيد محمد خيري، القاهرة، قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ١٩٦٣.

١٨٨ – محمود قاسم: المنطق الحديث ومناهج البحث، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠.

١٨٩ – مراد وهبة: المعجم الفلسفي، القاهرة، دار قباء الحديثة، ٢٠٠٧.

١٩٠ – مراد وهبة: مقدمة لكتاب الفراسة عند العرب وكتاب الفراسة للرازي، القاهرة، الدار المصرية السعودية، ٢٠٠٩.

١٩١ – مريد صبحي: جريدة الأهرام القاهرية، صفحة الحوادث، بتاريخ ١٩٨٩/١/٣١.

١٩٢ – مصطفى زيور: فصول في الطب السيكوسوماتي، تمهيد، القاهرة، دار المعارف، مجلة علم النفس، مجلد:١، عدد:١، ١٩٤٥.

١٩٣ – مصطفى زيور: فصول في الطب السيكوسوماتي(٢)، القاهرة، دار المعارف، مجلة علم النفس، مجلد:٣، عدد:١، ١٩٤٧.

١٩٤ – مصطفى زيور: المعرفة والشفاء، القاهرة، مجلة الصحة النفسية، الجمعية المصرية للصحة العقلية، مجلد:١، عدد:١، ١٩٥٨.

١٩٥ – مصطفى زيور: تعلم، في: معجم العلوم الاجتماعية، إشراف إبراهيم مدكور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

١٩٦ – مصطفى زيور: في التحليل النفسي، مختارات الإذاعة، القاهرة، دار الجمهورية (بدون تاريخ).

١٩٧ – مصطفى كامل عبد الفتاح: إدمان، في: موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، إشراف فرج عبد القادر طه، الكويت–القاهرة، دار سعاد الصباح، ١٩٩٣.

١٩٨ – مصطفى كامل عبد الفتاح: وراثة، في المرجع السابق.

١٩٩ – معتز سيد عبد الله وعبد اللطيف محمد خليفة: علم النفس الاجتماعي، القاهرة، دار غريب، ٢٠٠١.

٢٠٠ – معن عبد الباري قاسم: العنف الأسري (المنزلي) في اليمن (مدينة عدن)، المجلة المصرية للدراسات النفسية، ع:٣٠، أبريل ٢٠٠١.

٢٠١ – منى سعيد أبو ناشي: الذكاء الوجداني وعلاقته بالذكاء العام والمهارات الاجتماعية وسمات الشخصية–دراسة عاملية، المجلة المصرية للدراسات النفسية، ع:٣٥، أبريل ٢٠٠٢.

٢٠٢ – منير حسن جمال خليل وأمل محمود السيد الدوه: مقدمة في التعليم العلاجي من المنظور المعرفي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١٠.

٢٠٣ – المؤتمر العربي الأول لمواجهة مشكلة الإدمان، القاهرة، سبتمبر ١٩٨٨، برنامج المؤتمر وملخصات البحوث بمجلة النفس المطمئنة، عدد سبتمبر ١٩٨٨.

٢٠٤ – نادية حسن قاسم: أسس الاختيار للزواج لدى طالبات الجامعة، رسالة ماجستير (غير منشورة)، بإشراف فرج عبد القادر طه، القاهرة، قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ١٩٨٨.

٢٠٥ – نادية حسن قاسم: ديناميات الأمومة والطفولة، رسالة دكتوراة (غير منشورة)، بإشراف فرج عبد القادر طه ونجيه إسحق عبد الله، القاهرة، قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ١٩٩٧.

٢٠٦ – ناصر جويدة: جريدة الأهرام، ١٩٩٩/٧/٢٧ (صفحة الحوادث).

٢٠٧ – نبال الحج محمد ونجوى اليحفوفي: القلق العام والاضطرابات الجسدية لدى المسنين

المتقاعدين والعاملين بعد سن التقاعد، دراسات عربية فى علم النفس، م:٦، ع:٢، أبريل ٢٠٠٧.

٢٠٨ – نجوى اليحفوفى ونبال الحاج محمد: القلق العام والاضطرابات الجسدية لدى المسنين وعلاقتهما ببعض المتغيرات الديمغرافية–الاجتماعية، الثقافة النفسية المتخصصة، م:١٩، ع:٧٥، يوليو ٢٠٠٨.

٢٠٩ – نجوى اليحفوفى ومحمد بسام سكرية: الأحداث الصدمية وعلاقتها باضطراب الضغوط التالية للصدمة والاكتئاب لدى جرحى المقاومة اللبنانية، مجلد أعمال المؤتمر الإقليمى لعلم النفس، رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية، القاهرة، ٢٠٠٧.

٢١٠ – نجية إسحق عبد الله: سيكولوچية البغاء، فى : مجموعة علم النفس الإنسانى، بإشراف فرج عبد القادر طه، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٨٤.

٢١١ – نجية إسحق عبد الله: سيكولوچية الجريمة والفروق بين الجنسين، فى: مجموعة علم النفس الإنسانى، بإشراف فرج عبد القادر طه، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٩٠.

٢١٢ – هايل موسى الأحمد: إعداد صورة أردنية لمقياس وكسلر–بلفيو لذكاء الراشدين والمراهقين واستخدامه فى دراسة الفروق بين الجنسين، رسالة ماچستير (غير منشورة)، بإشراف فرج عبد القادر طه وعبد الرحمن عدس، القاهرة، قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ١٩٨٢.

٢١٣ – هول، كالفين وليندزى، جاردنر: نظريات الشخصية، ترجمة بمراجعة لويس كامل مليكة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨.

٢١٤ – ودويرث، روبرت: مدارس علم النفس المتعاصرة، ترجمة وتعليق كمال دسوقى، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١.

٢١٥ – وليم الخولى: الموسوعة المختصرة فى علم النفس والطب العقلى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦.

٢١٦ – ويلز، هارى: بافلوف وفرويد (ج١)، ترجمة شوقى جلال، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

٢١٧ – ياسر محمد: قصة الساعات الأخيرة.. قبل القبض على نصاب توظيف الأموال، أخبار اليوم القاهرية بتاريخ ٢٠٠٧/١١/١٤.

٢١٨ – يوسف مراد: مبادئ علم النفس العام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٦.

٢١٩ – يوسف مراد: العبقرية والجنون، فى: يوسف مراد والمذهب التكاملى، إعداد وتقديم مراد وهبة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.

٢٢٠ – يوسف مراد: الفراسة عند العرب وكتاب الفراسة لفخر الدين الرازى، ترجمه عن الفرنسية مراد وهبة، القاهرة، الدار المصرية السعودية، ٢٠٠٩.

221 - Alexander, F. & Selesnick, S.: The History of Psychiatry, A Mentor book, 1966.

222 - Allen, L. & Santrock, J.: Psychology, Brown & Benchmark, 1993.

223 - Allport, G. Pattern and growth in personality, Holt, Rinehart and winston, 1961.

224 - Anastasi, A..: Psychological testing, The MaCmillan Company, 1976.

225 - Anastasi, A.: Differential Psychology, In, Encyclopedia of Psychology, Edited by corsini, John Willey and Sons, 1984.

226 - Anastasi, A & Foley, J: Differential Psychology, The MaCmillan Company 1954.

227 - Aronson, E., Wilson, T. & AKert, R.: Social Psychology Pearson Prentice Hall, 2007.

228 - Atkinson, R., et al: Introduction to Psychology, Harcourt Brace-Jovanovich, 1987.

229 - Beard, E.: An Outline of Piajet's Developmental Psychology, A Mentor Book, 1972.

230 - Bernal, J.D.: Science in History (V.4), A Pelican Book, 1969.

231 - Bernstein, D. & Nash, P.: Essentials of Psychology, Houghton Mifflin Company, 2002.

232 - Bruno, F.: Dictionary of Key Words in Psychology, Routledge & Kegan Paul, 1986.

233 - Cattel, R.: General psychology, SCI-Art Publishers, 1947.

234 - Claridge, G.: Drugs and Human Behaviour, A pelican Book, 1972.

235 - Cleckley, H.: Psychopathy: A Basic Hypothesis and Description, in: Contemporary Abnormal Psychology, Edited by B. Maher, Penguin books, 1973.

236 - Corsini, R.: The Dictionary of Psychology , Taylor & Francis, 1999.

237 - Cronbach, L.: Essentials of Psychological Testing, Harper & Row, 1970.

238 - Csikszentmihalyi, M. If we are so Rich why we aren't Happy? American Psychologist, Vol. 54, No. 10, 1999.

239 - Culpin, M.: Mental Abnormality, Facts & Theories, Hutchinson's University Library, London.

240 - Drake, R.: Abnormal Psychology, Littlefield, & Adams Co., 1966.

241 - Drever, J. (Revised by H.Wallerstein): A Dictionary of Psychology, Penguin Books, 1974.

242 - El-Kashishy, H.I: Personality Characteristics Correlates in Drug Abuse, Derasat Nafseyah, October, 1996.

243 - English. H. & English A.: A Comprehensive Dictionary of Psychological and Psychoanalytical terms, Longmans, 1970.

244 - Freedman, J.: Introductory Psychology, Addison Wesley, 1982.

245 - Gilmer, B.: Industrial and Organizational psychology, McGraw-Hill, 1971.

246 - Goldenson, R.: (Editor in Chief), Longman Dictionary of Psychology and Psychiatry, Longman, 1984.

247 - Gottesman, I. & Shields, J.: Shizophrenia Twins, in: The Origins of Abnormal Behavior. Edited by Corah & Gale, Addsion-Wesley Publishing Company, 1971.

248 - Guilford, J.: Psychometric Methods, McGraw-Hill, 1954.

249 - Guilford, J.: Human intelligence, In: Encyclopedia of Psychology, Edited by Corsini, John Willey and Sons, 1984.

250 - Halsey, W. (Editor)' Collier's Dictionary. MaCmillan Cor. (new York), 1977.

251 - Kalat, J.: Biological psychology, Wadsworth, 1984.

252 - Kosslyn. S. & Rosenberg, R.: Psychology, Edncation, Inc., Pearson, 2004.

253 - Lahey, B.: Psychology: An Introduction, McGraw-Hill, 2001.

254 - Lambert, W. et al.: Reinforcement and Extinction as Factors in Size Estimation, In: Readings for an Introduction of Psychology, Edited by R. King, McGraw-Hill, 1966.

255 - Levanway, R.: Advanced General psychology, Davis Company, 1972.

256 - Mace, C.: The Psychology of Study, A Pelican Book, 1968.

257 - Morgan, C., et al: Introduction to psychology, McGraw-Hill, 1986.

258 - Platonov, K.: Psychology as you May Like it, Progress Publishers, Moscow, 1965.

259 - Portnov, A. & Fedotov, D.: Psychiatry, Mir Publishers, Moscow, 1969.

260 - Price. R. et al.: Principles of Psychology, Holt-Saunders International Editions. 1985.

261 - Rachlin, H.: Skinner, B.F., In. Collier's Encyclopedia (V.21), Edited by W. Halsy and E. Friedmann, Collier, Inc., 1980.

262 - Rapport, D. et al.: Diagnostic psychological Testing, International Universities Press, Inc., 1972.

263 - Rathus, S.A.: Ps;ychology, Principles in Practice, Holt, Rinehart and Winston. 2003.

264 - reber. A. The Penguin Dictionary of Psychology, Penguin Reference Books, 1987.

265 - Richards, G.: Psychology-The Key Concepts, Routledge, 2009.

266 - Rosenthal, M. & Yudin, P.: A Dictionary of Philosophy, Progress publishers (Moscow), 1967.

267 - Rubin Z. & McNeil B.: The Psychology of being Human, Harper & Row. 1979.

268 - Sahakian, W.: (Editor), Psychology of Presonality: Readings in Theory, Rand McNally College Publishing company, 1977.

269 - Seligman, M. Csikszentmihalyi, M.: Positive Psychology, American psychologist, V.55, N.1, 2000.

270 - Simon C. & Emmons W.: Responses to Material Presented during Various Levels of Sleep, In: Readings for an Introduction to psychology, Edited by R. King, McGraw Hill, 1966.

271 - Stagner. R.: psychology of Personality. McGraw-Hill 1961.

272 - Storr. A.: Human Aggression, Pelican Books, 1985.

273 - Sutherland, S.: MaCmillan Dictionary of psychology, MaCmillan Reference Books, 1989.

274 - Taha, Farag A.: Does Mankind Really Search for Peace? A Psychological View, A Paper Read in The 8th International Congress of Cross-Cultural Psychology. Istanbul. 1986 (Abstracts, P.30).

275 - Tang. T.L. & Ibrahim, A. Safwat: Importance of Human Needs during Retrospective Peacetime and the Persian Gulf War International Journal of Stress, Management, 5 (1), 1998, 25-37.

276 - Terman, L.: Psychological Approaches to the Biography of Genius, In: Creativity. Edited by Vernon, P., Penguin Books, 1975.

277 - Tomkins. S.: The Thematic Apperception Test, Grune & Stratton, 1947.

278 - Underwood, B.: Interference and Forgetting, In: Readings for an Introduction to Psychology, Edited by R. King, McGraw-Hill, 1966.

279 - Wade, C. & Tavris, C.: Invitation to psychology, Prentice Hall, 2008.

280 - Watson, J.B.: Behaviorsim, Norton & Company, 1970.

281 - Watson, R. & Evan, R.: The Great Psychologists, Harper Collins Publishers, 1991.

282 - Wingare, P.: The Penguin Medical Encyclopedia, Penguin Reference Books, Penguin Books, 1972.

283 - Woodworth, R.S. & Marquis, D.G,: Psychology, Methuen & Co. LTD, 1968.

284 - World Health Organization: Lexicon of Cross-Cultural Terms in Mental Health, Geneva, 1997.

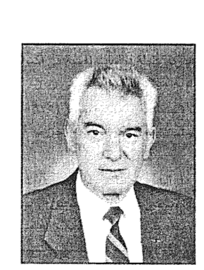
285 - Wright, D. S. et al.: Introducing Psychology: An Experimental Approach, Penguin Books, 1970.

286 - Viney, W. & King, D.B.: A History of Psychology: Ideas and Context, Allyn and Bacon, 2003.

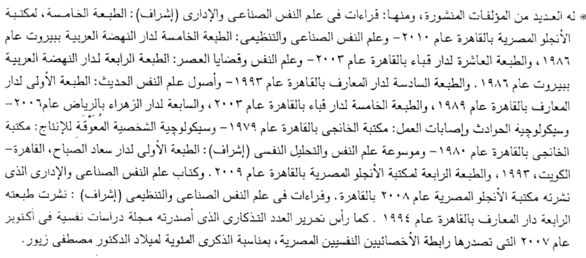
287 - Zimbardo, P. G.: Psychology and Life: Harper Collins Publishers, 1992.

تم بحمد الله

د. فرج عبد القادر طه



* من مواليد مايو عام ١٩٣٧ (قرية فيشا الصغرى- مركز الباجور-محافظة المنوفية).
* ليسانس في علم النفس (١٩٥٩)، وماجستير في علم النفس (١٩٦٥)، ثم دكتوراة في علم النفس (١٩٦٨)؛ وذلك من قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس.
* مدرس علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس منذ عام ١٩٦٩.
* يعمل حاليًا أستاذا لعلم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس. كما كان رئيساً سابقاً للقسم.
* له العديد من المقالات الثقافية، والبحوث العلمية التي نشرت في المجلات والدوريات المصرية والعربية والأجنبية.



* له العديد من المؤلفات المنشورة، ومنها: قراءات في علم النفس الصناعي والإداري (إشراف): الطبعة الخامسة، لمكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة عام ٢٠١٠- وعلم النفس الصناعي والتنظيمي: الطبعة الخامسة لدار النهضة العربية ببيروت عام ١٩٨٦، والطبعة العاشرة لدار قباء بالقاهرة عام ٢٠٠٣- وعلم النفس وقضايا العصر: الطبعة الرابعة لدار النهضة العربية ببيروت عام ١٩٨٦. والطبعة السادسة لدار المعارف بالقاهرة عام ١٩٩٣- وأصول علم النفس الحديث: الطبعة الأولى لدار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٩، والطبعة الخامسة لدار قباء بالقاهرة عام ٢٠٠٣، والسابعة لدار الزهراء بالرياض عام٢٠٠٦- وسيكولوجية الحوادث وإصابات العمل: مكتبة الخانجي بالقاهرة عام ١٩٧٩- وسيكولوجية الشخصية المعوقة للإنتاج: مكتبة الخانجي بالقاهرة عام ١٩٨٠- وموسوعة علم النفس والتحليل النفسي (إشراف): الطبعة الأولى لدار سعاد الصباح، القاهرة- الكويت، ١٩٩٣، والطبعة الرابعة لمكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة عام ٢٠٠٩. وكتاب علم النفس الصناعي والإداري الذي نشرته مكتبة الأنجلو المصرية عام ٢٠٠٨ بالقاهرة. وقراءات في علم النفس الصناعي والتنظيمي (إشراف) : نشرت طبعته الرابعة دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٩٤ . كما رأس تحرير العدد التذكاري الذي أصدرته مجلة دراسات نفسية في أكتوبر عام ٢٠٠٧ التي تصدرها رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية، بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد الدكتور مصطفى زيور.

* شارك في الاشراف على بحث سيكولوجية السائق الذي قام به المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بمصر (١٩٧٥)، وعلى بحث «التورط في المخدرات: دراسة نفسية في مصر» الذي قامت به الأمم المتحدة مع مركز مكافحة الجريمة في المملكة العربية السعودية في مصر (١٦٩٠).

اشترك ببحوثه في عدة مؤتمرات علمية محلية وعربية وعالمية؛ منها بحثه عن علم النفس الصناعي في مصر؛ والذي عرضه بالمؤتمر الدولي العشرين لعلم النفس التطبيقي (أدنبره باسكتلندا عام ١٩٨٢). وبحثه عن أحلام المكفوفين؛ والذي ألقاه بالمؤتمر الدولي الثالث والعشرين لعلم النفس (أكابولكو بالمكسيك عام ١٩٨٤)، وبحثه عن علم النفس والسلام العالمي؛ والذي ألقاه بالمؤتمر الدولي الثامن لعلم النفس عبر الثقافي (استانبول بتركيا عام ١٩٨٦)، وبحثه عن الصحة النفسية والكفاية الإنتاجية لعمال الصناعة؛ والذي ألقاه في المؤتمر الدولي للصحة النفسية الذي عقد بالقاهرة عام ١٩٨٧.

* عضو بعدة جمعيات علمية محلية وعالمية.
* نائب ثم رئيس الجمعية المصرية للدراسات النفسية (١٩٩٤-٢٠٠٠).
* عضو مجلس إدارة الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقي "IAAP"، (١٩٨٤-١٩٩٤).
* اُختير منذ عام ١٩٨٦ خبيراً لعلم النفس بمجمع اللغة العربية.
* رئيس تحرير مجلة دراسات نفسية التي تصدر عن رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية (١٩٩٦-١٩٩٩).
* اُختير منذ عام ١٩٩٦ عضواً بالمجمع العلمي المصري.

- حصل في عام ١٩٩٨ على جائزة زيور التي تمنحها لبنان كل عام لواحد من علماء النفس أو الطب النفسي في العالم العربي.

أصول علم النفس الحديث

هذا الكتاب

يسعدنا أن نقدم لقراء العربية كتابنا الرابع
للدكتور فرج عبد القادر طه
عن "أصول علم النفس الحديث" فى طبعته الثامنة
المعدَّلة والمحدَّثة حتى مراجع هذا العام [٢٠١٠]

ويتناول الكتاب السلوك الإنسانى ونظرياته، ودوافعه ومحركاته وديناميات، كما يتناول الشخصية الإنسانية وكيفية دراستها العلمية فى خصوصياتها، وآمالها، ومخاوفها، وذكائها وقدراتها، واضطراباتها وانحرافاتها، وأمراضها وسوائها، ودور كل من الوراثة والبيئة فى تشكيلها وطبعها بطابع معين يميزها عن غيرها ... إلخ. وفى نهاية الكتاب نجد بعض المقتطفات من تعليقات بعض الصحف والمجلات العلمية والثقافية عن الكتاب فى طبعاته السابقة، منذ بدأت نشره دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٩ .

أما المؤلف، فهو أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس منذ عام ١٩٦٩، وقد شغل بصفته الشخصية مكانة عالمية فى تخصصه لمدة عشرة أعوام [١٩٨٤-١٩٩٤]، حيث اختارته الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقى- [IAAP] عضوًا بمجلس إدارتها، وتعتبر ثانى أهم جمعية دولية لعلم النفس فى العالم، فكان بذلك أول عالم نفس عربى يفوز بعضوية مجلس إدارتها ... العلمية، وتقديرا لها. كما أنه عضو المجْمع العلمى المص... النفس بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمشرف على موسو... والتحليل النفسى" التى قمنا فى العام الماضى [٢٠٠٩] بنشر...









مكتبة الأنجلو المصرية
THE ANGLO-EGYPTIAN BOOKSHOP
The World of Words & Thoughts
www.anglo-egyptian.com